

جيامباتيستا فيكو

العلم الجديد

في الطبيعة المشتركة لكل الأمم

ترجمة

د. أحمد الصمعي

جيامبتّيستا فيكو

العلم الجديد

مبادئ علم جديد حول الطبيعة المشتركة للأمم

ترجمة وتقديم

د. أحمد الصمعي


العلم الجديد

هذا الكتاب صادر عن مشروع «مدّ» للترجمة الذي تقوم عليه دار أدب للنشر والتوزيع ضمن مبادرة إثراء المحتوى إحدى مبادرات مركز الملك عبد العزيز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإيطالية لكتاب:

La Scienza nuova 1744
By
Giambattista Vico

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ⓒ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيكو، جيامبتيستا.

العلم الجديد. / جيامبتيستا فيكو؛ أحمد الصمعي - ط١. . - الرياض، ١٤٤٤هـ

٧١٢ ص؛ المقاس ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٦-٩١٨٠٨-٦٠٣-٩٧٨

١- علم ما وراء الطبيعة أ. الصمعي، أحمد (مترجم) ب. العنوان

ديوي ١١٠ ١٤٤٢/٧٩٣

رقم الإيداع: ٧٩٣/ ١٤٤٢

ردمك: ٩-٦-٩١٨٠٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ = ٢٠٢٢م



info@adab.com ● adab.com ● @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

المحتويات

مقدمة بقلم: د. عبد الله السفياني ١١

مقدمة المترجم ١٧

[فكرة عن العمل]: شرح الرسم الموضوع في مستهلّ الكتاب ليكون تقديمًا لهذا العمل ٤٧

الكتاب الأوّل: في تحديد المبادئ ٧٩

الجدول الزمني ٨١

[القسم الأوّل]: ملحوظات حول الجدول الزمني وفيه يتمّ تنظيم الموادّ ٨٧

[القسم الثاني]: في العناصر ١٣٣

[القسم الثالث]: في المبادئ ١٨٣

[القسم الرابع]: في المنهج ١٨٩

الكتاب الثاني: في المعرفة الشعريّة ١٩٩

[تمهيد] ٢٠١

[الباب الأوّل]: في المعرفة بصفة عامّة ٢٠٣

[الباب الثاني]: في المعرفة الشعريّة وتصنيفها ٢٠٧

[الباب الثالث]: في الطوفان العظيم والجبابرة ٢٠٩

[القسم الأول]: [الميتافيزيقا الشعريّة] ٢١٥

[الباب الأوّل]: في الميتافيزيقا الشعريّة ومنها يأتينا أصل الشعر وعبادة الأوثان والعرافة والقرابين ٢١٧

[الباب الثاني]: استنتاجات حول الجوانب الرئيسيّة لهذا العِلم ٢٢٥

[القسم الثاني]: [المنطق الشعري] ٢٣٣

[الباب الأوّل]: في المنطق الشعري ٢٣٥

[الباب الثاني]: استنتاجات حول الصور المجازية والوحوش والتحوّلات الشعريّة ٢٣٩

[الباب الثالث]: استنتاجات حول اللغة ذات الرموز الشعريّة عند الأمم الأولى ٢٤٥
[الباب الرابع]: استنتاجات بخصوص نشأة اللغات والحروف ومن ثَمّ نشأة الهيروغليفيّات والشرائع والأسماء والشعارات النبيلة والميداليات والعملة، وكذلك حول اللغة الأولى والأدب وقانون الناس الطبيعي ٢٥٣
[الباب الخامس]: استنتاجات حول نشأة القول الشعري، والاستطراد، والقلب والعدد، والإنشاد، والعروض ٢٧٥
[الباب السادس]: استنتاجات أخرى سبقت الإشارة إليها في البداية ٢٨٣
[الباب السابع]: استنتاجات أخيرة بخصوص منطق المتعلّمين ٢٩٣
[القسم الثالث]: [الأخلاق الشعريّة]........................ ٢٩٧
[القسم الرابع]: [الاقتصاد الشعري]........................ ٣٠٩
[الباب الأوّل]: في الأَسَر التي كانت لا تضمّ في البداية إلّا الأبناء........ ٣١١
[الباب الثاني]: في الأُسَر المتكوّنة من الخدم التي تشكّلت قبل المدن، والتي من دونها ما كان يُمكن للمدن أن تنشأ.......... ٣٣٣
[الباب الثالث]: إستنتاجات بخصوص العقود التي تتمّ بمجرّد التراضي ٣٤٥
[الباب الرابع]: القياس الميثولوجي ٣٤٩
[القسم الخامس]: [السياسة الشعريّة] ٣٥١
[الباب الأوّل]: في السياسة الشعريّة وبها نشأت الجمهوريّات الأولى التي كان شكلها أرستقراطيًّا بحتًا ٣٥٣
[الباب الثاني]: جميع الجمهوريّات نشأت من بعض المبادئ الإقطاعيّة السرمديّة ٣٦٧
[الباب الثالث]: في أصل الضريبة والخزينة العموميّة................ ٣٧٩
[الباب الرابع]: في أصل الشُعب الناخبة الرومانية ٣٨٣

[الباب الخامس]:استنتاج بخصوص العناية الإلهية التي تنظم الجمهوريّات وبخصوص قانون الناس الطبيعي ٣٨٧
[الباب السادس]: تابع لسياسة الأبطال ٣٩٣
[الباب السابع]:استنتاجات خاصّة بالشؤون الرومانية القديمة، وبالخصوص بالحريّة الشعبيّة المزعومة التي أقرّها يونيوس بروتُس ٤١١
[الباب الثامن]: استنتاج خاصّ ببطوليّة الشعوب الأولى ٤١٥
[القسم السادس]: التاريخ الشعري ٤٢٣
[باب وحيد]: خلاصة التاريخ الشعري ٤٢٥
[القسم السابع]: الفيزياء الشعريّة ٤٢٩
[الباب الأوّل]: في الفيزياء الشعريّة ٤٣١
[الباب الثاني]: في الفيزياء الشعريّة الخاصّة بالإنسان أو في الطبيعة البطوليّة ٤٣٥
[الباب الثالث]: استنتاج بخصوص الأحكام البطوليّة ٤٤١
[الباب الرابع]: استنتاج بخصوص الأوصاف البطوليّة ٤٤٣
[الباب الخامس]: استنتاج بخصوص العادات البطوليّة ٤٤٥
[القسم الثامن]: الكسموغرافيا الشعريّة ٤٤٧
[باب وحيد]: في الكسموغرافيا الشعريّة ٤٤٩
[القسم التاسع]: علم الفلك الشعري ٤٥٩
[الباب الأوّل]: في الفلك الشعري ٤٦١
[الباب الثاني]: البرهان الفلكي الفيزيائي على تماثل المبادئ لدى جميع الأمم الوثنيّة القديمة ٤٦٣
[القسم العاشر]: الكرونولوجيا الشعرية ٤٦٧
[الباب الأوّل]: في التسلسل الزمني الشعري ٤٦٩
[الباب الثاني]: المعيار الزمني لتحديد بدايات التاريخ الكوني السابقة لملكيّة نينوس التي وقع ضبط بداية التاريخ الكوني انطلاقًا منها ٤٧٣

[القسم الحادي عشر]: الجغرافيا الشعريّة ٤٧٧
[الباب الأوّل]: في الجغرافيا الشعريّة ٤٧٩
[الباب الثاني]: استنتاج بخصوص مجيء إينياس إلى إيطاليا ٤٨٩
[الباب الثالث]: في تسمية وفي وصف المدن البطوليّة ٤٩٣
[خلاصة].. ٤٩٧
الكتاب الثالث: اكتشاف هوميروس الحقيقي ٤٩٩
[القسم الأوّل]: البحث عن هوميروس الحقيقي.......................... ٥٠١
[الباب الأوّل]: في المعرفة الباطنيّة المنسوبة إلى هوميروس............ ٥٠٣
[الباب الثاني]: حول موطن هوميروس ٥٠٩
[الباب الثالث]: حول عصر هوميروس ٥١١
[الباب الرابع]: في سموّ موهبة هوميروس الشعريّة البطوليّة ٥١٥
[الباب الخامس]: براهين فلسفيّة لاكتشاف هوميروس الحقيقي ٥١٩
[الباب السادس]: البراهين الفقهيّة لاكتشاف هوميروس الحقيقي......... ٥٢٩
[القسم الثاني]: اكتشاف هوميروس الحقيقي........................... ٥٣٩
[تمهيد]... ٥٤١
[الباب الأوّل]: ما هو غير لائق وغير معقول بخصوص ما كان يُعتقد إلى حدّ الآن أنّه هوميروس يصير لدى هوميروس المُكتشف هنا منطقيًّا وضروريًّا.. ٥٤٣
[الباب الثاني]: ملحمتا هوميروس تمثّلان كنزيْن عظيميْن من القانون الطبيعيّ للأقوام الإغريقيّة ٥٥١
[ملحق]: التاريخ المُعقلن للشعراء المسرحيّين والغنائيّين................. ٥٥٣
الكتاب الرابع: في المسار الذي تنتهجه الأمم ٥٥٩
[تمهيد] ٥٦١
[القسم الأوّل]: ثلاثة أنواع من الطبائع ٥٦٣
[القسم الثاني]: ثلاثة أنواع من العادات ٥٦٥

[القسم الثالث]: ثلاثة أنواع من القوانين الطبيعيّة ٥٦٧
[القسم الرابع]: ثلاثة أنواع من الحكومات ٥٦٩
[القسم الخامس]: ثلاثة أنواع من اللغات ٥٧١
[القسم السادس]: ثلاثة أنواع من الحروف........................ ٥٧٣
[القسم السابع]: ثلاثة أنواع من الشرائع ٥٧٧
[القسم الثامن]: ثلاثة أنواع من السلطة ٥٧٩
[القسم التاسع]: ثلاثة أنواع من الحقوق ٥٨٣
[الباب الأوّل]: [حقّ الرب وحقّ الدولة] ٥٨٥
[الباب الثاني]: استنتاج: في الحكمة السياسية لدى الرومان القدامى ٥٨٧
[الباب الثالث]: استنتاج: في التاريخ الأساسيّ للقانون الروماني.......... ٥٩١
[القسم العاشر]: أنواع ثلاثة من الأحكام ٥٩٥
[الباب الأوّل]: [النوع الأوّل: الأحكام الإلهية]........................ ٥٩٧
[الباب الثاني]: استنتاج: في المبارزات والقصاص ٦٠١
[الباب الثالث]: [النوع الثاني: الأحكام العادية] ٦٠٥
[الباب الرابع]: [النوع الثالث من الأحكام: الأحكام البشريّة].......... ٦١١
[القسم الحادي عشر]: أحقاب ثلاث من الزمن ٦١٣
[باب وحيد]: [حقبة الأزمنة الدينيّة والمتشدّدة والمدنية] ٦١٥
[القسم الثاني عشر]: براهين أخرى مستمدّة من خصوصيّات الأرستقراطيّات البطوليّة ٦١٧
[تمهيد]........................ ٦١٩
[الباب الأوّل]: حفظ الحدود........................ ٦٢١
[الباب الثاني]: حفظ الأنظمة........................ ٦٢٥
[الباب الثالث]: في حفظ الشرائع ٦٣٥
[القسم الثالث عشر]: قرائن أخرى مستمدّة من طبيعة الجمهوريّات في امتزاج حكمها بحكم الجمهوريّات التي سبقتها ٦٣٩

[الباب الأوّل]: امتزاج أشكال الحكم........................ ٦٤١
[البـاب الثانـي]: شـريعة ملكيّـة طبيعيّـة وسـرمديّة تهنـأ بهـا الأمـم فـي ظلّ الحكم الملكيّ.. ٦٤٥
[البـاب الثالـث]: تفنيـد مبـادئ النظريّـة السياسـيّة القائمـة علـى نظـام جان بودان ٦٤٧
[القسم الرابع عشر]: القرائن الأخيرة التي تثبت هذا المسار للأمم ٦٥٣
[الباب الأوّل]: [القصاص، الحروب، نظام الأرقام]........................ ٦٥٥
[البـاب الثانـي]: اسـتنتاج القانـون الرومانـي القديـم كان قصيـدًا جدّيًـا والتشـريع القديـم كان شـعرًا صارمًـا فيـه رسـم أوّلـي للميتافيزيقـا القانونيّة. وكيف أنّه لدى الإغريق نشأت الفلسفة من الشرائع ٦٥٩
[الكتاب الخامس]: تكرار المسار الإنسانيّ في الانبعاث الجديد للأمم.......... ٦٦٩
[تمهيد] ٦٧١
[البـاب الأوّل]: [تاريـخ البربريّـة الحديثـة علـى ضـوء تكـرار تمشّـي البربريّة الأولى].. ٦٧٣
[البـاب الثانـي]: [تكـرار تمشّـي الأمـم علـى أسـاس طبيعـة الإقطاعـات السـرمديّة، وتبعـا لـه عـودة القانـون الرومانـي القديـم فـي القانـون الإقطاعي].. ٦٧٩
[البـاب الثالـث]: وصـف عالـم الأمـم القديـم والحديـث حسـب رسـم مبادئ هذا العلم ٦٩٧
خاتمـة العمـل: حـول جمهوريّـة سـرمديّة طبيعيّـة، تكـون الأفضـل فـي كلّ نـوع من أنواعها، وتدبّرها العناية الإلهية. ٧٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم:
د. عبد الله السفياني

لكل كتاب حكاية تُروى حينًا وتطوى أحيانًا أخرى، وكتاب فيكو في الإيطالية له حكايته المؤثرة التي ستقرؤها في مقدمة المترجم في هذا الكتاب، ولترجمته أيضًا حكاية نحاول أن نرويها قبل أن تُطوى.

حين شرعنا في مشروع الترجمة وأردنا أن نضع اسمنا مع أسماء أسهمت في مد جسور الحضارة بين الأمم في العالم العربي، كان أحد الهواجس الملحة هو الوصول إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه من تراث الأمم وإنتاجهم المعرفي، ومما لم تصله أقلام المترجمين، على أن يكون إضافة علمية وثقافية حقيقية.

كان التواصل بيني وبين عدد كبير من الأصدقاء المعنيين بالثقافة والمعرفة كثيرًا ودائمًا ولا يكاد ينقطع، وفي أحد اتصالاتي مع الصديق الشاعر القريب/ محمد عبدالباري كنا نستعرض مجموعة من عناوين الكتب فكان من اقتراحاته كتاب العلم الجديد لفيكو الإيطالي، ولم يدُر بخلدي وقتها أن كتابه لم يترجم رغم تكرار اسمه واسم كتابه في كثير من الكتابات المعنية بالتاريخ وفلسفته وبالأساطير وتأويلاتها، وكان عبدالباري جازمًا بعدم ترجمة الكتاب ومتحمسًا له كثيرًا.

حينها شرع فريق العمل وأنا معهم للبحث عن كل أثر يمكن أن يدل على وجود الكتاب في الثقافة العربية، وكانت المفاجأة أن الكتاب حقًّا لم يُترجم، فازداد الحماسُ وبلغ درجات لا حدود لها، فكتاب فيكو رغم صعوبته وما يُقال عنه يظل من الكتب المؤسِّسة والمؤثرة في الخطاب الفلسفي الغربي وثقافته ونهضته.

بعد ذلك تأتي الصعوبات الحقيقية التي ستقف أمامنا من أجل ترجمة هذا العمل الموسوعي العظيم، وأول الصعاب والعقبات يتمثل في مَن يترجم هذا العمل؟ وكانت

الأسماء العربية التي تترجم عن الإيطالية متوفرة رغم قلتها، ولكن الكتاب للأسف مكتوب بلغة إيطالية قديمة تختلف كثيرًا عن الإيطالية المعاصرة، وكنا نستعرض أسماء المترجمين الرائعين عن الإيطالية الذين اعتذر بعضهم بهذا السبب أو بغيره.

كان من أهم الأسماء التي بين أيدينا اسم الدكتور: أحمد الصمعي، وقد اجتمع الرأي بيني وبين محمد عبدالباري والصديق الموهوب صاحب اللغات المتعددة الأستاذ نواف البيضاني أن الدكتور الصمعي هو الأنسب والأقرب لترجمة هذا الكتاب. حينئذ عزمت على التواصل معه شخصيًا متجاوزًا الطريقة المعتادة في أدب؛ بُغية أن أحظى بموافقته بعد أن أجهد نفسي في إقناعه بالعمل.

كان رد الدكتور الصمعي الأول على رسالتي محايدًا ومربكًا لي على الأقل، فقد طلب مهلة لينظر في الأمر ويروّي فيه، ولكنني تخوفت كثيرًا وتوقعت عدم موافقته بادي الأمر.

وبعد قرابة أسبوع وصل الرد غير المتوقع يحمل حماسًا يشبه حماسنا للكتاب، وأن لديه الرغبة في ترجمة هذا الكتاب المهم واقتران اسمه به، وهنا كانت الفرحة غامرة، وشرعنا في نقاش مطول ومستفيض ثلاثتنا -الدكتور الصمعي وأنا والأستاذ نواف البيضاني- حول النسخة التي يمكن اعتمادها في الترجمة، وكانت سياستي أن أترك للمترجم كامل الحرية فيما يراه مناسبًا دون أي مضايقات لإدراكي بأن ذلك سيسهل مهمته وعمله، كنا في أدب على عجلة من أمرنا «ربما عجلة الشباب»! في ظهور الكتاب ونطمع أن ينتهي المترجم منه خلال ٦ إلى ٨ أشهر، ولكن المترجم كان حازمًا معنا في رأيه منذ البداية وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينهي ترجمة هذا السفر في هذا الوقت وأنه يحتاج إلى وقت قد يمتد إلى سنة ونصف السنة، ولم يكن لنا من بد بعد ذلك إلا الاستجابة لطلب المترجم وإخراج الكتاب كليًا من الخط الزمني في خطة النشر لدار أدب؛ بحيث يعامل بطريقة خاصة تضمن جودته وعدم تعثره، وذلك فعلًا ما كان.

قررنا عدم إزعاج المترجم بالمتابعة اللصيقة للسؤال عن الكتاب -رغم أن ذلك يخالف سياسة الدار في المتابعة- وإعطاءه فسحة من الوقت تمنحه استقرارًا نفسيًا بعيدًا عن أي ضغط قد يعكر الصفو فينعكس ذلك سلبًا على العمل.

وحين تلقيت الجزء الأول من العمل وبدأت أقلب النظر فيه أدركت فعلًا حقيقةَ الصعوبات التي تحدث عنها المترجم وأن الوقت المقدر من قبلنا سابقًا كان مجازفة، وعليه سار العمل ببطء متناهٍ، وتعاون مشترك، وأدركت حقًّا حجم الجهد الذي بذله الدكتور الصمعي في هذا العمل شديد التعقيد في لغته واستدراكاته واعتراضاته وجمله الوصفية المطولة والمتداخلة وإحالاته التي لا حصر لها! وامتلائه بجمل كثيرة عن اليونانية واللاتينية التي احتاجت للترجمة من قبلنا.

كنا قد تعهدنا للدكتور الصمعي بأن نبذل كل ما في وسعنا لتسهيل العمل وتقديم كل الدعم والمساعدة؛ ومن ذلك الإسهام في ترجمة ما يحتاج لترجمة من اليونانية واللاتينية، وكذلك تحرير الكتاب والعناية به على نحو خاص.

ولم يكن أمامي لتولي مهمة الترجمة عن اللاتينية واليونانية سوى الصديق المشارك في مهمة تذليل الصعاب الأستاذ/ نواف البيضاني، وتوليت أنا قراءة الترجمة العربية تباعًا وتكرارًا لتحرير ما يحتاج إلى تحرير، ووضع استفسارات حول بعض الفقرات التي قد تُشْكل على قارئ عربي مثلي، وإضافة بعض الهوامش التي كنتُ أرى أنه لا بد منها بعد اعتماد ذلك من الصديقين.

دفعت بالجزء الأول للصديق نواف وفي ذهني البحث عن مترجم آخر يراجع الترجمة مع الدكتور الصمعي، ولكن بعد فترة ليست بالقصيرة وصلت مراجعة الأستاذ/ نواف البيضاني وفيها راجع الترجمة الإيطالية بموهبته الفريدة، واقترح عددًا من الاقتراحات التي لاقت قبولًا واستحسانًا جميلًا من مترجمنا القدير الذي غمرنا بلطف تواضعه ونبل أخلاقه، ورغم تباعدنا فيزيائيًا إلا أننا كنا ندرك أحاسيس بعض ونترقب فصول الكتاب وأخباره ومراجعاته واستشكالاته، إلى أن انقضت السنتان وأكثر في جهد وعمل متراكم وملفات ترِد وأخرى تصدر، حتى يسر الله الأمر واتضح الصبح، وظهرت الترجمة تتصدرها مقدمة ضافية كتبها أستاذنا الدكتور الصمعي، وقد غمرنا فيها كذلك بلطفه وأدبه وإطرائه الجميل، ونحن هنا لا يمكن إلا ندين بالفضل كله لله وحده، ثم للجهد الخارق الذي بذله المترجم والذي سيدركه كل من يقرأ الكتاب ويلمس بنفسه هذه الصعوبات، وأنه لم يتصدَّ لها إلا رجل ذو خبرة طويلة وعمل دؤوب وصبر كبير ونفس طويل، بارك الله في علمه وعمله.

وكذلك لا يمكن أن أنسى الروح الأخوية للصديق المقرب والقارئ الكبير ومحب اللغات الأستاذ نواف البيضاني، الذي طيلة هذه الفترة كان متحملًا وصابرًا على كثرة اتصالاتي واستفساراتي وملاحقته بغية إنجاز العمل، وكان رغم كثرة عمله وسفره وانشغاله جوادًا معطاءً مبادرًا بطريقة لا يمكن أن تفسرها إلا بالشغف الكبير لحب العلم والمعرفة.

وهنا أسجل الشكر للصديق الأول الذي دلنا على هذا الكنز، وكان من شدة حماسه لا ينقضي شهر أو شهران إلا وهو يسألنا عن الكتاب وآخر تطوراته وكأنه يسأل عن صديق عزيز عليه، ذلكم هو الشاعر والقارئ الكبير الأستاذ/ محمد عبدالباري.

وأخيرًا لا يعني حديثي هنا أننا بلغنا الكمال وذروته؛ لأننا ندرك تمام الإدراك أن العمل كغيره جهد بشري اعترانا فيه الكثير من الخطأ والخلل والتقصير، ولكننا نُعَزِّي أنفسنا في كل حين بأننا قدمنا أكثر ما في وسعنا، وحرصنا كلَّ الحرص على أن ندقق قدر المستطاع، مدركين كذلك أن القراء سيجدون هفواتٍ لن يخلو منها العمل، وأخطاءً هي ضربة لازب، ولكننا نعول كثيرًا على حدسهم وحسهم وخلقهم في ستر ما يرونه من ذلك والتماس العذر لنا، وموافاتنا بمراجعاتهم ونقدهم واقتراحاتهم، وسيكون لها موضع التقدير والإفادة منها في تطوير العمل وتجويده في طبعات لاحقة.

وهذا الكتاب سيستفيد منها نوعان من القراء:

- قارئ له إلمام جيد أو واسع بالثقافة الغربية وحضارتها، خاصة ما يتعلق بأساطيرها وشخصياتها المتعددة؛ لأن الكتاب محوره الأساس هو تحليل رموز الأساطير بطريقة بديعة، وقد حاولنا أن نعرف بكثير منها قدر المستطاع حتى لا نُثقل الكتاب بالهوامش.

- قارئ قد لا يكون على اطلاع على هذه الأساطير واللغات وتاريخ الغرب بشكل جيد، ولكنه قارئ حصيف يجد في طريقة فيكو التحليلية وفكه للرموز ووضعه للأسس والمبادئ والمسلَّمات واستخدامها في بناء النماذج ما يثري عقله، وينمي موهبته، ويفجر كوامن إبداعه، إذا قُرن ذلك بمزيد من التركيز والتكرار.

وختامًا لا أنسى أن أسجِّلَ شكري وتقديري لمركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي (إثراء)، فلهم ولكل العاملين فيه تحياتنا وشكرنا الدائم.

ونسأل الله التوفيق والسداد فيما رمنا متوكلين عليه أولًا وآخرًا..

د. عبد الله بن رفود السفياني

adab@adab.com

تقديم

لم تكن حياة فيكو متيسّرة ولا سعيدة. وُلد سنة ١٦٦٨ بنابولي من عائلة متوسّطة الحال. كان أبوه كتُبيًا فقيرًا نزيه الأخلاق، وكان الطفل ذا حيويّة كبيرة وفطنة نادرة جعلت الجميع يُعجب به في سنواته الأولى بالمدرسة، إلّا أنّ سقطة قويّة تسبّبت له في ارتجاج دماغي وهو بسنّ السابعة، وظنّ الجميع أنّه لن ينجو من الموت. كان رأي الطبيب الذي أسعفه أنّه حتّى وإن نجا من الموت فإنّه سيبقى ضعيف العقل مغفّلاً. ولكن فيما تلا من حياة صاحبنا فنّدت صروف الدهر رأي الطبيب ولم يمت فيكو كما أنّه لم يصبح غبيًا بل توقّد ذهنه أكثر وتنامى ذكاؤه كما لو أنّ عقله أراد أن يعوّض عليه ما خسره في بدنه على إثر سقوطه، والشيء الوحيد الذي فقده فعلاً هو الحبور ومتعة الألعاب والاختلاط بالآخرين، فانزوى بنفسه وكرّس كلّ جهوده للدرس. حين عاد إلى المدرسة بعد ثلاث سنوات من العلاج لاحظ الأب أن الطفل لا يقضّي الوقت الذي يمضيه بالبيت في مراجعة دروسه فكان يؤنّبه على ذلك ودفعه القلق على الولد أن اتّصل بمعلّمه لمعرفة إن كان ابنه يقوم بواجباته المدرسيّة وبفروضه على أحسن وجه، فكان جواب المعلّم أنّ تلميذه يستوعب سريعًا كلّ ما يتعلّمه وأنّه راض عنه تمام الرضى. أدرك آنذاك والده أنّ الطفل متفوّق على الآخرين وطلب من المعلّم أن يضاعف له الفروض المدرسيّة حتّى لا يبقى دون عمل في البيت، فكان ردّ المعلّم أنّه لا يمكنه ذلك والأفضل هو أن يمرّ إلى مستوى أعلى من التعليم فعبّر فيكو لتوّه عن رغبته في ذلك متعهّدًا بالقيام بمفرده بما يلزم من تكوين معرفي للالتحاق بالمستوى التالي. وشرع من حينه في الدراسة بالمنزل وحده ودون أيّ مدير يشرف عليه وتمكّن في وقت قصير من تحصيل المعارف التي كانت تنقصه، حتّى أنه صرّح أنّ المعلّم اختبر بإعجاب «صبيًا كان معلّم نفسه».

لإشباع رغبة ابنه في الالتحاق بمستوى تعليمي أرفع حمله والده إلى مدرسة اليسوعيّين الثانويّة وسجّله بها. عند انتهاء السداسي الأوّل قام أساتذة فيكو بتنظيم مناظرة بينه وبين ثلاثة من أفضل تلاميذهم فلم يتمكّن الأوّل من إنهاء المناقشة بينما سقط الثاني مريضًا وعند ذلك فضّل الأساتذة تفادي المجازفة بالخصم الثالث الذي كان يتمتّع

بحماية شخصيّات بارزة وأوقفوا المناظرة، الشيء الذي أثار سخط فيكو وبما أنّ السداسي الثاني كان يعيد ما سبق تدريسه في السداسي الأوّل، هجر المدرسة وانغلق بالبيت للدراسة دون عائق. في وقت قصير تعلّم كلّ ما يدرّسه المعلّمون في صفوفهم وأضاف إليها علم الإنسانيّات، وفي شهر أكتوبر اهتمّ بالمنطق. كانت هذه هي الفترة التي اعتاد فيها الدراسة طوال الليل، فكانت أمّه تجده في أعقاب الليالي جالسًا إلى طاولته منهمكًا في قراءة الكتب فكانت تؤنّبه بشدّة وتأمره بالذهاب إلى فراشه، ولكنّها تجده في الصباح التالي شاحبًا واهنًا دون أن يبرح مكانه. إلّا أنّ الصبيّ شعر أنّ هذا لم يكن يكفيه وأراد أن يكون له معلّم يساعده في تحصيل المعرفة ولكنّ جميع من عرفهم كانوا إمّا يتبجّحون بالمعرفة دون طائل أو يتشدّقون بأفكار لم يأتوا بها أو يتحدّثون عن مذاهب فكريّة بنبرة من له دراية وسلطة علميّة دون أن يقدروا على البرهنة عليها. وحين سمع ذات يوم أحد الأساتذة يقول إنّ أفضل أداة لولوج الفلسفة هي قراءة المختصرات اقتنى «مختصر المنطق» لبيترو الإسباني الذي اشتهر باسم البابا يوحنّا الحادي والعشرين، وكتابيْن لبولس البندقي أحدهما في الطبيعة [*de naturalibus*] والآخر في الفلسفة [*de philosophia*]. ودرسها جميعها بحماس المبتدئ ولكن سرعان ما تحوّل حماسه إلى خيبة وفقد الأمل في العثور على ما يشفي غليله من المعرفة وما يمنح لفكره ما يلزم من وسائل ومناهج للتأمّل وللنقد.

أثناء ندوة التأمت بأكاديمية القديس لورانتيوس شارك فيها العديد من رجالات العلم والمحامين الذين ألقوا العديد من الخطب أدرك فيكو ماهية ما هو بصدد البحث عنه، ما أعاد إليه بعض الأمل وأذكى فيه حماسًا جديدًا. كان مبتغاه هو الفلسفة وانكبّ على دراستها تحت إشراف الأب اليسوعي ريتشي، إلّا أنّه سرعان ما ترك معلّمه الجديد وانكفأ يدرس بمفرده أعمال سوارس الذي كان يُعتبر في ذلك الوقت أكبر المتمكّنين في علم الفلسفة. وقضى سنة كاملة في دراسته ولم يندم على ذلك أبدًا لوضوحه الرائع ولطريقة كتابته المتميّزة ولفصاحته التي لا تُضاهى كما كان يقول. ولكن فيكو لم يقدر على الوقوف ضدّ أبيه الذي كان يريده أن يدرس القانون ويتبع المحاماة فالتحق بدروس فرانشيسكو فيردي وتابع شروحه لأساليب المحاكم وحضر التدريبات التطبيقيّة إلّا أنّه، ومن جديد، ضاق ذرعًا بأستاذه ولم تفلح سلطة والده في بقائه بين تلاميذ فيردي.

منذ ذلك الحين، وهو في السادسة عشرة من عمره، اعتمد فيكو على نفسه متنقلاً من كتب القانون والقضاء التي كانت تلزمه لممارسة المحاماة وكسب قوت عيشه وكتب الفلسفة من أفلاطون وأرسطو وزينون إلى الفلاسفة القريبين من عصره أو المعاصرين له، متخبّطًا بين مواقف كانت تبدو له غير صحيحة ومتطلّعًا إلى منهج جديد يمكّنه من إزاحة الستار الذي كان يحجب عنه حقائق الإنسانيّة الأولى ويجعله يقرأ بواسطته أفلاطون وأرسطو قراءة جديدة تتوافق مع الحقائق التاريخيّة والطبيعيّة التي عاشها الإنسان البدائي. كان هذا البحث من طرف عصاميّ مثل فيكو يمثّل جهدا جبّارًا أوهن صحّته التي لم تكن أبدًا جيّدة بينما في أثناء ذلك كانت ظروف عائلته تمضي من سوء إلى أسوأ. كان يرزح تحت هذا العبء مشتّت الذهن بين حالته الصحيّة ووضع عائلته المادّي الذي يتطلّب منه العثور على وظيفة وبين التوق إلى المعرفة واكتشاف المنهج الصحيح للتمكّن من شتّى العلوم سواء التاريخيّة أو الفلسفيّة أو القانونيّة وربطها معًا في نظام متكامل يجعل منها علمًا واحدًا لا يُقرَأ أحدها دون الاستعانة بالآخر. وقد بيّن أفكاره الجديدة في التدريس حين التقى ذات يوم بالمكتبة بأسقف إسكيا، جيوفاني روكّا، الذي بدا مهتمًّا بمعرفة ذلك الشاب والتعرّف على أحواله، فسأله عن جدوى مختلف مناهج التدريس المطبّقة على القانون، وكان فيكو يفكّر آنذاك في تأليف كتاب في الغرض، فأجابه كما يجيب إنسان توفّق إلى حلّ المشكلة. وفسّر له منهجه بدقّة، وتوسّع في شرحه فعرض عليه الأسقف أن يجرّب منهجه ذاك على أنسبائه الذين كانوا يقيمون في قصر فخم وسط خضرة النبات والهواء العليل، وتوجد به مكتبة ثريّة بالكتب والمخطوطات. فقبل فيكو عرضه وانتقل تحت رعاية الأسقف روكّا الذي عامله معاملة الأب العطوف. وطيلة تسع سنوات بقي فيكو في ذلك الملاذ الرائع حيث حظي بظروف حياتيّة ودراسيّة جيّدة.

وهنا عكف على دراسة القانون بحكم مهنته محاميا، والتي كانت تتطلّب منه معرفة كاملة وعميقة. ثمّ انتقل إلى دراسة القانون الكنسي والعقيدة المسيحيّة، متوقّفًا عند مسألة النعمة الإلهية والحريّة الفرديّة، وحول الفعل الإلهي والفعل الإنساني، وحول القدر والإرادة الحرّة، وأدّى به التفكير في ذلك إلى الاعتقاد بأن تطوّر المجتمع البشري مثله مثل قلب الإنسان، يحرّكه قانون دائم، كوني وإلهي، يتغيّر تطبيقه حسب إرادة

الإنسان المتغيّرة، ومنذ ذلك الحين غذّى الأمل في نفسه أن يكتشف في قانون الأمم الطبيعي مبدأً سرمديًّا انتهجه البشر جميعهم. وسيكون هذا القانون الطبيعي نقطة المركز في كتاب العلم الجديد تسير نحوه بصفة دائريّة جميع المبادئ التي يتناولها فيكو بالدرس. من ناحية أخرى أثارت لديه قراءة كتابات لورانتسو فالاّ، وهو ناقد صارم للغة المستعملة من طرف رجال القانون الرومان، رغبة شديدة في اكتشاف الفصاحة اللاتينيّة وجمال أشكالها فبحث عنها في أعمال شيشرون. كما أنّ بعض الدروس التي تلقّاها من يسوعيّ خامل الذكر جعلته يمرّ من الواقعيّة إلى الأفلاطونية، وحملته مقالة حول فكر القديس أوغسطينوس إلى تصوّر مبدأ كوني واحد للقانون الطبيعي لجميع الأمم. وفي إعجابه الشديد بروعة اللغة اللاتينيّة ندم لكونه أهدر وقته في نظم الشعر باللغة الإيطالية كما جرت العادة في ذلك الوقت، وقرّر أن يدرس اللغة اللاتينيّة بطريقة تجعله لا ينظر إلى اللغة الإيطاليّة إلّا من زاوية علاقاتها بها. وفرض على نفسه أن يكرّس بالتناوب كلّ يوم لقراءة مؤلّف لاتيني ومؤلف إيطالي، من بوكاتشيو إلى شيشرون، ومن دانتي إلى فرجيل، ومن بيتراركا إلى هوراثيوس، مقابلا أحدهم بالآخر، دارسًا مصادر علومهم ومصادر اللغة التي يستعملونها، معترفًا دائمًا أكثر برفعة اللغة اللاتينيّة على اللغة الإيطالية التي كان لا يرى فيها سوى الثمرة الفاسدة التي نبعت منها. كان فيكو يقرأ دائمًا ثلاث مرّات كلّ كتاب: المرّة الأولى لفهم وحدته، والمرّة الثانية لاكتشاف السلسلة التي تربط بين مختلف موضوعاته، والمرّة الثالثة للتمعّن في أشكال لغته وفي جمال أفكاره الخصوصيّة.

كان فكر أفلاطون هو الذي يتلاءم أكثر مع ميول فيكو المعرفيّة. وبحكم مواهبه الطبيعيّة وظروفه الماديّة والصحيّة فقد كان عليه أن يصنع في العزلة ورغم صغر سنّه نظامه الفلسفي. كان فيكو فيصحبة أفلاطون يجد متعة في التأمّل من خلال الكون والمادّة الطبيعيّة نفسها في وجود مبدأ ميتافيزيقي، في وجود فكرة سرمديّة تشكّل العالم الخارجي. هذه الوحدة بين الربّ والكون توجّه الإنسان كي ينتهج نهج الفضيلة والعدالة المثالية، والمطلقة، التي هي العدالة الإلهية. لهذا السبب، حسب فيكو، تصوّر أفلاطون رسم جمهوريّة مثالية، وشرع هو نفسه في التفكير في قانون مثالي سرمدي، ينظّم مدينة كونيّة مبنية حسب رسم العناية الإلهية، وهذا القانون وهذه المدينة سيكونان النموذج لجميع المدن ولكلّ القوانين.

كان من نتيجة قراءاته لأفلاطون وأرسطو وهوراثيوس أن نفر من أطروحات الأبيقوريّين التي تتأسّس على المادّة، وعاب أكثر على أبيقور رؤيته للأخلاق التي تتمسّك بكلّ ما هو حسّي، ونراه يعود في كتاب *العلم الجديد* مرارًا وتكرارًا لرفض فلسفة أبيقور التي تترك مصير الإنسان للصدفة دونما مبدأ أو فكرة سرمديّة تتجاوز ماديّته. وقد قرّبه هذا أكثر من أفلاطون الذي يضع كمبدأ للكون كلّه عقلا سرمديًّا بإمكاننا التعرّف على وجوده في عمق أنفسنا وفي تأمّلاتنا الباطنيّة وفي فكرنا الذي يمتلئ بها رغم إرادته. وإذا أمكننا أن نتخيّل ما هو خارج رؤيتنا وبعيدًا عنا وأن نتذكّر ما سبق أن رأيناه أو عشناه وأن نشعر بالرغبة التي تهزّ جوارحنا، فإنّنا لا نقدر على بلوغ الحقائق السرمديّة التي تبقى خارج متناولنا ولا يوجد منبعها في داخلنا، والمعرفة التي تأتينا عنها تنبع من موضوع تلك المعرفة، أي من العقل أو الفكرة السرمديّة. فنحن نتلقّى مثل انعكاس من هذه الفكرة السرمديّة الخالدة وغير الماديّة الغريبة عن إدراكنا، والتي تشعّ فينا مثل نور يبيّن لنا الطريق، وهذا العقل أو هذه الفكرة تخلق إراديًّا كلّ شيء في كلّ الأزمنة، وتركّزه وتدعمه. هذا المذهب الأفلاطوني الذي يشدّد أكثر على الجواهر المجرّدة منه على الجواهر الماديّة، بدا لفيكو المذهب الأفضل لتأسيس الأخلاق ولتنمية الحضارة.

إلى جانب قراءاته الفلسفيّة كان فيكو منكبًّا على دراسة القانون الروماني، باحثًا عن مصادره في عادات وتقاليد الشعوب وعن وثائقه في اللغة اللاتينيّة. بعد غيبة عن نابولي دامت تسع سنوات عاد إليها ليجد الجميع متحمّسين للفيزياء الطبيعيّة والمذاهب الديكارتيّة، ولفلسفة أرسطو أكثر من فلسفة أفلاطون، فأحسّ بنفسه غريبًا في موطنه، معارضًا للمذاهب التي اعتنقها الجميع، وحيدًا فقيرًا، كئيبًا خجولاً. كان يعيش منعزلا، مجهولا لدى أغلب الناس، وكان يُدلي بآرائه وبأفكاره العظيمة وسط جموع لامبالية وغير قادرة على فهمه. حين عاد إلى عائلته كان فيكو يحسّ بالحاجة إلى التعبير عن أفكاره لعقول قادرة على فهمها، وكان يشعر بالرغبة، الطبيعيّة في سنّه الحديث، في التواصل مع كبار العلماء الذين كان يراهم محاطين بشباب توّاق للمعرفة، وكان يحسدهم على تحصيل المعرفة وهم يتحاورون مع أساتذتهم، بينما كان هو لا يتحدّث إلّا مع نفسه ولا يتحصّل على المعرفة إلّا وسط العزلة. وأكثر من ذلك، كان فيكو بحاجة إلى

العمـل إذ كانـت وضعيّة عائلته صعبة وكان والداه متقدّمين في السـنّ، ولكن كلّما حاول أحدهم مسـاعدته لإدماجه في الوسـط الأكاديمي إلّا وقوبل بالرفض لحداثة سـنّه وفقر عائلتـه وغرابـة أطـواره وأفكاره الفلسـفيّة. كلّ ما أمكـن لحاميه أن يفعلـوه من أجله هو تكليفـه بكتابـة خطابـات افتتاحيّة أو جنائزيّة مثـل التأبين الذي كتبه بمناسـبة وفاة كاترينا الأراغونيّـة، أمّ دوق ميدينـا تشـيلي، الـذي كان آنـذاك نائب ملك نابولـي. في نفس تلك الفترة سنحت له فرصة للحصول على وظيفة كاتب للمدينة، ولكنّه قوبل بالرفض. اعتراه حينئـذ اليـأس، وحيـن شـغر كرسـيّ الخطابة سـنة ١٦٩٧، رفض المشـاركة فـي مناظرة الترشّـح له. إلّا أنّ نيكولو كارافيتا، صديقه وحاميه، أصرّ عليه أن يترشّـح واعدًا إيّاه بأن يبذل كلّ ما في وسـعه، حسـب ما تمليه التقاليد، لكي يتمّ قبوله. عندئذ قبل فيكو وألقى خطابًـا أمـام اللجنة كان راضيًا عنه تمام الرضى، وسُـمّي في الوظيفـة بأغلبيّة الأصوات. وأتاح له هذا الكرسيّ راتبًا يزيد بقليل عن مائة دوقيّة في العام. لم يكن بالكثير ولكن هذه الوظيفة مكّنته من بعض الاستقرار المادّي لإعالة ذويه ووجّهته نحو دراسة الفلسفة تاركًا جانبًا الآداب والشعر.

كان معلّمـه الأوّل إن جـاز القـول هـو أفلاطون لأنّه درس الإنسـان كما نشـأ من فكر خالقـه، أمّا الثاني فهو تاسـيتوس لأنّه يظهره كما صار نتيجـة لخطاياه. كان الأوّل يبحث عـن الحقيقـة والعـدل والخير، بينمـا الثاني كان يهمّه مـا هو مؤكّد ومنصـف ونافع. كانا يمثّلان بالنسبة إلى فيكو القطبيْن اللذين شكّلا لاحقًا موضوع «*العلم الجديد*». ونضيف إليهمـا فيلسـوفًا ثالثًـا كان بـرأي فيكـو يلخّصهمـا، هو فرنسـيس بيكـون، مفكّـر وعالـم، ميتافيزيقـي وسياسـي، فيلسـوف ووزير دولـة عظيمة. منذ ذلك الحين أولـى فيكو عنايته بهذا الثلاثي.

في الأثناء كان قد شرع في التدريس، وكانت دروسه فرصة سانحة له لعرض ما جمّعه منذ مدّة طويلة من أفكار في ذهنه، فبيّن في أحد دروسه أنّ العلم هو ما يحتاج إليه الفكر، مثلمـا يحتـاج الجسـد إلى النوم والحركـة، وأنّ الجهل هـو نتيجة تعليم خاطـئ أكثر منه غياب كلّ تعليم. في الدرس الافتتاحي لسنة ١٧٠٠، شبّه فيكو الكون بمدينة كبيرة يضرّ فيهـا مـن لا عقل لـه بعضهم البعض وغيرهم من العباد. بعد أن انكبّ في السـنتيْن الثالثة والرابعة من التدريس على مسألة العلم، مبيّنا الفارق بين العلم الصحيح والعلم الزائف،

أعلن فيكو في بداية سنته الخامسة من التدريس أنّ الأمم الأكثر علمًا كانت دائمًا الأمم الأعظم قوّة. وأعطى مثال الكلدان، أول العلماء، الذين أسّسوا للمملكة الأشوريّة العظيمة. والإسكندر الذي خرج من اليونان، البلد الأعظم حضارة، ودمّر إمبراطوريّة فارس، وشيبيون الافريقي، الفيلسوف والخطيب والشاعر الذي هزم قرطاج، وأغسطس المُحاطَ بأعظم الكتّاب كان متيقّنا من أنّه سيُخضع جميع الأمم، وبلاد العرب بلغت من العظمة ما بلغته بفضل تضلّع علمائها في الرياضيات والفلك والطب وعلم الحيوان، فأمكنها بذلك أن تُخضع العالم المسيحي.

بعد قراءة كتاب غروتيوس في «شرائع الحرب والسلم» [*De Jure belli et pacis*]، قال فيكو إنّه عثر على معلّمه الرابع (بعد أفلاطون، تاسيتوس وبيكون)، وإذ أضاف أفلاطون معرفته الباطنيّة إلى معرفة هوميروس العاميّة، وإذ سلّط تاسيتوس أضواء دراساته الميتافيزيقيّة والأخلاقيّة والسياسيّة على رواية الوقائع التاريخيّة، وإذ انتبه بيكون ليس لأخطاء العلوم القديمة فحسب، بل وفّر الوسيلة لتجنيب العلم الحديث السقوط فيها، فإنّ غروتيوس يستعمل الفلسفة واللاهوتية لتأسيس قانون شامل مثبتًا وجوده بقرائن مستمدّة من اللغة العبريّة واليونانية واللاتينيّة، أي من اللغات الثلاث التي تشكّلت كنتيجة لحضارة إنسانيّة. كان الوقت قد حان لفيكو أن يطبّق على التاريخ وعلى الفقه الأفكار التي كانت تخامر ذهنه منذ مدّة. كان يشعر بالحاجة إلى نظام يوفّق بين الفلسفة الأفلاطونية من منظار مسيحيّ والفقه المؤسَّس على معرفة اللغات وعلى معرفة التاريخ، وإحداها لا يُمكن لها أن توجد من دون الأخرى. كان فيكو راضيًا عن نفسه لكونه تمكّن من التوفيق بين حكمة العلماء وتجربة البشر الواقعيّة. كان متشوّقًا لعرض أفكاره الجديدة واغتنم فرصة الدرس الافتتاحي سنة ١٧١٩ لإلقاء خطاب في الغرض. وفيه أعلن أنّ كلّ المعارف الإلهية والإنسانية مرتبطة بثلاثة عناصر: العلم والإرادة والسلطة. وأنّه وزّع خطابه على ثلاث نقاط، والأولى منها ستبرهن أنّ مبدأ كلّ معرفة هو الربّ، والثانية أنّ النور الربّاني أو الحقيقة السرمديّة تنفذ وتملأ جميع المعارف، بحيث أنّ جميعها تحيا وتشترك في الربّ، والثالثة أن التوافق بين المعرفة الإلهية والمعرفة البشريّة هو معيار الحقيقة لكلّ منهما. ويجب اعتبار ثلاثة عناصر في المعرفة البشريّة: الأصل والمسار الدائري والدوام. والأصل يوجد في الربّ، والمسار الدائري يرجعها إلى الربّ، وأخيرا هي ما هي عليه لأنّها تنشأ من الربّ نفسه، بما أنّه خارج الربّ لا توجد إلّا الظلمات.

قـد تبـدو لنـا هذه الأفـكار بديهيّة ولكنّها في عصـر فيكو كانت غيـر مقبولة من طرف الأغلبيّة. كانوا يعجبون لهذا الرجل النكرة الذي يريد وضع نظام جديد للعلوم، ولم يكن مقبولا آنذاك أن تُؤخذ مأخذ الجدّ أفكار شـخص لا يُعدّ من كبار العلماء المعترف بهم. كانت الاعتراضات كثيرة في الداخل وفي الخارج وعلى عدّة مسـتويات فلسفيّة وفقهيّة. ولم ير فيكو بدّاً من الردّ عليها من خلال دراسـات جديدة في الفقه وفي القانون الكوني (١٧٢٠) لـم تعجـب أولئك المتشـبّثين بعلومهـم القديمة والتي كان فيكـو يضعها محلّ نقـاش. إلّا أنّـه كان هناك أيضًا بعـض المعجبين بأفكاره في إيطاليا وخـارج إيطاليا، وقد أثلجت صدره رسـالة وصلته من أمسـتردام حيث عبّر فيها جان لوكلارك عن تقديره لما وجده في دراساته من أفكار قيّمة.

هـذا الإطـراء الـذي جاءه من بعض الدارسـين شـجّعه علـى المضيّ قدمًـا في عرض رؤيتـه الجديـدة بخصـوص العلوم والتـي يمكن اعتبارهـا تمهيدًا للطبعـة الأولى لكتاب *العلم الجديد* التي سـتظهر سـنة ١٧٢٥. وبالفعل نراه يثير من جديد احتجاج المحافظين علـى العلـم القديم حين تجرّأ فيكو على المسّ بموضوع حسّـاس سـيكون له في العمل الذي يهمّنا مجال واسع من التحليل، وهو شخصيّة هوميروس. فقد بلغت الجرأة بفيكو أن أعلن في سلسـلة من دروسـه أنّ هذا الشـاعر الذي أثار الكثير من الجدل حول سيرته الذاتية، والكثير من المفارقات الزمنيّة، والذي تنافست كلّ مدن اليونان حول انتمائه لكلّ واحـدة منهـا، هـذا الشـاعر لـم يوجد قـطّ، والقصائـد التي أعجـب بها الكثيرون ليسـت قصائـده، والأبطـال الذيـن يذكرهم في ملحمتيْه ليسـوا حقيقيّين. قد يبدو هذا الآن شـيئًا عاديـا ولكـن في زمن فيكـو كان هذا مثل هدم أثـرٍ مقدّس، والقضاء على أسـطورة تلهم الخيـال الجماعي. هذه الجرأة هي التي كانت دون شـكّ سـببًا فـي الإخفاق الذي تكبّده آنذاك والذي جعله يشعر بالكثير من المرارة.

في سـنة ١٧٢٢ شـغر كرسيّ الفقه بالجامعة، وكان راتب الأستاذ فيه يصل إلى ستمئة دوقيـة. كان فيكـو يعيش أوضاعًا مادية صعبة. كان متزوّجًا منذ سـنوات وأبًا لعائلة كثيرة العـدد، بينمـا كان راتبـه كمدرّس البلاغـة لا يزيد عن مئة دوقية، وهـي لا تكفي في ذلك الوقـت حتّـى بنابولي لسـدّ رمق العائلة، فـكان فيكو يقبل كلّ ما يُعـرض عليه من أعمال شـعريّة أو نثريّة، فكان شـغور كرسـيّ الفقه فرصة ثمينة بالنسـبة إليه وشرع في الاستعداد

لمواجهة المناظرة. كان يشعر بالعداء الذي يحيط به وبالنفور الذي يصاحب أفكاره التجديديّة في مناهج تدريس الفقه وحاول أن يتفادى قدر الإمكان الحديث عن نفسه وعن أفكاره الخاصّة والاكتفاء بمناقشة النقاط التي حدّدتها لجنة المناظرة، ولكنّه أحسّ أنّه لا يمكنه الحصول على الكرسي إلّا بالتخلّي عن أفكاره، وبالرغم من إلحاح مسانديه قرّر الانسحاب من المناظرة، وفقد كل أمل في أن يحصل في موطنه على المنصب الذي كان يصبو إليه.

ولكن المآل السلبي لتلك المناظرة لم يوهن من عزمه وأتمّ عملا في مجلّديْن حول *مبادئ الحقّ الطبيعي للأقوام المستمدّة من مبادئ حضارات الأمم*، حارب فيهما الأطروحات غير المعقولة التي كانت أساسًا للأنظمة التي جاء بها سابقوه. ولكنّه بعد أن أتمّ المجلّديْن اقتنع أنّه لن يمكنه أبدًا أن ينشرهما دون أن يلغي الكثير من المضامين التي لن يقبل الناشر أبدًا طبعها. إلّا أنّ ذلك لم يثن عزمه، ومن المجلّديْن ألّف كتابًا مختصرًا في اثنتيْ عشرة ورقة يحمل العنوان التالي: *مبادئ العلم الجديد في معرفة طبيعة الأمم ومن هذه المبادئ تنبع مبادئ أخرى في الحقّ الطبيعي للأقوام*. كان قد حذف من عمله الأوّل ثلاثة أرباع مضامينه، وهو أمر شجاع يستحقّ الإعجاب. كان فيكو واثقًا من صحّة أفكاره وأنّها ستلاقي يومًا ما تستحقّه من اهتمام. حين أتمّ مراجعة الطبعة الأولى من *العلم الجديد* لتسليمها للناشر توسّل للكاردينال كورسيني كي يمدّه بالمال اللازم لنشر الكتاب، ولكن طلبه قوبل بالرفض، فكان عليه أن يبيع حلية ثمينة من الألماس لينشر الكتاب على حسابه. حين ظهر الكتاب لم يثر بنابولي لا الإعجاب ولا الذمّ، ولو أنّه أحدث جلبة سخط وأثار احتجاجات صاخبة لكان ذلك أفضل لأنّه سيبقى في الذاكرة، ولكنّه مرّ مرور الكرام ودخل ضمن تلك الكتب الرديئة التي تتناول مواضيع عديمة الفائدة. ومع ذلك فقد وُجد بالبندقيّة من رأى فيه عملا رائعًا، ووصلت إلى فيكو رسائل تنوّه بعمله واقترح عليه بعضهم أن يعدّ طبعة ثانية مراجعة ومنقحة لنشرها بالبندقيّة. فسارع فيكو بالقبول وقضى عاميْن لاكتمال الطبعة الثانية. في أثناء ذلك طلب منه أحد المعجبين به، الكونت بورتسيا، بأن يرسل إليه ترجمته الذاتية ومعلومات عن حياته وأعماله لنشرها في كتاب كان يعدّه حول مشاهير المثقفين الإيطاليّين المعاصرين. فأرسل إليه فيكو قصّة حياته ومعلومات عن شخصه وعن أعماله ولكنه فوجئ بعد ذلك

بأنّ الكونت بورتسيا ترك ذلك المشروع، ربما لأنّه لم يحصل على ترجمات ذاتية أخرى، وأعدّ كتابًا آخر مختلفًا وما أثار قلق فيكو هو أنّ ترجمته الذاتية، الوحيدة ربّما التي كانت بحوزة ذلك الكونت، ستُنشر في مقدّمة ذلك الكتاب الجديد الذي أعدّه ولم يجد احتجاج فيكو لوجود ترجمته الذاتية كمقدّمة لكتاب لا يعرفه. وصدر الكتاب ومعه قصّة حياة فيكو التي كتبها بنفسه والتي مكّنتنا من معرفة تفاصيل الحياة التي عاشها صاحبنا المفعمة بالكدّ والجدّ والأمل والخيبة والمرارة والألم. من خلالها ندرك أنّ فيكو منذ سقوطه وهو في السابعة من عمره وطيلة حياته عانى من تأثيرات تلك الحادثة، وأنّه رغم دخله المتواضع جدّاً كمدرّس في البلاغة اعتنى بزوجته وأبنائه كما يجدر بأب صالح، وأنّه بالرغم من تعاقب الخيبات واصل العمل لثقته التامّة في جديّة أفكاره وفي صحّة تصوّره للعلم الجديد الذي كان على يقين من أنّه سيؤثّر لاحقًا في طريقة تناول المواضيع الفلسفيّة والفقهيّة والتاريخية واللغويّة.

بعد الانتهاء من إعداد الطبعة الثانية طرأت بينه وبين الناشر البندقي خلافات فعرض عليه الناشر النابوليتاني أن ينشر الطبعة الثانية، ولكن فيكو في نهاية الأمر استرجع مخطوطه من ناشر البندقيّة وانتظر أن يتقدّم ناشر آخر غيرهما. في أثناء ذلك واصل فيكو مراجعة عمله، كان يقرأه ويعيد قراءته، مقتنعًا بأنّه سيكون مصدر فخر له إن عاجلا أم آجلا، وكانت هذه الثقة في نفسه تدفعه إلى مواصلة البحث والمراجعة والتصويب والحذف والإدماج والتنظيم وإعادة التنظيم. لم يرضه المنهج الأوّل الذي اتّبعه، ولم تكفه الأفكار التي وظّفها وأضاف إليها أفكارًا جديدة كان عقله يزخر بها، ومن هذا العمل الدؤوب نشأ كتاب جديد برسم جديد يجد فيه الكتاب الأوّل مكانه إلى جانب كمّ هائل من الإضافات ويندمج في رسم جديد يجعله أكثر وضوحًا للقارئ. عمل طيلة سنتيْن لإتمام الطبعة الثانية بينما تدهورت حالته الصحيّة جرّاء القرح الذي أصابه في الحنجرة. ولا شكّ في أنّه وجد ناشرًا لأنّه بين سنة ١٧٣٠ و١٧٣١ ظهرت الطبعة الثانية من *العلم الجديد*، وحظيت بقبول الكاردينال كورسيني الذي كان قد تبوّأ السدّة البابوية.

هكذا وصل مسار فيكو إلى ختامه، بات ضعيف الصحّة وتوالت عليه أزمات المرض ومصاعب الحياة وسط عائلته المعوزة، ومع ذلك فقد أولى أبناءه وبناته كلّ عنايته وحرص أن يؤمّن لهم مستقبلا مهنيًّا وعائليًّا يحفظهم من الفقر والحاجة. ولكن المرض

اشتدّ إذ تحول القرح إلى ورم مسّ عظام الوجه وأحدث فيها دمارًا فظيعًا. ضعفت ذاكرته وتعذّر عليه النطق بسهولة وانتابته الكآبة. كان يجلس في ركن من الحجرة مع بقيّة العائلة، صامتًا، يكاد لا يتحرّك، ولا يجيب إلّا بإيماءة من رأسه، أو بمصافحة سريعة للأصدقاء الذين يزورونه. بقي على هذا الحال سنة وحين أتى السرطان على فمه لم يعد بإمكانه أن يبتلع إلّا القليل من الحساء، وأخيرًا لشدّة ضعفه ووهنه لازم الفراش. ذات يوم بدا وكأنّه استفاق من سبات عميق، وتعرّف على أبنائه فسُرّ لوجودهم حوله، وحاورهم بأجمل الكلمات. لم تدم فرحة عائلته إلّا قليلا، إذ تحوّل الألم من الرأس إلى الصدر وشعر فيكو بأنّ نهايته اقتربت فطلب أن يدعوا إليه صديقًا له كان راهبًا ليتقبّل منه سرّ الاعتراف ويمنحه الغفران. ثمّ أراد أن يرى أبناءه فنظر إليهم وحين أحسّ بقرب الموت عجّل بالفراق مشيحًا عنهم بنظره، وركّز كلّ فكره على اللقاء بربّه متمتمًا بمزمور داود إلى أن صمت.

فارق فيكو الحياة تاركًا وراءه دراسات وكتابات مختلفة، حتّمتها في الغالب مناسبات كانت توفّر له بعض الرزق لإعالة ذويه، ولم يكن له أبدًا ما يمكّنه من نشر أعماله دون اللجوء إلى ذوي الشأن من رجال السلطة والكنيسة الذين كانوا في الغالب لا يولونه اعتبارًا بالنظر إلى أفكاره الغريبة وإلى توجّهه الفكري والفلسفي المغاير لتوجّههم. لذا كان فيكو يغتنم كلّ فرصة مواتية حتّى وإن كانت خارج قاعات الدرس للكشف عن الأفكار التي تخالج ذهنه، فكان يتعرّض في دروسه لشتّى المواضيع معبّرًا عن آرائه المخالفة والمختلفة لآراء السابقين، وعند كتابة خطابات في المناسبات الاجتماعية مثل التعميد والزواج والتأبين كان يقحم بعض الملاحظات التي تبيّن رؤيته أو يذكّر بشخصيّات وبأحداث تاريخيّة تبدو مناسبة للموقف ولكنها تتيح له الإفصاح بشأنها عن آرائه. وحتى في الدراسات التي ألّفها كان ينتقل من موضوع إلى آخر، وكان فكره لا يتبع خطًّا مستقيما، وفي كل دراسة من دراساته كان يريد قول كلّ شيء، دون خشية أو حرج. وعند نشر كلّ دراسة يتفطّن فيكو إلى أنّه لم يقل كل ما عنده، ولم يفصح عن كامل فكرته، ولم يبيّن كلّ نتائجها. كان يجمّع معلومات جديدة، ويسلك منهجًا مختلفًا، ويعيد ما سبق أن قاله بطريقة مختلفة لا تنفي الأولى بل تثريها بمعرفة جديدة. كان فكره يعمل بشكل دائري منطلقًا من نقطة نحو نقاط مختلفة لها دائمًا علاقة منطقية بعضها

بالبعض الآخر، ليعود أخيرًا إلى نقطة الانطلاق. وهذا ما نشعر به عند قراءة كتاب *العلم الجديد*، وهذا ما يفسّر الاستطرادات الكثيرة التي يقوم بها فيكو مذكّرًا بما سبق وملمّحًا إلى ما سيأتي من حديث في متاهة دائريّة كانت السبب في اعتبار كتابه غير قابل للفهم، وفي اعتبار فكره الفلسفي غامضًا.

كتاب «العلم الجديد»

يبدأ الكتاب برسم رمزيّ استعمله المؤلّف ليمثّل بواسطته، فضائيًا، العمل ككلّ بحيث أن نظرة القارئ أو مُشاهد الرسم تلتقط بصفة فوريّة ومباشرة وحدة الكتاب وتناسق مختلف أجزائه. هذه الطريقة ليست بالجديدة كما يعلن فيكو في أوّل سطر من الكتاب مذكّرًا بمثال سيبياس الطيبي، وفي شرحه للرسم يعطي للقارئ «فكرة عن العمل» قبل أن يشرع في قراءته.

على خلفيّة من الظلمات تقف امرأة مجنّحة الصدغيْن تمثل الميتافيزيقا، قدماها فوق الكرة الأرضيّة ونظرها موجّه إلى السماء التي تتلقى منها شعاعًا متأتيا من مثلّث تتوسّطه عين تمثل الربّ الذي يرى كلّ شيء والعناية الإلهية التي يرسلها نحو البشر بما أن الشعاع ينعكس على صدر الميتافيزيقا ليضيء تمثال هوميروس تحيط به أشياء رمزيّة، هي مثل هيروغليفيات تشير إلى عالم الإنسان في جميع مكوّناته. والتفسير الذي يتناوله فيكو في القسم الأوّل من كتابه يمثّل عرضًا كاملا لمحتوى العمل، والرسم يعمل كطريقة لمساعدة الذاكرة من خلال الرؤية على التقاط مختلف المواضيع التي سيتناولها الكتاب بالدرس.

الستار من الظلمات يرمز إلى ما يكتنف تاريخ البشريّة من غموض سيحاول العلم الجديد تسليط الضوء عليه من خلال الجدول الزمني وما يصاحبه من ملحوظات تحدّد مختلف الأزمنة والأمكنة. هذه المادّة الغامضة والمظلمة تتكوّن من العادات والتقاليد والأنظمة التي كان يعيش بها البشر الأوائل والتي بقيت مجهولة، ومن تلك الأقرب في الزمن التي وصلتنا من خلال الخرافات والأساطير. والنور المتأتّي من العين هو العناية الإلهية التي لولاها لما وُجد العالم البشري، ولما تواصل وتطوّر إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم. والميتافيزيقا تعكس النور على هذا العالم ويرمز شعاعه إلى العناصر

والمبادئ والمنهج الذي في الكتاب الأوّل يعطي لهذا العلم أسسه النظريّة. والشعاع الذي ينعكس من صدر الميتافيزيقا يمسّ مباشرة هوميروس، رمز «المعرفة الشعرية» التي ميّزت مؤسّسي الأمم، أي البشر الأوائل الذين ساسوا الشعوب، والتي سيقع درسها في الكتاب الثاني الذي يمثّل حوالي نصف العمل، بينما سيكون الكتاب الثالث مخصّصًا لهوميروس الحقيقي الذي اكتشفه فيكو. إلى جانب هوميروس، وعند قدميه، توجد مجموعة من الأشياء تلعب دور هيروغليفيات كالتي كان يستعملها البشر قبل أن يتمكّنوا من الأفكار العقلانية ومن اللغات المنطوقة.

هذه الأشياء مرتّبة في فضاء الرسم حسب أولويّة زمنيّة وميتافيزيقيّة. وأوّل ما يظهر فيها هو المذبح لأنّه عند جميع الأمم بدأت المدنيّة بالدين. المذبح يرمز إلى عصر الآلهة، الذي سيأتي بعده عصر الأبطال ثمّ عصر البشر. فوق المذبح يوجد قضيب العرافة [*lituus*] أي العصا التي كان المنجّمون يتلقّون بها النذور، والنار والماء في قُلّة صغيرة، وجميعها ترمز إلى العرافة والكهانة التي كانت حكرًا على الأشراف، وتشير إلى الأمور الإلهية التي تأتي منها كلّ الأمور الإنسانيّة. وأوّل هذه الأمور البشريّة هو الزواج، الذي كان يُحتفل به بالنار والماء [*acqua et ignis*] وهما العنصران اللذان قادا الإنسان، بتوجيه من العناية الإلهية، إلى إنشاء الأسر ومنها إلى إنشاء المجتمع.

وثاني هذه الأمور البشريّة هو الدفن الذي تشير إليه المرمدة الموضوعة جانبًا في الغابة تذكيرًا بأنّ الدفن كان موجودًا منذ أن كان الإنسان يعيش ويقتات من الغابة من ثمارها في الصيف ومن بلّوطها في الشتاء. وهذه المرمدة تشير أيضًا إلى أصل تقسيم الحقول، ومنها تمييز مختلف المدن، فالشعوب، فالأمم.

من عمق الغابة حيث توجد المرمدة يتقدّم محراث يرمز إلى أنّ آباء الأقوام الأوائل كانوا جبابرة التاريخ، وهذا يفسّر أنّ مؤسّسي الأمم الوثنية الأولى كانوا الهراقل، لأنّ كلّ أمّة كان لها هرقل خاصّ بها، وكان المصريّون يؤكّدون أن هرقلهم هو الأقدم. ويستند المحراث بشيء من الهيبة إلى المذبح إشارة إلى أنّ الحقول المحروثة كانت المذابح الأولى، وإلى السموّ الذي يشعر به الأبطال إزاء مواليهم وخدمهم [*famoli, soci*] الذين يرمز إليهم مقبض الدفة المتكّئ على قاعدة المذبح، لأنّ الأبطال كانوا هم الذين يقودونهم في السلم وفي الحرب.

على يمين المذبح نرى مقبض دفّة، في إشارة إلى أصل الهجرة البحريّة لدى البشر، وهو متكّئ على المذبح لأنّ البشر الأوائل المتوحشين في تشرّدهم عبر الدنيا دون دين يقودهم جعلتهم العناية الإلهية يلجؤون في فرارهم من الجبابرة الأقوياء إلى ملاجئ آباء الأسر الذين من خلال الزواج والدفن والخضوع للآلهة أسّسوا المدن الأولى، واتّخذوا من أولئك الفارّين خدمهم ومواليهم وشركاءهم.

أمام المحراث توجد لوحة كتبت عليها حروف لاتينيّة قديمة، شبيهة بالإغريقيّة، وتحتها حروف لاتينيّة أكثر حداثة، وترمز جميعها إلى أصل اللغات والحروف. وفي أسفل اللوحة رتّب الرسام مجموعة من الصور أو الهيروغليفات: الأولى هي «حزمة» ترمز إلى اتّحاد آباء الأسر الذي نشأت منه السلطة الملكيّة لأنّ الآباء كانوا في الآن نفسه ملوك أسرهم ومستلمي نذور الآلهة والكهنة الذين يقدّمون لها القرابين للحصول عليها. والسيف الذي يتّكئ على الحزمة يشير إلى الحقوق البطوليّة، وهي حقوق تفرض بالقوّة ويدافع عنها الأبطال بالقوّة. وإلى جانب الحزمة والسيف يوجد كيسان في إشارة إلى التجارة التي كانت في البداية مجرّد مقايضة للأغراض والغلال قبل أن تنشأ العملة النقدية. والميزان الموجود إلى جانب الكيسيْن يمثّل الحكومات الأرستقراطيّة المتكوّنة أوّليًّا من آباء الأسر المتّحدين في المجالس الحاكمة، وهو يعني العدالة المدنيّة المتأتية من حق الناس الطبيعي والتي من دونها لا يمكن للبشر العيش في سلام. والهيروغليف الأخير هو «الكادوسي» الذي يشير إلى أصل الحرب والسلم لدى الشعوب الأولى. كان لا بدّ لتلك الشعوب في حرب دائمة بينها أن تجد طريقة بناء معاهدات سلم لحفظ الأرواح والممتلكات من خلال القوانين العادلة التي يمليها المنتصرون على المغلوبين.

بهذه الطريقة جعل فيكو من هذا الرسم تصوّرًا كاملا لما سيكون عليه كتابه، أو «فكرة عن العمل» تساعد القارئ على إيجاد طريقة في الموسوعة المعرفيّة التي يقدّم بها فيكو بدايات الحضارة الإنسانيّة. وقد توزّعت هذه الموسوعة المعرفيّة على خمسة كتب مترابطة فيما بينها ترابطًا وثيقًا في شكل دائري يُرجع فيه المؤلف قارئه إلى ما سبق وإلى ما سيأتي من حديث.

الكتاب الأوّل هو الذي يضع فيه فيكو مختلف المعايير التي يستند إليها في نظرته الجديدة إلى عالم الأمم الأولى. وأوّله هو الجدول الزمني الذي ينطلق من الطوفان

العظيـم، مظهـرًا في هذا الخصوص تشبّثه بالتاريـخ المقدّس. ثمّ يضع في سـبعة أعمدة الشـعوب الأولـى بداية من اليهـود فالكلدان ثم السـكيثيّين يليهم الفينقيّـون فالمصريّون واليونانيّون وأخيرًا الرومان.

في القسـم الثاني من الكتاب الأوّل نجد «العناصر» المتكوّنة من حقائق أو مسـلّمات متبوعـة باسـتنتاجاتها المنطقيّـة والتي سـيعتمد عليها فيكو لدعم مختلـف المواقف التي سـيتّخذها إزاء العديـد مـن القضايـا. وفـي القسـم الثالث الخـاص «بالمبـادئ» يتعرّض المؤلّـف لـكلّ مبدأ مـن مبادئ المادّة التي يعرضها في كتابـه. وبعبارة مبدأ يعني في الآن نفسـه بداية الأمور والمنطلق الفكري الذي حتّم ظهورها. والقسم الأخير هو «المنهج»، الـذي بمقتضـى المسـلّمة التـي تقـول «إنّ العلم يبـدأ من حيث تبـدأ مادّته» فـإنّ المنهج الصحيح يكمن في معرفة طبيعة الشـعوب الأولى أي حين كان الإنسـان يعيش في حالة الطبيعة، في تلك المرحلة التي كان يحاول فيها أن يتخلّص من طبيعته الحيوانية للارتقاء بنفسه إلى مرتبة الإنسان.

انطلاقـا من هذه الضوابط الزمنيّة والعناصر التـي يتكوّن منها العالم القديم والمبادئ لكلّ ظاهرة من الظواهر البشـريّة والمنهج المتّبع في دراسـة كلّ عنصر من العناصر وكلّ مبدأ من المبادئ المذكورة في المسـلّمات يمرّ فيكو في الكتاب الثاني إلى تحليل طبيعة المعرفة البشـريّة وتفسير نشأة الحضارة الإنسـانيّة منذ البشر الأوائل الذين كانوا يعيشون في «حالة الطبيعة» إلى بروز الحضارات الأولى وبالخصوص منها اليونانيّة والرومانية.

يظهر الكتاب الثاني باعتباره جوهر الموضوع وليس فقط لأنّه الأطول من بين الكتب الخمسـة التـي يتكوّن منها «العلم الجديد» حتّى أنّه يمثّـل بمفرده نصف العمل تقريبًا، بل وأيضًـا لأنّـه يشـكّل إن جـاز القول «شـجرة المعرفة» بجميـع فروعها كما رتّبهـا المؤلّف معتمـدًا علـى نظرة «جديدة» لهذه المعرفة الإنسـانية القديمة تقـوّض مواقف الأبيقوريّين والرواقيّيـن، وتبتعـد عن الديكارتيّة الصارمة في موقفهـا المضادّ لكلّ ما هو غير عقلاني، وتفنّد العديد من الآراء التي جاء بها فلاسفة مثل غروتيوس، سالدن وبوفاندورف وغيرهم.

يحمـل هـذا الكتـاب الثاني عنـوان «المعرفـة الشـعريّة»، ولا ينبغي لنـا أن نفهم صفة الشعريّة باعتبارها أسلوبًا أدبيًّا، بل لأنّ المؤلّفين والكتّاب الأوائل كانوا جميعهم شعراء،

وأشهرهم دون شكّ هو هوميروس الذي ندين له بكلّ ما نعرفه عن العالم القديم، والذي خصّص لـه فيكو الكتـاب الثالث. وقـد أثبت فيكو في خطابـه أولويّة الشـعر على النثر، وأوليّـة الخيـال علـى العقـل إذ كلّما توقّد الخيال أكثـر زاد ضعف العقل. وبما أنّ البشـر الأوائل كانوا مثل أطفال العالم فقد كانت مخيّلتهم مثل مخيّلة الأطفال وكانوا يتعاملون مـع الأشـياء المحيطة بهم كمـا لو كانت تتصـرّف مثلهم وتحسّ مثلهم لـذا فهي تغضب وتثور وتضحك وتغني وترقص، وحين رأوا السماء ترميهم بالصاعقة ظنّوها إلاهًا غاضبًا وأعطوها اسـمًا وملأتهم الخشـية منها وهكذا نشأت ديانتهم الأولى. وكما أنّهم كانوا لا يعرفون اللغة والحروف كانوا ينطقون بأصوات تنمّ عن مشـاعرهم، وينشـدون تقرّبًا من الآلهة، لذا كان أوّل الشعراء هم الشعراء اللاهوتيّون الذين يملكون القدرة على مخاطبة الآلهـة مـن خلال النـذور والتقـرّب منها من خـلال القرابيـن والأضاحي. هـذه المعرفة الشعريّة هي إذن معرفة البشر الأوائل أو حكمة القدامى، كما نقول أحيانًا، التي لا تعتمد على الفلسفة الباطنيّة ولا على الفلاسفة، الذين ظهروا بعد زمن طويل، بل على الحواسّ والمخيّلـة والعـادات والتقاليد التي أرسيت من طرف الآباء والتي بها تكوّنت الأسـر ثم المدن والأمم.

ويتـوزّع الكتـاب الثاني على ١١ قسـمًا تتكوّن أحيانًا من بـاب واحد وفي الغالب من عـدّة أبـواب وهـي فروع شـجرة المعرفـة المذكورة سـابقًا، أو هـي الموسـوعة المعرفيّة لأولئك البشـر الأطفال الذين كانوا ينظرون إلى عالمهم بسـذاجة الأطفال وبإعجاب من يجهل حقيقة الظواهر، وبارتياع من يخاف من كلّ ظاهرة جديدة في السـمّاء كالكسـوف والنيازك والشـهب السّـيارة، فيبحثون لها عن تأويل يطمئنهم ويجعلهم يتعايشـون معها. لـذا فقد كانت لهؤلاء الشـعراء اللاهوتيّيـن ولأولئك المخترعين للخرافات وللأسـاطير عوالمهـم التـي خلقها شـعرهم. هـذه الأقسـام ال١١ هـي الميتافيزيقا الشـعريّة، المنطق الشـعري، الأخلاق الشـعريّة، الاقتصاد الشـعري، السياسـة الشـعريّة، التاريخ الشـعري، الفيزياء الشعريّة، الكسموغرافيا الشعريّة، الفلك الشعري، الكرونولوجيا الشعريّة وأخيرًا الجغرافيـا الشـعريّة. وتحتـلّ العنايـة الإلهية كما يمكـن للقارئ ملاحظته بسـهولة مكانة أساسـيّة في تحضّر البشـر وفـي مرورهم من حالـة الطبيعة الحيوانيّة إلـى حضارة المدن والممالك والإمبراطوريّات. ولعلّ في تشـديد فيكو على ذلك، وفي تماشـيه مع الكتاب

المقدّس، وفي محاولة الوفاق بين الدين والفلسفة، غاية أخرى هي أن يضمن لعمله مساندة آباء الكنيسة وأن يعزّز موقفه دون التخلّي عن قناعاته الفلسفيّة.

يبدأ فيكو بالميتافيزيقا الشعريّة لأنّها تمثّل أساس العلوم الأخرى، تمامًا مثل الميتافيزيقا الفلسفيّة أو الباطنيّة. إلّا أنّ هذه الميتافيزيقا الشعريّة بدائيّة نشأت لدى أولئك الجبابرة الأوائل الذين بعد الطوفان وحين تبخّرت رطوبة الأرض صعقتهم السماء فارتاعوا وظنّوها إلهًا يتوعّدهم. وهكذا تخيّلوا أنّ السّماء التي في ظنّهم لم تكن أعلى من قمم الجبال هي موطن الآلهة وأنّ جوبيتر وجونو هما أبوا بقيّة الأرباب التي جعلوها توافق كلّ ظواهر الطبيعة المحيطة بهم وتمثّل كلّ ما هو ضروري لتنظيم عيشهم فكان نبتون إله المحيط (البحر) ومارس إله الحرب إلخ... من هذه الديانات الأولى نشأت الخشية لأنّ هؤلاء الأرباب كانوا مخيفين ومروّعين، وهذه الخشية جعلت الإنسان يبتعد عن همجيّته الحيوانيّة ويؤسّس أركان الحضارة الإنسانيّة التي تعتمد على أسس ثلاثة قامت عليها جميع الأمم القديمة: الدين والزواج ودفن الأموات. فكان الدين منبع السلطة التي كانت في البداية سلطة الكهنة ووسطاء الوحي الذين يتقبّلون عن طريق القرابين نذور الآلهة ويفسّرونها لشعوبهم. ومن الزواج نشأت الأسر التي تكوّن منها المجتمع المدني وهيّأت لنشأة المدن. ودفن الأموات كان الخطوة الأولى نحو تحديد ملكيّة الأرض لأنّ آباء الأسر هم حرّاس الأراضي التي دفن فيها موتاهم.

أمّا القسم الثاني، قسم المنطق الشعري، فهو دون شكّ القسم الذي يهمّ أكثر الدارسين والفلاسفة. إلّا أنّ فيكو لا يستعمل لفظ «المنطق» بالمعنى الفلسفي الصرف، بل يربط العلاقة بين ما هو فكر وما هو لغة. فالبشر الأوائل، في عجزهم عن التجريد وخلق الأفكار والمفاهيم والمتصوّرات، مثّلوا عالمهم من خلال ما يسمّيه فيكو «كليّات عجائبيّة»، أي شخصيّات ونماذج ورموز خلقها خيالهم للتعبير عن كلّ ما يحيط بهم من أشياء، كما جعلوا من أجسادهم منبعًا من الألفاظ التي تعبّر عمّا هو مشابه أو مماثل في معناه لما يقومون به من أفعال ولما يصفونه من أشياء كالصدر، والرأس واليد، والعين، والفم إلخ... وجعلوا منها صورًا أو حروفًا هيروغليفيّة يعبّرون من خلالها عن حاجياتهم. كانت الكتابة الهيروغليفيّة أولى الكتابات لدى الأمم القديمة، وبعدها نشأت الحروف العاميّة واللغة المنطوقة. والاشتقاق اللغوي يجد في هذا الكتاب مكانة مميّزة لأنّه يفسّر

نظـام الأشـياء، ومـن نظام الأشـياء ينشـئ الأفـكار. لذا، فـإنّ تاريـخ الألفاظ ينيـر تاريخ الأشـياء، ومن أصلها نتعرّف على بدايات الأمم. هذا المنطق الشـعري هو منطق الشعراء اللاهوتيّيـن الذيـن مـن مخيّلتهم نشـأت الآلهـة والذين كانـوا يخاطبونهـا ويتقبّلون منها الشـرائع التي يفرضونها على أقوامهم. وأسـاطير الآلهة تمثّل المنبع الذي لا ينضب من المعـارف التـي تتكوّن لدينا بخصوص العالم القديم، وهو ما يفسّـر الأهميّة التي يحتلّها هوميروس في هذا الكتاب لأنّ ملحمتيْه تمثّلان الموسـوعة المعرفيّة الخاصّة بالشـعوب اليونانيّة القديمة.

فـي القسـم الثالث الذي يحمل عنوان «الاقتصاد الشـعري» والـذي يجب ألا نفهمه بالمعنـى الـذي تـدلّ عليـه هذه الكلمة فـي يومنا الحاضـر، بل يعني «إدارة» الأسـرة أو اقتصـاد العائلـة في بدايات البشـريّة، أي فـي «حالة الطبيعة»، حيث كانت للآباء سـلطة مطلقـة علـى أسـرهم وممتلكاتهم. فالأب كان بمثابـة الكاهن لأنّه يتلقّـى نذور الآلهة، وبمثابـة المالـك لأنّ المدافـن كانت تحدّد ملكيّة الأرض التابعة لأسـرته. والشـخصيّة الرمزيّـة للقـوّة التـي أرضخـت الأرض هـو هرقـل، لأنّـه هزم ليـث غابـة نيميا ووحش الهيـدرة، أي أنّه خلّص البشـر من الوحوش المفترسـة التي كانـت تملأ الغابات، ولأنّه أحرق الغابة لتصبح صالحة للزراعة. إلّا أنّ الأسرة المتكوّنة من الأب وزوجته وأبنائه لم تكن كافية لتكوين مجتمع قادر على تحقيق اكتفائه الذاتي، وينبغي علينا تصوّر هذه الأسر الأولى مع الخدم أو العبيد الأوائل الذين لجؤوا إلى آباء الأسر فرارًا من الجبابرة المتوحشـين الذيـن بقوا خارج ديانـة جوبيتر. هؤلاء الخدم أو *famoli* الذي جاءت منه كلمـة *famiglia* أي الأسـرة أو العائلـة، كانـوا ضعـاف الجبابـرة الذيـن لـم يلبّـوا نداء «الصاعقـة» وصاروا هدفًا لاضطهاد الجبابرة المتوحّشـين، فلاذوا بملاجئ آباء الأسـر ودخلوا في خدمتهم، دون ملكيّة للأرض ودون حقوق أخرى سوى الحماية والانتفاع من منتوجات الأرض. وسـنرى كيف أنّ المقابلة بين الآباء والخدم سـتصبح مقابلة بين العامّـة والأشـراف، ومن الصـراع الذي سينشـأ بينهما سـتتكوّن الجمهوريّات الشـعبيّة الأولى.

والخرافـات أو الأسـاطير، مـع شـخصيّة مينيرفـا، إن قرأناهـا علـى الوجـه الصحيـح وتجاوزنا سـطحيّة خيالاتها فهي تتحدّث عن «السياسـة الشـعريّة»، وتفسّـر كيف نشـأت

المدن الأولى التي كانت أرستقراطيّة بالكامل، أي كان يسوسها آباء الأسر، ولكنّ تمرّد خدمهم وعبيدهم ومواليهم جعلهم يتّحدون في نظام حاكم لمواجهة الخدم المتمرّدين الذين كانوا يطالبون بالحقوق نفسها التي كانت للأشراف، ومع قانون بيتيليا الذي كان بمثابة الإصلاح الزراعي الأوّل تحصّلوا على ملكيّة الأراضي، ومنها على المشاركة في السلطة التي قامت معها الجمهوريات الشعبيّة. لذا فإن الأساطير هي أوّل شكل لسرد تاريخ البشريّة لأنّها تحت غطاء الخرافة تسرد الحقيقة.

ونفهم من هذا أنّ كلّ ما يعني البشريّة كالعناصر الماديّة مثل الهواء والنار والماء والأرض، مثّل الفيزياء الشعريّة التي لا تتحدّث عن السديم الكوني أو الفوضى التي نشأت منها الأكوان، بل عن فوضى النسل في حالة الطبيعة حين كان البشر يتعاشرون مثل الحيوانات ويتشاركون الإناث، وحين روّعتهم صاعقة جوبيتر تخلّوا عن حياتهم الحيوانيّة واكتفوا بامرأة واحدة فجعلوا من الماء والنار عناصر طقوسهم الدينيّة، ومراسم زيجاتهم، وفهموا النور الماديّ باعتباره نورًا مدنيًّا يخرج الإنسان من ظلمات الهمجيّة البدائيّة ويحمله بفضل «الجهد» الذي يبذله في الابتعاد عن الرذيلة إلى الاستقامة في حياته الاجتماعيّة من خلال احترام الشرائع والقوانين وإلى الخشية من العقاب الإلهي بفضل الإيمان بوجود عناية إلهية تقود البشر.

هؤلاء الشعراء اللاهوتيّون، مثلما اتّخذوا – كمبادئ لعالمهم الماديّ – العناصر التي كانوا يتصورونها إلهية كالهواء والنار والماء، أسّسوا رؤيتهم الكونية أو الكوسموغرافية على آلهة تسكن السماء وآلهة تسكن العالم السفلي أو الجحيم، وآلهة وسطى تصل بين الأولى والثانية أو بين السماء والأرض. ولدى جميع الأمم الوثنيّة رفعت الآلهة إلى السماء وأعطيت أسماؤها للكواكب والنجوم أو ما يسمّى بعلم الفلك القديم الذي يرى فيه البشر تاريخ آلهتهم. لذا أعطى الشعراء اللاهوتيّون للتسلسل التاريخي أو الكرونولوجيا بدايات تتطابق مع رؤيتهم الفلكيّة. مثال ذلك أن الإله ساتورن الذي جاء اسمه عند اللاتينيّين من *Sati* الذي يعني الأراضي المزروعة، جعل البشر يعدّون السنوات بعدد فصول حصاد القمح، وبوضع عدد من السنابل أو من قشّ التبن كانوا يعنون عدد السنوات.

أمّا القسم الأخير، قسم الجغرافيا الشعريّة، فهو يبيّن كيف أنّ البشر حين يكتشفون في ترحالهم أماكن مجهولة لديهم فهم يلجؤون إلى ما شاهدوه سابقًا في بلادهم، ويعطون الأسماء الموجودة عندهم لتسمية المدن والجبال والأنهار.

في ختام جولته عبر المعرفة أو الحكمة الشعرية يختم فيكو قائلا إنّه في الخرافات والأساطير وصف القدامى بصفة ساذجة وخشنة، وانطلاقًا من حواسّهم، مبادئ العلوم التي وضّحها تاليًا الفلاسفة من خلال تفكيرهم الباطني بواسطة المفاهيم والمتصوّرات والقضايا.

وأعظم كنز من هذه المعرفة الشعريّة يوجد في ملحمتيْ هوميروس الذي خصّص له فيكو الكتاب الثالث. ما يلفت انتباهنا أكثر هو العنوان الذي أعطاه فيكو لهذا الكتاب الثالث «البحث عن هوميروس الحقيقي»، كما لو أنّ كلّ ما سبق قوله عن هذا الشاعر الملحمي لم يكن مطابقًا للحقيقة. ويبدأ فيكو على الفور بوضع نقطة الخلاف بينه وبين سابقيه ومنهم أفلاطون نفسه الذي أنشأ في الفلاسفة اللاحقين فكرة أنّ هوميروس كان يتوفّر على حكمة باطنيّة رائعة، وتبعه في ذلك وبدون تردّد الفلاسفة الآخرون ومن ضمنهم فلوطرخس في كتاب نُسب إليه عنوانه «حياة وشعر هوميروس»، بينما أراد فيكو في الكتاب الخامس أن يثبت إن كان هوميروس بحقّ فيلسوفًا. وهنا يبرهن فيكو من خلال قراءة خرافات وأساطير الأرباب التي يسردها هوميروس على أنّ هذا الأخير اعتمد في ملحمتيْه على المعرفة العاميّة وليس على الحكمة الفلسفيّة، وقصّ أطوار الآلهة وخصوماتهم المتتابعة وعراكهم السوقي حسب النمط العامي، وأظهر الشخصيّات الشعريّة تمامًا مثلما هي في واقع عصره. في هذه الخرافات نجد عادات العامّة الخشنة، ونزعاتهم الفظة، وسوقيّة سلوكهم، وشراسة طباعهم وهو ما يتنافى مع فكرة أنّ هوميروس كان يملك حكمة فلسفيّة باطنيّة، وأخذ فيكو على عاتقه اكتشاف هوميروس الحقيقي.

من خلال جملة من المعطيات التاريخية واللغوية يكشف فيكو أنّ هوميروس هذا الذي كانت تتنازعه جميع شعوب ومدن اليونان والذي اعتُبر أعظم شاعر ملحميّ على الإطلاق لم يوجد قطّ، وأنّ الملحمتيْن لم تنشآ في الفترة نفسها أي فترة وجوده الحياتي

كشخص بعينه، بل يظهر هوميروس على أنّه رمز شعري لبطوليّة شعوب اليونان القديمة وذاكرة عاميّة حفظت خرافات الآلهة كما تحفظ الشعوب تقاليد دياناتها لأنّها الوحيدة القادرة على إبقاء الأمم متماسكة وملتحمة. وإذا بدت لنا أساطيره مشحونة بالعواطف الجامحة وبالقسوة العارمة وبالعنف الشديد فلأنّ الشعوب تتصوّر آلهتها شبيهة بطبيعتها الخاصّة التي كانت في تلك الأزمنة البطوليّة جامحة قاسية وعنيفة. وهوميروس الذي يملك أكثر من وطن واحد في اليونان وينتمي إلى أكثر من مدينة واحدة وعاش في أكثر من فترة زمنيّة واحدة يصبح نمط الشاعر المغنّي المتجوّل والضرير الذي يحفظ قصص الآلهة والأبطال عن ظهر قلب وينشدها في أسواق المدن وفي ساحاتها أثناء تجواله الدائم. وسواء وُجد هوميروس كشخص معيّن أو كنمط شعريّ فنحن ندين له بكلّ ما نعرفه عن تلك الحقبة التاريخيّة الغامضة أيّام كان البشر لم يفتؤوا أن خرجوا من حالة الطبيعة وأسّسوا أولى المدن البطوليّة.

من اكتشاف هوميروس الحقيقي تترسّخ لدينا فكرة أنّ فيكو يُخضع كل مواضيعه إلى امتحان تاريخي وفقهي صارم يمكّنه من نفض الغبار عن هذا العالم القديم ومن تقديمه لنا عاريًا من الأغلفة المتتابعة التي غطّته بها الدراسات القديمة. هذا المنظور الزمني الذي ينطلق منه فيكو جعله يتصوّر في الكتاب الرابع تمشيًا سارت عليه جميع الأمم، وتصوّره ثلاثيًّا ينطلق دائمًا من عصر الآلهة إلى عصر الأبطال وأخيرًا عصر البشر. ويوسّع في هذا الكتاب الرابع هذا المنظور الثلاثي ليجعل منه قاعدة التاريخ المثالي السرمدي، ومن تسلسل منطقي من علّة إلى معلول يصل إلى استنتاج أنواع ثلاثة من الطبائع، وأنواع ثلاثة من العادات والتقاليد، وأنواع ثلاثة من اللغات (لغة الآلهة الهيروغليفيّة، لغة الأبطال الشعريّة، ولغة العامّة التواصليّة)، ومنها ثلاثة أنواع من الحقّ الطبيعي وثلاثة أنواع من السلطة أو الجمهوريّات (سلطة الآباء أو الملوك، الجمهوريّات البطولية، الجمهوريات الشعبية)، وهذه الأنواع الثلاثيّة تقوم على ثلاثة أنواع من الأحكام والشرائع وقعت ممارستها في ثلاثة عصور زمنيّة مختلفة. وقد عاب عليه بعضهم هذا التقسيم الثلاثي المتتابع في شبه ميكانيكيّة مفتعلة، إلّا أنّ فيكو استعملها ليضيف مزيدًا من الوضوح على هذا العلم الجديد من خلال الترتيب الثلاثي الذي ينظم حفظ الذاكرة، ومع ذلك فقد أتبع البعض من هذه الثلاثيات باستنتاجات لا تقلّ أهميّة من الناحية

الفلسفيّة، وتعطينا في النهاية انطباعًا موحّدًا لجميع الأمم يفسّر لماذا يذكر في العنوان الأصلي لكتابه «الطبيعة المشتركة لكلّ الأمم».

كثيرًا ما ربط فيكو في مختلف الكتب الأربعة بين البربريّة الأولى، أي العصور القديمة التي نشأت بعد الطوفان، والبربريّة الثانية، أي القرون الوسطى، رابطًا بينهما من خلال تكرار بعض التجارب البشريّة. ولكنّه لم يكتف بالإشارة من حين لآخر إلى أوجه الشبه هذه، بل خصّص الكتاب الخامس إلى هذا التكرار أو التواتر الذي تعيشه الأمم خلال مسارها التاريخي، والذي يجعلها تعود إلى أشكال من الحكومات ومن الشرائع ومن التقاليد السابقة. يرى فيكو أنّ الأمم الأوروبيّة بعد سقوط الإمبراطوريّة الرومانية عاشت فترة بربريّة شبيهة بالبربريّة الأولى، ما عدا أنّ الآلهة الوثنيّة عُوّضت بالديانة المسيحيّة التي صنعت وحدة مختلف شعوب أوروبا. وبالفعل بعد السنة الألف نشهد عودة قويّة للعاطفة الدينيّة التي حمّست فرسان أوروبا وأنشأت بطوليّة القرون الوسطى على منوال البطوليّات القديمة، ولكنّها هنا تخدم الإله الحقّ وليس آلهة كاذبة. كما يلاحظ فيكو تماثلا بين القانون الروماني القديم وقانون الإقطاع في القرون الوسطى، ليستنتج من هذا أنّه يوجد قانون إقطاعي سرمدي، ينظم الملكيّة الإقطاعيّة ويرتّب العلاقات الاجتماعية القائمة على السلطة والهيمنة. هذا التكرار الذي يشهده التاريخ في مسيرته اللامتناهية حتى وإن بدا سطحيًّا رجوعًا إلى الوراء فهو في الواقع ولادة جديدة للأمم التي تصلح نفسها بنفسها من خلال استزارة الماضي لتأخذ منه ما ينفع مستقبل البشريّة، وكما خرج الإنسان الأوّل من بداياته الحيوانيّة وأسّس الحضارة الإنسانيّة فإنّ البربريّة الثانية، أي القرون الوسطى الأوروبية، بعودتها إلى العاطفة الدينيّة وإلى الخشية من غضب الإله وتوقها للاغتسال مجدّدًا بماء الدين المقدّس مهّدت للولادة الجديدة التي مثّلتها إنسانيّات عصر النهضة.

في ختام كتابه يعود فيكو إلى جمهوريّة أفلاطون المثاليّة أو إلى نوع رابع من الجمهوريّة يقودها أعدل الأناس وأقواهم وأكثرهم طيبة ونزاهة، ويقول إن مثل هذه الجمهوريّة قد قادتها العناية الإلهية منذ بدايات البشريّة حين رتّبت أن يكون من بين الجبابرة الأوائل من هم مفعمون بالخشية من غضب الآلهة ومن هم توّاقون لفعل ما هو صالح ونافع لأسرهم ولخدمهم الذين تقبّلوهم في ملاجئهم، وجعلت منهم الآباء

الملـوك وعليـة القـوم الذيـن أسّسـوا أولـى المدن وأولـى الجمهوريّـات. لذا فـإنّ عماد الحضارة هو الدين، ولا يمكن للإنسان أن يكون حكيمًا إن لم يكن قبل ذلك ورعًا تقيًّا.

هـذا الكتـاب الـذي يزخر بكنـوز المعرفة القديمـة ويربطها بالمعرفـة الحديثة مرورًا بمخاض القرون الوسـطى القاسـي والمتوحّش، يتّخذ من التاريخ كتجربة حياتيّة عاشها البشـر منذ الطوفان إلى يومنا هذا مصدر إلهامه ومنهج تحليله. بقراءته الجديدة للتاريخ بأسـاطيره وخرافاتـه وشـخصيّاته الخياليـة يصـل فيكـو إلـى قناعتـه الراسـخة بـأنّ تلك الأسـاطير تسـرد الحقيقة، وعلينا أن نفهمها وننظر إليها كما كان ينظر إليها الأقوام الذين ابتدعوهـا أي أنّهـا الحقيقـة الوحيـدة التـي كان بإمكانهـم اسـتيعابها، ولكي نـدرك هذه الحقيقة علينا أن ننزل من علياء فكرنا الفلسـفي وأن نترك غرورنا المعرفي وأن نكتشـف طفولـة العالـم بالغوص في تلـك الطفولة دون التأويلات الخاطئة التي تصنعها فلسـفتنا الباطنيّة. بربط تاريخ الإنسـان بكلّ المكوّنات التي تؤثّثه والتي تناولها فيكو في الكتاب الثانـي حـول المعرفـة الشـعريّة، مـن ميتافيزيقا وأخـلاق واقتصاد وكسـموغرافيا وفلك وجغرافيـا، وبتحليلهـا من خلال فقه اللغة وعلم الاشـتقاق تمكّـن المؤلّف من الخروج «بعلم جديد» يصحّح الكثير ممّا سـبقه من أخطاء ومن تأويلات اعتباطيّة لا تسـتند إلى براهين تاريخيّة أو فقهيّة.

والحظ العاثر الذي طبع حياة فيكو الشـخصيّة سـاهم كذلك في جعل هذا العمل يمرّ مـرّ الكـرام، دون أن ينتبه إليه معاصـروه، وبقي مغمورًا ومجهولا لـدى الأكثريّة حتى أنّ مترجمته الأولى إلى الفرنسيّة أمّلت أن تعرّف بعظمة فكره وبأهميّة ذلك «الجديد» الذي يحملـه فـي طيّاتـه. ومع ذلك كان علينا أن ننتظر مزيدًا من الوقت لكي يعرّف به ميشـليه، ولكي ينكبّ على دراسته كروتشي الذي أدخله نهائيًّا في الخطاب الفلسفي الحديث.

كان فيكـو أحـد أولئـك العباقـرة الذيـن يجـود بهم الدهـر بشـحّ بين الحيـن والحين ليتواصـل مسـير الإنسـانيّة علـى درب المعرفة، ونحن نأمـل من خلال هـذه الترجمة أن نكـون سـاهمنا في التعريف به لدى القـارئ العربي ولدى الدارسـين والمفكّرين العرب وأن نكون أثرينا المكتبة العربيّة بعمل لا يمكن أن يكون غائبًا منها لأنّ الخطاب الفلسفي لا يمكنه اليوم أن يتجاهل هذا «العلم الجديد».

إشكالات الترجمة

تطلّبت منا هذه الترجمة زهاء السنتيْن والنصف من العمل الدؤوب والجماعي، شارك فيه مشكورًا فريق «أدب» في شخص الأستاذيْن د.عبدالله السفياني ونواف بن سليم البيضاني. كان لا بدّ لنا أن نعمل معًا لطبيعة هذا الكتاب الفريدة من نوعها؛ لأنّه كتاب يتناول علومًا مختلفة من الفلسفة إلى التاريخ إلى الحقوق وفقه اللغة مع نظرة معمّقة وجديدة في مجال الميثولوجيا اليونانيّة والرومانية، ومعارف أخرى تخصّ السياسة، والفلك والجغرافيا القديمة وغير ذلك ممّا يكوّن الموسوعة المعرفيّة في الحضارات القديمة. ولكن الأمر لا يتعلّق فحسب بسعة المعرفة التي على المترجم أن يتوفّر عليها، بل بصعوبة منال هذا الكتاب من حيث اللغة والأسلوب وتسلسل الخطاب، صعوبة جعلت الكثيرين يحجمون عن ترجمته مثلما ذكر ألان بونس في مقدّمة ترجمته الفرنسيّة. هذه الصعوبة اللغويّة المتمثّلة في لغة معقّدة، وفي مصطلحات اعتمدها فيكو وبدت غامضة لمن حاولوا ترجمة الكتاب إلى لغات أخرى، حتّى أنّ مترجمته إلى الفرنسيّة، كريستينا تريفولتسيو أميرة بيلجويوزو [Cristina Trivulzio pricipessa Belgioioso] في مقدّمة ترجمتها التي صدرت سنة ١٨٤٤، قالت عنها إنّها ليست لغة إيطالية، بل هي مزيج من اللاتينية ولهجة نابولي، وهذا غير صحيح.

لغة فيكو لغة إيطاليّة دقيقة أنيقة، ولكنّها صعبة المنال لأنّها تنتمي إلى طريقة في الكتابة معتمدَة لدى الفقهاء ورجال السياسة والقانون في القرنيْن السابع عشر والثامن عشر. هذه الطريقة تشحن النصّ بالاستطرادات والإحالات والجمل الاعتراضيّة في خطاب مسترسل دون تنقيط واضح، ودون فقرات تفصل بين فكرة وفكرة، بحيث يتيه القارئ وسط السيل الجارف من الألفاظ والأفكار التي تمرّ دون هوادة من الإيطالية إلى اللاتينية وإلى اليونانية.

وقد انتبه الكثيرون إلى هذه الخاصيّة التي من شأنها أن تجعل الكتاب متعسّر القراءة، حتّى بالنسبة إلى الإيطاليّين، حتى إنّ نيكوليني عَمَد في بداية القرن العشرين إلى ترتيب الكتاب في أقسام، وفي أبواب لم يضعها المؤلّف؛ ولذا فهي تظهر بين قوسيْن معقوفيْن للإشارة إلى أنّها من وضع الناشر، وإضافة إلى ذلك أحدث فقراتٍ عديدة تمكّن القارئ

من تتبّع أفكار فيكو ورقّمها لتيسير الرجوع إلى الفقرات السابقة أو التالية التي غالبًا ما يحيل عليها المؤلّف. من دون هذا الترقيم يصبح من الصعب جدًا، بل ومن المستحيل أن يجد القارئ طريقه فيها. وترقيم الفقرات ليس جديدًا في الدراسات، خاصّة في الأبحاث الدقيقة والمطوّلة، وقد سبق لي أن شاهدت ذلك في ترجمة الأجزاء الثلاثة الأولى من *حوليات الإسلام* للأمير المستشرق ليوني كايتاني، والتي لم تنشر بعد.

لذا، منذ ظهور طبعة نيكوليني بالترتيب الجديد للعناوين والفقرات المرقّمة صارت هذه الطبعة مرجعًا اعتمده المترجمون اللاحقون، ومنهم ألان بونس (٢٠٠١)، واعتمدناه نحن أيضًا ليكون نصّنا متوافقًا مع بقيّة النصوص الأخرى المترجَمة مهما كانت لغتها. ولا يخفى على أحد جدوى هذا الترقيم فهو يمكّن سواء القارئ أو الباحث أو المترجم من الرجوع إلى الفقرة التي تهمّه بطريقة سريعة ودقيقة، بينما لو كان عليه أن يبحث عن الإحالة على فقرة ما وسط نصّ طويل ومعقّد مثل هذا النصّ لأمضى في ذلك الساعات والأيام.

وإذا كانت صعوبة النصّ ملموسة بالنسبة إلى القارئ الإيطالي نفسه، وبالنسبة إلى مترجمين ينتمون إلى الجذر اللاتيني نفسه كالفرنسيّين والإسبان وإلى الحضارة الأوروبيّة بأصولها الإغريقيّة الرومانية، فما بالك بالقارئ العربي وبالمترجم العربي الذي ينقل إلى لغة مختلفة تمامًا، من حيث جذورها اللغويّة، ومن حيث انتمائها الحضاري. ودون التوغّل في نظريّات الترجمة وفي عدم تطابق اللغات تطابقًا كاملا من حيث وصف الكون المحيط بالإنسان، نقول إنّ اللغة هي تعبير عن رؤية للكون وكلّما ابتعدت اللغة المصدر عن اللغة الهدف تعقّدت أكثر عمليّة النقل، واتّسع الفراغ الذي على المترجم أن يملأه ليبلّغ لقارئه صورة لا تنتمي أصلا إلى عالمه. لذا كان من الضروري أن نضع هوامش كثيرة في أسفل الصفحة لشرح بعض المفردات الغريبة عن اللغة العربيّة وعن حضارة العرب، ولضبط أسماء الأعلام وتقديم نبذة مختصرة تعين القارئ على معرفة حياتهم وإنجازاتهم، وكان لا بدّ أن نذكر في الهوامش الشخصيات الخرافيّة والأسطوريّة المنتمية إلى الميثولوجيا الإغريقيّة والرومانية التي يعجّ بها الكتاب، خصوصًا شخصيّات هوميروس الخرافية التي قد لا يرى المترجم الأوروبي ضرورة لشرح وظائفها لأنّها تنتمي إلى عالمه الحضاري، بينما هي غريبة عن عالم العرب وحضارتهم.

وقد ساهم فريق «أدب» في وضع هوامش توضيحيّة لبعض المفردات اليونانيّة واللاتينيّة وفي ترجمة بعضٍ من الفقرات التي وردت باللاتينية في النصّ الأصلي.

باختصار يمكن القول إنّ هذا العمل كان عملًا مشتركًا وجماعيًّا لم يسبق لي أن جرّبته مع أيّ ناشر آخر. كان التحدّي كبيرًا ولولا المساندة الكاملة من طرف الأصدقاء في «دار أدب» ومن الأستاذيْن عبد الله السفياني ونواف بن سليم البيضاني، ولولا الاستعداد التامّ لتقديم المساعدة والنصح لما أمكنني الفوز بالرهان. لذا أجدّد لهم شكري الجزيل وأعبّر لهم عن امتناني لما أبدوه نحوي من حلم ومن صبر طيلة هذه المسيرة الشاقة.

أحمد الصمعي

تونس- ٢٠٢٢

جيامبتّيستا فيكو

[٢٣ يونيو ١٦٦٨ بنابولي - ٢٣ يناير ١٧٤٤ بنابولي].

كان والـده أنطونيـو فيكو بائـع كتب فقير الحال وكانت أمّه كانديدا ماسـولاّ ابنة صانع عربات. كان تكوينه شبه عصاميّ إذ لم يكن أبدًا راضيًا عن مناهج التدريس. نظرًا لظروفه الصحيّة والاقتصاديّة الصعبة امتهن التدريس وكتابة خطب في المناسبات الرسميّة لكسب لقمة العيش.

مـن بيـن مؤلّفاتـه نذكـر أهمّهـا: خطـب افتتاحيّـة [*orazioni inaugurali*]، ألقاها في السنوات ما بين ١٧٠١ و١٧٠٨، بمناسبة افتتاح السنة الأكاديمية بجامعة نابولي. والخطاب الخاصّ بسـنة ١٧٠٨ تمّ نشـره سـنة ١٧٠٩ تحت عنوان *منهج التدريس في زمننا الحاضر* [*De nostri temporis studiorum ratione*]؛ *في المعرفة الموغلة في القدم لدى الشعوب الإيطالية المستمدّة من أصول اللغة اللاتينية* [*De antiquissima Italorum sapienza ex linguae latinae originibus eruenda*]، ١٧١٠؛ *حياة أنطونيو كارافا* [*De rebus gestis Antonii Caraphae*]، ١٧١٦؛ *القانـون الكونـي* [*Il diritto universale*]، ويتكـوّن مـن الدراسات التالية: *Sinopsi del Diritto universale* و *De uno universi iuris principio et fine uno* (1720)، تبعـه *De constantia iurisprudentis* (١٧٢١)، وأخيـرًا *Notae* (١٧٢٢) أي ملاحظـات خاصّـة بكتابيْ *De uno* و *De constantia* (١٧٢٢)؛ *مبادئ علم جديد في طبيعة الأمم* [*Principi di una Scienza nuova d'intorno alla natura delle nazioni*]، ١٧٢٥؛ *حياة جيامبتّيستا فيكـو كتبهـا بنفسـه* [*Vita di Giambattista Vico scritta da se medesimo*]، ١٧٢٨؛ *خمسة كتب لجيامبتّيستا فيكو في مبادي علم جديد حـول الطبيعـة المشـتركة للأمـم* [*Cinque libri di Giambattista Vico de' principi d'una Scienza nuova d'intorno alla comune natura delle nazioni*]، ١٧٣٠؛ *مبـادئ العلـم الجديـد الخاصّ بالطبيعة المشـتركة للأمـم* [*Principi di Scienza nuova d'intorno alla comune natura delle nazioni*]، فـي طبعتهـا الثالثـة راجعهـا المؤلّف نفسه مع عديد التصويبات والإيضاحات والإضافات، ١٧٤٤.

في ترجمة الكتاب

اعتمدنا في إنجاز هذه الترجمة على المصادر التالية:

١. العلم الجديد، في طبعة إيناودي الإلكترونية (مصدرنا الأساسي)، مع الاطّلاع على نصوص أخرى، من بينها:

٢. العلم الجديد، في الطبعة الإلكترونيّة: **La scienza nuova 1744** الصادرة عن مختبر **ISPF**، ٢٠١٥.

٣. مبادئ العلم الجديد، طبعة ورقيّة: **Principi di scienza nuova d'intorno alla comune natura delle Nazioni di Giambattista Vico**، ميلانو ١٨٤٤.

٤. العلم الجديد، طبعة نيكوليني الالكترونيّة: **G. Vico, La scienza nuova seconda**، أشرف عليها **Fausto Nicolini** الناشر **laterza**، **Bari**، ١٩٢٨.

٥. العلم الجديد في الترجمة الفرنسية **[La Science Nouvelle]**، ترجمة كريستينا تريفولتسيو **(Cristina Trivulzio)**، ١٨٤٤. طبعة إلكترونية.

٦. العلم الجديد في الترجمة الفرنسيّة **[La science nouvelle]** في ترجمةَ **Alain Pons**. طبعة ورقيّة. الناشر **Fayard**، ٢٠٠١.


ABK
ABC
Dom. Ant. Vaccaro I.
Sesone. Sculp

[فكرة عن العمل]

شرح الرسم الموضوع في مستهلّ الكتاب ليكون تقديمًا لهذا العمل

[§ ١] على غرار ما قام به سبياس الطيبي في *لوحة الحياة*[١] بخصوص الأمور الأخلاقيّة، نقدّم نحن أيضًا *لوحة* للأمور المدنية، تصلح لتعطي للقارئ فكرة عن هذا العمل قبل قراءته، ولترجع إليها ذاكرته بأكثر يُسر، مستعينًا بما يمدّه به خيالُه بعد قراءتها.

[§ ٢] **إنّ المرأة ذات الصُّدغيْن المجنّحيْن الواقفة فوق كرة العالم**، أو كرة الطبيعة، هي *الميتافيزيقا*، مثلما يدلّ عليه اسمها. والمثلّث المشعّ الذي توجد بداخله عين ترى كلّ شيء، هو *الربّ* الذي يتجلّى من خلال *عنايته الإلهية*؛ *والميتافيزيقا* تتأمّل فيه منخطفة وهي واقفة *فوق نظام الأشياء الطبيعيّة* الذي تأمّله به الفلاسفة إلى حدّ الآن؛ لأنّها في هذا العمل، كلّما تطلّعت إلى أعلى، فإنّها تتسامى وتتأمّل في الربّ عالمَ الفكر الإنساني، الذي هو العالم الميتافيزيقي، لتبرهن عن عنايته الإلهية في عالم النفوس البشريّة، الذي هو العالم المدني، أي عالم الأمم. هذا الأخير يتشكّل من عناصر هي كلّ الأشياء التي تمثّلها الهيروغليفيّات التي نراها في أسفل الرسم. لذا، فإنّ الكرةَ، أي *العالم المادّي* أو الطبيعي، لا تستند إلى المذبح[٢] إلاّ من جهة واحدة، ذلك لأنّ الفلاسفة لم يتأمّلوا إلى حدّ الآن في

(١) سبياس الطيبي (القرن الخامس - القرن الرابع ق م). فيلسوف يوناني من طيبة باليونان. كان أحد تلاميذ سقراط. بقيت لنا من أعماله لوحة هي «لوحة الحياة» موضوعها بحث فلسفي يتستّر وراء لباس شاعري وشكل حواري. يقف بعض الشبّان محتارين في لوحة رمزية موجودة بين قرابين المعبد فيقبل عليهم شيخ ويشرح لهم معناها.

(٢) المَذبَح هو شبه منضدة أو أي بنية مشابهة تقدّم عليها القرابين والهبات لغايات دينية، أو مكان مقدس تقام فيه الطقوس الدينية. وهو موجود في الأديان الوثنية وكذلك في الكنائس.

* جميع الملحوظات والهوامش بأسفل الصفحة من وضع المترجم. ما يوجد في المتن بين قوسيْن توضيحات إضافيّة.

العناية الإلهية إلّا من خلال النظام الطبيعي، وعليه فإنّهم لم يبرهنوا إلّا عن جزء منها، ذلك الذي يقدّم به البشر عبادتهم إلى الربّ مصحوبة بالقرابين وبآيات تبجيل أخرى، باعتباره عقلًا سيّدًا حرّا ومطلقًا على الطبيعة؛ لأنّه بموجب غاياته الدائمة وهَبنا طبيعيًّا الوجود وحفظنا طبيعيًّا فيه. ولكنّهم، أي الفلاسفة، لم يتأمّلوا في العناية الإلهية من الجانب الأخصّ بالبشر، الذين من خاصيّاتهم الأكثر طبيعيّة كونهم اجتماعيّين. واحتسابًا لطبيعة البشر هذه رتّب الربّ وهيّأ الأمور البشريّة بطريقة تجعل البشر - الذين حُرموا من العدالة كلّها بسبب الخطيئة الأصلية، والذين كانوا يفعلون دائمًا وتقريبًا خلافَ ما يجب فعله بل وغالبًا عكسه تمامًا بحيث إنهم لخدمة منفعتهم الخاصّة كانوا سيعيشون في الوحدة مثل الوحوش البريّة، أن تحملهم تلك المنفعة نفسها بالطرق نفسها المختلفة وحتّى المعاكسة إلى العيش كبشر - يحترمون العدالة ويحافظون على مجتمعهم، لتكتمل بذلك طبيعتهم الاجتماعيّة، التي سنبيّن في هذا العمل أنّها الطبيعة المدنيّة الحقيقية للإنسان، وعليه فإنّه يوجد قانون في الطبيعة. وأحد المواضيع الذي يهتمّ بها هذا *العِلم* هو طريقة عمل العناية الإلهية، بحيث يكون تحت هذا الجانب بمثابة لاهوتيّة مدنيّة معقلنة للعناية الإلهية.

[§ ٣] **في حزام الأبراج التي تحيط بكرة العالم يظهر برج الأسد وبرج العذراء بأكثر** تجلّ أو بصفة منظوريّة كما يقولون، للدلالة على أنّ هذا *العِلم*، في مبادئه، يأخذ بالدرس قبل كلّ شيء هرقل(١)، لأنّنا نجد أنّ كلّ أمّة وثنيّة قديمة تروي أنّ لها هرقلًا أسّسها، وتتأمّل منه أعظم أعماله الذي هو قتل الأسد الذي بنفث النار من فمه أحرق غابة نيميا، ومن فروه ورأسه اتّخذ زينته منذ أن تمّ رفعه إلى النجوم، وسنرى هنا أنّ الأسد يرمز إلى الغابة الكبيرة في الأرض القديمة، وهرقل، الذي سنبيّن أنّه يرمز إلى نمط الأبطال السياسيّين الذين جاؤوا دون شكّ قبل الأبطال المحاربين، أضرم فيها النار ليجعلها صالحة للزراعة. هذا الرمز يشير كذلك إلى بداية الأزمنة التي لدى الإغريق، الذين يرجع الفضل إليهم بخصوص كلّ ما نعرفه عن العصور الوثنيّة القديمة، وتكون قد بدأت بالأولمبياد التي تستمدّ اسمها من الألعاب الأولمبيّة، التي يُقال أيضًا إنّ هرقل كان مؤسّسها، وتكون قد بدأت بألعاب نيميا، التي أقيمت احتفالاً بانتصار هرقل على الأسد بعد أن قتله. وهكذا فإنّ أزمنة الإغريق بدأت

(١) هرقل أو هركليس بطل أسطوري ابن الإله زيوس والبشريّة ألكميني. اشتهر بقوّته الخارقة وبأعماله الإثني عشر، ومنها قتل أسد نيميا والأفعى هيدرا وتنظيف زرائب الملك أوجيوس وغيرها من الإنجازات الخارقة.

في الفترة التي بدأت فيها عندهم زراعة الحقول. أمّا العذراء، التي وصفها الشعراء لعلماء الفلك وهي متوجّة بإكليل من السنابل، فهي تعني أن التّاريخ الإغريقي بدأ بالعصر الذهبيّ، الذي قال الشعراء عنه إنّه كان بالتحديد العصر الأوّل لعالمهم، عصر عُدّت فيه السنوات طيلة قرون عديدة بمواعيد حصاد القمح، الذي يُعتبر أوّل ذهب في الدنيا. ويوافق العصر الذهبيّ هذا لدى الإغريق عصرَ ساتورن[1] لدى اللاتينيّين، الذي يستمدّ اسمه من "*satis*"[2]، أي الحقول المزروعة. في العصر الذهبي ذاك، كما رواه لنا الشعراء بكلّ صدق، كانت الآلهة على الأرض في علاقة مع الأبطال: وسيبيّن هذا العمل[3] أنّ البشر الأوائل الوثنيّين، البسطاء والأجلاف، نتيجة لأوهام نشأت من مخيّلتهم الفيّاضة جدّاً والمشحونة بمعتقدات مُريعة، ظنّوا بالفعل أنّهم يشاهدون بحقّ الآلهة على الأرض. وسنبيّن لاحقًا[4] أنّه بمقتضى تماثل الأفكار، ودون أن يعرف بعضهم شيئًا عن البعض الآخر، نجد لدى الشرقيّين والمصريّين والإغريق واللاتينيّين أنّ الآلهة رُفعت كذلك إلى النجوم السيّارة ورُفع الأبطال إلى النجوم الثابتة: وهكذا من ساتورن، الذي هو «Κρόνος، كرونوس» عند الإغريق، كما أنّ «ρόνος، خرونوس» هو الزمن لديهم أيضًا، نستمدّ أيضًا مبادئ أخرى *كرونولوجيّة* أو عِلم الزمن.

[§ ٤] ولا ينبغي على القارئ أن يرى أنّه من غير اللائق أن يكون المذبح تحت الكرة وأنّه يحملها؛ لأنّنا سنرى أنّ المذابح الأولى في العالم أقامها الوثنيّون في سماء الشعراء الأولى: فقد أخبرونا في خرافاتهم أنّ السماء، فوق الأرض، حكمت في البشر وتركت منافع عظيمة للجنس البشري، زمن أن كان البشر الأوائل، مثل أطفال الجنس البشري الناشئ، يعتقدون أنّ السماء ليست أعلى بكثير من قمم الجبال، تمامًا مثلما يتصوّر الأطفال في وقتنا الحاضر أنّ السّماء أعلى بقليل من سطوح منازلهم. بعد ذلك، بتطوّر أفكار اليونانيّين، رُفعت إلى قمم أعلى الجبال، مثل *الأولمب*، الذي يقول عنه هوميروس[5] أنّه

---

(١) ساتورن الإله والكوكب. بما أنّ أسماء الآلهة هي التي أسنُدت أيضًا للكواكب فإنّنا سنستعمل الأسماء الإغريقيّة أو اللاتينية بخصوص الآلهة والأسماء العربيّة بخصوص الكواكب.

(٢) انظر في هذا الخصوص §§ ٧٣، ٥٤٩، ٧٣٢.

(٣) انظر § ٧١٣.

(٤) انظر § ٣٧٥.

(٥) هوميروس [القرن ٩ - ٨ ق. م.] شاعر إغريقي صاحب ملحمتيْ *الأوديسّا والإلياذة*. سنرجع إليه دائما تحت هذيْن العنوانيْن.

كان في زمنه مأوى الآلهة؛ وأخيرًا رُفعت السّماء فوق الكواكب، كما يقول لنا علماء الفلك، ووُضع *الأولمب* فوق سماء النجوم. والمذبح، الذي رُفع أيضًا إلى السماء، يشكّل فيها علامة سماويّة. والنّار التي فوقه، مرّت إلى البيت المجاور، الذي هو بيت الأسد، والذي كما سبق ذكره[1] يمثّل غابة نيميا، التي أضرم هرقل فيها النار لتصبح صالحة للزراعة، بينما رُفعت أسلاب الأسد إلى النجوم لتكون غنيمة نصر هرقل.

[§ ٥] **شعاع العناية الإلهية** الذي ينير حلية مُقعَّرة تزين صدر الميتافيزيقا، يمثّل القلب النقيّ الطاهر الذي يسكن دون شكّ الميتافيزيقا، قلب دون شوائب، لا تمسّه قذارة كبرياء الفكر أو رذيلة المتعة الجسديّة. بالأوّل صنع زينون[2] فكرة القدر، وبالثانية صنع أبيقور[3] فكرة الصدفة، وهكذا أنكر كلاهما العناية الإلهية. إضافة إلى ذلك، يشير الشعاع إلى أنّ معرفة الربّ لا تتوقّف عند ميتافيزيقا تنير نفسها بفضل الأشياء الفكريّة، بل تنظّم فقط أمورها الأخلاقيّة، مثلما فعل الفلاسفة إلى حدّ الآن: هذا ما سترمُز له الحلية لو كانت مسطّحة. ولكنّها مُقعَّرة، لذا ينعكس عليها الشعاع وينتشر في الخارج، للإشارة إلى أن الميتافيزيقا تعرف الربّ المدبّر للأمور الأخلاقيّة العموميّة، أي للتقاليد المدنيّة، التي بفضلها جاءت الأمم إلى الدنيا واستمرّ وجودها بها.

[§ ٦] والشعاع نفسه ينتشر من صدر الميتافيزيقا نحو تمثال هوميروس، أوّل مؤلّف وصل إلينا من الوثنيّة؛ ذلك لأنّه بفضل الميتافيزيقا، التي تشكّلت منذ البداية حسب تاريخ الفكر الإنساني منذ أن بدأ أولئك البشر يفكّرون بطريقة إنسانيّة، أمكن لها أخيرًا أن تنزل من عليائها في العقول الهمجية التي كانت لمؤسّسي الأمم الوثنيّة الأوائل، الذين لم يكونوا إلّا حواسًّا قويّة وخيالا متوقّدًا، ولهذا السبب نفسه كانت قدرتهم على استعمال العقل والفكر البشري لا تزال فاترة وفظّة، لذا نكتشف أنّ مبادئ الشعر ليست فقط مختلفة بل معاكسة تمامًا لما اعتقدناه إلى حدّ الآن، ونجدها مختفية إلى ذلك الحين، للأسباب ذاتها، في مبادئ المعرفة الشعريّة أو عِلم الشعراء اللاهوتيّين، الذي كان دون شكّ العِلم الأوّل في العالم بالنسبة إلى الأقوام الوثنيّة. **وتمثال هوميروس المنتصب فوق قاعدة متهدّمة** يعني

---

(١) § ٣.

(٢) زينون الإيلي [٤٩٠ ق.م - ٤٣٠ ق.م] أحد فلاسفة اليونان ما قبل سقراط.

(٣) أبيقور [٣٤٢/ ٣٤١ ق.م - ٢٧٠ ق.م] فيلسوف يوناني، مؤسّس المدرسة الفلسفية التي تحمل اسمه أي الأبيقوريّة.

اكتشاف هوميروس الحقيقي، الذي في الطبعة الأولى من *العِلم الجديد*[1] حدسناه ولكنّنا لم نفهمه، والذي في هذا العمل تأمّلنا فيه بالكامل وأقمنا البرهان عليه؛ ولأنّ هوميروس الحقيقي لم يكن معروفًا إلى حدّ الآن بقيت حقيقة الأشياء مختفيّة في الزمن الخرافي الذي عاشته تلك الأمم، وأكثر من ذلك أمور تلك العصور المظلمة التي يئس الجميع من التعرّف عليها يومًا، والتعرّف كذلك على الأصول الحقيقيّة الأولى لوقائع الزمن التاريخي: وهذه هي بالفعل أزمنة العالم الثلاثة التي وصفها لنا ماركوس تيرنتيوس فارّو[2]، الكاتب الأكثر معرفة بالتاريخ الروماني القديم، في عمله الهامّ *et HumanarumRerum Divinarum,*[3]، وهو عمل مفقود.

[§ ٧] إضافة إلى ذلك، سنلفت الانتباه إلى أنّه في هذا العمل، سنقصّ بفنّ نقدي جديد حقيقة مؤسّسي هذه الأمم نفسها التي مرّت عليها أكثر من ألف سنة قبل أن يظهر فيها الكتّاب الذين اهتمّ بهم النقد إلى حدّ الآن؛ وستنكبّ الفلسفة على درس الفقه، أي على المذهب الذي يُعنى بكلّ ما يتّصل بالإرادة البشريّة، مثلما هو الحال لكلّ تاريخ اللغات والتقاليد ووقائع الشعوب في أوقات السلم أو الحرب، والذي بسبب الضبابيّة المؤسفة للعلاّت والتنوّع اللامتناهي تقريبًا للمعلولات التي يتميّز بها، كانت الفلسفة دائمًا تحجم بنوعٍ من النفور عن تناوله بالدرس، وستجعل منه شكلا من العِلم مكتشفة فيه هدفًا تاريخيًا مثاليًا سرمديًّا تتبعه عبر الأزمنة تواريخ جميع الأمم: بحيث إنّه، تحت هذا المظهر الثاني الرئيسي، يتّخذ هذا *العِلم* شكل فلسفة السلطة. وبالفعل، بمقتضى مبادئ أخرى عُثر عليها هنا، والتي هي نتيجة مبادئ أخرى للشعر التي هي الأخرى اكتُشفت في هذا العمل، نبرهن على أنّ الخرافات كانت حكايات حقيقيّة وجديّة تقصّ عادات أقدم شعوب اليونان، وفي المقام الأوّل أنّ خرافات الآلهة كانت قصص الأزمنة التي كان فيها أناس البشريّة الوثنيّة الأكثر خشونة يعتقدون أنّ كلّ الأشياء الضروريّة أو النافعة للجنس البشري كانت آلهة. ومؤلّفو هذا الشعر كانوا الشعوب الأولى، الذين نجد أنّهم كانوا يتكونون من شعراء لاهوتيين يقصّون علينا دون أدنى شكّ من خلال خرافات الآلهة، أنّهم أسّسوا الأمم الوثنيّة. وهنا، بمبادئ هذا الفنّ النقدي الجديد، سنبحث في أيّ أزمنة بالتحديد، وفي أيّ مناسبات

---

(١) فيكو، *الأعمال*، طبعة باتيستيني (١٧٢٥).

(٢) ماركوس تيرنتيوس فارّو (بالإيطالية فارّوني) [١١٦-٢٧ ق م]. كاتب عالم وقاضي روماني.

(٣) أي «الأثريات البشرية والإلهية» والعنوان الكامل له «*Antiquitates rerum humanarum et divinarum*"

خصوصيّة للضرورات أو للمنافع البشريّة، كما رآها أناس الوثنيّة الأوائل، وهؤلاء الأخيرون، بديانات رهيبة خلقوها بأنفسهم وآمنوا بها، تصوّروا في البداية بعض الآلهة، ولاحقًا، بعضها الآخر. هذه السلالة الإلهية الطبيعيّة، أو نسب الآلهة، التي تشكّلت بطبيعة الحال في أذهان أولئك الأناس الأوائل، بإمكانها أن تمدّنا بجدول زمنيّ مدروس لتاريخ الآلهة الشعري. كانت الأساطير البطوليّة حكايات الأبطال الحقيقيّة وحكايات تقاليدهم البطوليّة، التي نجد أنّها ازدهرت لدى جميع الأمم في زمن همجيّتهم. لذا، نكتشف أنّ ملحمتيْ هوميروس تمثّلان كنزيْن عظيميْن من الاكتشافات بخصوص الحقّ الطبيعي لأناس اليونان في عهد البربريّة. ونحدّد في هذا العمل أنّ هذا الزمن قد دام لدى الإغريق إلى زمن هيرودوتس[1]، المسمّى بأب التاريخ الإغريقي، وكتبه مليئة في معظمها بخرافات، وأسلوبه يحتفظ بالكثير من أسلوب هوميروس. وهذه الخاصيّة احتفظ بها جميع المؤرّخين الذين جاؤوا بعده؛ لأنّ جُملهم هي بين الشعر والنثر العامّي. إلّا أنّ ثوقيديدس[2]، أوّل مؤرّخ جدّي وهامّ في اليونان، أعلن في بداية حكاياته أنّه إلى حدود زمن أبيه -أي زمن هيرودوتس الذي كان شيخًا حين كان ثوقيديدس طفلا- كان الإغريق لا يعرفون شيئًا عن تاريخهم القديم، وأكثر منه عن تاريخ الأمم الأجنبيّة، فيما عدا الرومان، التي نعرفها كلّها بواسطة الإغريق. تلك هي الظلمات الدامسة التي يبرزها لنا الرسم في خلفيّة المشهد، ومنها تأتي إلى النور المضاء بأشعّة العناية الإلهية التي تعكسها *الميتافيزيقا* على هوميروس، كلّ الحروف الهيروغليفيّة، التي تعني المبادئ المعروفة فقط من خلال تأثيراتها على هذا العالم من الأمم.

[§ ٨] **من بين هذه الهيروغليفيّات، المذبح الذي هو أبرزها**؛ لأنّ العالم المدني بدأ لدى جميع الشعوب مع الدين، مثلما أشرنا أعلاه إلى ذلك بعجالة[3]، وكما سنعود إليه بأكثر تفصيل فيما يلي[4].

---

(١) هيرودوت أو هيرودوتس، مؤرّخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ربّما بين ٤٨٤ و٤٢٥. عُرف بكتاب *تاريخ هيرودوت*

(٢) ثوقيديدس [٤٦٠-٣٩٥ ق م]. مؤرّخ إغريقي ومؤلّف كتاب: *تاريخ الحروب البيلوبونيزيّة*. وهو أوّل من استعمل المعطيات الاقتصادية والاجتماعية في سرد التاريخ.

(٣) §٢.

(٤) §٩.

[§ ٩] **فوق المذبح، على اليمين أوّل ما يظهر هو *lituus*،** أي العصا التي كان الكهنة يتسلّمون بها النذور. وهذا يدل على العرافة أو التنبؤ، التي كانت منها بدايات الأمور الإلهية عند الأمم. وبالفعل، بمقتضى خاصيّة عنايته الإلهية، عناية حقيقيّة عند اليهود، الذين يؤمنون بأنّ الربّ هو *عقل* لامتناه، وعليه فهو يرى كلّ الأزمنة في نقطة من السرمديّة، بحيث إنّ الربّ، إمّا بنفسه أو بواسطة الملائكة التي هي عقول، أو بواسطة الأنبياء الذين يتحدّث الربّ إلى عقولهم، يخبر أمّته بما سيحدث في المستقبل، عناية إلهيّة نحتها خيال الوثنيّين، الذين تصوّروا أنّ الأجسام كانت آلهة، ولذا عبر علامات محسوسة، كانت تخبر الشعوب بما سيحدث. وقد أُسنِد للربّ اسم *divinità* [ألوهيّة] من كافّة الجنس البشري، انطلاقًا من فكرة مماثلة عبّر عنها اللاتينيّون بواسطة فعل *divinari*، أي التكهّن بالغيب، ولكن مع الفارق الجوهريّ الذي أشرنا إليه، والذي تنجرّ عنه كلّ الفوارق الأخرى الجوهريّة، المبيّنة في هذا *العِلم*، بين الحقّ الطبيعي لليهود والحقّ الطبيعي للأقوام الوثنيّة [*gentes*]، وهذا الأخيرعرّفه المشرّعون الرومان باعتباره مدبّرًا من العناية الإلهية مع عادات وتقاليد البشر أنفسهم. وهكذا، في نفس الآن، يشير هذا ال *lituus* [العصا]، إلى مبدأ التاريخ الكوني الوثني، الذي نبيّن ببراهين ماديّة وفقهيّة، أنّه بدأ مع الطوفان. بعد قرنيْن من ذلك، كما يروي التاريخ الخرافي، حكمت السماء على الأرض ووهبت للجنس البشري منافع عديدة وجليلة، وبتماثل في الأفكار بين المشرقيّين والمصريّين والإغريق واللاتينيّين وأقوام أخرى وثنيّة، ظهرت بصفة مماثلة ديانات تتبع كلّ منها جوبيتر[1] خاصّا بها. وبالفعل، بعد وقت طويل من الطوفان أبرقت السّماء وأرعدت، وتحت تأثير البروق والرعود، بدأ البشر يستقرئون النذور كلّ من جوبيتر مختلف يؤمن به، وهذا التعدّد للإله جوبيتر، الذي يجعل المصريّين القدامى يقولون إنّ إلههم جوبيتر آمون[2] هو الأقدم من بين الآلهة، قد أثار إلى حدّ الآن تعجب الفقهاء. ومن خلال البراهين نفسها نثبت أنّ ديانة اليهود هي أقدم من الديانات التي تأسّست بها الأقوام الوثنيّة، وعليه نبرهن على حقيقة الديانة المسيحيّة.

---

(١) جوبيتر: إله السماء والرعد وملك الآلهة.

(٢) زيوس آمون، إله يجمع بين ربّ المصريّين القدامى آمون، ورب الإغريق زيوس.

[§ ١٠] فوق المذبح نفسه، بالقرب من *العصا*، نشاهد الماء والنار، والماء موجود في جرّة صغيرة. وبالفعل، من أجل التنبّؤ بالغيب ظهرت الذبائح القربانيّة لدى الوثنيّين، انطلاقًا من تقليد كان شائعًا بينهم والذي كان اللاتينيّون يسمّونه *procurare auspicia*، أي تقديم القربان لفهم النذور، لتنفيذ النذور الإلهية أو أحكام جوبيتر. تلك كانت لدى الوثنيّين الأمور الإلهية التي جاءت لهم منها كلّ الأمور الإنسانيّة.

[§ ١١] وأولاها هي مؤسّسة الزواج، المشار إليها بالمشعل الملتهب بالنار فوق المذبح والمستند إلى الجرّة. والزواج، كما يتّفق على ذلك كلّ السياسيّين، هو مشتل الأُسَر، مثلما أنّ الأُسَر هي الشيء نفسه بالنسبة إلى الجمهوريّات. وللإشارة إلى ذلك، فإنّ المشعل، مع أنّه صورة هيروغليفيّة لشأن إنساني، يوجد فوق المذبح بين الماء والنار، وهما هيروغليفيّان يمثّلان الطقوس الإلهية، بالطريقة نفسها التي كان الرومان القدامى يحتفلون بالزواج *aqua et igni* [الماء والنار]؛ لأنّ هذيْن الشيئيْن العاديّيْن -وقبل النار، الماء الدائم التدفّق، وهما الأكثر ضرورة للحياة- كانا كما أدركنا ذلك من بعد، بهدف محدّد من العناية الإلهية هما اللذان قادا البشر للعيش في مجتمعات.

[§ ١٢] والأمر الثاني من الأمور الإنسانيّة هو دفن الموتى، الذي يُقال باللاتينيّة *humare*، الذي جاء منه *humanitas*، ممثّلا بالمرمدة[1] الموضوعة جانبًا في الغابة، والتي تشير إلى أنّ دفن الموتى كان جاريًا منذ الفترة التي كان فيها الجنس البشري يقتات من الفاكهة في الصيف والبلّوط في الشتاء. وعلى المرمدة كُتب D.M[2]، الذي يعني» *إلى ربّ أرواح الموتى*». ويعبّر هذا القول عن التوافق المشترك لدى الجنس البشري على الرأي، الذي أكّد حقيقته بعد ذلك أفلاطون، القائل بأنّ الأرواح لا تفنى مع أجسادها، بل هي غير فانية.

[§ ١٣] وهذه المرمدة تشير كذلك لدى الوثنيّين أنفسهم إلى أصل قسمة الحقول، التي يتوجّب علينا أن نبحث فيها عن أصل التمييز بين المُدن والشعوب وأخيرًا الأمم. سنجد بالفعل أنّ الأعراق -أوّلا العرق المنسوب إلى حام، ثمّ العرق المنسوب إلى يافث وأخيرًا ذلك المنسوب إلى سام، التي أنكرت دين أبيها نوح وحُرمت منه، بينما كان

(١) مكان توضع فيه قوارير رماد الأموات بعد الحرق.

(٢) أي *Dis Manibus*، المقصود بها «إلى رب أرواح الموتى»

الوحيد في حالة الطبيعة تلك الذي يمكنه بواسطة الزواج الحفاظ عليها في مجتمع الأُسَر- تفرّقت وهامت على وجهها مشتّتة في حياة حيوانيّة وسط غابة الدنيا الكبيرة، لمطاردة الإناث الخجولات والشرسات وللفرار من الوحوش المفترسة التي كانت الغابة الكبيرة تعجّ دون شكّ بها، وهكذا تشتّتوا بحثًا عن المراعي والمياه، ولجميع هذه الأسباب وبطول المدّة، وصلوا إلى وضع شبيه بوضع الحيوانات. ثم إنه في بعض المناسبات المرتّبة من قِبل العناية الإلهية، مناسبات يكتشفها ويدرسها هذا *العِلم*، فزع أولئك البشر واستيقظوا برعب شديد سبّبته لهم ألوهيّة السّماء وجوبيتر التي صنعوها لأنفسهم وآمنوا بها، وبعضٌ منهم توقّفوا أخيرًا واختبؤوا في أمكنة محدّدة. وهناك، استقرّوا صحبة نساء محدّدات، وبخشية من الآلهة التي تعلّموا معرفتها، ومختبئين من السماء، أقاموا طقوس الزواج بعلاقات جنسيّة متديّنة ومحتشمة، وأنجبوا منهنّ أبناء مؤكّدي النسب، وبهذه الطريقة أسّسوا الأُسَر. بعد ذلك، بما أنّهم بقوا هناك ودفنوا هناك أسلافهم، وجدوا أنفسهم قد أسّسوا واقتسموا في ذلك المكان الملكيّات الأولى للأراضي، والتي سُمّي أسيادها *بالجبابرة*، هذه الكلمة تعادل بالإغريقية *أبناء الأرض*، أي المنحدرين من أولئك الذين دفنوا هناك، وعليه اعتبروا أنفسهم أشرافًا، ناسبين بحقّ نبالتهم -في هذا الوضع الأوّلي للأمور البشريّة- إلى أنّهم أنجِبوا بصفة إنسانيّة وفي خشية من الآلهة. ومن هذه الطريقة في الإنجاب [*generare*] بصفة إنسانيّة، وليس بغير ذلك، جاءت تسمية *Umana Generazione* [الذريّة البشريّة]، والسلالات التي نشأت منها والتي تشعّبت إلى عائلات متعدّدة متشكّلة بهذه الصفة، سُمّيت بالناس الأوائل [*prime Genti*]، بسبب هذه النشأة. في هذه الفترة القديمة جدّا بدأ -وفي نفس الوقت بدأت مادّته- مذهب *قانون الناس الطبيعي*، الذي يمثّل جانبًا آخر رئيسيًّا ينبغي أن يُنظر به إلى هذا *العِلم*. الآن، أولئك الجبابرة، لأسباب ماديّة وأخلاقيّة على حدّ سواء، كانوا يملكون قوّة وقامة عظيمتيْن جدّاً، وبما أنّ هذه الأسباب لم تلعب دورها لدى الذين كانوا يؤمنون بالربّ الحقّ، خالق الكون وخالق الأوّل من الجنس البشري، آدم، فإنّ اليهود كانوا منذ بداية العالم ذوي قامة عادية. وهكذا، بعد المبدأ الأوّل، الذي هو العناية الإلهية، وبعد المبدأ الثاني الذي هو الزواج الرسمي، يكون المعتقد الشمولي بخلود الروح، الذي بدأ بطقوس الدفن، هو الثالث من بين المبادئ التي يستند عليها هذا *العِلم* لتناول موضوع أصول الأشياء المتعدّدة والمختلفة التي يدرسها.

[§ ١٤] **من الغابات التي وُضعت فيها المرمدة يتقدّم محراث**، وهو يشير إلى أنّ آباء الأقوام الأولى كانوا الأ*قوياء* الأوائل في التاريخ. ومنه نفهم أنّ مؤسّسي الأمم الأولى الوثنيّة الذين سبقت الإشارة إليهم[١] كانوا الهراقل، وقد عدّ منهم فارّو أربعين وكان المصريّون القدامى يقولون إنّ هرقلهم هو أقدمهم، لأنّ الهراقل هم الذين استصلحوا أولى أراضي العالم وهيّأوها للزراعة. وكان الآباء الأوائل للأمم الوثنيّة عادلين بمقتضى ما كانوا يفترضون أنّها التقوى، التي تتمثّل في التقيّد بالنذور التي يرون فيها وصايا جوبيتر الإلهية. ومن اسمه اللاتيني *Jous* جاء الاسم القديم الذي يعني القانون *gius*، الذي اختُصر بعد ذلك ليصبح *Jus* [الحقّ أو القانون]. ولهذا السبب، لدى جميع الأمم تُعلّم العدالة [*giustizia*] طبيعيًّا مع التقوى. وكان أولئك الآباء حذرين؛ لأنّهم كانوا يقدّمون القرابين للحصول على النذور، أي لفهمها فهمًا جيّدًا بحيث يستمدّون منها النصائح الصحيحة حول ما يتوجّب عليهم فعله في الحياة مطيعين أحكام جوبيتر. وكانوا معتدلين، بفضل الزواج، وهكذا كانوا أيضًا أقوياء مثلما قلنا سابقًا. وهنا نعطي مبادئ أخرى للفلسفة الأخلاقيّة، نستنتج منها أن معرفة الفلاسفة الباطنيّة يجب أن تتعامل مع معرفة المشرّعين العاميّة. بفضل هذه المبادئ، جميع الفضائل تجد جذورها في التقوى وفي الدين، الوحيدان اللذان يضفيان على الفضائل نجاعتها في الفعل وعليه يفترض الإنسان منهما أنّ ما هو خير هو كلّ ما يريده الربّ. ونعطي هنا مبادئ جديدة للمذهب الاقتصادي[٢]، وبمقتضاها فإنّ الأبناء طالما كانوا تحت سلطة آبائهم يجب اعتبارهم ضمن منظومة الأسرة، وعليه فإن همّهم الوحيد هو أن يتكوّنوا وأن يمتثلوا للتقوى وللدين. وبما أنّهم ليسوا قادرين بعد على فهم الجمهوريّة والشرائع، فالواجب عليهم هو أن يُجِلّوا ويخشوا آباءهم كما لو كانوا صورة حيّة من الإله، بحيث يجدون أنفسهم بعد ذلك جاهزين طبيعيًّا لاتّباع ديانة آبائهم وللدفاع عن وطنهم الذي يحفظ لهم عائلاتهم، وبناء عليه يحترمون الشرائع التي سُنّت للحفاظ على الدين والوطن؛ ذلك أنّ العناية الإلهية تدبّرت الأمور الإنسانية بهذه الغاية السرمديّة وهي أن تتأسّس أوّلا -بواسطة الدين- الأُسَر، التي ستقوم عليها بعد ذلك الجمهوريّات مع الدساتير.

---

(١) § ٣.

(٢) المعنيّ به هنا هو كلّ ما يخصّ شؤون الأسرة.

[§ ١٥] **يستند المحراث بشيء من العظمة على المذبح** ليجعلنا نفهم أنّ الأراضي الأولى المحروثة كانت المذابح الأولى للأقوام الوثنيّة وللإشارة أيضًا إلى سموّ الطبيعة التي كان الأبطال يرونها في أنفسهم إزاء *شركائهم*، وهؤلاء كما سنرى لاحقًا[١] ممثّلون من خلال المقبض الذي ينحني قرب قاعدة المذبح. وعلى هذا السموّ في الطبيعة، كما سنبيّن ذلك، كان الأبطال يقيمون حقوقهم وعِلمَهم وكذلك الإدارة التي كانوا يضطلعون بها في الأمور الإلهية، أي نذور الآلهة.

[§ ١٦] ولا يظهر المحراث إلّا طرف سكّته[٢] ويخفي تقوّسها، لأنّه قبل معرفة استعمال الحديد كانت سكّة المحراث مصنوعة من قطعة خشب مقوّسة صلبة جدّاً وقادرة على شقّ الأرض وقلبها. وهذا التقوّس كان يُسمّى عند اللاتينيّين *urbs*، ومنه جاء اللفظ القديم *urbum*، أي *مقوّس*. والمعنيّ بهذا أنّ المدن الأولى، التي تأسّست جميعها على حقول مزروعة، قامت بفضل بقاء الأُسَر طويلا منزوية ومختفية وسط الفظاعة المقدّسة للغابات الدينيّة التي نجدها لدى جميع الأمم الأولى الوثنيّة والتي -حسب فكرة مشتركة لدى جميعها- سُمّيت من طرف الشعوب اللاتينيّة *luci*، أي أراضٍ محروقة داخل تحويطة الغاب. وقد أمر موسى أيضًا أن تُحرق الغابات حيثما يوسّع شعب الربّ غزواته. وهذا بنصح من العناية الإلهية حتّى لا يختلط من جديد أولئك الذين بلغوا قدرًا من الإنسانيّة بالمتشرّدين الذين بقوا يعيشون في رذيلة الشراكة في الأشياء وفي النساء.

[§ ١٧] **على يمين المذبح نشاهد مقبض دفّة**، ويعني أصل هجرة الشعوب بواسطة الإبحار. وإن كان يبدو أنّه ينحني عند قاعدة المذبح، فذلك يعني أسلاف أولئك الذين قاموا بالهجرات. وهؤلاء الأسلاف كانوا في البداية كفّارًا لا يعرفون أيّ إله، كانوا أناسًا أشرارًا لأنّ روابط القرابة فيما بينهم لم تكن مميّزة بواسطة الزواج، وغالبًا ما يضاجع الابن أمّه، والأب بناته، وأخيرًا لأنّهم كانوا مثل الحيوانات المتوحّشة، لا يعرفون أيّ مجتمع وسط تلك المجموعة الفظيعة، وكانوا وحيدين وضعفاء كذلك، وفي النهاية بائسين تعيسين، ينقصهم كلّ شيء ممّا هو ضروري للبقاء على قيد الحياة بأمان. وللفرار من الأذى الذي كان يلحقهم في الخصومات التي كانت تنشب في تلك المجموعات

---

(١) § ١٧.

(٢) سكة المحراث حديدة مثبتة بالمحراث تشق الأرض.

الحيوانيّـة وللنجاة بأنفسـهم وبحياتهم لجـأوا إلى الأراضي التي زرعهـا الرجال الأتقياء الأعفّـاء والأقويـاء الأشـدّاء، أي أولئـك الذين كانوا قـد ارتبطوا مع بعضهـم البعض في مجتمـع الأُسَـر. ومـن هذه الأراضي اسـتمدّت المدن اسـم *are* الذي سُـمّيت به في كلّ العالـم القديـم الوثنـي؛ لأنّ هـذه الأراضـي كانت دون شـكّ أولـى المذابح لـدى الأمم الوثنيّة، والنار الأولى التي أوقدت فيها كانت تلك التي أُضرِمت في الغابات لاستصلاحها بقصـد الزراعـة، والمـاء الأوّل كان ماء المنابـع الدائمة التدفّق التي كانـت ضروريّة لكي لايحتاج بعد ذلك أولئك الذين أسّسـوا الإنسـانيّة إلى الترحال والتشـرّد الحيواني، بحثًا عن الماء، بل على العكس لكي يسـتقرّوا طويلا فوق أراضٍ محدّدة ويتركوا بذلك عادة التجـوّل. وبمـا أنّ هـذه المذابـح كانـت أولـى ملاجـئ العالـم، وكان قـد عرّفهـا تيتوس ليفيوس[١] بصفة عامّة «*الرسـم القديم لمؤسّسـي المدن*»[٢]، ويُقال إنّه في الملاذ [*luco*] الـذي تـمّ فتحه فـي الغاب المقدّس أسّـس رومولوس[٣] مدينة روما، فـإنّ المدن الأولى جميعها تقريبًا سُمّيت *are*. إلى هذا الاكتشاف الأصغر يُضاف اكتشاف آخر أهمّ وهو أنّه لـدى الإغريـق، الذيـن جاء لنا منهم مثلما سبق أن أشـرنا إلى ذلك[٤]، كلّ مـا نعرفه عن الوثنيّـة القديمـة، فـإنّ تراقيا أو سـيثيا الأولـى، أي الشـمال الأوّل، وآسـيا الأولى والهند الأولـى، أي المشـرق الأوّل، وموريتانيـا الأولـى أو ليبيـا، أي الجنـوب الأوّل، وأوروبا الأولى أو إسـبيريا الأولى، أي الغرب الأوّل، ومعها المحيط الأوّل، قد نشـأت جميعها داخـل اليونـان نفسـه. بعد ذلـك، حين خـرج الإغريق من بلادهم وانتشـروا فـي العالم، أعطوا بحسـب تشـابه المواقع، هذه الأسـماء لجهات العالم الأربع والمحيط الدائر بها. وقولنا هو أنّ هذه الاكتشـافات تعطي للجغرافيا مبادئ جديدة كنّا في حاجة إليها، تمامًا مثل المبادئ الجديدة التي أسـندناها للجدول الزمني، والجغرافيا والجدول الزمني هما عينا التاريخ، لقراءة التاريخ المثالي السرمدي الذي ذكرناه آنفًا[٥].

---

(١) Titus Livius: تيتـوس ليفيـوس [٥٩-١٦ ق م] أعظـم المؤرّخيـن حـول رومـا القديمـة ومؤلّـف *التاريخ الروماني*.

(٢) ورد باللاتينية: *vetus urbes condentium consilium* في *التاريخ الروماني*، I، ٨، ٥.

(٣) رومولوس [٧٧١-٧١٦ ق.م]: تذكر الأسطورة التي نشأت في القرن الثالث ق.م. أنّ رومولوس وريموس كانا أخوين توأم والدهما هو الإله مارس. وتقول الأسـطورة إنّ رومولوس أسّـس روما وكان أوّل الملوك الأسطوريّين لهذه المدينة.

(٤) §٣.

(٥) §٧.

[§ ١٨] وهكـذا، فإنّ أولئك الكفّار المشـرّدين الضعفـاء، المطاردين والمهدّدين في حياتهـم مـن قِبـل الأقوى منهم، وجـدوا ملاذًا في تلـك المذابح، وقتلَ الأتقياءُ الأشـدّاءُ أولئـك المتعنّفيـن ووضعوا تحت حمايتهـم الضعفاءَ الذين تقبّلوهـم باعتبارهم *famoli* [أي خدمًـا أو عبيـدًا]، بمـا أنّهـم لم يجلبـوا معهم سـوى حياتهم، ووفّروا لهم الوسـائل لتأميـن وجودهـم. ومـن أولئـك الخدم [*famoli*] اسـتمدّت الأُسـر اسـمها الـذي يقال بالإيطالية *famiglie* [أسـرة أو عائلة]، وكانوا السـابقين للعبيد الذين سـيظهرون من بعد مع أسـرى الحـروب. وهكذا، كما تتفـرّع الغصون من الجذع، بـرزت أصول الملاجئ، مثلما رأينا ذلك[١]، *وأصل الأُسَـر*، التي قامت على أساسـها بعد ذلك المُدن، كما سنرى لاحقًا[٢]، وأصل إعمار المدن، الذي كانت وظيفته تمكين البشر من العيش في أمان من الظالمين والمعنِّفين؛ وأصل الشرائع التي يتوجّب تطبيقها داخل كلّ تراب؛ وأصل توسّع السـلطات، التي تتمّ عبر إقامة العدالة، والقوّة والحِلم، التي هي الفضائل الأكثر سـطوعًا للأمراء وللدول؛ وأصل شـعارات النبالة، التي كانت أولى حقول سـلاحها هي الحقول الأولى المزروعة، وأصل الشُّـهرة التي استمدّ منها الخدم [*famoli*] أسماءهم، والمجد، الذي يقوم دائمًا على الخدمات المقدّمة للجنس البشري، وأصول النبالة الحقيقيّة، التي تنشأ بطبيعـة الحـال من ممارسـة الفضائـل الأخلاقيّـة، وأصـل البطوليّة الحقيقيّـة، التي تُخضِـع المتكبّريـن وتُنجـد من هم في خطـر، والشـعب الروماني فاق في هـذه البطوليّة جميع الشعوب ما جعل منه سيّد العالم؛ وأخيرًا أصول الحرب والسلم؛ لأنّ الحرب تبدأ في العالم بالدفاع عن النفس، ومنه تأتي فضيلة القوّة الحقيقيّة. وفي هذه الأصول جميعها نجد مصوّرًا الرسـم الدائم للجمهوريّات، الذي يتعيّن على الدول، حتّى وإن قامت على العنف والحيلة، أن تمتثل له إن أرادت لنفسـها الدوام، والشـيء نفسـه على العكس للتي قامت على هذه الأصول الورعة فهي تؤول إلى الخراب بعد ذلك جرّاء الخديعة والعنف. هذا الرسم للجمهوريّات يتأسّس على المبدأيْن الدائميْن للأمم، اللذيْن هما عقل الإنسان وجسـده. فالبشـر يتكوّنـون بالفعل مـن هذيْن الجزئيْـن، أحدهما نبيل، وعليـه فهو الذي يحكم، والآخر وضيع، وعليه أن يخدم. ولكن بسـبب فسـاد الطبيعة الإنسانيّة، فإنّ البشر في جملتهم لا يقدرون من دون إسـعاف الفلسـفة، التي لا تطال إلّا قلّة منهم، على جعل

---

(١) § ١٧.

(٢) § ٢٥.

العقل يحكم في كلّ فرد منهم الجسد، لا أن يخدمه. وهكذا، فإنّ العناية الإلهية تدبّرت الأمور الإنسانيّة حسب نظام سرمدي يقضي أنّه في الجمهوريّات، أولئك الذين يستعملون عقولهم هم الذين يأمرون، وأولئك الذين يستعملون أجسادهم هم الذين يطيعون.

[§ ١٩] **المقبض ينحني عند قدم المذبح؛** لأنّ أولئك الخدم [*famoli*]، باعتبارهم أناسًا دون آلهة، لا يقتسمون مع الأشراف شراكة الأمور الإلهية، وعليه لا يتشاركون معهم في الأمور البشريّة، وبالأساس في حقّ إقامة قران رسميّ، الذي كان اللاتينيّون يسمّونه *connubium*، والطقس الاحتفالي لعقد القران يقوم قبل كلّ شيء على النذور، التي بمقتضاها يعتبر الأشراف أنفسهم من أصل إلهي وينسبون إلى الخدم أصلا حيوانيًّا؛ لأنّهم نشؤوا من علاقات جِماعٍ رذيلة. وهذه الطريقة في اعتبار أنّه توجد طبيعة أكثر نبلاً من غيرها موجودة كذلك عند المصريّين القدامى، والإغريق واللاتينيّين، وهي تصلح أساسًا لبطوليّة يُفترض أنّها طبيعيّة، والتي يؤكّد عليها كثيرًا التاريخ الروماني القديم.

[§ ٢٠] أخيرًا، **المقبض مبتعد عن المحراث الذي أمام المذبح،** يوجّه نحوه طرفًا معاديًا ومهدّدًا. وهذا يعني أنّ الخدم الذين لا يملكون -مثلما رأينا- أيّ نصيب من ملكيّة الأراضي التي كانت جميعها تحت سلطة الأشراف، وأُنهكوا لخدمتهم المتواصلة للأسياد، انتهى بهم الأمر بعد فترة طويلة إلى التمرّد من أجل مطالبهم. ثاروا إذن ضدّ الأبطال في نضالاتهم الزراعيّة التي سنبيّن لاحقًا[1] أنّها كانت أقدم بكثير من تلك التي نقرأ عنها في التاريخ الروماني المتأخّر، ومختلفة جدّاً عنها. والكثيرون من الزعماء الذين كانوا يقودون تلك الجموع من الخدم التي ثارت على الأبطال الذين هزموهم، كما حدث غالبًا لفلاّحي مصر القديمة مع الكهنة، حسب ما لاحظه بيتروس كونيوس[2] في كتابه *De republica Hebraeorum*، للنجاة بأنفسهم اختاروا الفرار مع عائلاتهم، عبر البحر وذهبوا للبحث عن أراض خالية من السكان على طول سواحل البحر المتوسّط، نحو الغرب، الذي كان في تلك الفترة غير مأهول. تلك كانت نشأة هجرة

---

(١) § ٥٨٣.

(٢) هو Peter Van der Kuhn [١٥٨٦-١٦٣٨]، في كتاب *De republica Hebraeorum Libri III*, Leyde، ١٦٣٢.

الشعوب الذين كانوا قد تحضّروا بواسطة الدين، من الشرق، خصوصًا من فينيقيا، ومن مصر، وكما حدث من بعد لنفس الأسباب، مع الإغريق. بهذه الصفة، لم تكن اجتياحات الشعوب، يمكن لها أن تتمّ عبر البحر؛ ولم تكن الرغبة في الحفاظ على ممتلكات بعيدة بفضل مستعمرات معترف بها؛ لأنّنا لا نقرأ في أيّ نصّ عن أيّ امبراطوريّة امتدّت من الشرق، من مصر أو من اليونان نحو الغرب؛ وليست لأسباب تتعلّق بالتجارة، لأنّ الغرب في تلك الأزمنة لم يكن مأهولا على السواحل. بل كان الشرع البطولي هو الذي أجبر مجموعات من البشر ينتمون إلى تلك الأمم، على ترك أراضيهم، لأنّه من الطبيعي ألاّ يترك المرء أرضه إذا لم يكن مجبرًا على ذلك لضرورة ما ملحّة جدّاً. وبمستعمرات من هذا النوع، التي سُمّيت لهذا السبب بالمستعمرات البطولية ما وراء البحر، انتشر الجنس البشري عن طريق البحر في باقي العالم المعروف، بالطريقة نفسها التي انتشر بها بصفة حيوانيّة على الأرض قبل ذلك بأزمنة طويلة.

[§ ٢١] **تبرز لوحة أمام المحراث** كُتبت عليها حروف من الأبجديّة اللاتينيّة القديمة، التي مثلما يروي تاسيتوس[١]، تشبه الأبجديّة الإغريقيّة القديمة، وتحتها أبجديّة أكثر حداثة، وهي التي احتفظنا بها. وتشير اللوحة إلى أصل اللغات والحروف المسمّاة بالعاميّة، التي نرى أنّها ظهرت بعد زمن طويل من تأسيس الأمم، والحروف وُجدت بعد اللغات بكثير. ولقول ذلك، تستند اللوحة إلى قطعة من عمود كورنثي[٢]، الأحدث من بين الأنظمة الهندسيّة.

[§ ٢٢] واللوحة موضوعة بالقرب من المحراث وبعيدًا عن مقبض الدفّة، للإشارة إلى نشأة اللغات الأصيلة، التي تشكّلت في البداية كلّ واحدة منها في أراضيها، هنالك حيث انتشر مؤسّسو الأمم عبر غابة الأرض الكبرى، مثلما سبق قوله[٣]، وفي النهاية استقرّوا حيث رمتهم الأقدار واضعين حدّا لتجوالهم الحيواني. إلى هذه اللغات الأصيلة انضافت وامتزجت بعد زمن طويل، اللغات الشرقيّة، المصريّة أو الإغريقيّة، مع حركة

---

(١) بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس [٥٨-١٢٠ م]، مؤرّخ وسيناتور روماني. ما تبقّى من كتاباته أجزاء من *الحوليات والتاريخ*. الإحالة هي على *الحوليات*، XI، ١٤، ٤.

(٢) أحد الأنظمة الهندسية الثلاثة في العمارة الكلاسيكية القديمة.

(٣) § ١٣.

هجرة الشعوب على سواحل المتوسط التي تحدّثنا عنها أعلاه[1]. وهنا سنقدّم مبادئ أخرى اشتقاقيّة، وسنجد الكثير منها على امتداد هذا العمل، التي يُمكننا بفضلها التمييز بين الألفاظ الأصيلة من تلك المتأتية دون شكّ من أصل أجنبي، مع هذا الفارق المهم: إنّ اشتقاقات اللغات الأصيلة هي قصص الأشياء التي تعنيها الألفاظ حسب هذا الترتيب الطبيعي للأفكار، الذي يضع في البداية الغابات، ثمّ الحقول المزروعة والأكواخ، وبعد ذلك البيوت الصغيرة والقرى، ثمّ المدن، وأخيرًا المدارس والفلاسفة، وباتّباع هذا الترتيب فإنّه انطلاقًا من هذه الأصول الأولى يسير التطوّر. أمّا أصول اللغات الأجنبيّة فهي ليست إلّا قصص ألفاظ تسلّمتها لغة من لغة أخرى.

[§ ٢٣] واللوحة تظهر فحسب بداية الأبجديّات وهي موضوعة أمام تمثال هوميروس، لأنّ الحروف، مثلما تنقله لنا الروايات الإغريقيّة بخصوص الحروف اليونانيّة، لم تُخترع في الوقت نفسه. ومن الواضح أنّها لم تُبتدع جميعها في زمن هوميروس، إذ تمّ إثبات أنّه لم يترك أيّا من ملحمتيْه كتابيًّا. وستأتي لاحقًا[2] معلومات أكثر دقّة بخصوص أصل اللغات الأصيلة.

[§ ٢٤] أخيرًا، على السطح المضاء أكثر من كلّ الباقي؛ لأنّه يعرض الهيروغليفيّات التي تمثّل الأشياء الإنسانيّة المعروفة أكثر، يُبرز الرسّام البارع[3]، حسب تنظيم فريد من نوعه، حزمة رومانيّة وسيفًا وكيسًا متكّأً على الحزمة وميزانًا وكادوسيوس ميركوريوس[4].

[§ ٢٥] الهيروغليف الأوّل هو الحزمة؛ لأنّ السلطات المدنيّة الأولى قامت على اتّحاد السلطات الأبويّة للآباء، الذين كانوا لدى الوثنيّين في الآن نفسه علماء في التكهّن بالنذور، وكهنة يقومون بتقديم القرابين للحصول عليها، أي لتأويلها تأويلا جيّدًا، وملوكًا، ذوي سلطة ملكيّة دون شكّ، يأمرون بما يعتبرونه رغبات الآلهة المعبّر عنها بواسطة النذور، وعليه فهم ليسوا رعايا لأحد إلّا للإله. وهكذا فإنّ الحزمة متكوّنة من

(١) § ٢٠.

(٢) § ٣٢-٣٥، ٤٢٨ وما يتبع.

(٣) هو دومينيكو أندريا فكّارو، Domenico Andrea Vaccaro، [١٦٨١-١٧٥٠].

(٤) عصا هيرمس أو الكادوسيوس وهي عصا يلتفّ حولها ثعبانان ترمز إلى الإله هيرمس اليوناني أو ميركوريوس الروماني، أحد كبار الآلهة الاثني عشر في الأساطير الرومانيّة.

litui أو أعـواد تبشـيريّة، حيـث تُعتبـر أوّل صولجـان فـي العالـم. هـؤلاء الآبـاء، أثنـاء الاضطرابـات الزراعيّـة التـي سـبق ذكرهـا[1]، لمقاومـة جمـوع الخـدم الثائريـن ضدّهم التجـؤوا بطبيعـة الحـال إلـى الاتّحـاد فيما بينهـم وإلى الانغـلاق داخل الأنظمـة الأولى لمجالـس الشـيوخ الحاكمـة، أو مجالـس متكوّنة فحسـب من ملوك الأُسَـر، تحت قيادة بعـض زعمـاء النظام، الذين كانوا أوّل ملوك المُـدن البطوليّة. ويروي لنا التاريخ القديم، وإن كان بصفة غامضة، أنّه في عالم الشعوب الأولى كان الملوك الأوائل يُخلقون طبيعيًّا، ونعمل الفكر في هذا العمل بخصوص هذا القول، لنبيّن ما يبرّره. فالحال هو أنّ مجالس الشـيوخ الحاكمـة، لإرضـاء الجمـوع الثائـرة مـن عمّـال الأرض أو الخـدم [*famoli*]، ولإخضاعهـم للطاعـة، منحوهم قانونًا زراعيًّا هو الأوّل مـن بين كلّ القوانين المدنيّة في العالـم. وبطبيعـة الحال بهؤلاء العمّال، الذين أخضعهم ذلك القانون، تكوّنت العامّة من الشعوب الأولى في المدن. ما منحه الأشراف للعامّة هو الملكيّة الطبيعيّة للحقول، بينما الملكيّـة المدنيّـة بقيـت عنـد الأشـراف، الذيـن كانـوا المواطنيـن الوحيديـن فـي المدن البطوليّـة، ومـن هنا جـاءت الملكيّـة العليا لدى هذه الأنظمـة التي كانت القـوى المدنيّة الأولـى أو القوى السـياديّة للشـعوب. هذه الأنـواع الثلاثة من الملكيّة تشـكّلت جميعها وتميّـزت إحداهـا عن الأخـرى مع نشـأة الجمهوريّات، التي لدى جميع الأمم وحسـب فكـرة عُبّـر عنهـا بلغـات مختلفـة، سُـمّيت بالجمهوريّـات الهرقليّـة أو جمهوريّـات *الكوريتس*[2]، أي الرجال المسلّحون في المجالس العموميّة. وهكذا يتّضح أصل الحقّ الكويريتـي [*Jus Quiritium*] الـذي اعتقـد مؤوّلـو القانـون الرومانـي أنّـه كان خاصًّـا بالمواطنيـن الرومـان؛ لأنّ هـذا ما كان عليه الأمر في الأزمنـة الأخيرة. إلّا أنّه في الأزمنة القديمة لروما، كان حقًّا طبيعيًّا لكلّ الشعوب البطوليّة. من هنا نشأت، مثلما تنشأ الأنهار المتعدّدة التي تخرج من منبع واحد، أصول عديدة: - ***أصل المُدن***، التي قامت على أُسَر لا تتكوّن فقط من الأبناء، بل وأيضًا من الخدم أوعمّال الأرض [*famoli*]، وهذا ما يفسّر أنّها تأسّست طبيعيًّا على مجموعتيْن، مجموعة الأشراف التي تأمر، ومجموعة العامّة من

---

(1) § ٢٠.

(2) في الأساطير لإغريقية آلهة من درجة ثانويّة كانوا يحرسون الإله زيوس وهو طفل. يُشار بهم أيضًا إلى شبّان ينتمون إلى جزيرة كريت مسلّحين ويقومون برقصات طقسية.

الشعب التي تطيع، ومن هذيْن الجزئيْن يتكوّن كلّ التنظيم السياسيّ أو دستور الحكومات المدنيّة. وسنبيّن لاحقًا[1] أنّ هذه المدن الأولى لا يُمكن بأيّ طريقة كانت أن ترى النور انطلاقًا من أُسر متكوّنة من أبناء فحسب؛ - *أصل السلطات العموميّة* التي نشأت من اتّحاد السلطات الخاصّة الأبويّة والسلطات السياديّة في دولة الأُسَر؛ - *أصل الحرب والسلم*، حيث إنّ جميع الجمهوريّات نشأت بقوّة السلاح، ثمّ تركّبت بالشرائع. وقد بقيت من طبيعة الأمور الإنسانيّة هذه الخاصيّة الدائمة بأنّ الحروب تُشنّ لكي يُمكن للشعوب العيش في أمان وفي سلم. - *أصل الإقطاعات*؛ لأنّه بنوع من إقطاع ريفي خضع العامّة للأشراف، وبنوع آخر من إقطاع نبيل أو مُسلّح، خضع الأشراف، الذين كانوا أسيادًا في أُسَرهم، إلى السيادة العليا لأنظمتهم البطوليّة. ونحن نجد أنّ الممالك في الأزمنة البربريّة تأسّست دائمًا على الإقطاعات، ممّا ينير تاريخ الممالك الجديدة بأوروبا التي ظهرت في الأزمنة الأخيرة البربريّة[2] [القرون الوسطى]، والتي اتّضح أنّها أكثر غموضًا من الأزمنة البربريّة الأولى التي يتحدّث عنها فارّو. وبالفعل، أُعطيت الحقول الأولى للعامّة من طرف الأشراف، على أن يدفع الأوّلون *العشور*، التي كانت تُسمّى لدى الإغريق عشور هرقل، أي *الضريبة*، مثل تلك التي فرضها سيرفيوس توليوس[3] على الرومان، أو الأداء، ويفرض هذا الأخير أيضًا بالنسبة إلى العامّة إجباريّة الخدمة العسكريّة على حسابهم لصالح الأشراف أثناء الحروب، كما يذكر ذلك بوضوح في التاريخ الروماني. وهنا نجد *أصل الضريبة*، التي بقيت بعد ذلك القاعدة التي تقوم عليها الجمهوريّات الشعبيّة. ومن كلّ أبحاثنا في الشؤون الرومانيّة، فإنّ البحث الذي تطلّب منّا أكثر جهدًا كان البحث الذي مكّننا من إيجاد الطريقة التي تحوّلت بها ضريبة توليوس، التي كما سنرى كانت أساس الجمهوريّات الأرستقراطيّة القديمة، إلى ضريبة الجمهوريّات الشعبيّة. ومن دون توضيح هذه النقطة، فإنّ الجميع سقطوا في الخطأ لظنّهم أنّ سيرفيوس توليوس فرض ضريبة الحريّة الشعبيّة.

---

(١) § ٥٩٧.

(٢) المُراد بها هنا هي أزمنة القرون الوسطى التي يشير إليها فيكو عديد المرّات تحت صيغ مختلفة مثل عودة *البربريّة* أو *البربريّة الثانية* أو *الأخيرة*، باعتبار أن الأولى هي بربريّة بدايات البشريّة بعد الطوفان وظهور الديانات الأولى. لمزيد التوضيح سنضع دائمًا بين قوسيْن عبارة «القرون الوسطى».

(٣) Servius Tullius سادس ملوك روما القديمة الأسطوريّين، حكم بين ٥٧٥ و٥٣٥ ق.م. أوّل من قام بإحصاء السكّان وفرض الضريبة.

[§ ٢٦] من المبدأ نفسه جاءت أصول أخرى: - *أصل التجارة*، بالطريقة التي ذكرناها، وبدأت بالأملاك القارّة في الوقت نفسه الذي بدأت فيه المدن نفسها[١]. سُمّيت *commerzi* من الراتب الأوّل (*mercede*) الذي وُجد في الدنيا، والذي أعطاه الأبطال، في شكل حقول، إلى العمّال [*famoli*]، تحت القانون الذي تحدّثنا عنه لتوّنا، الذي يجبرهم على خدمتهم؛ - *أصل الخزائن العموميّة* [*erari*]، التي بدأت منذ نشأة الجمهوريّات، والتي صارت بعد ذلك *aeraria*، من *aes*، *aeris*، بمعنى *النقود*، حين اضطرّت السلطة العموميّة إلى دفع المال إلى العامّة أثناء الحروب. - *أصل المستعمرات* التي كانت متكوّنة في البداية من مجموعات من الفلاّحين في خدمة الأبطال لتأمين أسباب عيشهم، ثمّ من موالٍ يزرعون لحسابهم حقول الأبطال مع الخضوع للأعباء الواقعيّة والشخصيّة التي سبق الحديث عنها. ولتمييز هذه المستعمرات عن المستعمرات البحريّة التي أشرنا إليها، سنسمّيها بـ*المستعمرات البطوليّة المتوسّطيّة* [أي الموجودة وسط الأراضي]. وأخيرًا: - *أصل الجمهوريّات* التي عند نشأتها كانت ذات شكل أرستقراطيّ صرف ولا يوجد فيها للعامّة أيّ حقّ مدني. وهكذا، في روما، جاءت أوّلا مملكة أرستقراطيّة سقطت تحت طغيان تاركوينوس الفخور[٢]، الذي جعل حُكم الأشراف أسوأ ما يمكن أن يكون، ودمّر بالكامل تقريبًا مجلس الشيوخ. لذا استغلّ يونيوس بروتُس[٣] قضيّة لوكريتسيا لتحريض العامة على الثورة ضدّ آل تاركوينوس، وبعد أن حرّر روما من الطغيان، أعاد مجلس الشيوخ ونظّم من جديد الجمهوريّة حسب مبادئه. وبتعيين قنصليْن سنويّيْن مكان ملك مدى الحياة، لم يُحدث الحريّة الشعبيّة، بل قوّى حريّة الأسياد. وقد دامت هذه الأخيرة إلى حين سُنّ قانون بوبليليا[٤]، الذي بمقتضاه أعلن الديكتاتور بوبليليوس فيلون، المدعوّ *بالشعبي*، أنّ الجمهوريّة الرومانيّة صارت

---

(١) § ٦٠٦.

(٢) هو Lucius Tarquinus Superbus الملقّب بالفخور، سابع وآخر ملوك روما. حكم بين ٥٣٤ و٥٠٩ ق.م. مات في ٤٩٥ ق.م.

(٣) Giugno Bruto في النصّ الإيطالي، اسمه اللاتيني هو Lucius Junius Brutus [منتصف القرن ٦ ق.م - ٥٠٩ ق.م]. مؤسّس الجمهوريّة الرومانية وواحد من القنصليْن الرومانيّيْن في سنة ٥٠٩ ق.م.

(٤) بتاريخ ٣٣٩ ق.م. يعود هذا القانون إلى Quintus Publilius Philon، ويمنح لمجلس العامّة السلطة لدعوة انعقاده بنفسه ولاتّخاذ قرارات لها صبغة قوانين.

شعبيّة في حالتها، وانتهى مفعوله بالكامل مع قانون بِتيليا[1]، الذي حرّر تمامًا العامّة من الحقّ الإقطاعي الريفي بالسجن الخاصّ الذي كان يملكه الأشراف إزاء المدينين لهم من العامّة. وهذان القانونان، اللذان يحتويان على النقطتيْن الرئيسيّتيْن في التاريخ الروماني، لم يثيرا أيّ تفكير، لا من طرف السياسيّين ولا من طرف المشرّعين ولا من طرف المؤوّلين العلماء في القانون الروماني، وهذا بسبب الخرافة التي تروي أنّ قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* جاء من المدينة الحرّة أثينا ليُقيم بروما الحريّة الشعبيّة، بينما يُظهر هذان القانونان أنّ هذه الحريّة الشعبيّة تأسّست بروما نفسها من التقاليد الطبيعيّة لسكّانها، وقد كشفنا هذه الخرافة في عملنا «*مبادئ القانون الكوني*» [*Principj del Dirittto Universale*][2]. ولهذا السبب، ولأنّ القوانين ينبغي تأويلها باعتبار شكل الجمهوريّات، فإنّنا نعطي، انطلاقًا من هذه المبادئ في الحُكم الروماني، مبادئ أخرى للتشريع الروماني.

[§ ٢٧] **السيف الذي يستند إلى الحزمة** يُشير إلى أنّ الشّرع البطولي كان شرع القوّة، ولكنها القوّة التي يطوّعها الدين، الذي وحده بإمكانه أن يكبح القوّة والسلاح حين لا تكون هناك شرائع قانونيّة، أو إن وُجدت فهي غير متّبعة. هذا الشرع هو شرع أخيل، البطل الذي ينشد هوميروس مآثره لشعوب اليونان باعتباره مثالا للفضيلة البطوليّة، وهو الذي يقيم الشرع بكامله على الأسلحة. ونكتشف هنا **أصل المبارزات**: هذه الأخيرة، التي كانت تمارس دون شكّ في الأزمنة البربريّة الأخيرة [القرون الوسطى]، كانت تُمارس أيضًا في الأزمنة البربريّة الأولى، التي لم يكن فيها الأقوياء متحضّرين بما يكفي ليكبحوا الأضرار والاعتداءات على بعضهم البعض باللجوء إلى القوانين القضائيّة، فكانت تعتبر أحكامًا إلهيّة، حيثُ يُؤخذ الإله شاهدًا ويُجعل منه القاضي في الضرر، متقبّلين منه، مهما كان مآل المبارزة، القرار الصادر عنه بإجلال يصل إلى حدّ أنّه في حال هزيمة الطرف المتضرِّر، فإنه يُعتبر مذنبًا. هذا الرسم الخفيّ للعناية الإلهية كان الهدف منه أنّه في الأزمنة البربريّة والشرسة حيث لا يفقه أحد معنى القانون، يُمكن أن يُقاس هذا

---

(١) بتاريخ ٣٢٦ ق. م.، وينصّ هذا القانون على أنّ المدين غير القادر على الإيفاء بدينه لا يُمكن أن يصبح رقيق الدائن.

(٢) ج. فيكو، *مبادئ القانون الكوني*، الناشر نيكوليني، ١٩٣٦، II، ٢، ص ٥٦٤-٥٨٠.

الأخير بمقدار مشيئة أو عدم مشيئة الآلهة، وهكـذا لا تكون تلك الحروب الشـخصيّة عوامـل فتنـة تؤدي في النهاية إلى إبادة الجنس البشـري. هذا الحسّ الطبيعي البربري لا يُمكن أن يتأسّس إلّا بالمتصوّر الفطري الذي صاغه البشر بخصوص العناية الإلهية، التي يتوجّب عليهـم قبولها حين يـرون الطيّبين مضطهدين والأشـرار ينعمـون برغد العيش. لـكلّ هذه الأسـباب، اعتُبرت المبـارزة نوعًا من التطهير الإلهي. وهكـذا، بقدر ما أنّه في زمننـا الحالـي المتحضّر -الذي بوجود القوانين أسّـس المحاكمـات الجنائيّة والمدنيّة- نجد أنّ المبارزات محظورة، بقدر ما أنّه في الأزمنة البربريّة كانت تُعتبر ضروريّة. وبهذه الصفـة نجـد في المبـارزات، أو الحروب الخاصّـة، أصل الحـروب العامّـة التي تقوم بها القـوى المدنيّـة، الخاضعـة للربّ وحده، لكي يقـرّر الربّ انتهاءها بالنصـر، ولكي يتّكل الجنس البشـري على ثبات الدول المدنيّة، الذي يمثّل مبدأ العدالة الخارجيّة للحروب، مثلما يُقال.

[§ ٢٨] **الكيس الموضوع بجانب الحزمة** يُشير إلى التجارة التي تُستعمل فيها النقود والتـي لـم تبـدأ إلّا بصفـة متأخّـرة، بعـد أن تأسّسـت السـلطات المدنيّة، بحيـث لا يأتي الحديث عن العملة المسـكوكة في أيّ من الملحمتيْن لهوميروس. والهيروغليف نفسـه يشـير إلى أصل العملة المسـكوكة، التي هي شـبيهة تمامًا بشـعارات النبالة التي سـبقت ملاحظتهـا بخصـوص حقول الشـعارات[1]، وتعني الحقوق وألقاب النبالـة المنتمية إلى هذه الأُسـرة أو تلك. ومنه جاءت بعد ذلك الشـعارات العموميّة، أو شـعارات الشعوب، التـي رُفعـت بعد ذلك كشـعارات عسـكريّة تسـتعملها - مثـل كلمات صامتـة - التراتبيّة العسكريّة، وهذه الشعارات النبيلة أعطت في النهاية، جميع الشعوب، الرسوم المنقوشة علـى العملـة. ونعطـي هنا إذن مبـادئ أخرى لعلـم الميداليات، وللعلم المسـمّى كذلك بعلم الشعارات. ولنا في هذا المضمار أحد المواضع الثلاثة من *العِلم الجديد* في طبعته الأولى الذي نشعر نحوه بالرضى.

[§ ٢٩] **الميـزان الذي يأتي بعد الكيس** يعني أنّه بعد الحكومات الأرسـتقراطيّة، التي كانـت حكومـات بطوليّـة، جـاءت الحكومات الإنسـانية، التي كانت فـي البداية من نوع شـعبيّ. وبالفعـل، حيـن أدركت الشـعوب أخيرًا أنّ الطبيعـة العقلانيّة، التـي هي الطبيعة

(١) انظر في هذا الخصوص § ١٨.

البشـريّة الحقّة، متسـاوية لدى الجميع، أجبروا الأبطال شـيئًا فشـيئًا، معتمدين على هذه المسـاواة الطبيعيّة، على الاعتراف بالمساواة المدنيّة في الجمهوريّات الشعبيّة، لأسباب درسـناها فـي *التاريـخ المثالـي السرمدي* والتي توجـد بالتدقيق فـي التاريـخ الروماني. والميـزان هـو الذي يشـير إلى هذه المسـاواة المدنيّة؛ لأنّه مثلما كان يقـول الإغريق، في الجمهوريّات الشعبيّة كلّ شيء يتوقّف على القدر أو على الميزان. ولكن في نهاية الأمر، بما أنّ الشعوب الحرّة لا يمكنها الحفاظ على المساواة المدنيّة بواسطة القوانين، بسبب طوائف الأقوياء، وأنّهم يجرونهم نحو هلاكهم بسبب الحروب الأهليّة، فقد نشأ، بصورة طبيعيّة، لكي ينقذوا أنفسهم حسب شرع ملكي طبيعي مشترك لدى كلّ الشعوب في كلّ الأزمنـة فـي الـدول الشـعبيّة الفاسـدة، شـرع هو بالأحـرى تقليـد طبيعيّ لدى الشـعوب الإنسـانيّة، حيـث بحثوا عـن حماية في ظلّ الملكيّـة، التي تمثّل النـوع الآخر من الحُكم البشري. هذا الشرع الملكي المدني الذي يُقال إنّه سُنّ من طرف الشعب لإضفاء شرعيّة علـى الملكيّـة الرومانيّة في شـخص أغسـطس[1]، وهو مثلما برهنّا علـى ذلك في *مبادئ القانـون الكونـي*[2] لا يعـدو أن يكـون خرافـة، وهـذه البرهنة إلـى جانب تلـك المتعلّقة بالطبيعة الخرافيّة للرواية التي تقول إنّ قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* جاء من أثينا، يمثّلان موضعيْـن يجعلاننـا نعتبـر أنّ هـذا العمـل لم يُكتـب دون جدوى. ونشـهد تناوبًـا لهذيْن الشـكليْن الأخيريْن من الحكم، اللذيْن هما إنسـانيّان، في حضارتنا الحالية[3]، ولكن لا أحد من الشكليْن تحوّل طبيعيًّا إلى دولة أرستقراطيّة حيث لا يحكم إلّا الأشراف وعلى البقيّة أن يطيعوا. ولهذا السبب فإنّ جمهوريّات النبلاء نادرة جدًّا في العالم، ونجدها في نورمبـرغ بألمانيـا، وراغوزا بدلماسـيا، والبندقيّة وجنـوة ولوكّا بإيطاليـا[4]. هذه هي إذن الأنواع الثلاثة للدولة التي أنشأتها العناية الإلهية في العالم، وفقا للتقاليد الطبيعيّة للأمم، وهـي تتوالـى الواحدة تلو الأخرى حسـب هـذا الترتيب الطبيعي. وبمـا أنّ أنواعًا أخرى أنتجتهـا العنايـة الإلهية بمزج هذه الأشـكال الثلاثة من الحُكم لـم تتحمّلها طبيعة الأمم،

---

(١) Caius Octavius Augustus [٦٣ ق.م. - ١٤ ميلادي]، أوّل الأباطـرة الرومـان، حكم بين سـنة ٢٧ ق.م. و١٤ ميلادي.

(٢) فيكو، *مبادئ*...، مذكور، ص١٦٩. انظر أيضًا في هذا الكتاب §§ ١٠٠٧-١٠٠٨.

(٣) انظر § ١٠٨٧.

(٤) سيعود لاحقا إلى هذا الموضوع في §§ ١٠١٨، ١٠٩٤.

فقد قال عنها تاسيتُس[1]، الذي لم ير إلاّ نتائج الأسباب التي نشير إليها هنا وسندرسها بأكثر توسّع في بقيّة العمل، إنّها «*تستحقّ الثناء أكثر من إمكانيّة أن تتحقّق يومًا ما، وحتّى إن صادف أن تحقّقت فهي ليست قابلة بتاتًا للدوام*». بفضل هذا الاكتشاف، نعطي مبادئ أخرى للمذهب السياسي، التي ليست مختلفة فقط، بل وحتّى معاكسة تمامًا للمبادئ التي تصوّرناها إلى حدّ الآن.

[§ ٣٠] **الكادوسي**[2] **هو الهيروغليف الأخير**، وهو ينبّهنا إلى أنّ الشعوب الأولى، في أزمنتها البطوليّة حيث كان يحكم قانون القوّة الطبيعي، كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض كأعداء على الدوام، مع أعمال نهب وقرصنة متواصلة، إذ أنّ الحرب بينهم كانت دائمة، ولا يحتاجون لإعلانها، وكما أنّه في الأزمنة البربريّة الأولى كان الأبطال يفخرون بكونهم يُسمّون لصوصًا، في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، كان الأقوياء يفخرون بلقب القراصنة. ولكن حين جاءت بعد ذلك الحكومات البشريّة، سواء كانت ملكيّة أو شعبيّة أُنشِئ النذراء[3] بقانون الشعوب الإنسانيّة لإعلان الحرب، وشُرع في إنهاء النزاعات بمقتضى معاهدات سلم. وهذا بتدبير حكيم من العناية الإلهية، التي حين كانت الأمم في أزمنة البربريّة حديثة العهد في العالم ويتوجّب عليها النموّ، أن تكون محصورة داخل تخومها، ولشراستها وتوحّشها ألاّ تخرج منها لإبادة بعضها البعض بواسطة الحروب، ولكنّها بعد ذلك حين نمَت وتحضّرت صارت متسامحة إحداها مع عادات الأخرى، صار من السهل على الشعوب المنتصرة أن تبقي على المهزومين بواسطة قوانين انتصار عادلة.

[§ ٣١] وهكذا، فإنّ هذا **العِلم الجديد**، -أو بعبارة أخرى الميتافيزيقا- بدرس الطبيعة المشتركة للأمم على ضوء العناية الإلهية، يكتشف أصول الأشياء الإلهية والبشريّة لدى الأمم الوثنيّة، ويؤسّس من هناك نظامًا لقانون الناس الطبيعي، يتقدّم بتساوٍ وباستمراريّة دقيقيْن عبر العصور الثلاثة التي -حسب الرواية التي ينقلها المصريّون

(١) *الحوليات*، مذكور، IV، ٣٣، ١.

(٢) انظر § ٢٤، ملحوظة.

(٣) كان النذراء في الأصل رسل يرسلهم الملوك أو النبلاء لنقل الرسائل أو التصريحات فهم أشبه بالدبلوماسيين المعاصرين.

القدامى - تعاقبت على طول الأزمنة السابقة وصولا إلى زمنهم، وهي: ***عصر الآلهة*** الذي كان فيه الأناس الوثنيّون يعتقدون أنّهم يعيشـون في ظلّ حكومات إلهية، وأنّ كلّ شـيء هو بأمر من النذور والكهنة، التي هي أقدم الأشياء في التاريخ الوثني؛ ثمّ ***عصر الأبطال***، الـذي حكـم فيـه الأبطـال في جميـع الجمهوريّات الأرسـتقراطيّة باسـم نوع من السـموّ الطبيعي الذي يعتبرون أنّه يميّزهم عن عامّة الشـعب؛ وأخيرًا ***عصر البشـر***، الذي اعترف فيـه الجميـع بتسـاوي الطبيعة البشـريّة، ولذا قامـت فيـه أوّلا الجمهوريّات الشـعبيّة، ثمّ الأنظمة الملكيّة، وكلتاهما تمثّلان أشكالا من الحكومات البشريّة، مثلما سبق أن وضّحنا ذلك[1].

[§ ٣٢] بالتوافـق مـع هذه الأنواع الثلاثة من الطبيعة ومن الحُكم، تكلّم البشـر بثلاثة أنواع من اللغات، التي تكوّن معجم هذا *العِلم*: الأولى، في زمن حكم الأُسَـر، حين بلغ الإنسـان الوثـني لتوّه درجة من الإنسـانيّة، كانت لغة صامتة تعبّـر من خلال العلامات أو بواسـطة أشـياء لهـا علاقة بالأفكار التـي تريد التعبير عنهـا، واللغة الثانيـة كانت تعبّر من خلال شـعارات بطوليّة، أي بالتشـبيهات والمقارنات والصور والاستعارات والأوصاف الطبيعيّـة، التي تشـكّل في جـزء كبير منها مادّة اللغة البطوليّة، التي اسـتُعملت زمن حكم الأبطال. واللغة الثالثة هي اللغة الإنسانيّة التي تسـتعمل ألفاظًا اصطلحت عليها الشعوب وكانـوا هـم الأسـياد المطلقيـن عليها، وهي لغة خاصّـة بالجمهوريّات الشـعبيّة وبالدول الملكيّة، بما أنّه يتعيّن على الشـعوب أن تعطي دلالاتها للقوانين التي يخضع لها كلّ من الأشـراف وعامّـة الشـعب. وهذا ما يفسّـر أنّه لدى كلّ الشـعوب، حين صيغـت القوانين باللغة العاميّة أفلت علم التشريع من أيدي الأشراف، بينما في السابق، لدى جميع الأمم، كان الأشـراف، الذين كانوا في كلّ مكان كهنة، يحفظون الشـرائع في لغة سـريّة، كما لو كانت شـيئًا مقدّسًـا. كان هذا هو السبب الطبيعيّ لسريّة الشـرائع لدى الأشراف الرومان إلى حين مجيء الحريّة الشعبيّة. وكانت هذه بالتدقيق اللغات الثلاث التي كان المصريّون القدامى يقولون إنّهم تكلّموا بها سـابقًا في عالمهم، والتي توافق تمامًا، سـواء من حيث العدد أو من حيث ترتيب ظهورها، العصور الثلاثة التي تتابعت سابقًا في عالمهم: اللغة الهيروغليفيّـة، أو السـريّة والمقدّسـة، التي تسـتعمل حركات صامتـة وملائمة للديانات،

---

(١) انظر § ٢٩.

التي يهمّها أكثر أن تُشاهد من أن تُنطق؛ واللغة الرمزيّة، التي تستعمل التشبيهات، التي رأينا للتوّ أنّها كانت لغة الأبطال؛ وأخيرًا اللغة الرسائليّة أو العاميّة، التي كانت تصلح لحاجيات الحياة العامّة. ونجد هذه اللغات الثلاث عند الكلدان والسكوتيّين والمصريّين والجرمانيّين وجميع الشعوب الوثنيّة القديمة، إلّا أنّ الكتابة الهيروغليفيّة بقيت أكثر لدى المصريّين؛ لأنّهم كانوا منغلقين طويلا أكثر من غيرهم على الأمم الأجنبيّة، وللسبب نفسه لا زالت باقية عند الصينيّين، وبهذا فإنّنا نقيم البرهان على تفاخرهم بقدامتهم العريقة التي يتصوّرون تميّزهم بها.

[§ ٣٣] لذا نبيّن هنا سواء مبادئ اللغات ومبادئ الحروف، التي آيس علم الفقه إلى حدّ الآن في التوصّل إليها، وسنعطي بعض الأمثلة من الآراء الغريبة والمهولة التي وصلتنا إلى حدّ الآن. سنلاحظ أنّ السبب المؤسف في هذا هو أنّ علماء الفقه ظنّوا أنّه لدى الأمم نشأت اللغات أوّلا، ثمّ جاءت بعدها الحروف، إلاّ أنّه -ونشير إليه هنا بعجالة ولكننا سنبرهن عليه بالكامل في هذا العمل- نشأت الحروف واللغات معًا وسارت بنفس الخطى في أنواعها الثلاثة. وتعترضنا هذه المبادئ بالفعل في أسباب اللغة اللاتينيّة، كما جاء عرضها في الطبعة الأولى *للعِلم الجديد*[1]، وهو الموضع الثاني من بين الثلاثة التي تجعلنا لا نندم على هذا الكتاب. وبالتفكير في هذه الأشياء، قمنا باكتشافات عديدة بخصوص التاريخ، والحُكم والقانون الروماني القديم، مثلما سيتسنّى لك أيّها القارئ الحصول على ألف برهان على ذلك في هذا العمل. وباتّباع هذه الأمثلة، فإنّ العلماء في اللغات الشرقيّة وفي الإغريقيّة، ومن بين اللغات الحالية بالخصوص اللغة الألمانيّة، التي هي لغة أمّ، سيتمكّنون من القيام باكتشافات عن الأزمنة القديمة تتجاوز انتظاراتهم وانتظاراتنا.

[§ ٣٤] نجد أنّ مبدأ أصل اللغات والحروف يكمن في أنّ الشعوب الأولى للعالم الوثني، لضرورة ذات طبيعة تمّت البرهنة عليها، كانوا شعراء وتكلّموا بواسطة *شخصيّات* أو رموز شعريّة. هذا الاكتشاف، الذي يمثّل المفتاح الرئيسي لهذا *العِلم*، كلّفنا بحثًا عنيدًا طوال كلّ حياتنا الأدبيّة، لأنّه باعتبار طبيعتنا المتحضّرة، يكون من المستحيل علينا إطلاقًا أن نتصوّر ومن الصعب جدّاً أن نفهم الطبيعة الشعريّة لهؤلاء

---

(١) فيكو، *الأعمال*، مذكور، المجلّد ٢، (١٧٢٥)،

البشـر الأوائل. هذه الشـخصيّات الشعريّة كانت بعض الأجناس العجيبة، أي صورًا، في معظمها ماهيّات حيّة لآلهة أو لأبطال، شكّلها خيال البشر، وإليها يرجعون كلّ الأنواع أو كلّ الحالات الخصوصيّة المنتمية إلى كلّ جنس من الأجناس. بالطريقة نفسها تمامًا كما أنّ خرافـات الأزمنـة المتحضّرة، مثل خرافات *الكوميديـا الجديدة*[1]، هي أجناس فكريّة ومعقلنة انطلاقًا من الفلسـفة الأخلاقيّة، يشـكّل بها الشـعراء الكوميديّون أجناسًا عجيبة؛ لأنّ الأفـكار الكاملـة لكلّ جنس بشـري ليسـت شـيئًا آخر غيـر هذا، وهـذه الأخيرة هي شـخصيّات المسـرحيّات. هذه الشـخصيّات الإلهيّة أو البطوليّة كانت أسـاطير، أي أنّها حكايات حقيقيّة، ونكتشف أنّ مرموزاتهم تحتوي على دلالات غير متشابهة بل متواطئة، غيـر فلسـفيّة بـل تاريخيّـة، وتتعلّـق بأزمنة شـعوب اليونان. إضافـة إلى ذلـك -لأنّ هذه الأجناس التي جوهرها الخرافات، التي شكّلتها خيالات قويّة تميّز أناسًا ضعيفي الإدراك جـدًّا- فإنّنا نكتشـف لديهم الحِكم الشـعريّة الحقيقيّة، التي كانـت عواطف تغلّفها أهواء قويّة جدًّا؛ لذا فهي مليئة بالسموّ وقادرة على إثارة الإعجاب. من ناحية أخرى، منابع كلّ الخطاب الشـعري تتلخّـص في هذيْن الإثنيْن: فقر المفردات وضرورة التفسـير والفهم. مـن هنـا جـاء وضـوح اللغة البطوليّـة، التي خلفت مباشـرة اللغـة الصامتة التي تسـتعمل الحـركات والأشـياء التي لها علاقات طبيعيّة بالأفكار التي يُـراد التعبير عنها، وهي اللغة التي كانت تُسـتعمل في الأزمنة الإلهية. وأخيرًا، مع هذا المسـار للأشـياء الإنسـانيّة فإنّ اللغات لدى الأشوريّين والسوريّين والفينيقيّين والمصريّين والإغريق واللاتينيّين، بدأت بأبيـات بطوليّـة، ثمّ مـرّت إلى أبيـات وتديّة[2] وأخيـرًا توقّفت عند النثر. وهـذا ما يعطي لتاريـخ الشـعراء القدامـى صحّتـه المؤكّدة، ويفسّـر لماذا فـي اللغة الألمانيّـة، خصوصًا بسيليزيا، وهي ولاية آهلة بالمزارعين فحسـب، ينشـأ المرء بطبيعته شاعرًا، وفي اللغات الإسبانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة، كتب المؤلّفون الأوائل أعمالهم شعرًا.

[§ ٣٥] من هذه اللغات الثلاث يتكوّن *المعجم الذهني* الذي يسمح بإعطاء دلالات دقيقـة لجميع اللغات المختلفة المنطوقة، ونسـتعملها كلّما حتّمت الضرورة ذلك. وفي

---

(١) إشـارة إلى *الكوميديا الجديدة* لميناندروس [٣٤٣-٢٩٢ ق.م]، كاتب مسـرحيّ إغريقي وأحد أهمّ ممثّلي المسرح الكوميدي الجديد.

(٢) على بحر العمبقي أو الإيامبي.

الطبعة الأولى *للعِلم الجديد*، قدّمنا نماذج مفصّلة تمدّنا بالفكرة التالية: انطلاقًا من الخاصيّات السرمديّة للآباء، كما تناولناها بالدرس من منظور هذا *العِلم* والتي كان هؤلاء الأخيرون يملكونها في عهد الأُسَر والمدن البطوليّة الأولى، في الزمن الذي تشكّلت فيه اللغات، نعثر على المعاني الحرفيّة لتلك الخاصيّات معبَّرًا عنها في خمس عشرة لغة مختلفة، سواء كانت ميّتة أو حيّة، نجد فيها هذه المعاني مسمّاة بصفة مختلفة، حسب هذه أو تلك من الخاصيّات. وهذا هو الموضع الثالث الذي يشعرنا بالرضى عن الطبعة الأولى من هذا الكتاب. هذا المعجم ضروريّ لمعرفة اللغة التي كان يتكلّم بها التاريخ المثالي السرمدي، الذي تدور فيه في الزمن تواريخ جميع الأمم، ولكي نقدّم بصفة علميّة البراهين التي تسمح لنا بإثبات ما قيل عن *قانون الناس الطبيعي*، وكذلك عن كلّ تشريع خصوصيّ.

[§ ٣٦] بهذه اللغات الثلاث الخاصّة بالعصور الثلاثة التي حكمت فيها ثلاثة أنواع من الأنظمة، مطابقة لأنواع ثلاثة من الطبائع المدنيّة التي تتغيّر في المسار المتّبع من طرف الأمم، تتالت بنفس الترتيب، وكلّ واحدة منها في زمنها، تشريعات مختلفة.

[§ ٣٧] كانت الأولى منها لاهوتيّة رمزيّة، كانت جارية في الزمن الذي كانت فيه الآلهة تحكم الوثنيّين، ومنها استمدّ حكمتهم الشعراء اللاهوتيّون الذين يُقال عنهم إنّهم أسّسوا الحضارة الوثنيّة، والذين كانوا يفسّرون أسرار وسطاء الوحي والذين لدى جميع الأمم كانوا يعطون أجوبتهم شعرًا. نجد إذن أنّ أسرار هذه الحكمة الشعبيّة كانت مخفية في الخرافات، وهذا يجعلنا نفكّر في الأسباب التي جعلت الفلاسفة بعد ذلك يشعرون بتلك الرغبة في بلوغ حكمة القدامى، وكذلك في المناسبات التي وجد فيها هؤلاء الفلاسفة أنفسهم للتأمّل في أسمى أغراض الفلسفة، وفي السهولة التي أمكن لهم بها أن يقحموا في الخرافات معرفتهم الباطنيّة.

[§ ٣٨] وكانت الثانية هي التشريعات البطوليّة، التي تقوم بالكامل على الاستعمال الدقيق للألفاظ، وكان أوليس يملك هذا النوع من الحذر، الذي يأخذ بعين الاعتبار ما كان المشرّعون الرومان يسمّونه *Aequitas civilis*، والذي نسمّيه نحن *داعي المصلحة العليا*. بأفكارهم القصيرة النظر كان الأبطال يعتبرون أنّ *حقّهم الطبيعيّ* يوجد فيما تقوله

الألفاظ من حيث الكمّ والكيف، وهو شيء نلاحظه عند الفلاحين وعند أشخاص آخرين خشني الذهن، يقولون بعناد -في خصومات الألفاظ والمشاعر-: إنّ حقّهم يوجد بالنسبة إليهم في الكلمات. وهذا بتدبير من العناية الإلهية التي تجعل الوثنيّين، غير القادرين بعد على إدراك الكليّات -بينما القوانين الجيّدة يجب أن تكون كليّة، لخصوصيّة كلماتهم نفسها- يمتثلون للقوانين بصفة كليّة. وحتى في بعض الأحيان، نتيجة لهذه العدالة نفسها، لا تبدو لهم القوانين شديدة عليهم فقط، بل وحتى قاسية، وكانوا يتحمّلونها بصفة طبيعيّة؛ لأنّهم يعتبرون أنّ حقّهم الطبيعيّ هو ما هو عليه. إضافة إلى ذلك، كانت تدفعهم إلى احترام القوانين مصلحة خاصّة عليا، كانت تتطابق لدى الأبطال مع مصلحة وطنهم، الذي كانوا مواطنيه الوحيدين. لذا فقد كانوا لا يتردّدون لسلامة وطنهم في تكريس أنفسهم وأُسَرهم، لما تمليه القوانين، التي في الوقت نفسه تحفظ بها سلامة وطنهم، وكانت تحفظ بالنسبة إليهم نوعا من الحكم الملكي الفردي على أُسَرهم. من جهة أخرى، فإنّه من هذه المصلحة الكبرى الفرديّة، إضافة إلى الاعتزاز المفرط الذي كان يميّز الأزمنة البربريّة، والذي كان يشكّل طبيعتهم البطوليّة، جاءت الإنجازات البطوليّة من أجل سلامة الوطن. هذه الإنجازات البطوليّة تمتزج من ناحية أخرى بالغطرسة المفرطة، والشحّ الكبير والقسوة التي لا ترحم والتي كان الأشراف الرومان يعاملون بها العامّة التعساء، مثلما نقرأ ذلك بوضوح في التاريخ الروماني في الزمن الذي كان يقول عنه تيتوس ليفيوس نفسه إنّه كان عصر الفضيلة الرومانية وأكبر ازدهار للحريّة الرومانية التي يُمكن للمرء الحلم بها. وسنرى أنّ هذه الفضيلة العموميّة لم تكن سوى استعمال جيّد من طرف العناية الإلهية لرذائل فرديّة بهذه الأهميّة والشناعة والقسوة، للحفاظ على المُدن في أزمنة كانت فيها عقول البشر، ذات النزعة الفرديّة الكاملة، لا تقدر بطبيعة الحال على إدراك الخير المشترك. ومن هنا نعطي مبادئ جديدة للبرهنة على الموضوع الذي تناوله القديس أغسطينوس[1] في *de Virtute Romanorum* [في الفضيلة الرومانيّة]، ونهدم الرأي الذي أبداه العلماء إلى حدّ الآن بخصوص بطوليّة الشعوب الأولى. هذا النوع من العدالة المدنيّة كان موضع شرف بطبيعة الحال لدى

---

(١) اسمه اللاتيني Aurelius Augustinus [٣٥٤-٤٣٠]، كاتب وفيلسوف من أصل أمازيغي - لاتيني، وهو أحد كبار الأعلام في الكنيسة الكاثوليكيّة الغربيّة.

الأمـم البطوليّـة سـواء فـي زمن السـلم أو في زمـن الحرب، وسـنأتي منه بأمثلة سـاطعة مستمدّة سـواء من التاريـخ البربري الأوّل أو مـن ذلك الأخير [القرون الوسـطى]. وقد جـرى بهـا العمل بصفة فرديّة مـن قِبل الرومان طيلة الوقت الـذي كانت فيه جمهوريّتهم جمهوريّـة أرسـتقراطيّة، وقد بقيت كذلك إلى فترة قانونـيْ بوبليليا وبيتيليا[1]، وأثناء هذه الفترة اعتمدت بصفة كاملة على قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*[2].

[§ ٣٩] كان التشريع الأخير هو العدالة الطبيعيّة، التي جرى بها العمل بطبيعة الحال فـي الجمهوريّـات الحـرّة حيث الشـعوب، كان كلّ فرد منهم يبحث عـن منفعته الخاصّة التـي هـي نفسـها لدى الجميـع ولكنّهـم لا يدركونها، ومن ثـم فرضت قوانين شـموليّة، ولهـذا السـبب كانـت ترغـب بطبيعـة الحال في الامتثـال لها مـع توخّي الحِلـم في أدنى ظروف الوقائع التي تسـتدعي منفعة مسـاوية، وهو ما يُسمّى ***aequum bonum***، موضوع التشـريع الرومانـي الأخيـر، الـذي منـذ زمـن شيشـرون[3]، بدأ يتوجّـه نحو *أمـر القاضي الرومانـي*. هذا الشـكل من التشـريع هو أيضًا متوافقٌ طبيعيًّا مـع النظام الملكيّ، بل حتّى أكثر توافقًا، حيث إنّ الملوك عوّدوا رعاياهم على الاهتمام بمصالحهم الخاصّة، بما أنّهم من ناحيتهم تولّوا الاهتمام بالشؤون العامّة، ويريدون أن تكون جميع الشعوب الخاضعة لسـلطتهم متسـاوية فيما بينها بواسـطة القوانين، حتّى تكون مهتمّة بنفس القدر بالدولة. ومنـه جاء أنّ الإمبراطور هدريانوس[4] أصلـح كلّ القانون الطبيعي البطولي للرومان مع القانون الطبيعي الإنساني للولايات، وأمر أن يقوم القضاء على *الأمر الدائم*، الذي شكّله سالفيوس جوليانوس[5]، بالكامل تقريبًا، من أوامر محليّة.

[§ ٤٠] بإمكاننـا الآن أن نجمـع كلّ العناصـر الأولـى لعالـم الأمـم هـذا انطلاقًا من الهيروغليفيّـات التـي تعبّـر عنهـا. العصـا [*lituus*] والماء والنـار فوق المذبـح، المِرمدة

(١) انظر لاحقًا §§ ١٠٤-١٠٥.

(٢) انظر § ٩٨٥.

(٣) اسمه اللاتيني Marcus Tullius Cicero [١٠٦-٤٣ ق. م]، رجل سياسة روماني، محام، فيلسوف وكاتب لاتيني. يُعتبر مرجعًا في الفصاحة اللاتينيّة القديمة.

(٤) بوبليوس إيليوس هدريانوس [٧٦-١٣٨م] الإمبراطور الرابع عشر لروما. مثقّف وشاعر وفيلسوف.

(٥) هو Publius Salvius Julianus [١١٥-١٧٠ م] وُلد بسوسة (تونس). عضو في مجلس الشيوخ الروماني ومشرّع.

المأتميّة في الغابة، المحراث المستنِد إلى المذبح ومقبض الدفة عند قاعدة المذبح، تعني التنبّؤ بالغيب والقرابين والأُسَر المتكوّنة في البداية من الأبناء فحسب، والدفن وزراعة الحقول وتقسيمها، والملاجئ والأُسَر المتكوّنة بعد ذلك أيضًا من الخدم [*famoli*]، والصراعات الزراعيّة الأولى، وكذلك المستعمرات البطوليّة الأولى داخل الأراضي، وحال انعدام هذه الأخيرة، مستعمرات ما وراء البحار، ومعها الهجرات الأولى، وكلّ هذا حدث في عصر الآلهة عند المصريّين القدامى الذي سمّاه فارّو، بجهل أو بلامبالاة *الزمن الغامض*، مثلما سبق أن لاحظنا ذلك أعلاه[1]. والحزمة تعني الجمهوريّات الأولى البطوليّة، وتمييز السلطات الثلاث، الطبيعيّة والمدنيّة والسياديّة، والسلطات الأولى المدنيّة، والتحالفات الأولى غير المتساوية الممنوحة بموجب القانون الزراعي الأوّل، الذي نشأت منه المُدن الأولى انطلاقًا من الإقطاعات الزراعيّة للعامّة، التي كانت إقطاعات ثانويّة تابعة لإقطاعات الأشراف الأبطال، التي مع أنّها ذات سيادة فإنّها صارت تابعة لسيادة أسمى للأنظمة البطوليّة الحاكمة. والسيف الذي يستند إلى الحزمة يشير إلى الحروب العموميّة التي تقوم بها المُدن مع بعضها البعض والتي بدأت بأعمال نهب وأفعال قرصنة، لأنّ المبارزات أو الحروب الخاصّة كانت قد ظهرت قبل ذلك بوقت طويل، في عصر الأُسَر، مثلما سنبيّن ذلك لاحقًا[2]. والكيس يعني شعارات النبالة أو شعارات الأُسَر التي أصبحت ميداليات والتي كانت أولى شعارات الشعوب وصارت بعد ذلك شعارات عسكريّة وأخيرًا العملات النقديّة التي تشير إلى تجارة الأملاك المنقولة بواسطة النقود؛ لأنّ تجارة الأملاك القارّة بأجور طبيعيّة مُحتَسبة على الثمار وعلى العمل كانت قد بدأت من قبل، منذ الأزمنة الإلهية، مع القانون الزراعي الأوّل، الذي على أساسه نشأت الجمهوريّات. والميزان يعني قوانين المساواة، التي هي القوانين بحصر المعنى. وأخيرًا الكادوسي [عصا هرمس] الذي يعني الحروب العموميّة المعلنة، والتي تختتم بمعاهدات السلم. كلّ هذه الهيروغليفيّات بعيدة عن المذبح؛ لأنّها تمثّل كلّ الأشياء المدنيّة للأزمنة التي بدأت تندثر فيها شيئا فشيئا الديانات الزائفة، بدءًا بالصراعات الزراعيّة البطوليّة، التي أعطت اسمها لعصر الأبطال المصريّين، الذي يسمّيه

---

(١) انظر §٦ وكذلك § ٥٢.

(٢) انظر §§ ٩٥٩-٩٦٤.

فارّو *الزمن الخرافي*. ولوحة الأبجديّات تتوسّط الهيروغليفيّات الإلهية وتلك البشـريّة؛ لأنّ الديانات الزائفة بدأت في الزوال مع ظهور الحروف، التي كانت مع بداية الفلسفات. بخلاف الديانة الحقيقيّة، أي ديانتنا المسيحيّة، التي تجد أيضًا إثباتًا إنسانيًا، في الفلسفات الأكثر سموّاً، أي الأفلاطونيّة والمشّائيّة، باعتبار أنّ هذه الأخيرة متطابقة مع الأفلاطونيّة.

[§ ٤١] لـذا فـإنّ **فكرة هذا العمل** يمكن تلخيصها بالطريقة التالية. الظلمات في أفق الثـورة هـي مادّة هذا *العِلم*، مادّة غير مؤكّدة، ولا شـكل لها، غامضة، وهي التي نعرضها فـي *الجدول الزمني* وفي *الملاحظات* المصاحبة له. الشـعاع الـذي تنير به العناية الإلهية صدر *الميتافيزيقا* يمثّل المبادئ والتعريفات والمسلّمات، التي يتّخذها هذا *العِلم* عناصر لدراسـة المبـادئ التي يقوم عليهـا والمنهج الـذي يتّبعه. وكلّ هذه الأشـياء موجودة في الكتاب الأوّل. والشـعاع الذي ينعكس من صدر *الميتافيزيقا* ليُنير تمثال هوميروس، هو النور في حدّ ذاته الذي يسـلّط على الحكمة الشـعريّة في الكتاب الثاني، وبفضله يسـلّط النور على هوميروس الحقيقي في الكتاب الثالث. واكتشـاف هوميروس الحقيقي يلقي الضوء كاملا على جميع الأشـياء التي تكوّن عالم الأمم هذا، متدرّجًا من أصوله حسـب الترتيـب الـذي على ضوء هوميـروس الحقيقي، تبرز به الهيروغليفيات: وهذا هو مسـار الأمـم الـذي يأتـي الحديث عنه فـي الكتـاب الرابع. وبوصولهـا أخيرًا إلـى قدمي تمثال هوميروس، تبدأ بنفس الترتيب مسارًا جديدًا: وهذا ما يدرسه الكتاب الخامس والأخير.

[§ ٤٢] وختامًا للخاتمة، لتلخيص فكرة الكتاب بأكثر إيجاز ممكن، الصورة بأكملها تمثّل العوالم الثلاثة بالترتيب الذي تبعته أفكار البشريّة الوثنيّة للتسامي من الأرض نحو السماء. جميع الهيروغليفيّات التي نراها موضوعة على الأرض تمثّل عالم الأمم، الذي أولى البشـرُ عنايتَهم به قبل كلّ شـيء. والكرة التي في وسط الصورة تمثّل عالم الطبيعة، الذي تأمّل فيه بعد ذلك الفيزيائيّون. والهيروغليفيّات التي في الأعلى تعني عالم الأفكار والرب، الذي تأمّل فيه أخيرًا الميتافيزيقيّون.

الكتاب الأوّل

في تحديد المبادئ

الجدول الزمني

الموضوع حسب العصور الثلاثة لأزمنة المصريّين القدامى، الذين كانوا يقولون إنّ العالم كلّه الذي جاء قبلهم مرّ بثلاثة عصور: عصر الآلهة، عصر الأبطال وعصر البشر

اليهود (٢)	الكلدان (٣)	السكيثيون (٤)	الفينيقيون (٥)	المصريون (٦)	الإغريق	الرومان	سنة العالم	سنة روما
الطوفان							١٦٥٦	
	زرادشت والمملكة الكلديّة (٧)						١٧٥٦	
	نمرود، أو بلبلة اللغات (٩)			الممالك بمصر	يابيتوس الذي انحدر منه الجبابرة (٨) وواحد منهم، بروميثيوس يسرق نار الشمس (١٠)		١٨٥٦	
					ديوكاليون (١١)			
دعوة إبراهيم				هرمس الهرامسة أو عصر الآلهة بمصر (١٢)	العصر الذهبي أو عصر الآلهة باليونان (١٣)			
					هلّين ابن ديوكاليون حفيد بروميثيوس، حفيد يابيتوس، ينشرعبر أبنائه الثلاثة ثلاث لهجات باليونان (١٤)		٢٠٨٢	
					كيكروبس المصري يقود بأتيكا إثنتي عشرة مستعمرة، أسّس منها ثيزيوس بعد ذلك أثينا (١٥)			
					قدموس الفينيقي يؤسّس طيبة ببيوتيا ويدخل في اليونان الحروف العاميّة (١٦)		٢٤٤٨	

اليهود (٢)	الكلدان (٣)	السكيثيون (٤)	الفينيقيون (٥)	المصريون (٦)	الإغريق	الرومان	سنة العالم	سنة روما
يسلّم الرب إلى موسى الشرائع المكتوبة						ساتورن أو عصر الآلهة باللاتيوم (١٧)	٢٤٩١	
				هرمس الشاب أو عصر الأبطال بمصر (١٨)	دناوس المصري يطرد آل إيناكوس من مملكة آرغوس (١٩). بيلوبس الفريجي يحكم في البيلوبونيز.		٢٥٥٣	
					الهرقليّون ينتشرون في كلّ اليونان، ويشكّلون فيه عصر الأبطال. الكريتيّون يشكّلون في كريت، ساتورنا (إيطاليا) وآسيا مملكة الكهنة. (٢٠)	أصليّون	٢٦٨٢	
	نينوس يحكم مع الأشوريّين						٢٧٣٧	
			ديدون تترك صور وتؤسّس قرطاج (٢١)					
			صور مشهورة بالملاحة وبالمستعمرات		مينوس، ملك اليونان، أوّل مشرّع للشعوب وأوّل قرصان في بحر إيجه		٢٧٥٢	
					أورفيوس وعصر الشعراء اللاهوتيّين (٢٢). هرقل، أوج الأزمنة البطوليّة باليونان (٢٣)	أركاديّون		
			سنشونياثون يكتب التاريخ بالحروف العاميّة (٢٤)		جازون يبدأ الحروب البحريّة بمعركة الجسر. نيزيوس يؤسّس أثينا وينشئ فيها الأريوباج	هرقل لدى إيفاندروس باللاتيوم، أو عصر الأبطال بإيطاليا.	٢٨٠٠	

اليهود (٢)	الكلدان (٣)	السكيثيون (٤)	الفينيقيّون (٥)	المصريّون (٦)	الإغريق	الرومان	سنة العالم	سنة روما
					حرب طروادة (٢٥)		٢٨٢٠	
					تشرّد الأبطال، بالخصوص أوليس وإينياس.			
						مملكة ألبا	٢٨٣٠	
حُكم شاوول							٢٩٠٩	
				سيزوستريس يحكم طيبة (٢٦)	مستعمرات إغريقيّة بآسيا وصقليّة وإيطاليا (٢٧)		٢٩٤٩	
					ليكورغس يعطي الشرائع للّاسيدوميتيين		٣١٢٠	
					الألعاب الأولمبيّة، أسّسها هرقل ثمّ عُلّقت وأعادها بعد ذلك إيفيتوس (٢٨)		٣٢٢٣	
						تأسيس روما (٢٩)		١
					هوميروس، الذي جاء في زمن لم تُكتشف فيه بعد الحروف العاميّة، والذي لم ير مصر (٣٠)	نوما ملكًا	٣٢٩٠	٣٥
				بسماتيك يفتح مصر لهلّيني إيونية وكاريا (٣١)	إيسوب فيلسوف أخلاقي عامّي (٣٢)		٣٣٣٤	
					حكماء الإغريق السبعة ومن بينهم واحد اسمه صولون، أرسى الحريّة الشعبيّة بأثينا، وآخر اسمه طاليس الملطي، بدأ فلسفته بالفيزياء (٣٣)		٣٤٠٦	
	قورش يحكم بأشور مع الفرس				اسم فيثاغورس، حسب تيتوس ليفيوس، لا يمكن أن يكون في حياته معروفًا بروما (٣٤)	سرفيوس توليوس ملكًا (٣٥)	٣٤٦٨	٢٢٥

اليهود (٢)	الكلدان (٣)	السكيثيون (٤)	الفينيقيون (٥)	المصريّون (٦)	الإغريق	الرومان	سنة العالم	سنة روما
					طرد الطغاة البيسيستراديّين من أثينا		٣٤٩١	
						طرد الطغاة التاركوينيّين من روما	٣٤٩٩	٢٤٥
					هسيود (٣٦) هيرودوتس وأبقراط (٣٧)		٣٥٠٠	
		إيدانثيرسوس ملك السكوتيّين (٣٨)			حرب البيلوبونيز. ثوقيديدس الذي كتب قائلا إنّه إلى زمن والده كان الإغريق لا يعرفون شيئًا عن تاريخهم القديم، لهذا السبب شرع في كتابة تاريخ هذه الحرب. (٣٩)		٣٥٣٠	
					سقراط يخلق الفلسفة الأخلاقية العقلانية. وأفلاطون يشعّ في الميتافيزيقا، وأثينا تسطع بكل أنوار فنونها وحضارتها (٤٠)		٣٥٥٣	٣٠٣
					قسطفون يقود جيشه إلى فارس، وبهذا يكون الأوّل الذي عرف بشيء من الثقة عادات الفرس وتاريخهم (٤١)	قانون اللوائح الاثنتي عشرة	٣٥٨٣	٣٣٣
						قانون بوبليليا (٤٢)	٣٦٥٨	٤١٦
					الإسكندر الأكبر يطيح لصالح مقدونيا بالملكيّة الفارسيّة؛ وأرسطو، الذي زارها شخصيًّا، يلاحظ أنّ الإغريق قصّوا خرافات بخصوص أمور المشرق		٣٦٦٠	

اليهود (٢)	الكلدان (٣)	السكيثيون (٤)	الفينيقيون (٥)	المصريون (٦)	الإغريق	الرومان	سنة العالم	سنة روما
						قانون بيتليا (٤٣)	٣٦٦١	٤١٩
						حرب تارنتو التي تعرّف فيها الإغريق واللاتيّون على بعضهم البعض (٤٤)	٣٧٠٨	٤٨٩
						الحرب البونيقيّة الثانية ومنها بدأ تيتوس ليفيوس قصّ التاريخ الروماني الموثوق (٤٥)	٣٨٤٩	٥٥٢

[القسم الأوّل]

ملحوظات حول الجدول الزمني وفيه يتمّ تنظيم الموادّ

١

[§ ٤٣] يستعرض هذا الجدول الزمني عالم الأقوام القديمة منذ الطوفان ويحوم حول اليهود فالكلدان ثمّ السكوثيّين والفينيقيّين والمصريّين والإغريق والرومان إلى حدود الحرب البونيقيّة الثانية[١]: ويظهر فيها أشخاص أو وقائع عديدة جدّاً حُدّدت من طرف العلماء في أزمنة معيّنة وفي بقاع محدّدة. أولئك الأشخاص أو تلك الوقائع إمّا لم توجد في تلك الأزمنة أو في تلك الأمكنة التي تمّ وضعها فيها، أو إنّها لم توجد قطّ في هذا العالم: ومن الظلمات الطويلة والكثيفة حيث كانت تنام مدفونة برز رجال عظماء وبرزت أحداث على غاية من الأهميّة، نشأت منهما فترات عظيمة من الأمور الإنسانيّة: ويتبيّن هذا كلّه في الملحوظات المذكورة لكي يفهم المرء كم أن مبادئ الأقوام البشريّة مشكوك فيها أو منقوصة أو مغلوطة أو حتّى دون معنى.

[§ ٤٤] إضافة إلى ذلك، فهو يتّخذ موقفًا معاكسًا تمامًا للجدول الزمني المصري والعبري والإغريقي الذي وضعه جون مرشام[٢]،حيث يريد البرهنة على أنّ المصريّين سبقوا في السياسة والدين كلّ أمم العالم، وأنّ طقوسهم المقدّسة ومؤسّساتهم المدنيّة انتقلت إلى شعوب أخرى، وتقبّلها اليهود مع بعض التنقيحات. وتبعه في هذا الرأي سبنسر[٣]، في مؤلّفه *dissertazione de Urim, e Thummim*، حيث يقول إنّ اليهود

(١) هي الحرب المعروفة كذلك باسم الحرب الحنبعلية بين الرومان وقرطاج غرب وشرق البحر المتوسط.

(٢) اسمه الأصلي John Marsham، ولد بلندن سنة ١٦٠٢ وتوفّي سنة ١٦٨٣. عالم أثريّات وسياسي إنكليزي وعُرف بدراساته في الكرونولوجيا أو التقسيم الزمني.

(٣) John Spencer [١٦٣٠-١٦٩٣]، لاهوتي إنكليزي، مؤلّف *Dissertatio de Urim et Thummim* (١٦٦٩).

أخذوا عن المصريّين كلّ العلم الخاصّ بالأمور الإلهية بواسطة القبالة المقدّسة. أخيرًا، فقد رحّب هورنيوس[١]، في كتاب *الفلسفة البربريّة القديمة* برأي مارشام، حيث إنّه في الكتاب الذي يحمل عنوان *Chaldaicus*، كتب أنّ موسى، بعد أن تعلّم عن المصريّين معارف الأمور الإلهية، ضمّنها في شرائعه التي حملها للعبرانيّين. فقام ضدّه هرمَنّوس ويتسيوس[٢] في العمل الذي يحمل عنوان *Aegyptiaca, sive de Aegyptiacorum Sacrorum cum Hebraicis Collatione*، حيث يؤكّد أنّ أوّل مؤلّف وثنيّ جاء بأولى الأخبار الموثوقة عن المصريّين كان ديو كاسّيوس[٣]، الذي عاش في عهد ماركوس أنطونينوس الفيلسوف[٤]. إلاّ أنّ تاسيتوس في *الحوليّات* يفنّد هذا الرأي، ويروي أنّ جرمانيكوس[٥] حين زار المشرق، ذهب بعد ذلك إلى مصر لمشاهدة آثار طيبة الشهيرة، وهناك فسّر له أحد الكهنة الصور الهيروغليفيّة المنقوشة على حجارة المباني العظيمة. فأخذ الكاهن يهذي قائلا له إنّ تلك الحروف تحفظ ذاكرة السلطة اللامحدودة التي كانت لملكهم رمسيس بإفريقيا والشرق وآسيا الصغرى، والتي كانت تضاهي قوّة روما في تلك الأزمنة العظيمة. ولا يذكر ويتسيوس هذا الخبر، ربّما لأنّه كان مخالفًا لرأيه.

[§ ٤٥] ولكن المؤكّد هو أنّ كلّ ذلك القدم السحيق لم ينتج لدى المصريّين داخل اليابسة الكثير من الحكمة الرفيعة المستوى. وبالفعل، في زمن إكليمندس الإسكندري[٦] مثلما يروي في كتاب *Stromates*، كانت كتبهم المزعومة بأنّها كهنوتيّة تبلغ حوالي

---

(١) هو Otto Heurnius أو Otto Van Heurn [١٥٧٧-١٦٥٢]، فيزيائيّ إنكليزي، لاهوتي وفيلسوف. جاء هذا في *Barbaricae philosophiae antiquitatum*، الكتاب الثاني، ١٦٠٠.

(٢) اسمه الأصلي باللاتينيّة: *Hermannus Wißsius*[١٦٣٦-١٧٠٨]، لاهوتي ألماني. مؤلّف كتاب *Aegyptiaca*، ١٦٨٣.

(٣) لوسيوس كاسيوس ديو. اسمه اللاتيني Lucius Cassius Dio[حوالي ١٥٥ - بعد ٢٣٥]، سياسي، قنصل ومؤرّخ روماني يكتب باللغة الإغريقيّة.

(٤) اسمه اللاتيني Marcus Aurelius Antoninus الملقّب بالإمبراطور الفيلسوف [١٢١-١٨٠ م]، رواقي وكاتب، كان من بين الأباطرة الخمسة الطيّبين.

(٥) جرمانيكوس يوليوس قيصر [١٥ ق.م- ١٩ م] من سلالة يوليوس وكلوديوس. كان من كبار جنرالات روما واشتهر بالحملات التي قادها بجرمانيا.

(٦) تيتوس فلافيوس إكليمندس [حوالي ١٥٠ بأثينا - بين ٢١١ و٢١٥]، أحد أهمّ معلّمي مدرسة الإسكندريّة اللاهوتيّة، حاول في تعاليمه التوفيق بين الفلسفة اليونانيّة واللاهوتيّة المسيحيّة.

أربعين كتابًا، وكانت تحتوي في الفلسفة وفي علم الفلك على أخطاء فادحة، منها ما ذكره شريمون[1] معلّم القدّيس ديونيسيوس الأريوباجيت[2] الذي غالبًا ما سخر إسطرابون[3] من آرائه. ما كانوا يقولونه في الطبّ اعتبره جالينوس[4] في كتبه *de Medicina Mercuriali* ترّهات واضحة ومجرّد أكاذيب. والأخلاق عندهم منحلّة، ليس لأنها تقبل أو تسمح بوجود المومسات فقط، بل وتعتبرهنّ شريفات. وكانت لاهوتيّتهم مليئة بالمعتقدات الخرافية والعرافة والسحر. أمّا عظمة معالمهم وأهرامهم فهي نتاج البربريّة التي تتباهى بكلّ ما هو ضخم. ولهذا السبب تُعتبر المنحوتات وفنون التعدين المصريّة حتّى في أيامنا الحاضرة فجّة جدًا. ذلك أنّ الأناقة تأتي مع الفلسفة، واليونان الذي هو بلد الفلاسفة أشعّ وحده بكلّ الفنون الجميلة التي أتت بها القريحة الإنسانيّة، من رسم ونحت وتعدين ونقش، وهي في غاية الجمال والأناقة لأنّهم يجرّدون سطح المادّة من الأجسام التي يقلّدونها.

[§ ٤٦] هذه المعرفة المصريّة القديمة تسامت إلى النجوم بفضل الإسكندرية التي أسّسها على ساحل البحر الإسكندر الأكبر[5]، وهي مدينة جمعت بين الرهافة الإفريقيّة والرقّة الإغريقيّة فأنتجت فلاسفة شهيرين أكسبوا الإسكندريّة ازدهارًا كبيرًا في العلم اللاهوتي، حتّى إنّ المتحف الإسكندري صار يضاهي الأكاديمية والمدرسة والرواق التي كانت موجودة بأثينا. وقد قيل عن الإسكندريّة إنّها أمّ العلوم، وسمّاها اليونانيّون

---

(١) شريمون الإسكندري، فيلسوف رواقي وكاهن مصري ولعلّه وُلد بمصر ونشط بروما في ٥٠ م تقريبًا. حسب الموسوعة البيزنطيّة «سودا» كان رئيس مدرسة النحويّين بالإسكندريّة والأغلب أنّه كان رئيس الكهنة الهيروغليفيّين والظنّ أنّه كان حافظ متحف الإسكندريّة وفي سنة ٤٩ نجده بروما معلّمًا لنيرون الذي سيصبح إمبراطور روما سنة ٥٤.

(٢) ديونيسيوس الأريوباجيت عاش في القرن الأوّل ميلادي. مذكور في العهد الجديد بسفر الرسل / ٧.

(٣) سترابون أو سترابو [٦٠ ق م - ٢٠ م]، جغرافي ومؤرّخ يوناني. اسطرابون عند العرب. انظر جغرافيا، XVII، ١، ٢٩.

(٤) اسمه باللاتينية كلاوديوس غالينوس أو جالينوس [١٢٩-٢١٦]، طبيب إغريقي عالج العديد من الأباطرة الرومان.

(٥) الإسكندر الثالث المقدوني، المعروف بالإسكندر الأكبر والمسمّى أيضا ذو القرنين [٣٥٦-٣٢٣ ق.م] وهو أحد أعظم ملوك مقدونيا الإغريق وأبرز القادة العسكريّين في التاريخ، تلميذ أرسطو ومؤسّس إمبراطوريّة تمتد من سواحل البحر الأيوني غربًا إلى مشارف الهيمالايا شرقًا.

"πόλις (pólis)" مثلما سُمّيت أثينا "ástu، ἄστυ" وروما *Urbs*. ثمّ جاء مانيتون[١]، الحبر المصري الأعظم، الذي حوّل التاريخ المصري إلى لاهوتيّة طبيعيّة رائعة، تمامًا مثلما فعل الفلاسفة اليونانيّون بأساطيرهم، ذلك أنّ الأساطير اليونانيّة، كما سنبيّن ذلك من بعد، هي في الواقع أقدم قصص هذا الشعب، وما حصل للأساطير اليونانيّة حصل كذلك للهيروغليفيّات المصريّة.

[§ ٤٧] والمصريّون بما عرفوا به من تفاخر حتّى أنّهم كانوا يطلقون عليهم بسخرية «حيوانات المجد» [*Glorae animalia*] وجدوا أنفسهم بفضل الإسكندريّة، التي كانت مرفأ كبيرًا، على اتصال بالبحر المتوسّط والبحر الأحمر والمحيط وبلاد الهند. وقد اتّهم تاسيتوس قوم مصر بأنهم «توّاقو الأديان الجديدة [*novarum religionum avida*]، وبأنّ إيمانهم بعظمة تاريخهم القديم جعلهم يعتبرون بزهو أمّتهم فوق كلّ الأمم الأخرى وأنّها سادت في قديم الزمان على جزء كبير من العالم. كانوا لا يعرفون كيف أنّه لدى الشعوب الوثنيّة -دون أن يعرف أحدها شيئًا عن الشعوب الأخرى- كانت تنشأ بصفة منفصلة أفكار مماثلة عن الآلهة وعن الأبطال، وهو ما سنبرهن عليه بالكامل في هذا العمل، وهكذا اعتقدوا أنّ كلّ الآلهة الزائفة المنتشرة في العالم (والتي علموا عنها من الأمم التي تجتمع في مرافئهم للتجارة) لابد وانها قد نشأت أصلا في مصر. وكان أن ظنّوا أنّ إلههم جوبيتر آمون هو الأقدم من بين كلّ آلهات جوبيتر الأخرى؛ لأنّ كلّ أمّة وثنيّة كان لها جوبيتر خاصًّا بها، وأنّ هراقلة كلّ الأمم الأخرى، الذين عدّ منهم فارّو أربعين هرقلا، أخذوا اسمهم من هرقل مصر، وقد ذكر تاسيتوس هذه المزاعم في حوليّاته. أمّا ديودورس الصقلّي[٢]، الذي عاش في عهد أغسطس، مع أنّه يبدو محابيًا كثيرًا للمصريّين، فهو لا يعترف لهم مع ذلك بأكثر من ألفي سنة من الوجود. ويعارضه في ذلك جياكومو كابّيلوس، الذي ينسب إليهم في *التاريخ المقدّس والمصريّ*[٣] قيمة

(١) مانيتون أو مانيثون، عاش في أوائل القرن٣ قبل الميلاد في عهد الملك بطليموس الثاني الذي كلّفه بكتابة تاريخ مصر القديمة "*Aegyptiaca*".

(٢) باللاتينية Deodorus Siculus. مؤرّخ يوناني عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد. ألّف موسوعة تاريخيّة عُرفت بالمكتبة أو بالخزانة التاريخيّة. كان معاصرًا لأغسطس قيصر.

(٣) فرنسي اسمه الأصلي Jacques Cappel [١٥٧٠-١٦٢٤] مدرّس العبريّة واللاهوتيّة. مؤلّف كتاب *Historia sacra et exotica ab Adamo ad Augustum* (١٦١٣)

تماثل تلك التي كان ينسبها قسطيفون[1] لقورش[2]، ونضيف نحن، تلك التي يتصوّرها غالبًا أفلاطون بخصوص الفرس. في نهاية الأمر، جميع ما ذكرناه عن زهو المصريّين وعن مزاعمهم يبدو لنا مثبتًا في بهتان *بيوماندريس*[3] المسوَّق على أنّه *مذهب* هرمسيّ. وقد كشف كازوبون[4] أنّ هذا المذهب ليس أقدم من مذهب الأفلاطونيّين المعبّر عنه بنفس الكلمات، وسوماز من ناحيته[5] يقول إنّه ليس إلاّ خليطًا غير منظّم من الأشياء التافهة والمتداوَلة.

[§ ٤٨] إنّ الفكرة الخاطئة التي كانت للمصريّين بخصوص قِدَم تاريخهم السحيق تعود إلى خاصيّة من خاصيّات الفكر الإنساني، كونه غير محدّد، وتجعله في الغالب يعتقد أنّ الأشياء التي لا يعرفها أضخم بكثير ممّا هي عليه في الواقع. وكما أنّ الصينيّين خلقوا أمّة عظيمة مع أنّهم بقوا منعزلين عن بقيّة العالم، فقد عاش المصريّون أيضًا دون اتّصال بالغير إلى زمن بسماتيك[6]، والسكوثيّون الذين تقول عنهم رواية شعبيّة إنّهم أقدم من المصريّين، عاشوا هم أيضًا بنفس الصفة إلى زمن إيدانثيرسوس[7]. هذه الرواية الشعبيّة تجد بالضرورة منشأها في بداية التاريخ الكوني الوثني الذي -بحسب جوستينوس[8]- يضع مِلكيْن عظيميْ القوّة باعتبارهما سابقيْن للمملكة الأشوريّة، هما تانايس ملك السكوثيّين وسيزوستريس ملك المصريّين، اللذان يُظهران أنّ العالم أقدم بكثير ممّا هو في الواقع. ويبدو من الرواية أنّ تانايس عبَر المشرق على رأس جيش عرمرم لغزو مصر، وهو بلد لطبيعته نفسها يكاد يكون متعذرًا على جيش كبير العدد، وفي الآن نفسه تحرّك سيزوستريس يتبعه جيش لا يقلّ قوّة عن الأوّل لغزو سكيثيا، التي

(١) مؤرّخ وقائد حربي يوناني [٤٣٠-٣٥٥ ق. م].

(٢) قورش أو كورش الأكبر [٥٦٠-٥٢٩ ق م] أوّل ملوك فارس وأحد أعظم ملوك الفرس الأخمينيّة.

(٣) عنوان الكتاب الأوّل من متون هرمس المنسوبة إلى هرمس الهرامسة أو طريس-ميجيستيس.

(٤) اسمه الأصلي Isacc Casaubon [١٥٥٩-١٦١٤] عالم في الإنسانيّات. من مؤلّفاته *De rebus sacris et ecclesiasticis* (١٦١٥).

(٥) هو Claude Saumaise [١٥٨٨-١٦٥٣] عالم إنسانيّات وفقيه لغة فرنسي.

(٦) بسماتيك أو بسيمّاتيكوس لدى الإغريق. فرعون مصر عاش في القرن ٦ قبل الميلاد.

(٧) إيدانثيرس أو إيدانثيرسوس، ملك السكوثيّين. عاش في القرن ٦ ق. م.

(٨) اسمه اللاتيني Marcus Junianus Justinus، مؤرّخ روماني عاش في القرن ٣ أو القرن ٤ ميلادي.

بقيت غير معروفة من الفرس إلى زمن داريوس الملقّب بالأكبر، مع أنّ هذا الشعب مدّ هيمنته على كلّ البلاد التي كانت قبل ذلك تحت الميديّين، أي إلى تخوم سكيثيا. وأعلن داريوس الحرب على إيدانثيرسوس ملك السكوثيّين، وهذا الأخير كان من الهمجيّة، في زمن كانت فيه بلاد فارس متحضّرة، بحيث أنّه لم يردّ على داريوس إلّا بخمس كلمات *واقعيّة* في شكل خمسة أشياء، إذ كان يجهل حتّى التعبير بالحروف الهيروغليفيّة، كما كان يفعل المصريّون سابقًا وكما يفعل الصينيّون في أيّامنا هذه. والأغرب في الأمر أنّ هذين الملكيْن الجبّاريْن اجتازا آسيا بجيوشهما العظيمة ومع ذلك لم يجعلا لا من سكيثيا ولاية تابعة لمصر ولا من مصر ولاية تابعة لسكيثيا، بل تركاها حرّة، وكان أن نشأت فيها بعد ذلك بقليل أولى الممالك الأربع الأكثر شهرة في العالم، أي المملكة الأشوريّة.

[§ ٤٩] يجب أن لا ننسى في هذه المنافسة على القِدم في الزمن الكلدان، هذا الشعب القاطن بداخل الأراضي الآسيويّة الذي، كما سنبيّن ذلك، هو أقدم من السكوثيّين ومن المصريّين، الذين يتفاخرون باحتفاظهم بأرصاد فلكيّة تعود إلى ثمانية وعشرين ألف سنة. ولعلّ هذا ما دفع اليهودي فلافيوس يوسيفوس[1] خطأً إلى اعتبار أنّ الملاحظات المنقوشة على عمودين، واحد من الرخام والآخر من الآجر، نُصبا ضدّ طوفانين، على أنّها سابقة للطوفان العظيم، وزعم أنّه شاهد بنفسه في سوريا العمود من الرخام. هل يُعقل أن نصدّق أنّ الأقوام الأكثر قدمًا في التاريخ عُنيَت بحفظ أرصادها الفلكيّة، بينما نرى أن الشعوب اللاحقة لهم أهملوا تمامًا فعل ذلك؟ لذا من الأفضل وضع هذا العمود في متحف السذاجة!

[§ ٥٠] ولكنّنا رأينا أنّ الصينيّين يكتبون بالحروف الهيروغليفيّة، مثل المصريّين القدامى، دون الحديث عن السكوثيّين الذين كانوا لا يعرفون حتّى استعمالها. طيلة آلاف السنين لم يكن لهم أيّ اتّصال بأمم أخرى بإمكانها أن تخبرهم بقدم العالم الحقيقيّ. كانوا مثل رجل يستفيق في غرفة مظلمة صغيرة جدًّا، وإذ يجهل في الظلمة حدود غرفته فهو يظنّها أوسع ممّا كان يظنّها قبل أن يلمس جدرانها بيديه. وقد فعل الصينيّون والمصريّون ومعهم الكلدان الشيء نفسه في ظلمات أحقابهم الزمنيّة. فقد أكّد

(١) أديب ومؤرّخ يهودي عاش في القرن الأوّل ميلادي، بين سنة ٣٨ و١٠٠.

الأب اليسوعي ميكيلي روجيري[1] أنّه قرأ كتبًا مطبوعة قبل مجيء المسيح، كما ذكر الأب مارتيني[2]، وهو أيضًا يسوعيّ، في كتابه *تاريخ الصين* عن قِدم كنفوشيوس السحيق. وقد جرّت هذه المزاعم الكثيرين إلى الإلحاد حسب قول مارتين سكوك[3] في كتابه *Demonstratione Diluvj Universalis*، وبسببها حسب رأيه، يكون إسحاق بيريرو، مؤلّف كتاب *تاريخ ما قبل آدم*[4]، قد ترك الديانة الكاثوليكيّة وكتب بعد ذلك أنّ الطوفان لم يغمر إلّا أرض اليهود. ولكن نيكولو تريغولتسيو[5]، الذي كان أوسع معرفة من روجيري ومارتيني، كتب في مؤلّفه *Christiana expeditione apud Sinas* أنّ الطباعة لم تُكتشف عند الصينيّين إلّا قبل مئتيْ عام من اكتشافها بأوروبا، وأنّ كونفوشيوس لم يعش أكثر من خمسمئة سنة قبل المسيح، وأنّ فلسفة كونفوشيوس، الشبيهة بكتب الكهنة المصريّين، ليست إلّا نسيجًا من الأخطاء الفادحة فيما يتعلّق بالعلوم الطبيعيّة، وتتمثّل في مجملها في أخلاق دارجة يتربىّ عليها العامّة بواسطة الشرائع.

[§ ٥١] انطلاقًا من هذه الملاحظات بخصوص الآراء الخاطئة التي كانت لدى الشعوب الوثنيّة، وبخاصّة منهم المصريّين، بخصوص تاريخهم القديم، يجب أن يبدأ كلّ ما يمكن لنا معرفته عن العالم الوثني، لكي نعرف بعلم مؤكّد هذه النقطة المهمة لبدايته: أي أن نحدّد بيقين أين ومتى كانت بداياته الأولى، ومن ناحية أخرى، أن ندعم بحجج إنسانيّة أيضًا، المعتقَد المسيحي الذي يبدأ بتأكيد أنّ أوّل شعوب العالم هو الشعب العبراني، وأميرهم آدم، الذي خلقه الإله الحقّ حين أنشأ الكون. والعلم الأوّل الذي علينا معرفته هو إذن الميثولوجيا أو تأويل الأساطير لأنّه، كما سنرى، كلّ القصص التاريخيّة الوثنيّة كان لها أصل أسطوريّ، وهذه الأساطير هي التاريخ الأوّلي لجميع الأمم الوثنيّة. ذاك هو المنهج الذي يجب استعماله لكي نكتشف سواء مبادئ الأمم أو كذلك مبادئ العلوم، ذلك أنّ هذه الأخيرة هي من نتاج الأمم نفسها، لا غير: وطيلة هذا

---

(١) الأب Michele Ruggieri [١٥٣٤-١٦٠٧] في *Nuovi avvisi del Giappone e della Cina*، ١٥٨٦.

(٢) الأب Martino Martini [١٦١٤-١٦٦١]، في *Sinicae historiae decas prima*، ١٦٥٨.

(٣) Martin Schoock [١٦١٤-١٦٥٩]، في *Diluvium Noachi universale*، ١٦٩٢.

(٤) هو Isaac de la Peyrère [١٥٩٤-١٦٧٥] في *Systema theologicum ex Praeadamitarum hypothesi*، ١٦٥٥.

(٥) هو Nicolas Trigualt [١٥٧٧-١٦٢٨]، في *De Christiana expeditione*، ١٦١٥.

العمل، سنبيّن أنّ كلّ العلوم نشأت من حاجيات الإنسان ومن متطلّبات الشعوب، وبعد ذلك اكتملت بما جاءت به أفكار كبار العلماء. هكذا ينبغي أن يبدأ التاريخ الكوني، الذي يقول عنه جميع العلماء إنّه منقوص لجهلنا ببداياته.

[§ ٥٢] في هذا الخصوص سيكون لنا عون كبير في تاريخ مصر القديمة الذي ترك لنا أثرين لا يقلّان روعة عن أهرامها، وهما هاتان الحقيقتان الفقهيّتان: الأولى جاءت في رواية لهيرودوتس تقول إنّ أهل مصر قسموا كلّ الزمن الذي سبقهم إلى ثلاثة عصور، الأوّل هو عصر الآلهة، والثاني هو عصر الأبطال، والثالث هو عصر البشر. والحقيقة الثانية هي أنّه طيلة كلّ هذا الزمن استعمل البشر ثلاث لغات مختلفة توافق من حيث عددها ومن حيث ترتيبها العصور الثلاثة: الأولى هي اللغة الهيروغليفيّة، أي اللغة المقدّسة، والثانية هي اللغة الرمزيّة، أي لغة الأبطال، والثالثة هي اللغة الرسائليّة، أي بحروف اصطلحت عليها الشعوب، وكلّ هذا جاء في كتاب شيفّر حول الفلسفة الإيطالية[1]. وعلينا القول إنّ ماركوس تيرانتيوس فارّو لم يتّبع هذا التقسيم، لا لأنّه لم يعرف كيف يتّبعه وهو العالم الكبير الذي قيل عنه في زمن شيشرون إنّه أكثر الرومان علمًا، بل لأنّه لم يرد اتّباعه لأنّه أراد أن ينسب إلى قوم روما كلّ ما عرفته الأقوام الوثنيّة، طبقًا لما ذكرناه في المبادئ من أنّ كلّ أمّة تنسب إلى نفسها مبدأ كلّ شيء، وهكذا حاول في عمله العظيم «الأثريّات البشرية والإلهية» [*Rerum Divinarum, et Humanarum*] الذي حرمنا منه الزمن، أن يجعل من اللاتيوم[2] منشأ كلّ الشرائع الإلهية والبشريّة؛ لذا سيكون من الغريب أنّ يصدّق فارّو الأسطورة القائلة بأنّ *اللوائح الاثنتي عشرة* جاءت إلى روما من أثينا، وهكذا قسّم أزمنة العالم إلى ثلاثة عصور: العصر الغامض، الذي يوافق عصر الآلهة، والعصر الأسطوري الذي يوافق عصر الأبطال، وأخيرًا العصر التاريخي الذي يوافق ما سمّاه المصريّون بعصر البشر.

[§ ٥٣] إضافة إلى ذلك سيكون تاريخ مصر القديمة نافعًا لنا لوجود روايتيْن فيه تشهدان على غرور الأمم التي -حسب قول ديودورس الصقلّي[3]- تعتبر نفسها الأقدم

---

(١) Johannes Scheffer [١٦٢١-١٦٧٩] في *De natura et constitutione philosophiae italicae*، ١٦٤٤.

(٢) إقليم Lazio أو Latium هو المنطقة الجغرافية التي توجد بها روما. يُنطق أيضًا لاتسيوم وبالفرنسيّة لاسيوم.

(٣) في *Bibliotheca historica*، (سنشير إليه لاحقًا تحت عنوان *المكتبة التاريخيّة*)، I، ٩.

في الزمن وتحتفظ بذاكرتها وبتقاليدها منذ بداية العالم، وهو شيء، كما سنرى فيما بعد، لا يمتاز بـه إلّا اليهود. والرواية الفخورة الأولى، كما سبق أن رأينـا[1]، هي التي تقول إنّ إلههم جوبيتر-آمون هو الأقدم من بين جميع الجوبيترات الآخرين في العالم، بينما تزعم الثانية أنّ كلّ هراقلة الأمم الأخرى اتّخذت أسماءها من اسم الهرقل المصري: والمغزى مـن كلّ هـذا أنّ جميـع الأمم مرّت في البداية بعصر الآلهة الـذي كان الملك من بينها هو جوبيتر، ثمّ بعصر الأبطال، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء الآلهة وأعظمهم هو هرقل.

٢

[اليهود]

[§ ٥٤] خصّصنا العمود الأوّل في الجدول للعبرانيّين الذين -حسـب قول اليهودي فلافيـوس يوسـيفوس ولكتانتيـوس فيرميانـوس اللذيْـن سـنذكرهما لاحقًـا[2]- عاشـوا مجهولين من طرف جميع الأمم الوثنيّة. ومع ذلك فقد كانوا يحسـبون الأزمنة المنقضية بطريقة دقيقة، تُعتبر اليوم صحيحة من قبل الدارسين الأكثر جديّة، بالاعتماد على حساب فيلـون اليهـودي. وإذا كان هـذا الحسـاب يختلـف عن حسـاب يوسـابيوس، فالفارق لا يفوت ألف وخمسـمئة عام، وهو فارق وجيز جدّاً مقارنة بما جاء في حسـابات الكلدان والسـكوثيّين والمصريّين، وحتى الصينيّين في وقتنا الحاضر. وسـتكون هذه حجّة دامغة تـدلّ علـى أنّ العبرانيّيـن هـم أوّل شـعوب عالمنا، وأنّهـم احتفظوا في التاريـخ المقدّس بصفة حقيقيّة بتقاليدهم منذ بدء العالم.

٣

[الكلدان]

[§ ٥٥] فـي العمـود الثانـي نجـد الكلـدان؛ ذلـك لأنّ الجغرافيـا تظهـر لنـا أنّ المملكـة الواقعـة أكثـر داخل أراضي العالـم المأهول كانت في آشـور؛ وكذلك لأنّه

(١) انظر § ٤٧.

(٢) انظر § ٩٤.

كما سنوضّح ذلك في هذا العمل، استقرّت الشعوب في الأراضي الداخليّة أوّلا، ثمّ ظهرت الشعوب التي استقرّت على سواحل البحر. ولا يوجد شكّ في أنّ الكلدان كانوا العلماء الأوائل زمن الوثنيّة، وعلى رأسهم حسب رأي الفقهاء زرادشت الكلداني. ولا شكّ في أنّ التاريخ الكوني يبدأ بمملكة الأشوريّين التي نشأت من الشعب الكلدانيّ. ولمّا تنامى عدد هذا الشعب تكوّنت منه في زمن نينوس الأمّة الأشوريّة، وهو لم يؤسّس المملكة الأشوريّة من أناس جاؤوا من خارجها، بل من الكلدان أنفسهم وبهذا اضمحلّ اسم الكلدان وحلّ محلّه اسم الأشوريّين. وفي رأينا كانوا من عامّة الشعب استعان بهم نينوس وتولّى قيادتهم لتأسيس مملكته. وهذا ما يحدث في تاريخ كلّ الأمم تقريبًا، مثلما حدث في روما، كما سيأتي ذكره في هذا الكتاب. ويقصّ علينا التاريخ الكوني نفسه أنّ نينوس قتل زرادشت، ولكنّه يحدّثنا بلغة الأبطال، أي اللغة الرمزيّة، ليقول لنا إنّ مملكة الكلدان الأرستقراطيّة التي يُعتبر زرادشت شخصيّتها البطوليّة، قد أسقِطت بواسطة الحريّة الشعبيّة التي تحصّل عليها عامّة هذا الشعب. وسنرى أنّه في العصور البطوليّة كان العامّة والأرستقراطيّة يمثّلان أمّتين مختلفتين، وأنّ نينوس بإرادة الأولى نُصّب ملكًا. وإن لم يكن جرى الأمر على هذا النحو فإنّنا سنجد أنفسنا أمام أمر غير *معقول* في تاريخ المملكة الأشورية، إذ سنراها في غضون حياة شخص واحد، الذي هو زرادشت، تتحوّل من أمّة همجيّة لا تعرف القانون إلى دولة قويّة بنى عليها نينوس مملكة عظيمة. هذا ما سيُعاب علينا لو بدأنا التاريخ الكوني بحكم نينوس. سيبدو أنّ المملكة الأشوريّة قد نشأت فجأة، مثلما ينشأ ضفدع من مطرة صيف.

٤
[السكوثيّون]

[§ ٥٦] في العمود الثالث نجد السكوثيّين الذين سبقوا المصريّين في القِدم، كما سبق أن أخبرتنا بذلك[1] رواية شعبيّة.

---

(١) انظر § ٤٨.

٥

[الفينيقيّون]

[§ ٥٧] العمـود الرابـع هو للفينيقيّين الذين سـبقوا أيضًا المصريّيـن. فقد حملوا إلى أهل مصر ما تعلّموه من الكلدان بخصوص استعمال المِزْوَلة وعِلم ارتفاع نجمة القطب، حسب رواية عاميّة. وسنبيّن لاحقًا[1] أنّهم حملوا إليهم أيضًا الحروف الأبجديّة العاميّة.

٦

[المصريّون]

[§ ٥٨] لكلّ الأسباب التي سبق عرضها نضع المصريّين في المرتبة الخامسة من هذا *الجـدول الزمني*، خلافًا لرأي مارشـام الذي يعتبرهم في جدولتـه الزمنيّة أقدم من جميع الشعوب الأخرى.

٧

[زرادشت[2] والمملكة الكلديّة - سنة العالم ١٧٥٦]

[§ ٥٩] يظهر زرادشـت في هذا العمل باعتباره شـخصيّة شـعريّة لمؤسّسـي الشـعوب بالمشرق، ولهذا السبب نجد أكثر من زرادشت واحد منتشرين في المشرق بقدر ما نجد من هراقلـة فـي الطرف المقابل، أي الغـرب. ولعلّ الهرقل السـوري والهرقل الفينيقي اللذين لاقاهما فارّو في آسيا، واللذيْن كانت لهما سِمات الغربيّين، ليسا إلّا زرادشتيْن بالنسبة إلى شـعوب المشـرق. ولكـن غرور العلماء الذيـن يريدون من التاريخ أن يثبـت أنّ ما يعرفونه قديم قِدم العالـم، جعلهم يصنعون من هؤلاء الزرادشت رجلا بعينه ذا معرفة باطنيّة واسعة، ونسبوا إليه نبوءات الفلسفة، التي تقدّم لنا مذهبًا حديثًا متأخّرًا على أنّه مذهب قديم ألا هو مذهب الفيثاغوريّين والأفلاطونيّين. بل إنّ غرور العلماء لم يتوقّف عند هذا الحدّ، وتصوّر

(١) § ٤٤٠.

(٢) مؤسّس الديانة الزرادشتيّة المعروفة أيضًا بالمجوسيّة الزرادشتيّة وتُعتبر من بين أقدم الديانات في العالم إذ ظهرت ببلاد فارس قبل ٣٥٠٠ عام.

أيضًا تعاقبًا للمدارس عند مختلف الشعوب: فيكون زرادشت قد علّم بيرُسوس[1] بالنسبة إلـى كلدان، وبيروز علّم هرمس الهرامسـة بالنسـبة إلـى مصر، وهذا الأخيـر لقّن أطلنتس بالنسـبة إلى إثيوبيا، وأطلنتس لقّن أورفيوس بالنسـبة إلى تراقيا. وأخيرًا أرسـى أورفيوس مدرسته باليونان. ولكنّنا سنرى بعد حين[2] كم أنّ هذه الرحلات الطويلة كانت شاقّة بالنسبة للأقـوام الأوائـل، الذين في حياتهـم البدائيّة كانوا لا يعرفون حتّـى جيرانهم الأقربين، ولم ينفتحوا ويتعرّفوا على بعضهم البعض إلّا عند الحروب أو لممارسة التجارة.

[§ ٦٠] وقد احتار الفقهاء أمام ذلك الكمّ الهائل من الروايات الشـعبيّة الذي تمكّنوا من جمعها بخصوص الكلدان، حتّى إنّهم لم يعرفوا إن كانوا أفرادًا معزولين، أو عائلات بأكملها، أو شـعبًا بأسـره أو حتّى أمّة بأكملها. وسـنبدّد كلّ هذه الشـكوك بفضل المبادئ التاليـة: في البداية كان هناك أفراد بعينهم، ثمّ نشـأت عائـلات بأكملها، وبعد ذلك تكوّن شـعب بأسـره، وأخيرًا قامت أمّة عظيمة تأسّست عليها المملكة الآشوريّة. وكان عِلمهم الأوّل عبـارة عـن تنجيم عاميّ يتمثّل في تأويل مسـار النجوم السـيّارة أثناء الليل للتكهّن بالمسـتقبل، وصـار بعـد ذلـك تنجيمًـا شـرعيًا، حتـى إنّ اللاتينيّيـن بقـوا يطلقـون اسـم «كلدايوس» [*Chaldaeus*] على المنجّم الشرعيّ.

٨

[يابيتوس[3] الذي انحدر منه الجبابرة – سنة العالم ١٨٥٦]

[§ ٦١] إنّ الجبابـرة، مثلمـا سـنبيّن ذلـك لاحقًـا[4] من خـلال روايـات موجودة في الأسـاطير الإغريقيّة وبراهين سـواء ماديّة أو أخلاقيّة مسـتمدّة من التاريخ المدني، كانوا موجودين في الطبيعة عند كلّ الشعوب الأولى الوثنيّة.

---

(١) بيرُسـوس أو برحوشـا [القرن٣ - القرن ٤ ق.م] كاهن وفلكي ومؤرّخ كلدي من باب، ربّما عاش في فترة حكم الإسكندر المقدوني.

(٢) انظر § ٩٣.

(٣) أو جابيتوس، إله في الأسـاطير الإغريقيّة من سـلالة الجبابرة، ابن أورانيوس من غايا، ووالد كلّ من أطلس وبروميثيوس وإبيستيوس.

(٤) §§ ٣٦٩-٣٧٣.

٩

[نمرود[١] أو بلبلة اللغات - سنة العالم ١٨٥٦]

[§ ٦٢] حدثت بلبلة اللغات بصفة معجزة، إذ في لحظة تشكّلت عدّة لغات مختلفة. ويرى آباء الكنيسة في هذه البلبلة للغات فقدان نقاوة اللغة المقدّسة السابقة للطوفان. والمعنيّ بها لغة شعوب الشرق الذين نشر بينهم سام الجنس البشري. أمّا بالنسبة إلى أمم العالم الأخرى فقد سار الأمر بصفة مختلفة، لأنّ المنحدرين من حام ويافث تفرّقوا في غابة الأرض الكبيرة، وعاشوا فيها مئتيْ سنة تقريبًا متشرّدين كما تعيش الوحوش وأنجبوا أبناءهم الذين عاشوا متوحّشين، دون عادات بشريّة، لا يعرفون أيّ لغة آدميّة، في حالة شبيهة بالحياة الحيوانيّة. ولزم بطبيعة الحال وقت طويل لكي تجفّ الأرض من الرطوبة التي أحدثها الطوفان ولكي تتصاعد منها في الهواء أبخرة جافّة قادرة على إحداث صواعق. وقد ارتجف لها البشر ومن رعبهم لاذوا إلى ديانات كاذبة وعبدوا جوبيترات عدّة، حتّى إنّ فارّو عدّ منها أربعين، وكان المصريّون يقولون إنّ إلههم جوبيتر-آمون أقدمها. ثمّ شرعوا في ممارسة نوع من التكهّن بالغيب يتمثّل في التنبّؤ بالمستقبل من خلال الرعود والصواعق وطيران العقبان، التي كانوا يعتقدون أنّها طيور جوبيتر. إلّا أنّه نشأ لدى أهل المشرق تنبّؤ بالغيب أرقى من سابقيه يعتمد على سير الكواكب وعلى مظهر النجوم. لذا سُمّي العالم الأوّل في العصور الوثنيّة زرادشت، الذي بحسب بوشار[٢] يعني راصد النجوم. وكما أنّ في المشرق نشأت المعرفة العاميّة الأولى، فقد نشأت فيه كذلك أولى الأنظمة الملكيّة، وهي المملكة الآشوريّة.

[§ ٦٣] هذه الأفكار التي سقناها تفنّد ما يقوله علماء الاشتقاق المحدثون من أنّ أصل جميع لغات العالم يأتي من اللغات الشرقيّة. في الواقع، كلّ الأمم المنحدرة من حام ويافث خلقوا في البداية لغات خاصّة بهم حين كانوا مقيمين بالأراضي الداخليّة،

(١) أو النمروذ، مذكور في سفر التكوين وفي القرآن من بين الملوك الأوائل الوثنيّين. واسمه مرتبط ببرج بابل الذي تسبّب في اختلاف اللغات.

(٢) Samuel Bochart [١٥٩٩-١٦٦٧] مؤلّف كتاب *Geographia sacra seu Phaleg et Chanaan*، ١٦٤٦. وزرادشت بالإيطالية والفرنسيّة هو Zoroastro وZoroastre، حيث astro يعني النجم أو الكوكب.

ثم حين نزلوا نحو سواحل البحر دخلت تلك اللغات في اتّصال بالفينيقيّين الذين عُرفوا بتنقّلاتهم البحريّة عبر المتوسّط والمحيط من أجل ملاحتهم ومستعمراتهم. وهو ما بيّنّاه في الطبعة الأولى لكتاب *العلم الجديد*[1] بخصوص أصل اللغة اللاتينيّة، وما قلناه عن اللاتينيّة ينطبق على اللغات الأخرى.

١٠

[أحد الجبابرة، بروميثيوس، يسرق نار الشمس - سنة العالم ١٨٥٦]

[§ ٦٤] نتبيّن من هذه الخرافة أنّ السماء سادت على الأرض، عندما كان البشر يعتقدون أنّها لم تكن أعلى بكثير من قمم الجبال، كما تقول رواية عاميّة تروي كذلك أنّها تركت للجنس البشري فوائد جمّة كثيرة.

١١

[ديوكاليون[2]]

[§ ٦٥] في زمن ديوكاليون، ثيميس أو العدالة الإلهية كان لها هيكل فوق جبل برناس تحكم منه في شؤون البشر.

١٢

[هرمس الهرامسة القديم أو عصر الآلهة بمصر]

[§ ٦٦] هرمس هذا هو الذي قال عنه شيشرون في كتابه *Natura Deorum* [*طبيعة الآلهة*] إنّ المصريّين كانوا يسمّونه تحوت أو توت ومنه أخذ الإغريق اسم «ثيوس θεός". ابتدع الحروف والشرائع للمصريّين، الذين -حسب مَرشام- نشروها في باقي العالم. إلّا أنّ الإغريق لم يكونوا يكتبون شرائعهم بالعلامات الهيروغليفيّة، بل بالحروف العاميّة التي -حسب الرأي السائد إلى الآن- كان قد جلبها لهم قدموس الفينيقي[3]،

---

(١) فيكو، *الأعمال*، طبعة باتيستيني، مذكور، المجلّد ٢، ١٧٢٥.

(٢) في الأساطير الإغريقيّة هو ابن بروميثيوس والناجي الوحيد من الطوفان الذي أحدثه زيوس.

(٣) قدموس الفينيقي شخصيّة أسطوريّة والمؤسّس الأسطوري لمدينة طيبة. ابن أجينور ملك صيدا وأوّل الأبطال اليونانيّين في الفترة ما قبل هرقل.

بينما كما سنرى ذلك[1]، لم يستعملوها إلاّ بعد سبعمئة سنة من حكم قدموس. وبالفعل في هذه الفترة ظهر هوميروس الذي لم يستعمل في أيّ من أشعاره لفظة «νόμος، نوموس [الناموس]، كما يلاحظ فايث في كتابه *أعمال هوميروس القديمة*[2]، وعهد بأشعاره إلى ذاكرة *رابسودّييه*، لأنّه في عصره لم توجد بعدُ الكتابة، وهذا ما يؤكّده لنا فلافيوس يوسيفوس اليهودي[3] معارضًا في ذلك رأي النحويّ الإغريقي أبيون[4]. وحين ظهرت بعد هوميروس الحروف الإغريقيّة فقد كانت لا تشبه بتاتًا تلك الفينيقيّة.

[§ ٦٧] إلّا أنّ هذه الصعوبات خفيفة مقارنة بالصعوبات التالية: كيف يُمكن لأمم لا تملك شرائع أن تكون تأسّست؟ وكيف يُمكن، في مصر ذاتها، قبل هرمس أن تكون تأسّست السلالات الملكيّة؟ كما لو أنّ الحروف أساسيّة لتكون هناك شرائع، وكما لو أنّ شرائع إسبرطة لم تكن شرائع، بينما كان قانون ليكرجوس[5] يحجّر على أهلها معرفة الحروف وكما لو أنّه في الطبيعة المدنيّة لم يكن بالإمكان أن يوجد نظام يمكّن من سنّ شرائع شفويًا، ومن إعلانها للعموم بطريقة شفويّة أيضًا! وبالفعل نحن نجد عند هوميروس نوعيْن من الاجتماعات، أحدهما يُدعى «βουλή، بولي»، وهو سرّي، حيث يجتمع الأبطال لمناقشة القوانين شفويًّا، والآخر يُسمّى «ἀγορά،أغورا»، وهو اجتماع علنيّ يقع خلاله الإعلان عنها شفويًّا أيضًا. ونحن نقول أخيرًا إنّ العناية الإلهية قد احتاطت لهذه الضرورة لدى الأمم، التي لا يمكن أن تتشكّل أو أن تدوم من دون الشرائع، فجعلتها في طور البربريّة الأولى تتأسّس على العرف، وبعد ذلك حين تتمدّن تسنّ القوانين التي تحكم بها. كما نرى بعد عودة البربريّة [القرون الوسطى] أنّ سلطة القانون في الدول الأوروبيّة الناشئة عوّض شيئًا فشيئًا سلطة العرف، وأقدمها كانت التقاليد الإقطاعيّة. ولنا أن نتذكّر، كما سنبيّن ذلك لاحقًا[6]، أنّ الإقطاعات كانت المنبع

---

(١) انظر § ٦٧٩.

(٢) Everhard Feith في *Antiquitatum homericarum libri IV* وهو كتاب ظهر سنة ١٦٧٧ بعد وفاته.

(٣) يوسيفوس فلافيوس [٣٨-١٠٠ م]. أديب ومؤرّخ يهودي عاش في القرن الأوّل ميلادي وعُرف بكتبه في تاريخ بلاد يهوذا والتمرّد اليهودي ضدّ الإمبراطوريّة الرومانيّة. وقد ردّ على أقوال أبيون النحوي المناهضة لليهود في كتاب *Contra Apionem*.

(٤) أبيون هو نحويّ يوناني من الإسكندريّة عاش في النصف الأوّل من القرن الأوّل ميلادي.

(٥) مشرّع أسطوري بأسبرطة عاش بين ٨٢٠ و٧٣٠ ق. م.

(٦) انظر § ٥٩٩ وما يتبع.

الأوّل لكلّ الحقوق التي ظهرت من بعد لدى جميع الأمم، سواء منها القديمة أو الحديثة، وعليه فإنّ الحقّ الطبيعي *للّناس* [*gentes*] لم ترسِه القوانين بل أرسته التقاليد البشريّة نفسها.

[§ ٦٨] الآن، فيما يتعلّق بهذه النقطة الحاسمة في الديانة المسيحيّة وهي أنّ موسى لم يتعلّم من المصريّين اللاهوتيّة العبرانيّة السامية، فيبدو أن التسلسل الزمني يمثّل عائقًا مهما، إذ أنّه يضع موسى بعد هرمس الهرامسة. إلّا أنّ هذه الإشكاليّة، إضافة إلى الأسباب التي سقناها آنفًا[١] للتغلّب عليها تسقط بالكامل في المبادئ المنصوص عنها في فقرة مهمة عند يامبليخوس[٢] جاءت في كتاب «أسرار مصر» [*Mysteriis Aegyptiorum*]، حيث يقول إنّ المصريّين ينسبون إلى هرمس كلّ ما يكتشفونه من ضروريّ أو نافع للحياة البشريّة المتمدّنة. ما يجعلنا نستنتج أنّه لم يكن شخصًا بعينه ذا معرفة باطنيّة واسعة وصار من بعد إلهًا، بل هو رمز شعري لحكماء مصر الأوائل الذين جمعوا العباد في عائلات، ومنها كوّنوا أخيرًا أمّة عظيمة. وحسب هذه الفقرة نفسها ليامبليخوس، لكي يتوافق المصريّون مع تقسيمهم الزمن إلى عصر الآلهة فعصر الأبطال وأخيرًا عصر البشر، وبما أنّ هرمس كان إلههم، فالظنّ أنّ حياة هرمس هذا غطّت عصر الآلهة المصريّين بأكمله.

١٣
[العصر الذهبي أو عصر الآلهة باليونان]

[§ ٦٩] يقصّ علينا التاريخ الأسطوري أنّ من خاصيّات هذا العصر هو أنّ الآلهة كانت تربطها علاقات بالبشر على الأرض. ولكي نحدّد بأكثر يقين مبادئ التسلسل الزمني، فإنّنا نتمعّن في هذا العمل في نسب طبيعي للآلهة أو نشأة الآلهة، كما تشكّلت طبيعيًّا في مخيّلة الإغريق في بعض المناسبات التي لاحظوا فيها أنّ الضرورات أو المنافع البشريّة تتلقّى مساعدة وإرضاء، في أزمنة كان فيها العالم في طفولته الأولى فريسةَ ديانات مروّعة. ذلك أنّ كلّ ما كان البشر يرونه أو يتصوّرونه، أو أيضًا ما يفعلونه

---

(١) § ٤٤.

(٢) فيلسوف من أصل عربي من ولاية سوريا الرومانية [٢٤٥-٣٢٥ م]، من روّاد الأفلاطونيّة المحدَثة.

بأنفسـهم، كانـوا يعتبرونـه آلهـة. وإذا ما صنعنا اثنتيْ عشـرة فترة انطلاقًا من الاثنيْ عشـر إلاهًـا الذيـن كانوا يسـمّونهم *maiores* [كبار الآلهة]، أي الآلهة التـي كانوا يعبدونها في عهد الأُسَر، فإنّ تسلسلا زمنيًّا مطبّقًا على التاريخ الشعري يسمح بأن نحدّد لعصر الآلهة مدّة تصل إلى تسعمائة عام: وهو ما يمدّنا ببدايات التاريخ الكوني الوثني.

١٤

[هيلّين، ابن ديوكاليون، حفيد بروميثيوس، حفيد يابيتوس ينشر عبر أبنائه الثلاثة ثلاث لهجات باليونان. سنة العالم ٢٠٨٢]

[§ ٧٠] مـن هلّيـن[١] سُـمّى المولودون باليونـان هلّينيّين بينما سُـمّي يونانيّـو إيطاليا «*Graii*»، وسُـمّي بلدهـم «Graikía"، فسـمّاهم اللاتينيّـون «إغريـق» [*Graeci*]. وكان إغريق إيطاليا لا يعرفون اسم الأمّة التي جاؤوا منها، والتي هجروها للاستيطان بإيطاليا، لأنّ كلمة «Graikía" غير موجودة عند أيّ كاتب يوناني، كما يلاحظ جيوفانّي بالميريوس في كتابه «*وصف اليونان*»[٢].

١٥

[كيكروبس[٣] المصري يقود بإفريقيا إثنتيْ عشرة مستعمرة، أسّس منها تيزيوس[٤] بعد ذلك أثينا]

[§ ٧١] إلّا أنّ الجغرافي اسـطرابون يعتبر أنّ أتّيكا بسـبب أرضها القاحلة لا تستهوي الأجانـب لكـي يسـتقرّوا بها، ويسـتنتج من ذلـك أنّ اللهجة الأتّيكيّة هـي الأولى من بين لهجات اليونان الأصليّة.

---

(١) هيلّين ابن دوكاليون وحفيد بروميثيوس ابن يافث، كان له ثلاثة أبناء نشروا في اليونان ثلاث لهجات.

(٢) اسـمه الأصلي Jacques le Paulmier وباللاتينيّة Jacopus Palmerius [١٥٨٣-١٦٧٠] فقيه لغة فرنسـي ومؤلّف كتاب *Greciae antiquae descriptio*، ١٦٧٨.

(٣) هو أوّل الملوك الأسطوريّين لإقليم أتّيكا.

(٤) شـخصيّة أسـطوريّة يونانيّـة وأحـد ملوك أثينـا الأسـطوريّين. وهو البطل المؤسّـس للأثينيّين. والأسـطورة الأشهر لثيزيوس هي محاربة وقتل المينوتور، وحش نصفه إنسان ونصفه ثور.

١٦

[قدموس(١) الفينيقي يؤسّس طيبة ببيوتيا ويُدخل في اليونان الحروف العاميّة - سنة العالم ٢٤٩١]

[§ ٧٢] جلب قدموس الحروف الفينيقيّة إلى بيوتيا: لذا تكون بيوتيا منذ تأسيسها أولى الأمم اليونانيّة علمًا وثقافة. ولكن نشأ منها أناس كانوا من بلادة الذهن بحيث أنّ النعت «بويتي» صار يدلّ إلى يومنا هذا على من هو غبيّ أو بليد الذهن.

١٧

[ساتورن، أو عصر الآلهة باللاتيوم - سنة العالم ٢٤٩١]

[§ ٧٣] هو عصر الآلهة الذي يبدأ عند أمم اللاتيوم، والذي يوافق في خاصيّاته العصر الذهبي عند الإغريق الذين -كما ستبيّنه ميثولوجيّتنا(٢)- كان الذهب الأوّل لديهم هو القمح، وكانت فصول الحصاد طريقتهم في احتساب السنين. وقد سمّى اللاتينيّون إلههم ساتورن من *satis*، أي الحقول المبذورة، بينما كان الإغريق يسمّونه كرونوس، أي الزمن، الذي جاءت منه لفظة «كرونولوجيا» [*Cronologia*] أي التسلسل الزمني.

١٨

[هرمس الشابّ أو عصر الأبطال بمصر] سنة العالم ٢٥٣٣

[§ ٧٤] هذا الهرمس الشابّ هو دون شكّ رمز شعريّ لعصر الأبطال المصريّين. وهذا العصر لم يظهر عند الإغريق إلّا بعد عصر الآلهة الذي دام تسعة قرون. إلّا أنّه عند المصريّين لا يدوم عصر الآلهة غير زمن حياة الأب والابن والحفيد. وكنّا قد لاحظنا(٣) في التاريخ الآشوري، في شخص زرادشت، مفارقة زمنيّة شبيهة بتلك التي شهدناها في التاريخ المصري.

---

(١) قدموس الفينيقي، سبق ذكره § ٦٦.

(٢) انظر §§ ٥٤٤-٥٤٧.

(٣) §§ ٥٥، ٥٩.

١٩

[داناوس المصري يطرد آل إيناكوس من مملكة آرغوس]

سنة العالم ٢٥٥٣

[§ ٧٥] هـذه التعاقبـات الملكيّـة تمثّـل معاييـر جيّدة لاحتسـاب الزمـن: فنحن نرى داناوس يستحوذ على مملكة آرغوس، التي كان على رأسها إلى ذلك الحين تسعة ملوك من سـلالة إيناكوس لحقبة زمنيّة تمتدّ على ثلاثمئة عام، حسـب معيار الكرونولوجيّين، وبالطريقة نفسـها يجب احتسـاب حوالي خمسمئة عام بالنسبة للملوك اللاتينيّين الأربعة عشر الذين حكموا ألبا.

[§ ٧٦] إلّا أنّ ثوقيديدس يقول إنّه في الأزمنة البطوليّة كان الملوك يخلعون بعضهم البعض يوميًّا من على العرش. هكذا خلع أموليوس نوميتور من عرش ألبا، فجاء من بعد رومولوس وخلع أموليوس وأعاد العرش من جديد لنوميتور. هذه الانقلابات المتكرّرة كانت تحدث بسبب وحشيّة تلك الأزمنة، ولجهل تلك الأقوام ببناء الأسوار حول المدن وبإقامة القلاع المحصّنة، مثلما كان الحال زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى] بأوروبا، كما سنرى ذلك لاحقًا[١].

٢٠

[الهرقليّون ينتشرون في كلّ اليونان ويشكّلون فيه عصر الأبطال. الكريتيّون يشكّلون في كريت، ساتورنيا أي إيطاليا، وفي آسيا مملكة الكهنة]

سنة العالم ٢٦٨٢

[§ ٧٧] هـذان الحدثان القديمان نجدهما عند ديونيسـيوس بيتافيوس[٢]، موضوعيْن في تاريخ اليونان قبل الزمن البطولي الإغريقي. والهرقليّون، أي أبناء هرقل، انتشروا في

(١) انظر §§ ٦٤٥، ١٠١٤.

(٢) اسمه الأصلي Denis Pétau وباللاتينيّة ديونيزيوس بيتافيوس [١٥٨٣-١٦٥٢] لاهوتي وفقيه لغة يسوعي فرنسي. في *Opus de doctrina temporum*، ١٦٢٦، II، ٣٧-٣٨.

كامل اليونان قبل مئة عام أو أكثر من وصول هرقل أبيهم إليها، والذي كي يكون له نسل بتلك الكثرة ينبغي أن يكون عاش قبل ذلك بقرون عدّة.

٢١
[ديدون[١] تترك صور، وتؤسّس قرطاج]

[§ ٧٨] نضع ديدون في نهاية أزمنة الفينيقيّين البطوليّة، ونظنّ أنّها طُردت من صور لأنّها خسرت نزاعًا بطوليًّا، إذ تعترف أنّها خرجت من بلادها بسبب كره زوج أختها لها. هذه الجموع من شعب صور اتّخذت في المصطلح التاريخي اسم «امرأة»، لأنّها كانت متكوّنة من ضعفاء ومهزومين.

٢٢
[أورفيوس[٢] وعصر الشعراء اللاهوتيّين]

[§ ٧٩] أورفيوس هذا، الذي أخضع وحوش اليونان وجعل منهم بشرًا، كان هو نفسه على ما يبدو وكرًا يُؤوي ألف وحش. نشأ بتراقيا، وهي بلد محاربين شرسين وليس فلاسفة إنسانيّين؛ لأنّ التراقيّين كانوا طيلة الأزمنة اللاحقة من البربريّة بحيث إنّ الفيلسوف أندروسيون[٣] أقصى أورفيوس من ضمن الحكماء فقط لأنّه وُلد بتراقيا. ولكنّه برع فجأة في اللغة اليونانيّة إلى حدّ أنّه نظم أبياتًا على غاية من الشاعريّة أمكنه بواسطتها أن يسحر ألباب تلك الشعوب البربريّة، التي كان يبدو من الأيسر جذبها من خلال الأذنيْن وليس من خلال العينيْن، إذ أنّهم حين صاروا أمّة لم يولوا أيّ اعتبار للروائع التي شاهدوها في المدن العدوّة التي اجتاحوها وهدموها بالكامل. وقد وجد أورفيوس الإغريق لا يزالوا يعيشون مثل الحيوانات، مع أنّه قبل ذلك بألف سنة علّمهم دوكاليون الورع وجعلهم يخشون العدالة الإلهيّة ويجلّونها. وبالفعل نراه صحبة زوجته

---

(١) ديدون أو عليسة [٨٧٩-٧٥٩ ق م] ابنة ملك صور ومؤسّسة قرطاج وملكتها الأولى. في عهدها ازدهرت قرطاج وتوسّعت تجارتها. مذكورة في الإنيادة للشاعر الملحميّ فرجيل.

(٢) أورفيوس كاتب وموسيقي أسطوري إغريقي. تعلّم العزف عن أبيه أبولّو وصار بعزفه على القيثارة يجتذب الحيوانات وحتى الجماد.

(٣) مؤرّخ وسياسي يوناني [٤١٠-٣٤٦ ق.م.].

بيرّا وقد غطّيا رأسيْهما داعييْن إلى الحياء في العلاقة الجنسيّة، أي في الزواج، ويتقدّمان بخشية نحو هيكل العدالة الإلهية فوق جبل برناس، الذي سيصبح بعد ذلك مقرّ إلاهات الإلهام وأبولّو، أي الإله والفنون البشريّة. هنالك وهما دائمًا متحجّبان، أي بحياء العلاقة الجنسيّة البرشيّة في إشارة للزواج، أخذا يلتقطان الحجارة التي كانت أمامهما، والتي تعني البشر الجاهلين الذين عاشوا إلى ذلك الحين حياة حيوانيّة، وبرميها خلفهما كانا يحوّلانها إلى عباد متمدّنين، والمُراد بهذا النظام المنزلي الصارم الذي قامت عليه الأُسَر. قبل مجيء أورفيوس بسبعمئة عام جمع هيلّين اليونانيّين بعضهم ببعض بواسطة اللغة، ونشر بينهم ثلاث لهجات بواسطة أبنائه الثلاثة. أمّا سلالة إيناكوس فقد أظهرت من جهتها أنّه في هذه البلاد تأسّست مملكات تعاقب على عرشها ملوك على مدى ثلاثمئة سنة. وأخيرًا جاء أورفيوس ووجد الإغريق غارقين في الهمجيّة، فعلّمهم الإنسانيّة، وجعل من اليونان أمّة متمدّنة حتى إنّه شارك في مهمّة جاسون البحريّة للحصول على «الصوف الذهبي»[1]، في زمن كان فيه بناء السفن والإبحار آخر ما عرفته الشعوب، وكان يصاحبه في هذه المهمّة كاستور وبولّوكس، شقيقا هيلانة التي بسببها اندلعت حرب طروادة الشهيرة. هل يمكن لحياة شخص واحد أن تشهد كلّ هذه الأعمال العظيمة التي لا تتطلّب أقلّ من ألف عام؟ هذا الغلوّ الزمني الفظيع في التاريخ اليوناني المشخّص في أورفيوس يذكّرنا بما سبق قوله عن زرادشت بالنسبة إلى تاريخ آشور[2] وعن الهرمسيْن في تاريخ مصر[3]. وربّما لهذا السبب شكّك شيشرون في كتابه «طبيعة الآلهة» [*Natura Deorum*] أن يكون أورفيوس وُجد أبدًا.

[§ ٨٠] وإضافة إلى هذه المعضلات الزمنيّة توجد أخرى لا تقل خطورة وهي ذات طابع أخلاقي وسياسي. وهي أنّ أورفيوس يؤسّس إنسانيّات اليونان على جوبيتر الذي كان زانيًا وجونو التي كانت تمقت بشدّة خصال الأبطال وديانا العفيفة التي كانت تستغوي ليلاً أنديميون النائم وأبولّو الذي كان يجيب بالنبوءات ويدنّس إلى حدّ الموت حوريات

(١) قصّة من الأساطير الإغريقيّة تروي كيف أنّ جاسون جهّز سفينة أرغو بمساعدة الآلهة وذهب صحبة بعض الأبطال، منهم هرقل وأورفيوس، لجلب الصوف الذهبي من أيتس ملك كولخيس، كشرط لاستعادة عرشه.

(٢) انظر §§ ٥٥، ٥٩.

(٣) §§ ٦٦ وما يتبع، ٧٤.

دافني الطاهرات وعلى مارس الذي لم يكفه أن لوّث الأرض بارتكاب الزنى فدنّس البحر أيضًا بممارسة الزنا فيه مع فينوس. ولم يتوقّف شبق الآلهة عند ارتكاب الزنى مع الإناث، فنرى جوبيتر يضطرم شوقًا يثير الإشمئزاز نحو غانيميد، بل ويتجاوز ذلك إلى السفاد الحيواني حين يتحوّل جوبيتر إلى تمّ أخرس[١] ويضاجع ليدا. ولم تكن كلّ هذه الآلهة والآلهات تعقد أبدًا زواجًا، ما عدا واحدًا هو زواج جوبيتر مع جونو، زواج لم يثمر نسلا، ولم يكتفِ بذلك بل كانت تملؤه الضغينة والخصام، حتّى إنّ جوبيتر علّق في الهواء زوجته الطاهرة والغيورة. ثمّ، فقد ولد جوبيتر مينارفا من رأسه، وأخيرًا يولد لساتورن أبناء ولكنّه يلتهمهم. وإن كان أفلاطون، وفي زمن أقرب إلينا بيكون فيرولاموس[٢] في كتابه «حكمة القدماء» [*De sapientia veterum*]، يريان في مثل هذه الأساطير كلّ المعرفة السريّة التي كانت للقدامى، فالشأن شأنهما. أمّا نحن فإنّنا لا نخشى من قول إنّ مثل هذه الأمثلة التي تعطيها الآلهة ستؤدي بالشعوب الأكثر مدنيّة إلى الهمجيّة عوض أن تخرجهم منها. والقدّيس أغسطينوس في كتابه «*مدينة الإله*»، بخصوص مسرحية *الخصي* لترنتيوس[٣]، يوجّه نفس اللوم للآلهة الوثنيّة. فهو يروي أنّ كيريا بعد أن شاهد لوحة تمثّل جوبيتر يتحوّل إلى مطر من ذهب بغية الوصول إلى داناي[٤] "Δανάη"، توقّد جرأة لم يسبق أن عهدها ولم يتوان عن اغتصاب أمَة شابّة كان مغرمًا جدّاً بها.

[§ ٨١] إلاّ أنّنا سنتجاوز هذه العقبات الميثولوجيّة بفضل مبادئ *العِلم الجديد*، التي سنبيّن من خلالها أنّ هذه الأساطير كانت في بداياتها جميعها حقيقيّة وصارمة، جديرة بمؤسّسي تلك الأمم، وأنّه بمرور الزمن صارت لها المضامين الفاحشة التي وصلت بها إلينا، من ناحية الغموض الذي اكتنف معانيها، ولتغيّر العادات من ناحية أخرى، والتي بعد أن كانت صارمة صارت منحلّة؛ ولأنّ البشر كانوا يريدون -إراحةً لضمائرهم- أن يرتكبوا الخطيئة بسلطة من آلهاتهم. هذه الغمائم الزمنيّة ستتبدّد مع اكتشاف الرموز الشعريّة، ومنهم أورفيوس إذا ما نظرنا إليه كشاعر لاهوتي، الذي أسّس بخرافاته في

---

(١) التمّ الأخرس هو نوع من الإوزّ.

(٢) هو فرانسيس بيكون [١٥٦١-١٦٢٦]، فيلسوف رجل دولة وكاتب إنكليزي.

(٣) مسرحيّة كوميديّة لتيرنتيوس، شاعر وكاتب مسرحي يوناني ولد بقرطاج سنة ١٩٠ ق.م.

(٤) داناي Δανάη أميرة يونانية من مدينة أرغوس هي أم البطل الأسطوري بيرسيوس من زيوس.

معانيها الأوليّة، ثمّ وطّد حضارة اليونان. وقد برزت هذه الشخصيّات الشعريّة أكثر من أيّ وقت مضى أثناء الصراعات البطوليّة ضدّ العامّة في المدن الإغريقيّة. وهكذا تميّز في تلك الفترة الشعراء اللاهتيّون من أمثال أورفيوس نفسه، ولينوس وموزيوس وأمفيون. وقد رفع هذا الأخير أسوار طيبة، التي كان قد أسّسها قبل ثلاثمئة سنة قدموس بالحجارة التي كانت تتحرّك من تلقاء نفسها، أي بالعامّة الأجلاف. كما أنّ أبيوس إيميليوس -حفيد عضوٍ بمجلس العشرة[1]، بعد الزمن نفسه تقريبًا من تأسيس روما- كرّس العهد البطولي للرومان بإنشاده على العامّة [قصائد] عن عظمة الآلهة حينما تُتوسَّم[2]، وهذا كان حكرًا على الأشراف. ومن هذه المسابقات البطوليّة جاء اسم قرن البطولة.

٢٣
[هرقل، أوج الأزمنة البطوليّة باليونان]

[§ ٨٢] إن أردنا أن ننظر إلى هرقل باعتباره الإنسانَ الحقيقي الذي صاحب جاسون في حملة كولخيس، فإنّه ستعترضنا نفس الصعوبات التي واجهناها مع زرادشت وأورفيوس. أمّا إذا نظرنا إليه من خلال أعماله الخارقة فهو سيكون شخصيّة بطوليّة مؤسّسة للشعوب.

٢٤
[سنشونياثون[3] يكتب التاريخ باللغة العاميّة]
سنة العالم ٢٨٠٠

[§ ٨٣] وهو الذي يسمّيه إكليمندس الإسكندري[4] في كتابه «*ستروماتيس*» [أمزاج]، «مؤرّخ الحقيقة». كتب التاريخ الفينيقي بالحروف العاميّة في الوقت الذي كان فيه

---

(١) باللاتينية decemvir ويعني لجنة مؤلّفة من عشرة أعضاء زمن الجمهوريّة الرومانية للبتّ في مسائل قانونيّة وإداريّة.

(٢) يُشار هنا إلى عادة التوسّم بالطير، وهو نوع من التطيّر عند الرومان لطلب مباركة الآلهة لمشروع ما.

(٣) مؤلّف فينيقي عاش قبل حرب طروادة، قبل ألفي سنة من ميلاد المسيح.

(٤) اسمه اللاتيني تيوتوس فلافيوس كليمنس [منتصف القرن الثاني ميلادي - بين ٢١١ - ٢١٥ م]. واحد =

المصريّون والسكوثيّون المعتزّون إلى حدّ الغرور بأقدميّتهم التاريخيّة، يكتبون بالحروف الهيروغليفيّة، مثلما لا يزال يفعل الصينيّون اليوم؛ لأنّهم في ظلمات اعتزالهم، دون اتّصال بأممٍ أخرى لم يكن لهم تصوّر حقيقي للزمن. وقد كتب سنشوناثيون بالحروف الفينيقيّة العاميّة في الوقت الذي لم تُكتشف فيه بعد الحروف العاميّة، مثلما سبق ذكر ذلك[1].

٢٥

[حرب طروادة]

سنة العالم ٢٨٢٠

[§ ٨٤] حسب النقّاد الأكثر جديّة، هذه الحرب كما رواها هوميروس لم تحدث قطّ. كما أنّ روايات ديكتوس الكريتي وداريس الفريجي[2] يضعها أولئك النقّاد أنفسهم في مكتبة *اللا اختلاق*.

٢٦

[سيزوستريس يحكم طيبة]

[§ ٨٥] هو الذي أخضع لسلطته سلالات مصر الأخرى؛ وفي الواقع هو الملك رمسيس الذي -بحسب تاسيتوس- روى كاهنٌ مصريٌّ إنجازاتِه لجرمانيكوس[3].

= من أبرز معلّمي مدرسة الإسكندريّة اللاهوتيّة. ما ميّز تعاليمه هو محاولة ربط وتوحيد الفلسفة اليونانيّة واللاهوت المسيحي.

(١) § ٦٦.

(٢) Δίκτυς ὁ Κρής ديكتوس الكريتي كان رفيقا لملك الكريتيين الذي قارؤدهم في حروب طرواده، وأرخ لهذه الحورب بكاتبه يوميات حرب طروادة، وداريس الفريجي Δάρης كان بحسب هوميروس كاهنا طروادیا كتب عن دمار طروادة، وعاش في زمن سابق لهوميروس.

(٣) جرمانيكوس يوليوس قيصر أحد أفراد سلالة يوليوس عرف بحملاته في جرمانيا وهو سياسي وعسكري وكاتب.

٢٧

[المستعمرات الإغريقيّة بآسيا وإيطاليا وصقليّة]

سنة العالم ٢٩٤٩

[§ ٨٦] هذه إحدى النقاط النادرة جدّاً التي نجد فيها أنفسنا مضطرّين إلى عدم اتّباع سلطة المؤرّخين، إذ نضع المستعمرات الإغريقية بإيطاليا وصقليّة بعد مئة عام تقريبًا من حرب طروادة، وذلك قبل ثلاثمئة سنة من الفترة التي وضعها فيها المؤرّخون، أي تقريبًا في الفترة التي وضع فيها المؤرّخون الرحلات البطوليّة، مثل رحلة مينيلاوس وإينياس وأنتينور وديوميد وأوليس. ولا غرابة في ذلك، بما أنّنا نرى هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم بأربعمئة وستين عامًا بخصوص الفترة التي عاش فيها هوميروس، وهو أقرب مؤلّف في الزمن لهذه الوقائع الإغريقيّة. وبالفعل، كانت سرقسطة لا تقلّ عن أثينا ترفًا وثراء في زمن الحروب البونيقيّة، والمعروف أنّ الترف وتمدّن العادات يتطلّب وقتًا أطول لدى من يعيش في جزيرة مقارنة بمن يقطن على القارّة. ونرى تيتوس ليفيوس في زمنه يأسف لمصير كروتوني[1] لقلّة عدد سكانّها، بينما كانت في الماضي تعدّ الآلاف المؤلّفة من السكّان.

٢٨

[الألعاب الأولمبية، أسّسها في البداية هرقل، ثمّ علّقت، وأعادها من بعد إيفيتوس]

سنة العالم ٣٢٢٣

[§ ٨٧] في زمن هرقل كانت تُعدّ السنون بمواسم الحصاد، وبعد ذلك مع إيفيتوس بحسب سير الشمس وباتّباع علامات البروج. لذا مع إفيتوس بدأ بالنسبة للإغريق العدّ الموثوق للتاريخ.

---

(١) مدينة تقع في جنوب إيطاليا، شرقيّ إقليم كلابريا على ساحل البحر الإيوني.

٢٩

[تأسيس روما]

سنة ١ من تاريخ روما

[§ ٨٨] كما تُبدّدُ الشمسُ الغيومَ تتبدّد فقرةٌ لفارو ذكرها القديس أغسطينوس في كتابه *مدينة الربّ* كلَّ الآراء التي كانت سائدة حول تأسيس روما وحول المدن الأخرى التي كانت عواصم لأمم شهيرة. وتقول الفقرة إنّ الملوك الذين حكموا روما طيلة مئتيْن وخمسين سنة وأخضعوا فيها أكثر من عشرين شعبًا، لم يوسّعوا حدود سلطتهم إلى أكثر من عشرين ميلاً.

٣٠

[هوميروس، الذي جاء في زمن لم تُكتشف فيه بعد الحروف العاميّة، والذي لم ير مصر]

سنة العالم ٣٢٩٠ - سنة روما ٣٥

[§ ٨٩] حول الشخصيّة الأولى اللامعة لليونان، يتركنا التاريخ الإغريقي في الظلمات بخصوص الجانبيْن الأساسيّيْن، أي الجغرافيا والزمن، إذ لم يصلنا شيء مؤكّد لا عن موطنه ولا عن الزمن الذي عاش فيه. وسنبيّن في الباب الثالث من هذا العمل أنّ هوميروس هذا هو غير ما اعتقدناه إلى حدّ الآن. ولكن مهما كان شخصه فإنّنا نجزم بكلّ تأكيد أنّه لم ير أبدًا مصر، بما أنه يقول في *الأوديسا* إنّ الجزيرة التي تقوم فوقها منارة الإسكندريّة هي من البعد عن اليابسة بحيث أنّ مركبا دون حمولة وبرياح مواتية يصلها في غضون يوم كامل. كما أنّه لم يزر يومًا فينيقيا، إذ يروي[1] أنّ جزيرة كاليبسو، التي يسمّونها أوجيجيا، كانت من البعد بحيث أنّ ميركوريوس، رغم كونه إلاهًا مجنّحًا، لم يصل إليها إلّا بمشقّة كبيرة، كما لو أنّ المسافة التي تفصلها عن اليونان –حيث تقطن

---

(١) *الأوديسا*، V، ٤٣-٥٤.

الآلهة على جبل أولمب، كما ينشد ذلك في *الإلياذة* - تكاد تكون كالمسافة بين عالمنا وأمريكا. ولو أنّ الإغريق في زمن هوميروس تاجروا مع فينيقيا ومصر، لأفقدوا قصيدتيْه من كلّ مصداقيّة.

٣١

[بسماتيك يفتح مصر لهلّينيّي إيونية وكاريا]

سنة العالم ٣٣٣٤

[§ ٩٠] لا يحدّثنا هيرودوتس عن المصريّين القدامى ببعض الثقة إلّا انطلاقًا من بسماتيك، ممّا يؤكّد لنا أنّ هوميروس لم يعرف أبدًا مصر ولا البلدان الأخرى التي يتحدّث عنها. فالأشياء التي يرويها لنا عن مصر وعن البلدان الأخرى إمّا هي وقائع حدثت في بلاد اليونان نفسها، كما سنبيّن ذلك في *الجغرافيا الشعريّة*[١]، أوهي روايات محرّفة بفعل الزمن نقلها الفينيقيّون والمصريّون والفريجيّون الذين أقاموا مستعمراتهم بين الإغريق، أو هي أخبار نقلها الرحّالة الفينيقيّون الذين كانوا قبل زمن طويل من هوميروس يمارسون التجارة على سواحل اليونان.

٣٢

[إيسوب فيلسوف أخلاقي شعبيّ]

سنة العالم ٣٣٣٤

[§ ٩١] في باب *المنطق الشعري*[٢] سنبيّن أنّ إيسوب هذا لم يكن شخصًا حقيقيًّا، بل هو *تجسيم عجائبي*، أو *أنموذج شعري* لشركاء أو لخدَم الأبطال [*famoli*]، الذين وُجدوا دون شكّ قبل حكماء اليونان السبعة.

---

(١) انظر §§ ٧٤١-٧٦٩.

(٢) § ٤٢٤.

٣٣

[حكماء اليونان السبعة ومن بينهم واحد اسمه صولون[١]، أرسى الحريّة الشعبيّة بأثينا، وآخراسمه طاليس الملطي[٢]، بدأ فلسفته بالفيزياء]

سنة العالم ٣٤٠٦

[§ ٩٢] بدأ طاليس بمبدأ لا طعم له ولا رائحة، هو الماء، ربّما لأنّه لاحظ أنّ الماء يُنبت القرع.

٣٤

[اسم فيثاغورس[٣]، حسب تيتوس ليفيوس، لا يُمكن أن يكون في حياته معروفًا بروما]

سنة العالم ٣٤٦٨ - سنة روما ٢٢٥

[§ ٩٣] يضع تيتوس ليفيوس فيثاغورس في زمن سيرفيوس توليوس، ومن هناك يبيّن كيف أنّه لا يعتقد أنّه كان معلّم نوما. ويضيف أنّه في زمن سيرفيوس توليوس، أي حوالي مئتيْ سنة بعد نوما، كانت إيطاليا من البربريّة بحيث أنّ اسم فيثاغورس، دون الحديث عن شخصه، لا يمكن أن يكون وصل من كروتوني إلى روما، مجتازًا عدداً كبيراً من الشعوب واللهجات والتقاليد المختلفة. وهذا يجعلنا نعتقد أنه من الصعب بل من المستحيل أن يكون فيثاغورس سافر إلى تراقيا للقاء تلاميذ أورفيوس، وإلى فارس للقاء سحرتها، وإلى بابل عند الكلدان، وإلى الهند للقاء حكمائها العرايا. وكذلك استحالة أن يكون زار عند عودته كهنة مصر، ورحلته عبر إفريقيا، ولقائه بتلاميذ أطلس

---

(١) سولون أو صولون [٦٤٠-٥٥٨ ق. م] رجل سياسة ومشرّع أثيني. سنّ عدة قوانين إصلاحيّة ممّا جعله يُعتبر الممهّد لديمقراطية أثينا.

(٢) طاليس الملطي [٦٢٥-٦٢٠ ق.م] رياضي فيلسوف وعالم فلك يوناني. أحد حكماء اليونان السبعة.

(٣) فيثاغورس الساموسي [٥٧٠-٤٩٥ ق.م]، فيلسوف وعالم رياضيات يوناني. أقام بالمستعمرة اليونانية كروتوني (إيطاليا) وفيها أنشأ مدرسة لمناقشة موضوعات فلسفيّة.

بموريتانيا، ثمّ عبوره للبحر، وذهابه لملاقاة درويديّي بلاد الغال، قبل أن يعود إلى موطنه مشبعًا بكنوز العلوم البربريّة كما يقول هورنيوس[1]. هذه الرحلات تبدو لنا من باب المستحيل إذ أنّ البلدان التي قد يكون زارها فيثاغورس كانت تعيش في حالة همجيّة. قبل ذلك بزمن طويل كان قد حاول هرقل الطيبي من خلال قتل العديد من الوحوش والطغاة أن يحمل الحضارة إلى تلك الشعوب. كما أنّ الإغريق بعد زمن من ذلك حاولوا بوسائل أخرى تحقيق ذلك، دون جدوى. لذا ليس بالمعقول أن نثق بمن يتحدّثون عن تعاقب المدارس لدى الأقوام البربريّة. وقد كان هورنيوس صاحب هذه النظريّة التي تحمّس لها العلماء قد أخطأ بدافع الغرور.

[§ ٩٤] ونرجع بخصوص فيثاغورس إلى سلطة لكتانتيوس[2] العلميّة فهو ينفي قطعًا أن يكون فيثاغورس تلميذًا لإشعيا[3]. وتوجد فقرة ليوسيفوس اليهودي[4] في كتابه *تاريخ اليهود القديم* تؤيّد تمامًا هذا التوجّه؛ إذ يقول إنّ العبرانيّين في زمن هوميروس وفيثاغورس عاشوا مجهولين من قِبل أقرب الشعوب إليهم في الحوض المتوسّط، فما بالك بالأمم التي تعيش فيما وراء البحار؟ وهذا ما جعل ديميتريوس العبراني[5] يردّ على بطليموس فيلادلفوس[6] الذي كان يتعجّب لماذا لا يذكر أبدًا أيّ شاعر أو مؤرّخ شرائع موسى، بقول إنّ الربّ عاقب بصرامة أولئك الذين حاولوا قصّ الأمور الإلهيّة على الوثنيّين، مثلما حدث لثيوبومبوس[7] الذي فقد لذلك صوابه، وثيودكتوس[8] الذي فقد البصر. ويعترف اليهودي يوسيفوس بصراحة أنّ شعبه كان غير معروف إلّا قليلا من طرف الشعوب الأخرى، والأسباب التي يسوقها هي الآتية: *نحن معشر اليهود لا نعيش*

(١) Van Heurn. سبقت الإشارة إليه، انظر § ٤٤.

(٢) اسمه اللاتيني الكامل هو لوسيوس فيرميانوس لاكتانتيوس [٢٥٠-٣٢٥] وُلد بإفريقيا الرومانية (الجزائر). مؤرّخ وكاتب روماني. سُمّي شيشرون المسيحي لجمال نثره.

(٣) إشعيا ابن آموص هو كاتب سفر إشعيا في العهد القديم، وهو النبي الذي تنبأ بيهوذا [٧٦٦-٦٨٦ ق.م]

(٤) يوسيفوس فلافيوس [٣٧/ ٣٨ - ١٠٠]. أديب ومؤرّخ يهودي (سبق ذكره في §٤٩).

(٥) Demetrius، عاش في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. كاتب ومؤرّخ يهودي من أصل مصري، ربّما من الإسكندريّة.

(٦) بطليموس الثاني فيلادلفوس [٣٠٩/ ٣٠٨-٢٤٦ ق.م] ثاني فراعنة الدولة البطلميّة وابن بطليموس الأوّل.

(٧) ثيوبومبوس [٤٠٣-٣٢٠ ق.م.] مؤرّخ، سياسي وخطيب يوناني.

(٨) تيودكتوس، خطيب وشاعر تراجيدي يوناني من القرن الرابع قبل الميلاد.

قرب البحر ولا نمارس التجارة وليس لنا اتّصال بالشعوب الأخرى. ويلاحظ لكتانتيوس أنّ تدخّل العناية الإلهية كان بهدف أن لا يُدنّس اليهود بتعاملهم مع الأقوام الوثنيّة نقاوة أو قداسة دينهم، ويؤيّده في هذا الرأي بيتروس كونيوس[١] في كتابه *Republica Hebraeorum.* ويؤكّد لنا ذلك اعتراف العبرانيّين أنفسهم الذين يقومون كلّ سنة بصوم صارم في الثامن من ثيبت، أي ديسمبر، لأنّه في تلك الفترة من السنة نُشرت الترجمة السبعينية[٢]، وكان أن غمّت السّماء عتمةً دامت ثلاثة أيّام. كازوبون في شرحه *لحوليّات* بارونيوس، وبوكستورف في كتابه *الكنيسة اليهوديّة*، وهوتّينجر في كتابه *كنوز الفقه*، يقولون إنّهم قرأوا هذه الأشياء في كتب الربانيّين. وقد خلقت هذه الترجمة، المسمّاة بالسبعينيّة، كرها لا حدّ له بين اليهود الهلّينيّين واليهود الجيروسولميتانيّين، لأنّ الأوّلين، ومن بينهم أريستيا الذي يُقال إنّه زعيم هذه الترجمة، ينسبون إليها سلطة إلهيّة كان الثانون لا يعترفون بها.

[§ ٩٥] إلّا أنّه كانت هناك أسباب أخرى جعلت مذاهب اليهود ومؤلّفيهم مجهولة لدى الآخرين. وأوّل ما نذكر منها عدم حفاوة المصريّين بهم، وحتّى بعد زمن طويل من فتح بلدهم لليهود كانوا يمنعون عنهم استعمال القدر والسفود والمدية وحتّى اللحم الذي قُطع بالمدية. هذه المعاملة الهمجيّة لم تكن لتليّن من مزاج اليهود الذين كانوا بطبعهم غير منفتحين اجتماعيًّا، حتّى إنّ الوثنيّين كانوا يسخرون منهم قائلين إنّهم يرفضون أن يدلّوا مسافرًا يموت عطشًا إلى عينٍ يروي منها ظمأه. ولم تكن لليهود أيّ علاقة لغوية بالمصريّين ولا بالشعوب الأخرى. لا يُستغرب إذن أنّ الكهنة، الذين في كلّ الأزمنة وعند جميع الأمم يخفون حتّى عن أنظار شعوبهم أمور الدين إلى حدّ أنّ لفظة مقدّس صارت مرادفة للسرّ، هؤلاء الكهنة إذن في غيرتهم على أسرارهم خافوا أن يدنّسوا قداسة مذهبهم إن هم باحوا بها للأجانب، وللأشخاص الذين لا يعرفونهم. وينتج عن هذا دليل ساطع عن

---

(١) هو Petrus Cunaeus [١٥٨٦-١٦٣٨] فقيه لغة ورجل قانون هولندي.

(٢) الترجمة السبعينية هي الترجمة اليونانية للعهد القديم التي أجريت في القرن الثالث قبل الميلاد. وتسمى في الإيطالية Settanta وكذلك La Versione dei Settanta، واسمها اللاتيني الشهير هو Septuaginta.

صحّة الديانة المسيحيّة. فإذا كان فيثاغورس وأفلاطون قد تمكّنا بواسطة المعرفة من التكهّن بالحقيقة الإلهية إن أمكن القول، فإنّ اليهود حصلوا عليها من الربّ نفسه. كما ينتج عن ذلك تفنيد لآراء الميثولوجيّين المحدثين الذين يزعمون أنّ *الأساطير هي قصص مقدّسة انتحلتها الشعوب الوثنيّة، خصوصًا منها الإغريق*، لأنّه، كما سنبيّن لاحقًا، بالرغم من أنّ المصريّين القدامى كانوا على اتّصال باليهود أثناء استعبادهم لهم، فإنّهم طبقًا لعاداتهم المتأصّلة فيهم والتي تجعلهم يعتبرون الشعوب المهزومة عديمة الذمّة والدين، فقد كانوا يسخرون من ديانة اليهود وكانوا يسألونهم باستهزاء، كما يذكر *سفر التكوين*، لماذا لا يفكّر الربّ الذي يعبدونه في تخليصهم من عبوديّتهم؟

٣٥

[سيرفيوس توليوس ملكًا]

سنة العالم ٣٤٦٨ - سنة روما ٢٢٥

[§ ٩٦] ذهب الظنّ إلى يومنا هذا أنّ هذا الملك أقام الضريبة بروما كأساس للحريّة الشعبيّة، بينما -كما سنبيّن لاحقًا[١]- كانت هذه الضريبة أساسًا لحريّة الأسياد. وهذا شبيه بالخطأ الذي وقع تصديقه إلى حدّ الآن من أنّه في ذات الفترة -التي كان على المدين المريض أن يتقدّم إلى القاضي راكبًا حمارًا أو عربة- أرسى تاركوينس بريسكوس[٢] الشعارات، والتوجات، والبزّات، والكراسي من العاج، المصنوعة من أسنان الفيلة التي سمّاها الرومان *boves Lucas* [ثيران لوكانيا]؛ لأنّهم رأوها لأوّل مرّة بجهة لوكانيا خلال الحرب ضدّ بيرّوس. كما نُسب أيضًا للفترة نفسها ظهور العربات المذهّبة التي كان يصعد فوقها الظافر وكلّ الأبّهة والترف اللذين سطعت بهما الجمهوريّة الشعبيّة الرومانيّة.

---

(١) انظر §§ ٦١٩-٦٢٣.

(٢) لوكيوس تاركوينوس بريسكوس أو تاركوينوس الأكبر [٦١٦-٥٧٨ ق.م.] الملك الخامس من بين الملوك السبعة الأسطوريّين بروما القديمة.

٣٦

[هسيود[١]]

سنة العالم ٣٥٠٠

[§ ٩٧] بالاعتماد على البراهين التي سنقدّمها لاحقًا[٢] لتحديد الفترة التي ظهرت فيها الحروف العاميّة لدى الإغريق، نضع هسيود في زمن هيرودوتس أو قبله بقليل. أمّا المؤرّخون فإنّهم يضعونه بكلّ ثقة وجرأة قبل هوميروس بثلاثين سنة، بينما يختلف المؤلّفون بفارق أربعمئة وستين سنة بخصوص الفترة التي عاش فيها هذا الأخير. أمّا فورفيريوس[٣]، حسب موسوعة سويدا[٤]، وكذلك فيلّيوس باتركولس[٥]، فإنّهما يؤكّدان أنّ هوميروس عاش قبل هسيود بزمن طويل. أمّا الحامل ثلاثي القوائم[٦] الذي كرّسه هسيود لأبولّو فوق جبل هيليكون، والمنقوش عليه كتابة تقول إنّه تفوّق على هوميروس في الإنشاد، ومع أنّ فارّو، حسب قول آولوس جيليوس[٧]، قد صدّق ذلك، فإنّنا نضع هذا كلّه في مُتحف الزيف، مثل الميداليات التي يصنعها المزيّفون في وقتنا الحاضر ليكسبوا من بيعها أرباحًا طائلة.

---

(١) هسيود أو هسيودس، شاعر إغريقي من القرن الثامن قبل الميلاد.

(٢) انظر §§ ٤٤٠-٤٤٥.

(٣) فورفوريوس الصوري [٢٣٤-٣١٠] من صور، فيلسوف ينتمي إلى الأفلاطونيّة المُحدثة.

(٤) Suida في النصّ الأصلي، سويداس أو سودا، الموسوعة البيزنطيّة التي تعود إلى القرن العاشر والتي تتناول كلّ ما يتعلّق بتاريخ البحر المتوسّط.

(٥) Velleio Patercolo في نصّ فيكو، باللاتينية هو Velleius Paterculus، فيليوس باتركولوس [١٩ ق.م - ٣١ م] مؤرّخ روماني.

(٦) يذكر هسيود مسابقة شعرية مُنِح فيها حاملا ثلاثيّ القوائم، ربما فاز به هسيود نظير تقديمه لثيوجوني، وهي قصيدة يبدو أنها تفترض مسبقًا نوع الجمهور الارستقراطي الذي كان سيقابله في خالسيس إحدى مقاطعات اليونان القديمة.

(٧) عاش بين ١٢٣/ ١٣٠ و١٨٠ م، رجل قانون ونحويّ لاتيني.

٣٧

[هيرودوتس وأبقراط]

سنة العالم ٣٥٣٠

[§ ٩٨] يضع المؤرّخون أبقراط في زمن حكماء اليونان السبعة. إلّا أنّنا نضعه تقريبًا في زمن هيرودوتس، من ناحيةٍ لأنّ حياته، مثل حياة هيرودوتس، كلّها نسيج من الخرافات، إذ يُقال عنه إنّه ابن إسكولابيو وحفيد أبولّو، ومن ناحية أخرى لأنّهما كليْهما كتبا أعمالهما نثرًا وبواسطة الحروف العاميّة.

٣٨

[إيدانثيرسوس، ملك السكوثيّين]

سنة العالم ٣٥٣٠

[§ ٩٩] ردّ هذا الملك على داريوس الأوّل الذي أعلن الحرب ضدّه بخمس كلمات *واقعيّة*، وسنبيّن لاحقًا[١] أنّ الشعوب البدائيّة استعملت أوّلا اللغة المصوّرة ثمّ اللغة المنطوقة وأخيرًا الكتابة. وكانت هذه الكلمات الواقعيّة: ضفدع وفأر وطير وسنّ محراث وقوس لرمي السهام. وسنفسّر فيما بعد[٢] المعاني الطبيعيّة والحرفيّة لهذه الأشياء. ونورد -وإن كان على مضض- ما قاله القدّيس كيرلس الإسكندري[٣] عن المجلس الذي دعا إليه داريوس بخصوص هذه الرسالة، والتأويلات السخيفة التي أتى بها مستشاروه. وهؤلاء السكوثيّون، وملكهم، الذين سبقوا المصريّين في القِدَم، كانوا إلى زمن متأخّر لا يعرفون حتّى الكتابة بالحروف الهيروغليفيّة! وكان إيدانثيرسوس مثل واحد من أولئك الملوك الصينيّين الذين إلى حدود بضعة قرون عاشوا منفصلين عن بقيّة

---

(١) انظر §§ ٤٠١، ٤٣١، ٤٣٥.

(٢) § ٤٣٥.

(٣) كيرلس الأوّل الملقّب بالإسكندري [٣٧٦-٤٤٤م]. البابا الإسكندري والبطريرك الرابع والعشرون الملقّب بـ «عمود الدين ومصباح الكنيسة الأرثوذكسيّة».

العالم، ومع ذلك يتفاخرون بأنّهم أقدم أمّة في تاريخ العالم. الحال هو أنّ هذا الشعب، بعد كلّ هذا الزمن الطويل، لا يزال يكتب بالحروف الهيروغليفيّة، وبالرغم من المناخ المعتدل الذي ينشئ أناسًا ذوي رقّة وذكاء، ومع أنّهم يصنعون أشياء رائعة ورقيقة، فإنّهم لا يعرفون استعمال الظّلال في رسومهم حتّى تبرز عليها الأجزاء المضاءة، وبانعدام ما هو بارز وما هو غارق تبدو رسومهم فظة. كما أنّ تماثيلهم الصغيرة من الخزف سيئة التدوير، وتعدينهم خشن بقدر تعدين المصريّين. وفي ظنّنا أنّ الرسوم الصينيّة اليوم لا تقلّ خشونة عمّا كان عليه الرسم لدى المصريّين القدامى.

[§ ١٠٠] من بين السكوثيّين نجد أناكارسيس[(١)]، مؤلّف النذور السكوثيّة -على غرار زرادشت بالنسبة إلى النذور الكلديّة- وسطاء الوحي هؤلاء كانوا دون شكّ في البداية متكلّمين في العرافة، وجعل منهم غرور العلماء متكلّمين في الفلسفة. سنحاول أن نكتشف في باب *الجغرافيا الشعريّة*[(٢)] إن كان العرّافان الأشهر صيتًا في عهد الوثنيّة، عرّاف دلفي وعرّاف دودون، جاءا إلى اليونان من الجهات الشماليّة لسيثيا الحالية، أم من سيثيا أكثر قِدَمًا كانت موجودة داخل اليونان نفسه. هذا هو رأي هيرودوتس، ومن بعده بندار[(٣)]، وفرينيكوس[(٤)] وشيشرون في كتابه *Natura Deorum*. وقد يكون هذا ما أضفى على أناكارسيس شهرته كمؤلّف نذور، وأعطاه المكانة التي تحصّل عليها بين أقدم الآلهة المتنبّئين. ويكفينا هنا لتقييم مقدار العلم السريّ الذي كان يحظى به السكوثيّون أنّهم كانوا يغرسون سكينًا في الأرض ويعبدونه كإله، مبرّرين أو مقدّسين بذلك الجرائم التي كانوا يريدون ارتكابها. ومن هذه الديانة الشرسة تكون قد نشأت كلّ الفضائل الأخلاقيّة والمدنيّة التي يتحدّث عنها ديودورس الصقلّي ويوستينيوس[(٥)] وبلينيوس[(٦)]،

---

(١) أناكارسيس [القرن ٧ - القرن ٦ ق.م] فيلسوف يوناني من أصل سيثيّ. يُعتبر من بين حكماء اليونان السبعة.

(٢) انظر § ٧٤٥.

(٣) بندار أو پندراوس باليونانية: Πίνδαρος (٥٢٢ ق.م.-٤٤٣ ق.م.) شاعر غنائي يوناني، يعد من بين الشعراء الغنائيين التسعة المشهورين في اليونان القديمة.

(٤) فيرينكوس Φερένικος شاعر ملحمي يوناني قديم.

(٥) يوستينيوس Justinius أو جوستين مؤرخ روماني من القرن الثاني ألف كتاب الحروب الفيليبية Liber Historiarum Philippicarum.

(٦) بليني أو بلينيوس Plinius (٢٣- ٧٩ م): مؤرخ روماني شهير يسم] بليني الأكبر تمييزا له، وله المعلمة الكبيرة التاريخ الطبيعي Naturalis Historia.

والتي رفعها هوراثيوس إلى أعلى قمّة! وعندما حاول أباريس[1] أن يُدخل إلى سيثيا شرائع الإغريق قتله شقيقه كادويس. وقد أخطأ بالفعل عندما حاول أن يحمل إلى سيثيا قوانين الإغريق في حين كان عليه أن ينشئ فيها القوانين التي تتلاءم مع طبع السكوثيّين. فقد أظهر اليونان نحو السكوثيّين نفس الإعجاب اللامعقول الذي أظهروه نحو المصريّين. بتعنّتهم في نسب علمهم إلى مصدر أجنبيّ وقديم في الزمن صاروا جديرين باللوم الذي يقول عنه أفلاطون في إحدى حواراته *الألسيبيادية*[2] إنّه وُجّه إليهم من قبل كاهن مصريّ الذي في حواره مع صولون، قال له: إنّ الإغريق لا يزالون أطفالًا. في غرورهم المجنون إزاء السكوثيّين والمصريّين خسر الإغريق من اعتبارٍ حقيقي بقدر ما ربحوا من زهوٍ لا يجدي نفعًا.

٣٩

[حرب البيلوبونيز[3]. ثوقيديدس، الذي كتب قائلا إنّه إلى زمن والده كان الإغريق لايعرفون شيئًا عن تاريخهم القديم، لهذا السبب شرع في كتابة تاريخ هذه الحرب]

سنة العالم ٣٥٣٠

[§ ١٠١] كان ثوقيديدس شابًا في زمن هيرودوتس الذي كان في سنّ متقدّمة بحيث يمكن أن يكون له أبًا، وعاش في ألمع أزمنة اليونان التي هي زمن حرب البيلوبونيز التي كانت معاصرة له، وبما أنّه كان يريد أن يكتب عن أشياء واقعيّة فقد كتب تاريخ هذه الحرب. وقد قال إنّ الإغريق إلى زمن أبيه، الذي كان زمن هيرودوتس، كانوا يجهلون كلّ شيء عن تاريخهم القديم. فكيف لنا إذن أن نثق برواياتهم بخصوص بلدان أخرى

---

(١) أباريس Ἄβαρις أحد كهنة الإله أبولو اشتهر بقدرة فائقة على التنبؤ.

(٢) نسبة إلى ألكيبيادس Ἀλκιβιάδης (ت ٤٠٤ ق. م.) سياسي وخطيب يوناني مفوه ينطق الغرب اسمه بالسين بدل الكاف.

(٣) البيلوبونيز شبه جزيرة في جنوب اليونان بين بحريْ إيجه والإيوني دار فيه بين ٣٤١ و٤٠٤ ق.م. صراع بين أثينا وإسبرطة في تنازع النفوذ وبسط الهيمنة السياسية والتجاريّة على جزر بيلوبونيز بقيادة ألقبيادس ونيكياس.

والتي تمثّل كلّ ما نعرفه عن التاريخ القديم للأمم الوثنيّة؟ وإذا كان الإغريق الذين بلغوا فورًا بعد ثوقيديدس علوم الفلسفة كانوا لا يزالون يجهلون في حياته تاريخهم القديم، فكيف يمكن أن نثق بأنّ الرومان، الذين لوقت طويل كرّسوا أنفسهم للفلاحة وللحروب، كانوا يعرفون تاريخ نشأتهم قبل الحروب البونيقيّة؟ ما من تفسير لأمر غريب كهذا إلا الاعتقاد بأن الرومان كانوا يمتازون بموهبة إلهية.

٤٠

[سقراط يخلق الفلسفة الأخلاقيّة العقلانيّة. وأفلاطون يشعّ في الميتافيزيقا. وأثينا تسطع بكل أنوار فنونها وحضارتها. شريعة اللوائح الاثنتي عشرة]

سنة العالم ٣٥٥٣ - سنة روما ٣٠٣

[§ ١٠٢] في هذه الفترة جاءت إلى روما من أثينا شريعة اللوائح الاثنتيْ عشرة. وهي شريعة فظّة وعنيفة، قاسية ومتوحّشة، كما سبق أن بيّنا ذلك في دراستنا *مبادئ القانون العام*.

٤١

[قسنطيفون يقود جيشه إلى فارس، وبهذا يكون الأوّل الذي عرف بشيء من الثقة عادات الفرس وتاريخهم]

سنة العالم ٣٥٨٣ - سنة روما ٣٣٣

[§ ١٠٣] يقول القديس هيرونيموس في شرحه لسفر دانييل، إنّ الإغريق بدافع التجارة بدؤوا يعرفون أشياء عن المصريّين في زمن بسماتيك الأوّل، وبالفعل نرى أنّ هيرودوتس بدأ يكتب في تلك الفترة عن المصريّين ببعض الثقة. ولم يعرف الإغريق بلاد فارس معرفة حقيقيّة إلّا عندما وجّه إليها قسنطيفون جيشه. بعد ذلك ذهب إليها كذلك أرسطو وراء الإسكندر الأكبر، وقال لنا إنّ الإغريق لم يرووا عن الفرس إلّا حكايات باطلة، مثلما سبق أن أشرنا إلى ذلك في هذا *الجدول الزمني*[١]. بهذه الصفة بدأ الإغريق يعرفون عن الأقوام الأجنبيّة أشياء مؤكّدة.

---

(١) انظر § ٤٧.

٤٢

[قانون بوبليليا]

سنة العالم ٣٦٥٨ - سنة روما ٤١٦

[§ ١٠٤] صدر هذا القانون في السنة الرومانية ٤١٦ ويحتوي على نقطة أساسيّة في تاريخ روما، التي سمّيت بفعل هذا القانون جمهوريّة، متحوّلة من دولة أرستقراطية إلى دولة شعبيّة، وقد استحقّ بذلك بوبليليوس فيلو الذي جاء بهذا القانون لقب *ديكتاتور* شعبي. لم يحظ هذا القانون بكبير اهتمام؛ لأنّه لم يُفهم كما ينبغي، وسنعمل فيما يلي على سدّ هذه الثغرة، ونكتفي هنا بتقديم فكرة عن مضامينه.

[§ ١٠٥] هذا القانون وكذلك القانون الذي يليه، المسمّى قانون *بيتيليا*، والذي لا يقلّ أهميّة عن الأوّل، قد فُهما خطأ لعدم تحديد معنى هذه الكلمات الثلاث: شعب *ومملكة وحريّة*. فقد ذهب الظنّ إلى أنّ الشعب الروماني كان منذ زمن رومولوس متكوّنا من الأشراف والعامّة، وذهب الظنّ أيضًا إلى أنّ الحريّة التي أسّسها بروتوس كانت حرية شعبيّة، وكلّ النقّاد والمؤرّخين والسياسيّين والقضاة سقطوا في هذا الخطأ الشائع. فلا واحدة من الجمهوريّات الحديثة بإمكانها أن تعطينا فكرة دقيقة عن *الجمهوريّات البطوليّة*، التي كانت جميعها ذات شكل أرستقراطي بحت، ولذا فقد كانت مختلفة تمامًا عن جمهوريّاتنا.

[§ ١٠٦] في الملجأ الذي فتحه في الغابة المقدّسة [*Luco*]، أسّس رومولوس روما على منظومة الموالي التي كانت محميات يأوي فيها رؤساء الأُسَر من يلوذ بالملجأ باعتبارهم فلاحيّين يوميّين. وهم لا يتمتّعون بأيّ حقّ من حقوق المواطنة؛ وعليه فلا يملكون أيّ جزء من الحريّة المدنيّة. ولأنّهم لجأوا هناك للنجاة بأرواحهم فقد كان الآباء يحمون حريّتهم الطبيعيّة بتوزيعهم في مجموعات منفصلة تعمل في زراعة حقولهم التي تكوّن منها دون شكّ العقار العمومي في التراب الروماني، بنفس الطريقة التي شكّل بها رومولوس مجلس الشيوخ بهؤلاء الآباء أنفسهم.

[§ ١٠٧] بعد ذلك أرسى سيرفيوس توليوس الضريبة، مانحًا للفلاّحين اليوميّين الملكيّة النفعيّة للأراضي التي كانت على ملك الآباء، بحيث صاروا يزرعونها لحسابهم،

مـع تحمّل عـبء الضريبة وإجباريّة خدمة الآباء على حسـابهم أثنـاء الحروب. وبالفعل نحـن نـرى العامّة في ظلّ هذه الحريّة الشـعبيّة المزعومة يتبعـون الآباء في الحروب التي كانوا يقومون بها. هذا القانون الذي سـنّه سـيرفيوس توليوس كان أوّل قانون زراعي في العالم، وأسّس الضريبة التي قامت عليها الجمهوريّات البطوليّة، أي أقدم الأرستقراطيّات التي حكمت كلّ الأمم زمن نشأتها.

[§ ١٠٨] بعـد أن أطـرد يونيـوس بروتوس الطغـاة التاركوينيّين أعاد إلـى الجمهوريّة الرومانيّـة شـكلها الأوّل بالعـودة إلى نظام القنصليـة، فنصّب قنصليْن كانـا بمثابة ملكيْن أرستقراطيّيْن سنويّيْن، مثلما يسمّيهما شيشرون في كتابه «القوانين» *De legibus*، عوضًا عن ملك واحد مدى الحياة، فأعاد بهذه الطريقة إلى الأسـياد حريّتهم إزاء الطغاة، ولكن دون حريّة الشـعب إزاء الأسـياد. غير أنه سـرعان ما حاد الأشـراف عن القانون الزراعي الـذي أقـرّه سـيرفيوس توليوس لفائـدة العامّـة، فعيّن هـؤلاء محامين عنهـم [*tribuni*]، اعترف بهم الأشـراف تحت القسـم، كانت مهمّتهم أن يدافعوا عن ذاك الجزء من الحريّة الطبيعيّة الذي يتمثّل بالنسـبة للعامّة في الملكيّة النفعيّة للحقول. ولكن ما أن ربح العامّة قضيّتهم ضدّ الأشراف حتّى أرادوا الحصول أيضًا على حقّ ملكيّة الأرض التي كانوا قد اكتفوا إلى حدّ الآن بحقّ استغلالها فحسب. وكان بهذه المناسبة أن أطرد محامو الشعب ماركيـوس كوريولانـوس[1] من روما؛ لأنّه قال إنّه على العامّة أن يكتفوا بخدمة الأرض، أي أنّهم إن كانوا غير راضين بالقانون الزراعي الذي أقرّة سيرفيوس توليوس، وإن أرادوا قانونًـا أكمـل وأوثـق، فعليهـم أن يعودوا إلـى وضعيّـة اليوميّين التي كانـت لهم في زمن رومولـوس. بعبـارة أخـرى، ألا يكون هـذا ازدراءً لزراعـة الحقول من قِبـل العامّة، بينما نعـرف بـكلّ تأكيد أنّ الأشـراف أنفسـهم كانوا يعتبرون القيـام بها فخرًا لهـم؟ وهل كان لسبب تافه مثل هذا أن يضرم نار الحرب إلى حدّ أنّ ماركيوس، للثأر لنفسه من المنفى، كان على وشك أن يدكّ روما، لولا أن ثنته عن عزمه الشرير دموعُ أمّه وزوجته؟

[§ ١٠٩] لكلّ هذه الأسباب -وبما أنّ الأشراف واصلوا انتزاعهم للحقول من أيدي العامّـة بعـد أن زرعوهـا، وكذلـك لـم يكن بمقدورهـم القيـام ضدّهم بأيّ دعـوى مدنيّة

(١) ماركيـوس كوريولانوس، سياسـي في روما القديمة، بطل أسـطوري يُحكى أنّه تمّ نفيـه من روما فعاد إليها على رأس جيش من الأعداء.

لاسترجاعها- طالب محامو الشعب بقانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* -الذي كانت تراتيبه، مثلما بيّنا ذلك في *مبادئ القانون العامّ*، تخصّ فقط هذه القضيّة- وبمقتضاه مَنح الأشرافُ للعامّة حقّ الملكيّة المدنيّة للحقول: هذه الملكيّة المدنيّة تُمنح للأجانب بمقتضى الحقّ الطبيعي للناس [*gentes*]. وكان هذا القانون الزراعي الثاني للأمم القديمة.

[§ ١١٠] ولكن عندما تفطّن العامّة إلى أنّه لا يمكنهم أن يورّثوا الحقول لأقربائهم [*ab intestato*]؛ لأنّه لم يكن لهم الحقّ في الإرث لا بصفة ورثة [*heredes*]، ولا بصفة أقرباء [*agnati proximi*] ولا بصفة منتمين للعائلة [*gentes*] وهي الحالات الوحيدة التي تجعل الميراث شرعيًا؛ لأنّ زواجهم لا يُحتفل به رسميًا، وحين رأوا أيضًا أنّه لا يمكنهم التصرّف في حقولهم بمقتضى وصيّة لأنّهم لا يتمتّعون بحقوق المواطنة، طالبوا بالزواج على غرار الأشراف [*connubium*]، أي بحقّهم في زواج احتفالي. والفعل الأكثر احتفاليّة في طقس الزواج هو تقبّل النذور، الذي كان امتيازًا خاصًا بالأشراف، وكانت هذه النذور المنبع الرئيسي للحقّ الروماني كلّه، العامّ والخاصّ: بهذه الصفة مَنح الآباءُ العامّة حقّ الزواج، وبما أنّ الزواج، حسب تعريف المشرّع موداستينُس[1]، هو (*omnis divini, et humani juris communicatio*) مشاركة كل حق إلهي وإنساني)، فهو ليس شيئًا آخر غير المواطنة، فقد منحوا للعامّة حقّ المواطنة. وبما أنّ رغبة البشر لا تتوقّف فقد تحصّل العامّة من الآباء على كلّ الحقوق الخاصّة التابعة لحقّ النذور، كالسلطة الأبويّة والحقّ في الميراث بصفة وريث أو قريب أو من العائلة، وكذلك على شرعيّة الميراث والوصيّة والوصاية. ثمّ طالبوا بالحقوق العامّة التابعة لحقّ النذور، وفي البداية حصلوا على المشاركة في السلطة [*imperium*] وعلى الحقّ في القنصلية، وأخيرًا على الكهانة والحبريّة، ومنه على الولوج إلى علم الشرائع.

[§ ١١١] وهكذا تمكّن محامو الشعب، الذين أنشِئوا في البداية بهدف حماية الحريّة الطبيعيّة للعامّة، من الحصول لهم شيئًا فشيئًا على الحريّة المدنيّة بتمامها وكمالها. والضريبة العامّة التي سنّها سيرفيوس توليوس، مع ترتيب اتُّخذ لاحقًا بأن لا تُدفع بصفة خاصّة إلى الأشراف مباشرة بل إلى الخزينة العامّة؛ لكي يُمكن لهذه الخزينة أن تتحمّل

---

(١) هيرينيوس موداستينوس، مشرّع روماني من القرن الثالث، تلميذ أولبيانوس ولأعماله الوافرة سلطة كبيرة.

مصاريف الحرب التي كان يدفعها العامّة، من أساس لحريّة الأسياد كما كانت عليه سابقًا، تحوّلت طبيعيًا لتشكّل الأساس للحريّة الشعبيّة: وسنرى لاحقًا بأيّ طريقة حدث ذلك[1].

[§ ١١٢] وبنفس الخطوة المتأنّية وبنفس العزيمة أحرز محامو الشعب تقدّمًا في مجال سنّ القوانين. وحتّى إن لم يتمكّن القانونان الاثنان، *هوراسيا* و*هورتانسيا*، من منح العامّة أن تكون لاستفتاءاتها صبغة إجباريّة للشعب كلّه، باستثناء ظرفيْن هامّيْن: الأوّل هو الذي أدّى إلى اعتصام الشعب بتلّ أفانتينو في ٣٠٤ من تاريخ روما، وهي الفترة التي افترضنا فيها ما ستتمّ البرهنة عليه لاحقًا[2] أنّه الواقع، وهو أنّ العامّة لم يكونوا بعدُ قد صاروا مواطنين. والظرف الثاني كان حين اعتصم العامّة بتلّ جانيكولو في ٣٦٧ من تاريخ روما، لكسر مقاومة الأشراف الذين كانوا يرفضون لهم حقّ المشاركة في القنصليّة. ولكن بالاعتماد على القانونيْن المذكوريْن أعلاه، توصّل العامّة أخيرًا إلى سنّ قوانين يخضع لها الجميع. وقد أدّى هذا الفوز الجديد الذي حقّقه الشعب إلى اضطرابات وثورات بروما كانت من الضراوة بحيث لزم اللجوء إلى وسيلة قصوى تمثّلت في تعيين *دكتاتور*. وكان أن تولّى بوبليليوس فيلو[3] هذه الوظيفة السامية. وبالفعل كانت روما في خطر، إذ أنّها كانت تضمّ في حجرها سلطتيْن مشرّعتيْن ذاتيْ سيادة لا يوجد بينهما أيّ تمييز لا زمني ولا مادّي ولا ترابي، والذي كان يجرّها حتمًا نحو الخراب. ولتفادي هذا الخطر الجسيم أعلن فيلو أنّ كلّ ما قرّره الشعب عبر الاستفتاء في اجتماعات العشائر فهو *omnes quirites teneret*، أي أنّه يُلزم الشعب كلّه في اجتماعات لجان المئة حيث تجتمع كلّ الهيئات المدنيّة [*omnes quirites*]، لأنّ الرومان لا يُسمّون *كويريتس*[4] إلاّ حين يلتقون في اجتماعات عموميّة؛ لأنّ هذا اللفظ لا يُستعمل أبدًا بصيغة الفرد في اللغة اللاتينيّة العاميّة. كان فيلو يريد أن يقول بهذه الصيغة إنّه من المستحيل سنّ قوانين تكون

---

(١) انظر §§ ٤٢٠، ٦١٩-٦٢٣.

(٢) §§ ٥٨٢-٥٩٨.

(٣) بوبليليوس فيلو Puplilius Philo سياسي روماني من القرن الربع قبل الميلاد كان يحارب الطبقية وتولى منصب القنصل أربع مرات.

(٤) كلمة لاتينية ترد دوما بصيغة الجمع تعني عند الرومان المواطنونا كاملو المواطنة واستخدامها كان في الدوائر السياسية.

معارضة للاستفتاءات الشعبيّة. بهذا كان العامّة بمقتضى القوانين التي قَبِلها الأشراف قد صاروا متساوين في كلّ شيء مع فئة النبلاء. بهذه الهجمة الأخيرة، التي لم يكن النبلاء قادرين على صدّها دون المجازفة بمصير الجمهوريّة، تفوّق العامّة على الأشراف، إذ صار بإمكانهم سنّ قوانين عامّة يخضع لها الشعب بأكمله دون ترخيص مجلس الشيوخ. كانت الجمهوريّة الرومانيّة قد صارت بالفعل جمهوريّة حرّة شعبيّة، وهكذا أعلنها فيلو ولذا سُمّي «بالديكتاتور الشعبي».

[§ ١١٣] طبقًا لهذا التغيير في طبيعة الجمهوريّة أصدر فيلو ترتيبيْن مضمَّنيْن في الفصليْن الآخريْن من قانون بوبليليا. والأوّل يتعلّق بسلطة مجلس الشيوخ، الذي كان إلى ذلك الحين سلطة الأسياد، ويقضي بأنّ ما قرّره الشعب يكون من بعد مصادقًا عليه من طرف الشيوخ [*deinde patres fierent auctores*]، ما يعني أنّ تسمية القناصلة وتشكيل القوانين المُنجَزة مسبقًا من طرف الشعب، ليست إلّا شهادات عموميّة عن الجدارات والمطالب العموميّة المستحقّة. الآن أمر هذا الدكتاتور أنّه في المستقبل يمنح الشيوخ للشعب، الذي صار يتمتّع بالحريّة والسيادة، ترخيصهم قبل أن تُعرف نتيجة الاجتماعات [*in incertum comitiorum eventum*]، جاعلا منهم حُماة الشعب، سيّد السلطة الرومانية. فإذا أراد الشعب سنّ القوانين يجب عليه أن يفعل ذلك حسب الصيغة التي يقدّمها له مجلس الشيوخ، وإلّا فمن حقّه تفعيل إرادته السياديّة ورفض القوانين المعروضة عليه، أي أن يُعلن عدم قبوله لأيّ جديد. وهكذا فكلّ ما يقرّره في المستقبل مجلس الشيوخ بخصوص الشؤون العامّة سيكون إمّا تعليمات يعطيها للشعب، أو مهامّا يكلّفه بها الشعب. أمّا الترتيب الثاني فيتعلّق بالضريبة، إذ أنّ الخزينة كانت في السابق دائمًا بيد الأشراف، ولا يُعيّن عليها إلّا الأشراف كمراقبين. وبعد أن صارت الخزينة بمقتضى هذا القانون ملكًا للشعب كلّه، أمر فيلو في البند الثالث أن يشارك العامّة في الرقابة، وهي الوظيفة الأخيرة التي كانوا مُبعدين عنها.

[§ ١١٤] لو طالعنا فيما سيأتي التاريخ الروماني على ضوء هذه الفرضيّة، فإنّنا سنجد -مع ألف برهان يدعمها- أنها تصلح كقاعدة لكلّ الأشياء التي رُويت فيه، والتي في غياب تعريف الكلمات الثلاث المذكورة آنفًا[1]، لا تملك أيّ أساس مشترك، ولا أيّ

(١) أي: شعب، مملكة، حريّة. انظر § ١٠٥

علاقة خاصّة فيما بينها تكون مناسبة. ولهذا السبب يجب تقبّل هذه الفرضيّة على أنّها صحيحة. ولكن، بإمعان النظر ليست فرضيّة بقدر ما هي حقيقة بُنيت على فكرة سيتّضح فيما بعد أنّها حقيقة تستند إلى سلطة الوقائع والمؤلّفين. وإذا قبلنا ما قاله تيتوس ليفيوس بصفة عامّة، أي أنّ الملاجئ كانت *vetus urbes condentium consilium*[1]، بالطريقة نفسها التي أسّس بها رومولوس مدينة روما في الملجأ الذي فتحه في الغاب المقدّس، فإنّ هذه الحقيقة تمدّنا أيضًا بقصّة كلّ مدن العالم الأخرى في أزمنة كنّا قد يئسنا إلى الآن من معرفتها معرفة صحيحة. هذه لمحة عن تاريخ مثالي سرمدي اكتشفناه ودرسناه في هذا العمل[2] والذي يُظهر أنّ تاريخ جميع الأمم يتبع نفس المسار.

٤٣

[قانون بيتيليا]

سنة العالم ٣٦٦١ - سنة روما ٤١٩

[§ ١١٥] صدر هذا القانون، المُسمّى *de Nexu* (قانون الرقيق المدين)، في سنة ٤١٩ من تاريخ روما، أي بعد ثلاث سنوات من قانون *بوبليليا*، بمبادرة من القنصليْن كايوس بيتيليوس[3] ولوسيوس بابيريوس موجيلانوس[4]. ويحتوي على نقطة ذات أهميّة قصوى في التاريخ الروماني، إذ أنّه بمقتضى هذا القانون تحرّر العامّة من النظام التشريعي الإقطاعي الذي كان يجعل منهم أتباعًا خاضعين للأشراف بسبب ديونهم، وعليه كانوا مجبرين، أحيانًا طيلة حياتهم، على العمل لصالح الأشراف في سجونهم الخاصّة. ولكن بقيت لمجلس الشيوخ السيادة الكاملة على أملاك الإمبراطورية الرومانية، واحتفظ بها بقوّة السّلاح طيلة الفترة التي كانت فيها روما جمهوريّة. وفي كلّ

---

(١) أي «الرسم القديم لمؤسّسي المدن» انظر § ١٧.

(٢) انظر §§ ٣٤٩، ٣٩٣.

(٣) كايوس بيتيليوس ليبو فيسولوس، قنصل روماني سنة ٣٢٦ ق. م. أثناء قنصليّته صدر حيب تيتوس ليفيوس قانون بيتيليا الذي يلغي استعباد المدين من طرف دائنه في حال عدم الوفاء بالدين.

(٤) لوسيوس بابيروس موجيلانوس: سياسي روماني من القرن الخامس قبل الميلاد. شغل قنصلا سنة ٤٢٧ ق.م.

مـرّة حـاول فيهـا العامّـة انتزاعها منه باللجـوء إلى قوانيـن آل غراكّوس[1] الزراعيّة سـلّح مجلـس الشـيوخ القناصـل الذين أعلنوا حالـة التمرّد وقتلوا محامي الشـعب الذين كانوا وراء هذه التحرّكات. هذه الصرامة غير المعتادة من طرف مجلس الشـيوخ كانت تعتمد دون شـكّ على حقوق إقطاعيّة سـياديّة، ولكنّها موضوعة تحت سـيادة أوسـع هي سيادة من يمارسها. وهذا ما يؤكّده لنا شيشرون في إحدى *كاتيليناياته*[2] عندما يقول إنّ تيبيريوس غراكّـوس بقانونـه الزراعـي وضـع وجـود الجمهوريّـة في خطـر، وإنّ بيبليوس سـكيبيو ناسـيكا[3] كان محقًّا عندما قتله، طبقًا للنصّ الذي بمقتضاه سـلّح القنصل الشـعب ضدّ صانعي مثل تلك القوانين والذي يقول:[4] *«من أراد أن ينقذ الجمهورية، فليتبع القنصل»*.

٤٤

[حرب تارنتو[5] التي تعرّف أثناءها الإغريق واللاتينيّون على بعضهم البعض]

سنة العالم ٣٧٠٨ - سنة روما ٤٨٩

[§ ١١٦] كان السـبب في هذه الحرب هو سـوء معاملة أهالي تارنتو للسفن الرومانيّة التـي تصل إلى سـواحلهم، وكذلك لسـفراء هذه الأمّـة. ويخبرنا فلـوروس[6] أنّهم كانوا يعتـذرون عـن ذلـك بقول *«لـم يعرفوا من هم الرومان ولا مـن أين أتوا!»*[7]. نرى من هذا

(١) تيبيريـوس سـيمبرونيوس غراكّـوس [١٦٣/ ١٦٨ - ١٣٣ ق.م] شـكّل مـع شـقيقه كايـوس غراكّـوس «آل غراكّوس».

(٢) الكاتيلينيـات هـي أربعـة خطب لشيشـرون كتبها ضد كاتيلينا Catilina وهو رجل أعمـال روماني وجندي وعضو مجلس الشيوخ في القرن الأول قبل الميلاد اشتهر بالتآمر للإطاحة بالجمهورية الرومانية.

(٣) هو بوبليوس كورنيليوس سيبيو ناسيكا [٢٣٠-١٧١ ق.م]، حاكم وسيناتور روماني. كان قنصلا سنة ١٩١ ق.م.

(٤) شيشرون، *Tusculanes* IV، ٢٣، ٥١. *Qui rempublicam salvam velit consulem sequitur*.

(٥) تارنتو: مدينة إيطالية تقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية على ساحل البحر الأيوني. أسّسها الإغريق في القرن الثمن ق.م.

(٦) اسـمه الكامـل بوبليـوس آنيوس فلوروس [حوالي ٧٠- حوالي ١٤٠م] مـؤرّخ روماني من أصل بربري لا نملك بخصوصه الكثير من المعلومات.

(٧) ورد باللاتينية: *qui essent aut undè venirent ignorabant*

إلى أيّ حدّ كانت الشعوب الأولى تعرف بعضها البعض، مع أنّها تعيش على نفس القارّة وغير بعيدة جدّا أحدها عن الآخر!

٤٥

[الحرب البونيقية الثانية، ومنها بدأ عند تيتوس ليفيوس قصّ التاريخ الروماني الموثوق، مع أنّه يعترف بجهله منها ثلاثة ظروف مهمة]

سنة العالم ٣٨٤٩ - سنة روما ٤٨٩

[§ ١١٧] أعلن تيتوس ليفيوس أنّه بداية من الحرب البونيقية الثانية سيكتب التاريخ الروماني بموثوقية كبيرة، ويعدنا برواية أعظم حرب قادتها روما. ونعتقد أنّ أخباره كانت موثوقة ودقيقة بقدرِ ما كانت الوقائع خطيرة وساطعة. إلّا أنّه يعترف لنا متأسّفًا أنّه يجهل ثلاثة ظروف مهمة تخصّ هذه الحرب. أوّلا هو لا يعرف تحت قنصليّة مَن توجّه حنّبعل نحو إيطاليا بعد استلائه على ساغونتو واجتيازه إسبانيا. ثانيًا، لا يعرف إنْ كان قد مرّ عبر جبال الألب الكوتسيّة أو الألب الأبينيّنيّة. وأخيرا فهو يجهل عدد القوّات التي رافقته، بل إنّه يجد في *الحوليات القديمة* فوارق كبيرة، إذ ذكر أحدهم أنّها كانت تضمّ ستّة آلاف فارس وعشرين ألفًا من المشاة، بينما يقول آخرون إنّها كانت تقدّر بعشرين ألف فارس وثمانين ألفًا من المشاة.

[خلاصة]

[§ ١١٨] نرى إذن من جميع هذه الملحوظات أنّ كلّ ما وصلنا بخصوص الشعوب الوثنيّة القديمة، إلى الحدّ الذي يتوقّف عنده جدولنا الزمني، غير مؤكّد بالكامل. لذا فقد ولجنا إلى كلّ هذا كما لو كان ما يُسمّى (*res nullius*)[١] حسب قاعدة الشرع فهو مباح لمن يملكه "*occupanti conceduntur*"[٢]، لذا نعتقد أنّنا لا نتعدّى على حقّ أحد إذا

---

(١) حرفيّا يعني «شيء ليس لأحد» والمقصود قانونيّا الممتلكات المباحة.

(٢) من المقولة اللاتينيّة *Quod nullius est, id naturali ratione occupanti conceditur*، بمعنى أنّ ما هو ليس ملك أحد فهو حقّ طبيعي لمن يجده.

فكّرنا بطريقة في الغالب مختلفة وأحيانًا معاكسة للآراء التي راجت إلى حدّ الآن بخصوص بدايات الحضارة لدى الأمم. وسنجعل من الآراء المنتشرة مبادئ علميّة سنعيد بفضلها إلى الوقائع التاريخيّة المؤكّدة أصولها الأولى التي تتأسّس عليها بحيث تظهر متساندة ومترابطة بينما كانت إلى حدّ الآن دون قاعدة مشتركة ولا تتابع متواصِل ودون تناسق فيما بينها.

[القسم الثاني]

في العناصر

[§ ١١٩] لإضفاء شكل على المادّة التي عرضناها آنفًا في الجدول الزمني نقترح هنا المسلّمات أو المبادئ التالية، سواء المتعلّقة بالفلسفة أو بفقه اللغة، وكذلك بعض المسائل التي يبدو لنا من الصائب معالجتها هنا، وعددًا من التعريفات الموضَّحة والمفهومة. وكما أنّ الدم يسري في الجسم الذي يحرّكه، يجب أن تسري هذه الحقائق في هذا العلم وتبعث فيه الحيويّة بحيث ينيرنا بخصوص *الطبيعة المشتركة للأمم*.

١

[§ ١٢٠] إنّ الطبيعة اللامحدّدة للعقل البشري هي التي تجعل الإنسان الغائص في الجهل يصنع لنفسه قاعدة الكون.

[§ ١٢١] من هذه المسلّمة تتأتّى النزعتان اللتان يشترك فيهما البشر: الأولى أنّ صيت شيء ما ينمو بنموّ انتشاره [*Fama crescit eundo*]، والثانية أنّ الأشياء متى زاد انتشارها تضاءل صيتها [*minuit praesentia famam*]، وقد سلك الصّيت منذ خلق الكون دربًا طويلًا، وأثناء هذه الرحلة جمّع آراء فيها الكثير من الروعة ومن المغالاة بخصوص الفترات التي لا نعرفها بالكامل. هذه الخاصيّة للعقل البشري هي التي يقول عنها تاسيتوس في كتابه *حياة أغريكولا* ، إنّ كلّ ما هو مجهول يكتسي روعة [*omne ignotum pro magnifico est*].

٢

[§ ١٢٢] هناك خاصيّة أخرى يتميّز بها العقل البشري وهي التي تجعل البشر حين لا تكون لديهم فكرة عن الأشياء، لأنّها بعيدة ومجهولة، يتصوّرونها طبق الأشياء التي يعرفونها والموجودة لديهم.

[§ ١٢٣] هـذه المسـلّمة تشير إلـى المنبع الذي لا ينضب من الأخطاء التي سـقطت فيهـا أمـم بأكملها وجميع العلماء، بخصوص بدايات الإنسـانيّة، إذ أنّه حين بدأت الأمم تهتمّ بنشأتها وحين شرع العلماء في دراستها، اعتبروها طبقًا لفترتهم المستنيرة والمثقّفة والرائعة، بينما في الواقع كانت بدايات البشريّة بائسة، فظّة وغامضة.

[§ ١٢٤] وإلى هذا الجنس من الأمور يعود نوعان من الغرور سبق أن أشرنا إليهما(١)، غرور الأمم وغرور العلماء.

٣

[§ ١٢٥] كنّا قد رأينا أنّ ديودورس الصقلّي قال بخصوص الأمم، سواء الإغريقيّة أو البربريّـة، إنّ غرورهـا دفعهـا إلـى الاعتقاد بأنّها سـبقت الأمم الأخرى فـي تحقيق رفاهة البشريّة وفي حفظ ذاكرة تاريخها منذ بدء الكون.

[§ ١٢٦] هـذه المسـلّمة تبدّد في لحظـة الزهو الباطل لكلّ من الكلدان والسـكوثيّين والمصريّيـن والصينيّين الذين تباهوا جميعهم بأنّهم أسّسـوا حضارة العالم القديم. إلّا أنّ اليهودي فلافيوس يوسيفوس يستثني قومه باعترافه المتواضع الذي سبق أن ذكرناه(٢) من أنّ اليهود عاشوا منفصلين عن جميع الوثنيّين. والكتابات المقدّسة تؤكّد لنا أنّ عمر العالم هو في الواقع قصير جدّاً باعتبار العمر الذي نسبه إليه الكلدان والسكوثيّون والمصريّون، والصينيّون في زمننا الحاضر. وهذا دليل ساطع على صحّة التاريخ المقدّس.

٤

[§ ١٢٧] إلى غرور الأمم هذا علينا أن نضيف غرور أهل المعرفة الذين يزعمون أنّ كلّ ما يملكونه من علم هو قديم قِدم الكون نفسه.

[§ ١٢٨] هذه المسلّمة تطيح بكلّ الآراء التي جاء بها العلماء بخصوص عِلم القدامى الـذي لا يضاهيـه أيّ علـم. فهـو يقنعنا بزيف نبـؤات الكلداني زرادشـت(٣) والسـكوثيّ

---

(١) انظر §§ ٥٣، ٥٩.

(٢) § ٩٤.

(٣) زرادشت، سبق ذكره § ٧٤

أناكرسيس[1]، التي لم تصل إلينا، وبزيف تأليف «بيماندريس» لهرمس الهرامسة، *والأورفيات* [أناشيد أورفيوس]، *والقصائد الذهبيّة* لفيثاغورس، كما يُجمع على ذلك كلّ النقّاد الجديّين. وإضافة إلى ذلك يُظهر لنا كيف أنّ الدلالات السريّة التي نسبها العلماء إلى الهيروغليفيّات المصريّة وإلى المرموزات الفلسفيّة التي حاولوا من خلالها تأويل الأساطير الإغريقيّة هي غيرمناسبة وغير مقبولة.

٥

[§ ١٢٩] لكي تكون الفلسفة نافعة للجنس البشري عليها أن تساند الإنسان الضعيف والمتداعي، ولكن يجب عليها ألاّ تلوي بعنف طبيعته ولا أن تتخلّى عنه في فساده.

[§ ١٣٠] تستبعد هذه المسلّمة الرواقيّين الذين يكبتون الحواسّ، والأبيقوريّين الذين يجعلون منها قاعدتهم. والأوّلون والثانون ينفون وجود العناية الإلهية، لأنّ الرواقيّين يقيّدون الإنسان بالقدر [*fato*] والأبيقوريّون يتركونه للصدفة [*caso*] ويؤكّدون أنّ الروح تموت مع الجسد. بإمكاننا أن نسمّي أولئك وهؤلاء *فلاسفة ديريّين* أو *منعزلين*. وعلى عكس ذلك تتقبّل هذه المسلّمة الفلاسفة السياسيّين، وفي المقام الأوّل لأفلاطونيّين، الذين يتّفقون مع المشرّعين على هذه النقاط الثلاث الأساسيّة: أنّه توجد عناية إلهية، وأنّه يتوجّب التحكّم في الأهواء البشريّة وتحويلها إلى فضائل إنسانيّة، وأخيرًا أنّ الروح خالدة. وعليه فإنّ هذه المسلّمة الأوّلية تمدّنا بالمبادئ الثلاثة التي يقوم عليها هذا *العِلم*[2].

٦

[§ ١٣١] تعتبر الفلسفة الإنسان كما ينبغي عليه أن يكون، لذا فهي ليست ذات فائدة إلّا لعدد قليل من أولئك الذين يفضلون العيش في جمهورية *أفلاطون* بدل الانغماس في وحل رومولوس[3].

---

(١) أناكارسيسوس، فيلسوف سكيثيّ انتقل من موطنه سكيثيا على سواحل البحر الأسود إلى أثينا في القرن السادس قبل الميلاد. سبق ذكره في § ١٠٠.

(٢) انظر §§ ٣٣٣، ٣٦٠

(٣) Romulus ملك أسطوري يعتقد الرومان أنه مؤسس روما وإليه تنسب.(سبق ذكره في هوامش ص١٠ وفي الفقرة ٩٤-٩٥)

٧

[§ ١٣٢] تعتبر الشرائع الإنسانَ كما هو عليه، وتحاول أن تجعل منه عنصرًا صالحًا للمجتمع الإنساني، ولهذا الهدف تحوّل الغرائز الثلاث الفاسدة التي تضلّل الجنس البشري وهي الضراوة والجشع والطموح، لتصنع منه الجيوش، والتجارة والبلاط، أي تخلق منه القوّة والثراء وعلوم الجمهوريّات. ومن هذه الرذائل الثلاث التي تكفي لتدمير العرق البشريّ على سطح الأرض تستمدّ السعادة المدنيّة.

[§ ١٣٣] تبرهن هذه المسلّمة على وجود عناية إلهية هي بالأحرى عقل إلهي مشرّع، هو الذي من كلّ الأهواء التي تحرّك البشر المنعكفين على مصلحتهم الخاصّة، تلك الأهواء التي تجرّ البشر إلى العيش في الوحدة وفي الوحشيّة، صنع المؤسّسات المدنيّة التي بفضلها يعيشون في مجتمع إنساني.

٨

[§ ١٣٤] لا يمكن لأيّ شيء أن يتطوّر أو أن يدوم خارج حالته الطبيعيّة.

[§ ١٣٥] بما أنّ الجنس البشري، مهما ابتعدت بنا ذاكرة العالم، عاش ولا يزال يعيش بصفة مقبولة داخل المجتمع، فإنّ هذه المسلّمة وحدها تضع حدّاً للجدال الكبير الذي لا يزال يخوضه كبار الفلاسفة واللاهوتيون الأخلاقيّون ضدّ كرنياديس الشكوكي[١] وأبيقور، وهو جدال لم يقدر غروتيوس نفسه على حلّه، وهو حول إن كان يوجد قانون في الطبيعة، أو بعبارة أخرى، إن كانت الطبيعة اجتماعيّة.

[§ ١٣٦] هذه المسلّمة نفسها مع المسلّمة السابعة والاستنتاج الذي يتبعها تبرهن لنا على أنّ الإنسان، وإن كان يتمتّع بإرادة حرّة فهو غالبًا ما يعجزعن توجيه أهوائه نحو الفضيلة، ولكنّه يجد مساعدة من الربّ، مساعدة طبيعيّة من خلال العناية الإلهية وفوق طبيعيّة من خلال رحمة الخالق.

---

(١) كرنياديس [٢١٩-١٢٨ ق.م] فيلسوف يوناني مؤسّس الأكاديمية الجديدة. كان يقول إنّه لا يوجد معيار مطلق لمعرفة الحقيقة.

٩

[§ ١٣٧] عندما يعجز الإنسان عن بلوغ الحقيقة فهو يتمسّك بما هو مؤكّد لديه، وإن تعذّر عليه إرضاء ذكائه بالعلم فهو يحاول على الأقلّ تأسيس إرادته على الضمير.

١٠

[§ ١٣٨] الفلسفة تنظر إلى العقل الذي يأتي منه العِلم بالحقيقة، والفقه يتأمّل في سلطة الإرادة البشريّة التي يأتي منها إدراك ما هو مؤكّد.

[§ ١٣٩] هذه المسلّمة في جزئها الثاني تعرّف الفقهاء باعتبارهم جميع النحويّين والمؤرخين والنقاد، الذين انشغلوا بدراسة لغات الشعوب وأعمالهم وشؤونهم الداخلية، مثل العادات والتقاليد والقوانين، وشؤونهم الخارجية، مثل الحروب والسلم والتحالفات والسفر والتجارة.

[§ ١٤٠] وهذه المسلّمة نفسها تبيّن لنا أيضًا أنّ الفلاسفة أخطؤوا حين أغفلوا دعم نظريّاتهم بالتأكيدات المتأتية من سلطة الفقهاء، كما أخطأ الفقهاء الذين لم يُعْنَوا بدعم مواقفهم بحجّة الفلاسفة. فلو أنّ الفلاسفة والفقهاء تشاركوا معارفهم وقواهم الفكريّة لأمكنهم أن يقدّموا أفضل الخدمات إلى الجمهوريّات ولساعدونا في صياغة هذا *العِلم*.

١١

[§ ١٤١] إنّ الإرادة البشريّة التي بطبعها غير مؤكّدة، بإمكانها أن تتوطّد وتتحدّد من خلال الحسّ المشترك لدى البشر بخصوص الضرورات أو المنافع الإنسانيّة، التي تمثّل المنبعيْن اللذيْن يتولّد منها قانون الناس الطبيعي.

١٢

[§ ١٤٢] الحسّ المشترك هو حكم خال من كلّ تفكير، يشترك فيه كلّ المنتمين إلى فئة معيّنة، أو كلّ شعب من الشعوب أو كلّ أمّة من الأمم، أو كلّ الجنس البشري.

[§ ١٤٣] هـذا المسـلّمة، مـع التعريـف التالـي، تمدّنـا بفـنّ نقدي جديـد بخصوص مؤسّسـي الأمم التي مرّت عليها أكثر من ألف سـنة قبل أن يظهر من بينها الكتّاب الذين اهتمّ بهم النقد إلى حدّ الآن.

١٣

[§ ١٤٤] إنّ الأفكار المتماثلة التي تنشـأ لدى شـعوب بأكملها يجهل أحدها وجود الآخر، لا بدّ أن يكون لها أساس مشترك من الصحّة.

[§ ١٤٥] هـذه المسـلّمة تمثّـل مبـدأ مهمّـا يحـدّد أنّ الحسّ المشـترك لـدى الجنس البشـري هـو المعيـار الـذي وفّرته العنايـة الإلهية للأمـم؛ لتحديد ما هو مؤكّـد في قانون النـاس الطبيعـي. وتتحصّـل الأمـم علـى ما هو مؤكّـد من خـلال التعرّف علـى العناصر الجوهريّـة لهـذا القانون، التي تتوافق جميعها عليها مـع تحويرات مختلفة. ومن هنا جاء المعجم الذهني الذي يسمح لنا بتحديد منشأ مختلف اللغات المنطوقة، والذي بواسطته أمكـن تصوّر التاريخ المثالي السـرمدي الـذي يمدّنا بالأخبار عبر الزمن بالنسـبة لجميع الأمم. وسنضع تاليًا المبادئ الخاصّة بهذا المعجم وبهذا التاريخ.

[§ ١٤٦] تقوّض هذه المسـلّمة نفسـها جميع الأفكار التـي بلغتنا إلى حدّ الآن حول قانون الناس الطبيعي، الذي كان يُعتقد أنّه نشأ عند أمّة بعينها كانت هي الأولى، وتسلّمته منها الأمم الأخرى. وقد سقط في هذا الخطأ كلّ من المصريّين والإغريق، الذين تباهوا بكونهـم نشـروا علـى الأرض الإنسـانيّة والحضـارة. وهـذا الخطأ نفسـه هـو الذي خلق الأسـطورة القائلة بأنّ قانون *اللوائح الاثنتيْ عشـرة* جاء من اليونان إلى روما[١]. فإذا كان الأمر على هذا النحو فلن يكون هذا القانون الطبيعي إلّا قانونًا مدنيًا أبلغته العناية البشريّة إلـى الشـعوب الأخـرى، بينما هو فـي الحقيقـة قانون منظّم ومؤسّـس طبيعيًـا من طرف العنايـة الإلهيـة لدى جميع الأمـم عن طريق العادات والتقاليد البشـريّة. سـنقوم في هذا العمل بالبرهنة على أنّ قانون الناس الطبيعي نشأ بصفة منفصلة لدى كلّ الشعوب، دون أن يعـرف أحدهـا الآخـر. بعـد ذلك حيـن التقت الشـعوب أثنـاء الحروب والسـفارات والتحالفات والتجارة اعتُرف به على أنّه قانون مشترَك لكلّ الجنس البشري.

---

(١) انظر في هذا الخصوص §§ ٢٨٤-٢٨٥.

١٤

[§ ١٤٧] إنّ طبيعة الأشـياء ليسـت إلّا نشأتها في زمن مّا وبطريقة مّا، وبحسب ذلك الزمن وبحسب تلك الطريقة تنشأ دائمًا تلك الأشياء دون غيرها.

١٥

[§ ١٤٨] إنّ الخاصيّـات المتلازمـة للمواضيـع تنتـج عن التحويـرات المُدخلة على المادّة عند تشـكيل الأشـياء أو عن الطريقة التي نشـأت بها الأشـياء. لذا فهي تسـمح لنا بالتحقّق من أنّ نشأة تلك الأشياء وطبيعتها هي تلك وليس غيرها.

١٦

[§ ١٤٩] إنّ الروايـات الشـعبيّة لهـا أسـاس عموميّ مـن الصحّة أنشـأها ومكّنها من الدوام طيلة فترات طويلة من الزمن.

[§ ١٥٠] سـتكون إحـدى المهـامّ الكبـرى لهذا *العِلـم* العثور على هذا الأسـاس من الصحّة، الذي بمرور السنين وبتغيّر اللغات والعادات وصل إلينا مغلّفًا بالزور والبهتان.

١٧

[§ ١٥١] إنّ اللغـات العاميّـة تمثّـل أهمّ شـهادة علـى عادات الشـعوب القديمة التي كانت موجودة حين تشكّلت اللغات.

١٨

[§ ١٥٢] إنّ اللغة التي تكلّمتها أمّة قديمة وبقيت مسـتقلّة إلى تمام تطوّرها سـتكون شاهدًا كبيرًا على عادات أزمنة العالم الأولى.

[§ ١٥٣] تؤكـد لنـا هـذه المسـلمة أن أثقـل البراهين الفقهيـة اللغوية علـى أنّ قانون الناس الطبيعي – وهو قانون كان الرومان بارزين في فهمه أكثر من أيّ شعب آخر – هي

تلك المستمدّة من اللغة اللاتينيّة. وللسبب ذاته بإمكان فقهاء اللغة الألمانيّة فعل الشيء نفسه لأنّ هذه اللغة تحتفظ بنفس خاصيّات اللغة الرومانية القديمة.

١٩

[§ ١٥٤] إن كان قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* لا يعدو أن يكون عادات وتقاليد شعب اللاتيوم[١]،التي وُجدت منذ عصر ساتورن والتي إذ تغيّرت دائمًا في أمكنة أخرى فقد بقيت محفورة في البرونز ومحفوظة بورع ديني من طرف التشريع الروماني، فهي تمثّل شاهدًا كبيرًا على القانون الطبيعي لأناس اللاتيوم القدامى.

[§ ١٥٥] كنّا قد برهنّا قبل سنوات عديدة على حقيقة هذه الفرضيّة في عملنا *مبادئ القانون الكوني*، وسنقدّم في هذا العمل البراهين التي ستجعلها أكثر وضوحًا.

٢٠

[§ ١٥٦] إذا كانت ملحمتا هوميروس[٢] ترويان القصصَ المدنيّة الخاصّة بالعادات القديمة الإغريقيّة، فإنهما تعتبران كنزيْن عظيميْن يشهدان على القانون الطبيعي لأناس اليونان[٣].

[§ ١٥٧] هذه المسلّمة موضوعة هنا باعتبارها فرضيّة، وسنبرهن لاحقًا عن صدقها[٤].

٢١

[§ ١٥٨] بمجيئهم، سرّع فلاسفة اليونان المسار الطبيعي الذي كان على أمّتهم أن تخطوه؛ ذلك لأنّهم ظهروا بينما كانت بلادهم لا تزال تعيش في بربريّة فظّة، ومرّوا بها مباشرة ودون تدرّج إلى وضع سامي الترف، محافظين مع ذلك على أساطيرهم الخرافيّة

(١) اللاتيوم، Latium وLazio، هو جغرافيًا إقليم روما.

(٢) الإشارة هنا هي للإلياذة والأوديسّا.

(٣) انظر § ٩٠٤.

(٤) §§ ٧٨٠- ٩٠٤.

كاملة، سواء منها الإلهية أو البطولية. أمّا الرومان، على عكس ذلك، فقد تقدّموا في سيرهم بأكثر أناة وأكثر ثقة وفقدوا تمامًا تاريخ آلهاتهم حتّى أنّ فارّو سمّى «*زمن الرومان المظلم*» ما كان المصريّون يسمّونه «*عصر الآلهة*». ولكنّهم احتفظوا مع ذلك في اللغة العاميّة بتاريخهم البطولي، الذي يمتدّ من رومولوس إلى قانونيْ بوبليليا وبيتيليا والذي، كما سنبيّن ذلك[1]، ليس إلاّ تواصلا للأساطير التاريخيّة لعصر أبطال اليونان.

[§ ١٥٩] كما أنّ الأمّة الفرنسيّة تؤكّد لنا أيضًا طبيعة هذه الأمور الإنسانيّة المدنيّة، إذ أنّه في غمار بربريّة القرن الثاني عشر نشأت لدى هؤلاء القوم المدرسة الباريسيّة الشهيرة، حيث درّس المعلّم الكبير بيير لومبار[2] صاحب كتاب *Sententiae*، لاهوتيّة مدرسيّة دقيقة جدّاً، في فترة كانت لا تزال توجد فيها، بنوع شبيه بالملحمة الهوميريّة، قصّة توربين[3]، أسقف باريس، المليئة بأساطير أبطال فرنسا المسمّين *بلادّيين*، التي امتلأت بها فيما بعد العديد من القَصص والأشعار. هذا المرور السريع من الهمجيّة إلى العلوم الأكثر دقّة كان سببًا في جعل اللغة الفرنسيّة تتمتّع بالدقّة التي لا تزال تميّزها، بحيث يبدو أنّها الوحيدة من بين اللغات الموجودة التي احتفظت لنا بالأتيكيّة[4] اليونانيّة، ومثلها في ذلك مثل اللغة الإغريقيّة، هي الأكثر قابليّة للخطاب العلمي من غيرها. وكما في الإغريقيّة، فقد بقي في اللغة الفرنسيّة عدد كبير من المصوّتات المزدوجة، التي نجدها عادة في اللغات البربريّة الخشنة وغير المتقِنة لدمج المصوّتات والصوامت. ولإثبات ما قلناه الآن عن هاتيْن اللغتيْن نسوق بعض الملاحظات التي تهمّ من هم في سنّ الشباب، حيث في هذا السنّ تكون الذاكرة قويّة والخيال متوقّدًا والذكاء متلهّفًا للمعرفة، ويكونون متهيّئين لأن يدرسوا بنجاح اللغات الأخرى والهندسة الخطيّة ولكنهم يهملون بمثل هذه التمارين ترويض عقولهم الفجّة التي يمكن مقارنتها *ببربريّة الفكر*، فيمرّون وهم غير

---

(١) § ٦٤١.

(٢) Pierre Lombard [١١٠٠-١١٦٤]، أسقف باريس ومؤلّف أربعة كتب في الأحكام، *Sententiae*. لم تتأسّس السربون إلّا في سنة ١٢٥٧.

(٣) Turpin كان أسقف مدينة ريمس في القرن الثامن. يظهر في *Chanson de Roland*، ويُنسب إليه كتاب *Historia Caroli Magni et Rotholandi*، المؤلّف حوالي ١١٥٠.

(٤) نسبة إلى أتّيكا أو أتيك، المنطقة التاريخية التي توجد بها مدينة أثينا والمتمثلة في شبه الجزيرة اليونانية الواقعة في بحر إيجه.

ناضجيـن وبدون تدرّج إلى دراسـات أكثر دقّة في الميتافيزيقـا النقديّة وعلم الجبر فينتج عـن ذلـك أنّهم يصيرون رجالاً مرهفين في طريقة تفكيرهـم ولكنّهم عاجزون عن إنجاز أعمال عظيمة.

[§ ١٦٠] ولكن بالتقدّم في هذا العمل وجدنا سببًا آخر لتفسير ذلك، لعلّه يكون أكثر إفادة: وهو أنّ رومولوس أسّس روما وسط مدن أخرى أقدم في الزمن من إقليم لاتيوم، وأسّسـها بإقامـة *الملجـأ* الـذي قـال عنـه تيتـوس ليفيـوس ***vetus urbes condentium consilium***[1] وكان علـى رومولـوس أن يؤسّـس رومـا بالطريقـة نفسـها التـي قامت بها المـدن الأولـى فـي العالـم. إلّا أنّه بينمـا كانت رومـا فـي بدايات وجودهـا كانت اللغات العاميّـة باللاتيـوم مزدهرة، ما جعل الرومان يعبّرون سـريعًا باللهجـة العاميّة عن أمورهم المدنيّـة الموافقـة لمـا كان الإغريق يروونـه باللغة البطوليّـة. ولذا فإنّ التاريـخ الروماني القديم هو أساطير أبديّة للتاريخ البطولي الإغريقي. وهذا هو السبب في أنّ الرومان كانوا أبطـال العالـم؛ إذ أنّ روما أخضعـت مدن اللاتيوم الأخرى ثمّ إيطاليـا فبقيّة العالم، ذلك لأنّ البطوليّة كانت لا تزال يافعة عندهم بينما بدأت تهرم لدى شـعوب اللاتيوم الأخرى الذين مهّد غزوهم لعظمة روما.

٢٢

[§ ١٦١] مـن الضـروري أن توجـد فـي طبيعة الأشـياء الإنسـانيّة لغة ذهنيّة مشـتركة لجميع الأمم، وهي التي تشـير بصفة متماثلة إلى جوهر الأشـياء التي تُشـارَك في الحياة البشريّة الاجتماعيّة، وتتكيّف مع تغييرات مختلفة بقدر اختلاف مظاهر الأشياء. وبالفعل نـرى أنّ جوهـر الأمثـال، التـي هـي حِكـم المعرفـة العاميّة، هو نفسـه عند جميـع الأمم القديمة، وتختلف مظاهرها باختلاف التغييرات التي تدخلها عليها تلك الشعوب.

[§ ١٦٢] ومعرفـة هـذه اللغـة تنتمي إلى حقل العلم الذي نُحقّـق فيه، ولو أنّ العلماء تفضلوا باسـتعمالها في أبحاثهم لأنشـؤوا معجمًا ذهنيًا مشـتركًا لكلّ اللغات المنطوقة، سـواء منهـا الميّتـة أو الحيّة. وقد أعطينـا من هذا المعجم مثالا خاصًّا فـي الطبعة الأولى *للعِلم الجديد*، حيث أقمنا الدليل على أنّه في عدد كبير من اللغات الميّتة أُعطِيت أسماء

---

(١) أي «الرسم القديم لمؤسّسي المدن»، سبق ذكره في § ١٧.

آباء الأُسَر الأوائل بالاعتماد على الميزات أو الخاصيّات التي كانت لهم في عهد الأُسَر، وفي الجمهوريّات الأولى المعاصرة للأزمنة التي تشكّلت فيها اللغات. وهذا المعجم هو الذي نستعمله هنا، بالقدر الذي تسمح لنا به معرفتنا المتواضعة، للإشارة إلى الأشياء التي نتحدّث عنها.

[§ ١٦٣] من القضايا المذكورة سابقًا، تمدّنا الأولى والثانية والثالثة والرابعة بالأسس لتفنيد كلّ الآراء الموروثة إلى حدّ الآن بخصوص بدايات البشريّة، وهو تفنيد يُظهر لامعقوليّة هذه الآراء وتناقضاتها وبعدها عن الواقع. والقضايا التي تتبع من ٥ إلى ١٥ تمدّنا بأسس الحقيقة وتصلح لنا رؤية عالم الأمم في فكرته الأبديّة أو في نموذجه، بمقتضى خاصيّة أنّ كلّ علم حسب قول أرسطو يجب أن يتناول ما هو شامل ودائم (*Scientia debet esse di Universalibus, et Aeternis*). والقضايا الأخيرة، من ١٦ إلى ٢٢، تمدّنا بأسس ما هو ثابت، وهي التي تمكّننا من التعرّف، بالاعتماد على الوقائع، على عالم الأمم كما حدّدناه فكريًا، حسب المنهج الفلسفي لفرانسيس بيكون[1]، أي بالانطلاق من الأشياء الطبيعيّة التي درسها في كتابه «أفكار ورؤى» (*Cogitata et Visa*)، وبتطبيق منهجه على الأشياء الإنسانيّة والمدنيّة.

[§ ١٦٤] والقضايا التي عرضناها إلى حدّ الآن هي عامّة، وتؤسّس لهذا *العِلم* في شموليّته، بينما القضايا اللاحقة فهي خصوصيّة وتؤسّس لهذا *العِلم* في تفاصيله بخصوص مختلف الموادّ التي ينكبّ عليها بالدرس.

٢٣

[§ ١٦٥] إنّ التاريخ المقدّس أقدم من كلّ التواريخ الوثنيّة التي وصلت إلينا، إذ أنّه يصف بتفصيل كبير وعلى مدى ٨٠٠ سنة حالة الطبيعة *stato di natura*[2] في عهد

(١) فرانسيس بيكون [١٥٦١-١٦٢٦] فيلسوف إنكليزي، رجل دولة وكاتب من روّاد الفلسفة الجديدة القائمة على الملاحظة والتجريب. العنوان اللاتيني الكامل للعمل المذكور هو *Cogitata et visa de interpretatione naturae* (١٦٠٧-١٦٠٩).

(٢) حالة الطبيعة: مفهوم يستخدم في الفلسفة الاخلاقية والسياسية، ونظريات العقد الاجتماعي، والقانون الدولي للدلالة علي الظروف الافتراضية لما كانت عليه حياه الناس قبل أن توجد المجتمعات.

الآبـاء[1] (*patriarchi*)، أي عهـد الأُسَـر الذي يتّفق جميع المنظّرين السياسـيّين على أنّه العهـد الـذي نشـأت منـه الشـعوب والمدن. وبخصـوص هذا العهـد لم يقـصّ علينا منه التاريخ الوثني إلّا القليل جدّاً وبصفة غامضة.

[§ ١٦٦] تبرهن هذه المسـلّمة على صحّة التاريخ المقدّس ويُطيح بغرور الأمم التي حدّثنا عنها ديودورس الصقلّي، لأنّ العبرانيّين حافظوا تمامًا على ذاكرتهم منذ بدء العالم.

٢٤

[§ ١٦٧] تأسّسـت الديانـة اليهوديّة من طـرف الربّ الحقّ على تحريـم العرافة التي قامت عليها جميع الأمم الوثنيّة.

[§ ١٦٨] تمثّل هذه المسلّمة أحد الأسباب الرئيسيّة الذي يجعل عالم الأمم القديمة جميعه ينقسم إلى عبرانيّين ووثنيّين.

٢٥

[§ ١٦٩] بخصـوص حـدوث الطوفـان لـن نعتمـد علـى الحجـج الفقهيّـة لمارتيـن سكوكيوس[2]، التي تبدو لنا على غاية من الهشاشة، ولا على الحجج الفلكيّة للكردينال بطرس الآيي[3] ولجيوفاني بيكو ديلا ميراندولا[4]، إذ أنّها لا تبدو لنا غير مؤكّدة فحسب بـل مغلوطـة لأنّهـا تعتمـد علـى *التقويمـات الألفونسـيّة*[5] التـي كان قد دحضهـا اليهود والمسـيحيّون الآن أيضًا، الذين بعد أن رفضوا تقويم يوسـابيوس[6] وبيدا[7]، اتبعوا اليوم

(١) الآبـاء هنـا المراد بهـم الأعلام التوراتية التي ينظر لهم كآباً للأعراق البشـرية مثـل إبراهيم ويعقوب عليهما السلام.

(٢) Martino Scoockio في النصّ الإيطالي، انظر § ٥٠.

(٣) Piero Cardinale d'Allia بالفرنسيّة Pierre d'Ailly [١٣٥٠-١٤٢٠]، لاهوتي وكاردينال فرنسـي مؤلّف كتاب *صورة العالم*.

(٤) هو Giovanni Pico della Mirandola [١٤٦٣ -١٤٩٤] فيلسوف ولاهوتي إيطالي.

(٥) تقويمات فلكيّة وضعها ألفونس الثالث عشر (١٢٢١-١٢٨٤).

(٦) يوسـابيوس القيصري [٢٦٥-٣٣٩] أسـقف القيصريّة في ٣١٤. يُعتبر «أب التاريخ الكنسـي» لأنّه سـجّل مبكّرًا تاريخ الكنيسة.

(٧) اسـمه اللاتينـي Beda Venerabilis (بيـدا الجليـل) ٦٧٢/ ٦٧٣-٧٣٥]، راهـب وأديب إنجليـزي، مؤرّخ ومترجم *الكتاب المقدّس*.

تقويم فيلو اليهودي[1]. ولكننا سنبرهن على حدوث الطوفان من خلال أخبار ماديّة موجودة في الأساطير، كما سنرى ذلك في المسلّمات التالية.

٢٦

[§ ١٧٠] كان *الجبابرة* أناسًا عظيمي القامة، مثلما يقصّ علينا الرحّالة أنّهم رؤوا أمثالهم في جهات بتاغونيا بأمريكا الجنوبيّة، ووجدوهم قبيحي المظهر شرسي الطبع. لنترك جانبًا التفسيرات السخيفة، في غير محلّها والخاطئة التي جاء بها الفلاسفة والمجمّعة في كتاب شسّانيون[2] «حول العمالقة»، [*de Gigantibus*]، ولنعتمد على الدلائل الماديّة والمعنويّة التي أمدّنا بها كلّ من يوليوس قيصر وكورنيليوس تاسيتوس اللذان ذكرا القامة العملاقة للجرمانيّين القدامى. فيما يخصّنا نعزو وجود الجبابرة إلى التربية الشرسة والعنيفة التي كان يتلقّاها الأطفال.

٢٧

[§ ١٧١] إنّ التاريخ الإغريقي، ومعه التاريخ الروماني، هما الوحيدان اللذان يمدّاننا بكلّ ما نعرف عن الأزمنة الوثنيّة القديمة، التي تبدأ بالطوفان وبالجبابرة.

[§ ١٧٢] يظهر من هذين المبدأين أنّ الجنس البشري في بدايته كان مقسّمًا إلى نوعين: الأوّل يتكوّن من الجبابرة، والثاني من أناس لهم قامة عادية. والنوع الأوّل هو صنف الوثنيّين والنوع الثاني هم اليهود. وهذا الفارق بينهما لا يمكن تفسيره إلّا باختلاف التربية لدى الأطفال، فظّة وهمجيّة لدى الأوّلين، إنسانيّة ووديعة لدى الثانين. وعليه يحقّ القول إنّ اليهود لهم أصل مختلف عن أصل جميع الوثنيّين.

٢٨

[§ ١٧٣] نحتفظ بأثرين كبيرين بقيا لنا من مصر القديمة، مثلما سبق أن رأينا. في أحدهما نرى أنّ المصريّين كانوا يقسّمون كلّ الزمن الذي سبقهم إلى ثلاثة عصور:

---

(١) فيلو الإسكندري [٢٠ ق.م. - ٥٠ ميلادي]. عُرف بفيلو اليهودي. فيلسوف هلّيني عاش بالإسكندرية زمن أن كانت مصر مقاطعة رومانيّة. (سبق ذكره في § ٥٤)

(٢) في النصّ الإيطالي Cassanione وبالفرنسيّة Jean Chassagnon [١٥٣١-١٥٩٨]، كاتب من أتباع الكالفينيّة ومؤرّخ. يعود تأليف كتاب *De gigantibus* إلى سنة ١٥٨٠.

عصر الآلهة، وعصر الأبطال، وعصر البشر. وفي الأثر الآخر نرى أنّ هذه العصور الثلاثة توافقها ثلاث لغات: اللغة الهيروغليفيّة، أي المقدّسة، واللغة الرمزيّة أي لغة الأبطال، واللغة الرسائليّة أو العاميّة، التي تستعمل علامات اصطلاحيّة للتواصل بخصوص مختلف حاجيات العيش.

٢٩

[§ ١٧٤] يذكر هوميروس في خمسة مواضع من ملحمتيْه أنّه توجد لغة أقدَم من تلك التي استعملَها والتي هي دون شكّ اللغة البطوليّة، ويسمّيها «*لغة الآلهة*».

٣٠

[§ ١٧٥] جمّع فارّو ثلاثين ألف اسم آلهة، ومثل هذا العدد الكبير ذكره الإغريق. هذه الأسماء توافق الحاجيات الحياتيّة الطبيعيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة وأخيرًا المدنيّة لتلك الأزمنة الأولى.

[§ ١٧٦] هذه المسلّمات الثلاث تبيّن أنّ عالم الشعوب بدأ بالأديان، وسيكون هذا المبدأ هو الأوّل من بين المبادئ الثلاثة التي يتأسّس عليها هذا *العِلم*.

٣١

[§ ١٧٧] حين تُغرِق الحربُ الشعوبَ في الهمجيّة والوحشيّة، بحيث لا تنفع فيهم القوانين الإنسانيّة، فإنّ الوسيلة الوحيدة الجبّارة لإخضاعهم هو *الدين*.

[§ ١٧٨] تبيّن هذه المسلّمة كيف أنّه في عهد البربريّة الخالية من القوانين بادرت العناية الإلهية بجعل المتهمّجين والعنيفين يتوجّهون نحو الإنسانيّة، ونحو تأسيس أممهم حسب قانونها، موقظة فيهم حسًّا غامضًا بالألوهيّة، وبجهلهم وجّهوه نحو وجهة خاطئة. وهكذا، بسبب الارتياع الذي أحدثته فيهم الآلهة التي كانوا يتصوّرونها، شرعوا في إرساء نوع من النظام.

[§ ١٧٩] لم يعرف طوماس هوبس[1] كيف ينظر إلى هذه البدايات البربريّة والوحشيّة، وتاه في أبحاثه عن هذه البدايات مستسلمًا مثل صاحبه أبيقور إلى مبدأ *الصدفة*، ما أدّى به إلى نتيجة مزرية، إذ تصوّر أنّه بإمكانه إثراء الفلسفة اليونانيّة بهذه الخاصيّة، التي يرفضها جورج باسك[2] في كتابه *De Eruditis hujus saeculi Inventis* «*اكتشافات العالم الحديث المتعلم*»، وهي دراسة الإنسان في علاقاته بمجتمع الجنس البشري ككلّ. لن يفكّر هوبس مثل هذا التفكير لو أنّه وضع أمام عينيْه مُثل الديانة المسيحيّة القائمة على عدالة ورحمة الجنس البشري كلّه. قد قال بوليبيوس[3] «*لو كان هناك فلاسفة في العالم لما كانت هناك حاجة إلى الأديان*». ولكنّنا نقول بأكثر صوابًا إنّه من دون الدين لن تكون هناك دولة ولا حضارة، بل لن يكون هناك فلاسفة.

٣٢

[§ ١٨٠] عندما يجهل الإنسان الأسباب الطبيعيّة التي تحرّك الأشياء، ولا يقدر حتّى على مقارنتها بأشياء شبيهة بها يعرف مسبّباتها، فإنّه يسند للأشياء طبيعته هو، مثل أن يقول *العامّي* إن المغناطيس مُغرم بالحديد.

[§ ١٨١] هذه المسلّمة ليست إلّا جزءًا من المسلّمة الأولى[4]، الذي يقول إنّ العقل الإنساني، لطبيعته غير المحدّدة، في كلّ مرّة يجد نفسه جاهلا بالأمور، فإنّه يجعل من ذاته مقياسًا للكون بخصوص كلّ ما يجهله.

٣٣

[§ ١٨٢] إنّ فيزياء الجهلة ليست إلّا ميتافيزيقيّة عاميّة، ينسبون بواسطتها إلى الإرادة الإلهية علّة الأشياء التي لا يعرفونها، دون اعتبار الوسائل التي تستخدمها العناية الإلهية.

---

(١) اسمه الأصلي Thomas Hobbes [١٥٨٨-١٦٧٩] فيلسوف وعالم رياضيّات إنكليزي.

(٢) هو Georg Pasch [١٦٦١-١٧٠٧] فيلسوف ألماني ويعود كتابه المذكور إلى سنة ١٧٠٠.

(٣) بوليبيوس [حوالي ٢٠٠ ق.م - حوالي ١٢٠ ق.م] مؤرّخ وسياسي يوناني، يُعتبر من أكبر مؤرّخي اليونان في عصره وهو صاحب كتاب «التاريخ العامّ للجمهوريّة الرومانية» وهو من أهمّ المراجع الخاصّة بدراسة الحروب البونيقيّة.

(٤) انظر § ١٢٠.

٣٤

[§ ١٨٣] يشير تاسيتوس إلى خاصيّة تتميّز بها الطبيعة الإنسانية عندما يقول إنّه حين تفزع العقول فإنّها تلوذ بالمعتقدات الخرافيّة [*mobiles ad superstitionem perclusae semel mentes*]، أي أنّ البشر عندما يباغتهم شؤم مروّع، فإنّهم ينسبون إليه علّة كلّ ما يتخيّلونه أو يرونه أو حتّى يفعلونه.

٣٥

[§ ١٨٤] التعجّب وليد الجهل، ويتعاظم بمقدار تعاظم الشيء الذي أحدثه.

٣٦

[§ ١٨٥] بقدر ما يكون إعمال الفكر ضعيفًا يكون الخيال قويًّا.

٣٧

[§ ١٨٦] إنّ أروع ما يفعله الشعر هو أنّه يُعطي للأشياء الجامدة مشاعر وعواطف، ومن خاصيّة الأطفال أنّهم يأخذون شيئًا جامدًا ويلعبون به ويتحدّثون إليه كما لو كان كائنًا حيًّا.

[§ ١٨٧] هذه المسلّمة الفقهيّة الفلسفيّة تعلّمنا أنّه في العالم وهو طفل، كان البشر بطبعهم شعراء رائعين.

٣٨

[§ ١٨٨] لدينا فقرة مهمة كتبها فيرميانوس لاكتانتيوس[١] بخصوص بدايات عبادة الأوثان تقول: «*في البداية سمّى البشر الأفظاظ آلهةً إمّا ما يبدو لهم أنّه يمثّل صفةً معجِزة*

---

(١) اسمه الكامل لوسيوس كايسيليوس فيرميانوس لاكتانتيوس، وُلد بشمال إفريقيا (الجزائر) سنة ٢٥٠ م وتوفي سنة ٣٢٥. مؤرّخ وكاتب روماني، لُقّب بشيشرون المسيحي لفصاحة نثره.

(معجزة يؤمنون حقًّا بها لأنّهم كانوا أفظاظا ساذجين)، أو مثلما يقع أحيانًا، أولئك الذين يُعجبون بسلطتهم الحاضرة، أو أولئك الذين جلبتهم أفعالهم الخيّرة نحو الإنسانيّة»[1]

٣٩

[§ ١٨٩] إنّ حبّ الاطّلاع أو الفضول خاصيّة تتميّز بها طبيعة البشر. وهو وليد الجهل ومولّد العلم حين يفتح له الاستغرابُ أبواب الفكر. والعادة أنّه ما أن يقع حدث خارق مثل شهب سيّار أو شمس كاذبة[2] أو نجمة في وضح النهار فإنّه يتساءل على الفور عن المعنى الذي تكتسيه تلك الظاهرة.

٤٠

[§ ١٩٠] لطالما عُرفت الساحرات بالشرّ والضراوة، ذلك أنّهن لتكريس أسرار سحرهنّ لا يتورّعن عن القيام بشتّى الفظائع وحتّى عن ذبح الأطفال الأبرياء.

[§ ١٩١] كلّ هذه المسلّمات من ٢٨ إلى ٣٨ تكشف لنا *مبادئ الشعر الإلهي*، أو *اللاهوتية الشعريّة*، وبداية من المسلّمة ٣١ نجد *مبادئ عبادة الأوثان*، وال ٣٩ تمدّنا *بمبادئ العرافة*، وأخيرا تعطينا المسلّمة ٣٩ *مبادئ الذبائح القربانيّة*، التي كانت تمارسها الديانات الدمويّة. هذه الديانات بدأت لدى بشرٍ قساة ووحشيّين من خلال *نذور وقرابين* بشريّة. ويقول لنا بلاوتوس[3] إنّ اللاتينيّين سَمّوا دائمًا مثل هذه الذبائح القربانيّة *Saturni*

---

(١) ورد باللغة اللاتينيّة في النصّ الأصلي. من كتاب *Divinae Institutiones*, I, 15:

Rudes initio homines Deos appellarunt sive ob miraculum virtutis (hoc vero putabant rudes adhuc, et semplices) ; sive , ut fieri solet, in admirationem praesentis potentiae ; sive ob beneficia, quibus erant ad humanitatem compositi.

(٢) Parelio أو شمس كاذبة: هي ظاهرة بصرية متعلقة بالغلاف الجوي تتمثل في ظهور لشموس زائفة. تحدث هذه الظاهرة عندما تنعكس أشعة الشمس على البلورات الثلجية المُحمَّلة في السحاب. تسمى بالإنجليزية Parhelion أو sundog.

(٣) اسمه الكامل تيتوس ماسيوس بلاوتوس [حوالي ٢٥٤ ق.م. - ١٨٤ ق.م] كاتب مسرحي روماني من الحقبة اللاتينية القديمة. أعماله هي أقدم الأعمال في الأدب اللاتيني التي وصلت إلينا كاملة.

hostiae [ضحايا ساتورن]، وكان الفينيقيّون يتقرّبون إلى الإله مولوخ[1] بأن يمرّروا عبر اللهب أبناءهم الذين نذروهم إلى ذلك الإله الكاذب، ونجد أثرًا من هذه الطقوس القربانيّة في شريعة *الألواح الاثنتي عشرة*. كلّ هذا يفسّر لنا الحكمة التالية وهي «أنّ الخوف هو الذي خلق الآلهات الأولى في العالم»[2]، أي أنّ الديانات الباطلة لم تنشأ من خدعة البعض بل من سذاجة المرء. والنذر المحزن الذي نذره أغاممنون والتضحية التي قام بها على حساب البريئة والتقيّة إفيجينيا، تضحية هتف لها لوكراس بكفر: *Tantum Relligio potuit suadere malorum!*، بمعنى أنّ مثل هذه الوسائل ضروريّة للعناية الإلهية؛ لتليين طبع أبناء بوليفيموس[3] [الجبابرة]، وجعلهم يدخلون في الإنسانيّة التي جاء بها عظماء الرجال أمثال أريستيدس[4] وسقراط وليليوس[5] وشبيون الإفريقي[6].

٤١

[§ ١٩٢] من الظنّ، والظنّ مقبول، أنّ الأرض التي ولجتها رطوبة الطوفان لم تَقدِر طيلة قرون على إنتاج أبخرة جافّة كافية لكي تنتج الصواعق.

٤٢

[§ ١٩٣] جوبيتر يصعق ويدكّ الجبابرة، وكان لكلّ أمّة جوبيتر خاصّ بها.

---

(١) مولوخ هو إله كنعاني قديم جاء ذكره في «الكتاب العبري»، وهو إله الفينيقيّين. إله ذو نزعة شرّيرة لا يرضيه غير قرابين الأطفال التي كان الفينيقيّون يقدّمونها له لإرضائه.

(٢) ورد باللاتينية: *Primos in orbe deos fecit timor ;*

(٣) بوليفيموس ابن الإله بوسيدون وأشهر الكائنات السيكلوبيّة ذات العين الواحدة. كان يعيش في كهف في جنوب غرب صقليّة ويلتهم البشر ولا يحترم أيّ قانون إلهي أو بشري. ويُشار هنا بأبناء بوليفيموس إلى البشر قبل أن يتمدّنوا.

(٤) أريستيدس الأثيني والقدّيس [توفي حوالي ١٣٤ م] فيلسوف أثيني من القرن الثاني ميلادي وأوّل من دافع بالقلم عن الديانة المسيحيّة في أوائل القرن الثاني للميلاد.

(٥) اسمه الكامل كايوس ليليوس سابيانس، ولد حوالي ١٩٠ ق.م. رجل دولة روماني وقنصل (سنة ١٤٠ ق.م) لُقّب بـ sapiens أي الحكيم.

(٦) اسمه الكامل بوبليوس كورنيليوس شيبيو أفريكانوس [٢٣٥/ ٢٣٦ - ١٨٣ ق.م] رجل دولة وقائد روماني. اشتهر بحملاته الظافرة ضدّ القرطاجنيّين بإسبانيا وبإفريقيا حيث هزم حنّبعل وحسم بذلك الحرب البونيقيّة الثانية، لذا لُقّب بالإفريقي.

[§ ١٩٤] تحتوي هذه المسلّمة على التاريخ المادي الذي حفظته لنا الأساطير، من كون الطوفان عامَ على كلّ الأرض.

[§ ١٩٥] هذه المسلَّمة نفسها مع التي سبقتها تبيّن لنا كيف أنّه طيلة عدد كبير من السنوات سقطت سلالة أبناء نوح الثلاثة الكافرة في الهمجيّة، وانتشرت على الأرض تائهة دونما نظام ودون هدف معيّن في أدغالها الكثيفة. وهذا الحكم يقيم الدليل على أنّ التربية المتوحّشة التي عاشوا بها خلقت من هذه السلالة الجبابرة، إلى أن فاجأتهم أوّل صاعقة نزلت عليهم من السماء بعد الطوفان.

٤٣

[§ ١٩٦] كان لكلّ أمّة وثنيّة هرقلها، ابن جوبيتر، وقد عدّ منهم فارّو على الأقلّ أربعين هرقلاً.

[§ ١٩٧] تشير هذه المسلّمة إلى أنّ نشأة البطولة لدى الشعوب الأولى، جاءت من الفكرة الخاطئة بأنّ الأبطال ينحدرون من الآلهة.

[§ ١٩٨] هذه المسلّمة نفسها، مع التي سبقتها تمدّنا أوّلا بعدد كبير من آلهات جوبيتر وبعد ذلك بعدد كبير من الهراقلة لدى الأمم الوثنيّة، وتقيم الدليل في الآن نفسه على أنّ هذه الأمم لم يكن لها أن تتشكّل من دون دين ولا أن تتطوّر من دون فضائل، إذ كانت في بداياتها همجيّة ومنعزلة، بل كانت لا تعرف إحداها الأخرى، حسب المسلّمة التي تقول إنّ الأفكار المتماثلة التي تنشأ لدى شعوب بأكملها يجهل أحدها وجود الآخر، لا بدّ أن يكون لها أساس مشترك من الصحّة[1]. هذه المسلّمات تعلّمنا أيضًا هذه الحقيقة الكبرى: أنّ الأساطير الأولى لا بدّ أنّها تحتوي على حقائق مدنيّة، وعلى تاريخ الشعوب الأولى بناء على ذلك.

٤٤

[§ ١٩٩] كان علماء الإغريق الأوائل هم الشعراء اللاهوتيون، الذين سبقوا دون شكّ الشعراء البطوليّين، بالطريقة نفسها التي كان بها جوبيتر أبًا لهرقل.

---

(١) انظر § ١٤٤.

[§ ٢٠٠] هـذه المسـلّمة مع سـابقتيْها، حيـث رأينـا أنّ كلّ أمّة وثنيّـة كان لها جوبيتر خـاصّ بهـا وكان لها هرقلها الخاصّ بها، تقيـم الدليل أيضًا على أنّ هذه الأمم كانت في بداياتها شعريّة، ونشأ بها أوّلا الشعر الإلهي، وبعد ذلك نشأ الشعر البطولي.

٤٥

[§ ٢٠١] يعمـل البشـر دائمًا علـى الحفاظ على ذاكـرة النظام والشـرائع التي تصلح لدوام مجتمعهم.

٤٦

[§ ٢٠٢] جميع التواريخ البربريّة كانت لها بدايات خرافيّة.

[§ ٢٠٣] كلّ المسلّمات انطلاقًا من ٤٢ تمدّنا ببداية ميثولوجيّتنا التاريخيّة.

٤٧

[§ ٢٠٤] الفكر الإنساني ميّال بطبعه إلى ما هو متماثل.

[§ ٢٠٥] هذه المسـلّمة التي نسـوقها هنا بخصوص الأسـاطير تجد ما يثبتها في عادة مشتركة لدى العامّة حين يرون شخصيّات معروفة في هذا المجال أو ذاك وموضوعة في ذلك الظرف أو ذاك، يختلقون لها خرافات تتماشى مع ما يريدونه في ذلك الوضع بالذات. هذه الخرافات هي حقائق مثاليّة [*verità d'idea*]، تتماشـى مع خصال الشخصيّات التي مـن أجلهـا ابتدعها العامّة لهم. ولكنّها غالبًا ما تكون كاذبة في الواقع؛ لأنّ الأناس ليسـوا دائمًـا متماثليـن مـع أنفسـهم. وإذا فكّرنا لحظة فيمـا قلناه لتوّنـا، فإنّنا سـنرى أنّ الحقيقة الشـعريّة ليست إلّا حقيقة ميتافيزيقيّة، تخضع لها الحقيقة الماديّة، بحيث أنّ هذه الأخيرة تكـون كاذبـة إذا لـم تتوافـق مع الأولى. ونسـتمدّ مـن هذا رأيًا مهمًّـا في النظريّة الشـعريّة نوضّحـه أكثـر من خلال هذا المثال: القائد الحقيقي هو «غودفروا» الذي تخيّله توركواتو تاسّو[1]، وجميع القادة الذين لا يتماثلون مع غودفروا ليسوا قادة حقيقيّين.

---

(١) توركواتـو تاسّـو [١٥٤٤-١٥٩٥] شـاعر إيطالـي من أشـهر أعماله ملحمـة «تحرير أورشـليم» يصف فيها المواجهات بين المسلمين والنصارى في ختام الحملة الصليبيّة الأولى أثناء حصار القدس.

٤٨

[§ ٢٠٦] مـن طبيعـة الأطفال حين يعرفون للمرّة الأولى الأفكار والأسـماء للرجال والنسـاء والأشـياء، أن يسـتعملوا بعد ذلك نفس الأفكار ونفس الأسماء للرجال والنساء والأشياء التي لها شبه أو علاقة بتلك التي عرفوها من قبل.

٤٩

[§ ٢٠٧] توجـد فقـرة ليامبليخـوس[1] فـي كتـاب «أسـرار مصـر» [*Mysteriis Aegyptiorum*] كنّـا قـد أشـرنا إليها سـابقًا[2]، نعتبرها مهمـة، لأنّها تقـول إنّ المصريّين ينسبون لإلههم هرمس الهرامسة فضل معرفة كلّ المكتشفات النافعة أو الضروريّة للحياة البشريّة.

[§ ٢٠٨] هـذا القـول، المدعـوم بالمسـلّمة التي سـبقته، يُرجـع إلى هذا الفيلسـوف العظيم [يامبليخوس] كلّ معاني اللاهوتيّة السامية التي نسبها إلى أسرار المصريّين.

[§ ٢٠٩] هـذه المسـلّمات الثـلاث الأخيرة تمدّنا بأصل الشـخصيّات الشـعريّة التي تكـوّن جوهـر الأسـاطير. والأولـى تظهـر لنـا أنّ للعامّـة ميـلاً طبيعيًـا لخلق الأسـاطير، ولابتداعها بالطريقة التي تناسبها. أمّا الثانية فهي تبيّن لنا كيف أنّ الأناس الأوائل، أطفال الجنـس البشـري، في عجزهـم عن تجريد الجنس المعقلن للأشـياء، لجـؤوا طبيعيًّا إلى خلـق نمـاذج شـعريّة، أي أجنـاسٍ أو كليّات عجائبيّـة، اتّخذوها أنماطًا، أو صـورًا مثاليّة يُرجِعون إليها كلّ الأنواع المختلفة الخاصّة بكلّ جنس من الأجناس. لذا فإنّ الأسـاطير القديمـة تكـون استنتاجات صارمة. وهكذا نـرى أنّ المصريّين يُرجِعـون كلّ مبتدعاتهم النافعة للحياة البشـريّة، والتي ليسـت في الواقع إلّا نتاجًا خصوصيًّا للمعرفة المدنيّة، إلى جنس أو نمط من عالم مدني يمثّله عندهم إلههم هرمس الهرامسـة؛ لأنّهم بالفعل ليسـوا قادريـن علـى تجريد جنـس معقلن للعالـم المدني، وأكثـر منه على تجريد شـكل للعلم المدنـيّ مـع أنّهم حظوا به على نطاق واسـع. لهذا السـبب فإنّ المصريّين مـع أنّهم أَثْرَوا

---

(١) فيلسوف من أصل عربي عاش بين ٢٠٥ و٣٣٠ م. كان من روّاد الأفلاطونية المحدثة.

(٢) انظر § ٦٨.

العالـم باختراعاتهـم النافعـة أو الضروريّـة للجنس البشـري، لـم يكونوا فلاسـفة بالقدر الكافي، وكانوا لا يدركون الكليّات، أو الأجناس القابلة للإدراك.

[§ ٢١٠] هـذه المسـلّمة الأخيـرة تمدّنـا بأصـل المرمـوزات الشـعريّة الحقيقيّة التي تعطي للأسـاطير دلالاتها الوحيدة المعنى، وأصل الأشـياء المختلفـة التي تنطوي عليها الأجناس الشعريّة. لذا سُمّيت هذه المرموزات طريقة مختلفة في القول *diversiloquia*[1]، أي تعابير تتضمّن متصَوّرا شاملا لأنواعٍ مختلفة من البشر أو الوقائع أو الأشياء.

٥٠

[§ ٢١١] الذاكـرة لـدى الأطفـال قويّة جـدّاً وخيالهـم متوقّد، إذ أنّ الخيـال ليس إلّا ذاكرة ممتدّة، متوسّعة ومتناسقة.

[§ ٢١٢] تبيّن هذه المسـلّمة مبدأ بداهة الصور الشـعريّة التي كان على العالَم الأوّل وهو لا يزال طفلا أن يشكّلها.

٥١

[§ ٢١٣] فـي كلّ علـم من العلوم نرى أحيانًا أنّ الفنّ يعوّض الطبيعة، وأنّ أشـخاصًا لـم تمنحهم الطبيعة شيئًا من العبقريّة يتمكّنون من الاستغناء عن هذا الدعم القويّ بفضل العمل الدؤوب والمتواصل. إلّا أنّ هذا لا ينطبق على الشعر لأنّ الفنّ وحده دون موهبة طبيعيّة لا يكفي لخلق قصيدة.

[§ ٢١٤] تُبرز لنا هذه المسـلّمة أنّ الشـعراء الأوائل كانوا بطبيعتهم شـعراء. وبما أنّ الشعر أسّس الحضارة الوثنيّة فإنّه من الشعر أيضًا نشأت كلّ الفنون.

٥٢

[§ ٢١٥] عـادة مـا يكون الأطفـال ماهرين جدّاً في محاكاة ما يشـاهدونه، إذ غالبًا ما نراهم يقلّدون ما يلفت انتباههم وما يتمكّنون من تعلُّمه.

---

(١) Diversiloquiaوهي جمع لكلمتيْ diversi(مختلف) وloquia (قول) أي قول أو أقوال مختلفة.

[§ ٢١٦] تبيّن هذه المسلّمة أنّ العالم وهو لا يزال طفلاً عَمَرته الأمم الشعريّة، لأنّ الشعر ليس إلّا محاكاة.

[§ ٢١٧] كما تُعلّمنا هذه المسلّمة أنّ كلّ الفنون المتعلّقة بما هو ضروريّ ونافع ومريح، وكذلك أغلب فنون الإمتاع، وَقَعَ ابتداعُها أثناء القرون الشعريّة، وقبل مجيء الفلاسفة؛ لأنّ الفنون ليست إلّا محاكاة للطبيعة، وأشعارًا بطريقة ما واقعيّة.

٥٣

[§ ٢١٨] البشر يُحسّون في البداية الأشياء دون إدراك بانطباعاتهم، ثمّ سرعان ما تثير فيهم الاستغراب، فيتساءلون عنها بارتباك وتأثّر، وأخيرًا يفكّرون فيها برويّة ورصانة.

[§ ٢١٩] هذه المسلّمة تمثّل مبدأ الأقوال الشعريّة التي تتكوّن جميعها من معاني الأهواء والعاطفة، بعكس الأقوال الفلسفيّة التي تتشكّل من خلال التأمّل والتفكير العقلاني. وهذه الأخيرة تكون أقرب إلى الحقيقة بقدر ما تسمو إلى الكليّات؛ أمّا الأولى فتكون أكثر تأكيدًا كلّما تعلّقت بما هو خصوصي.

٥٤

[§ ٢٢٠] يفسّر البشر الأشياء التي هي محلّ شكّ أوغامضة بحسب طبيعتهم، وبحسب الأهواء والعادات التي تنتج عنها.

[§ ٢٢١] تمثّل هذا المسلّمة قاعدة مهمة لميثوليجيّتنا. فهي تبيّن لنا كيف أنّ الأساطير التي أنشأها البشر الأوائل المتوحّشون والقساة كانت كلّها صارمة، كما ينبغي أن تكون لتقوم عليها الأمم التي كانت إلى ذلك الحين غائصة في همجيّتها المتوحّشة. بعد ذلك وإثر مرور سنين طويلة صارت العادات، حتّى قبل زمن هوميروس، منحلّة وفاسدة، فتغيّرت الأساطير بدورها وصارت متحلّلة وغامضة. كان الإغريق متشبّثين كثيرًا بدياناتهم وكانوا يخشون ألاّ تتوافق الآلهة مع نذورهم إذا ما كانت عاداتهم غير متوافقة مع عادات الآلهة، وهكذا نسبوا إلى الآلهة عاداتهم وأعطوا للأساطير معاني بذيئة رديئة وفاحشة.

٥٥

[§ ٢٢٢] هناك فقرة ليوسابيوس[١] حول عِلم المصريّين تبدو لنا عظيمة الأهميّة، خاصّة إذا عمّمناها على علوم جميع الوثنيّين، وهي التي تقول «*إنّ لاهوتيّة المصريّين الأولى لم تكن سوى تاريخًا شوّهته الأساطير، التي خجلت منها الأجيال اللاحقة، فنسبت لها تدريجيًّا تفسيرات روحانيّة*»[٢]، وهذا ما فعله مانيثون، كبير الكهنة المصريّ، الذي حوّل كلّ التاريخ المصريّ إلى لاهوتيّة طبيعيّة رائعة، مثلما سبق أن رأينا ذلك[٣].

[§ ٢٢٣] هاتان المسلّمتان هما بمثابة شهادتيْن عظيمتيْن على ميثوليجيّتنا التاريخيّة، وهما مثل إعصاريْن عظيميْن اقتلعا وأطاحا بالاعتقاد في عِلم القدامى الخارق. ونحن نعتبرهما أساسيْن كبيريْن تقوم عليهما حقيقة الديانة المسيحيّة؛ ذلك لأنّ التاريخ المقدّس هو الوحيد الذي لا توجد فيه قَصص تحمرّ لها الوجوه.

٥٦

[§ ٢٢٤] كان الشعراء أوّل المؤلّفين الذين نجدهم عند المشارقة والمصريّين واليونانيّين واللاتينيّين، وكانوا الكتّاب الأوائل باللغات الأوروبيّة الجديدة، بعد عودة البربريّة [القرون الوسطى].

٥٧

[§ ٢٢٥] للتعبير عن مرادهم يستعمل البكم الإشارات، أو يشيرون إلى الأشياء التي لها علاقة طبيعيّة بالأفكار التي يريدون التعبير عنها.

[§ ٢٢٦] تمدّنا هذه المسلّمة بأصل الكتابة الهيروغليفيّة التي بدأت تتواصل بواسطتها كلّ الشعوب البدائيّة في العصور البربريّة الأولى.

---

(١) يوسابيوس القيصري [٢٦٥-٣٣٩ م]، أسقف القيصريّة في ٣١٤. (سبق ذكره في § ١٦٩).

(٢) ورد باللاتينيّة في النصّ الأصلي: *Primam Aegyptiorum mere historiam fuisse fabulis interpolatam ; quarum quum postea puderet posteros, sensim coeperunt mysticos iis significatus affingere*

(٣) انظر § ٤٦.

[§ ٢٢٧] وتمدّنـا هذه المسـلّمة أيضًا بأصل اللغـة الطبيعيّة التي افترض أفلاطون في كتابه *كراتيل*، ومن بعده يامبليخوس في *أسرار المصريّين*، أنّها اللغة التي تكلّم بها قديمًا البشـر. ويشـاطرهما الـرأي الرواقيّـون وأوريجانـوس[١]، فـي «الـردّ علـى سيلسـوس» [*ContraCelsum*][٢]. إلاّ أنّ هـؤلاء الفلاسـفة الكبـار خمّنـوا ذلـك دون البرهنة عليه لا بواسـطة التحليـل المنطقي ولا بالاعتماد على سـلطة علميّة ما؛ ولهذا السـبب عارضهم أرسـطو فـي *بيريهرمينيـا* وجالينـوس[٣] فـي *Decretis Hippocratis, et Platois*، وهـو نقاش رواه لنا بوبليوس نيجيديوس[٤] ونجده عند آولوس جيليوس[٥]. وقد عوّضت هذه اللغـة الطبيعيّـة بالخطاب الشـعريّ، أي الخطاب المتكوّن من صور ومن تشـبيهات، من مقارنات ومن خاصيّات طبيعيّة.

٥٨

[§ ٢٢٨] يصـدر البكـم أصواتًـا مبهمة كأنّها نشـيد. والمتأتئون يسـتعملون الإنشـاد كوسيلة لتدريب اللسان على النطق.

٥٩

[§ ٢٢٩] إنّ التعبيـر عـن العواطـف القويّـة يتمّ عبر الإنشـاد، كما نـرى ذلك عند من يكون فريسة لليأس أو للحبور.

---

(١) أوريجانوس [١٨٥-٢٥٠ م]. لاهوتي مسيحي يُعتبر من أبرز آباء الكنيسة الأوائل. تكمن أهميّة كتاباته في كونها تمثّل أولى المحاولات الفكريّة في تفسير المسيحيّة.

(٢) سيلسـوس هو فيلسـوف روماني من القرن الثاني ميلادي يكتب باليونانيّة وخصم للمسيحيّة المبكّرة في عمله المعروف بعنوان «الكلمة الحقة» (١٧٨م)، وهو مفقود ولا نعرفه إلّا من خلال اقتباسات ضافية عند أوريجانوس الذي ردّ عليه في كتابه *Contra Celsum* يفنّد فيه أطروحات سيلسوس الواردة في «الكلمة الحقّة».

(٣) كلاوديوس جالينوس [١٢٩-٢١٦ م]. طبيب إغريقي مارس الطب بروما حيث عالج العديد من الأباطرة. يمثّـل إلـى جانـب أبقـراط أحد أعمدة الطب فـي العهد الروماني الإغريقي. سـاهم في وضع أسـس الطبّ الحديث اعتمادًا على العقل والتجربة اللذين قال عنهما إنهما «ساقاه».

(٤) بوبليوس نيجيديوس فيغولوس [حوالي ٩٨ ق.م - ٤٥ ق.م] وهو حسـب آولوس جيليوس من بين أعظم العلماء الرومان مع فارّو، ويصفه شيشرون على أنّه من أتباع الفيثاغوريّة المُحدثة.

(٥) آولـوس جيليـوس، باللاتينيـة Aulus Gellius، وُلـد بروما بيـن ١٢٣ و١٣٠ م وتوفّي حوالي سـنة ١٨٠ م. قاضي ونحويّ ومؤلّف لاتيني.

[§ ٢٣٠] تفترض هاتان المسلّمتان أنّ مؤلّفي الأمم الوثنيّة الذين كانوا في حالة من التوحّش جعلتهم يصبحون مثل حيوانات بكماء، بل وعديمي الإدراك، فكان لا بدّ لهم من مشاعر قويّة لانتزاعهم منها جعلتهم يشكّلون لغاتهم الأولى بالإنشاد.

٦٠

[§ ٢٣١] بدأت اللغات دون شكّ بكلمات أحاديّة المقطع؛ إذ أنّه حتّى في أيّامنا هذه مع أنّ الأطفال يعيشون وسط خضمّ من اللغات المنطوقة، ومع أنّهم يتوفّرون على جهاز نطق ليّن وطليق، فإنّهم يبدؤون بكلمات أحاديّة المقطع.

٦١

[§ ٢٣٢] الشعر البطولي هو أقدم الأشعار، والسبونديّ[١] أحدثها. ولكنّنا سنبيّن في هذا العمل أنّ الشعر البطولي كان في الأصل سبونديًّا.

٦٢

[§ ٢٣٣] الشعر الوتديّ هو الأكثر شبهًا بالنثر، وهو الذي يعرّفه هوراثيوس بـ "*pedepraesto*"، أي المرتجل.

[§ ٢٣٤] هاتان المسلّمتان الأخيرتان تجعلاننا نفترض أنّ الأفكار واللغات سارت بالتوازي.

[§ ٢٣٥] جميع هذه المسلّمات، بداية من ٤٧ إضافة إلى تلك التي قدّمناها سابقًا باعتبارها مبادئ كلّ المسلّمات الأخرى، تمدّنا بمجمل النظريّة الشعريّة في جميع أجزائها، التي هي: الأسطورة، العادات وما يتبعها، المثَل، التعبير ووضوحه، الحكايات الرمزيّة، الإنشاد وأخيرًا الشعر. والمسلّمات السبع الأخيرة تبرهن أيضًا على أنّ الأمم الأولى تكلّمت في البداية شعرًا وبعد ذلك نثرًا.

---

(١) Spondaico نوع من البحور الشعرية ينظم على تفعيلة ذات مقطعين طويلين تسمى spondee

٦٣

[§ ٢٣٦] إنّ الفكر البشري يميل بطبيعته إلى أن يدرك بالحواسّ ما هو خارج الجسم، ويصعب عليه كثيرًا أن يصل بواسطة التفكير إلى فهم ذاته.

[§ ٢٣٧] هذا قولٌ بالمبدأ الشامل لأصل جميع اللغات، إذ نجد أنّ الكلمات تنتقل من الأجساد ومن خاصيّاتها إلى دلالة الأشياء المنتمية للروح وللعقل.

٦٤

[§ ٢٣٨] نظام الأفكار يسير وفقًا لنظام الأشياء.

٦٥

[§ ٢٣٩] نظام الأشياء الإنسانيّة مرّ في البداية بالأدغال، ثمّ الأكواخ وبعد ذلك القرى، ثمّ المدن، وأخيرًا الأكاديميات.

[§ ٢٤٠] هذه المسلّمة تمثّل مبدأ مهما لعلم الاشتقاق، إذ تبيّن لنا أنّ تاريخ اللغات الأولى يسهل التعرّف عليه وإعادة تركيبه من خلال هذا التسلسل للأشياء الإنسانيّة. وبالفعل فنحن نلاحظ أنّ الجزء الأكبر من الكلمات في اللغة اللاتينيّة لها أصل بريّ وفلاحيّ. فكلمة *lex* على سبيل المثال، كانت تعني في البداية جمع *البلّوط*، والتي جاءت منها كلمة *ilex* أو *illex*، أي شجرة البلوط أو السنديان. كما أنّ لفظ *aquilex* يعني دون شكّ جامع أو مجمّع المياه. وبما أنّ شجرة البلّوط تنتج ثمرة البلّوطة التي تجتمع عندها الخنازير للتقوّت منها، صارت بعد ذلك *lex* تعني جمع أو كوم *الخضار*، التي جاءت منها كلمة *legumina*. في الأزمنة الموالية عندما لم تكن قد وُجدت الحروف العاميّة التي تُكتب بها القوانين، كانت لفظة *lex* تعني بالضرورة مجمع *المواطنين*، أي البرلمان العمومي. وعليه فإنّ اجتماع المواطنين يعني إصدار القوانين، التي بواسطتها يُعترف *بوصايا الميراث*، التي تقع بحضور المجموعة [*calatis comitiis*]. وأخيرًا فإنّ جمع الحروف لتكوين حزمة في كلّ كلمة سُمّي *legere*.

٦٦

[§ ٢٤١] في البداية يشعر الإنسان بما هو ضروري، وبعد ذلك يهتمّ بما هو نافع. بعد ذلك يبحث عمّا هو مريح وأخيرًا عمّا هو ممتع. وهكذا ينحلّ في الترف وأخيرًا يبدّد بجنون ما يملكه.

٦٧

[§ ٢٤٢] طبيعة الشعوب في بدايتها قاسية، ثمّ تصبح صارمة، وبعد ذلك متساهلة، ثمّ رقيقة، وأخيرًا منحلّة.

٦٨

[§ ٢٤٣] في الجنس البشري ظهر في البداية رجال قساة وأشرار أمثال بوليفيموس، وبعدهم رجال ذوو حلم وعزّة نفس أمثال أخيل، ثمّ يأتي الشجعان والمنصفون أمثال أريستيد وشيبيون الإفريقي. في زمن أقرب منّا ظهر رجال جمعوا في الظاهر خصالا عظيمة وعلى أرض الواقع رذائل كبيرة، واكتسبوا لدى العامّة صيتًا عظيمًا، أمثال الإسكندر، وقيصر. من بعدهم جاء رجال مكتئبون، متجهّمون ومتحسّبون، أمثال تيبيريوس[١]، وأخيرًا الفاسقون المجانين أمثال كاليغولا[٢] ونيرون[٣] ودوميتيان[٤].

---

(١) تيبيريوس سمبرونيوس غراكّوس [١٦٨ ق.م - ١٣٣ق.م] سياسي روماني شقيق كايوس غراكّوس. تسبّبت الإصلاحت الزراعية التي دعا إليها في حدوث اضطرابات سياسية في الجمهوريّة.

(٢) كاليغولا واسمه اللاتيني كايوس يوليوس قيصر أغسطس جرمانيكوس، [١٢م - ٤١م] خلف تيبيريوس كثالث إمبراطور في عام ٣٧ كان محبوبا وشعبيا في البداية ثم صار طاغية ومنحرفًا جنسيًّا وشديد القسوة حسب ما جاء في المصادر.

(٣) نيرون. وُلد باسم لوسيوس دوميتيوس [٣٧-٦٨ م] خامس وآخر إمبراطور روماني من السلالة اليولوكلودية، حكم بين ٥٤ و٦٨. تصّره المصادر باعتباره طاغية ومضطهد للمسيحيّين وتنسب إليه حريق روما في يوليو ٦٤.

(٤) تيتوس فلافيوس دوميتيانوس [٥١- ٩٦ م] ثالث وآخر الأباطرة من سلالة فلافيوس. كان يميل في حكمه إلى الطغيان وعُرف بعدائه الشديد لمجلس الشيوخ ولم يترك له إلا القليل من السلطة.

[§ ٢٤٤] يتبيّن من هذه المسلّمة أنّ الأوّلين من بين هؤلاء الرجال كانوا ضروريّين لإخضاع الإنسان للإنسان في عهد الأُسَر، ولتهيئته لإطاعة قوانين مؤسّسة المدينة المقبِلة؛ وأنّ الثانّيين كانوا ضروريّين لتقوم فوق العشائر الجمهوريّات ذات الشكل الأرستقراطيّ؛ والثالثون لفتح الطريق للحريّة الشعبيّة؛ والرابعون لينشِئوا منها المؤسّسة الملكيّة؛ والخامسون لتوطيدها والسادسون لقلبها.

[§ ٢٤٥] هذه المسلّمة، مع سابقاتها، تعطينا جزءًا من *مبادئ التاريخ المثالي السرمدي* الذي تسير عليه في الزمن كلّ الأمم من نشأتها إلى تطوّرها إلى أوضاعها إلى انحلالها ونهايتها.

٦٩

[§ ٢٤٦] يجب أن تكون الحكومات متطابقة مع طبيعة البشر الذين تحكمهم.

[§ ٢٤٧] تبيّن لنا هذه المسلّمة أنّه من طبيعة الأمور الإنسانيّة والمدنيّة يجب أن تكون أخلاق الشعوب هي مدرسة الأمراء العموميّة.

٧٠

[§ ٢٤٨] نفترض هنا ما سنبرهن عليه لاحقًا وما يمليه علينا العقل، وهو أنّ بعض الرجال من ذوي العزيمة والقوّة نأوْا بأنفسهم عن حالة الفوضى والهمجيّة الذي سقط فيه العالم الخالي من القوانين، وأسّسوا الأُسَر، وبِها ومن أجلها شرعوا في زراعة الأرض. بعد سنوات طويلة من ذلك ترك الأناس الآخرون الغابات والتحقوا بالأراضي المزروعة التي أنشأها الآباء الأوائل.

٧١

[§ ٢٤٩] إنّ العادات البدائيّة، خصوصًا منها المتعلّقة بالحريّة الطبيعيّة لا تتغيّر فجأة، بل بصفة تدريجيّة وعلى مرّ زمن طويل.

٧٢

[§ ٢٥٠] بما أنّ جميع الأمم بدأت من عبادة آلهة من الآلهات، فقد كان الآباء في عهد الأُسَر عليمين بالتكهّن بواسطة النذور، وكان الكهنة يقدّمون القرابين للحصول عليْها، أي لفهمها فهمًا جيّدًا، وكان الملوك هم الذين يبلّغون إرادة الآلهة وشرائعها إلى عشائرهم.

٧٣

[§ ٢٥١] تقول رواية عاميّة إن أوّل من حكم العالم هم الملوك.

٧٤

[§ ٢٥٢] تقول رواية عاميّة أخرى إنّ الملوك الأوائل كانوا يُختارون بحسب جدارتهم الطبيعيّة لاعتلاء ذلك المنصب.

٧٥

[§ ٢٥٣] وتقول رواية عاميّة كذلك إنّ الملوك الأوائل كانوا من الحكماء، وقد عبّر أفلاطون عن تحسّره على تلك الأزمنة القديمة حيث كان الفلاسفة يحكمون والملوك يتفلسفون.

[§ ٢٥٤] تبيّن جميع هذه المسلّمات أنّ الآباء الأوائل كانوا يجمعون في شخصهم الحكمة والكهنوتيّة والسلطة الملكيّة، وأنّ السلطة الملكيّة والكهنوتيّة كانتا تابعتيْن للحكمة، وليس لحكمة الفلاسفة الباطنيّة، بل لحكمة المشرّعين العاميّة؛ ولهذا السبب نرى فيما بعد لدى جميع الأمم أنّ الكهنة يعتمرون التيجان.

٧٦

[§ ٢٥٥] تقول رواية عاميّة إنّ شكل الحكم الأوّل في العالم هو الملكيّة.

٧٧

[§ ٢٥٦] نستنتج من المسلّمة ٦٧ والتابعة لها، وبالخصوص من ملحق المسلّمة ٦٩، أنّ الآباء في عهد الأُسَر كانوا يمارسون سلطة ملكيّة، تخضع للربّ وحده، على أشخاص وأملاك أبنائهم، وأكثر من ذلك على أشخاص مواليهم [*famoli*] الذين لجؤوا إلى أراضيهم. كان هؤلاء إذن هم الملوك الأوائل في العالم، وبهذه الطريقة يجب أن نفهم الكتابات المقدّسة عندما تتحدّث عن *الآباء*، أي *الآباء-الأمراء*. وقد احتُفظ لهم بسلطتهم الملكيّة طيلة زمن الجمهوريّة الرومانيّة بمقتضى قانون *الألواح الاثنتي عشرة*، الذي يقول «*الربّ الأسرة حقّ الحياة والموت على أبنائه*»[1] وعليه: «جميع *ما يملكه الابن هو ملك* لأبيه»[2].

٧٨

[§ ٢٥٧] لا يمكن للأُسَر أن تستمدّ اسمها الذي هو "*famiglia*"، إلّا من *famoli*، أي الخدم الذين كانوا يعملون لدى الآباء في حالة الطبيعة.

٧٩

[§ ٢٥٨] إنّ الشركاء الأوائل أو بالأحرى الرفاق الأوائل الذين تشاركوا بهدف تبادل المنافع مع بعضهم البعض، لا يمكن تصوّر أنّهم وُجدوا في العالم قبل وجود أولئك الذين لجؤوا إلى الآباء المذكورين سابقًا للنجاة بحياتهم، وفي المقابل أُجبروا لضمان بقائهم على قيد الحياة على خدمة حقول أولئك الآباء.

[§ ٢٥٩] كانوا هم إذن *الشركاء* الحقيقيّن للأبطال، الذين شكّلوا فيما بعد فئة العامّة في المدن البطوليّة، وأخيرًا أهالي الولايات التابعة للشعوب المهيمنة.

---

(١) ورد باللاتينيّة في النص الأصلي: PATRIFAMILIAS IUS VITAE ET NECIS IN LIBEROS ESTO.

(٢) باللاتينية في النص الأصلي: quicquid *filius acquirit, patri acquirit*.

٨٠

[§ ٢٦٠] ينزع البشر طبيعيًا إلى نظام الإقطاع (*benefizi*)، إذ يرون أو يعتبرون أنّ فيه إمكانيّة الحفاظ أو ربح جزء هامّ من المنفعة، لأنّ تلك هي المنافع التي يأملون الحصول عليها في الحياة المدنيّة.

٨١

[§ ٢٦١] من خاصيّة الأقوياء ألاّ يتنازلوا بسهولة عمّا امتلكوه بالقوّة، بل هم لا يتنازلون عنه، بدافع الضرورة أو المنفعة، إلّا بقدر صغير في كلّ مرّة، وفي أقلّ ما يمكن من الحالات.

[§ ٢٦٢] من هاتين المسلّمتيْن تأتينا المنابع الدائمة للإقطاعات، التي يُشار إليها بلاتينيّة راقية "*beneficia*".

٨٢

[§ ٢٦٣] نجد عند جميع الأمم القديمة *الموالي والموالاة*، اللذيْن لا يمكننا فهمهما إلّا باعتبارهما يوافقان *الأتباع والإقطاع*. والعلماء المختصّون بتاريخ *الإقطاع* عند الحديث عنهم يستعملون دائمًا اللفظيْن اللاتينييْن *clientes* و*clientelae*.

[§ ٢٦٤] هذه المسلّمات الثلاث الأخيرة مع الاثنتيْ عشرة التي قبلها بداية من ٦٨، تكشف لنا نشأة الجمهوريّات، التي ظهرت من بعض الضرورات المهمة التي سنحدّدها فيما بعد، التي فرضها الخدم [*famoli*] على آباء الأُسَر، والتي كانت نتيجتها أنّ الجمهوريّات اتّخذت من تلقاء نفسها وبصفة طبيعيّة شكلاً أرستقراطيًا. وبالفعل، وجد الآباء أنفسهم أمام تمرّد خدمهم فاتّحدوا فيما بينهم مشكّلين أنظمة لمواجهة التمرّد الذي كان يهدّدهم. ولتهدئتهم قرّروا منحهم بعض التنازلات لإرضاء مطالبهم، وأنشؤوا لفائدتهم *إقطاعات فلاحيّة*. إلّا أنّ سلطتهم الأُسريّة السياديّة، (التي لا يمكن فهمها إلّا بمقارنتها بالإقطاعات الأرستقراطيّة) وجدت نفسها مُذّاك خاضعة للسلطة المدنيّة السياديّة لأنظمتهم الحاكمة نفسها. وسُمّي رؤساء الأنظمة «ملوكًا»، وبما أنّهم كانوا

الأكثر شجاعة فلا بدّ من أنّهم ترأسوها أثناء ثورات الخدم أو *famoli*. هذه الفرضيّة بخصوص نشأة المدن، والتي سنبرهن على صدقها لاحقًا، تستحقّ مع ذلك لشكلها *الطبيعي والبسيط* ولارتباطها المتين بالنتائج المدنيّة أن تُقبَل على أنّها صادقة. إذ أنّه من دونها لا يُمكن لنا أن نفسّر كيف تشكّلت السلطة المدنيّة من سلطة الأُسَر، وتشكّل الملك العمومي من الأملاك الأُسريّة، وكيف تنظّمت المادّة لتكوين الجمهوريّات بوجود نظام يتكوّن من عدد صغير من الأشخاص يحكمون في جموع كبيرة من العامّة التي عليها إظهار الطاعة، إذ هذان هما الطرفان اللذان يمثّلان موضوع السياسة. وسنبيّن لاحقًا أنّ نشأة دول مدنيّة انطلاقًا من أُسَر متكوّنة فقط من أبناء [الأب] هي أمر مستحيل.

٨٣

[§ ٢٦٥] هذا القانون المتعلّق بالحقول يظهر باعتباره أوّل قانون زراعي رآه العالم، ولا يمكننا أن نتصوّر أو أن نفهم قانونًا آخر له طبيعة أكثر تحديديّة.

[§ ٢٦٦] ميّز هذا القانون الزراعي بين ثلاثة أنواع من ملكيّة الأرض يُمكن لها أن توجد في الطبيعة المدنيّة، تنتمي إلى ثلاثة أنواع من الأشخاص: الملكيّة النفعيّة، التي هي من نصيب العامّة؛ والملكيّة الشرعيّة أو»كويريتيّة«، المحتفظ بها بقوّة السلاح، وعليه فإنها أرستقراطيّة وتعود للآباء؛ والملكيّة السامية، التي تعود إلى النظام بأكمله، أي إلى الأسياد، أو إلى السلطة السياديّة في الجمهوريّات الأرستقراطيّة.

٨٤

[§ ٢٦٧] هناك فقرة مهمة في كتاب *السياسة* لأرسطو بخصوص تصنيف الجمهوريّات، حيث يشير إلى المملكات البطوليّة التي كان الملوك يديرون فيها بالداخل الشرائع، وبالخارج يقودون الحروب، وكانوا يتزعّمون فيها الديانات.

[§ ٢٦٨] هذه المسلّمة تتوافق تمامًا مع ما نعرفه عن المملكتيْن البطوليّتيْن تحت ثيسيوس[1] ورومولوس. وبخصوص الأوّل بإمكاننا التأكّد من ذلك بقراءة *حياة تيسيوس*

---

(١) ثيسيوس شخصيّة أسطوريّة يونانيّة وأحد ملوك أثينا الأسطوريّين. من أشهر إنجازاته البطولية محاربته وقتله للوحش «مينوتور» نصفه إنسان ونصفه ثور.

لبلوتاركوس. وبخصوص الثاني، يخبرنا *التاريخ الروماني* كيف أنّ تولوس هوستيليوس[1] تولّى إدارة القانون في التهمة التي رُفعت ضدّ هوراثيوس[2]. وكان الملوك الرومان في الآن نفسه ملوك الشؤون المقدّسة لذا سُمّوا «ملوكًا مقدّسين» (*Reges Sacrorum*)، ونحن نرى بالفعل أنّه عندما يُنفى ملك من روما فإنه يستمر تنصيب ملك تُعهد إليه الشؤون المقدّسة والذي يحتفظ بلقب «ملك مقدّس» (*rex sacrorum*)، وهو بشيرٌ أوّل أو نذير حرب أوّل[3].

٨٥

[§ ٢٦٩] توجد فقرة أخرى مهمة لأرسطو في العمل نفسه، يقول فيها إنّ الجمهوريّات القديمة كانت تفتقر للقوانين التي تعاقب على الجنايات، وتكفل جبر الأضرار الخاصّة. ويقول إنّ هذا من طبيعة الشعوب البربريّة؛ لأنّ الشعوب عند نشأتها تكون همجيّة لأنّها لا تملك بعدُ القوانين لإقامة العدالة.

[§ ٢٧٠] تبرهن هذه المسلّمة على ضرورة المبارزات والحملات الانتقاميّة خلال الأزمنة البربريّة لأنّه لم تكن فيها تشريعات قضائيّة.

٨٦

[§ ٢٧١] كما تكتسي نفس الأهميّة تلك الفقرة في كتاب *السياسة* لأرسطو التي يقول فيها إنّه في الجمهوريّات القديمة كان النبلاء يُقسِمون على أن يكونوا على الدوام أعداء العامّة.

[§ ٢٧٢] يفسّر هذا القول سبب وجود الكبرياء والجشع والقسوة في سلوك النبلاء تجاه العامّة، وهو سلوك نجد له آثارًا عديدة في *تاريخ روما القديمة*. ومن دونه لن نفهم

(١) تولوس هوستيليوس [؟ - حوالي ٦٤٢ ق.م] ثالث ملوك روما الأسطوريّين.

(٢) بوبليوس هوراثيوس كوكلس، بطل أسطوري روماني [حوالي ٥٧٠ ق.م.]. اشتهر لكونه دافع ضدّ الأتروسكيّين عن الجسور قبالة روما واعتُبر بطلا. حوكم في عهد الملك تولوس هوستيليوس بتهمة قتل شقيقته وأدين من طرف القاضييْن اللذيْن عيّنهما الملك ولكن شعب روما برّأه اعترافًا له بإنقاذ روما.

(٣) كذلك يسمى بالمنادي Herald وكانت من مهامه تمثيل الدولة وإدارة الشؤون الملكية والمحافظة على النظام في الاجتماعات ونحوها

لماذا في فترة الحريّة الشعبيّة المزعومة، كان العامّة مُجبَرين على خدمة الأشراف في حروبهم، وعلى حسابهم الخاصّ، وكان الأشراف يغرقونهم في بحر من الديون من خلال الربا؛ وعندما يعجزون عن دفعها يحبسونهم في سجونهم الخاصّة ليعوّضوها بواسطة العمل القسري، وكانوا ينهالون عليهم ضربًا بالعصيّ على أكتافهم العارية، كما لو كانوا أذلّ العبيد.

٨٧

[§ ٢٧٣] كانت الجمهوريّات الأرستقراطيّة تُحجِم كثيرًا عن الدخول في حروب لكيلا تتقوّى النزعة القتاليّة لدى جموع العامّة.

[§ ٢٧٤] تمدّنا هذه المسلّمة بمبدأ العدل في الحروب الرومانيّة إلى حدود الحروب البونيقيّة.

٨٨

[§ ٢٧٥] تحتفظ الجمهوريات الأرستقراطيّة بالثروات داخل فئة الأشراف لأنّها تساهم في تنامي قوّتها.

[§ ٢٧٦] تبرز لنا هذه المسلّمة أسباب الشهامة الرومانيّة في الانتصارات، إذ كان الرومان لا ينتزعون من المهزومين إلّا الأسلحة، ويتركون لهم الملكيّة النفعيّة لكلّ أملاكهم ولا يخضعونهم إلّا لضريبة قابلة للاحتمال؛ ولهذا السبب عارض الآباء بشدّة القانون الزراعي الذي جاء به آل غراكّوس[1]؛ لأنّهم كانوا لا يريدون إثراء العامّة.

٨٩

[§ ٢٧٧] الشرف هو أنبل حافز في البسالة العسكريّة.

٩٠

[§ ٢٧٨] تخوض الشعوب الحروب ببطولة إذا ما هي في أوقات السلم تمرّست على القتال دفاعًا عن الشرف أو حفاظًا عليه أو استحقاقًا له.

---

(١) سبق ذكره في § ١١٥.

[§ ٢٧٩] تبيّن لنا هذه المسلّمة مبدأ البطولة الرومانيّة من طرد الطغاة التاركوينيّين[١] إلى الحروب البونيقيّة، إذ نرى في ذلك الزمن أنّ الأشراف كان همّهم هو إنقاذ وطنهم الذي كانت سلامة وجوده تحفظ لهم كلّ الشرف المدني داخل نظامهم، بينما كان العامّة من ناحيتهم يساهمون ببسالة ليستحقّوا بذلك نفس الشرف.

٩١

[§ ٢٨٠] إنّ التنافس بين مختلف الفئات لتكون على قدم المساواة أمام القانون قد مثّل أداة فعّالة في صنع عظمة الجمهوريّات.

[§ ٢٨١] هذا مبدأ آخر من مبادئ البطولة الرومانيّة، دعمته ثلاث خصال عموميّة: أولاها هو طموح العامّة لأن يكون لهم شرعيًّا نفس الحقوق المدنيّة التي للآباء، وثانيها تتمثّل في القوّة التي كان الآباء يحافظون بها على هذه الحقوق داخل نظامهم، وأخيرًا حكمة المشرّعين القضائيّين في تأويل القوانين وفي جعلها شيئًا فشيئًا متلائمة مع الأوضاع بمنح ما يمليه العقل من تنازلات ضروريّة. هذه هي إذن العوامل الثلاثة التي جعلت القضاء الروماني مميّزًا في العالم.

[§ ٢٨٢] كلّ هذه المسلّمات ابتداء من ٨٤، تكشف لنا -تحت مظهره الصحيح- التاريخ الروماني القديم؛ والمسلّمات الثلاث التالية تعمل عليه جزئيًا.

٩٢

[§ ٢٨٣] الضعاف من بين القوم يريدون القوانين، والأقوياء يرفضون منحها لهم. ذوو الطموح يقترحونها لكسب الأتباع، والأمراء يحمونها لتحقيق التوازن بين الضعاف والأقوياء.

[§ ٢٨٤] القول الأوّل والثاني من هذه المسلّمة يسلّطان النور على النزاعات البطولّية في الجمهوريّات الأرستقراطيّة، حيث نرى أنّ الأشراف يعملون ما في وسعهم للحفاظ على القوانين داخل سريّة نظامهم، لكي تكون حسب إرادتهم ولكي يديرونها بسلطة

---

(١) نسبة إلى السلالة المنحدرة من تاركوينوس [الفخور]. سبق ذكره في § ٢٦.

ملكيّة. وهذه هي الأسباب الثلاثة التي قدّمها المشرّع بومبونيس[1]، حين قال إنّ العامّة بروما طالبوا بقانون *اللوائح الاثنتي عشرة* قائلين إنّهم مضطهدون بسبب «*شرع خفيّ، غير مؤكّد وبقبضة ملكيّة*»[2]، وهو السبب الذي يجعل الآباء يرفضون لهم تلك *اللوائح* قائلين: «*يجب الحفاظ على تقاليد الآباء، وعدم نشر القوانين*»[3]، مثلما نَقل إلينا ذلك ديونيزيوس الهاليكارنَاسي[4] الذي يبدو أكثر علمًا بالشؤون الرومانيّة من تيتوس ليفيوس نفسه؛ لأنّه كتب -وهو على علم بالأخبار التي نقلها ماركوس تيرنتيوس فارّو، الذي يقرّ له الجميع بكونه أكبر علماء الرومان، والذي هو في هذا المقام معاكس له تمامًا، إذ أنّ تيتوس ليفيوس يروي بخصوص هذا الموضوع- أنّ الأشراف، حسب عباراته نفسها: «*لا يرفضون مطالب العامّة*»[5]. وبالنظر إلى هذه التناقضات الواضحة وأخرى أهمّ منها أشرنا إليها في كتابنا *مبادئ القانون العامّ*، وإلى كون هذيْن المؤلّفيْن الأوّليْن نقلا أخبارًا سبقتهما بخمسمئة عام وهما على خلاف واضح بينهما، فالأولى بنا عدم الأخذ برأي أيّ منهما، خصوصًا وأنّ فاروّ نفسه لم يكن يبدو مقتنعًا بهذه الخرافة، إذ أنّه في عمله العظيم *Rerum Divinarum, et Humanarum*، يقول إنّ كلّ الأشياء الإلهية والإنسانيّة للرومان نشأت جميعها في اللاتيوم. كما أنّ شيشرون وضع على لسان ماركوس كراسّوس[6] الخطيب، وبحضور كوينتوس موسيوس شيفولا[7]، الملقّب بأمير الفقهاء في زمنه، قوله إنّ عِلم مجمع *العشرة* [*Decemviri*] يفوق بكثير عِلم دراكون[8] وصولون فقيهيْ أثينا،

(١) ساكستوس بومبونيوس: مشرّع روماني عاش في أواسط القرن الثاني ميلادي. لم يشغل مناصب رسميّة واكتفى بالتدريس.

(٢) ورد باللاتينيّة: *jus latens, incertum, et manus regia*.

(٣) ورد باللاتينيّة: *mores patrios servandos, leges ferri non oportere*.

(٤) ديونيزيوس الهاليكارناسي [حوالي ٦٠ ق.م. - بعد ٨ ق.م.] خطيب ومؤرّخ إغريقي.

(٥) نفسه: *desideria plebis non aspernari*.

(٦) ماركوس ليسينيوس كراسّوس [حوالي ١١٥ ق.م. - ٥٣ ق.م] قائد ورجل سياسة روماني. لعب دورًا أساسيًّا في الانتقال من الجمهوريّة إلى الإمبراطوريّة.

(٧) كوينتوس موسيوس أو موشيوس شيفولا [١٤٠ ق.م. - ٨٢ ق.م] مشرّع وسياسي روماني، محامي الشعب وسيناتور. شغل منصب قنصل في سنة ٩٥ ق.م.

(٨) دراكون أو دراكو، مشرّع إغريقي من القرن السابع قبل الميلاد. استبدل القانون العرفي والنزالات الدموية التي كانت سائدة في النزاعات بتشريع قضائيّ يحسم في النزاعات. ونظرًا لصرامته ارتبط المصطلح «دراكوني» بالقواعد والقوانين الصارمة.

وعِلم ليكورجس[1]، فقيه إسبرطة. وهذا يعني دون شك أنّ قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* لم يأت إلى روما لا من أثينا ولا من إسبرطة. ونعتقد أنّ هذا هو الصحيح، وأنّ شيشرون أقحم كوينتوس موسيوس في ذلك اليوم الآوّل فحسب لكي يُظهر هذا الأخير وهو يستمع بمجاملة لدحض موقف اتّخذه بعض العلماء بدافع الغرور الذي يجعلهم دومًا مستعدّين لإضفاء مصدر غامض ومعقّد على معارفهم، وكذلك لتوقّي الاعتراضات التي يُمكن أن تنشأ ضدّ خطيب يتحدّث عن تاريخ القانون الروماني، ويسلب بهذه الطريقة امتيازًا خاصًا بالفقهاء، الذين كانوا يشكّلون فئة متميّزة عن فئة الخطباء، وكذلك لتوقّي الجلبة التي كانت ستحدثها جرأته أن نطق كراسّوس بهذه الكلمات: «*لا يهمّني إن تهامسوا، سأقول ما عندي*»[2]. ولو أنّ كراسّوس نطق بشيء خاطئ لقاطعه موسيوس وفنّد قوله كما فعل، حسب ما روى لنا بومبونيوس، مع سارفيوس سولبيسيوس الذي كان يتحدّث في هذا الموضوع، فردّ عليه بهذه الكلمات: «*من العار على شريف أن يجهل القانون الذي ينبغي عليه معرفته*»[3].

[§ ٢٨٥] ونجد عند بوليبيوس برهانًا أكبر ممّا لقينا عند فارّو وشيشرون يجعلنا نرفض تصديق كلّ من تيتوس ليفيوس ودونيسيوس هاليكارنس، إذ أنّ بوليبيوس كان أكثر علمًا بالسياسة ممّا كان عليه هذان المؤرّخان، إضافة إلى أنّ الفترة التي عاش فيها كانت أقرب بمئتيْ سنة من *مجمع العشرة* ممّا كانت عليه الفترة التي عاش فيها كلّ من تيتوس ليفيوس وديونيسيوس هاليكارنس. في كتابه السادس، وتحت رقم ٤، وبعده إذا ما اعتمدنا طبعة جياكومو كرونوفيو، نجده يعاين بكلّ دقّة دساتير أشهر الجمهوريّات الحرّة في زمنه. ويلاحظ أنّ الجمهوريّة الرومانيّة تختلف كثيرًا عن جمهوريّة إسبرطة، وأكثر منها عن جمهوريّة أثينا، التي يزعم المقارنون بين القانون الأثيني والقانون الروماني أن روما جلبت منها القوانين التي تنظم الحريّة الشعبيّة التي كان قد أسّسها بروتوس. ويلاحظ على العكس أنّه يوجد شبه بين الجمهوريّة الرومانيّة والقرطاجنيّة، ولا أحد إلى يومنا هذا يمكنه أن يتصوّر أنّ هذه الأخيرة قامت على قوانين اليونان؛ ذلك أنّه كان يوجد

---

(١) ليكورجوس (حوالي ٨٢٠- ٧٣٠ ق.م] مشرّع أسطوري بإسبرطة.

(٢) ورد باللاتينية: *fremant omnes, dicam quod sentio*.

(٣) نفسه: *turpe esse patricio viro jus, in quo versaretur, ignorare*

قانون قرطاجنّي صريح يمنع مواطنيها من معرفة الحروف الإغريقيّة. بوليبيوس، هذا العالم الفذّ بدساتير الجمهوريّات، لا يحاول أن يفسّر الفارق الذي يشير إليه بين الجمهوريّة الرومانيّة والجمهوريّة الأثينيّة، اللتيْن كانتا مع ذلك تقومان على نفس القوانين، بينما نراه يشير إلى الشبه بين الرومانيّة والقرطاجنيّة اللتيْن تقومان بالعكس على قوانين مختلفة؟ وحتّى لا نحكم على هذا العالم الكبير بالسهو، فمن الظنّ أنّه في زمنه لم تُختلق بعد خرافة القوانين التي جاءت من أثينا إلى روما لترتكز عليها الحكومة الحرّة الشعبيّة.

[§ ٢٨٦] هذه المسلّمة نفسها، في جزئها الثالث تظهر لنا كيف أنّ الرجال الطموحين في الجمهوريّات الشعبيّة كانوا بهدف تحقيق مطمحهم في الوصول إلى الملكيّة يجارون أحيانًا رغبات العامّة، الذين في عجزهم عن فهم الكليّات، يريدون قانونًا لكلّ حالة خاصّة. وهكذا، فإنّ سيلاّ زعيم حزب الأشراف، بعدما هزم ماريوس، زعيم حزب العامّة، في إعادة تنظيم الدولة الشعبيّة بحكومة أرستقراطيّة، حلّ مشكلة التعدّد المفرط للقوانين بخلق المسائل الدائمة [*quaestiones perpetuae*].

[§ ٢٨٧] كما أنّ هذه المسلّمة ذاتها في جزئها الأخير تكشف لنا السبب الخفيّ إلى حدّ الآن لوجود عدد لامتناه من القوانين التابعة للقانون الخاصّ التي سنّها الأمراء الرومان، بدءًا من أغسطس. وهو ما جعل الملوك والقوى في أوروبا يتقبّلون في مملكاتهم وفي جمهوريّاتهم الحرّة نصّ القانون المدني الروماني ونصّ القانون الشرعي.

٩٣

[§ ٢٨٨] ما أن فُتِحت شرعيًا في الجمهوريّات الشعبيّة أبواب التشريفات للعامّة المنتصرين، حتّى صارت السلطة في أوقات السلم الخارجيّة لا تحكمها القوانين، بل تحكمها القوّة والسلاح. يتقاتل الأشراف والعامّة للدفاع كلّ منهما عن سلطته ولتوطيدها أكثر، لاستعمالها بعد ذلك لسنّ قوانين تزيد من ثرائها. وقد كانت هذه بالفعل، بالنسبة إلى روما، القوانين الزراعيّة التي سنّها آل غراكوس، وكانت هذه بالفعل الأسباب التي أشعلت في تلك الفترة نيران الحروب الأهليّة في الداخل، والحروب الظالمة في الخارج.

[§ ٢٨٩] تمدّنا هذه المسلّمة بتفسير البطولة الرومانيّة قبل زمن آل غراكّوس.

٩٤

[§ ٢٩٠] إنّ الحريّـة الطبيعيّـة تجعل البشـر أكثر شراسـة بقدر ما تكـون المنافع التي يتمتّعـون بهـا متعلّقـة بأشـخاصهم؛ والاسـتعباد المدنيّ يصيـر أكبر ثقلا وقسـوة بقدر ما ترخص قيمة العبد في نظر سيّده.

[§ ٢٩١] يمدّنـا الجـزء الأوّل من هذه المسـلّمة بسـبب آخر يفسّـر البطولـة الطبيعيّة للشعوب الأولى؛ ويمدّنا الجزء الثاني منها بالمبدأ الطبيعيّ للنظام الملكيّ.

٩٥

[§ ٢٩٢] يطمـح البشـر فـي البدايـة إلـى التملّـص مـن سـلطة المتسـلّط ويطالبـون بالمسـاواة. هـذا ما فعلـه العامّة في الجمهوريّات الأرسـتقراطيّة التـي تحوّلت أخيرًا إلى جمهوريّات شعبيّة. وبعد ذلك يعملون جاهدين للتعالي فوق أمثالهم، وهكذا يُخضعون الجموريّات الشـعبيّة لإرادة بعض الأقوياء. وأخيرًا يريدون وضع أنفسهم فوق القوانين. وهكذا تنشأ الفوضويّة أو الجمهوريّات الشعبيّة المتطرّفة التي يكون طغيانها أسوأ طغيان، إذ أنّه في ظل نظام مماثل ينشأ الطغاة من أولئك الذين هم أكثر جرأة وأكثر فسادًا. وهكذا فـإنّ الشـعوب التـي تعلّمت واسـتنارت من تجاربها ومن مآسـيها تبحـث لها عن علاج، فتلجأ إلى النظام الملكيّ، هذه المؤسّسة الطبيعيّة العظيمة التي برّر بها تاسيتوس الملكيّة الرومانيّة زمن أغسطس: «*الذي، حين كان العالم أجمعه مرهقًا بالحروب الأهليّة، تقبّله، ملقّبًا إيّاه بالأمير، تحت سلطته*»[1].

٩٦

[§ ٢٩٣] حين تأسّست المدن الأولى على الأُسَر تصدّى الأشراف ووضعوا العراقيل لمنـع الحريّة الطبيعيّة والخارجة عن القانون، وهكذا قامت الجمهوريات الأرسـتقراطيّة التـي كان يتزعّمهـا الأشـراف. بعـد ذلـك تنامى عـدد العامّـة وتعاظمت جرأتهم فسـلبوا الأشـراف امتيازاتهـم وأجبروهـم علـى الخضـوع للقوانيـن وعلـى المسـاهمة فـي دفـع

---

(١) ورد باللاتينية: *qui cuncta bellis civilibus fessa nomine Principis sub Imperium* ACCEPIT.

الضرائب. وكان هذا وضع الأشـراف في الجمهوريّات الشـعبيّة. أخيـرًا، ولكي يضمنوا لأنفسـهم حياة وديعة وراقية خضع الأشـراف إراديًّا لسلطة رجل واحد. وكان هذا وضع الأشراف في عهد الملكيّة.

[§ ٢٩٤] هاتان المسلّمتان مع سابقاتها ابتداء من ٦٦، تمدّنا *بمبادئ التاريخ المثالي السرمدي* الذي سبق أن تحدّثنا عنه[1].

٩٧

[§ ٢٩٥] لا نرى سـببًا لرفض فكرة أنّ البشـر فورًا بعد الطوفان سـكنوا فوق الجبال، وبعد مضيّ زمن نزلوا إلى السهول، ولم يقتربوا من سواحل البحر إلّا بعد زمن طويل.

٩٨

[§ ٢٩٦] يسـوق اسـطرابون فقرة نفيسـة لأفلاطون تؤكّد الرأي الذي ذكرناه لحيننا. يخبرنـا أفلاطـون أنّه فورًا بعد الطوفانيْن الخاصّيْن بأوجيجيوس وديوكاليونس أنّ البشـر سـكنوا في الكهوف التي في الجبال. هؤلاء البشـر الأوائل حسـب ما يقول كانوا أشـباه *البوليفيموس* الذين يشير إليهم في مواضع أخرى باعتبارهم آباء الأُسَر الأولى. ثم يخبرنا أنّ البشـر نزلوا إلى سـفوح الجبال، ويعطي مثالاً لذلك دردانوس، مؤسّـس برغام، التي صارت بعد ذلك قلعة طروادة. وأخيرًا يقول لنا إنّ البشر نقلوا ديارهم إلى السهول ومثال ذلك أنّ إيلو وسّع تراب طروادة إلى سواحل البحر ولذا سُمّيت إيليون.

٩٩

[§ ٢٩٧] هناك أيضًا رواية قديمة تخبرنا بأنّ صور تأسّست في البداية داخل اليابسة، ثـمّ انتقلت إلى سـاحل البحر الفينيقي. ويؤكّد لنـا التاريخ أنّها نُقلت من هناك إلى جزيرة قريبة ضمّها بعد ذلك الإسكندر الأكبر إلى القارّة.

[§ ٢٩٨] الافتراض السابق والمسلّمتان اللتان جاءتا بعده تكشف لنا أنّ الأمم داخل الأراضي تأسّست في الأوّل، ثمّ تبعتها الأمم التي تعيش على ساحل البحر. نجد في كلّ

---

(١) انظر §§ ١٤٥، ٢٤٥ إلخ.

هذا برهانًا ساطعًا على أقدميّة الشعب العبراني الذي وطّنه نوح في بلاد ما بين النهريْن، الأرض الأعمق في اليابسة في العالم المأهول القديم، والتي كانت أيضًا مهد أقدم الأمم. ذلك أنّه في بلاد ما بين النهريْن قامت المملكة الأولى التي هي مملكة الآشوريّين على الشعوب الكلديّة التي خرج منها العلماء الأوائل وكان أميرهم هو زرادشت.

١٠٠

[§ ٢٩٩] البشر لا يتركون نهائيًا أراضيهم التي نشأوا بها والتي تعزّ عليهم إذا لم تجبرهم ضرورات الحياة على ذلك. ولا يتركون موطنهم ولو مؤقّتًا لو لم تدفعهم إلى ذلك الرغبة في الإثراء من خلال التجارة أو غريزة الحفاظ على أملاكهم.

[§ ٣٠٠] تفسّر لنا هذه المسلّمة مبدأ هجرة الشعوب، تلك التي قامت بها *المستوطنات* البطوليّة البحريّة، والاجتياحات البربريّة، والمستعمرات الرومانيّة، والمستعمرات الأوروبيّة بالهند. بينما لا يذكروولفغانغ لازيوس(١) إلاّ الاجتياحات البربريّة.

[§ ٣٠١] كما تبيّن لنا هذه المسلّمة في الوقت نفسه أنّ السلالات الضائعة لأبناء نوح الثلاثة كان لا بدّ لها من أن تهيم على وجهها دون هدف. ربّما كان ذلك فرارًا من الوحوش المفترسة التي كانت أدغال الأرض مليئة بها، أو ربّما لملاحقة النساء الخجولات والشرسات اللاتي كنّ حتمًا كذلك في ذلك العهد المتهمّج، أو للبحث عن المراعي والماء، فتفرّقوا في كلّ أنحاء الأرض، حيث عاشوا إلى أن سمعوا دويّ الصاعقة الأولى بعد الطوفان. كان دويّ الرعد الأوّل هو الذي أيقظ في كلّ الأمم الوثنيّة فكرة الإله جوبيتر. ولو أنّ الأقوام الوثنيّة حافظت على إنسانيّتها مثلما فعل شعب الربّ لبقوا مثلما بقي هو في آسيا، أي في هذا الفضاء الشاسع من العالم الذي لا يُمكن للبشر، لقلّة عددهم، أن يملؤوه ولم يكن لهم من سبب لتركه بناء على ذلك. لقد رأينا أنّه ليس من طبيعة البشر أن يهجروا دون سبب وجيه موطنهم.

---

(١) في النصّ الأصلي Wolfango Lazio. هو Wolfgang Lazius [١٥١٤-١٥٦٥]. عالم وأديب نمساوي، ألّف دراسة في ١٢ مجلّدًا عنوانها .*De alquot gentium migrationibus*، ١٥٥٧.

١٠١

[§ ٣٠٢] كان الفينيقيّون أوّل المبحرين في العالم القديم.

١٠٢

[§ ٣٠٣] تعيش الأمم البربريّة منغلقة على نفسها ما لم يقع اجتياحها بقوّة السلاح، أو ما لم تفتح نفسها للغير عن طواعية بقصد التجارة، مثلما فعل بسماتيك الذي فتح مصر لإغريق اليونتيين[١] والكاريّين[٢]، الذين كانوا بعد الفينيقيّين معروفين بالتجارة البحريّة. وقد أسّس اليونتيّون بفضل ثرواتهم العظيمة معبد جونو *ساميان*، وشيّد الكاريّون معبد *أرتميس*، وهما مَعلمان بقيا من بين عجائب العالم السبع. إلّا أنّ أكبر شهرة في التجارة البحريّة بقيت للروديّين الذين أقاموا في مدخل مرفأهم الصنم العملاق المكرّس للشمس، الذي دخل ضمن العجائب المذكورة. كما أنّ التجارة هي التي فتحت حديثًا أبواب الصين للأوروبيّين.

[§ ٣٠٤] تمدّنا هذه المسلّمات الثلاث بمبدأ اشتقاقي آخر للكلمات التي هي دون شكّ من أصل أجنبيّ مختلف عن المبدأ الذي سبق ذكره بخصوص الكلمات من أصل محلّي[٣]. كما أنّها تعطينا أيضًا *تاريخ الأقوام الذين تعاقبوا على الأراضي الأجنبيّة من خلال المستعمرات*: فقد سُمّيت مدينة *نابولي* في البداية *سيرينا*، وهي كلمة من أصل *سرياني*، ممّا يجعلنا نعتقد أنّ السريانيّين أو الفينيقيّين كانوا أوّل من أحدث مستعمرة تجاريّة في تلك البقاع. ثمّ سُمّيت *بارتينوبي* وهي كلمة بطوليّة يونانيّة، وأخيرًا اتّخذت الاسم اليوناني العامّي وهو *نابولي*. وهذا دليل على أنّ الإغريق جاؤوا إليها بعد الفينيقيّين لفتح مصرف تجاريّ، ممّا خلق لغة تمتزج فيها اليونانيّة بالفينيقيّة. كما أنّه وُجدت على سواحل *تارنتو* مستعمرة سريانيّة كان اسمها *سيري*، واتّخذ أهاليها اسم *سيريّين*. بعد

---

(١) يونتيّة: مدينة إغريقية قديمة تقع على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، استوطنها اليونيون في القرن العاشر قبل الميلاد.

(٢) كاريا: منطقة قديمة في جنوب غرب آسيا الصغرى وسكنها الكاريون.

(٣) انظر § ٢٤٠.

ذلك سمّاها الإغريق *بوليو*، والإلهة التي شُيّد لها المعبد سُمّيت *مينارفا بوليادي*. ويقولون إنّ الإمبراطور تيبيريوس كان يتكلّم هذه اللغة المتكوّنة من مزيج فينيقيّ يونانيّ أفضل من اليونانيّة الصرف.

[§ ٣٠٥] كما تضفي هذه المسلّمة طابعًا علميًّا على البرهنة التي جاء بها جيامبولاّري[١] من أنّ اللغة التوسكانيّة من أصل سرياني، ولا يمكن تفسير ذلك إلاّ بالرجوع إلى أقدم الفينيقيّين الذين كانوا أوّل البحّارة في العالم القديم، مثلما ذكرنا ذلك في مسلّمة سابقة[٢]، إذ أنّه في الأزمنة التي لحقت تحوّل صيت البحّارة العظام إلى الإغريق الكاريّين أوّلا، ثمّ إلى اليونيّين، وبعدهم إلى الروديّين.

١٠٣

[§ ٣٠٦] نودّ لو مُنح لنا القيام بافتراض نراه ضروريًّا لمواصلة بحثنا. وهو أنّ مستعمرة إغريقيّة استقرّت على سواحل لاتيوم، ثمّ هزمها الرومان واضمحلّت، وأنّ ذكرى وجودها بقي مدفونًا في ظلمات العصور القديمة.

[§ ٣٠٧] في غياب هذا الافتراض، لو أنّه لم يُمنح لنا، فلن يمكننا أن نفسّر كيف اجتمع في إقليم لاتيوم هذا العدد الكبير من الشخصيّات الذين يتحدّث عنهم *التاريخ الروماني*، حيث يأتي ذكر *هرقل*، *وإيفندروس*، *والأركاديّين*، *والفريجيّين*، واليوناني *سارفيوس توليوس*، *وتاركوينوس بريسكوس* ابن *ديماراتوس الكورنثي*، *وإينياس*[٣] مؤسّس القوم الروماني. كما يلاحظ تاسيتوس أنّ الحروف اللاتينيّة تبرز شبهًا كبيرًا بالحروف اليونانيّة القديمة. ويرى تيتوس ليفيوس أنّه في زمن سارفيوس توليوس كان الرومان يجهلون حتّى اسم فيثاغورس الشهير، الذي كان يدرّس في مدرسة كروتوني الشهيرة. ولم يتعارف الرومان والإغريق الإيطاليّون على بعضهم البعض إلّا بمناسبة

---

(١) هو Pierfrancesco Giambullari [١٤٩٥-١٥٥٥]، مؤلّف حوار بعنوان *Il Gello*، ١٥٤٦. أعيد طبعه سنة ١٥٤٩ تحت عنوان *Origine della lingua fiorentina* [أصل اللغة الفلورنسيّة].

(٢) § ٣٠٢.

(٣) إينياس في الأساطير اليونانية والرومانية هو بطل طروادة. رحل منها وأسّس روما. نجده في *إلياذة* هوميروس.

حرب *تارنتو*، التي تسبّبت بعد ذلك في حرب بيرّوس ضدّ إغريق الضفة الأخرى من البحر[1].

١٠٤

[§ ٣٠٨] هناك قول لديون كاسيوس يبدو لنا جديرًا بالاعتبار يقول فيه إنّ التقليد شبيه بالملك، والقانون شبيه بالطاغية، وينبغي فهم ذلك بالتقليد المعقول وبالقانون الذي لا يأتي من حقّ طبيعي.

[§ ٣٠٩] إنّ تبعات هذا الحكم تساعدنا على الحسم في هذه المسألة: *إن كان يوجد حقّ طبيعيّ، أم أنّ هذا الحقّ موجود في رأي البشر*. وهو ما يعيدنا إلى ملحق المسلّمة ٨، حول *هل الطبيعة البشريّة اجتماعيّة*، أم أنّها غير ذلك. ذلك أنّ الحق الطبيعي يمليه التقليد، الذي يشبّهه ديون *بالملك* الذي يطيعه الناس عن طيب خاطر، ولا يمليه *القانون*، الذي يشبّهه ديون *بالطاغية* الذي يطيعه الناس مكرهين. فقد نشأ حقّ الناس في الوقت نفسه الذي نشأت فيه العادات والتقاليد الإنسانيّة، والتي تستمدّ كلّها مأتاها من **طبيعة الأمم المشتركة**، التي تمثّل موضوع هذا الكتاب. لا يزال المجتمع الإنساني يحتفظ بهذا القانون؛ لأنّ لا شيء أكثر منه طبيعيّة، ولا شيء يعجب الإنسان أكثر من الحفاظ ومن الاحتفال بالعادات والتقاليد الطبيعيّة. لذا نستنتج من كلّ هذا أنّ الطبيعة البشريّة التي نشأت منها تلك التقاليد هي اجتماعيّة.

[§ ٣١٠] هذه المسلّمة نفسها ومعها رقم ٨ ولازمتها، تُبرز أنّ الإنسان ليس ظالمًا بطبيعته المطلقة، بل هو كذلك بطبيعته الضعيفة والفاسدة. وعلينا أن نستنتج من هذه الحقيقة المبدأ الأوّل للديانة المسيحيّة، أي *آدم الكامل* كما *خلقه الربّ* حسب *كمال مثالي*. يأتي بعد ذلك *مبدأ النعمة الكاثوليكي*، وهذه النعمة تعمل في الإنسان الذي يعاني من الحرمان، وليس من رفض الأعمال الخيّرة. بحيث أنّه لا يملك إلّا قوّة غير فعّالة للقيام بها، إلى أن تسعفه النعمة الفعّالة وتأتي لمساعدته. هذا المذهب يقبل بالضرورة مبدأ الإرادة الحرّة، التي يساندها الربّ طبيعيًّا بفضل عنايته الإلهية، مثلما جاء

---

(١) انظر § ١١٦.

ذكره في اللازمة الثانية للمسلّمة رقم ٨. *والديانة المسيحيّة* تتوافق في هذا الخصوص مع جميع الديانات الأخرى. وعلى هذه المبادئ كان ينبغي أن يؤسّس كلّ من غروتيوس[١] وسالدن[٢] وبوفّاندورف[٣] أنظمتهم، وأن يلتحقوا بالمشرّعين الرومان الذين يعرّفون قانون الناس الطبيعي باعتباره من تدبير العناية الإلهية.

١٠٥

[§ ٣١١] لقد نشأ قانون الناس الطبيعي في الوقت نفسه الذي نشأت فيه عادات وتقاليد الشعوب التي هي متماثلة فيما بينها من حيث الحسّ المشترك البشري نفسه، دون أيّ تفكير ودون أخذ المثل أحدها عن الآخر.

[§ ٣١٢] هذه المسلّمة مع قول ديون الذي سبق الحديث عنه، تبرز لنا العناية الإلهية باعتبارها مرتّبة القانون الطبيعي البشري وعليه فهي ملكة الشؤون البشريّة.

[§ ٣١٣] وهذه المسلّمة نفسها تحدّد الفارق بين القانون الطبيعي للعبرانيّين، والقانون الطبيعي للوثنيّين، والقانون الطبيعي للفلاسفة. ذلك أنّ الوثنيّين حصلوا فقط على المساعدات العادية من طرف العناية الإلهية، بينما تحصّل العبرانيّون على المساعدات الخارقة من طرف الربّ الحقّ، ولهذا السبب كان عالم الأمم منقسمًا إلى شعب اليهود من جهة والشعوب الوثنيّة من جهة أخرى. والفلاسفة الذين لم يظهروا إلّا بعد ألفيْ سنة تقريبًا من تأسيس الأمم يتصوّرون بقوّة العقل القانون الطبيعي بشكل أكمل ممّا تعطيه لهم الشعوب بتقاليدها. ولأنّها لم تأخذ بعين الاعتبار هذه الفوارق الثلاثة فإنّ نظريّات غروتيوس وسلدن وبوفّاندورف لا يمكن لها أن تثبت.

---

(١) هو هوغو غروتيوس (Hugo Grotius) [١٥٨٣-١٦٤٥]، عالم هولندي في الإنسانيات، ديبلوماسي، محامي لاهوتي ورجل قانون. مؤلّف كتاب *De jure belli ac pacis*، ١٦٢٥.

(٢) جون سلدن (John Selden) [١٥٨٤-١٦٥٤]، مشرّع وبحاثة إنكليزي، مؤلّف كتاب *De jure naturali et gentium iuxta disciplinam Hebraeorum*، ١٦٤٠.

(٣) صموئيل بوفندورف (Samuel Pufendorf) [١٦٣٢-١٦٩٤]، مؤرّخ، فيلسوف وسياسي ألماني. مؤلّف كتاب *De jure naturae et gentium*، ١٦٧٢.

١٠٦

[§ ٣١٤] يجب أن تبدأ المذاهب في الوقت نفسه الذي تبدأ فيه الموادّ التي تدرسها.

[§ ٣١٥] هذه المسلّمة التي طبّقناها هنا بصفة *خاصّة* على القانون الطبيعي للبشر، ستطبّق لاحقًا في هذا العمل على كلّ الموادّ التي سندرسها؛ لذا ينبغي وضعها بين المسلّمات العامّة: ولكنّنا أدرجناها هنا، لأنّها تبرز في هذه المادّة أكثرمنها في أيّ مادّة أخرى كم يحقّ لنا وكم هو مهمّ أن نستعملها.

١٠٧

[§ ٣١٦] نشأت الأقوام قبل نشأة المدن، وكان الأشراف أو علية القوم، أو *gentes majors*، مثلما يسمّيهم اللاتينيّون، أي العائلات النبيلة العريقة، كعائلات الآباء التي كوّن بها رومولوس مجلس الشيوخ، ومع مجلس الشيوخ، مدينة روما. وبالطريقة نفسها سمّى اللاتينيّون *gentes minores* العائلات النبيلة الجديدة التي تشكّلت بعد المدن، كالتي ملأ بها يونيوس بروتوس، بعد طرد الملوك، مجلسَ الشيوخ الذي كاد أن يفرغ من أعضائه بعد أن أعدم تاركوينوس الفخور[١] شيوخَ المجلس.

١٠٨

[§ ٣١٧] وهكذا كان أيضًا تقسيم الآلهة. فقد كانت هناك آلهة النبالة الكبرى، أي الآلهة التي كانت تعبدها الأُسَر قبل تأسيس المدن، والتي كانت دون شكّ لدى الإغريق واللاتينيّين (وكذلك، مثلما سنبرهن على ذلك لاحقًا، لدى الآشوريّين أو الكلدان، والفينيقيّين والمصريّين) بعدد إثني عشر إلاهًا. وكان عددهم عند الإغريق معروفًا مشتهرًا حتّى أنّهم يسمّونهم ببساطة "*siriti*" وتعني «*الاثنا عشر*». وتوجد أسماؤهم دون نظام في دستيك *لاتيني*[٢] مُدرج في كتاب *مبادئ القانون الكوني*. ولكنّهم سيظهرون مرتّبين

---

(١) هو Lucius Tarquinus Superbus، سابع وآخر ملوك روما الملقّب بالفخور، حكم بين ٥٣٤ و٥٠٩ ومات سنة ٤٩٥ ق. م. انظر § ٦٣١.

(٢) في النصّ الإيطالي *distico latino*. بالفرنسيّة لفظ *distique* يعني: بيتان متكاملا المعنى. وبالعربية «دستيك» (قاموس المنهل).

على هـذا النحو فـي الباب الثاني من هذا العمل، بالتوافق مـع تحدّر الآلهة الطبيعي، أي كمـا نشـأت طبيعيًّا فـي أذهان الإغريـق: جيوبيتـر، جونـو، ديانـا، أبولّـون، فولكانوس، سـاتورن، فيستا، مـارس، فينـوس، مينيرفـا، ميركوريـوس، نبتـون. ثـمّ تأتي آلهـة النبالة الصغـرى، أي الآلهـة التـي عبدتها الشـعوب بعد ذلك على مرّ السـنين، مثـل رومولوس الذي بعد موته أطلق عليه الشعب الروماني اسم الإله كويرينوس.

[§ ٣١٨] تُظهر لنا هذه المسـلّمات الثلاث أنّ النظريّات الثلاث لغروتيوس وسـلدن وبوفّانـدورف لا تستقيم فـي مبادئها؛ لأنّهم يبـدؤون بالأمم في علاقاتهـا داخل مجتمع الجنس البشـري بأكمله، بينما هذا الأخير، كما سـنبيّن ذلك لاحقًا، بدأ في زمن الأُسَـر، تحت آلهة علية القوم [*gentes majores*].

١٠٩

[§ ٣١٩] بالنسبة إلى بسطاء الفكر، القانون هو ما يُعبّر عنه بواسطة الألفاظ.

١١٠

[§ ٣٢٠] إنّ التعريف الذي أعطاه أولبيانوس للعدالة المدنيّة على غاية من الأهميّة، فهو يقول إنّها «*نوع من الحقّ المحتمل، غير معروف طبيعيًّا لدى كلّ الناس*، (على غرار العدالـة الطبيعيّـة)، *بل لدى البعض فحسـب، الذيـن يتمتّعون بالحـذر والتجربة والعلم، تعلّموا ما هو ضروري للحفاظ على المجتمع البشري*»[1]. بعبارة أخرى أكثرُ بساطةً هي ما يسمّى داعي المصلحة العليا.

١١١

[§ ٣٢١] إنّ المؤكّـد فـي القوانيـن ليس إلّا غموض الداعي المسـانَد فقط من طرف السـلطة، ولهـذا السـبب يبدو لنا تطبيـق القوانين قاسـيًا؛ ومع ذلك فنحـن مجبرون على

---

(١) ورد باللاتينيّة: *probabilis quaedam ratio, non omnibus hominibus naturaliter cognita, sed paucis tantum, qui, prudentia, usu, doctrina praediti, didicerunt quae ad societatis humanae conservationem sunt necessaria*.

تطبيقها لأنّها «مؤكّدة»، والذي يعني في اللاتينيّة مخصّص، أو كما تقول المدارس، مفرّد، وبهذا المعنى فإنّ *certum* [مفرّد] و*commune* [معمّم] في اللاتينيّة يتعاكسان.

[§ ٣٢٢] هذه المسلّمة مع التعريفيْن اللاحقيْن تمثّل مبدأ الداعي الضيّق الذي قاعدته هي العدالة المدنيّة. ويقين هذه العدالة المدنيّة أي بالتحديد المميّز لهذه الكلمات يكتفي طبيعيًّا الهمجيّون ذوو الأفكار الخصوصيّة المحدودة، وبمقتضاها يحدّدون حقوقهم: لذا يقول أولبيانوس في هذه الحالات «القانون قاس ولكنه مكتوب» (*lex dura est, sed scripta est*)؛ ولكن بإمكاننا أن نقول بلاتينيّة أجمل وملائمة أكثر: *lex dura est, sed certa est* أي «القانون قاس ولكنّه مؤكّد».

١١٢

[§ ٣٢٣] بالنسبة لمن يتمتّع بالذكاء، القانون هو كلّ ما يُملي في كلّ قضيّة المنفعة المتساوية للجميع.

١١٣

[§ ٣٢٤] الحقيقي في القوانين هو نوع من النور والسطوع يضيئها به الداعي الطبيعي، حتّى أنّ المشرّعين اعتادوا قول *Verum est* [هذا صحيح] لقول *aequum est* [هذا عادل].

[§ ٣٢٥] هذا التعريف وكذلك ما جاء في ١١١ هي *قضايا خصوصيّة* تمدّنا بالبراهين بخصوص الموضوع المحدّد الذي هو حقّ الناس الطبيعي. وهما متأتّيتان من المسلّمتيْن العامّتيْن ٩ و١٠ اللتيْن تتناولان *الحقيقي والمؤكّد*. هذه القضايا ستسمح لنا بالخروج باستنتاجات تتعلّق بكلّ المواضيع التي سنتناولها في هذا الكتاب.

١١٤

[§ ٣٢٦] إنّ العدالة الطبيعيّة في الفكر البشري كامل التطوّر ليست سوى ممارسة المعرفة فيما يخصّ أمور المنفعة؛ لأنّ المعرفة في كلّ عظمتها لا تعدو أن تكون عِلم استعمال الأشياء حسب الغاية التي جعلتها لها الطبيعة.

[§ ٣٢٧] هـذه المسـلّمة مـع التعريفيْـن اللاحقيْـن تمثّـل مبـدأ الداعي النافـع، الذي تحكمه العدالة الطبيعية. هذا الداعي نشأ مع حضارة الأمم. ومن مدارسها العموميّة، كما سنبيّن لاحقًا[1]، خرج الفلاسفة.

[§ ٣٢٨] هـذه القضايـا السـتّ الأخيـرة تؤكّد ما يلـي: أنّ العناية الإلهية هـي المرتِّبة للقانـون الطبيعي البشـري؛ وبما أنّ الأمم طيلة قـرون عديدة كان عليها أن تعيش دون أن تـدرك لا الحقيقـة ولا العدالـة الطبيعيّـة اللتيْـن اكتشـفهما الفلاسـفة لاحقًا، فقـد اكتفت بالمؤكَّد وبالعدالة المدنيّة المحفوظة بعناية في لغة القوانين. وقد شـاعت أن تُحترم هذه القوانين عمومًا، مع أنّ احترامها كان قاسيًا أحيانًا، للحفاظ على وجود الشعوب والأمم.

[§ ٣٢٩] هـذه القضايـا السـتّ التـي كان يجهلهـا الزعمـاء الثلاثـة لمذهـب القانون الطبيعـي البشـري [غروتيوس، سـلدن وبوفاندورف] جعلتهم يسـقطون فـي الخطأ أثناء وضع نظريّاتهم؛ ذلك لأنّهم ظنّوا أنّ العدالة الطبيعيّة بمعناها الأسمى كانت معروفة لدى الأمم الوثنيّة منذ نشأتها، دون أن يخطر ببالهم أنّه لزم مرور حوالي ألفيْ سنة لكي يخلق لدى بعضها فلاسفة، ولم يكن من بينها شعب اختاره الربّ الحقّ وميّزه.

---

(١) انظر § ١٠٤٠ وما يتبع.

[القسم الثالث]

في المبادئ

[§ ٣٣٠] الآن، لكي نعرف إن كان بإمكان القضايا التي طرحناها إلى حدّ الآن باعتبارها عناصر لهذا *العِلم* أن تعطي شكلاً للمواضيع التي أدرجناها في الجدول الزمني، على القارئ أن يفكّر في كلّ ما كُتب إلى حدّ الآن حول مبادئ أيّ جزء كان من العلوم الإلهية والإنسانية لدى الأقوام الوثنيّة. ولينظر إن لم يكن هناك شيء يناقض القضايا التي طرحناها، وإن وجد فيما كتبنا إلى حدّ الآن حول هذه المواضيع *ما* يتناقض فعلا مع واحدة من هذه القضايا، فليكن واثقًا أنّها ستكون جميعها في تناقض معه، لأنّ كلّ واحدة من القضايا في توافق تام مع جميع القضايا الأخرى. ومتى قام القارئ بهذا التحليل فإنّه سيتفطّن إلى أنّ كلّ ما كُتب إلى حدّ الآن ليس إلّا نتاج ذكريات غامضة أو حلم خيالات مريضة، وليس نتيجة عقل سليم. إنّ الغرور بنوعيْه الذي سبق ذكره في مسلّماتنا[1] كان من نتائجه أنّه سجن هذا العقل ودفعه إلى الخمول. إذ أنّ غرور الأمم التي تزعم جميعها أنّها الأقدم في الزمن يجعلنا نيأس من اكتشاف مبادئ هذا العلم لدى الفقهاء. ومن جهة أخرى فإنّ غرور العلماء الذين يريدون إثبات أنّ حقيقة نظريّاتهم مُعترف بها في كلّ زمن في العالم أجمعه يجعلنا نعدل عن طلب هذه المبادئ من الفلاسفة. وعليه فإنّ إقدامنا على هذا البحث يستوجب منّا أن نعتبر وكأنّ الكتب غير موجودة.

[§ ٣٣١] إلّا أنّنا في هذه الظلمات الكثيفة التي تغلّف العصور القديمة الأولى نبصر نورًا سرمديًّا لا يعرف الغروب، نور هذه الحقيقة، التي لا يمكن أبدًا وضعها موضع الشكّ، وهي أنّ هذا العالم المدني قد بناه دون شكّ البشر، وعليه فبالإمكان، بل من الضروري، أن نبحث عن مبادئه في تغيّرات عقلنا البشري نفسه. وعند التفكير في هذا

(١) انظر §§ ١٢٥، ١٢٧.

الأمر فإنّنا نتعجّب من أن الفلاسفة اجتهدوا لمعرفة سرّ هذا العالم الطبيعيّ، الذي صنعه الربّ وهو وحده يعرف ناموسه، بينما أهملوا التفكير في عالم الأمم أو العالم المدني، مع أنّ هذا الأخير قد صنعه البشر، وبالإمكان معرفته وشرحه بواسطة العلم الإنساني. هذه الغرابة هي نتيجة عجز العقل الإنساني الذي، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك في المسلّمات[1]، لكونه غارقًا ومدفونًا في الجسم فهو يميل إلى الاهتمام بالأمور الجسديّة، ولا يمكنه دون جهد كبير أن يتوصّل إلى معرفة ذاته: مثل العين التي تبصر كلّ الأشياء الخارجيّة ولا تقدر على رؤية نفسها دون اللجوء إلى مرآة.

[§ ٣٣٢] وبما أنّ عالم الأمم هذا قد أنشأه البشر، لنعاين ما هي الأشياء التي وجد جميع البشر أنفسهم متّفقين عليها دائمًا ولا زالوا إلى اليوم على اتّفاق بشأنها. لأنّه من معرفتها سنعرف المبادئ الشاملة والدائمة التي قامت عليها الأمم وحافظت بها على وجودها.

[§ ٣٣٣] نحن نلاحظ أنّ جميع الأمم سواء منها البربريّة أو المتحضّرة رغم المساحات الشاسعة التي تفصلها، ورغم الأزمنة المختلفة التي تأسّست فيها، تحتفظ بهذه التقاليد الإنسانية الثلاثة: كلّها تمتلك ديانة، جميعها تملك طقوس زواج، وجميعها تدفن موتاها. حتّى لدى الشعوب الأكثر همجيّة والأكثر قسوة ليس هناك فعل بشريّ يُحتفل به بأكثر أبّهة وجلالاً من الطقوس الدينيّة ومحافل الزواج ومراسم الدفن. وقد سبق أن ذكرنا في إحدى مسلّماتنا[2] أنّ وجود أفكار مماثلة لدى شعوب مختلفة لا يعرف بتاتًا أحدها الآخر لا بدّ أن يكون لها مبدأ مشترك من الحقيقة. هناك إذن شيء ما عَلّم دون شكّ جميعَ الأمم هذه المبادئ الثلاثة البشريّة، وعليها جميعها أن تحترم بدقّة هذه التقاليد لكيلا يعود العالم إلى سابق وحشيّته وضراوته. لهذا السبب اتّخذنا هذه التقاليد الثلاثة السرمديّة والكونية لنجعل منها المبادئ الثلاثة الأولى لهذا العِلم.

[§ ٣٣٤] يحاول الرحّالة الحديثون عبثًا نفي الأوّل من هذه المبادئ قائلين إنّ شعوب البرازيل وسود جنوب إفريقيا، وشعوبًا أخرى من العالم الجديد، وكذلك ما رواه أنطوان

(١) § ٢٣٦.

(٢) § ١٤٤.

أرنولد[1] عن سكّان الجزر المسمّاة أنتيل، أنّها تعيش حياة مجتمع دون معرفة أيّ ربّ. ولعلّ بايل[2] اقتنع بذلك عندما أكّد في كتاب *الشُعب السيّارة* أنّ الشعوب تستطيع أن تعيش بعدل دون نور الإله. ولم يصل بوليبيوس[3] إلى هذا الحدّ، مع أنّ الكثيرين يوافقونه الرأي في أنّه لو وُجد على هذه الأرض فلاسفة قادرون على العيش بعدل من خلال التحكّم بالعقل وليس بالشرع لما احتاج العالم إلى الديانات. ليست هذه إلّا حكايات رحّالة يُضفون بها مزيدًا من التشويق على أخبارهم المليئة بالوحوش. وقد تعرّض أندرياس روديجر[4] للوم شديد من طرف أحد مراقبي جامعة جينيف، هذه الجمهوريّة الحرّة والشعبيّة التي يُسمح فيها بالتعبير الحرّ عن الآراء؛ لأنّه قال إنّ فيزيائيّته التي نعتها بغرور *بالإلهيّة*، إنّها الطريق الوحيدة المتاحة بين الإلحاد والمعتقدات. وقد لامه مراقبو جينيف لأنّه تحدّث بثقة مبالغ فيها، وبعبارة أخرى بكثير من الجرأة؛ لأنّ كلّ الشعوب تؤمن بربّ يوليها عنايته، ولكنّنا لم نعثر إلّا على أربع ديانات بدائيّة على مدى القرون الماضية وعلى امتداد العالم المتمدّن: الأولى هي ديانة العبرانيّين والتي تأتي منها الثانية التي هي ديانة المسيحيّين، وكلتاهما تؤمن بألوهيّة فكر حرّ ولامتناهٍ؛ *والثالثة* هي ديانة *الوثنيّين* الذين يؤمنون بآلهة متعدّدة متكوّنة من جسم ومن فكر حرّ، ولهذا السبب يسمّي الوثنيّون *Deos immortales*، الإله الذي يؤسّس العالم وينظّمه ويحفظه؛ والدين الرابع والأخير هو دين المسلمين، الذين يؤمنون بألوهيّة فكر لامتناهٍ وحرّ، في جسم لامتناه، إذ أنّهم ينتظرون جزاءً لحسناتهم أن ينعموا بملذّات الآخرة.

[§ ٣٣٥] لا توجد أمّة آمنت برب كلّه جسد، ولا بربّ كلّه عقل وغير حرّ. لذا فلا الأبيقوريّون الذين يؤمنون بربّ كلّه جسد معرّض للصدفة، ولا الرواقيّون الذين لا يؤمنون إلّا بربّ يخضع جسده اللامتناهي وفكره اللامتناهي إلى القدر، كما يقول ذلك أيضًا أتباع سبينوزا، أمكنهم أبدًا أن يتحدّثوا عن الجمهوريّات وعن القوانين. وبالفعل، فإنّ بنيدكتوس سبينوزا[5] يتحدّث عن الجمهوريّة كما لو كانت شركة تجّار. ولهذا

---

(١) Antoine Arnauld [١٦١٢-١٦٩٤]، كاهن فرنسي، لاهوتي، فيلسوف وعالم في الرياضيّات.

(٢) Pierre Bayle [١٦٤٧-١٧٠٦]، فيلسوف فرنسي، كاتب ومعجميّ.

(٣) بوليبيوس [حوالي ٢٠٠ - ١٢٠ ق.م.] مؤرّخ وسياسي يوناني. (سبق ذكره، § ١٦٥)

(٤) هو Andreas Rüdiger [١٦٧٣-١٧٣١]، فيلسوف وفيزيائيّ ألماني.

(٥) هو باروخ سبينوزا [١٦٣٢-١٦٧٧] فيلسوف هولندي من أعظم فلاسفة القرن ١٧.

السبب نفسه قال شيشرون للأبيقوري أتّيكوس إنّه لا يمكنه أن يتناقش معه في القوانين، إلّا إذا قبل بوجود عناية إلهية. نرى إذن إلى أيّ حدّ يمكن للطائفتيْن الأبيقورية والرواقيّة أن تتوافقا مع التشريع الروماني الذي يجعل من العناية الإلهية مبدأه الأساسي!

[§ ٣٣٦] ثمّ، إنّ الرأي القائل بأنّ القِران الحرّ خارج مؤسّسة الزواج بين الرجل والمرأة لا يعتبر إثمًا، وهو ما تنفيه كلّ أمم العالم التي تحتفل دينيًّا بطقوس الزواج، وبهذا تعترف ضمنيًّا بأنّ هذا التزاوج الطبيعي يمثّل، وإن كان بدرجة دنيا، خطيئة حيوانيّة. ففي هذا النوع من العلاقة التي لا يوجد فيها بين المتعاشريْن أيّ رباط ضروري بموجب قانون، يشتّت الوالدان أبناءهم الطبيعيّين، الذين يجدون أنفسهم محرومين من العناية التي تتطلّبها حالتهم الهشّة، ويصيرون عرضة لأن تلتهمهم الكلاب إن لم تشفق عليهم رحمة إنسانيّة عموميّة أو خاصّة فتنجدهم وتعتني بهم، كما أنّهم سيعيشون دون تعلّم الدين، واللغة ولا شيء من سلوك البشر. فهذه الروابط الوقتيّة ستجعل من هذا العالم -الذي هو اليوم ثريّ بكلّ مرافق العيش ممّا أبدعته الفنون وممّا جادت به الحضارة- نفس ما كان عليه في الأزمنة الأكثر قدمًا، أي غابًا موحشًا تجوبه الحيوانات المفترسة، مثل حيوانات أورفيوس، تعيش في ضراوة الجهل، حيث يستسلم فيه الأبناء وأمّهاتهم والآباء وبناتهم إلى سطوة الحواسّ الجامحة الحيوانيّة. وهو الإثم الآثم في العالم الخارج عن القانون الذي أراد سقراط ببراهين فيزيائيّة أن يبيّن أن هذه الروابط لا تقبلها الطبيعة لأنّ الطبيعة البشريّة لا تقبلها. لذا فهذا النوع من العلاقة مكروه طبيعيًا لدى جميع الأمم، ولا يمارسه بعضها إلّا في فترات انحلالها الأخير مثلما حدث للفرس.

[§ ٣٣٧] أخيرًا، لكي نفهم كم هو صحيح أنّ دفن الأموات يمثّل أحد أهمّ المبادئ البشريّة، يكفينا أن نفترض حالة من الهمجيّة تُترك فيها الجثث دون دفن لتصير فريسة للجوارح وللكلاب. سيكون من نتائج هذه العادات الوحشية أن تصبح الحقول والمدن مهجورة، وسيبحث البشر مثل الخنازير عن البلوط ليقتاتوا منه وسط تعفّن جثث أمواتهم. ولهذا السبب سُمّي الدفن بهذه العبارة الرائعة *معاهدات الجنس البشري* (*foedera generis humani*) ونعته تاسيتوس بعبارة أقلّ سموّاً *مبادلات البشريّة* (*humanitatis commercia*). ومن الواضح، إضافة إلى ذلك، أنّ كلّ الأقوام الوثنيّة كانت على اتّفاق في الرأي بأنّ الأرواح لن تجد السلام على الأرض طالما بقيت

أجسـادها دون دفن. فجميع هذه الأمم كانت تؤمن بأنّ الأرواح لا تموت مع الأجسـاد، وهـي إذن سـرمديّة، وهـو مـا يؤكّده لنـا هوغونـي لينشـتّانو[١] بخصوص شـعوب غينيا، وأكوسـتا[٢] بخصـوص شـعوب البيـرو والمكسـيك، وطومـاس هاريـوت[٣] بخصوص شـعوب فرجينيا، وريتشـارد وايتبـورن[٤] بخصوص شـعوب إنكلترا الجديـدة، ويوزيفّو سـكولتينيو[٥] بخصوص شـعوب مملكة سـيام. ولنختم بالاسـتنتاج التالـي الذي جاء به سـينيكا «*حين نتكلّم عن الخلود، فإنّ التوافق العامّ بين البشـر الذين يخافون آلهة العالم السفلي ويجلّونهم ليس قليل الأهميّة: إنّني أشاطر هذا المعتقد العامّ*»[٦].

(١) اسمه الأصلي هو Hugo Van Linschooten [١٥٦٣-١٦١١] رحّالة وبحّار من أصل هولندي.

(٢) هو José de Acosta [١٥٣٩-١٦٠٠]، يسـوعي إسـباني من القرن السـادس عشـر، مبشّـر وعالم طبيعيّات بأمريكا اللاتينيّة مؤلّف كتاب *Historia natural y moral de las Indias* (١٥٩٠).

(٣) Thomas Harriot [١٥٦٠-١٦٢١] عالم إنكليزي في الرياضيّات وفي الفلك.

(٤) Richard Whitbourne [١٥٧٩-١٦٢٦]، بحّار ورجل إدارة بريطاني.

(٥) اسـمه الأصلـي هـو Joost Schoutten [١٦٠٠- ١٦٤٤]. قنصـل هولنـدي في بلاد سـيام. كان رجل إدارة ودبلوماسي وتاجر بالجنوب الشرقي لآسيا، تايلندا وإندونيسيا.

(٦) ورد باللاتينية: *Quum de Immortalitate loquimur, non leve momentum apud nos habet consensus hominum aut timentium Inferos, aut colentium: hac persuasione publica utor.*

[القسم الرابع]

في المنهج

[§ ٣٣٨] لكي نتمّ تحديد المبادئ التي أعطيناها *هذا العِلم*، بقي علينا أن نتحدّث في هـذا الكتـاب الأوّل عـن المنهـج الـذي ننوي استعماله. هـذا العلم، كما سـبق ذكره في المسلّمات[١] ينبغي أن يبدأ بالمادّة أو بالموضوع الذي يدرسه، إلاّ أنّنا نجد أنفسنا عندئذ مضطرّيـن إلـى أخذ عناصرها حسـب قول الفقهاء مـن أحجار ديوكاليون وبيـرّا[٢]، ومن صخور أمفيون[٣]، ومن البشـر الذين نشـؤوا من أخاديد قدموس[٤] أو من صلابة سنديان فرجيـل[٥]. وحسـب الفلاسـفة مـن ضفـادع أبيقـور، ومـن زيـزان هوبـس، ومـن مغفّلي غروتيـوس ومـن البشـر الذيـن رُمـي بهم علـى الأرض دون عون أو سـند مـن الإله كما صوّرهـم لنا بوفاندورف، يشـبهون في خشـونتهم وضراوتهم الجبابـرة المدعويّن بـ *los patacones*، الذيـن يُقـال إنّهم يسـكنون قرب مضيـق ماجلاّن، ويذكّرونـنا ببوليفيموس هوميـروس، الذيـن يـرى فيهـم أفلاطـون الآباء الأوائـل في عهد الأُسَـر، (هـذه هي إذن الأسس التي أقام عليها الفقهاء والفلاسفة هذ العلم الذي يدرس مبادئ البشريّة!). ومع ذلك فنحن نريد أن يبدأ هذا العِلم من الوقت الذي بدأ فيه البشـر يفكّرون كبشـر، ونريد أن نتبع هؤلاء البشـر في وحشـيّتهم الضارية وفي جموح شهواتهم الحيوانيّة، لنظهر أنّهم لـم يقدروا على الخـروج من هذه الحالة الهمجيّة إلّا من خلال فكرة ألوهيّة مفزعة؛ لأنّ الخشية من الربّ، كما سبق قوله في المسلّمات[٦]، هي الوسيلة الوحيدة الناجعة لانتزاع

---

(١) § ٣١٤.

(٢) § ٧٩.

(٣) § ٨١.

(٤) § ٦٧٩.

(٥) *الإنيادة*، VIII، ٣١٥.

(٦) § ١٧٧.

الإنسان من إباحيّته المتوحّشة. وللتوصّل إلى الطريقة التي ظهرت بها هذه الفكرة الإنسانيّة الأولى لدى الأمم الوثنيّة، كان علينا أن نتغلّب على العديد من الصعوبات الجمّة مكرّسين عشرين سنة من الأبحاث، وكان علينا أن ننزل من علياء طبيعتنا المتحضّرة إلى طبيعة البشر الأوائل المتوحّشة والقاسية، وهي طبيعة لا يمكننا حتّى تصوّرها، ولا يمكننا فهمها إلّا بمشقّة كبيرة.

[§ ٣٣٩] لبلوغ الغاية التي اعتزمناها، يجب علينا قبل كلّ شيء أن نجد متصوّرًا للإله لم يكن البشر حتّى في همجيّتهم ووحشيّتهم وضرواتهم مجرّدين منها، وهذا المتصوّر هو في رأينا هذا: أنّ الإنسان حين امتلكه اليأس من كلّ عون من الطبيعة، بحث له عن كيان أسمى من الطبيعة. وهذا الكيان هو الربّ. هذا هو النور الذي أشعّ به الربّ على عباده. وما يؤكّد لنا هذا هو منحى الطبيعة البشريّة، الذي يحمل الفاسقين على الارتماء بين أحضان الدين كلّما تقدّمت بهم السنون وضعفت قواهم الطبيعيّة.

[§ ٣٤٠] إلّا أنّ هؤلاء الرجال الأوائل، الذين صاروا بعد ذلك أمراء الأمم الوثنيّة، كانوا مضطربي الفكر وتخالجهم أهواء عنيفة، أي أهواء حيوانيّة. سيكون علينا إذن، لإيجاد منشأ الصورة المريعة للآلهة التي ستكبح هذه الأهواء الشرسة وتحوّل هؤلاء البشر من متوحّشين شرسين إلى إنسانيّين، إلى نوع من الميتافيزيقا العاميّة، كنّا قد أشرنا إليها في المسلّمات[1]، والتي كانت أيضًا لاهوتيّة الشعراء. فمن هذه الصورة المريعة نشأ الجهد، وهو ميزة خاصّة بالإرادة البشريّة، الذي يمثّل أداة بيد الإنسان الحكيم والإنسان المتحضّر لكبح الحركة التي يفرضها الجسد على العقل، إمّا بسيطرة الأوّل عليها بصفة كاملة، أو بتحكّم الثاني بها لتوجيهها نحو المسار الأفضل. هذه القدرة على كبح الحركة الجسديّة هي ناتجة دون شكّ من قرار بشري ومن إرادة حرّة. لذا فإنّ الإرادة هي مقرّ كلّ الفضائل، وبالخصوص منها فضيلة العدل، إذ أنّها تعلّمها أين يوجد ما هو عادل ومنصف، بل وتحدّد كلّ الحقوق الموجودة. وبإعطاء الأجساد القدرة على الجهد، يُعطى لها القدرة على التحكّم في حركاتها. كلّ الأجساد هي العوامل الضروريّة للطبيعة، وما يسمّيه الميكانيكيّون الطاقة والقوّة والجهد، ليست إلّا الحركات اللامحسوسة لهذه

---

(١) § ١٨٢.

الأجساد نفسها، التي تقترب بواسطتها حسب الميكانيكا القديمة من مركز جاذبيّتها، أو تبتعد حسب الميكانيكا الحديثة من مركز حركتها.

[§ ٣٤١] إلّا أن فساد طبيعة الإنسان سمحت لحبّ الذات بأن تطغى عليها، وبأن تستعملها فقط في صالح منفعته الخاصّة. وهو ما يجعل الإنسان عاجزًا عن التغلّب على أهوائه أو على توجيهها نحو ما يناسب العدل. وهذا ما يجعلنا نؤكّد أنّ الإنسان في حالة الهمجيّة لم يهتمّ إلّا بنجاته. حين اتّخذ له زوجة ورُزق بأبناء اهتمّ بنجاته وبنجاة أسرته، وحين انضمّ إلى الحياة المدنيّة اهتمّ بنجاته وبنجاة المدينة؛ ولمّا امتدّت سلطته على شعوب عدّة اهتمّ بنجاته وبنجاة الأمم، وحين جمعت بين الأمم حروب وسلم وتحالفات وتجارة، اهتمّ بنجاته وبنجاة كلّ الجنس البشري. في جميع هذه المراحل المختلفة ما كان يهمّ الإنسان بالأساس هو منفعته: ولكن العناية الإلهية وجّهته في مختلف تطوّرات وضعيّاته ومنافعه وظروفه إلى أن يحمي بعدل العائلات، والمدن، وأخيرًا المجتمع البشري. في العالم المنظّم بهذه الصفة، لا يمكن للإنسان أن يفعل ما يريد، بل ما تمليه المنفعة العامّة، أي ما هو عادل. وهكذا، للحفاظ على المجتمع البشري، تدير العناية الإلهية العدالة وتجعل منها المدبّرة لكلّ عدالة على هذه الأرض.

[§ ٣٤٢] لذا فإنّ أحد الفروع الأساسيّة لهذا العلم يجب أن يكون لاهوتيّة مدنيّة ومعقلنة للعناية الإلهيّة. ونحن نعتقد أنّها لم توجد إلى حدّ الآن، لأنّ الفلاسفة إمّا أنّهم تجاهلوها تمامًا مثل الرواقيّين والأبيقوريّين، قائلين إنّ تفاعلاً أعمى للذرّات هو الذي يحرّك ويدير شؤون العباد، أو أنّ سلسلة لامرئيّة من العِلل والمعلولات تسيّرهم. بينما اعتبرها آخرون مدبّرة الشؤون الطبيعيّة، لذا سمّوا اللاهوتيّة الطبيعيّة بالميتافيزيقا. وهذه هي خاصيّة الربّ الوحيدة التي يعرفونها ويتأمّلون فيها، جاهدين لإثباتها من خلال النظام المادّي الذي يرصدونه في حركة الأجرام، مثل الكواكب والعناصر، معتبرين في نهاية الأمر العناية الإلهية هي العلّة النهائيّة للظواهر الطبيعيّة الأخرى التي لاحظوها. ومع ذلك فإنّ اسم *Divinità* نفسه الذي أُعطي للعناية الإلهية كان ينبغي أن يجعلهم يعترفون بدورها في اقتصاد الشؤون المدنيّة، إذ أنّ هذا الاسم مشتقّ من *divinari* أي يتنبّأ، أو يدرك الأشياء الخفيّة عن البشر، أو المستقبل، أو الأشياء الخفيّة داخل البشر، أو الضمير. أمّا الأولى فهي الأشياء الإلهية، وهي تشكّل الجزء الأوّل والأساسي من

موضـوع التشـريع؛ والثانيـة، التي هي الأشـياء البشـريّة، فهي تابعة للأولـى ومكمّلة لها. وعليه فإنّ هذا *العِلم* يجب أن يكون برهنة، إن جاز القول، على العناية الإلهية؛ باعتبارها شـأنًا تاريخيًـا، إذ يجـب أن يكـون تاريخ القوانين -التـي منحتها العنايـة الإلهيّة إلى هذه المدينة العظيمة التي يسكنها الجنس البشري- دون مساهمة أو نصيحة العنصر البشري، وفي غالب الأحيان ضدّ توقّعات ومشاريع البشر. وبالفعل، مع أنّ هذا العالم قد خُلق في وقته وصفته، فإنّ القوانين التي تحكمه شاملة وسرمديّة.

[§ ٣٤٣] لهـذا كلّـه، فـإنّ هذا العلم يجـد في تأمّـل العناية الإلهيـة اللامتناهية بعض الأدلّـة الإلهيـة التي تصلح له في الآن نفسـه إثباتًا وبرهنة؛ ذلـك أنّ العناية الإلهية لكونها مدبَّرة من العليّ القدير، يجب عليها أن تفسّر قوانينها بطرق واضحة وبسيطة بقدر ما هي عليه العادات الطبيعيّة للبشر. وبما أنّ النّصح يأتيها من الحكمة اللامتناهية، يجب عليها أن ترتّـب كلّ شـيء بكمـال؛ وبمـا أن غايتها هي طيبتها العظيمة نفسـها، يجـب عليها أن توجّه عملها نحو خير أعظم وأكمل من الخير الذي أراد البشر أنفسهم تحقيقه.

[§ ٣٤٤] فـي ظلمـة البدايات المحزنة للأمم وفي تنوّع عاداتهـا اللامتناهي، أيُّ أدلّةٍ أفضـلُ؟ وأيُّ أدلّـةٍ أعظمُ نبتغيهـا لصالح هذا البرهان الإلهي الـذي يحتوي ويتضمّن كلّ الأشـياء البشـريّة من تلك المستمدّة من التلقائيّة ومن تنظيم الأحداث التي تقع على هذه الأرض، وكذلك من غايتها التي هي الحفاظ على الجنس البشري؟ ستبدو لنا هذه الأدلّة سـاطعة وحاسـمة، لو فكّرنا في السـهولة التي تقع بها الأشـياء والأحداث، وفي الطريقة التـي جاءت بها من أبعاد شاسـعة، وخلافًا لكلّ التوقّعات البشـريّة، لتأخذ المكان الذي عيّنه لها الربّ. هذه هي الأدلّة التي تتكشّف لذهننا من أوّل وهلة على قدرة الإله العظيمة. ثـمّ ينبغي تركيبها معًا، لنرى كيف أنّ الأشـياء تنشـأ في الزمـان والمكان اللذين يصلحان لها، وكيف أنّ أشـياء أخرى تنتظر أن يأتي دورها ويحين وقتها لكي تنشـأ، الشـيء الذي يمثّل حسب هوراثيوس[١] جمال النظام كلّه. يجب علينا أن نتعرّف في هذه الوقائع على البراهيـن التـي تثبت وجود الحكمة السـرمديّة. ولنعتبر أخيرًا، بالقدر الذي يسـمح به لنا عقلنا، لو أنّ حسنات إلهية أخرى مُنّ بها علينا عوضًا عن تلك التي تلقّيناها في المناسبات وفي الأوقات التي وقعت فيها تلك الأحداث، فإنّنا نعترف أنّ لا شـيء يمكنه أن يسـهم

---

(١) في *الفنّ الشعري*، ٤٢-٤٥.

أكثر في إرضاء العباد، أو يُبعد عنهم الأهوال التي تهدّدهم: وهذه هي الأدلّة التي تتجلّى لنا عن طيبة الإله السرمديّة.

[§ ٣٤٥] ولـذا فـإنّ الدليـل الملائـم والدائم الـذي نعتزم تقديمه في هـذا العمل عن تولّي العناية الإلهية إدارة شؤون هذا العالم، سيبرز في كون الفكر البشـري لا يمكنه أن يجد في سلسلة الأشياء الممكنة التي يمكن لنا فهمها أسبابًا أخرى لنتائج العالم المدني. بالتفكيـر والتأمّـل في كلّ هذا سيشـعر القـارئ في كينونته الفانية برضـى ربّاني من خلال تأمّلـه فـي هـذا العالم مـن الأمم، في تنوّعـه كلّه، وفي امتـداده كلّه في الزمـان والمكان، حسـب أفـكار الـربّ. وسـيمكنه الردّ فـي الآن نفسـه علـى الأبيقوريّيـن أنّ الصدفة التي يتحدّثون عنها لا يُمكنها أن تتوه بجنون وبدون قاعدة، وعلى الرواقيّين بأنّ سلسلة العلل الدائمـة التـي تصوّروا أنّها تجرّ بها العالـم وراءها هي نفسـها مرتبطة بـإرادة العليّ القدير وبحكمته وطيبته العظيمتيْن.

[§ ٣٤٦] هذه الأدلّة السـاطعة، اللاهوتيّة والطبيعيّة، ستجد ما يؤكّدها في المقولات التالية من البراهين المنطقيّة؛ بحيث أنّه عند دراسـة منشـأ الأشـياء الإلهية والبشـريّة عند الوثنيّيـن، سـنصل إلـى هذه العلـل الأولى وإلى هـذه البدايات الأولى، والتـي لن يدفعنا بعدهـا إلّا فضـول جنونـيّ للبحـث عـن علل أخـرى وعن بدايـات أخرى. هـذه خاصيّة المبـادئ الحقيقيّـة. بهـذه البراهين المنطقيّة سنفسّـر الطريقة التي نشـأت بها كلّ من هذه الأشـياء الإلهيـة والبشـريّة، أي مـا يُسـمّى طبيعـة الأشـياء. وسـنبرز أخيـرًا الخصوصيّـة السـرمديّة للميزة التي تملكها تلك الأشـياء. إذ أنّه لا يمكنها أن تنشـأ لا من علل أخرى، ولا فـي أزمنـة أخـرى، ولا في أمكنة أخـرى، ولا بصفة أخرى غير تلك التي أنشـأها بها الخالق. وهذا ما سبق أن أشرنا إليه في *المسلّمات*[1].

[§ ٣٤٧] للتوصّـل إلى معرفة طبيعة الأشـياء البشـريّة، يبدأ هـذا *العِلم* بتحليل صارم للفكر الإنساني حول الضرورات البشريّة وفائدة الحياة الاجتماعيّة، والتي تمثّل المنبعيْن اللذيْن لا ينفدان للقانون الطبيعي للبشر، كما سبق ذكره في *المسلّمات*[2]. وإذا ما اعتبرناه من هذا المنظار فإنّ هذا *العِلم* يمكن تسميته تاريخ الأفكار البشريّة، الذي ينبغي أن تسير

---

(١) §§ ١٤٧-١٤٨.

(٢) § ١٤١.

عليه ميتافيزيقا العقل البشري. هذا العلم يبدو لنا سيّد العلوم؛ لأنّه مثلما سبق قوله في *المسلّمات*[1]، يجب أن تبدأ العلوم من حيث تبدأ المادّة والمواضيع التي يدرسها، وهذا العلم سيبدأ بالفعل من الأفكار الأولى للبشر الأوائل، وليس من تأمّلات الفلاسفة الأولى بشأن الأفكار البشريّة، مثلما نجد في كتاب علميّ صدر أخيرًا تحت عنوان *تاريخ الأفكار*[2]، الذي يصل بالدرس إلى النقاشات الأخيرة التي جاء بها كلّ من لايبنيتز ونيوتن.

[§ ٣٤٨] لتحديد الأزمنة والأمكنة التي وقعت فيها الأحداث التي تكوّن هذا التاريخ، أي لتحديد فترة وموطن الأفكار الإنسانيّة، ولدعم هذا التاريخ ببراهين زمنيّة وجغرافيّة، بل لنقل أيضًا ميتافيزيقيّة، سنستعمل فنًّا نقديًّا وميافيزيقيًّا سنبحث بواسطته عن مؤسّسي الأمم؛ تلك الأمم نفسها التي لم يظهر فيها الكتّاب الذين اهتمّ بهم إلى حدّ الآن النقد الفقهيّ إلّا بعد ألف سنة. والمعيار الذي يستخدمه هذا الدرس هو ذاك الذي أشرنا إليه في *المسلّمات*[3]، والذي وفّرته العناية الإلهية لجميع الأمم، ألا وهو الحسّ المشترك للجنس البشري الذي يحدّده نفع وضرورة الأشياء البشريّة. النفع والضرورة اللذان يشكّلان كلّ جمال العالم المدني. لذا فإنّ ما يؤسّس هذا العلم هو هذا النوع من البراهين، أي أنّه ما أن تحدّدت قوانين العناية الإلهية إلا هكذا وجب ويجب وسيتوجّب أن يكون مسار الأمم، وكذلك الأمر حتّى لو تصوّرنا أنّه من السرمديّة ستنشأ في الزمن عوالم لامتناهية، وهو ما ثبت أنّه غير صحيح.

[§ ٣٤٩] هذا ما نعتزم البرهنة عليه من خلال هذا *العِلم*، الذي سيكون في الآن نفسه تاريخًا مثاليًّا سرمديًّا تسير فيه جميع الأمم بخطوة متساوية منذ نشأتها، وأثناء تطوّرها، ثمّ في انحلالها ونهايتها. بل ونقول أكثر من ذلك، إذ أنّ عالم الأمم هذا بما أنّه من صنع الإنسان (وهو المبدأ الأوّل الذي حدّدناه بكلّ ثقة) فبإمكان الإنسان أن يرى تحوّلاته في فكره نفسه، بحيث إنّ من يتأمّل في هذا العِلم يكون -بواسطة هذه الصيغة- قد توجّب ويتوجّب وسيتوجّب عليه أن يقصّ على نفسه، ودون اللجوء إلينا، هذا التاريخ المثالي

---

(١) § ٣١٤.

(٢) *Historia de ideis* من تأليف Jacob Brucker [١٦٩٦-١٧٧٠]، وظهر سنة ١٧٢٣.

(٣) § ١٤٢.

والسرمديّ. لن تكون هناك أخطاء في التاريخ إذا كان من يصنع الأشياء هو أيضًا من يسردها. يعمل هذا *العِلم* إذن مثل الهندسة؛ لأنّها تصنع من نفسها عالم العظمة ببنائه من عناصره نفسها. ولكن هذا العلم أكثر يقينًا ممّا هي عليه الهندسة، مثلما أنّ الشرائع التي تدير شؤون البشر هي أكثر واقعيّة، ممّا يمكن أن تكون للنقاط والخطوط والمساحات والصور. ولهذا السبب أيضًا قلنا لك -أيّها القارئ- إنّ هذه البراهين هي ذات طابع إلهي، وينبغي عليها أن تشعرك بمتعة إلهيّة. إذ لدى الربّ وحده كانت المعرفة والخَلق هما الشيء نفسه.

[§ ٣٥٠] إضافة إلى ذلك، كنّا قد أظهرنا عند التعريف بما هو حقيقيّ وما هو مؤكّد[١]، أنّ البشر عاشوا طويلا عاجزين عن معرفة الحقيقة والعقل، اللذيْن يمثّلان منبع العدالة الباطنية، وهي ما ترتضيه العقول. والعبرانيّون الذين أنارهم الربّ الحقّ، والذين حذّرتهم شريعته الإلهية بألاّ يغذّوا أفكارًا جائرة قد مارسوا هذه العدالة الباطنية، بينما لم يكترث لها أيّ مشرّع فانٍ. ذلك لأنّ العبرانيّين كانو يؤمنون بربّ كلّه فكر، يقرأ في قلوب البشر، بينما الوثنيّون كانوا يؤمنون بآلهات متعدّدة متكوّنة من جسد وفكر، وكانت قلوب البشر موصدة لهم. والفلاسفة الذين تناولوا بالدرس هذه العدالة الباطنيّة لم يأتوا إلّا بعد ألفيْ سنة من تأسيس الأمم. في الأثناء حكم البشر أنفسهم بما أسميناه يقين السلطة، أي بالمعيار نفسه الذي يستعمله هذا النقد الميتافيزيقي، والذي هو الحسّ المشترك للعرق البشري الذي سبق أن حدّدناه في *العناصر*[٢]، والذي تقوم عليه ضمائر كلّ الشعوب. ومن هذه الناحية، يمكن اعتبار هذا *العِلم* أيضًا فلسفة السلطة، التي هي، حسب قول اللاهوتيّين الأخلاقيّين، منبع العدالة الخارجيّة. وقد اعتمد الزعماء الثلاثة[٣] الأساسيّون لمذهب القانون الطبيعيّ على هذه السلطة، وليس على تلك المستمدّة من نصوص الكتّاب. لأنّ الكتّاب لا يُمكنهم أن يعرفوا السلطة التي حكمت الأمم قبل أكثر من ألف عام من ظهورهم. وغروثيوس، وهو أكثر علمًا من الاثنيْن الآخريْن، جادل ضدّ المشرّعين الرومان، ولكن دون جدوى؛ لأنّ هؤلاء المشرّعين أسّسوا مبادئ العدالة على السلطة اليقينيّة للعرق البشري، وليس على سلطة العلماء.

---

(١) § ١٣٨.

(٢) § ١٤٢.

(٣) المؤلف هنا يشير إلى: هوغ غراثيوس ويوحنّا سالدن وساموِيل بوفّاندورف، وقد سبق ذكرهم في § ٣١٠.

[§ ٣٥١] هذه هي البراهين الفلسفيّة التي سنستعملها لإرساء هذا *العِلم*، والتي هي ضروريّة تمامًا لمن يريد التأمّل فيه. أمّا البراهين الفقهيّة فستأتي في آخر مقام وستكون كالتالي:

[§ ٣٥٢] (١) أنّ مختلف الأساطير، بتقبّلها كما هي في طبيعيّتها وبساطتها، تتوافق مع هذا *العِلم* في جميع المواضيع التي يدرسها. وسنرى أنّ هذه الأساطير ليست شيئًا آخر غير التاريخ المدني للشعوب الأولى، الذين كانوا -طبيعيًّا وفي كلّ الأصقاع- *شعراء*[١]؛

[§ ٣٥٣] (٢) وفيها شرح الأقوال البطوليّة حسب استنتاجات هذا *العِلم*؛ شرح من شأنه أن يُظهر مشاعرها ونواياها بصدق ودقّة؛

[§ ٣٥٤] (٣) وفيها اشتقاقات اللغات البدائيّة التي تروي تاريخ الأشياء التي تعطينا منها أسماءها، بدءًا بأصل هذه الأسماء نفسها، وباتّباع التطوّرات الطبيعيّة في مرورها من معنى إلى آخر حسب ترتيب الأفكار الذي سار عليه، مثلما سبق قوله في *المسلّمات*[٢]، تاريخ اللغات؛

[§ ٣٥٥] (٤) وفيها يأتي شرح المعجم الذهني للأشياء البشريّة والاجتماعيّة، والتي يكون جوهرها هو نفسه لدى كلّ الأمم، ويُعبَّر عن تغييراتها المختلفة بلغات مختلفة. وقد سبق أن تحدّثنا عن هذا في *المسلّمات*[٣]؛

[§ ٣٥٦] (٥) يفصل هذا *العِلم* ما هو باطل ممّا هو صادق فيما احتُفِظ به في الروايات الشعبيّة طيلة قرون عديدة؛ لأنّ الأشياء التي احتفظت بها شعوب بأكلمها على مدى قرون طويلة، مثلما سبق أن ذكرنا في *المسلّمات*[٤]، لا بدّ أن يكون لها أساس من الصحّة؛

[§ ٣٥٧] (٦) آثار العصور القديمة التي بقيت إلى حدّ الآن دون جدوى للعلم لأنّها ترقد متّسخةً ومهدومةً وفي غير مكانها، وستنيرنا عندما نقوم بتنظيفها وبجمعها وإعادتها إلى مكانها الأصلي؛

---

(١) انظر §§ ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٢٣، ٥٧٩.

(٢) § ١٥١ وما يتبع، ٢٣٨ وما يتبع.

(٣) § ١٦١.

(٤) § ١٤٩.

[§ ٣٥٨] (٧) على كلّ هذه الأشياء، وعلى أسبابها، تقوم النتائج التي يرويها لنا التاريخ الموثوق.

[§ ٣٥٩] ستمكّننا البراهين الفقهيّة من أن نرى *بالفعل* الأشياء التي حملتنا تأمّلاتنا بشأنها إلى فكرة هذا العالم من الأمم، حسب المنهج الفلسفي لفيرولاموس بيكون، الذي يتلخّص بهاتين الكلمتيْن: *cogitare* و *videre*أي «*فكّر وانظر*»، بحيث إنّ البراهين الفقهيّة بما أنّها مسبوقة بالبراهين الفلسفيّة ستجد سلطتها مثبتة بالعقل وفي الآن نفسه سيجد العقل نفسه مثبتًا بسلطتها.

[§ ٣٦٠] لنلخّص إذن كلّ ما قلناه حول تحديد مبادئ هذا *العِلم*. بما أنّ هذه المبادئ هي العناية الإلهية وكبح الأهواء بواسطة الزواج وخلود الأرواح البشريّة من خلال طقوس الدفن؛ وبما أنّ المعيار الذي تستعمله يتمثّل في الاعتقاد بأنّ ما يعتبره كلّ البشر أو الجانب الأعظم منهم عادلاً يجب أن يُعتبر قاعدة الحياة الاجتماعيّة؛ وبما أنّ العلم العامّي لجميع المشرّعين وكذلك العِلم الباطني لأعظم الفلاسفة يتوافقان مع هذه المبادئ ومع هذا المعيار، فيجب أن تكون هذه حدود العقل البشري. وإن أراد أحدهم أن يتجاوزها فليأخذ حذره لأنّه سيجد نفسه خارج الحدود البشريّة.

الكتاب الثاني

في المعرفة الشعريّة

[تمهيد]

[§ ٣٦١] لقد سبق أن قلنا في *المسلّمات*[١] إنّ جميع تواريخ الأمم الوثنيّة كانت لها بدايات خرافيّة، كما رأينا أيضًا أنّ العلماء الأوائل عند الإغريق، الشعب الذي ندين له بكلّ ما نعرف عن العصور القديمة الوثنيّة، كانوا الشعراء اللاهوتيّين. وبما أنّ الأشياء هي بطبيعتها قاسية وفظّة عند نشأتها، فإنّ المعرفة الشعريّة هي كذلك أيضًا في نشأتها، ولا يمكن لها أن تكون غير ذلك. وصيت العظمة الذي بلغت به إلينا هذه المعرفة يعود دون شكّ إلى نوعيْن من الغرور سبق أن تحدّثنا عنهما في *المسلّمات*[٢]، باعتبار أحدهما مرتبطًا بالأمم والآخر بالعلماء. ولعلّ الثاني هو الذي ساهم فيه بالأساس، هذا الغرور هو الذي قاد مانيثون، كبير الكهنة المصريّ، إلى جعل التاريخ الأسطوري المصريّ ينحدر من لاهوتيّة طبيعيّة سامية؛ وهذا الغرور نفسه هو الذي جعل الفلاسفة اليونانيّين يرون في تاريخ بلادهم الأسطوري حقائق فلسفيّة. هؤلاء الفلاسفة، ومانيثون نفسه، لم يعملوا على تكذيب حقيقة هذه الخرافات فقط لأنّها وصلت إليهم، مثلما سبق أن ذكرنا في *المسلّمات*[٣]، محمّلة بالأفعال المشينة، بل للأسباب الخمسة التالية:

[§ ٣٦٢] (١) أولاها تبجيل الدين، لأنّ الأمم الوثنيّة تأسّست على الدين المستمدّ من الخرافات. (٢) ثانيًا، النتيجة العظيمة المتأتّية منه، أي قيام هذا العالم المدني، المنظّم تنظيمًا محكمًا، والذي لا يُمكن إلّا أن ينتج عن حكمة فوق بشريّة. (٣) ثالثًا، المناسبات التي وفّرتها هذه الأساطير المحفوفة بتبجيل دينيّ، كما سنرى لاحقًا[٤]، للفلاسفة لكي يبنوا عليها أبحاثهم ويكتشفوا أشياء رائعة في الفلسفة. (٤) رابعًا، السهولة التي أتيحت للفلاسفة كما سيأتي ذكره لشرح أفكارهم العظيمة والفلسفية بواسطة أشكال لغويّة ورثوها عن الشعراء. (٥) خامسًا وأخيرًا الرغبة الطبيعيّة لدى الفلاسفة في أن تجد

---

(١) § ٢٠٢.

(٢) §§ ١٢٥، ١٢٧.

(٣) § ٢٢١.

(٤) § ٥١٥.

أفكارهم ما يثبتها في سلطة الدين وفي حكمة الشعراء. وهذا السبب الأخير هو الأقوى. ويفسّر لنا السّببين الأوّلين الثناء الذي أولاه الفلاسفة، حتّى وسط أخطائهم، للحكمة الإلهية التي رتّبت عالم الأمم هذا؛ والسبب الأخير يفسّر لنا الشهادات الإيجابيّة التي شهدوا بها لهذه الحكمة نفسها. والثالث والرابع هي الوسائل التي وضعتها العناية الإلهية لإتاحة ظهور الفلاسفة الذين سيتمكّنون بعد ذلك من فهمها ومن معرفتها كما هي في الواقع، أي باعتبارها خاصيّة يتميّز بها الربّ الحقّ.

[§ ٣٦٣] وسنبيّن في هذا العمل أنّ كلّ ما أحسّ به الشعراء بخصوص المعرفة العاميّة، قد فهمه الفلاسفة بعد ذلك بخصوص المعرفة الباطنيّة، بحيث يُمكننا أن نقول بحقّ إنّ الأوّلين يمثّلون الحواسّ، والثانين ذكاء العرق البشري. ويرجعنا هذا إلى قول أرسطو: «*لا يوجد شيء في العقل لم يوجد قبله في الحواسّ*»[1]، أي أنّ الفكر البشري لا يدرك شيئًا إن لم يكن له سبب ما عن طريق الحواسّ، أو ما يسمّيه الميتافيزيقيّون اليوم بالمناسبة. فالفكر البشري عندما يشعر بشيء مّا لا تلتقطه الحواسّ فهو يستعمل العقل. وهذا ما كان يسمّيه اللاتينيّون *intelligere*[2]، أي الفهم.

---

(١) ورد باللاتينية: *Nihil eſt in intellectu, quin prius fuerit in sensu*

(٢) Intellegere فعل لاتيني يعني فهم.

[الباب الأوّل]

في المعرفة بصفة عامّة

[§ ٣٦٤] قبل أن نشرع في الحديث عن المعرفة الشعريّة، ينبغي علينا أن نرى بصفة عامّة ما هي المعرفة. المعرفة هي الخاصيّة التي تدير جميع المناهج التي تمكّننا من تعلّم كلّ العلوم والفنون التي تكتمل بها الحضارة. ويعرّف أفلاطون المعرفة على أنّها كمال الإنسان. فالإنسان في حدّ ذاته ليس إلّا تركيبة من عقل وروح، أي من ذكاء وإرادة. وعلى المعرفة إذن أن تُكمل الإنسان في هذين الجزئيْن، بدءًا من الأوّل ووصولا إلى الثاني كامتداد له. ذلك أنّ الفكر تنيره معرفة الأشياء السامية، وعلى الروح أن تقرّر اختيار الأشياء الممتازة. والأشياء السامية في هذا الكون هي تلك الخاصّة بالربّ، التي يمكننا التأمّل فيها وفهمها. والأشياء الممتازة هي تلك التي تساهم فيما هو خير لجميع العرق البشري. الأولى هي الأشياء الإلهيّة، والثانية هي الأشياء البشريّة. ويجب على المعرفة الحقيقيّة أن تعرّفنا بالأشياء الإلهيّة التي ستقود الأشياء البشريّة إلى أسمى كمالها. ونظنّ أن ماركوس تيرانثيوس فارّو، أعظم علماء الرومان، أسّس على هذه القاعدة عمله العظيم «*الأثريّات الإلهية* والإنسانية» (*Rerum Divinarum, et Humanarum*)[1]، الذي حرمتنا منه صروف الدهر. ونحن نهدف في هذا الكتاب، رغم ضعف علمنا وهشاشة قدراتنا، إلى التوصّل إلى معرفة كلتيْهما.

[§ ٣٦٥] بدأت المعرفة عند الوثنيّين مع إلهة الإلهام، مثلما يعرّفها هوميروس بصفة رائعة في *الأوديسّا* بأنها *عِلم الخير والشرّ*، والذي سُمّي بعد ذلك بعلم العرافة. وعلى تحريمها، لأنّها ممنوعة طبيعيًّا على البشر، أسّس الربّ الدين الحقّ الذي هو دين العبرانيّين، والذي جاءت منه ديانتنا المسيحيّة، كما سبق ذكره في إحدى المسلّمات[2].

---

(١) سبق ذكره، § ٦.

(٢) § ١٦٧.

لذا فإنّ إلهة الإلهام كانت في البداية علم العرافة بواسطة النذور، وهو كما رأينا ذلك في المسلّمات[1]، وكما سنبيّنه لاحقًا، كان العلم الشعبي لدى جميع الأمم، الذي يتمثّل في تأمّل الربّ في خاصيّة العناية الإلهية. بحيث إنّه من الفِعل *divinari* استمدّ الرب اسمه *divinità* [إله]؛ لأنّ العرافة هي معرفة جوهر الإله. وسنرى أنّ الشعراء اللاهوتيّين كانوا أوّل من تعاطوا هذه المعرفة، وبواسطتها أسّسوا الحضارة الإغريقيّة. ولهذا السّبب أعطى اللاتينيّون دائمًا إلى عرّافيهم القضائيّين اسم «معلّمي الحكمة». ثمّ نُسبت كلمة *حكماء* لمشاهير الرجال الذين قدّموا نصائح مفيدة للجنس البشري؛ ولذا نتحدّث دائمًا عن حكماء اليونان السبعة. بعد ذلك استعمِلت كلمة الحكمة للإشارة إلى جدارة الرجال الذين يقودون ويحكمون الجمهوريّات بما فيه خير الشعوب والأمم. ثمّ توسّع معنى كلمة المعرفة ليشمل علم الأشياء الطبيعيّة والإلهيّة، مثل الميتافيزيقا التي تُسمّى لهذا السبب علمًا إلهيًّا. إذ أنّ الميتافيزيقا التي تربط فكر الإنسان بالربّ، والتي تتعرّف فيه على منبع كلّ حقيقة، يكون عليها أن تعتبره المنظّم لكلّ ما هو خير. وعلى الميتافيزيقا إذن أن تعمل لخير الجنس البشري، الذي يتوقّف على العناية الإلهية. لذا استحقّ أفلاطون، الذي بيّن هذه الحقيقة، لقب *الإلهي*، ولذا من يحاول أن ينزع عن الربّ هذه الخاصيّة، عوض أن يُلقّب بالحكيم يجب نعته بالمجنون. وأخيرًا، عند العبرانيّين، وعندنا نحن المسيحيّين، نسمّي المعرفة عِلم الأشياء السرمديّة التي كشفها لنا الربّ، وهو عِلم اعتبره التوسكانيّون *علم الخير الحقّ والشرّ الحقّ*، وربّما لهذا السبب أطلقوا عليه اسم *علم الألوهيّة*.

[§ ٣٦٦] علينا إذن أن نميّز، وهذا أصوب ممّا فعله فارّو، ثلاثة أنواع من اللاهوتيّة. الأولى هي اللاهوتيّة الشعريّة، التي كانت للشعراء اللاهوتيين، والتي كانت اللاهوتيّة المدنيّة لكلّ الأمم الوثنيّة؛ والثانية هي اللاهوتيّة الطبيعيّة، وهي لاهوتيّة الميافيزيقيّين. ويضع فارّو في المحلّ الثالث اللاهوتيّة الشعريّة، التي لم يميّزها الوثنيّون بتاتًا عن تلك المدنيّة. إلّا أنّ فارّو لا يرى الأمر كذلك، ويضع ثلاثة أنواع من اللاهوتيّة: المدنيّة، والطبيعيّة والشعريّة التي يضعها في المقام الأخير، مشاطرًا الخطأ الشائع الذي يعتبر أنّ الأساطير تحتوي على أسرار عميقة تنتمي إلى فلسفة سامية، ومعتبرًا كذلك اللاهوتيّة

---

(١) § ٣٤٢. في قسم المنهج وليس في المسلّمات.

الشعريّة مزيجًا من اللاهوتيّتيْن المدنيّة والطبيعيّة. أمّا نحن فإنّنا نضع عوضًا عن لاهوتيّة فارّو الشعريّة لاهوتيّتنا المسيحيّة، التي تشترك فيها في الآن نفسه اللاهوتيّة المدنيّة والطبيعيّة، مضيفة إلى هاتيْن اللاهوتيّتيْن لاهوتيّة منزّلة سامية جدًّا، فتربطهما إليها في تأمّل العناية الإلهيّة. وقد قادت هذه العناية الإلهية الشؤون البشريّة، التي نظّمتها في الأوّل اللاهوتيّة الشعريّة بواسطة بعض العلامات المحسوسة التي كان ينظر إليها البشر على أنّها تحذيرات أرسلتها الآلهة على الأرض؛ ثمّ جاءت اللاهوتيّة الطبيعيّة وبرهنت على وجود العناية الإلهية من خلال أسباب سرمديّة لا تلتقطها الحواسّ؛ بعد ذلك وجدت الأمم نفسها مستعدّة لتلقيّ اللاهوتيّة المنزّلة، بفضل إيمان خارق للطبيعة يعلو، لا على الحواسّ فقط، بل وأيضًا على الإدراك البشري.

[الباب الثاني]

في المعرفة الشعريّة وتصنيفها

[§ ٣٦٧] الميتافيزيقا هي إذن العلم السامي، الذي يوزّع على جميع العلوم التابعة، أو الثانويّة، المواضيعَ التي عليها أن تدرسها. وعلم القدامى تمّ وضعه في علم الشعراء اللاهوتيين، الذين كانوا دون شكّ أوّل علماء الوثنيين، مثلما سبق أن أوضحنا ذلك في المسلّمات[١]. إلاّ أنّ بدايات الأشياء كانت ولا بدّ قاسية وهمجيّة؛ لهذه الأسباب كلّها ينبغي علينا أن نجعل المعرفة الشعريّة تبدأ بميتافيزيقيّة شعريّة هي الأخرى قاسية وهمجيّة. من هذه الميتافيزيقا -مثل جذع شجرة قويّة- يتفرّع من جهة المنطق والأخلاق والاقتصاد والسياسة الشعريّة؛ ومن جهة أخرى فإن الفيزياء الشعريّة هي أمّ الكسموغرافيا وعلم الفلك، اللذان سيولّدان بدورهما الكرونولوجيا[٢] أو التسلسل الزمني والجغرافيا. سنبيّن بطريقة واضحة ومدقّقة كيف تمثّل مؤسّسو الحضارة الوثنيّة آلهاتهم، بواسطة لاهوتيّتهم الطبيعيّة أي ميتافيزيقيّتهم، وكيف استعملوا منطقهم لتشكيل اللغات، وكيف نشأ من أخلاقهم الأبطال، ومن اقتصادهم تأسّست العشائر، ومن سياستهم تأسّست المدن؛ وكيف أنّهم باستعمال فيزيائيّتهم حدّدوا مبادئ الأشياء الإلهيّة، وبفيزيائيّتهم الخصوصيّة ولّدوا إن جاز القول أنفسهم، وبكوسموغرافيّتهم تصوّروا كونًا لا تسكنه إلّا الآلهات، وبفلكيّتهم نقلوا من الأرض إلى السماوات الكواكب والمجرّات، وبكرونولوجيّتهم حدّدوا بداية الأزمنة، وبجغرافيّتهم أغلق الإغريق، على سبيل المثال، كلّ العالم داخل بلدهم اليونان.

[§ ٣٦٨] ولهذا السبب فإنّ هذا العِلم الذي نحن بصدد درسه هو في الآن نفسه تاريخ الأفكار، والعادات والإنجازات البشريّة، ومن هذه التواريخ الثلاثة ستبرز مبادئ تاريخ الطبيعة البشريّة التي تبدو لنا أنّها مبادئ التاريخ الكوني والتي إلى حدّ الآن كانت تنقصه.

---

(١) § ١٩٩.

(٢) الكرونولوجيا: علم التسلسل الزمني أو المِيقاتيّة أو تاريخ الوقائع، وهي تاريخ الحوادث وفقاً لتسلسل وقوعها وتقسيم الزمن إلى فترات وتحديد التواريخ الدقيقة للأحداث.

[الباب الثالث]

في الطوفان العظيم والجبابرة

[§ ٣٦٩] كان مؤسّسو الأقوام الوثنيّة في البداية يتحدّرون دون شكّ من حام ويافث وسام، الذين بدءًا من حام تركوا تباعًا الدين الحقّ الذي جاء به أبوهم نوح. كان دين نوح، بواسطة الزواج، هو الوحيد القادر على الحفاظ على البشر في حياة المجتمع داخل مؤسّسة الأُسرة. ولهذا السبب، عندما ترك البشر هذا الدين، كسروا روابط الزواج وهدموا الأُسَر من خلال المعاشرات العابرة والاعتباطيّة. وهكذا تاهوا، متّبعين غرائزهم الوحشيّة، في غابة الدنيا الشاسعة. فانتشرت سلالة حام بآسيا الجنوبيّة ومصر وإفريقيا، واحتلّت سلالة يافث آسيا الشمالية، أي سيثيا وأوروبا، بينما توطّنت سلالة سام بوسط آسيا والمشرق. للنجاة من الحيوانات المفترسة التي كانت تجوب بكثرة الغابة الكبرى ولملاحقة النساء اللاتي كنّ متوحّشات وشرسات تشتّت البشر بحثًا عن القوت، والأبناء الذين غالبًا ما كانت أمّهاتهم يتركنهم، كانوا يكبرون وينمون دون سماع أيّ صوت آدمي، ودون تعلّم أيّ من العادات البشريّة. وفي هذه الحالة من العيش الحيوانيّ والمتوحّش كانت الأمّهات يرضعن صغارهنّ مثلما تفعل الحيوانات، ولكنّهنّ لم يكنّ يعتنين بهم ويتركنهم يتمرّغون في أوساخهم، وما أن يكفوا عن الرضاعة حتّى يتركنهم لشأنهم. وبقي هؤلاء وسط البراز وأملاح النتريك التي كانت سمادًا رائعًا يغذّي الحقول وينمّي النبات، وكان عليهم أن يقوموا بجهد كبير للنفاذ عبر الغابة التي جرّاء الطوفان العظيم قد صارت دغلا كثيفًا يتطلّب منهم جهدًا كبيرًا كان يشدّ بعض العضلات ويمدّد بعض العضلات الأخرى، مما جعل أملاح النتريك تنفذ أكثر بأبدان أولئك البشر. وهكذا دون خشية الربّ أو الآباء أو أيّ سيّد آخر، نمت أبدانهم وتقوّت عظامهم بصفة مفرطة، وتعاظمت قوّتهم إلى أن صاروا في النهاية عمالقة. وهذه التربية نفسها وإن كانت معدّلة هي التي اعتبرها قيصر وتاسيتوس سببًا في عظمة قامة الجرمانيّين القدامى؛ والشيء

نفسه يقوله بروكوبيوس[1] عن قامة القوط. وحتّى في زمننا لدينا مثال من نتائج هذه التربية لدى الباتاغونيّين الذين يسكنون -حسب ما يقولون- قرب مضيق ماجلاّن، والذين وفّروا الفرصة للفلاسفة والفيزيائيّين للتفوّه بالعديد من السخافات التي جمعها شسّانيون[2] في كتابه *de Gigantibus* [عن العمالقة]. كما أنّنا لا نزال نعثر (وهذا مهمٌّ بالنسبة إلى ما سنقوله لاحقًا)[3] خصوصًا فوق الجبال المرتفعة، على جماجم وعظام ذات أحجام عظيمة لا بدّ وأنّها كانت لأولئك الجبابرة. وقد حرّفت الروايات الشعبيّة بصفة مفرطة هذه الوقائع، وسنبرهن على ذلك لاحقًا.

[§ ٣٧٠] وقد انتشر الجبابرة بعد الطوفان في كلّ أنحاء الأرض، وكما سبق أن رأينا ذلك في التاريخ الأسطوري الإغريقي[4]، فإنّ فقهاء اللغة اللاتينيّين، دون التفطّن لذلك، يظهرون لنا سكّان إيطاليا القدامى بملامح الجبابرة. نحن نعرف أنّ الفلاسفة اللاتينيّين يقولون عند رسم تاريخ إيطاليا القديمة إنّ سكّان هذا البلد الأوائل سمّوا *أصيلين* أو باليونانيّة «αυτόχθων أفتوخثون[5]»، التي تعني أبناء الأرض، والذي ترجمه اليونانيّون واللاتينيّون بـ *nobiles*. لذا فقد كان اليونانيّون على صواب عندما سمّوا الجبابرة أبناء الأرض، وسمّوا الأرض كذلك أمّ الجبابرة، كما يقولون في أساطيرهم. وكلمة «*أفتوخثون*» اليونانيّة توافق باللاتينيّة كلمة *indigenae* أي أصيلي البلاد. ولهذا السبب نفسه سُمّيت الآلهات التي نشأت لدى شعب أو لدى أمّة بـ *Di Indigetes* أو تقريبًا *inde geniti*، وهو ما نقوله اليوم باختصار الكلمة *ingeniti*، إذ أنّ المقطع *de* هو هنا واحد من المقاطع التي كانت تعجّ بها لغات الشعوب الأولى، كما سنبيّن ذلك من بعد[6]. وبالطريقة نفسها ورثنا عن اللاتينيّين كلمة *induperator* لقول *imperator* [إمبراطور]، كما أنّنا نجد في شريعة *اللوائح الاثنتيْ عشرة* كلمة *endojacito* لقول

(١) هو بروكوبيوس القيسراني [٥٠٠-٥٦٥ م]، مؤرّخ بيزنطي.

(٢) سبق ذكره، § ١٧٠.

(٣) §§ ٣٧٧، ٣٨٧.

(٤) § ١٩٣.

(٥) وهي من كلمتين يونانيتين αὐτός أي فردي أو ذاتي وقد تعني هو، وكلمة χθών خثون وتعني الأرض. وكانت تعني الساكن الأصلي.

(٦) § ٤٦٢.

injicito ولربّما جاءت منها كلمة *induciae* أي هدنة، وهي كلمة تشبه كثيرًا *injiciae* المتأتية من *icere foedus* أي عقد معاهدة سلام. وحتّى نعود إلى النقطة التي انطلقنا منها نقول إنّ كلمة *indigeni* تحوّلت سريعًا إلى *ingenui* التي كان معناها الحرفي *نبيل*، ولذا قيل عن الفنون النبيلة *artes ingenuae*، وفي النهاية عُوّضت هذه الكلمة بلفظة *liberi* التي مثل سابقتها اتّخذت معنى *nobiles* وهكذا سمّيت الفنون النبيلة *artes liberales*. لذا فإنّ الشعوب الأولى سُمّيت *nobiles* لأنّ المدن الأولى تكوّنت فقط من الأشراف، بينما العامّة، كما سنبيّن لاحقًا[1]، كانوا عبيدًا أو شبه عبيد.

[§ ٣٧١] وقد لاحظ فقهاء اللغة اللاتينيّون أنّ كلّ الشعوب القديمة سمّيت بـ *Aborigeni*، وتروي لنا الكتب المقدّسة أنّ شعوبًا بأكملها سُمّيت *Emmei* و *Zanzummei*، وهو اسم ترجمه فقهاء اللغة المقدّسة بكلمة جبابرة. وتروي الكتابات المقدّسة أيضًا أنّ هؤلاء الجبابرة، ومن بينهم نمرود[2]، كانوا رجالًا أقوياء، ذوي صيت وسلطة في وقتهم. ذلك أنّ العبرانيّين، بسبب تربيتهم المتأدّبة وخشيتهم من الربّ وخضوعهم لآبائهم، حافظوا على قامة متوسّطة، مثل القامة التي خلق بها الإله آدم، ومثل قامة نوح وأبنائه الثلاثة. ولعلّ الفظاعة التي أثارتها فيهم الجبابرة كان منها أن وضع العبرانيّون ذلك العدد الكبير من الشرائع والطقوس التي يحافظون بواسطتها على نظافة أجسادهم. وقد ورث الرومان عنهم، كما لو كانت ذكرى بعيدة، ما كانوا يسمّونه بالتضحية العموميّة لتطهير مدينتهم بالماء والنار من كلّ آثام مواطنيها. والماء والنار كانا يصلحان عند الرومان لإقامة حفل القِران. وكانوا يربطون حقّ الانتماء إلى المدينة بالتمتّع الحرّ بهذيْن العنصريْن، وعليه فإنّ الحرمان من هذا الحقّ قد عُبّر عنه بهذه الكلمات «*interdictum acqua et igni*»[3]. هذه التضحية العموميّة لتطهير المدينة اتّخذت اسم *lustrum*، وتجديد هذا الطقس كان يقع كل خمس سنوات، لذا سمّيت الفترة الزمنيّة المتكوّنة من خمس سنوات *lustrum*، مثلما سُمّيت الفترة من أربع سنوات

---

(١) § ٥٩٧.

(٢) حفيد ابن نوح وأوّل جبّار جاء بعد الطوفان. مذكور في سفر التكوين وسفر أخبار الأيام. أوّل ملك ومؤسّس لمدن كثيرة ببلاد الرافدين.

(٣) محروم من الماء والنار (أي الملجأ).

لـدى الإغريـق *أولمبيـاد*. وكان اللاتينيّـون يسـمّون أيضًـا *lustrum* جحـور الحيوانـات المفترسـة، ومنـه فعـل *lustrari* الـذي يعنـي أيضًا تجسّـس وطهّر، إذ كان مـن اللازم أن تُكتشَـف الجحور ثمّ تُطهّر من الحيوانات المفترسـة التي تختبئ داخلها؛ ولهذا السـبب نفسـه سُـمّي الماء المُسـتعمل في طقس التضحيـة *aqua lustralis*[1]. وقـد بدأ الإغريق يعدّون السـنوات من إحراق هرقل لغابة *نيميا* ليجعلها صالحة لزراعة القمح، وقد ذكرنا ذلـك فـي *فكرة عن الكتاب*[2] وسـنبرهن على ذلـك لاحقًا[3]، وأنّ هرقل أسّـس في هذه الفترة الألعاب الأولمبيّة. ولكن الرومان بأكثر صوابًا بدأوا عدّ الزمن على أساس الخمس سـنوات، أي *lustri*، بسـبب الماء الذي كان يُستعمل في المحافل المقدّسة. وقد وضعوا كلمـة المـاء قبـل كلمة النار، سـواء في حفـل الزواج أو فـي الحرمـان لأنّ الحاجة للماء جـاءت قبـل الحاجـة للنار. وهذا هـو أصل الاغتسـال المقدّس الذي يسـبق لدى جميع الشعوب الطقوس الدينيّة. ونتيجة لنظافة الأجساد والخشية من الربّ ومن الآباء التي لا بـدّ أنّهـا كانت عظيمة لدى كلّ الشـعوب، تضاءلت قامة العمالقة لتصبـح مماثلة لقامتنا. ولعلّه لهذا السّـبب اشـتق من اللفظة اليونانيّة «πολιτεία پوليتيا» التي تعني لدى الإغريق حكومة مدنيّة، [الصفة] *politus* عند اللاتينيّين نظيف ومطهّر.

[§ ٣٧٢] هـذا التضـاؤل فـي قامـة العمالقـة تواصـل ببـطء ولم ينتـه إلّا فـي الأزمنة المتحضّرة، كما يتبيّن ذلك من الدروع الضخمة التي كان يلبسها الأبطال القدامى. وكان أغسـطس حسـب قول سـويتونيوس[4] يحتفظ في متحفه بهذه الدروع مع جماجم بعض الجبابرة. يجب علينا إذن، كما سبق قوله في *المسلّمات*[5]، أن نقسّم عالم البشر كلّه إلى نوعيْـن، أحدهمـا للذين قامتهـم معتدلـة، أي العبرانيّين، والآخر للجبابرة، أي مؤسّسـي الأمم الوثنيّة. ثمّ علينا أن نقسم الجبابرة إلى نوعيْن: أحدهما لأبناء الأرض أو الأشراف،

---

(١) الماء المقدس [حرفيا ماء الخمس سنوات].

(٢) § ٣.

(٣) § ٧٣٣.

(٤) كايـوس سـويتونيوس ترانكويلّيـس [حوالـي ٧٠ م – ١٤٠ م] موظّـف سـام ومـؤرّخ روماني. أرّخ تاريخ الإمبراطورية الرومانية بالخصوص في زمن يوليوس قيصر.

(٥) § ١٧٢.

الذين أعطوا اسمهم إلى عصر الجبابرة بالذات، والذين تُصوّرهم لنا الكتابات المقدّسة باعتبارهم رجالا جبّارين شهيرين وذوي سلطة، والنوع الآخر يشمل الجبابرة المستعبَدين.

[§ ٣٧٣] وقد ظهر مؤسّسو الأمم الوثنيّة المنحدرون من سلالة سام بعد مئة عام من الطوفان، بينما لم يظهر المنحدرون من سلالتي حام ويافث إلّا بعد مئتيْ سنة، مثلما سبق ذكره في إحدى المسلّمات[1]. وسنروي لاحقًا[2] *تاريخهم الفيزيائي* كما وصلنا في الأساطير الإغريقيّة، ولكن دون شرح، وسيعطينا هذا التاريخ أيضًا *التاريخ الفيزيائيّ* للطوفان العظيم[3].

---

(١) § ٦٢.

(٢) § ٣٨٧.

(٣) § ٣٨٠.

[القسم الأول]

[الميتافيزيقا الشعريّة]

[الباب الأوّل]

في الميتافيزيقا الشعريّة

ومنها يأتينا أصل الشعر وعبادة الأوثان والعرافة والقرابين

[§ ٣٧٤] علـى كلّ الفلاسـفة وفقهـاء اللغة أن يبدؤوا بـدرس أولئك الأناس الأوائل الجُهّـل والأجـلاف الذيـن كانـوا مستسـلمين لأبشـع أنواع العنـف، أي أولئـك الجبابرة بالـذات، ليخلصـوا بعد ذلك لدرس الحكمة لدى الوثنيّين القدامى. يقول الأب بولدوك في كتابه «*الكنيسـة قبل القانون*» [*Ecclesia ante Legem*][1]، إنّ الأسـماء التي تشير بها الكتب المقدّسة إلى الجبابرة تعني رجالا أتقياء، أجلاّء، عظماء، ولا يمكن أن ينطبق هذا إلاّ علـى الجبابـرة النبـلاء، أي أولئـك الذيـن بواسـطة الكهانة أسّسـوا ديانـات الوثنيّين، وأعطوا اسـمهم لعصر الجبابرة. كان على الفلاسـفة والفقهاء أن يهتمّوا في المقام الأوّل بالميتافيزيقـا الشـعريّة، باعتبارها العلم الذي يبحث عن براهينه داخل التحوّلات نفسـها للفكـر الـذي يتأمّـل فيهـا وليـس خارجهـا. وبمـا أنّ عالـم الأمـم، كمـا سـبق ذكـره في *المسلّمات*[2]، قـد صنعه البشـر، ففي عقول أولئك البشـر أنفسـهم يجـب أن نبحث عن المبادئ. ولكن الطبيعة البشريّة، التي هي على عديد الأصعدة شبيهة بطبيعة الحيوانات، لا يمكنها أن تعرف الأشياء إلّا من خلال ما تلتقطه الحواسّ.

[§ ٣٧٥] لذا فإنّ المعرفة الشعريّة، الأولى عند الوثنيّين، كان عليها أن تظهر في أوّل الأمر لا كمياتفيزيقا عقلانيّة ومجرّدة، كما هي لدى فلاسفة اليوم، بل كلّها عاطفة وخيال مثلما كان يمكن أن يتصوّرها البشر الأوائل، الذين كانوا غير قادرين على العقلنة، وكانت تسـيطر عليهـم حواسّ طاغية ومخيّلة متوقّدة. لذا كان الشـعر ملَكـة طبيعيّة لدى الأناس القدامـى الذيـن كانوا عن طريق الحواسّ، والخيال والجهل بأسـباب كلّ ما كانوا يرونه،

---

(١) Jacques Boulduc [١٥٧٥-١٦٤٦]، أحد آباء الكنيسة، مؤلّف كتاب *De Ecclesia Legem*، ١٦٢٦.

(٢) § ٣٣١.

يتعجّبون لكلّ الأشياء التي يرونها دون القدرة على فهمها، كما ذكرنا ذلك في *المسلّمات*[1]. هذا الشعر كان بالنسبة إليهم إلهيًّا، لأنّهم في الوقت نفسه الذي يتصوّرون فيه علاّت الأشياء، كانوا يحسّون بها ويعجبون لها باعتبارها آلهة، مثلما رأينا ذلك في المسلّمات مع لكتانتيوس[2]، ومثلما نرى الآن مع الأمريكيّين الذين عندما يرون أشياء تفوت قدرة فهمهم الضعيفة يقولون إنّها آلهة. ويروي لنا تاسيتوس أنّ الجرمانيّين القدامى الذين يقطنون قرب البحر الجليدي كان يبدو لهم أنّهم يسمعون أثناء الليل الشمسَ وهي تعبر البحر من الغرب نحو الشرق، ويؤكّدون أنّهم كانوا يرون أحيانًا آلهاتهم. هذه الأمم الساذجة والهمجيّة تظهر لنا أفضل ممّا يمكن أن يفعله مؤسّسو الوثنيّة الذين نحن بصدد الحديث عنهم، كيف أنّ الشعر لدى هذه الشعوب الأولى كان قبل كلّ شيء إلهيًّا، ذلك لأنّهم لم يكونوا فقط يتصوّرون أنّ علّة كلّ الأشياء التي يحسّون بها ويعجبون لها مصدرها الآلهة، بل كانوا أيضًا يشخّصون أفكارهم نفسها في الأشياء التي يتأمّلون فيها. وكنّا قد لاحظنا[3] أنّ طبيعة الأطفال شبيهة بطبيعة الشعوب الأولى، وحين يمسكون بأيديهم أشياء جامدة فهم يلعبون بها ويتكلّمون معها كما لو كانت كائنات حيّة.

[§ ٣٧٦] وعلى هذا النحو، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا[4]، كان البشر الأوائل في الأمم الوثنيّة، مثل أطفال الجنس البشري، يعطون الحياة للأشياء من خلال أفكارهم نفسها. ولكن ما أبعد هؤلاء البشر عن الخلق كما يخلق الربّ! لأنّ الربّ في كمال عقله يعرف الأشياء، وبمعرفته لها يخلقها، بينما هؤلاء البشر الأوائل، منساقين لمخيّلتهم الفيّاضة، كانوا يعطون للأشياء مظهرًا عجائبيًّا حتّى أنّه كان يثير فيهم ارتباكًا عظيمًا. لذا سُمّوا بالشعراء، وهي كلمة تعني باليونانيّة *خالق*. هذه هي إذن العمليّات الثلاث التي يتوجّب على الشعر العظيم القيام بها: خلق أساطير رائعة يتجاوب معها فهم الشعب، خلقها بطريقة يتأثّر بها من يعرفها للمرّة الأولى، جعلها في جملتها تبلغ الغاية المطلوبة، أي أن

---

(١) § ١٨٤.

(٢) § فيرميانوس لكتانتيوس، مذكور§§ ٥٤، ١٨٨.

(٣) § ١٨٦.

(٤) § ٢٠٩، ٢١١.

تعلّم عامّة الشعب أن يفعل ما هو صالح. والشعراء أنفسهم انتفعوا من هذا التعليم. وهذا ما سنبرهن عليه لاحقًا[1]. ونقول في الأثناء أنّ تاسيتوس عبّر بنبل عن الخاصيّة السرمديّة لهذه الأشياء البشريّة بقوله إنّ الناس المفزوعون «*يتصوّرون شيئًا وفي الآن نفسه يؤمنون به*»[2].

[§ ٣٧٧] تلك كانت إذن طبيعة الصانعين الأوائل للحضارة الوثنيّة حين انفجرت السّماء للمرّة الأولى بعد الطوفان، بالرعود والصواعق، محدثة دويًا مروّعًا، مثلما يُمكن أن يحدث عندما تفرقع الهواء رجّة عنيفة. كانت قد انقضت مئة سنة بعد الطوفان في بلاد ما بين النهريْن، ومئتان في باقي أنحاء العالم، إذ كان لا يلزم أقلّ من هذه المدّة لكي تجفّ الأرض من رطوبة الطوفان العظيم، وتبعث في الهواء أبخرتها لتحدث ذلك الانفجار الأوّل الذي روّع الجبابرة. هؤلاء العمالقة الضخام والأقوياء المنتشرون في الغابات وفوق الجبال، حيث كانت للحيوانات المفترسة جحورها، فزعوا لذلك الدويّ، وتعجّبوا لتلك الظاهرة التي شاهدوها للمرّة الأولى والتي كانوا يجهلون سببها، فرفعوا أعينهم ونظروا إلى السّماء. لقد سبق أن قلنا في *المسلّمات*[3] إنّ طبيعة العقل الإنساني تجعله يفسّر الظاهرة التي يجهلها بأسباب يستمدّها من طبيعته نفسها. وحيث إنّه من طبيعة أولئك الرجال الضخام والأقوياء أن يعبّروا عن مشاعرهم العنيفة بالصياح والصراخ، فقد بدا لهم إذن أنّ السّماء هي كائن حيّ عظيم الحجم يرغي ويزبد وأعطوه اسم جوبيتر، وكان أوّل إله لأولئك الناس الذين لقّبوا بعلية القوم [*gentes maiores*]. افترضوا إذن أنّ هذا الكائن العظيم كان يريد أن يقول لهم شيئًا ما، من خلال فرقعة الصواعق ودويّ الرعود. وهكذا بدؤوا يمارسون الفضول الطبيعي، الذي هو وليد الجهل وعماد المعرفة، والذي بفتح عقل الإنسان يولّد التعجّب، مثلما ذكرنا ذلك في باب *العناصر*[4]. هذه النزعة الطبيعيّة لا تزال موجودة لدى الشعوب عند ظهور مذنّب أو شمس كاذبة أو ظاهرة ما طبيعيّة، خاصّة في مظهر السّماء، وإذا بهم يضطربون على

---

(١) § ٣٧٩.

(٢) ورد باللاتينيّة: *fingunt simul creduntque*.

(٣) § ١٨٠.

(٤) § ١٨٩.

الفور، ويعتريهم الفضول فيبحثون عن الأسباب ويتساءلون ما المغزى من تلك الظاهرة. وما زلنا نرى في أزمنتنا الحاضرة المستنيرة بشتى العلوم رجل العامّة وهو ينظر بذهول ممزوج بالخشية تأثير المغناطيس على الحديد، ونسمع من يؤكّد أنّ المغناطيس يشعر بانجذاب سرّي وخفيّ نحو الحديد. وهكذا نجعل من الطبيعة كلّها جسمًا عظيمًا حيًّا يشعر بكلّ الأهواء والعواطف التي نشعر بها نحن البشر. وقد سبق أن أشرنا إلى هذا في *المسلّمات*[1].

[§ ٣٧٨] إلّا أنّ العقل البشري اليوم، حتى لدى العامّة، منفصل كثيرًا عن الحواسّ، منغمس في التجريد الذي تعبّر عنه كلمات لغاتنا؛ وفنّ الكتابة جعله أكثر دقّة بينما جعله عِلم الأرقام أكثر روحيّة إن جاز لنا قول ذلك، لكي يمكنه أن يتمثّل الصورة العظيمة لهذه المرأة المسمّاة طبيعة جذّابة. وبينما يقولون ذلك بأفواههم تبقى عقولهم خاوية، لأنّهم في الخطأ، أي في العدم، وبما أنّهم لا يتوفّرون على مخيّلة قويّة تسعفهم، فهم لا يستطيعون تصوّر هذه الصورة الكاذبة والعظيمة. كما أنّه ليس بإمكاننا أن نلِج داخل المخيّلة المتوقّدة التي كانت لتلك الشعوب الأولى، التي لم تكن عقولها مجرّدة أو دقيقة أو روحيّة، بل مغمورة بالحواس، مثارة بالأهواء ومدفونة في الأجساد. لذا قلنا سابقًا إنّه إذا كان بوسعنا أن نفهم، فإنّه يستحيل علينا أن نتخيّل ماذا كانت أفكار الأناس الأوائل الذين أسّسوا الحضارة الوثنيّة.

[§ ٣٧٩] هذه هي إذن الأسطورة الإلهية الأولى التي نبعت من مخيّلة الشعراء اللاهوتيّين الأوائل، أعظم أسطورة أمكن لهم تصوّرها، وهي أنّ جوبيتر، ملك وأب البشر والآلهة، سيّد الصاعقة، هذه الأسطورة بشعبيّتها كانت تؤثّر في البشر وتردعهم حتّى أنّ الذين ابتدعوها أنفسهم صاروا يؤمنون بها، ويخشونها ويبجّلونها، ويتبعون الديانات المروّعة التي نبعت منها، كما سنبيّن ذلك لاحقًا[2]. ونتيجة لهذه الخاصيّة التي تميّز العقل البشري والتي كان لاحظها تاسيتوس مثلما سبق قوله في *المسلّمات*[3]، فقد ظنّ البشر أنّ كلّ ما يرونه ويتخيّلونه وحتّى ما يفعلونه هو جوبيتر، وأعطوا للكون كلّه

---

(١) § نفسه.

(٢) § ٥١٧.

(٣) § ١٨٣.

الذي يرونه ولكلّ جزء من أجزائه كينونة ماهية حيّة. هذه هي القصّة المدنيّة التي جاءت في العبارة اللاتينيّة: "*Jovis omnia plena*"[١] والتي أوّلها أفلاطون على أنّها إشارة إلى الأثير الـذي ينفذ ويمـلأ العالم كلّه. ولكنّنا سـنبيّن أنّه في اعتقاد الشـعراء اللاهوتيّين لم يكـن جوبيتـر أعلى من قمم الجبال. هؤلاء البشـر الأوائل الذين كانوا يتكلّمون بواسـطة الإشـارات ظنّـوا أنّ الرعـود والصواعـق هي الإشـارات التي كان يتكلّـم بهـا جوبيتر. من كلمة *nuo*، أي «أشـار»، شـكّلوا كلمة *Numen* أي الإرادة الإلهية، مستعملين فكرة رائعة جديرة بالتعبير عن الجلالة الإلهية؛ لأنّ هؤلاء البشر الأوائل أرادوا أن يقولوا إنّ جوبيتر يخاطبهم بواسـطة العلامات، وأنّ هذه العلامـات كانت كلمات حقيقيّة، أو بالأحرى إنّ الطبيعة نفسـها يسـتعملها جوبيتر لغة له. وقد أطلق الوثنيّون على معرفة هذه اللغة اسـم عِرافـة، والإغريق سـمّوها لاهوتيّة، أي معرفة لغـة الآلهة. وهكذا كان من نصيب جوبيتر صولجـان الصاعقـة الرهيـب، والـذي جعل منـه ملك البشـر والآلهة، كمـا تحصّل على لقبيْـن، أحدهمـا *Optimus* [الأطيب]، بمعنى الأعظم قـوّة (إذ كان للفظ *fortus* [قويّ] لـدى اللاتينيّيـن الأوائـل نفس المعنى الذي اكتسـاه لفـظ *bonus* [طيّب] فـي فترة تالية؛ والثانـي هـو *Maximus* [الأعظم حجمًا]، بسـبب عظمة جسـمه الذي كان يملأ السـماء كلّهـا. كما حصل على لقـب *Soter* أو المنقذ اعترافًا له بالجميل؛ لأنّه لم يصعق الجنس البشـري. هذا هو إذن الأوّل من بين المبادئ الثلاثة التي اتّخذناها أساسًـا لهذا *العِلم*[٢]. ثـمّ تحصّـل جوبيتـر بعد ذلك على لقـب *Stator* أي «الذي يوقف الفارّيـن»؛ لأنّه أوقف الجبابرة في مسارهم المشوّش العنيف، وجعل منهم أمراء الأمم الوثنيّة. وقد كان الفقهاء اللاتينيّـون قصيـري النظر حيـن قضّوا أنّ رومولوس دعـا جوبيتر ليوقـف الرّومان الذين فرّوا أثناء المعركة أمام السابيّين.

[§ ٣٨٠] هـذا يفسّـر لمـاذا كان لـكلّ أمّـة وثنيّة جوبيتر خـاصّ بها، الأمـر الذي أثار تعجّب الفقهاء، ومنهم المصريّون الذين بدافع غرور الأمم الذي سـبق أن أشـرنا إليه في *المسلّمات*[٣]، كانـوا يزعمـون أنّ إلههـم زيـوس آمـون هـو أقـدم الآلهة. جميـع هؤلاء

(١) أي: كلّ الأشياء ممتلئة بجوبيتر.

(٢) § ٣٣٣ وما يتبع.

(٣) § ٤٧، ٦٢.

الجوبيتر ليسوا بالنسبة إلينا سوى تشخيصات لحكايات ماديّة محتفظ بها في الأساطير، ممّا يشهد في صالح رأينا بخصوص شموليّة الطوفان.

[§ ٣٨١] وهكذا، كما سبق ذكره في *المسلّمات*[١] فيما يتعلّق بتشكيل الخصوصيّات الشعريّة، فقد أضفى الشعر على جوبيتر خاصيّة إلهيّة أو خاصيّة كونيّة أو عجيبة، وإلى هذه الخاصيّة كانت تُرجع كلّ الأمم الوثنيّة القديمة شؤونَ النذور، التي لابدّ أنّها كانت ذات طبيعة شعريّة. لذا فقد بدأت المعرفة الشعريّة إذن من ميتافيزيقا شعريّة، يُتأمَّل من خلالها الربّ في خاصيّة عنايته الإلهية، وعلماء هذه المعرفة سُمّوا بالشعراء اللاهوتيّين أو الحكماء الذين كانوا يفهمون لغة الآلهة من خلال نذور جوبيتر، وسُمّوا أيضًا بالإلهيّين *divini*بمعنى العرّافين *divinatori*، من فعل *divinari* أي تكهّن أو علم الغيب. وسُمّي هـذا العِلـم أيضًا *Musa*، الـذي عرّفه هوميروس بأنّه عِلم الخير والشـرّ، أي العِرافة، وقد أوحـى الإلـه إلـى آدم بدينـه الحقيقي الذي يتأسّـس على تحريـم أن يتعاطى هـذا العِلم. وسـمّى الإغريق الشـعراءَ اللاهوتيّين الروحانيّين بـ *Mystae*، التي فسّـرها هوراثيوس بمؤوّلـي الآلهة؛ لأنّهم يفسّـرون الأسـرار الإلهيّة المضمّنة في النذور وما يتنبّأ به وسـيط الوحـي. كلّ أمّـة وثنيّـة كانت لها عرّافتهـا، ووصل عددهنّ إلى إثنتيْ عشـرة، والعرّافات ووسطاء الوحي كانوا أقدم مؤسّسات الأمم الوثنيّة.

[§ ٣٨٢] نجد أنفسنا الآن في كلّ ما قلناه على اتّفاق مع ما قاله يوسابيوس عن أصل عبادة الأوثان، أي أنّ البشـر الأوائل الذين كانوا جهلة ومتوحّشـين تصوّروا الآلهة بسبب «*الرعـب من القـوّة الحاضرة*»[٢]. لذا فـإنّ الخوف كان منبع الأديـان الوثنيّة، ولكنّه، كما سـبق أن ذكرنا في المسـلّمات[٣]، ليس الخوف الذي يثيره الإنسان في أخيه الإنسان، بل الخـوف الـذي يثيره الإنسـان فـي نفسـه. وبالبرهنة على أصل عبـادة الأوثـان أقمنا أيضًا البرهنة على أصل العرافة، إذ نشـأتا معًا. ونعتقد أن أصل الذبائح يأتي مباشـرة بعد عبادة الأوثان والعرافة، بما أنّ الهدف من القربان هو الحصول على النذور أو على تفسيرها.

---

(١) § ٢٠٩.

(٢) ورد باللاتينية: *ob terrorem praesentis potentiae* (سبق ذكر هذا المؤلف في § ٥٤)

(٣) § ١٩١.

[§ ٣٨٣] إنّ نشـأة الشـعر كما بيّنا لتوّنا تجد تأكيدًا لها في هذه الخاصيّة التي تميّزها دومًا باعتبار أنّ مجالها ينتمي إلى المستحيل القابل للتصديق، كأن تكون أجسادنا عقولا وأن نعتقد أنّ السّـماء المرعدة هي جوبيتر. ولكنّ الشـعراء يعجبهم أن ينشدوا ما تقوم به السـاحرات من عجائب من خلال السـحر، وهو ميزة ينبغي إسنادها إلى دلالة سريّة على قـدرة الإلـه العظيمـة، نجدهـا لدى جميـع الأمم. فالحس الـذي يدفع كلّ الشـعوب إلى تقديم تشريفات لامتناهية للآلهة يأتي مباشرة من هذا، ونتيجة لذلك كان الشعراء هم من أسّسوا أديان الأقوام الوثنيّة.

[§ ٣٨٤] كلّ مـا ذكرنـاه إلـى حـدّ الآن يُطيح بما سـبق قوله عن أصل الشـعر، من قِبل أفلاطـون أوّلا، ثـم أرسـطو، ومـا قالـه فـي زمننـا هـذا كلّ مـن باتريتسـي[١]، سـكاليجر[٢] وكستالفيترو[٣]. إذ أنّنا أظهرنا أنّه لغياب التفكير العقلاني عند البشر الأوائل، كان الشعر من السـموّ بحيث أنّه لا الفلسـفة ولا الفنون الشـعريّة والنقديّة التي جاءت بعده، تمكّنت من السموّ عليه، ولا حتّى من مساواته. وبالفعل، فقد سُمّي هوميروس أمير الشعراء البطوليّين، سواء بسبب العصر الذي عاش فيه أو بسبب جدارته. باكتشاف مبادئ الشعر تضمحلّ فكرة عظمة معرفة القدامى الرائعة التي كان جميع الفلاسفة، من أفلاطون إلى بيكون الفيرولامي فـي كتابه «*في المعرفة القديمـة*» [*de Sapientia Veterun*]، يتوقون إلى مضاهاتها. كانت معرفة القدامى معرفة عاميّة خاصّة بالمشرّعين الذين أسّسوا الجنس البشري، وليست علمًا مكتسـبًا مـن طرف أقليّة من الفلاسـفة العظمـاء. وكما بيّنّا أصل الطابع الشـعري لجوبيتر، سـنبيّن أيضًـا غلـط كلّ التأويـلات الروحيّة والفلسـفيّة التي نسـبها العلماء إلى الأسـاطير الإغريقيّة وإلى الهيلوغريفيّات المصريّة. وسـيبرز المعنى التاريخي لهذه الأسـاطير ولهذه الكتابات الهيروغليفيّة بطريقة طبيعيّة متوافقة مع طبيعيّة مضامينها.

---

(١) هو Francesco Patrizzi [١٥٢٩-١٥٩٧]، فيلسـوف وعالم من مدينة البندقيّة، كان من كبار المدافعين عن الأفلاطونيّة ضدّ الأرسطوطاليسيّة المهيمنة في زمنه. من مؤلّفاته *Della poetica* [في الشعر] (١٥٨٦)، و *Della retorica* [في الخطابة] (١٥٦٢).

(٢) Jules César Scaliger [١٤٨٤-١٥٥٨]، رجـل علـم مـن أصـل إيطالـي. كان يتـوق إلـى الشـهرة كعالـم شموليّ، ولكن صيته ذاع بالخصوص باعتباره نحويًّا.

(٣) Ludovico Castelvetro [١٥٠٥-١٥٧١]، كاتب إيطالي من عصر النهضة. عارضت افكاره الكنيسة واتّهم بالزندقة. مات في المنفى. ألّف كتابًا في شـعريّة أرسـطو عنوانه: *Poetica d'Aristotele vulgarizzata ed esposta* (١٥٧٠)

[الباب الثاني]

استنتاجات حول الجوانب الرئيسيّة لهذا العِلم

١

[§ ٣٨٥] بإمكاننا أن نستنتج من كلّ ما ذكرناه إلى حدّ الآن أنّ البشر توصّلوا إلى اكتشاف العناية الإلهية بواسطة ذلك الحسّ المشترك الذي استيقظ في نفوسهم القاسية، المتوحّشة والهمجيّة، وجعلهم يلجؤون في بؤسهم الطبيعيّ إلى نجدة تسمو على الطبيعة. هذا هو المبدأ الأوّل الذي أسّسنا عليه منهجَ هذا *العِلم*. فقد سمحت العناية الإلهية للإنسان أن يقع في الخطأ وأن يخاف من الألوهيّة الكاذبة لجوبيتر، سيّد الصاعقة، لكي يتمكّن وسط ظلمات السحب المرعدة وعلى ضوء الصواعق الأولى من اكتشاف هذه الحقيقة العظيمة: إنّ العناية الإلهية تسهر على نجاة العرق البشري. تحت هذا الجانب الأساسي سيكون هذا العلم قبل كلّ شيء لاهوتيّة مدنيّة ومعقلنة للعناية الإلهيّة، لاهوتيّة لم تكن في البداية إلّا دراية عاميّة للمشرّعين الذين أسّسوا الأمم، الذين تأمّلوا الربّ في خاصيّة عنايته الإلهية، والتي اكتملت من بعد بالمعرفة الباطنيّة للفلاسفة، الذين برهنوا بالعقل، في لاهوتيّتهم الطبيعيّة، على وجود العناية الإلهيّة.

٢

[§ ٣٨٦] والجانب الثاني من بين الجوانب الأساسيّة لهذا العِلم يظهره باعتباره فلسفة السلطة. هذا إذا اعتمدنا كلمة سلطة بمعناها القديم، أي كمرادف للملكيّة. إذ أنّ كلمة سلطة استعملت دائمًا بهذا المعنى في شريعة *اللوائح الاثنتي عشرة*. وعليه فإنّ القانون المدني الروماني يسمّي *auctores* أولئك الذين يستظهرون بحقّ الملكيّة [*dominio*]. هذه الكلمة مشتقّة بالضرورة من "αὐτός" أي *proprius*[فردي] أو *suus*

ipsius [ذاتـه]، والتـي ترجمهـا عديـد الفقهـاء بـ *autor* و*autoritas*، دون إثبـات الهمس[1].

[§ ٣٨٧] والسـلطة الأولـى كانـت إلهيّـة، وبهـا أمكن للعنايـة الإلهيّة أن تسـود على الجبابـرة، وأن تجعلهـم ينزلـون إلـى السـهول ويسـكنون فـي الكهـوف التي في سـفوح الجبال. هذه هي سلاسـل الحديد التي قيّدت الجبابرة وأبقتهم مرتبطين بالأرض[2]، في الموضع نفسـه الذي كانوا فيه حين أفزعتهم السّـماء وجوبيتـر بانفجار الصاعقة الأولى، مثل تيتيوس وبروميثيوس المقيّديْن بالسلاسل إلى صخرة، بينما كان نسر يلتهم قلبيْهما، أي ديـن نـذور جوبيتر. وكذلك بقي الجبابرة الآخرون متجمّدين من الرعب، او كما قال اللاتينيّـون بعبـارة بطوليّـة "*terrore defixi*" [مثبّـت رعبًـا]. وبالفعـل فـإنّ الرسّـامين يظهرونهم لنا مكبّلين من أيديهم وسيقانهم بالسلاسل، تحت الجبال. من هذه الحلقات تكوّنت السلسـلة الكبيرة التي يرى فيها ديونيسـوس لونجينوس[3] أكبر روائع الأسـاطير الهوميريّـة، والتـي كان يقول عنها جوبيتر للتباهي بسـموّه على البشـر وعلى الآلهة أنّه لو أمسـكها كلّ البشـر وكلّ الآلهـة مـن طـرف وهو وحده مـن الطرف الآخـر لجرّهم كلّهم وراءه. كان الرواقيّـون يـرون في هذا القيْد السلسـلة السـرمديّة من العلـل التي يحيط بها القدر العالـم ويقيّده، ولكن ليحاذرأولئك الفلاسـفة من أن يجدوا أنفسهم مشدودين إلى حلقاتهـا، إذ أنّ إرادة جوبيتـر هـي التي تقيّد البشـر والآلهة بسلسـلة من هـذا النوع، بينما يريدون هم [الرواقيّون] أن يكون جوبيتر خاضعًا للقدر.

[§ ٣٨٨] وقد أدّت هذه السـلطة الإلهيّة إلى قيام السـلطة البشـريّة، التي حملت معها كلّ الأناقة الفلسفيّة التي هي خاصيّة الطبيعة البشريّة، التي لايمكن حتّى للربّ أن ينزعها عنها دون أن يحطّمها كلّيًا. في نفس هذا المعنى يقول تيرانثيوس "*voluptates proprias*

(١) يشير إلى أن كلمة αὐτός فيها حرف ὑ يهمس فينطق فاء ولكنهم ينطقونه واو فيقولون آوتو

(٢) هذه السلسلة العظيمة موصوفة في *الإلياذة*، VIII، ١٨-٢٧.

(٣) اسـم أسـنِد لكاتب مجهول من القرن الأوّل ميلادي لا يمكن أن يكون كاسيوس ديونيسـوس لونجينوس الذي عاش في القرن الثالث ميلادي. واقترح البعض أنّه يكون ربما ديونوسيوس الهاليكرناسي الذي عاش فـي القـرن الأول قبـل الميـلاد. وثبت أنّـه لا يمكن أن يكون لا هـذا ولا ذاك وإنّما هـو مؤلّف غير معروف عـاش فـي عهـد الإمبراطور تيبيريوس في القـرن الأوّل بعد الميلاد. لذا أقرّ المحدثـون أنّ مؤلّف كتاب *de Sublimis* [في السموّ] هو لونجينوس المنتحل.

"*deorum*"، أي إنّ سعادة الربّ لا تتوقّف إلّا عليه. ويقول هوراثيوس أيضًا "*propriam* *virtutis laurum*"، أي إن الحسد لا يمكنه أن ينزع عن الفضيلة مجدها. ويقول قيصر "*propriam victoriam*"، ويخطئ ديونيسوس بيتافيوس[1] بقول إنّها ليست لاتينيّة جيّدة، بل إنّه بأجود لاتينيّة أراد أن يقول إنّه انتصار لا يمكن للعدوّ أن يسلبه منه. السلطة البشريّة ليست إلّا الممارسة الحرّة للإرادة، بينما العقل هو قوّة سلبيّة خاضعة للحقيقة؛ لأنّ البشر من هذه البداية الأولى للمؤسّسات البشريّة أدركوا حريّة الخيار البشري، أي أنّهم أدركوا أنّه بإمكانهم ومن الخير لهم أن يكبحوا جماح أجسادهم، للتحكّم فيها بصفة كاملة، أو على الأقلّ لتوجيهها نحو الاتّجاه الأفضل. وقد سبق أن قلنا في باب *المنهج*[2] إنّ ذاك هو الجهد الذي يميّز الفاعلين الأحرار؛ وهذا الجهد هو الذي جعل الجبابرة يعدلون عن حياتهم المتشرّدة في غابة الدنيا الكبيرة، وتعوّدوا بعكس ذلك على الاستقرار والاحتماء داخل كهوفهم لمدّة طويلة.

[§ ٣٨٩] من هذه السلطة ذات الطبيعة البشريّة نشأت سلطة الحقّ الطبيعي، وباحتلال الأراضي والاستقرار فيها مدّة طويلة صار البشر أسياد كلّ الأراضي التي وجدوا أنفسهم فيها عند انفجار الصاعقة الأولى واستقرّوا بها مدّة طويلة. هذا هو أصل كلّ الأملاك في العالم، وأولئك كانوا الأناس «*القلائل الذين أحبّهم جوبيتر لعدالتهم*»[3]. كلمات أوّلها الفلاسفة بأنّها تعني أولئك الذين وهبهم الربّ طبيعة طيّبة أو عقلا متفتّحًا للمعرفة. ولكن المعنى التاريخي لهذه الكلمات هو أنّ أولئك البشر القابعين في سفوح الجبال والمختبئين في مغاورها صاروا أمراء الأقوام النبيلة [*gentes maiores*] التي كان جوبيتر، كما سبق ذكره في *المسلّمات*[4]، هو إلههم الأوّل. وقد شكّل هؤلاء الأمراء العشائر النبيلة القديمة وبتفرّعها إلى عائلات وسلالات كوّنت الممالك الأولى، والمدن الأولى. وقد ورث اللاتينيّون من هذه الأزمنة الأولى بعض الجمل البطوليّة الرائعة، من قبيل "*condere gentes*" [بناء الأمم]، "*condere regna*" [بناء الممالك]، "*condere*

---

(١) باللاتينيّة ديونيسيوس بيتافيوس، Denis Pétau بالفرنسيّة [١٥٨٣-١٦٥٢] لاهوتي وفيلسوف يسوعي فرنسي.

(٢) § ٣٤٠.

(٣) ورد باللاتينية: *pauci, quos aequus amavit Jupiter*

(٤) § ٣١٧.

"*urbes*"[بنـاء المـدن]، "*fundare gentes*" [الأمـم المؤسّسـة]، "*fundare regna*" [الممالك المؤسّسة]، "*fundare urbes*" [المدن المؤسّسة].

[§ ٣٩٠] تتبع فلسـفة السلطة هذه مباشـرة اللاهوتيّة المدنيّة المعقلنة للعناية الإلهية؛ لأنّ البراهيـن اللاهوتيّـة لهـذه الأخيـرة تجد مـا يدعمها فـي البراهين الفلسـفيّة والفقهيّة للأولى، وهذه الأنواع الثلاثة من البراهين قد تعرضنا لها في باب *المنهج*[1]. هذه البراهين تقودنا عبر العتمة الكثيفة للأزمنة القديمة، وهي ستعيننا لإثبات هذه الحريّة البشريّة، التي هـي بطبعهـا متغيّرة وغير مؤكّـدة، مثلما قلنا في باب *العناصر*[2]، أي سـتمكّننا من إضفاء شكل علميّ على فقه اللغة.

٣

[§ ٣٩١] الجانـب الثالـث الأساسـي هو تاريخ الأفكار البشـريّة، التـي كانت الأولى منها -كما سـبق أن ذكرنا- أفكارًا عن الإله، تصوّرها البشـر من خلال *التأمّل* في السّـماء بأعيـن أجسـادهم، ذلـك لأنّ الرومـان فـي علـم العِرافة يسـتعملون فعـل *contemplari* (يتأمّل، يتفكر في) للقيام برصد أجزاء السّـماء، لقراءة المسـتقبل وللتكهّن بالغيب. هذه الجهات الإلهية الموصوفة بتكهناتهم في تاريخهم المقدّس كانت تسمّى *templa Coeli* (*معابد السـماوات*)، التي قد تكون جاءت منها بالإغريقيّة «θεώρηματατα، ثيوريماتا» و«μαθήματα، ماثيماتـا»، أي الأشـياء الإلهيّـة أو السـامية التـي نتأمّـل فيهـا، كلمـات اسـتُعمِلت مـن بعـد للأشـياء المجرّدة فـي الميتافيزيقـا أو فـي الرياضيّات. هـذا هو إذن التاريـخ المدنـي لهـذا القـول «*مـن جوبيتر جاءت إلهـة الإلهـام*»[3]، بما أنّ إلهـة الإلهام الأولى التي عرّفها هوميروس على أنّها عِلم الخير والشرّ نشأت من صواعق جوبيتر، ولم يصعب على الفلاسـفة اسـتنتاج هذه الحكمة وهي أنّ «*بداية الحكمة هي الورع*». وإلهة الإلهام الأولى كانت دون شكّ أورانيا، التي تتأمّل في السّماء لتستمدّ منها النذور، والتي صـارت فيمـا بعد علم الفلك، كما سـنرى ذلـك لاحقًا[4]. وكما قسّـمنا آنفًـا الميتافيزيقا

---

(١) §§ ٣٤٢-٣٥٩.

(٢) § ١٤١.

(٣) ورد باللاتينيّة: *A Jove principium Musae*.

(٤) § ٧٣٩.

الشعريّة إلى العديد من العلوم التابعة أو الثانويّة التي تستمدّ من أمّها طبيعتها الشعريّة، فإنّنا سنعطي في تاريخ الأفكار هذا المصادر البدائيّة للعلوم التطبيقيّة، التي كانت مُستعملة لدى الشعوب، وكذلك أيضًا العلوم الفكريّة التي لا يزال يمارسها أهل العلم في وقتنا الحاضر.

٤

[§ ٣٩٢] الجانب الرابع هو نقد فلسفي ناشئ من تاريخ الأفكار الذي تحدّثنا عنه لتوّنا. وسيمكّننا هذا النقد من معرفة ما هو صادق بخصوص ما قيل عن مؤسسي الأمم الذين مرّت عليهم ألف سنة أو أكثر قبل أن يظهر الكتّاب الذين يمثّلون موضوع نقدنا الفقهي. سيمدّنا هذا النقد الفلسفي بلاهوتيّة طبيعيّة أو بتناسل الآلهة انطلاقًا من جوبيتر، كما تشكّلت في ذهن مؤسّسي الأمم الوثنيّة الذين كانوا بطبيعتهم شعراء لاهوتيّين. إنّ عشرة آلهة التي تصوّرها الشعراء اللاهوتيّون كلّما دفعتهم إلى ذلك حاجيّات أو ضرورات جديدة تشكّل بالنسبة إلينا اثنتي عشرة فترة صغيرة يتكوّن منها زمن نشأة الأساطير. ستوفّر لنا هذه اللاهوتيّة الطبيعيّة تسلسلا زمنيًّا مدروسًا للتاريخ الشعري، سيمتدّ على مسافة تسعمئة عام على الأقلّ، والذي سينتهي بانتهاء الأزمنة البطوليّة وبداية التاريخ العاميّ.

٥

[§ ٣٩٣] سيكون الجانب الخامس من هذا *العِلم* تاريخًا مثاليًّا أبديًّا حيث تدور كلّ قصص الأمم بصفة متزامنة، إذ أنّ البشر حيثما كانوا وحيث لانت طباعهم بفعل الدين، خرجوا من حالتهم المتوحّشة والقاسية ومن عنفهم الضاري، وبدؤوا ثم واصلوا ثم انتهوا حسب نفس تلك التدرّجات التي ندرسها في هذا الكتاب الثاني، والتي ستعترضنا من جديد في الكتاب الرابع، حيث سندرس التمشي الذي سارت به الأمم، وفي الكتاب الخامس، حيث سنعاين تكرار التمشي الذي سبق أن سارت عليه الأمور البشريّة في أزمنة لاحقة.

[§ ٣٩٤] والجانب السادس من هذا *العِلم* سيتمثّل في نظام القانون الطبيعي للبشر، وسنبيّن أنّ هوغ غروتيوس ويوحنّا سلدن وصاموئيل بوفّاندورف، المتزعّمين لنفس المذهب، كان يجدر بهم أن يبدؤوا دراستهم للمادّة من النقطة التي بدأ منها الموضوع الذي كانوا يعتزمون توضيحه. بهذه الطريقة كانوا سيتبعون أحد المبادئ التي حدّدناها في *المسلّمات*[١]، وكانوا سيتفادون خطأ البدء من منتصف الطريق، أي البدء من الأزمنة الأخيرة للأمم المتحضّرة (فترة البشر المستنيرين بالذكاء الطبيعي في تمام تطوّره) التي برز منها الفلاسفة الذين تساموا بأفكارهم إلى حدّ تصوّر مفهوم عدالة مثاليّة.

[§ ٣٩٥] غروتيوس، بدافع حبّه الكبير للحقيقة، لا يعير اهتمامًا بالعناية الإلهيّة ويعلن أنّ نظامه يستقيم حتّى في غياب كلّ معرفة بالربّ. لهذا السبب فإنّ كلّ اللوم الذي يوجّهه إلى المشرّعين الرومان بخصوص العديد من الأمور لا يمكن أن يمسّهم؛ لأنّ هؤلاء، باختيارهم كمبدأ للتشريع وجودَ العناية الإلهيّة، لا يمكنهم أن يقيموه إلّا على قانون البشر الطبيعي، وليس على نظريّات الفلاسفة واللاهوتيّين الأخلاقيّين.

[§ ٣٩٦] أمّا سلدن فهو يفترض وجود معرفة لهذا القانون الطبيعي للبشر، دون اعتبار الطبع المتوحّش لتلك الشعوب الأولى، ولا للتقسيم الذي وضعه شعب الربّ في عالم الأمم بين عبرانيّين ووثنيّين. كما يهمل أيضًا أن اليهود أثناء أسْرهم بمصر كانوا قد فقدوا معرفة قانونهم الطبيعي، ولاسترجاعه كان لا بدّ من أن يعيده إليهم الربّ بالشريعة التي أعطاها لموسى فوق جبل سيناء. ونسي سلدن كذلك أنّ الربّ، في شريعته يحرّم حتّى الأفكار الظالمة، وهو شيء لم يأخذه بعين الاعتبار أيّ مشرّع بشري. وأخيرًا فإنه يترك جانبًا البدايات المتوحّشة والعنيفة لجميع الأقوام الوثنيّة. وإذ زعم سلدن أنّ اليهود عَلّموا من بعد الوثنيّين هذا القانون الطبيعي، فقد وضع نفسه في استحالة مدّنا بالبراهين على ما يثبته، بالنظر إلى اعتراف يوسيفوس المتسامح، وبالرأي المهم الذي جاء به لكتانتيوس الذي سبق أن تحدّثنا عنه، وبالنظر إلى العداوة التي طالما كانت موجودة بين اليهود والوثنيّين، عداوة لا تزال موجودة عند هذا الشعب المشتّت بين كلّ الأمم[٢].

---

(١) § ٣١٤ وما يتبع.

(٢) §§ ٩٤-٩٥.

[§ ٣٩٧] وأخيرًا، فإنّ بوفاندورف يبدأ الحديث عن القانون الطبيعي للبشر على أساس فرضيّة أبيقوريّة تجعله يرمي بالإنسان في هذا العالم دون نجدة أو حماية إلهيّة. وقد حاول بوفاندورف في مقالته الخصوصيّة أن يبرّر موقفه إزاء اللوم الذي واجهه في تلك المناسبة، ولكن هذا لا يمنع أنّ البراهين تثبت استحالة قول كلمة عن الحقّ الطبيعي دون قبول مبدأ وجود العناية الإلهية. وقد كان هذا ما ردّ به شيشرون على أتيكوس الأبيقوري، كما سبق أن رأينا[1]، حين أراد محاورته بشأن القوانين.

[§ ٣٩٨] لجميع هذه الأسباب، سنبدأ النظر في القانون، المسمّى عند اللاتينيّين *jus* المختصَر من اللفظة القديمة *Jous*، بالرجوع إلى اللحظة التي نشأت في ذهن أسياد الشعوب الوثنيّة فكرة جوبيتر. واليونانيّون يتوافقون في هذا تمامًا مع اللاتينيّين، إذ أنّ أفلاطون في كتاب *كراتيل* يلاحظ أنّ *jus* سُمّي قبل ذلك «διαιόν، ديايون» الذي يعني "*Discurrens*" [في جيئة وذهاب] أو "*permanens*" [دائم]. ويُفسّر أفلاطون غلطًا هذا الأصل الفلسفي، وفي هوسه بالأساطير العلميّة يعتبر أنّ جوبيتر هو الأثير الذي ينفذ ويملأ كلّ شيء. ولكنّ الأصل التاريخي لهذه الكلمة يأتي من جوبيتر نفسه، الذين أطلق عليه الإغريق أيضًا اسم «διαιόν، ديايون» الذي استمدّ منه اللاتينيّون "*sub Dio*" أو "*sub Jove*"، بمعنى تحت السماء المكشوفة، وطلبا لعذوبة التلفظ أصبح اليونان ينطقون «διαιόν، ديايون [بالكاف] δίκαιον ديكايون». سنبدأ إذن حديثنا عن القانون بقول إنّه كان في البداية إلهيًّا (*divino*)، أي أنّه يستمدّ أصله من *divinazione* أو علم العرافة بجوبيتر، وكانت هذه هي الأشياء الإلهيّة التي استعملها الوثنيّون لإدارة الأشياء البشريّة، ومن كلتيْهما يتكوّن موضوع العدالة الصحيح. سنتناول بعد ذلك موضوع القانون الطبيعي المتأتّي من فكرة العناية الإلهية التي كانت مصدر فكرة القانون. وقد حدّد هذا القانون وطبّقه أقدم زعماء الأقوام الوثنيّة، الذين سُمّوا بعلية القوم [*Gentes Majores*] وكان جوبيتر أوّل آلهتهم.

٧

[§ ٣٩٩] والجانب السابع من هذه الجوانب الأساسيّة لهذا *العِلم* سيكون تحديد مبادئ التاريخ الكوني، الذي يبدأ من هذه الفترة الأولى من الشؤون البشريّة للوثنيّين، أي

---

(١) § ٣٣٥.

في العصر الأوّل للعالم، أو عصر الآلهة، الذي يقول عنه المصريّون أنفسهم الفخورون بأقدميّة حضارتهم أنّه سبق وجودهم. ففي هذه الفترة كان مُلك السماء على الأرض، وفيها أنعمت السّماء على البشر وأغدقت عليهم خيراتها، مثلما سبق أن بيّنا ذلك في *المسلّمات*[١]. كان العصر الذهبي بالنسبة للإغريق هو العصر الذي تدخّلت عنده الآلهة في حياة البشر مثلما رأينا ذلك بخصوص جوبيتر[٢]. وبهذه الطريقة صوّر لنا الشعراء اليونانيّون هذا العصر الأوّل للعالم. وبسردهم علينا في أساطيرهم الطوفان العظيم وقصّة الجبابرة قد أمدّونا في الآن نفسه بمبادئ التاريخ الكوني والوثني. ولكن الذين جاؤوا بعد هؤلاء الشعراء كانوا عاجزين عن التماثل مع مخيّلة البشر الأوائل الذين أسّسوا الأمم الوثنيّة. هذه المخيّلة كانت من القوّة بحيث أقنعت هؤلاء البشر بأنّ آلهتهم تتكشّف لهم وبإمكانهم رؤيتها. وأولئك الذين جاؤوا بعد الشعراء الأوائل لم يفهموا معنى كلمة "*atterrare*"، التي تعني إرسالهم تحت الأرض، فاغترّ فكرهم الساذج بالمعنى المحرَّف للروايات القديمة التي كانت تروي أنّه في البدء عاش الجبابرة مختفين في الكهوف المحفورة تحت الجبال، التي نشأت منها بعد ذلك أسطورة الجبابرة وهم يرفعون جبال أولمب وبيليو وأوسّا أحدها فوق الآخر لبلوغ السّماء وطرد الآلهة منها. إلّا أنّ هؤلاء الجبابرة الأوائل لم يكونوا يحاربون الآلهة فقط، بل كانوا يجهلون حتّى وجودها إلى أن ضربتهم صاعقة جوبيتر الأولى. هذه الأسطورة التي تقصّ حرب الجبابرة والآلهة لا بدّ أنّها نشأت في زمن أقرب إلينا، بعد أن أدرك الإغريق أنّ السّماء مرتفعة إلى ما لا حدّ له، بينما بالنسبة إلى الجبابرة الأوائل لم تكن السّماء أعلى بكثير من قمم الجبال. ولعلّ الأسطورة نشأت بعد هوميروس، وأقحِمت في *الأوديسّا* من طرف كاتبها. إذ كان يكفي في زمن هوميروس أن تهتزّ الأرض عند جبل أولمب لكي يسقط منه الآلهة، الذين لم يضعهم أبدًا في غير هذا الجبل. كلّ هذا يجعلنا نعتقد أنّ التاريخ الكوني والوثني نقصه إلى حدّ الآن مبدأ أو أُساس، كما نقصه تسلسل زمني عقلاني للتاريخ الشعري، لذا ليس له أيّ حظّ للدوام.

---

(١) § انظر بالأحرى «فكرة عن العمل»، § ٤، و«ملحوظات الجدول الزمني» § ٦٤.

(٢) § ٣٧٧.

[القسم الثاني]

[المنطق الشعري]

[الباب الأوّل]

في المنطق الشعري

[§ ٤٠٠] كما أنّ الميتافيزيقا تنظر إلى الأشياء في كلّ أجناس كينونتها، فإنّ المنطق يعتبر الأشياء في كلّ أجناس دلالاتها. وبما أنّنا نظرنا إلى حدّ الآن إلى الشعر باعتباره ميتافيزيقا شعريّة كسا بواسطتها الشعراءُ اللاهوتيّون الأجسادَ بخاصيّاتٍ إلهية، فإنّنا سنتناوله الآن من حيث هو منطق شعريّ عبّر بواسطته الشعراء اللاهوتيّون عن أفكارهم.

[§ ٤٠١] تأتي لفظة *logica* من اليونانيّة «λόγος، لوغوس» التي عنَت في البداية حكاية أو خرافة (*favola*) والتي صارت بالإيطاليّة *favella*، والخرافة أو الأسطورة عند الإغريق سُمّيت أيضًا "μῦθος" التي صارت عند اللاتينيّين *mutus* (أبكم). وبالفعل، في الأزمنة البكماء، أي عندما كان البشر لا يتكلّمون بعدُ، كانت الخرافات بكماء، ونجد في فقرة مهمّة لإسطرابون أنّ هذه اللغة الصامتة سبقت اللغة الصوتية أو المنطوقة. كلمة "λόγος" عنت في البداية فكرة وكلمة، وفي هذا دليل على أنّ العناية الإلهية، في الأزمنة الدينيّة الأولى، أرادت من البشر أن يتأمّلوا فيها بدلا من الحديث عنها. لذا فإنّ لغة الأمم الأولى بدأت كما سبق أن ذكرنا ذلك في *المسلّمات*[1]، بالإشارات والحركات والأشياء والصور التي لها علاقة طبيعيّة بالأفكار. ولهذا السبب فإنّ كلمة "λόγος" أو "*verbum*" تعني أيضًا لدى اليهود «فعلاً» أو «واقعةً»، وأحيانا تتّخذ لدى الإغريق معنى» شيء»، كما لاحظ ذلك طوماس غاتكر في كتابه *Instrumenti Stylo*[2]. ويُترجم لفظ "μῦθος" بـ "*vera narratio*"، أو سرد الحقيقة: أي اللغة الطبيعيّة التي يقول أفلاطون، وتبعه في هذا الرأي يامبليخوس، إنّها اللغة التي تكلّم بها العالم قديمًا. إلّا أنّ أفلاطون طرح

(١) § ٢٢٥-٢٢٧.

(٢) هو Thomas Gataker [١٥٧٤-١٦٥٤] ناقد ولاهوتي إنكليزي. مؤلّف كتاب *De novi instrumenti Stylo*، ١٦٤٨.

عرضًا هذا الافتراض محاولاً دون جدوى إثباته في كتاب *كراتيل*، ما جلب عليه لوم أرسطو وجالينوس. ذلك أنّ هذه اللغة الأولى، التي كانت لغة الشعراء اللاهوتيّين، لم تكن مطابقةً لطبيعة الأشياء أو اللغة المقدّسة التي تكلّم بها آدم الذي منحه الإله التسمية الإلهية، أي فرض الأسماء على الأشياء حسب طبيعة كلّ منها، بل إنّ اللغة الأولى لهؤلاء الشعراء اللاهوتيّين كانت على العكس لغة خياليّة بواسطة ماهيات حيّة، معتبرة في أغلبها على أنّها إلهيّة.

[§ ٤٠٢] وهكذا فإنّ أولئك البشر البُكم سمّوا في البداية بالإشارات جوبيتر، كوبيلي[١] أو بيريسنثيا ونبتون على أنّهم السّماء والأرض والبحر، واعتبروها ماهيات حيّة إلهيّة، وبسذاجة حواسّهم عبدوها معتقدين أنّها آلهة. بواسطة هذه الآلهات الثلاث كانوا يفسّرون كلّ عجائب السّماء والأرض والبحر. ثمّ نسبوا إلى آلهات أخرى الأشياء التي تنتمي إلى كلّ واحدة منها، فكانت فلورا ربّة كلّ الأزهار، وبومونا ربّة كلّ الفاكهة. ونحن نقوم اليوم بعمليّة مماثلة وإن كانت معاكسة عندما نشخّص أشياء الفكر ونمثّل الأهواء والخصال والرذائل والعلوم والفنون باعتبارها شخصيّات في الغالب أنثويّة وننسب إليها كلّ الأسباب والمسبّبات والخاصيّات التي ترتبط بكلّ واحدة منها. هكذا خُلقنا وكلّما أردنا إخراج شيء من فكرنا استعملنا الخيال لكي نتمكّن من تفسيرها، ومثلما يفعل الرسّام، نخرجها تحت صور بشريّة. ولكن الشعراء اللاهوتيّين الذي كان فكرهم لا يزال أبكمَ كانوا يقومون بعمل رائع وإن كان معاكسًا لما نقوم به، وأعطوا لأعظم الماهيات كالسماء والأرض والبحر حواسّ وأهواء. شيئًا فشيئًا ضعُفت هذه المخيّلات الجامحة، فيما تقوّت التجريدات وتسامت، فصارت تلك التشخيصات العظيمة علاماتٍ ورموزًا. وحجبت الاستعارة خشونة هذه البدايات البشريّة تحت حجاب العِلم، فصار جوبيتر صغيرًا وخفيفًا حتّى أن نسرًا حلّق به في الأجواء، وشقّ نبتون الأمواج فوق عربة رقيقة، وجلست كوبيلي فوق أسد.

---

(١) كوبيلي أو بيريسنثيا نسبة إلى الجبل الذي تقول الأسطورة إنّ كوبيلي نشأت فيه وهي إلهة الجبال والطبيعة والخصوبة.

[§ ٤٠٣] كانت الأساطير إذن مثلما يدلّ عليها اسمها دون شكّ لغة الخرافات، وبما أنّ الخرافات تنتمي إلى الأجناس العجيبة، فإنّ الأساطير تتضمّن مجازاتها. وبالفعل كلمة مجاز تعني "*diversiloquium*"[1]؛ لأنّه يعبّر بشكل ما على أنّ الأشياء المختلفة أو الأفراد المختلفين المنتمية إلى نفس الأجناس ولها علاقة مشتركة بالنوع أو بالأفراد، يكون التعبير عنها موحّدًا أو متماثلاً. فإنّ اسم أخيل مثلا يمثّل فكرة قيمة مشتركة بين كلّ الرجال الأقوياء، كما أنّ أوليس يمثّل فكرة الحذر المشتركة بين كلّ الحكماء، بحيث أنّ هذه الاستعارات هي في الواقع اشتقاقات اللغات الشعريّة، لغات تكون فيها الأصول أو الجذور متشاركة، بينما الجذور في اللغات العاميّة تكون في الغالب متماثلة. وكما أنّ لفظة «اشتقاق» لها المعنى نفسه للفظة اللاتينيّة "*veriloquium*" [كلام صحيح]، فإنّ كلمة «خرافة» عُرّفت على أنّها "*vera narratio*" [سرد الحقيقة].

(١) سبق ذكره في § ٢١٠.

[الباب الثاني]

استنتاجات حول الصور المجازية والوحوش والتحوّلات الشعريّة

١

[§ ٤٠٤] إنّ استنتاجات هذا المنطق الشعري هي جميعها الصور المجازيّة الأولى، والأكثر سطوعًا من بينها والأكثر ضرورة واستعمالاً هي دون شكّ الاستعارة، إذ أن ميزتها أنّها تعطي للجماد حواسّ وعاطفة. فقد أعطى الشعراء الأوائل للأشياء الجامدة روحًا كالتي يعرفونها ويفهمونها، وبهذا صنعوا الأساطير، بحيث أنّ كلّ استعارة تصير أسطورة مصغّرة. والنقد ينيرنا بخصوص أزمنة نشأة اللغات ويبيّن لنا أنّ كلّ الاستعارات التي نستعملها لتشبيه الأجسام بأعمال الفكر المجرّدة، ونطبّق على هذه ما هو خاصّ بالأولى تكون قد حدثت لأوّل مرّة في الفترة التي نشأت فيها الفلسفة. وما يدلّ على ذلك هو أنّ كلّ الألفاظ في كلّ لغة تصلح للفنون الراقية أو للعلوم الباطنيّة، لها أصل عامّي وتُستعمل للتعبير عن حاجيّات عيش الفلاحين.

[§ ٤٠٥] وما تجدر ملاحظته أيضًا أنّه في كلّ اللغات نرى أنّ معظم العبارات التي يُشار بها إلى الجماد مستمدّة من تسميات أجزاء الجسم البشري، من أطرافه المختلفة، من حواسّه ومن عواطفه: مثل *الرأس* بمعنى القمّة أو بداية الشيء، *والجبهة والظهر* لما هو أمام وخلف، *والعيون* لبراعم الكروم وكوّات البيوت، *والفم* لكلّ ما هو فتحة، *والأذنين* للقفاف، *والأسنان* للمشط والمحراث والمذراة، وكذلك لسان للأرض أو البحر، وذراعيْ النهر، وحفنة اليد لعدد قليل من الناس، وقلب الغابة، وحلق الوادي؛ وكذلك القلب لما هو في الوسط الذي يسمّيه اللاتينيّون "*umbilicus*" أي سُرّة؛ ونقول عن الخمر إنّها دم الكروم، وأن الرياح تُعْوِل، والأشجار تنتحب، والصباح يبتسم، وخريرالمياه يهمس، والطيور تشدو، والشمس تُطِلّ... وغير ذلك ممّا نجده متوفّرًا في كلّ اللغات ممّا يؤكّد صحّة هذه الحكمة: أنّ الإنسان الجاهل يجعل من نفسه قاعدة

الكـون. وبالفعـل، في الأمثلة التي قدّمناها جعل الإنسـان من ذاتـه كونًا بأكمله. وكما أنّ الميتافيزيقا المعقلنة تعلّمنا أنّ الإنسـان حينما يفهم فإنّه يوسـع فكره *ويفهم الأشياء على حقيقتهـا*[1]، ولكـن حينمـا لا يفهم فإنّه يصنع أشـياء من ذاته، *فيصبح هو هذه الأشـياء*[2] بتحويله ذاته إليها.

٢

[§ ٤٠٦] نتيجـة لذلك المنطق نفسـه، وليد تلك الميتافيزيقا نفسـها، أعطى الشـعراء الأوائـل إلى الأشـياء الأسـماء التي تعبّر عـن الأفكار الأكثر حسّـا وخصوصيّة. وهذا هو منبع الكناية والمجاز. فالكناية تشـير إلى الأعمال بأسـماء صانعيها؛ لأنّه في تلك الأزمنة الأولى كانت أسـماء الصانعين أكثر شـهرة وأكثر اسـتعمالاً من أعمالهم. ثم الكناية التي تشـير إلى الأشـياء من خلال أشـكالها أو ميزاتها الخصوصيّة؛ وذلك لأنّ البشـر الأوائل كانوا غير قادرين على تجريد الأشـياء من الأشـكال ومن الخصوصيّات التي تميّزها. ثمّ الكنايـة التـي تشـير إلى الأسـباب من خلال نتائجها، فنشـأت منها العديد مـن الخرافات الصغيرة؛ لأنّ البشر تصوّروا هذه الأسباب مثل إمرأة ترتدي «نتائجها» [كلباس]، كقولنا: الفقر التعيس، أو الشيخوخة الكئيبة أو الموت الشاحب.

٣

[§ ٤٠٧] دخـل المجـاز المرسـل فـي اللغـة عندمـا مـرّ الإنسـان من الخـاصّ إلى الشـامل، وعندما جمّع أجزاء كثيرة ليصنع منها أشـياء معقّدة. وهكذا نجد في اللاتينيّة العاميّة لفظ "*caput*" (رأس)، للإشـارة إلى إنسـان أو إلى شـخص، لأنّه في البداية ما كان يبـرز مـن وسـط النبـات والأجمات هو الـرأس بينما يبقى الجسـم مختفيًا. واسـم إنسـان هـو كلمـة مجـرّدة، إذ يتضمّـن فـي جنـس أو في شـموليّة فلسـفيّة الجسـم وكلّ أجزائـه، والعقـل وكلّ مؤهّلاته، والروح وكلّ ما يتعلّق بها. كما أنّ اللاتينيّة "*tignum*" و"*culmen*" كانتـا تعنيـان فـي البدايـة «أعواد» و«قـشّ»، زمن أن كانـت هناك الأكواخ

(١) ورد باللاتينية: *homo intelligendo fit omnia*.

(٢) ورد باللاتينية: *homo non intelligendo fit omnia*.

المغطّاة بالقشّ، ثمّ مع نشأة المدن وتطوّر مبانيها الرائعة بقيتا للدلالة على الموادّ والمكوّنات التي تكتمل بها البنايات. والكلمة اللاتينيّة "*tectum*" (سقف) استُعملت بمعنى الدار بأكملها؛ لأنّه في الأزمنة الأولى كان يكفي سقف للمرء للاحتماء تحته، كما أنّ لفظ "*puppis*" (الكوثل، أي مؤخّر السفينة) قام مقام السفينة بأكملها، لأنّه أعلى جزء فيها ويمكن مشاهدتها من الشرفات؛ ومع عودة الهمجيّة صار الشراع بمثابة المركب أو اللوح لكون المراكب مصنوعة من الألواح. وهذا المزيج من كناية ومجاز مرسل في القول اللاتيني

"*tertia messis erat*" [كان الحصاد الثالث]،

لا بدّ أنّه متأتّ من ضرورة التعبير عن مدّة من الزمن، إذ أنّه احتاجت الأمم لأكثر من ألف سنة دون شكّ قبل أن تجد الاسم الفلكي لقول «سنة» أو «عام». ولا يزال الفلاّحون في جهات فلورنسا يقولون: «*حصدنا كذا مرّة*»، للإشارة إلى عدد معيّن من السنوات. ولدينا أيضًا هذا المزيج من مجازيْن مرسليْن وكناية

"*Post aliquot mea regna videns mirabor aristas*"[1]،

وهو يشكف لنا فقرًا في التعبير، إذ أنّه كان يُقال عدد من السنابل لقول عدد من السنين. ولأنّ التعبير فقير جدّاً، فقد أراد النحويّون أنّ يروا فيه فنًّا خفيًّا.

٤

[§ ٤٠٨] نشأت السخرية دون شكّ بعد نشأة التفكير، إذ تتمثّل في الإتيان بقضيّة كاذبة لقول إنّ القضيّة المعاكسة صحيحة. وهنا يبرز هذا المبدأ المهم في الشؤون الإنسانيّة، الذي يؤكّد ما سبق أن قلناه عن أصل الشعر؛ أي أنّ طبيعة الوثنيّين الأوائل كانت ساذجة وصادقة مثل طبيعة الأطفال، وأنّ أساطيرهم الأولى لم تكن تحتوي على أيّ شيء كاذب، ولذا ينبغي اعتبارها بالضرورة كما سبق أن عرّفناها "*vera narratio*" أي سرد الحقيقة[2].

---

(١) أي: *بعدّ بعض السنابل، هل سأعجب لرؤية مملكاتي؟* فرجيل، *Bucoliche*، I، ٦٩.

(٢) انظر § ٤٠١.

٥

[§ ٤٠٩] لقد أظهرنا أنّ جميع هذه الصور المجازية، التي نحدّد عددها بأربعة، لم تكن باعتقادنا كما ذهب الظنّ بالكثيرين، ابتداعات ذكيّة جاء بها الكتّاب، بل كانت بالأحرى طُرق تعبير ضروريّة استعملتها جميع الأمم الشعريّة الأولى. ونعتقد أنّنا أظهرنا بما يكفي من أمثلة أنّ هذه الأشكال من التعبير كان لها في الأصل معنى خاصّ بها وطبيعيّ، وأنّه لزم البشر عملا طويلا لاحقا لكي يجدوا الألفاظ التي يعبّرون بها اليوم عمّا هو مجرّد، وعن الأجناس التي تنطوي على أنواعها، وكذلك على جمع الأجزاء التي تكوّن الكلّ، وهذه الطرق في التعبير لدى الأمم الأولى صارت استعارات. وبهذا نصحّح الخطأين اللذين سقط فيهما النحويّون الذين قالوا إنّ لغة النثر مفصحة بينما لغة الشعرغير مفصحة وإنّ الأولى جاءت قبل الثانية.

٦

[§ ٤١٠] إنّ الوحوش والتحوّلات الشعريّة تستمدّ أصلها من كون الطبيعة البشريّة عاجزة عن تجريد الأشكال أو الخاصيّات المميّزة للأشياء. لذا وجد البشر أنفسهم مضطرّين لافتراض وجود بعض الأشياء لفهم أشكالها المجرّدة، أو لهدم بعض الأشياء الأخرى لفرز شكلها الأوّلي من الشكل الغريب الذي ولج فيها. فالوحوش الشعريّة نشأت من هذه التركيبات الفكريّة، وعلى هذا يعتمد أنطوان فافر[١] في كتابه "*Giurisprudenza Papinianea*" حين يؤكّد لنا أنّه في القانون الروماني، كان الأبناء الذين يولدون من الغانيات يسمّون أمساخًا، إذ تشترك فيهم طبيعة الإنسان بطبيعة الحيوان، باعتبارهم نتاج جماع غير مؤكّد وعابر. وسنرى كيف أنّ هؤلاء الأبناء الأمساخ المحكوم عليهم في *اللوائح الاثنتيْ عشرة* بأن يُغرقوا في نهر *التيبر*[٢] ليسوا إلاّ أطفالًا وُلدوا من نساء شريفات، ولكن خارج رباط الزواج[٣].

---

(١) هو أنطوان فافر (Antoine Favre) [١٥٥٧-١٦٢٤] رجل قانون وكاتب فرنسي

(٢) نهر Tevere هو الذي يشقّ مدينة روما.

(٣) § ٥٦٦.

٧

[§ ٤١١] أدّى التمييز بين الأفكار إلى نشوء تحوّلات. ومن ضمن الأمثلة التي حفظتها لنا القوانين القديمة استعمال العبارة البطولية اللاتينيّة "*fundum fieri*" بمعنى "*autorem fieri*"[١]. وعليه فإنه مثلما أنّ المُلك هو الأساس الذي تقوم عليه الملكيّة، أو الأرض وما يوجد عليها من نبات أو زرع أو بناء، فإنّ المُوافق يدعم القرار، الذي من دون موافقته يسقط. لذا فإنّ المُوافق، الذي له القدرة على التحرّك من تلقاء نفسه، يتّخذ الشكل المعاكس، شكل شيء ثابت.

(١) *fundum fieri* يعني حرفيًا أن يصبح أرضية أو أساسًا ل..؛ و*autorem fieri* يعني أن يصبح فاعلا ل.. والمقصود منه أنّه كما أنّ الأرض هي أساس ما يوجد فوقها فإنّ الفاعل هو الأساس للفعل الذي صنعه ومن دونه فهو يسقط.

[الباب الثالث]

استنتاجات حول اللغة ذات الرموز الشعريّة عند الأمم الأولى

[§ ٤١٢] إنّ اللغة الشعريّة كما قدّمناها في هذا المنطق الشعري، تمتدّ قبلا بكثير في الأزمنة التاريخيّة، مثل الأنهار العظيمة والسريعة التي تحتفظ بمياهها العذبة طويلا بعد دخولها في البحر، إذ أنّ قوّة دفعها يحميها من كلّ اختلاط. بهذه الطريقة على الأقلّ يفسّر لنا يامبليخوس[1] كيف أنّ المصريّين القدامى يُرجعون إلى الإله هرمس كلّ الاكتشافات النافعة للحياة البشريّة. وقد سبق أن أكّدنا ذلك بهذا القول وهو أنّ الأطفال يشيرون إلى كلّ المخلوقات البشريّة وكلّ الأشياء التي يرونها تباعًا في الزمن بأسماء المخلوقات البشريّة والأشياء التي شاهدوها لأوّل مرّة، والتي لها علاقة ما بالأولى أو شبه بها. هذا هو إذن المنبع الطبيعي الكبير للخصوصيّات الشعريّة التي بواسطتها تكلّمت وفكّرت الشعوب الأولى، ولو أنّ يامبليخوس اعتبر هذه الخاصيّة للأشياء البشريّة، ولو أنّه قرّب ذلك إلى الاستعمال الذي ينسبه هو نفسه إلى المصريّين، لما افترض دون شكّ أنّ أسرار المعرفة الأفلاطونيّة السامية كانت مضمّنَة في المعرفة العاميّة للمصريّين القدامى.

[§ ٤١٣] الآن وبالتفكير في طبيعة الأطفال تلك وفي عادات المصريّين الأوائل فإنّه بإمكاننا القول إنّ اللغة الشعريّة من خلال رموزها الشعريّة بإمكانها أن تُيسّرلنا اكتشاف الكثير من الأشياء المهمة بخصوص العصور القديمة.

١

[§ ٤١٤] كان صولون دون شكّ عالِمًا بالمعرفة العاميّة، وكان في الآن نفسه زعيم الحزب الشعبي، في الفترة التي كانت فيها أثينا جمهوريّة أرستقراطيّة. وبالحديث عن هذه

---

(١) انظر § ٢٠٧.

الفترة، فإنّ التاريخ الإغريقي يروي لنا كيف أن أثينا كانت بأيدي الأكابر. ولكنّنا سنبيّن أثناء هذه الدراسة أنّ الشيء نفسه حدث في جميع الجمهوريّات البطوليّة، أي أنّه في كلّ منها اعتبر الأشرافُ أو الأبطالُ أنفسهم مشاركين في الطبيعة الإلهيّة، وأنّه يحقّ لهم فقط التكهّن أو التنبؤ بإرادة الآلهة، وهو امتياز كانوا يحتفظون به لفئتهم، مثلما كانوا يحتفظون لأنفسهم بكلّ الحقوق العامّة والخاصّة للمدن البطولية، بينما كانوا لا يعترفون للعامّة المعتبَرين جزءًا من الطبيعة الحيوانيّة والذين ليس لهم آلهة أو نذور إلّا بممارسة الحريّة الطبيعيّة. وهذا مبدأ مهم سنعتمد عليه كثيرًا في هذا العمل. ومن المحتمل أن صولون أيقظ وعي العامّة وحثّهم على التفكير في وضعهم، وعلى الاعتراف بأنّهم من نفس طبيعة الأشراف، وعليه فإنه يحقّ لهم أن يتمتّعوا مثلهم بنفس الحقوق المدنيّة. ولعلّ صولون ليس إلّا تشخيصًا أو رمزًا لعامّة الشعب الأثينيّين الذين يظهرون هنا بمثابة الثوّار.

[§ ٤١٥] ونرى أنّ الرومان القدامى، مع أنّه لم يكن لهم أحد شبيه بصولون الإغريق، فقد قادوا النضالات البطوليّة ضدّ الأشراف. وبالفعل فإنّ التاريخ الروماني القديم يروي لنا أنّ العامّة كانوا يقولون بخصوص الأكابر المنحدرين من الآباء الأوائل، الذين شكّل بهم رومولوس مجلس الشيوخ، إنّهم «*لم ينزلوا من السّماء*»[١]، أي أنّ أصلهم ليس في الواقع إلهيًا، وأنّهم جميعهم أشراف وعامّة متساوون أمام جوبيتر، وهذا هو التاريخ المدني للجملة التي تقول «*إنّ جوبيتر سواء للجميع*»[٢]، التي استمدّ منها العلماء مبدأ أنّ جميع الأذهان متساوية وأنّ اختلافاتها تكمن في شكل الجسد وفي اختلاف الثقافة المدنيّة. وإذ استيقظ الوعي لدى العامّة من الرومان بشرعيّة حقوقهم فقد طالبوا الأشراف بمنحهم حقّ التمتّع بالحريّة المدنيّة، وحوّلوا شيئًا فشيئًا الدستور الأرستقراطي للجمهوريّة إلى دستور شعبيّ. وهذا ما قدّمناه في شكل فرضيّة في ملاحظاتنا بخصوص *الجدول الزمني* عندما تحدّثنا عن قانون بوبليليا[٣]. وسنبرهن بحجج قويّة وبالاعتماد على مراجع علميّة مهمّة[٤]، على أنّ الشيء نفسه قد حدث في جميع الجمهوريات

---

(١) ورد باللاتينية: *non esse caelo demissos*.

(٢) ورد باللاتينية: *Jupiter omnibus aequus*...

(٣) §. ١٠٤، ١١٤.

(٤) § ٥٩٨.

القديمة، وأنّ العامّة من الشعب حرّضتهم فكرة صولون ودفعتهم إلى تغيير دساتير الجمهوريّات من أرستقراطيّة إلى شعبيّة.

[§ ٤١٦] ولهذا السبب اعتُبر صولون صاحبُ هذه القولة الشهيرة *Nosce te ipsum* [اعرف نفسك بنفسك]، وهي مقولة كانت ذات فائدة مدنيّة عظيمة بالنسبة إلى شعب أثينا، حتّى أنّه علّقها في جميع الفضاءات العموميّة بالمدينة. وقد اعتبر العلماء هذا القول تحذيرًا مهمّا (وهو بالفعل كذلك) أن تولى العناية بالشؤون الأخلاقيّة والميتافيزيقيّة، وكان صولون في نظرهم حكيمًا في العلوم الباطنيّة وأمير الحكماء السبعة باليونان. جميع الأحكام وجميع القوانين التي أنشأت بأثينا جمهوريّةً ديمقراطيّةً كان منبعها هو هذه الفكرة التي كانت تُنسب إلى صولون، والعادة المتّبعة عند الشعوب الأولى في التفكير وفي التعبير عبر رموز شعريّة هي التي جعلت شعب أثينا ينسب كلّ تلك القوانين وكلّ تلك الأحكام إلى صولون، مثلما كان المصريّون القدامى ينسبون إلى هرمس كلّ الاكتشافات المفيدة للحياة البشريّة والمدنيّة.

٢

[§ ٤١٧] وهذا دون شكّ ما جعل الرومان ينسبون إلى رومولوس كلّ القوانين التي تحدّد الأنظمة.

٣

[§ ٤١٨] وما جعلهم ينسبون إلى نوما[١] أغلب الأشياء المتعلّقة بالدين، وكذلك الطقوس الإلهيّة التي تأسّست عليها لاحقًا الديانة الرومانيّة.

٤

[§ ٤١٩] كما أنّهم نسبوا إلى تولّوس هوستيليوس[٢] كلّ القوانين والتراتيب التي تنظّم الحياة العسكريّة.

---

(١) نوما بومبيليوس [٧٥٣- ٦٧٣ ق.م.] ثاني ملوك روما السبعة الأسطوريّين. حكم بين سنة ٧١٦ و٦٧٣.

(٢) ورد ذكره في § ٢٦٨.

٥

[§ ٤٢٠] ونسبوا أيضًا إلى توليوس سيرفيوس قانون الضريبة الذي يمثّل أساس الجمهوريّات الديمقراطيّة وقوانين كثيرة أخرى تخصّ الحريّة الشعبيّة، ممّا جعل تاسيتوس يسمّيه «*المشرّع بامتياز*»[١]، لأنّه كما سنبيّن ذلك لاحقًا[٢]، كان قانون الضريبة الذي سنّه سارفيوس توليوس القاعدة التي قامت عليها الجمهوريّات الشعبيّة، إذ أنّه بمقتضى هذه الضريبة انتزع الشعب من الأشراف حقّ الملكيّة النفعيّة للحقول، ثمّ للدفاع عن هذا الفوز الأوّل انتخب الشعب محاميه (*tribuni*)، الذين يدينون لهم بالحريّة المدنيّة. وهكذا بإرضاء طموحات الشعب ومطالبه صارت ضريبة سيرفيوس توليوس الأساس الذي قامت عليه الجمهوريّة الشعبيّة الرومانيّة، مثلما افترضنا ذلك في الملاحظات بخصوص قانون بوبليليا[٣] وسنقدّم لاحقًا البراهين التي تثبت صحّتها[٤].

٦

[§ ٤٢١] وبهذه الطريقة نفسها نسب الرومان إلى تاركوينوس بريسكوس[٥] الشعارات والرموز التي جعلت الجلالة الامبراطوريّة الرومانيّة في فترة ما ساطعة وفاخرة.

٧

[§ ٤٢٢] هناك عدد كبير من القوانين أضيفت إلى شريعة *اللوائح الاثنتي* عشرة والتي -كما سنبيّن لاحقًا[٦]- تعود دون شكّ إلى فترة لاحقة. ومثلما سبق أن بينّا في كتاب

---

(١) ورد باللاتينية: *praecipuus Sanctor legum*.

(٢) § ٦١٩-٦٢٣.

(٣) § ١٠٧، ١١١.

(٤) § ٦١٩ وما يتبع.

(٥) لوكيوس تاركوينوس بريسكوس [توفي سنة ٥٧٨ ق.م.]. خامس ملوك روما السبعة الأسطوريّين. حكم بين سنة ٦١٦ و٥٧٨، وهو أوّل ملك من أصل أتروسكي.

(٦) § ٦٣٨، ٩٥٧، ٩٦٠، ١٠٠١.

مبادئ القانون الكوني[1]، بما أنّ القانون الذي منح به الأشراف حقّ الملكيّة المدنيّة كان الأوّل الذي كُتب على لوحة عموميّة، ومن أجله وقع إحداث *مجلس العشرة* (*Decemviri*)، فإنّ جميع القوانين في صالح الحريّة الشعبيّة والمساواة المدنيّة التي كُتبت على لوائح عموميّة، نُسبت إلى *مجالس العشرة*. وسنقدّم كبرهان على ما نقوله التحجير الذي سنّه مجلس العشرة إزاء استعمال الأبّهة الإغريقيّة في محافل المآتم. بينما لم يكن بإمكان الرومان أن يعرفوا هذه الأبّهة وأن يقلّدوها إلّا في فترة الحروب ضدّ التارنتيّين وضدّ بيرّوس، أي بعد إلغاء *مجالس العشرة*. ويلاحظ شيشرون أنّ هذا القانون جاء باللاتينيّة بالعبارات نفسها التي صيغ بها بأثينا.

٨

[§ ٤٢٣] يضع التاريخ الإغريقي دراكون، صاحب القوانين المكتوبة بالدم، في الفترة التي كانت فيها أثينا تحت حكم أعيان القوم، أي في أزمنة الأرستقراطيّات البطوليّة. ويروي لنا التاريخ الإغريقي أنّه في تلك الفترة نفسها كان الهرقليّون منتشرين عبر كلّ بلاد اليونان، وحتى في أتّيكا، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك في *الجدول الزمني*[2]. ثمّ تمركز هؤلاء الهيرقليّون في *البوليبونّيز* وشكّلوا مملكتهم في إسبرطة، وقد كانت دون شكّ جمهوريّة أرستقراطيّة. ودراكون هذا، الذي لا بدّ أنّه كان أحد ثعابين *غورغونة*[3] المثبّتة على درع بارسيوس، كان يرمز إلى سلطة القانون. كان هذا الدرع يعاقب بقسوة كلّ من ينظر إليه، محوّلا إيّاه إلى حجر. ويُقال إنّ قوانين دراكون مكتوبة بالدم؛ لأنّها كانت بنفس صرامة القوانين المسمّاة في الكتابات المقدّسة *قوانين الدم* "*leges sanguinis*". ومينيرفا المسلّحة بهذا الدرع اتّخذت باليونانيّة اسم "Ἀθηνᾶ"، كما سيتبيّن ذلك لاحقًا[4]. والصينيّون، الذين لا زالوا يكتبون بالحروف الهيروغليفيّة، اتّخذوا

(١) فيكو، *الأعمال*، طبعة نيكوليني، ص٥٦٤-٥٨٠.

(٢) § ٧٧.

(٣) الغرغونة (Gorgona) أو ميدوسا هي إحدى الأخوات الثلاث في الأساطير الإغريقيّة، شعرهنّ من ثعابين ومن ينظر إليهنّ يتحوّل إلى حجر.

(٤) § ٥٤٢، ٦١٦.

التنّين[1] شعارًا لهم أو رمزًا للسلطة المدنيّة (ونحن نستغرب كيف أنّ أمّتيْن بعيدتيْن عن بعضهما كلّ هذا البعد في الزمان والمكان، كالأمّتيْن اليونانيّة والصينيّة، تلتقيان بطريقة تفكير وتعبير شعريّة متماثلة). ولا يسعنا إلّا قول إنّ دراكون هذا لم يوجد قطّ؛ لأنّ التاريخ الإغريقي لا يقول شيئًا آخر بخصوص دراكون.

٩

[§ ٤٢٤] إنّ ما سبق أن اكتشفناه إلى حدّ الآن عن الرموز الشعريّة يؤكّد ما كنّا قد افترضناه في *الملحوظات الخاصّة بالجدول الزمني*[2]، وهو أنّ إيسوب[3] كان سابقًا للحكماء السبعة. هذه الحقيقة الفقهيّة تجد ما يبرهن عليها في تاريخ الأفكار الإنسانيّة، إذ أنّ الحكماء السبعة شرعوا في سنّ تعاليم أخلاقيّة أو مذاهب مدنيّة كانت شبيهة بالمبدأ المضمّن في قول صولون، معلّمهم «*اعرف نفسك*» [*Nosce te ipsum*]، وهو مبدأ طُبّق في البداية على المذهب المدني، ثم انتقل إلى الميتافيزيقا والأخلاق، بينما إيسوب كان قد أعطى هذه التحذيرات بواسطة المشابهات والصور والأمثلة؛ حيث إنّ الشعراء عبّروا في البداية بهذه الطريقة؛ لأنّ نظام الأفكار البشريّة يقتضي أن نلاحظ الشبه الذي يربط الأشياء ببعضها، للتعبير عن أحدها بواسطة الآخر، ثمّ للبرهنة على وجودها وعن خصوصيّاتها بوجود أشياء تملك الخصوصيّات نفسها. وهكذا فإنّه يكفي شيء واحد في البداية لتقديم مثال، ولكن تلزم بعد ذلك أمثلة أخرى عديدة للخروج باستنتاج. وبالفعل، فإنّ سقراط، وجميع الطوائف الفلسفيّة، وضع الجدليّة بواسطة الاستقراء، وجاء من بعده أرسطو وأكملها بالقياس، الذي لا يعمل من دون الكليّات. ولكن يكفي الشبه لإقناع العقول البسيطة، وهكذا نرى أنّ منينيوس أغريبّا[4] الطيّب أخضع للطاعة شعب روما الثائر بخرافة ممثالة لتلك التي جاء بها إيسوب.

---

(١) اسم دراكون شبيه باللفظة الإيطالية dragone والفرنسية dragon التي تعني التنّين.

(٢) § ٩١.

(٣) إيسوب [٦٢٠-٥٦٤ ق.م] كاتب إغريقي عُرف بالحكايات المنسوبة إليه «خرافات إيسوب». كان معاصرًا أو سابقًا بقليل لصولون في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد باليونان القديمة.

(٤) هو Agrippa Menenius Latanus ولد في زمن روما القديمة وتوفّي سنة ٤٩٣ ق.م. أحد أشراف روما وكان قنصلا سنة ٥٠٣ ق.م.

[§ ٤٢٥] وكون إيسوب كان نمطًا أو رمزًا شعريًّا لشركاء [*soci*] أو خدم [*famoli*] الأبطال ما يقوله فيدروس[١] بأسلوب العرّافين في ديباجة إحدى خرافاته:

الآن سأخبركم بإيجاز لماذا ابتُدع جنس الخرافة، لأنّ العبيد الخاضعين كانوا لا يجرؤون على قول ما يريدون، فنقلوا مشاعرهم إلى الخرافات. ومن درب إيسوب صنعت طريقًا.[٢]

كلّ هذا يتّضح أكثر من خلال خرافة مجتمع الأسود، حيث نرى أنّ العامّة كانوا يُدعون شركاء المدن البطوليّة وكانوا يتشاطرون أخطار الحروب ومآسيها، ولكن دون الغنائم والغزوات. لذا سُميّ إيسوب *عبدًا*؛ لأنّ العامّة كانوا خدَم الأبطال، ومثّلوه قبيح المنظر لأنّ الجمال المدنيّ لا يُمكن أن يكون إلّا بعقد زواج رسميّ، وكان لا يحقّ إلّا للأبطال. نحن نعرف قبح تارسيتس[٣]، هذا المثال من العامّة الذي ضربه أوليس بصولجان أغاممنون، مثلما كان العامّة الرومان في القديم يُضربون بالعصيّ على أكتافهم العارية من طرف الأشراف، *على منوال الملوك*[٤]، حسب تعبير سالّوستيوس[٥] المذكور في كتاب القدّيس أغسطينوس[٦] «*مدينة الله*». ويؤكّد سالّوستيوس أنّ هذه العادة تمادت إلى أن وضع قانون بورسيوس[٧] حدّاً لضرب أكتاف الرومان بالعصيّ.

---

(١) كايوس لوليوس فيدروس [١٤ ق.م. - ٥٠ م]. مؤلّف خرافات لاتيني. استقى العديد من خرافاته من إيسوب.

(٢) ورد باللاتينية: *Nunc fabularum cur sit inventum genus, / brevi docebo. Servitus obnoxia,/ quia, quae volebat non audebat dicere/ affectus proprios in fabellas transtulit./ Aesopi illius semitam feci viam.*

(٣) خشصيّة خيالية في الأساطير الإغريقيّة. ابن أغريوس، كان مقاتلا وشارك إلى جانب الآخيّين في حرب طروادة. يصفه هوميروس في *الإلياذة* بأنه قبيح المنظر ومحتقرًا من طرف الأبطال.

(٤) ورد باللاتينية: *regium in morem*.

(٥) كايوس سالوستيوس كريسبوس [٨٦ - ٣٥ ق. م]. سياسي ومؤرّخ روماني.

(٦) القديس أغسطينوس [٣٨٤ - ٤٣٠ م]. وُلد بطاغست (سوق الأهراس الحالية بالجزائر) وهو أحد الشخصيّات البارزة في الفكر المسيحي الغربي.

(٧) باللاتينيّة Lex Porcia، وبالجمع Leges Porciae، وهي ثلاث قوانين صدرت في القرن الثاني قبل الميلاد يعود اسمها إلى بوبليوس بورسيوس، وإحداها حجّرت في سنة ١٩٩ ق.م. الجلد أو الضرب بالعصيّ.

[§ ٤٢٦] هذه الآراء لم تكن دون شكّ إلّا تعبيرًا عن مشاعر مشتركة لدى جميع عوامّ المدن البطوليّة، والتي يمليها القانون الطبيعي. ولم يكن إيسوب إذن إلّا نمطًا شعريًّا من العامّة تحت هذا الجانب، النمط الذي نُسبت إليه من بعد الخرافات التي كان موضوعها هو الفلسفة الأخلاقيّة. لذا اعتُبر إيسوب أوّل فيلسوف أخلاقي، مثلما اعتُبر صولون أوّل حكيم لأنّه أسّس في جمهوريّة أثينا الحريّة المنظّمة بالقوانين. وإيسوب الذي كان يُلقي عِبرَه بواسطة الخرافات عاش دون شكّ قبل صولون الذي كان يلقي دروسه من خلال الحِكم. هذه الخرافات كُتِبت في البداية بأبيات بطوليّة، ثمّ نُقلِت حسب الروايات إلى أبيات نثريّة، وهو نسق سمح للإغريق بالمرور من الأبيات البطوليّة إلى النثر الذي وصلت به إلينا هذه الخرافات.

١٠

[§ ٤٢٧] بهذه الطريقة نُسِبت اكتشافات العِلم الباطني إلى أقدم مؤسّسي المعرفة العاميّة. وهكذا فإنّ أمثال زرادشت بالمشرق، وهرمس بمصر، وأورفيوس باليونان، وفيثاغورس بإيطاليا، أي جميع هؤلاء المشرّعين، اعتُبروا في ذهن الأجيال اللاحقة فلاسفة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كونفوشيوس عند الصينيّين في وقتنا الحاضر. كان سكّان بلاد اليونان الكبرى يدعون الأشراف بالفيثاغوريّين، وحين أراد الأخيرون تغيير جميع جمهوريّاتهم من شعبيّة إلى أرستقراطيّة أخفقوا واضمحلّوا. وقد سبق أن بيّنّا أنّ الأبيات الذهبيّة لفيثاغورس ليست من تأليفه، كما هو الحال بالنسبة إلى تنبؤات زرادشت أو *بويماندريس*[١] هرمس الهرامسة، وأنّ أبيات أورفيوس ليست من تأليف هذا الشاعر المزعوم. لم يؤلّف فيثاغورس أيّ كتاب فلسفي، ويلاحظ شيفّر[٢] في كتابه «في الفلسفة الإيطالية» [*de Philosophia Italica*]، أنّ فيلولاوس[٣] كان الأوّل من بين الفيثاغوريّين الذي كتب في الفلسفة.

---

(١) فصل من الكتابات الهرمسيّة كتب باليونانية ويقدّم شرحًا حول رع إله الشمس. كلمة بيوماندريس تعني «الرجل الراعي».

(٢) Johannes Scheffer عالم إنسانيات سويدي درس في أبسالا وعنوان كتابه كاملا: De Natura et Constitutione Philosophica Italica ونشر في أبسالا سنة ١٦٦٤.

(٣) فيلولاوس [٤٧٠-٣٩٠ ق. م] فيلسوف فلكي ورياضي يوناني. جاء قبل سقراط وهو أحد أتباع مدرسة فيثاغورس.

[الباب الرابع]

استنتاجات بخصوص نشأة اللغات والحروف ومن ثمّ نشأة الهيروغليفيّات والشرائع والأسماء والشعارات النبيلة والميداليات والعملة، وكذلك حول اللغة الأولى والأدب وقانون الناس الطبيعي

[§ ٤٢٨] سنكتشف الآن من خلال لاهوتيّة الشعراء، أي من خلال الميتافيزيقا الشعريّة، نشأة اللغات والحروف. وتوجد حول هذا الموضوع من الآراء بقدر ما يوجد من العلماء الذين كتبوا في هذا الغرض، ما جعل جيرارد جان فوسّيوس[١] يقول في كتاب *النحو*: «*بخصوص ابتداع الحروف كتب الكثيرون أشياء عديدة، وافرة وغامضة، بحيث نخرج منها أكثر حيرة ممّا ولجنا إليها*»[٢]. ويلاحظ هرمان هوغو[٣] في كتابه في *أصل الكتابة*: «*لا يوجد أيّ موضوع نعثر فيه على مثل هذا الكمّ من الآراء المتعارضة مثل مسألة أصل الحروف والكتابة. يا لها من معركة مواقف! من نصدّق؟ ومن نكذّب؟*»[٤]. أمّا برنارد فون مالّينكرودت[٥] في كتابه *De Arte Typographica*[في فنّ

---

(١) Gerard Jean Voss أو Vossius [١٥٧٧-١٦٤٩] درّس التاريخ والفلسفة واللاهوتية واللغة الإغريقيّة وله عديد المؤلفات في الخطابة والنحو ومعجم اشتقاقيّ.

(٢) ورد باللاتينية: *de literarum inventione multi multa congerunt et fuse, et confuse, ut ab iis incertus magis abeas, quam veneras dudum.*

(٣) Hermann Hugo [١٥٨٨-١٦٢٩] كاهن يسوعي بلجيكي، شاعر وكاتب.

(٤) ورد باللاتينيّة: *Nulla alia res est, in qua plures, magisque pugnantes sententiae reperiantur, atque haec tractatio de literarum, et scriptionis Origine Quantae sententiarum pugnae ? quid credas ? quid non credas ?*

(٥) Bernard von Mallinckrodt [١٥٩١-١٦٤٤] من عائلة نبيلة بروتستانتيّة اعتنق الكاثوليكيّة، عميد كاتدرائيّة مونستر بألمانيا كان مولعًا بالكتب. مؤلّف *De ortu et progresso artis typographicae*، ١٦٤٠.

الطباعـة]، وكذلك إينجوالدو إيلينجيـوس[1] في كتاب *de Historia Linguae Grecae* [فـي تاريخ اللغة اليونانية]، أمام استحالة معرفة كيـف ومتى ظهرت الحروف واللغات، اعتبرا أنّها دون شكّ هبة منّ بها الله على البشر.

[§ ٤٢٩] هذا الاختلاف متأتٍّ من كون العلماء درسـوا بصفة منفصلة مسـألتيْ نشـأة اللغـات ونشـأة الحـروف، بينمـا لهاتيـن المسـألتيْن نفس الطبيعـة. كان علـى الفقهاء أن يفكّـروا فـي دلالـة كلمتيْ *نحو* و*حروف*، وسـيرون أنّ الأولـى تعني *فنّ الخطـاب*، بينما اللفظ الإغريقي «γράμματα، غراماتا» يعني الحروف، بحيث يمكن اعتبار أنّ النحو هو *فـنّ الكتابة* مثلما عرّفه أرسـطو. وسـنبيّن بالفعـل أنّ الأمم التي كانت فـي البداية بكماء، بدأت تتخاطب بواسطة الكتابة. أمّا كلمة حروف فهي تعني الأفكار والأشكال والنماذج، وحروف الشعراء، أي التمثيلات أو الهيروغليفيّات، فقد سبقت دون شكّ الحروف التي تمثّـل الأصـوات الملفوظـة، مثلما يؤكّد يوسـيفوس معارضًا النحويّ اليونانـي أبّيون[2]، قائـلا إنّ الحـروف المسـمّاة عاميّة لم يقع بعدُ اكتشـافها في زمن هوميـروس. ومن جهة أخـرى إذا كانت الحروف أشـكالاً تمثّل أصواتًا ملفوظة، وليسـت علامات اصطلاحيّة، فينبغـي لهـا أن تكـون هي نفسـها لدى جميـع الأمم، كما هـو الحال بالفعل بالنسـبة إلى الأصـوات الملفوظـة. هذه الصعوبة لإيجاد أصل الحروف كانت عائقًا لاعتراف العلماء بأنّ الأمم الأقدم في الزمن صاغوا أفكارهم بواسطة التمثيلات الشعريّة، وأنّها استعملت لغتها الأولى لقصّ الخرافات التي كانت تسحرهم، وأنّ كتابتهم الأولى كانت متكوّنة من هيروغليفيّات. هذه هي المبادئ ذات الطبيعة المؤكّدة التي على الفلسفة أن تستمدّها من الأفكار البشريّة، والتي على الفقه أن يستمدّها من اللغات البشريّة.

[§ ٤٣٠] قبـل التعمّـق أكثر فـي هـذا الموضـوع، سـنحاول أن نقـدّم للقـارئ الآراء المتعدّدة، غير الدقيقة وضعيفة الأسـاس واللامجدية، بل لنقل السـخيفة التي أثارها هذا الموضوع. ولكن بما أنّه من غير الممكن أن نتعرّض لها كلّها، سنكتفي بقول إنّه في فترة عودة البربريّة [القرون الوسـطى] سُـمّيت سكنديناڤيا أو سـكانتي، "*Vagina gentium*"

---

(١) إينغفالد إيلينغ (Lorenz Ingewald Eling) [... – ١٦٨٨] مؤلّف كتاب «تاريخ اللغة الإغريقيّة»، *Historia graecae linguae*، ١٦٩١.

(٢) سبق ذكرهما في § ٦٦.

[غمد الأمم]، واعتُبرت أمّ الأمم جمعاء. تلك هي قوّة الغرور عند الأمم الذي سبق ذكرها، ولكن غرور العلماء لم يكن غائبًا إذ جعل يوحنّا وأولاوس ماغنوس[1] يقتنعان بأنّ القوط حفظوا الحروف التي اكتشفها آدم بمعونة الإله، منذ بداية العالم. وكلّ علماء الأمم الأخرى نعتوا بالأوهام هذا الرأي السخيف، ولكن هذا لم يمنع يوحنّا غروبيوس بيكانوس[2] من اتّباعهما، بل ذهب أبعد مضيفًا أنّ اللغة السمبريّة [الهولنديّة]، الشبيهة كثيرا باللغة الساكسونيّة، كانت مستعملة في الفردوس الأرضي، وعليه فهي أمّ جميع اللغات الأخرى. وقد أثار هذا الرأي ضحك كلّ من جوزيف سكايجيه[3]، وفيليب كاميراريوس[4]، وكريستيان بيكمان[5]، ومارتن شخوك[6] واعتبروه سخافة غير معقولة. ومع ذلك زاد هذا الغرور قوّة عند أولوف رودباك[7] الذي أكّد في كتابه *de Atlantica*، أنّ الحروف الإغريقيّة انحدرت من *الرّين*، أي من الحروف الفينيقيّة، وقُلبَت على يد قدموس لتصير مشابهة في ترتيبها وفي أصواتها للحروف العبريّة. ولم يتوقّف أولوف عند هذا الحدّ، بل زعم أنّ اليونانيّين جعلوا هذه الحروف أفضل شكلا وأحسن ترتيبًا بالمسطرة والبركار. ثمّ، بما أنّ مبتدع الحروف عند الاسكندينافيّين يُدعى *Mercurouman*، فإنّه لم يتورّع عن استنتاج أنّ ميركور(هرمس) مبتدع الحروف المصريّة هو دون شكّ قوطيّ. هذه الآراء المختلفة بخصوص أصل الحروف من شأنها

---

(١) Johannes Magnus [١٤٨٨-١٥٤٤]، مؤلّف *Historia de omnibus Gothorum suenumque regibus* (١٥٤٤)، وشقيقه Olaus ألّف كتاب *Historia de gentibus septemtrionalibus* (١٥٥٥).

(٢) اسمه الأصلي Johannes Van Gorp [١٥١٢-١٥٧٨] في *Origines Antverpianae, sive cimmeriorum becceselana novem libri cpmplexa* (١٥٦٩).

(٣) ابن Giulio Cesare Scaligero. كان ردّه مضمنا في رسالة بتاريخ ١٦٠٠.

(٤) هو Philippe Liebhard المسمّى Camerarius [١٥٣٧-١٦٢٤] عالم ألماني شهير من نورمبرغ، ترجم تراث اللاتين والإغريق، وكان له عناية بالتنجيم عمل على طباعة التراث اليوناني بالحرف اليوناني وهو أول من نشر كتاب بطليموس الأجزاء الأربعة Τετράβιβλος بلغته اليونانية.

(٥) Christian Becmann [١٥٨٠ - ١٦٤٨] لاهوتي ألماني كالفيني ألف Exercitationes theologicae

(٦) مارتن شخوك Martin Schoock، أكاديمي هولندي متعدد الثقافات هاجم ديكارت وفلسفته في كتاب شهير وزعم أن فيتوس Voetius أستاذه الهولندي هو مؤلف كتاب ديكارت الحقيقي.

(٧) Olof Rudbeck [١٦٣٠-١٧٠٢]، عالم وطبيب ومؤلف سويدي وهو مؤلّف كتاب *Atlantica sive Manheim*، ١٦٧٠ الذي حاول فيه أن يثبت أن السويد هي مقر حضارة أطلانطيس.

أن تجعل القارئ يتقبّل بارتياح ما سنعرضه عليه في هذا الموضوع، دون أن يحسّ بنفسه مشوّشًا بخطابنا الجديد. فليتمعّن فيما نقوله دون سابق حكم، ليتأمّل فيه وسيدرك سريعًا أنّ عليه تقبّله باعتباره المبدأ لكلّ علم إلهي وبشري حظيت به الأمم الوثنيّة.

[§ ٤٣١] كان على جميع الفلاسفة وفقهاء اللغة أن يبدؤوا دراستهم، في المقام الأوّل، حول أصل اللغات والحروف، بالإشارة إلى الطريقة التي صاغ بها الوثنيّون فكرة كلّ شيء من أشياء الكون، بواسطة حروف عجيبة تمثّل ماهيّات حيّة. كان عليهم كذلك أن يعتبروا أنّ تلك الشعوب، التي بقيت طويلا بكماء، عبّرت عن طريق أفعال وأجسام وصور تتوافق بطريقة ما مع الفكرة التي يريدون إبلاغها، كأن يرسموا ثلاث مرّات المنجل، أو ثلاث سنابل ليعبّروا عن الفكرة المجرّدة لثلاث سنوات. وكانوا يستعملون أيضًا لغة تملك دلالة طبيعيّة، والتي يقول عنها أفلاطون ويامبليخوس إنّها كانت اللغة المستعمَلة سابقًا في العالم. هذه اللغة هي حسب رأينا اللغة الأطلسيّة القديمة جدّاً، والتي حسب العلماء تعبّر عن الأفكار بحسب طبيعتها، أي من خلال الخاصيّات التي تتميّز بها طبيعيًا. ولكن بدلا من اتّباع هذا المنهج، فقد عمد الفلاسفة والفقهاء إلى فصل هذين الموضوعيْن اللذين كان ينبغي طبيعيًا جمعهما أي أصل اللغات وأصل الحروف. وقد أهملوا أيضًا البحث في أصل اللغات، وهذا الإهمال ساهم في المزيد من الصعوبات التي واجهوها في البحث عن أصل الحروف.

[§ ٤٣٢] نريد أن نبدأ كلامنا بهذه المسلّمة الفقهيّة، وهي أنّ المصريّين كانوا يعتقدون اعتقادًا جازمًا أنّهم منذ بداياتهم تكلّموا ثلاث لغات مختلفة موافقة في عددها وفي ترتيبها للعصور الثلاثة: عصر الآلهة، عصر الأبطال وعصر البشر. وكانوا يقولون أيضًا إنّ الأولى من هذه اللغات كانت هيروغليفيّة، مقدّسة أو إلهية. والثانية كانت رمزيّة أو بواسطة علامات، والثالثة كانت رسائليّة لتيسير تواصل البعيدين عن بعضهم البعض بخصوص ضرورات الحياة. كما نجد في *إلياذة* هوميروس فقرتيْن مهمتين تبيّنان لنا توافق اليونانيّين والمصريّين بهذا الخصوص. تقول إحدى الفقرتيْن إنّ نسطور عاش ثلاث حيوات بثلاث لغات مختلفة: ما يجعلنا ننظر إلى نسطور على أنّه شخصيّة بطوليّة أو رمزًا للمسار الزمني المحدّد، حسب هذه اللغات الثلاث الموافقة للعصور الثلاثة للمصريّين القدامى؛ بحيث لو قيل إنّ شخصًا عاش بقدر نسطور فإنه يعني أنّه عاش بقدر

العالم. والفقرة الأخرى هي حيث يروي إينياس لأخْيَل أنّ أناسًا من لغات مختلفة بدؤوا يقطنون إيليون، زمن أن انتقلت طروادة إلى ساحل البحر، وصارت *بيرغام* قلعتها. ولكي نحدّد بصفة أفضل هذا المبدأ نضيف رواية مصريّة تقدّم لناثيوت أو هرمس، باعتباره مبتدع الشرائع والحروف.

[§ ٤٣٣] ولنضف إلى هذا حقائق أخرى عديدة: أولاها، أنّ الأسماء لدى اليونانيّين تشير إلى خاصيّة من يحملها، وهذا الاستعمال يفسّر لنا لماذا كان آباء الكنيسة يقولون تارة إنّهم يتّحدثون عن *de Divinis Characteribus* أي حول الشخصيات الإلهية وتارة أخرى عن *de Divinis Nominibus* أي حول الأسماء الإلهية، دون تمييز بينهما. كما أنّ *Nomen* [الاسم] و*definitio* [التعريف] يعوّض أحدهما الآخر، بما أنّه في علم البلاغة يُقال *quaestio nominis* بمعنى البحث عن تعريف شيء ما. ومن ناحية أخرى فإنّه في علم الطبّ ليس تصنيف الأمراض إلّا جزءًا من ذلك العلم الذي يعرّف طبيعة الأمراض. عند الرومان، وكذلك اليونانيّين، استعمِلت الأسماء للإشارة إلى البيوت الموزّعة على العائلات، كما يتبين ذلك من أسماء العائلات أو أسماء الآباء التي غالبًا ما استعملها الشعراء، وبالخصوص منهم هوميروس. هكذا، نجد عند تيتوس ليفيوس أنّ محاميًا شعبيًّا عرّف الآباء الرومان بأنّهم أولئك «*الذين بإمكانهم أن يسمّوا آباءهم*»[1]. ثمّ ضاعت الألقاب باليونان في عهد نظام الحريّة الشعبيّة. ولم يُحتفظ بها إلّا في جمهوريّة إسبرطة الأرستقراطيّة بفضل الهرقليّين. وفي القانون الروماني تعني كلمة *nomen*، القانون. ولدى اليونانيّين تعني كلمة "νόμος" الشرع. ومن هنا جاءت لفظة «νόμισμα، نوميسما» التي استعملها أرسطو للإشارة إلى العملة النقديّة. ويزعم الكثيرون من علماء الاشتقاق اللغوي أنّ كلمة *numus* اللاتينيّة متأتيّة من اللفظ اليوناني "νόμος". وللتعبير عن خاصيّة العملة النقديّة يستعمل الفرنسيّون كلمة *aloy* المماثلة لكلمة *loy* التي تعني *قانون*. واللاتينيّون أطلقوا اسم *jus*، للإشارة إلى القانون وإلى دهن الضحايا المقدّمة لجوبيتر. وقد سُمي هذا الإله في البداية *jous*، ومنه وقع اشتقاق النعتيْن *Juris* و*Jovis* اللذين أشرنا إليهما سابقًا[2]. وكذلك الأمر لدى اليهود الذين يقسمون الحيوانات

---

(١) ورد باللاتينية: *qui possunt nomine ciere patrem*

(٢) § ٣٩٨.

المقدّمة كقربان سلام إلى ثلاثة أجزاء، ويهبون إلى الربّ الدُّهن الذي يشعلونه على المذبح. وكان اللاتينيّون يستعملون لفظ *praedia* [عقار] للإشارة إلى عقارات الأرياف قبل استعماله بخصوص عقارات المدن؛ لأنّه مثلما سنبيّن لاحقًا[١]، كانت الأراضي الأولى المزروعة أولى *الفرائس* [*praedae*] في العالم، أي كانت الغزوات الأولى للأراضي وإقامة السلطة عليها، لذا اتّخذت في القانون الروماني اسم *manucaptae*، الذي جاء منه لفظ *manceps* المستعمَل للإشارة إلى من هو مطالب بدفع الأداء على العقار إلى الخزينة العامّة. وبقي منه في القانون الروماني عبارة *jura praediorum* للإشارة إلى حقوق الارتفاق التابعة للأملاك العقاريّة. نعتقد أنّ هذه الأراضي المسمّاة "*manucaptae*" كانت الأولى التي سُمّيت «*mancipia*"، وبهذا ينبغي دون شكّ فهم البند من *اللوائح الاثنتي عشرة* الذي يقول "*Qui nexum faciet mancipiumque*" بمعنى أنّ من يلتزم، نطقًا بلسانه، بعقد أو تحويل ملكيّة، فذلك ملزم له. وهذا يفسّر أنّ الإيطاليّين، بنفس وجهة نظر اللاتينيّين القدامى، سمّوا أراضيهم "*poderi*"، لأنّ امتلاكها كان قد وقع بالقوّة. وبالفعل في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] كان يُقال *presas terrarum* للإشارة إلى الحقول وإلى حدودها. والإسبان يسمّون *prendas* الإنجازات العظيمة. والإيطاليّون يقولون *termini* [حدود] للإشارة إلى الألفاظ، وبقي استعماله في جدليّتهم المدرسيّة. ويسمّون شعارات الدروع العائلية[٢] "*insegne*"، وهو لفظ جاء منه فعل *insegnare* أي درّس[٣]. ويقول هوميروس أيضًا، في فترة لم تكن قد وُجدت فيها بعدُ الحروف العاميّة، إنّ الرسالة التي وجّهها بريتوس إلى أورياس ضدّ بيلّيريفون كُتبت بواسطة علامات.

[§ ٤٣٤] ونريد أن نحدّد إضافة إلى ذلك ثلاث حقائق أخرى لا تحتمل النقاش: أوّلا، أنّ الأمم الوثنيّة التي كانت في البداية بكماء، كان عليها بالضرورة أن تعبّر من خلال الأفعال والأجساد أو الرسوم التي لها بعض العلاقة الطبيعيّة بأفكارهم. ثانيا، أنّ هذه الأمم نفسها كان عليها أن ترسم حدود أراضيها بصفة مستمرّة، بواسطة بعض

---

(١) § ٤٨٦، ١٠٢٧-١٠٢٨.

(٢) شعار الدرع أو ما يسمى بالإنجليزية coat of arms مز يمثل الأفراد والجماعات والبلدان والمدن والأسر والكنائس والجامعات؛ وكان يستخدم في القدم على درع الفارس.

(٣) وهو يلمح إلى كون هذا الفعل مشتق من الكلمة اللاتينية īnsigne التي تعني علامة مميزة أو رمز أصلا.

العلامات التي تشهد بحقوقها عليها. ثالثًا، أنّ جميع الأمم استعملت العملة النقديّة. هذه الحقائق تمدّنا بمصدر اللغات والحروف، وبمصدر الهيروغليفيّات كذلك، والشرائع والأسماء والشعارات والنقود، واللغات، وأخيرًا بمصدر اللغة والكتابة التي عبّر بها قانون الناس الطبيعي.

[§ ٤٣٥] لكي نتمكّن من إبراز أصل كلّ هاته الأشياء، ينبغي علينا أوّلا أن نفنّد الزعم القائل بأنّ الفلاسفة هم الذين ابتدعوا الهيروغليفيّات لكي يخفوا تحت غشاء سميك الحقائق الغامضة لعلوم سامية باطنيّة، مثلما ظُنّ ذلك بخصوص المصريّين القدامى. وبالفعل، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك في *المسلّمات*(١)، كانت الضرورة الطبيعيّة هي التي جعلت الأمم الأولى تتكلّم بواسطة الهيروغليفيّات. ونحن نعرف أنّ هذا كان شأن المصريّين، ونضيف إليهم الأثيوبيّين، كما يذكر هيليودوروس في كتابه *Aethiopica*(٢)، الذين كانوا يستعملون أدوات كلّ المهن اليدويّة كهيروغليفيّات. والظنّ أنّ الشيء نفسه ينطبق على الحروف السحريّة لدى الكلدان. وقد شاهدنا في فترة أقرب نسبيًّا مقارنة بالقِدَم الكبير الذي يتبجّح بها السكوثيّون، أنّ ملكهم إيدانثيرسيس ردّ على داريوس الأكبر، الذي أعلن الحرب ضدّه، بخمس كلمات واقعيّة هي *ضفدع*، جرذ، *طير*، *سنّ محراث* وقوس(٣). بالضفدع كان يقول إنّه نشأ بأرض سيثيا مثلما تنشأ الضفادع من الأرض بعد مطر صيف؛ وبالجرذ، أنّه بنى منزله في المكان نفسه الذي نشأ فيه، أي الأرض التي وطّن فيها شعبه؛ وبالطير أنّه يملك حقّ النذور في هذا البلد نفسه، أو بالأحرى، كما سنبيّن ذلك لاحقًا، أنّه لا يعلو عليه شيء غير الإله. وبالمحراث، أنه حرث وزرع الأراضي التي اكتسبها أو التي استحوذ عليها بالغزو. وأخيرًا كان يعني بالقوس أهمّ ميزة للملوك، أي قيادة الجيوش. وهي ميزة تفرض عليهم واجب الدفاع عن موطنهم وفي الآن نفسه تمنحهم السلطة والقوّة. ولو أنّنا قابلنا هذا التفسير الطبيعي والضروري بالتفسيرات السخيفة التي يقول القدّيس كيريل أنّ الملك داريوس تلقّاها من مستشاريه، أو بالتفسيرات الملتوية التي جاء بها العلماء بخصوص الهيروغليفيات

---

(١) § ٢٢٦، ٤٢٩.

(٢) اسمه باليونانية Ἡλιόδωρος ὁ Ἐμεσηνός) هيليودوروس الإيميسي، كاتب يوناني عاش بين القرن الثالث والقرن الرابع قبل الميلاد. ألّف رواية عن الأثيوبيّين عنوانها *Aethiopica*.

(٣) هذه القصّة موجودة عند هيرودوت في كتاب *التاريخ*، IV، ١٣١.

المصريّة، فسيكون لدينا البرهان الساطع على الجهل الذي لازمنا عمومًا إلى حدّ الآن بخصوص استعمال الشعوب الأولى للهيروغليفيات. لقد ألقى التاريخ الروماني بعض الضوء على الهيروغليفيّات اللاتينيّة من خلال روايات مماثلة كالجواب البطولي الصامت الذي أرسله تاركوينوس الفخور لابنه بمدينة غابينياس، عندما أخذ الرسول معه إلى الحديقة وقطع أمامه رؤوس شقائق النعمان الأكثر شموخًا. ويلاحظ تاسيت أنّه في شمال أوروبا، كان الجرمانيّون القدامى لا يعرفون *litterarum secreta*، أي أنّهم كانوا لا يعرفون كتابة هيروغليفيّاتهم: وقد امتدّ هذا الجهل حسب رأينا إلى زمن فريدريك الصوابي، بل وحتّى إلى زمن رودولف النمساوي، وهي الفترة التي بدأ الألمان يكتبون فيها وثائقهم باللغة الألمانية العاميّة. وبشمال فرنسا وُجدت لغة هيروغليفيّة سُمّيت *rebus de Picardie*، والتي كانت دون شكّ، مثل لغة إيدانثيرسيس والألمان، في طريقة الكلام بواسطة الأشياء أو تمثيلاتها. ويروي هكتور بويثيوس[1] في كتابه *تاريخ إسكتلندا* أنّ أهالي تلك البلاد كانوا يكتبون قديمًا بواسطة الحروف الهيروغليفيّة. ونلاحظ الشيء نفسه لدى المكسيكيّين، كما أنّ يوحنّا دي لايت[2] في كتابه *وصف الهند الجديدة*، يظهر لنا الهيروغليفيّات الهنديّة وهي تمثّل صور حيوانات ونبات وأزهار وفاكهة. ويمثّلون عائلاتهم بواسطة جذع شجرة وفروع، كما جرت العادة أن نستعمل الشجرة في قارّتنا للنسب الأرستقراطي والشعارات. ولا يزال الصينيّون يكتبون بواسطة الهيروغليفيّات.

[§ ٤٣٦] نعتقد أنّنا فنّدنا بهذا ما جاء به غرور العلماء الذي سبق، وبصفة أكبر غرور المصريّين القدامى؛ لأنّ هؤلاء قالوا ما لم يجرؤ الثانون على قوله، أي أنّ جميع علماء العالم تعلّموا عن المصريّين إخفاء معرفتهم الباطنيّة تحت غشاء الهيروغليفيّات.

[§ ٤٣٧] بعد أن حدّدنا مبادئ المنطق الشعري وفنّدنا مزاعم العلماء المغرورة، سنأتي الآن إلى لغات المصريّين الثلاث. وبخصوص الأولى التي هي لغة الآلهة، كنّا قد رأينا[3] أنّ اليونانيّين على وفاق مع المصريّين، إذ في خمس فقرات مختلفة، يذكر

---

(١) أو Hector Boyce [حوالي ١٤٦٥-١٥٣٦] فيلسوف مؤرّخ وكاتب اسكتلندي. مؤلّف كتاب *Scotorum historiae a prima gentis origine*، ١٥٢٦.

(٢) هو Johannes Van Laet [النصف الأوّل من القرن ١٧]، مؤلّف كتاب *Novus orbis, seu descriptio indiae occidentalis*، ١٦٣٣.

(٣) § ١٧٤.

هوميروس لغة يسمّيها لغة الآلهة، ويقول إنّها سابقة للغة التي يستعملها هو التي هي دون شكّ اللغة البطوليّة. ثلاث من هذه الفقرات موجودة في *الإلياذة*. الفقرة الأولى حيث يقول إنّ ما كانت تسمّيه الآلهة *برياري* هو الجبّار ذاته الذي يسمّيه البشر *إيجيون*. في الفقرة الثانية، تسمّي الآلهة «*كالكيدا*» الطائر الذي يطلق عليه البشر اسم «*كومينديس*». وفي الفقرة الثالثة تشير الآلهة باسم *كزانتوس* إلى النهر الذي يطلق عليه البشر اسم *سكامندر*. والفقرتان الأخريان مأخوذتان من *الأوديسا*. الأولى هي التي تسمّي فيها الآلهة "λανκτας πετρας" والتي نسمّيها نحن *سيلا وكاريدّي*[1]. والثانية هي التي يلقّن فيها ميركوريوس أوليس السرّ لمجابهة سحر سيرسي، وهو السرّ الذي تسمّيه الآلهة «μῶλυ، مولي»، والذي لا يمكن للبشر معرفته. ويتحدّث أفلاطون طويلا عن هذه الفقرات، ولكنه لا يخرج منها بنتيجة إيجابيّة. وكذلك ديون كريزوستوم[2] الذي يتيه في خضمّ احتمالات متعدّدة عديمة الجدوى، بل ذهب إلى حدّ اتّهام هوميروس بالتلفيق كما لو أنّ الشاعر زعم أنّه يفهم هذه اللغة الإلهية التي مُنعت عن البشر. ولكننا نعتقد أنّه ينبغي فهم الآلهة التي يتحدّث عنها هوميروس على أنّها الأبطال. ويعتمد هذا الرأي على أنّ الأبطال نسبوا لأنفسهم اسم «إله»، في مقابل عامّة المدن الذين نسبوا إليهم اسم «إنسان». مثلما هو الحال في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] حيث سُمّي الأتباع "*homines*"، كما يلاحظ ذلك هوتمان[3]. وكبار الأسياد في هذه الفترة نفسها كانوا يتباهون بامتلاك أسرار عجيبة في الطبّ. كلّ هذا يجعلنا نعتبر هذه التسميات على أنّها غامضة وغير دقيقة، تصلح فقط للإشارة إلى الفوارق الكبيرة شيئًا ما بين لغة الأشراف ولغة العامّة من الشعب. وقد قام فارّو بعديد الأبحاث بشأن آلهة اللاتينيّين، وتوصّل مثلما سبق ذكره في *المسلّمات*[4] إلى تعداد ثلاثين ألفًا منها. هذا العدد يكفي لتأليف معجم في أسماء الآلهة، استعملته شعوب إقليم *لاتيوم*[5] للتعبير عن حاجيّاتهم الإنسانيّة،

---

(١) هما وحشان بحريّان من الأساطير الإغريقيّة بالفرنسيّة (Scylla et Charybde) يحرسان ناحيتيْ مضيق في البحر (لعلّه مضيق مسّينا) ومنه جاءت القولة الفرنسيّة "tomber de Carybde en scylla"، أي سقط من سوء إلى أسوأ.

(٢) Dion Chrysostome [٤٠-١٢٠م]، فيلسوف مؤرّخ وخطيب من روما القديمة.

(٣) François Hotman [١٥٢٤-١٥٩٠]، في كتاب *De feudis* [في الإقطاع]، ١٥٧٣.

(٤) § ١٧٥.

(٥) هو الإقليم الذي توجد به مدينة روما.

وهـي حـاجيّـات غير كثيرة باعتبار تلـك الأزمنة البدائيّة، ولكنّها حاجيّـات متّصلة اتّصالاً وثيقًـا بضـرورات العيش لكيـلا نعتبرها غير ذات أهميّـة. واليونانيّون أيضًـا، الذين كانوا يعدّون ثلاثين ألف إله، كانوا يعبدون الحجر والينابيع والجداول والأشجار، جاعلين من كلّ واحـدة منهـا آلهـة خصوصيّـة مثل *دريـادي*، *همادريـادي*، *أوريادي ونابيـي*. وبنفس الطريقة خلق سـكّان أمريكا آلهة لكلّ شـيء يتعدّى عقولهم الساذجة. هذا إذن ما يجعلنا نعتقد أنّ أسـاطير اللاتينيّين الإلهيّة توافق الهيروغليفيّات الأولى، أي الحروف المقدّسـة أو الإلهية لدى المصريّين القدامى.

[§ ٤٣٨] أمّا اللغة الثانية، التي توافق لغة الأبطال، ستكون إن نحن صدّقنا المصريّين، اللغة التي نضع فيها الرّموز والشعارات الحربيّة للأزمنة البطوليّة. كانت هذه الرموز دون شـكّ محـاكاة صامتة، والتي يسـمّيها هوميـروس «σήματα، سـيماتا»، أي علامات كان يكتب بواسطتها الأبطال. وعليه فلا يمكن أن تكون إلّا استعارات، أو صورًا أو تشبيهات أو مقارنـات، والتـي تشـكّل فـي اللغـة الملفوظـة كلّ ثراء الشـعر. ويؤكّد لنا يوسـيفوس اليهودي أنّ هوميروس هو صانع اللغة الإغريقيّة. وبما أنّ الشـعب الإغريقي هو الشـعب الـذي نعرف قِدَمه في الزمن أفضل من أيّ شـعب آخـر، فإنّ هوميروس يكون أوّل كتّاب الوثنيّة. وعند اللاتينيّين نجد أولى الإشـارات إلى لغتهم في شـذرات *القصائد السالية*[١]، والكاتب الأوّل الذي وصلنا اسمه هو الشاعر ليفيوس أندرونيكوس[٢]. وتشكّلت لغات أخرى بأوروبا زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى]، واللغة الأولى التي ظهرت بإسبانيا، كانت لغة *الرومنسة* أو الشعر البطولي، لأنّ الرومنسيّين لم يكونوا غير الشعراء البطوليّين في عصور عودة البربريّة. وبفرنسا كان الكاتب الأوّل بالفرنسيّة العاميّة هو آرنولد دانيال بـاكّا[٣]، أوّل الشـعراء البروفنسـيّين، الـذي عاش في القـرن الحادي عشـر. وأخيرًا، ظهر الكتّاب الأوائل بإيطاليا، في الفترة نفسها، وكانوا الشعراء الفلورنسيّين والصقليّين.

---

(١) *Carmi saliari*، باللاتينيـة *Carmen Saliare*، هـي أناشـيد ترتيليّـة باللاتينية القديمة وصلتنا منها شـذرات بفضل العمل الموسوعي للنحويّ اللاتيني فارّو.

(٢) ليفيوس أندرونيكوس (Livius Andronicus)، [٢٨٠-٢٠٠ ق.م]، شـاعر وممثّل وكاتب مسـرحيّ بروما القديمة.

(٣) لعلّه Arnaut Daniel [النصف الثاني من القرن ١٢].

[§ ٤٣٩] وقد تكون اللغة الرسائليّة المصريّة، التي كان هدفها تيسير التواصل المتبادل بخصوص ضرورات الحياة بين أفراد البشر البعيدين بعضهم عن البعض الآخر، من صنع فئة عاميّة سادت وقتًا ما بمصر، هي دون شكّ عامّة شعب *طيبة*، الذي كان ملكهم رمسيس -مثلما سبق أن قلنا[١]- مدّ نفوذه على كلّ مصر. ذلك لأنّ هذه اللغة كانت توافق دون شكّ بالنسبة إلى المصريّين *عصر البشر*، وقد كنّا قد رأينا أنّ اسم بشر كان يُطلق على العامّة لتمييزهم عن الأبطال[٢]. ويجب الاعتراف أيضًا بأنّ هذه اللغة كانت نتيجة اصطلاح حرّ اتّفق عليه الشعب. إذ أنّه من حقّ الشعوب أن تتكلّم وأن تكتب باللغة العاميّة. وبالفعل، فإنّ الشعب الروماني رفض قبول ثلاثة حروف جديدة كان اختلقها الإمبراطور كلاوديوس، والتي كانت ضروريّة لكمال اللغة اللاتينيّة، كما أنّ الإيطاليّين رفضوا أيضًا الحروف التي اقترحها جيورجيو تريسّينو[٣]، والتي لا نزال نأسف على غيابها من اللغة الإيطالية.

[§ ٤٤٠] هذه اللغة الرسائليّة أو العاميّة للمصريّين كانت مكتوبة دون شكّ بحروف هي الأخرى عاميّة. وهذه الحروف الشبيهة بالحروف العاميّة عند الفينيقيّين، تبيّن بصفة لا تحتمل الشكّ أنّ أحد الشعبيْن نقلها للآخر. كلّ الذين يعتبرون المصريّين على أنّهم مبتدعو الأشياء الضروريّة أو النافعة للمجتمع البشري، وعليه ينبغي أن يقولوا إنّ المصريّين لقّنوها للفينيقيّين. إلّا أنّ كليمنتس الإسكندري[٤]، المعتبَر أفضل العارفين بكلّ ما يخصّ بلاد مصر، يقول إنّ الفينيقيّ سنشونياتون -الذي وضعناه في *الجدول الزمني*[٥] في عصر أبطال الإغريق- كتب التاريخ الفينيقيّ بالحروف العاميّة، وبهذا يقدّمه لنا على أنّه أقدم الكتّاب الوثنيّين الذين كتبوا بالحروف العاميّة؛ لذا يمكن القول إنّ الفينيقيّين، الذين كانوا دون شكّ أوّل شعب متاجرٍ في العالم القديم، دخلوا مصر بغرض التجارة، حملوا

---

(١) § ٤٤.

(٢) § ٤٣٧.

(٣) هو Gian Giorgio Trissino [١٤٧٨-١٥٥٠] كان اقترح إدخال مصوّتتيْن إغريقيّتيْن للتمييز بين نطقيْن مختلفيْن (مغلق ومفتوح) للمصوّتتيْن الإيطاليّتيْنo و e.

(٤) إكليمندس الإسكندري، اسمه اللاتيني تيتوس فلافيوس كليمنس [١٥٠ - ٢١٥ م] أديب يوناني مسيحيّ وأحد آباء الكنيسة. مذكور § ٨٣.

(٥) § ٨٣.

إليها حروف لغتهم العاميّة. ولدينا رواية عاميّة تخبرنا من جهة أخرى أنّ الفينيقيّين لقّنوا وحملوا الحروف إلى اليونان، ويلاحظ كورنيليوس تاسيتوس في هذا الخصوص أنّ الفينيقيّين زعموا أنّهم ابتدعوا هذه الحروف، بينما كانت قد اكتشفتها شعوب أخرى، ويعني بذلك الهيروغليفيّات المصريّة. وحتّى لا ننزع عن هذه الرواية طابع الحقيقة الذي يجب أن يميّز بالضرورة كلّ رواية، نقول إنّ الفينيقيّين جلبوا بالفعل إلى اليونان الهيروغليفيّات التي اخترعتها شعوب أخرى، ولكنّنا نقول أيضًا إنّ الشعب المخترع لهذه الهيروغليفيّات، المتضمّنة لعلامات رياضيّة ولأشكال هندسيّة، كان الشعب الكلداني، أبا الرياضيّين والفلكيّين للعالم أجمع. ولهذا السبب لُقّب زرادشت الكلداني بهذا الاسم؛ لأنّه يراقب الكواكب[1]، حسب قول بوشارت[2]، وكان أوّل علماء الأقوام الوثنيّة. وقبل زمن طويل من عصر هوميروس، كان الفينيقيّون يستعملون هذه الهيروغليفيّات أو العلامات الرياضيّة كأرقام في الصفقات التجاريّة التي كانوا يقومون بها في مرافئ اليونان، كما نرى ذلك من خلال قصائد هوميروس، خصوصًا منها *الأوديسّا*. ومن ناحية أخرى، سبق لنا أن رأينا يوسيفوس اليهودي يعارض بقوّة النحويّ الإغريقي أبّيون، مؤكّدًا أنّ اليونانيّين في زمن هوميروس لم تكن لديهم بعدُ الحروف العاميّة، ممّا يجعلنا نفترض أنّهم، لِما تميّزوا به من فكر ثاقب ومن ذوق فنّي رائع، استعملوا هذه الأشكال الهندسيّة التي جلبها الفينيقيّون لتمثيل الأصوات المنطوقة، وحوّلوها بفنّ رائع إلى العلامات العاميّة للحروف. وقد أخذ اللاتينيّون عن اليونانيّين هذه الحروف، إذ حسب قول تاسيتوس، كانت حروفهم شبيهة بحروف اليونانيّين الأكثر قدمًا. وقد حافظ اللاتينيّيون إضافة إلى ذلك على الاستعمال الدارج منذ زمن طويل لدى اليونانيّين للحروف التاجيّة لتمثيل الأرقام. وتكون هذه هي الحروف التي لقّنها للاتينيّين ديمارات الكورنثي وكرمانتا، زوجة إيفندروس الأركادي، وسنفسّر لاحقًا[3] كيف أنّه في الأزمنة القديمة استقرّت مستعمرات يونانيّة على ساحل البحر وداخل الأراضي، بإقليم لاتيوم.

---

(١) ذلك أنّ الاسم بالإيطالية هو *Zoroaste*، وبالفرنسيّة *Zoroastre* وكلمة *astro* تعني الكوكب.

(٢) معروف باسم بوشار سارون (Bochart-Saron) [١٧٣٠-١٧٩٤]، قاضٍ فرنسي، فلكيّ وعالم في الرياضيّات. حكمت عليه المحكمة الثوريّة بالإعدام ومات في ٢٠ أبريل ١٧٩٤ تحت المقصلة.

(٣) § ٧٧٢.

[§ ٤٤١] ويوجد رأي عارضه الكثيرون من العلماء، ولا يبدو لنا أنه جديرٌ بكلّ العناء الذي تكبّدوه لدحضه، ونعني به الرأي القائل بأنّ الحروف اليونانيّة جاءت من عند اليهود، والذي يتأسّس على التسمية المشتركة عند هذيْن الشعبيْن لبعض الحروف. ولكن يبدو لنا من الأيسر ومن الأعقل أن نفترض أنّ اليهود اعتمدوا التسمية اليونانيّة لهذه الحروف. إذ لا أحد بإمكانه نفي أنّه في فترة غزو المشرق من طرف الإسكندر المقدوني، أو بالأحرى عند موت الإسكندر وتفتّت إمبراطوريّته، انتشرت اللغة اليونانيّة في كلّ المشرق وفي مصر. كما نعرف أيضًا أنّ علم النحو لم يبدأ عند اليهود إلّا متأخرًا جدّاً، ونستنتج بصفة قاطعة أنّ المتعلّمين اليهود يشيرون إلى الحروف العبرانيّة بالتسميات المستعمَلة عند اليونانيّين. وبما أنّ عناصر جميع الأشياء هي بطبيعتها بسيطة جدّاً، فمن المحتمل أنّ اليونانيّين نطقوا في البداية بكلّ بساطة بأصوات الحروف؛ ولهذا السبب نفسه تُسمّى بدائيّة. وقد حافظ اللاتينيّون أيضًا على هذه العادة وعلى شكل حروفهم، الذي كان شبيهًا بشكل الحروف اليونانيّة الأكثر قدمًا. لذا فمن المحتمل أنّ عادة تسمية الحروف بأصوات مركّبة دخلت بعد زمن عند اليونانيّين، ومنهم إلى اليهود.

[§ ٤٤٢] هذه الاعتبارات تجعلنا نفنّد الرأي الذي ينسب للمصريّ سيكروبس شرف تعليم اليونانيّين الحروف العاميّة. وسوف نفنّد لاحقًا، وبواسطة مبادئ *الجغرافيا الشعريّة*[1]، الرأي الآخر الذي ينسب للفينيقيّ قدموس هذا الشرف نفسه، بالاعتماد على اسم *طيبة* الذي سمّى به قدموس المدينة التي أسّسها باليونان. وهو اسم يذكّرنا بمقرّ السلالة الملكيّة الرئيسيّة بمصر. وباعتقادنا أنّه بإمكاننا أن نبرهن، عكس ذلك، على أنّ اليونانيّين حين جاؤوا إلى مصر ووجدوا فيها موطنًا شبيهًا بموطنهم الأصلي، شيّدوا فيها مدينة سمّوها *طيبة*، على غرار *طيبة* اليونانيّة. ونتصوّر بسهولة أنّ العلماء المستنيرين، حين عجزوا عن إيجاد تفسير لقِدَم سنشونياتون الكبيرة، لجؤوا إلى رأي الإنكليزي المجهول، مؤلّف كتاب شكوك العلوم، وأعلنوا أنّ سنشونياتون لم يوجد قطّ. أمّا نحن، وحتّى لا نحرم العالم من شخصيّة عظيمة، نفضّل جعله أكثر قربًا في الزمن، وإذ نحتفظ للفينيقيّين بالأسبقيّة على اليونانيّين في اكتشاف الحروف العاميّة، سنضعه بعد هوميروس. ولكن بما أنّ حبّنا للعدل يجعلنا أيضًا نعترف بتفوّق اليونانيّين، فإنّنا نقول إنّ سنشونياتون

---

(١) § انظر فيما يلي §§ ٧٤٢ وما يتبعها.

عاش قبل زمن قليل من هيرودوتس، الذي لُقّب بأب التاريخ اليوناني؛ لأنّه كتب هذا التاريخ باللغة العامية. كما أنّ سنشونياتون اعتُبر مؤرّخ الحقيقة؛ لأنه كان بالفعل مؤرّخ الأزمنة التاريخيّة ذاتها، كما يقول فارّو في تقسيمه للأزمنة. هذه الأزمنة التاريخيّة تشكّل عصر البشر، وتوافق اللغة الثالثة التي ذكرها المصريّون. وكان في هذه الفترة أن بدأ المصريّون يتكلّمون اللغة الرسائليّة ويكتبون بالحروف العاميّة.

[§ ٤٤٣] الآن، مثلما أنّ اللغات الشعريّة أو البطوليّة ابتدعها الأبطال، فإنّ اللغات العاميّة كانت من ابتداع العامّة، أي عامّة الشعب لدى الأمم البطوليّة. وقد أطلق اللاتينيّون على هذه اللغات العاميّة اسم "*vernaculae*"، ولا يعني ذلك أنّهم نسبوا هذه اللغات إلى أولئك المسمّين *vernae* الذين يعرّفهم النحويّون على أنّهم العبيد المولودون في بيت سيّدهم، من العبيد الذين وقع أسرهم في الحروب؛ لأنّ هؤلاء الأطفال سيكونون قد تعلّموا طبيعيًّا لغة الشعوب التي نشأوا بينها. كلمة *vernaculae* متأتّية على العكس من *vernae* التي تعني خدم الأبطال [*famoli*] في عصر الأُسَر. وكانت ظروف هؤلاء الخدم الذين شكّلوا بعد ذلك العامّة الأوائل في المدن البطوليّة نموذجًا لظروف العبيد الذين وقع أسرهم أثناء الحروب التي خاضتها المدن. والذي يؤكّد لنا وجود هاتيْن اللغتيْن، لغة الآلهة ولغة البشر، هو هوميروس، وسنبرهن لاحقًا[1] عمّا سبق قوله بخصوص هاتيْن اللغتيْن[2]، أي أنّهما توافقان اللغة البطوليّة واللغة العاميّة.

[§ ٤٤٤] وقد قبل فقهاء اللغة بشيء من التسرّع فكرة أنّ ألفاظ اللغات العاميّة اكتسبت دلالاتها بمقتضى اصطلاح حرّ وإرادي، بينما هي في الواقع دلالات طبيعيّة مثلما كان أصلها طبيعيًّا. وتظهر هذه الحقيقة في الخصوصيّات المختلفة لكلّ من اللغتيْن العاميّتيْن اللاتينيّة والإغريقيّة، إذ أنّ الأولى احتفظت أكثر بآثار أصلها البطولي وهي كذلك أكثر قوّة، بينما الثانية أرقّ وأكثر تعقيدًا. وبالفعل، في اللاتينيّة العاميّة تكاد كلّ الألفاظ تتحوّل من الدلالة الطبيعيّة إلى دلالة مجرّدة، وهذه التحوّلات تستند أحيانًا إلى خاصيّات تميّز بصفة مماثلة الشيئيْن الذين يدلّ عليهما اللفظ، وأحيانًا إلى التأثيرات الحسيّة والمتماثلة في الشيئيْن ذاتهما؛ لهذا السبب تحتل الاستعارة وحدها مكانة ذات

---

(١) § ٤٤٦-٤٥٤.

(٢) § ٤٣٧.

أهميّـة فـي جميع اللغـات، إلّا أنّ النحويّيـن، الذين راعهم هذا العـدد الكبير من الألفاظ التي تعطي فكرة غامضة وغير دقيقة عن الأشياء، ولجهلم بالأصل الذي قد يسلّط على هـذه العتمـة ضوءًا سـاطعًا، وحبًّا منهم في إخفاء جهلهم، أقرّوا كمسـلّمة عامّة، أنّ دلالة الألفـاظ المنطوقـة تحـدّدت بمقتضـى اصطـلاح اعتباطـي. وجـرّوا وراءهـم أرسـطو وجالينوس وفلاسفة آخرين وعارضوا بهم أفلاطون ويامبليخوس.

[§ ٤٤٥] ولكن يتساءل المرء مع ذلك كيف أمكن أن تكون هناك لغات مختلفة بقدر مـا كانت هناك من شـعوب؟ نحـن مدركون لهـذه المعضلة الكبيرة، وسـنحاول الإجابة عنها. قبل كلّ شيء، ليُسمح لنا بقول هذه الحقيقة العظيمة: وهي أنّ اختلاف المناخات وهب الشعوب طبائع مختلفة، وهذه الطبائع المختلفة أدّت بدورها إلى عادات مختلفة، وهـذه الطبائـع وهذه العادات أنتجت لغات مختلفة. ذلـك أنّ اختلاف الطبائع أدّى دون شكّ إلى كون ضرورات الحياة البشريّة نفسها قد نتجَت تحت مظاهر مختلفة، وأدّت إلى عـادات مختلفـة وأحيانًا متعارضة فيما بينها؛ لذا ليس من الغريب أنّ عبّر البشـر عن هذه العـادات بلغـات مختلفة بقدر اختلاف الشـعوب والعـادات. وهذا مـا يتّضح بجلاء من الأمثـال، التـي هي مبـادئ مطابقة للحياة البشـريّة، والتـي لها نفس الجوهـر وإنّ تقمّص مظاهر مختلفة ومتعدّدة بقدر اختلاف وتعدّد الشـعوب التي تسـتعمل تلك الأمثال. هذا الاختـلاف فـي أشـكال اللغـات العاميّـة، الذي يجعلنـا لا نتعـرّف على أصلهـا البطولي المتماثل مبدئيًا بينها، أثار عجب مفسّري الكتاب المقدّس، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفسّرون اختلاف أسماء الملوك كما نجدها في الكتاب المقدّس، وكما نجدها في كتب المؤرّخيـن. ولكـن هـؤلاء المفسّـرين لـم يفكّروا فـي أنّ الكتاب المقـدّس كان ينظر إلى الملـوك المذكوريـن تحـت جانب القوّة، بينمـا كان المؤرّخون ينظـرون إليهم من منظار عاداتهم وإنجازاتهم. وهكذا لا زلنا نرى في أيّامنا الحاضرة أنّ بعض مدن المجرّ تسمى بطريقـة مختلفـة مـن قِبـل المجريّيـن واليونانيّيـن، ومـن قِبل الألمـان والأتـراك. واللغة الألمانيّـة، اللغـة البطوليّـة الحيّة الوحيدة، تحوّل تقريبًا كلّ الأسـماء الأجنبيّة إلى أسـماء خاصّة بها. وهذا يجعلنا نخمّن أنّ اليونانيّين واللاتينيّين كانوا يفعلون الشـيء نفسـه حين يذكرون الأشياء البربريّة بتلك الأناقة والرقّة التي يتميّزون بها. لعلّ هذا هو مأتى الظلمات التـي خيّمـت دائمًـا علـى الجغرافيـا القديمـة، وكذلـك علـى التاريـخ الطبيعـي المتعلّق

بالمحفورات والنبات والحيوان. وقد أوحت لنا هذه الاعتبارات في السابق فكرة صياغة معجم ذهني، يشير إلى المعنى الاشتقاقي للألفاظ التي تتكوّن منها اللغات المنطوقة المختلفة، ويختزل الاختلافات الدلالية في بعض الأفكار الأساسيّة، التي اختلف تحوّلها وتسميتها عند كلّ واحد من هؤلاء الشعوب. حين ذكرنا في الكتاب الرابع من الطبعة الأولى لهذا العمل إنّه في الجمهوريّات الأولى، أي في النظام العشائري وفي فترة تشكّل اللغات، كان آباء الأُسر يُنظر إليهم تحت خمسة عشر جانبًا مختلفًا، كنّا قد عرّفنا بما نشير إليه بهذا *المعجم الذهني*، والذي نحن، من جهة أخرى، بصدد استعماله في عرض مبادئ هذا العِلم. اسمحوا لي بأن أذكر من جديد أنّ خمس عشرة أمّة مختلفة، سواء منها القديمة أو الحديثة، أسندت لآباء الأُسَر خمسة عشر اسمًا مختلفًا، وبأن نضيف أنّ الفقرة التي أكّدنا فيها هذا الأمر تكفي، مع فقرتيْن أخريَيْن، لحفظنا من أيّ ندم على ما ذكرناه في الطبعة الأولى. هذا *المعجم* يتعرّض بطريقة أخرى للموضوع الذي تناوله توماس هاين[1] في دراستيْه *Dissertazione de Linguarum Cognatione* و *de Linguis in Genere, et Variarum Linguarum Harmonia*. ومن كلّ ما سبق قوله، نخرج بالاستنتاج التالي: إنّ اللغات التي تكثر فيها التعابير البطوليّة المختزلة هي الأجمل؛ لأنّها أكثر وضوحًا، أي أنّها أكثر صدقًا وأكثر وفاء. واللغات التي لا تحمل أثر مصدرها، غير مستحبّة، غامضة ومشوّشة، وعليه فهي زائفة وخدّاعة. هكذا تكون اللغات المتكوّنة من خليط لغات بربريّة متعدّدة، أي لغات أصلها غير واضح ومغامراتها الحياتيّة غامضة.

[§ ٤٤٦] الآن، للخوض في المهمّة الصعبة التي أخذناها على عاتقنا بتفسير تشكّل هذه اللغات الثلاث، يتعيّن علينا قبل ذلك وضع هذا المبدأ، وهو أنّ الآلهة هي في الواقع من صنع مخيّلة البشر، وأنّ الأبطال وضعوا أنفسهم في منزلة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشريّة، ولذا فإنّ الآلهة والأبطال والبشر متزامنون، واللغات الثلاث التي توافق كلاّ منهم نشأت في الآن نفسه (مع العلم دائمًا أنّ الشيء نفسه ينطبق على الحروف). إلّا أنّه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الفوارق الثلاثة المهمة جدّاً. كانت لغة الآلهة تكاد

---

(١) Thomas Hayne [١٥٨٢-١٦٤٥] مدرّس ولاهوتي إنكليزي. وعنوان الكتاب هو: *Linguarum cognatio: seu de linguis in genere, et de variarum linguarum harmonia*، ١٦٣٩.

تكون كلّها صامتة أو غير ملفوظة. ولغة الأبطال كانت متكوّنة من جزئيْن متساويين من لغة صامتة ولغة ملفوظة، أي من تعابير عاميّة ومن حروف بطوليّة كانت تشكّل كتابة الأبطال، والتي كان هوميروس يسمّيها «σήματα، سيماتا أي علامة أو سمة». وأخيرًا، كانت لغة البشر في مجملها تقريبًا ملفوظة وغير صامتة. ونقول «تقريبًا» لأنّه لا توجد لغة، مهما كان ثراؤها، تملك من الألفاظ بقدر ما يوجد من أشياء للتعبير عنها. لذا كان لا بدّ للغة الأبطال في بدايتها أن تكون غير متناسقة وغير كاملة، وهو السبب الأساسي في غموض الخرافات، وأفضل مثال على ذلك قصّة قدموس: قتل قدموس الثعبان وبذر أسنانه؛ من أخاديد الأرض نشأ البشر مسلّحين، رمى بينهم قدموس حجارة كبيرة، فتقاتلوا حتّى الموت، وأخيرًا تحوّل قدموس إلى ثعبان. هذا إذن قدموس، المبتدع المزعوم للحروف العاميّة يُقدَّم على أنّه بطل هذه الخرافة، التي تتضمّن -مثلما سنبيّن ذلك[1]- قرونًا من التاريخ الشعري!

[§ ٤٤٧] في الوقت نفسه الذي تشكّلت فيه شخصيّة جوبيتر الإلهيّة، التي كانت أولى الأفكار البشريّة في العهود الوثنيّة، بدأت تتشكّل أيضاً اللغات الملفوظة بواسطة المحاكيات الصوتيّة، التي نجدها مستعملة من قِبل الأطفال الصّغار. وقد سمّى اللاتينيّون جوبيتر من دويّ الرّعد الذي كانوا يدعونه *jous*، ومن فرقعة الصاعقة سمّاه اليونانيّون زيوس، ومن صوت النّار التي تشتعل سمّاه المشرقيّون *أور*، ومنه جاء *أوريم*، أي قوّة النّار، و«ουρανός، أورانوس» عند الإغريق ويعني السماء، وفعل *uro* عند اللاتينيّين أي يحترق، و*Cel*، أحد الألفاظ الأحاديّة المقطع عند أوزون، ولكن بالنطق الإسباني لحرف 'ç' قد يكون استُعمل للدلالة على فرقعة الصاعقة، بما أنّ أوزون في حديثه عن فينوس يقول:

Nata salo ; suscepta solo ; patre edita Coelo[2]

وكما أنّ لغة الآلهة بدأت بابتكار سامٍ لأسطورة جوبيتر، كما لاحظنا سابقًا، فقد كانت للغة الشعريّة أيضًا بداية سامية مع المحاكاة الصوتيّة. وبالفعل فإنّ ديونيسيوس لونجينوس يضع هذا الوجه البلاغي من بين منابع السموّ، ويقول لنا إنّ هوميروس استعملها عندما

---

(١) § ٦٧٩.

(٢) أي: *ولدها البحر، استقبلتها الأرض، رفعها أبوها إلى السماء.*

حاكى الصوت الذي أحدثه العمود الملتهب الذي غرسه أوليس في عين بوليفيموس. ويقول هوميروس أنّ عين بوليفيموس أحدثت صوت «σίζ، سِز».

[§ ٤٤٨] الألفاظ المنطوقة متكوّنة من أصوات تعجّب أو ألفاظ أحاديّة المقطع، كان البشر ينطقون بها للتعبير عن عنف أهوائهم. لذا ليس من الغريب أنّهم حين تعجّبوا من الفرقعة الأولى للصاعقة ونسبوها لجوبيتر، نطق البشر بلفظة التعجّب *pa*، وبمضاعفتها أنتجت *pape*، وبقيت اللفظة التي تعبّر عن التعجّب. ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل جوبيتر يحصل على لقب أبي البشر والآلهة، لقب ورثه عنه من بعد كلّ الآلهة والآلهات. ولهذا السبب نجد عند اللاتينيّين الأسماء المتواترة *Jupiter, Diespiter, Marspiter, juno genitrix*، مع أنّ هذه الإلهة الأخيرة [أي juno] عاقر، ولا أحد من هؤلاء الآلهة عقد زواجًا، بحيث أنّ فينوس نفسها هي خليلة الإله مارس، وليست زوجته. إلّا أنّ لقب أب هذا نُسِب للآلهة بالمعنى البدائيّ المشتقّ من *patrare*، الذي يعني «فعَل»، الذي هو خاصيّة إلهيّة، لذا يقول لنا الكتاب المقدّس في سفر التكوين إنّ الإله استراح في اليوم السابع *ab opere quod patrarat*[1]. ومن *patrare* جاء فعل *impetrare* الذي نحت منه علم العِرافة *impetrire*، وهو لفظٌ جرّ النحويّين إلى تأويلات لامعقولة، بينما كان يعني بكلّ بساطة الحصول على طالع خير. ولفظ *impetrire* الذي عوّض *impetrare* يدلّ فقط على أنّ التأويل الأوّل للشرائع الإلهيّة تمّ بواسطة النذور، ومنها اتّخذت اسم *interpatratio* [أي التفسير أو الترجمة أو التوضيح].

[§ ٤٤٩] ولكن سرعان ما نسب الجبابرة إلى أنفسهم في عصر الأُسَر لقب الآباء، ولربّما نشأت من هنا الرواية العاميّة التي تقول إنّ عظماء الأرض الأوائل طالبوا بأن يُعبدوا كالآلهة. ولعلّ الحسّ الديني والورع الذي يحقّ للآلهة جعل البشر يخصّصون لها اسمًا آخر مختلفًا عن الاسم الذي اتّخذوه لأنفسهم؛ لذا نسبوا إليها اسم آلهة، إلاّ أنّه في زمن لاحق، جاء بشر آخرون أعظم قوّة وأكثر فخرًا وحضارة، بما أنّهم يسكنون المدن، واتّخذوا لأنفسهم أيضًا اسم آلهة. ثمّ اعترفوا، كما فعل سابقوهم، بأنّه من اللائق أن يتركوا للآلهة لقبًا أكثر سموّاً من الألقاب البشريّة، وسمّوها آلهة خالدة، واكتفوا لأنفسهم بلقب آلهة فانية. وهنا نرى مقدار الغباء الفظيع لهؤلاء الجبابرة، الذين سلبوا اسم الآلهة، ونحن

---

(١) أي استراح «من العمل الذي أنجزه».

نتعرّف على هذا الغباء في هذا الأثر من اللاتينيّة التي حفظت لنا لفظيْ *pipulum* أو *pipare*، بمعنى الشكوى أو تشكّى: وهو لفظ مشتقّ دون شكّ من *pi, pi* الذي يحاكي صوت شكوى. وهناك من يقول أيضًا إنّ *pipulum* له المعنى نفسه عند بلاوتوس للفظ *obvagulatio* الذي نجده في *اللوائح الاثنتي عشرة*. الحال أنّ *obvagulatio* مشتقّ من *vagire* الذي هو صراخ الطفل عند الولادة. ومن المحتمل أنّ اللفظة اليونانيّة "παιάν"، المشتقّة من "παί" متكوّنة من صيحة رعب. وبإمكاننا أن نستشهد تأكيدًا لذلك بما ورد في رواية قديمة إغريقيّة، جاء فيها أنّ الإغريق إذ ارتاعوا من ثعبان البيثون، استنجدوا بالإله أبولّو صائحين ثلاث مرّات بلفظة «Ιώ Παιάν، إيو پايان»، ثمّ عندما نجّاهم أبولّو من الثعبان كرّروا الكلمات نفسها «Ιώ Παιάν، إيو پايان» ولكن بتسريع بهيج، مقسّمين حرف "ω" أو ميغا إلى حرفي أوميكرون "ο"، والصائت المزدوج "αι" إلى مقطعيْن؛ لذا كان البيت الشعري البطولي في البداية سبونديًّا وبعد ذلك دكتيليًّا، واحتفظ السبونديّ بهذه الخاصيّة الدائمة بأن يترك المكان للدكتيلي، ما عدا في نهاية البيت. وقد تعدّل الإنشاد أو العروض الشعري البطولي حسب نغمات الصوت التي تعبّر عن الأحاسيس القويّة للروح البشريّة، إذ أنّه مثلما سبق أن ذكرنا، أن الإنشاد هو التعبير الملطّف للألم وللفرحة. وسنعود إلى هذه القضيّة عندما نتناول أصل الإنشاد والشعر.

[§ ٤٥٠] في وقت لاحق ابتكر البشر الضمائر، وإذا كان صوت التعجّب يفتح ممرّا لمشاعر من يطلقه، فهو مع ذلك لا يتوجّه لشخص بعينه، ويمكن أن يصدر من شفتيْ إنسان يخاطب ذاته، أمّا الضمائر فهي تشير إمّا للشخص الذي نتوجّه إليه أو إلى الشيء الذي نتحدّث عنه. في جميع اللّغات تكاد تكون كلّ الضمائر أحاديّة المقطع. وأحد أقدم الضمائر الذي وصل إلينا، إن لم نقل الأوّل، جاء في هذه الفقرة من إينيوس:

انظر إلى الذي يوجد في السماء والذي يسقط، كلّهم ينادونه جوبيتر؛(١)

حيث يقوم *HOC* مقام *coelum*، ومنه بقي إلى الآن في اللاتينيّة قول "*Luciscit HOC jam ;*"، أي «قد ظهر النور»، بدلا من *albescit Caelum* أي «طلع الفجر»، ومن طبيعة أدوات التعريف أن تسبق الأسماء التي تصاحبها.

---

(١) ورد باللاتينية: *Aspice HOC sublime cadens, quem omnes invocant jovem ;*

[§ ٤٥١] في وقت لاحق تشكّلت حروف الجرّ التي في معظمها أحاديّة المقطع، وهي تسبق دائمًا الأسماء التي تتطلّبها والأفعال التي ترتبط بها.

[§ ٤٥٢] وتشكّلت الأسماء شيئًا فشيئًا، وللتذكير فإنّنا كنّا قد أوردنا في طبعتنا الأولى لهذا العمل في الموضع الذي تناولنا فيه أصل اللغة اللاتينيّة عددًا كبيرًا من الأسماء التي اعتُبرت متأتية من إقليم لاتيوم لأنها تحمل أثر العادات القديمة اللاتينيّة، البربريّة في البداية، ثمّ المتمدّنة. وإذا ما استثنينا هذه الألفاظ الأربعة التالية: "βοῦς"، "σῶς"، "μῦς"، "σήψ"، التي يبدو أنّها متأتية من اليونان، والتي تعني ثعبان بالنسبة لليونانيّين، وسياج بالنسبة للاتينيّين، فلا يوجد أيّ اسم لاتيني آخر متأتّ من أصل أجنبيّ. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّ نشر هذا الكتاب سيكون مفيدًا؛ لأنّه سيوفّر لفقهاء اللغة وسيلة لاكتشاف جذور اللغات. ونحن نلفت انتباه العلماء إلى أنّ جذور اللغة الألمانيّة (لغة أمّ دون منازع، لأنّ الشعب الذي يتكلّمها لم يرضخ أبدًا لأجنبيّ) كلّها أحاديّة المقطع. وتشكّلت الأسماء قبل الأفعال، والدليل على ذلك هو هذا الأمر الدائم، أنّ القول لا يستقيم إن لم يبدأ باسم مذكور أو مضمّن يسنده.

[§ ٤٥٣] أخيرًا تشكّلت في اللغات الأفعال، كما يفعل الأطفال الذين ينطقون بالأسماء وبحروف الجرّ قبل النطق بالأفعال، ذلك أنّ الأسماء توقظ الأفكار التي تترك بعد ذلك آثارًا عميقة ومستديمة. والأدوات والحروف التي تعبّر عن تحوّلات الأشياء المشار إليها بالأسماء يمكن أن تترك ذكريات حيّة كذكرى الأشياء نفسها، بينما الأفعال التي تكمن وظيفتها في تحديد الحركة فهي تشير إلى جزء من مكان وزمان، وباعتباره جزءًا لا يمكن قياسه إلّا بفكرة غير قابلة للتجزئة، إذْ يتعذّر غالبًا على الفلاسفة أنفسهم. لقد أمكن لنا في مدينتنا هذه وفي أيّامنا هذه، ملاحظة ظاهرة فيزيائيّة تدعم ما أسبقنا من قول. نريد أن نتحدّث عن رجل أصيب بنوبة صرع، فبقي يتذكّر الأسماء ونسي كلّ الأفعال. كانت الأفعال الأولى دون شكّ هي أجناس وجذور جميع الأفعال الأخرى، مثل *sum* بالنسبة إلى الكينونة، الذي يحتوي على كلّ ما هو موجود وعلى جميع الماهيات، أي كلّ الأشياء الميتافيزيقيّة؛ و*sto*، الذي يعبّر عن عدم التحرّك؛ و*eo*، أي الحركة، الذي يحتوي على كلّ الأشياء الماديّة؛ و*do, dico, facio* التي تتعلّق بكلّ الأشياء التي تمارِس على أخرى فعلا أخلاقيًا أو ماديًا. وهذه الأفعال الأولى لم تُصرّف

فـي البداية إلّا بصيغة الأمر؛ لأنّه في نظام العشـائر، وفـي فقر اللغة الذي تبعه، كان الآباء فحسـب هـم المؤهّلـون لإلقـاء الأوامر علـى أبنائهم أو علـى خدمهم. بينمـا كان هؤلاء خاضعيـن للسـلطة الرهيبـة لرئيس العشـيرة ويطيعون أوامره دون أن ينبسـوا ببنت شـفة. وصِيَغ الأمر للأفعال اللاتينيّة التي وصلت إلينا هي أحاديّة المقطع، مثل: *es, sta, i, da, dic, fac*.

[§ ٤٥٤] هذه النشـأة للغات مطابقة لقوانين الطبيعة الكليّة، وهي القوانين التي تُظهر الماهيات غير القابلة للتجزئة باعتبارها العناصر التي تتكوّن منها كلّ الأشياء، والتي تلقى فيها جميعها جوابها. وقوانين الطبيعة البشـريّة تتوافق هي أيضًا مع تاريخ تكوين اللغات هذا، فإذا كان الأطفال في زمننا هذا وفي مناخاتنا، وقد وُلدوا وسط وفرة اللغات ووُهبوا أعضاء سلسـلة ومرنة، يبدؤون دائمًا في الكلام باسـتعمال أصوات أحاديّة المقطع، فمن الطبيعي إذن افتراض أنّ آباء البشر، الذين لم تتلقّ أسماعهم أيّ صوت بشريّ، ولم تفقد أعضاؤهـم أيّ شـيء مـن خشـونتها البدائيّة، قـد بقوا طويـلا لا يسـتعملون إلّا أحاديّات المقطع. كما أنّ هذه النشأة توفّر لنا الترتيب الذي تطوّرت به أجزاء الخطاب، والأسباب الطبيعيّة التي حتّمت التركيب النحويّ.

[§ ٤٥٥] كلّ هـذا يبـدو لنـا أكثر عقلانيّة ممّا قاله عـن أصل اللغـة اللاتينيّة يوليوس قيصر سكاليجيروس وفرانشسكو سانكتيوس كما لو أنّ الشعوب كانوا تلاميذ أرسطو!

[الباب الخامس]

استنتاجات حول نشأة القول الشعري، والاستطراد، والقلب والعدد، والإنشاد، والعروض

[§ ٤٥٦] بهذه الطريقة تشكّلت اللغة الشعريّة لدى الأمم، متكوّنة من حروف إلهية ومن حروف بطوليّة، ثمّ وقع تفسيرها بكلمات اللغة العاميّة، وأخيرًا عُوّضت حروفها بالحروف العاميّة. ومن فقر اللغة نشأت الحاجة للتعبير: وهذا ما تبيّنه الوسائل الأولى التي استعملتها اللغة الشعريّة التي هي: الوصف المؤثّر والصور والتشابيه والاستعارات والتعمية والجمل التي تفسّر الأشياء بحسب خاصيّاتها الطبيعيّة، والأوصاف بحسب التأثيرات الأكثر دقّة، أو الأكثر حسيّة، وأخيرًا الإضافات المفخّمة وحتى المستفيضة.

[§ ٤٥٧] تنشأ *الاستطرادات* من خشونة الأذهان البطوليّة التي كانت تجعلهم غير قادرين على استخراج خصوصيّات الأشياء التي هم بحاجة إليها، كما نرى ذلك عند من هو طبيعيًّا غبيّ، أو عند النساء.

[§ ٤٥٨] وينشأ *القلب* من صعوبة توظيف الفعل في القول. وتركيب الجمل عند اليونانيّين، وهو شعب عُرف بذكائه، أكثر بساطة من التركيب عند اللاتينيّين، الذي هو أكثر بساطة ممّا يوجد عند الألمان.

[§ ٤٥٩] *والعدد* في النثر لم يأت إلّا مؤخّرًا. فقد أدخله غورجياس الليونتيني[1] في النثر الإغريقي، وشيشرون في النثر اللاتيني. ويقول لنا هذا الأخير إنّ سابقيه حاولوا دون جدوى أن يعطوا شكلا منتظمًا للخطاب بإخضاعه لنوع من النظم الشعري.

---

(١) في النص الإيطالي Corgia Leontino. هو غورجياس الليونتيني [٤٨٠ - ٣٧٥ ق.م] ولد بليونتينوي الصقليّة. فيلسوف سابق لسقراط. تتلمذ عن أمبيدوكليس ونجده في حوارات أفلاطون. ينتمي إلى السفسطائيّين.

[§ ٤٦٠] يتجلّى من كلّ هذا أنّ الخطاب الشعري نشأ لضرورة طبيعة بشريّة قبل نشأة الخطاب النثري، كما أنّ الخرافات التي هي كليّات عجائبيّة نشأت بالضرورة قبل الكليّات المعقلنة أو الفلسفيّة. وهذه الأخيرة جاءت نثرًا. إذ أنّه كما أنّ الشعراء شكّلوا الخطاب الشعري بتركيب الأفكار الخصوصيّة، شكّلت الشعوب بدورها الخطاب النثري بالدمج في لفظة واحدة كما لو كان جنسًا من الأجناس، الأجزاء المنفصلة التي نسّقها الخطاب الشعري. كما هو الحال في هذا المثال الشعري: يفور دمي في شراييني، وهو تعبير طبيعيّ، سرمديّ وشامل للعنصر البشري، تحوّل بنوع من الاختصار الشعبي إلى كلمة واحدة تحتوي كما لو كانت جنسًا، فكرة الدم والفوران والشرايين. هذه الكلمة باليونانيّة هي "στόμαχος"، و"*ira*" باللاتينيّة، وغضب بالعربيّة. وهكذا مرّ البشر من الهيروغليفيّات إلى الحروف العاميّة التي صارت بالنسبة إليهم نوعًا من الأجناس تحتوي على كميّة متعدّدة من الألفاظ المنطوقة. وقد تطلّبت هذه العمليّة تطوّرًا فكريًّا عظيمًا. وقد ساهم تطبيق الألفاظ والحروف على هذه الأجناس العاميّة في تحرير فكر الشعوب وجعلها قادرة على تصوّر المجرّدات. وكان آنذاك أن ظهر الفلاسفة الذين خلقوا الأجناس الفكريّة. وهذه الفقرة كلّها هي قطعة منفصلة من تاريخ الأفكار. ومثل هذه الاعتبارات هي التي تجعلنا نلحّ على أنّه لا ينبغي أبدًا فصل الأبحاث في أصل الحروف عن الأبحاث في أصل اللغات!

[§ ٤٦١] لقد سبق أن تناولنا موضوع الإنشاد والشعر في *المسلّمات*[1]، وذكرنا أنّ البشر كانوا في البداية صامتين. كانوا لا ينطقون في تلك الحالة إلّا بالمصوّتات وهم يتغنّون، مثلما يفعل البُكم عندما يحاولون النطق ببعض الألفاظ. ومن أبكم تحوّل الإنسان إلى لجلاج، وجمع بين الصوامت والمصوّتات دون أن يترك الإنشاد. ولدينا شهادة على الأناشيد الأولى لهذه الشعوب في المصوّتات المزدوجة المتوفّرة في جميع اللغات بقدر معيّن والتي كانت في السابق أكثر عددًا بكثير ممّا هي عليه اليوم، بما أنّ اليونانيّين والفرنسيّين، الذين مرّوا فجأة من العصر الشعري إلى العصر العامّي، لا يزالوا يحتفظون بعدد كبير منها، كما سبق أن لاحظنا ذلك في *المسلّمات*[2]. والسبب في ذلك

---

(١) § ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) § ١٥٩.

أنّ المصوّتات أيسر في النطق من الصوامت. لذا فإنّ البشر الأوائل لخشونتهم وبلادة أذهانهم كانوا لحاجتهم إلى التعبير عن أهوائهم العنيفة والفظّة يتفوّهون ببعض الأصوات التي كانت بطبيعة الحال تصدر بأصوات عالية جدّاً، والطبيعة تجعل الإنسان الذي يرفع صوته كثيرًا يُصدر الكثير من المصوّتات المزدوجة ويُنتج نوعًا من الإنشاد، كما سبق ذكره في *المسلّمات*[1]. لذا نجد أنّ الأبيات السبونديّة الأولى، كما نظمها اليونانيّون، تحتوي على مصوّتات مزدوجة مثل "παι" متكوّنة من مصوّتتيْن وصامتة.

[§ ٤٦٢] هذا الإنشاد الأوّل للشعوب مردّه أيضًا هو الصعوبة في النطق بالألفاظ. صعوبة سنشير الآن إلى أسبابها ونتائجها. قبل كلّ شيء كانت أعضاء هؤلاء البشر الأوائل خشنة جدّاً، بما أنّه حتّى أبناؤنا، مع أنّهم أكثر مرونة وسلاسة، لا يقدرون إلّا بصعوبة على نطق الصوامت ويفضّلون إصدار المصوّتات. والصينيّون، الذين لا يتوفّرون في لغتهم العاميّة على أكثر من ثلاثمئة صوت منطوق توافق ببعض التغييرات في الصوت والنبرة مئة وخمسًا وعشرين ألف هيروغليفيّة، يتكلّمون منشدين. وترخيم الكلمات الذي يعجّ به الشعر الإيطالي هو نتيجة هذه الصعوبة التي نتحدّث عنها. وقد أشرنا بخصوص اللغة اللاتينيّة إلى وجود العديد من الألفاظ التي كانت في البداية دون شكّ مختصرَة، ثمّ مع الوقت تمدّدت. وسيمكّننا الإسهاب من إقامة الدليل على أنّ الإنشاد كان أوّل ما استعملته الشعوب، ذلك أنّ اللجلاج وكلّ من يعاني صعوبة في النطق بالمقاطع، يتمكّن بسهولة أكبر من التغلّب على هذا العائق بالغناء، أكثر منه بالنطق العادي للكلمات. أذكر أنّه كان يوجد عندنا مغنّ يشكو من هذا العائق، وعندما يتعذّر عليه أحيانًا أن ينطق بكلمة ما، كان يلجأ إلى الترنّم بصوته الرخيم وبالتغنّي بما كان يعجز عن النطق به. وبالطريقة نفسها يبدأ العرب دائمًا كلماتهم بـ «الـ»، والهون[2] بـ "*hun*"، الذي جاءت منه حسب ما يُقال تسميتهم. أخيرًا، نكرّر ما سبق ذكره، أنّ كتّاب النثر اليونانيّين واللاتينيّين السابقين لغورجياس وشيشرون، كانوا يستعملون بعض الأوزان الشعريّة. والشيء نفسه تجدّد في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] في نثر آباء الكنيسة اليونانيّة واللاتينيّة، الذي كان يبدو نوعًا من الترنيمة.

---

(١) § ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) الهون: شعب بدوي عاش في آسيا الوسطى والقوقاز وأوربا الشرقية بين القرنين الرابع والسادس الميلادي.

[§ ٤٦٣] لا بـدّ أنّ النظـم الأوّل كان ملائمًـا للغة ولعصر الأبطـال. هكذا كان البيت البطوليّ، الأروع على الإطلاق، والذي يميّز بحقّ الشعر البطولي. كان نتيجة مشاعر عنيفة، مثل الرعب والفرحة، ذلك أنّ الشـعر البطولي لا يصف إلّا اضطرابات المشـاعر القويّة. ولكن ليس صحيحًا تمامًا، كما تذكر الرواية التقليديّة، قول إنّ البيت السـبونديّ نشـأ من الرعـب الـذي أحدثـه الثعبان بيثون في البشـر. ذلـك أنّ الأفكار والكلمات تتسـارع عند الرعـب بـدلا مـن أن تتباطـأ. لذا يقـول اللاتينيّـون علـى السـواء *sollicitus* و*festinans* للتعبيـر عـن الخـوف. والبيت السـبوندي، الـذي يحتفظ دائمًـا بمكانته الأولـى وبمركز الشـرف، نشـأ مـن تبلّـد الأذهان وخشـونة الأعضـاء. في وقـت لاحـق، أي عندما بلغت الأذهـان والأعضـاء شـيئًا من المرونة والسلاسـة قُبِل البيـت الدكتيلي والوتـدي، اللذان يسـمّيهما هوراثويـس "*pede praesto*" (التفعيلـة السـريعة). وحيـن بلغـت الأذهـان والأعضاء تطوّرًا أكبر، وجدت نفسها قادرة على تشكيل وتركيب النثر بواسطة الأجناس الفكريّة. والبيت الوتدي شـبيه بالنثر إلى حدّ أنّ كتّاب النثر غالبًا ما يكتبون به دون إرادة أو إدراك منهـم. وهكـذا صار الإنشـاد الذي ينظّـم الأبيات دائمًا أكثر حيويّـة كلّما تمكّن البشر أكثر من الأفكار وتعلّموا أن يعبّروا عنها بواسطة اللغة.

[§ ٤٦٤] والتاريخ يؤكّد لنا هذه النظريّة الفلسـفيّة، إذ يضع بين أقدم الأشـياء وسـيط الوحـي والعرّافـة، كما ذكرنا ذلك في المسـلّمات[١]. من هنا جاء قول« أقدم من العرّافة» أي أنّه أقدم من كلّ شيء. ونجد العرّافات عند جميع الأمم القديمة، ويصل عددهنّ إلى اثنتـيْ عشـرة عرّافـة. وكـنّ يتكلّمن مثلهنّ في ذلك مثل وسـطاء الوحي، بأبيـات بطوليّة، وسُـمّي هـذا البيـت عند اليونانيّين *بيثيوس*، نسـبة لوسـيط وحـي أبولّو بيثيـوس والثعبان بيثون. ويخبرنا فاسـتوس أنّ البيت السـبوندي كان يسـمّى *سـاتورني* عند اللاتينيّين، ممّا يجعلنـا نحـدّد نشـأته فـي عصر سـاتورن، الموافـق للعصر الذهبـي عند الإغريـق. وعند فاسـتوس نجد أيضًا أن إينيوس يقول بخصوص مخلوقات *الفاونا* [*Fauna*] الإيطاليّة[٢] إنّهـا كانـت تنطق بالنبؤات بأبيات *سـاتورنيّة*، ونحن نعرف أنّ الإغريـق كانوا ينطقون بها بأبيات سداسيّة المقاطع. والأبيات الوتديّة ذات ستّة أجزاء سُمّيت لاحقًا أبياتًا ساتورنيّة،

---

(١) بل في *الميتافيزيقا الشعريّة*، § ٣٨١.

(٢) الفاونا أو باللاتينية fauna إلاهة رومانية ريفية اشتهرت بقدرتها على التنبؤ.

ربّما لأنّه كانت تُستعمل أكثر في ذلك الوقت الأبيات الوتديّة الساتورنيّة، بينما في السابق كان لا يُستعمل إلّا البيت الساتورني البطولي.

[§ ٤٦٥] يتردّد العلماء في اللغة المقدّسة في الحسم في مسألة إن كان شعر العبرانيّين من مقاطع أو من أوزان. إلّا أنّ يوسيفوس وفيلون وأوريجين وإيسوب يميلون إلى الافتراض الثاني. ويؤكّد القديس هيرونيموس أنّ كتاب أيّوب السابق لكتب موسى، مكتوب بأبيات بطولية من بداية الباب الثالث إلى بداية الباب ٤٢.

[§ ٤٦٦] والعرب، إذا نحن صدّقنا المؤلّف المجهول لكتاب «في غموض *العلوم*»[١]، كانوا لا يعرفون الحروف ويحفظون لغتهم بحفظ أشعارهم عن ظهر قلب، وذلك إلى أن اجتاحوا الولايات الشرقيّة للإمبراطوريّة الإغريقيّة.

[§ ٤٦٧] كان المصريّون يكتبون الأشعار تذكارًا لأمواتهم على أعمدة سمّوها سيرنجي، من سير التي تعني أغنية. ومن هنا جاءت كلمة *sirena* [حوريّة] وهي آلهات كانت مشهورة بانسجام أغانيها. ويروي لنا أوفيديوس أنّ الحورية *سيرنغا* كانت مشهورة بروعة غنائها وبجمالها. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّ السوريّين والآشوريّين سُمّوا كذلك لأنّهم بدأوا يتكلّمون بالأشعار.

[§ ٤٦٨] ومن المؤكّد أيضًا أنّ الشعراء اللاهوتيّين كانوا مؤسّسي الحضارة الإغريقيّة وأنّهم كانوا أبطالا وتغنّوا بأبيات بطوليّة.

[§ ٤٦٩] كما سبق أن رأينا[٢] أنّ المؤلفين الأوائل في اللغة اللاتينيّة كانوا السالّيين أو الشعراء المقدّسين الذين بقيت لنا منهم شذرات من أبيات سلياريّة، شبيهة بالأبيات البطوليّة. وتمثّل هذه الأبيات أقدم أثر للغة اللاتينيّة وصل إلينا. فقد أبلغنا المنتصرون الرومان ذاكرة أفعالهم وإنجازاتهم بأبيات بطوليّة. كما جاء في قول لوسيوس إميليوس ريجيلّوس:

أنهى معركة كبيرة، وأخضع الملوك[٣]

---

(١) المقصود هنا هو Thomas Baker [١٦٥٦ – ١٧٤٠] وعنوان الكتاب هو *Reflections upon Learning* (١٦٩٩) وتُرجم إلى الإيطالية سنة ١٧٣٥.

(٢) § ٤٣٨.

(٣) ورد باللاتينيّة: *Duello magno dirimendo, Regibus subjugandis;*

وكذلك أشيليوس غلابريو في قوله:

انتصر، شتّت، وهزم الفيالق الأكثر قوّة،[1]

وأخرى غيرها. كما أنّ شريعة *اللوائح الاثنتيْ* عشرة تعبّر غالبًا بواسطة أبيات أدونيّة[2]، التي يمكن اعتبارها شذرات من أبيات بطوليّة. وقد حاكى شيشرون في شرائعه هذا الطابع الخاصّ الذي ميّز *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، والتي تبدأ كما يلي:

لنقترب بعفّة من الربّ،

لنظهر له التقوى.[3]

لهذا السبب، وحسب قول شيشرون نفسه، كان الأطفال يتلون تلك الشرائع وهم يتغنّون بها: *tanquam necessarium carmen* [كما لو كان إنشادًا قسريًّا]. ويروي لنا إيليان[4] الشيء نفسه بخصوص أطفال جزيرة كريت. وبالفعل، فإنّ شيشرون، هذا المبتكر العظيم للنثر الموزون لدى اللاتينيّين، كما هو شأن غورجيا ليونتينوس بالنسبة لليونانيّين كما سبق ذكره[5]، لا بدّ أنّه تفادى بعناية أن يقحم في جُمَله ليس فقط الأبيات الرنّانة بل وأيضًا الوتديّة، التي تشبه كثيرًا النثر، وليس فقط في المواضيع الخطيرة، بل وحتّى في الرسائل العائليّة؛ لذا فإنّنا نثق بتلك الروايات العاميّة التي أوردها أفلاطون، من أنّ شرائع المصريّين لم تكن إلّا أشعار الإلهة إيزيس، وكذلك ما يرويه فلوطرخس عن ليكورجس من أنّه كان يتلو على الإسبارطيّين شرائعه بأبيات شعر، محجّرًا عليهم أن يتعلّموا القراءة، وكذلك ما ذكره ماكسيموس الصوري من أنّ جوبيتر لقّن مينوس الشرائع بأبيات شعريّة، وأخيرًا ما أخبرنا به سيداس من أنّ دراكون أملى شرائعه على الأثينيّين شعرًا، وقال في رواية عاميّة إنّه كتبها بالدم.

[§ ٤٧٠] وإذ نعود الآن من الشرائع إلى التاريخ، فإنّ تاسيتوس في كتابه «*تقاليد الجرماتيين القدامى*»، يقول لنا إنّ هذه الشعوب كانت تحتفظ ببدايات تاريخها شعرًا.

---

(١) ورد باللاتينية: *Fudit, fugat, prosternit maximas legiones ;*

(٢) التفعيلة الادونية تفعيلة خماسية المقاطع تستعمل في الشعر المنظوم ياللهجة الأيولية اليونانية.

(٣) ورد باللاتينيّة: *Deos caste adeunt,Pietatem adhibento.*

(٤) هو Elien [حوالي ١٧٠-٢٣٥ م]، في *Variae historiae*، II، ٣٩.

(٥) § ٤٥٩.

وليبسيوس[١]، في ملاحظاته عن الكتاب الذي سبق ذكره، يقول الشيء نفسه عن الأمريكيّين. وهذا ما يجعلنا نلاحظ أنّ هذيْن الشعبيْن، البعيديْن كلّ هذا البعد عن بعضيْهما، واللذيْن يجهل أحدهما وجود الآخر، التقيا في فترات مختلفة جدًا من خلال استعمال نفس الطريقة في التعبير، ومن المفترض أنّ جميع الأمم الأخرى، سواء القديمة أو الحديثة، خضعت للقانون نفسه، الذي بإمكاننا اعتباره شاملا. ولا نحتاج إلى افتراضات بخصوص الفرس والصينيّين، إذ قد صار من الواضح أنّ بدايات تاريخ هذيْن الشعبيْن قد كُتبت بأبيات من الشعر. لذا بإمكاننا قول التالي: إذا كانت الشرائع هي التي أسّست الشعوب، وإذا كانت الشرائع، وكذلك النتاج الفكري الأوّل لهذه الشعوب كان بواسطة الشعر، فمن الظنّ أنّ الشعوب الأولى تشكلّت من شعراء.

[§ ٤٧١] لنعد الآن إلى أصل الشعر، ولنقل إنّه بحسب ما أورده فاستوس، أنّ نارفيوس، وهو سابق في الزمن لإينيوس، روى الحروب البونيقيّة مستعملا البيت البطولي، وأنّ ليفيوس أندرونيكوس، أقدم المؤلّفين اللاتينيّين، ألّف قصيدًا بطوليًا يحتوي على حوليّات الرومان القدامى، يحمل عنوان *Romanide*. والمؤرّخون اللاتينيّون في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، أمثال غونتر[٢] وغوليالمو بوليبزي[٣] وآخرين، كانوا شعراء بطوليّين، وقد رأينا[٤] أنّ الكتّاب الأوائل باللغات الجديدة الأوروبيّة كانوا جميعهم شعراء. وفي *سيليزيا*، وهي ولاية تكاد تكون كلّها آهلة بالفلاّحين، كان عدد الشعراء بها كبيرًا. ويلاحظ آدم ريشنبيرغ[٥] أنّ الألفاظ التي ألّفها اليونانيّون يمكن التعبير عنها جيّداً باللغة الألمانيّة، خاصّة في الشعر. وقد وضع بارنيغر[٦]

---

(١) يوستوس ليبسيوس باللاتينيّة Iustus Lipsius، [١٥٤٧-١٦٠٦] نحويّ فقيه لغة وفيلسوف بلجيكي.

(٢) Gunther، شاعر ألماني من أواخر القرن ١٢.

(٣) غوليالمو بوليبزي أو الأبولي. اسمه اللاتيني غوليالموس أبوليانسيس [القرن ١١- القرن ١٢]. راوية تاريخ النورمان بإيطاليا الجنوبيّة ومؤلّف ملحمة روبرت ويسكارد، *De Gesta Roberti Wiscardi*، التي تُعتبر مصدرًا نفيسًا من الأخبار عن غزو النورمان لإيطاليا الجنوبية في القرن الحادي عشر.

(٤) § ٤٣٨.

(٥) آدم ريشنبارغ [١٦٤٢-١٧٢١]، فيلسوف ولاهوتي ألماني.

(٦) ماتياس بيرنغر (Mattias Bernegger) [١٥٨٢-١٦٤٠]، عالم في الرياضيّات وفي الفلك، فقيه لغة، ومؤرّخ من أصل نمساوي.

فهرسًا بهذه الألفاظ، وأثراه جورج كريستوف بيسكر بفهرس عنوانه *Index de Graecae et Germanicae Linguae Analogia*. كما تُوفّر لنا اللغة اللاتينيّة القديمة من جهتها عددًا كبيرًا من الألفاظ التي واصل الشعراء دائمًا استعمالها. واستعمال هذه الألفاظ كان دون شكّ مشتركًا بين أقدم اللغات؛ لأنّها أثرت كلّها بالأسماء قبل أن تمتلك الأفعال، ومن الطبيعي افتراض أنّ الشعوب الأولى جمّعوا عددًا كبيرًا من الأسماء للتعويض عن النقص الكبير في الأفعال. وكانت هذه هي المبادئ التي اعتمد عليها مورهوف[1] في كتابه *Disquisitionibus de Germanica lingua et* poësi، وهذا يبرهن على حكمة النصيحة التي تقدّمنا بها في *المسلّمات*[2] وهي «لو أنّ علماء اللغة الألمانيّة بحثوا عن أصول لغتهم متّبعين هذه المبادئ، لعثروا فيها على اكتشافات رائعة».

[§ ٤٧٢] نعتقد بما قدّمناه من براهين أنّنا أثبتنا خطأ النحويّين الذين كانوا يزعمون أن الكلام نثرًا جاء أوّلا، ثم جاء بعده الكلام شعرًا[3]. بينما نحن باكتشافنا أصل الشعر قد اكتشفنا وأثبتنا أصل اللغات والحروف.

(١) دانيال جورج مورهوف (Daniel Georg Morhof) [١٦٣٩-١٦٩١]، مؤرّخ ألماني مختصّ في تاريخ الأدب.

(٢) § ١٥٣.

(٣) § ٤٠٩.

[الباب السادس]

استنتاجات أخرى سبقت الإشارة إليها في البداية[1]

١

[§ ٤٧٣] بهذه النشأة الأولى للحروف وللغات نشأت كلمة *Gius* التي هي عند اللاتينيّين *Jous*، وعند اليونانيّين القدامى «διαιόν، ديايون» اليونانيّة التي نترجمها بـ *celeste* [سماويّة]. لذا كان اللاتينيّون يقولون على السواء *sub dio* أو *sub Jove*، لقول سماء متقشّعة. وهي فكرة عبّر عنها أفلاطون في كتاب *كراتيل* بكلمة «δίκαιον، دياكيون». كلّ الأقوام الوثنيّة كانت ترى في جوبيتر تشخيصًا للسّماء، وكانوا ينتظرون أن يتلقوا منه بواسطة التكهّنات والنبؤات، الأوامر والشرائع. وهذا يدلّ على أنّ كلّ الأمم تشكّلت على أساس إيمانها بالعناية الإلهية.

[§ ٤٧٤] عند الكلدان كان جوبيتر والسّماء الشيء نفسه، إذ أنّهم كانوا يستقرئون المستقبل من خلال التمعّن في مظهر النجوم وحركتها، ومنه جاء عِلما الفلك والتنجيم اللذان يشيران إلى علم الشرائع السماويّة وعلم لغة الكواكب؛ لهذا السبب كان المنجّمون الشرعيّون يسمّون دائمًا *كلداتيين* في القوانين الرومانيّة.

[§ ٤٧٥] كانت فكرة الفرس عن جوبيتر شبيهة بما هو موجود لدى الأمم الوثنيّة الأخرى. فالبعض منهم المسمّون *مجوسًا* كانوا يزعمون أنّهم يقرؤون في كتاب الكواكب السرّي أشياء يجهلها العامّة. هذا العلم الذي لا يزال يحتفظ باسم *magia* [سحر] والذي كان يعلّم طريقة النفاذ إلى قوى الطبيعة الخفيّة، كان محجّرًا على البشر، الذين لا يمكنهم تلقّنه دون اللجوء إلى وسائل خارقة للطبيعة. كان السحرة يستعملون عصا شبيهة بـ *lituus* [عصا] العِرافة الرومانيّة، وكانوا يرسمون بها دوائر فلكيّة يستخدمونها مع العصا

(١) في عنوان الباب الرابع.

للقيام بعمليّاتهم السحريّة. كان الفرس يعتبرون السماء معبد جوبيتر. وبهدم معابد الإغريق أراد قورش الأكبر شفاءهم من ممارساتهم السحريّة.

[§ ٤٧٦] لم يكف المصريّين أنّهم كانوا يشاطرون الآراء الرائجة بخصوص جوبيتر ويقرؤون في الدوائر شرح مصائرهم، فقد كانوا يقومون بتثبيت التأثيرات السماويّة من خلال صهر أصنامهم في فترات محدّدة، ولا يزالوا يحتفظون إلى الآن بفنّ عامّي في العرافة.

[§ ٤٧٧] كان اليونانيّون أيضًا ينظرون إلى *teoremi* و*matemi* التي سبق لنا الحديث عنها(١) باعتبارها أشياء سامية وإلهية، مثلها مثل شرائع جوبيتر التي لا يجب أبدًا انتهاكها. ومنه جاء اسم *mathematici* واستعماله في القوانين الرومانيّة للإشارة إلى المنجّمين الشرعيّين.

[§ ٤٧٨] وبخصوص الرومان نذكّر بهذا البيت الشهير لإينيوس الذي سبق ذكره(٢):

Aspice HOC, sublime cadens, quem omnes invocant Jovem

حيث يعوّض الضمير HOC كلمة *caelum* أي السّماء. وفي مواضع أخرى نجد مواقع السّماء التي يستطلع فيها الأقدمون نبؤات السماء يُشار إليها بـ *templa coeli* أي معابد السّماء. وقد حافظ اللاتينيّون على لفظة *templum*، التي تعني موقعًا مكشوفًا لا يحجبه شيء عن النظر، ومنه جاءت عبارة *extemplo*،لقول «فورًا أو مباشرة». ويسمّي فرجيل البحر: *neptunia templa* أي معبد نبتون.

[§ ٤٧٩] يروي تاسيتوس أنّ الجرمانيّين القدامى يعبدون آلهاتهم في بعض الأماكن المقدّسة، التي كانوا يدعونها *lucos* و*nemora* والتي كانت دون شكّ باحات خالية من النبات وسط الغابات. ولم ترغمهم الكنيسة على ترك هذه العادات إلّا بمشقّة، وتشهد على ذلك العديد من الأوامر الصادرة عن المجالس الكنسيّة ببراغا(٣) وآرل، والتي احتفظ لنا بها بورشارد(٤)، ولا نزال نجد منها آثارًا في لابونيا وليفونيا.

---

(١) § ٣٩١.

(٢) § ٤٥٠.

(٣) إشارة إلى مجمع براغا بالبرتغال في في السنوات ٤١٢، ٥٦٣، ٥٧٢، ٦٧٥.

(٤) Burchard، أسقف وورمس، عاش في السنة ألف ميلادي تقريبًا، جمّع كتب الأوامر الكنسيّة، *Decretorum libri*، نُشرت سنة ١٥٤٨.

[§ ٤٨٠] وكان أناس البيرو يسمّون إلههم *«العليّ»*، ولا تزال معابدهم إلى يومنا هذا تتّخذ من السّماء قبّتها وتتمثّل في تلال يصل المرء إلى قمّتها من جهتيْن عبر سلسلة طويلة من الدرجات، وكلّما زاد ارتفاع التلّ عظم المعبد. ويخبرنا باوسانياس أنّ قمّة هذه التلال، أو قمّة المعبد، كانت تُدعى "αετός" أي «*عقاب*»، لأنّ الغابات المحيطة به قد وقع اقتلاع أشجارها لتيسير رؤية تحليق *العقبان*، التي كانت تمثّل جانبًا مهما من علم التنجيم؛ لذا سُمّيت قمّة هذه التلال *pinnae templorum* [أجنحة المعابد]، وفي وقت لاحق عندما شُيّدت أولى أسوار المدن بالقرب من هذه المعابد سُمّيت *pinnae murorum* [أسنّة الأسوار]، وأخيرًا لا يزال يُستعمل في الهندسة المعماريّة لفظ *acquilae* [عُقبان] للإشارة إلى ما نسمّيه اليوم الثلمة[١] أو زينة الشرفة.

[§ ٤٨١] كان اليهود الوحيدين الذين كانوا يعبدون العليّ الحقيقي، ومكانه فوق السّماء، داخل صندوق العهد. وموسى، الفاتح باسم الإله، حيثما وصل أحرق هذه الغابات المقدّسة، المذكورة عند تاسيتوس، والتي حُبِست بداخلها الأنوار [*lumi*].

[§ ٤٨٢] وفي اعتقادنا أنّ شرائع جوبيتر الإلهيّة كانت في كلّ مكان هي الشرائع الأولى، وهو ما أرسى العادة عند عدد كبير من الأقوام المسيحيّة لقول *السّماء* بدلا من *الربّ*. وبالفعل فإنّ الإيطاليّين حتى يومنا هذا يقولون للتعبير عن ثقتهم في الإله "*voglia il cielo*" أي لتستجب السّماء و"*spero al cielo*," أي رجائي في السماء. ونجد هذا الاستعمال أيضًا عند الإسبان. بينما يقول الفرنسيّون *bleu* بمعنى *azur*. وبما أنّ لفظة *azur* تُستعمل للتعبير عن خاصيّة حسيّة، فقد كرّسوا كلمة *bleu* للسّماء. وكما أنّ الوثنيّين يعنون بالسّماء جيوبيتر، فإنّ الفرنسيّين عنوا بالسّماء الربّ. وما زلنا نسمع حتّى اليوم عند الفرنسيّين قول "*moure bleu!*" و"*par bleu!*"، الأولى للتجديف والثانية للقسَم. هذه الاعتبارات الأخيرة تقدّم مثالا لما يمكن أن يكون عليه *المعجم الذهني* الذي سبق الحديث عنه في *المسلّمات*[٢].

---

(١) الثلمة هي فرجة بين جداريْن في شرفة الحصن.

(٢) § ١٦٢.

٢

[§ ٤٨٣] كانـت ضـرورة تحديـد العقـار والملكيّات إحدى أهمّ الأسـباب في نشـأة الحروف وفي إسناد الأسماء في العائلات التي تتوزّع على عدّة فروع، والمسمّاة *genti*. وقد لُقّن هرمس الهرامسـة، وهو الشـخصيّة الرمزيّة للمؤسّسين الأوائل بمصر القديمة، اسـتعمال الشـرائع والحـروف. هرمـس هـذا [أي ميركوريوس] قـد اعتُبر إلـه البضاعة، والإيطاليّـون الذيـن حافظوا إلى الآن على الشـكل نفسـه في التفكيـر والتعبير، لا يزالون يسـتعملون فعـل *mercare* بمعنـى وسـم الماشـية أو الملكيّـة بحـرف أو بعلامة، وذلك للإشارة إلى مالكيها.

٣

[§ ٤٨٤] كان هـذا أصـل الرمـوز الأولى المسـتعملة مـن قِبل الأمـم الوثنيّة، وأصل الشـعارات كذلـك. في البدايـة اختُرعت لتلبية حاجـة عامّة أو خاصّـة، ولاحقًا، تعدّدت بغاية منفعة بسيطة أو لمجرّد الزخرف، وهذه *العلامات الفكريّة* سُمّيت بالبطوليّة، والتي شـغلت دلالاتهـا أذهان العلماء. هـذه العلامات الحـرّة أو الاعتباطيّة تتضمّـن فيما بينها دلالات متماثلـة ممّـا يسـتوجب توضيحهـا ببعض الشـعارات؛ بينما العلامـات البطوليّة والطبيعيّـة كانت تتكلّم من تلقاء نفسـها وتتضمّن دلالاتهـا الخاصّة، أي أنّها كانت تنطق وإن هي صامتة. لذا قيل عنها إنّها ممتازة. *ثلاث سنابل* أو *ثلاث حركات حصاد* تتضمّن مثلا معنى *ثلاث سـنوات*. لهذا السـبب غالبًا ما اسـتعملت «الرموز» و«الأسـماء» لتعني إحداهـا الأخرى، كما اسـتعملت «الأسـماء» و«الخاصيّات» لقول الشـيء نفسـه، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك.[١]

[§ ٤٨٥] في فترة عودة البربريّة [القرون الوسـطى]، عادت الأمم لتصبح صامتة، أي أنّه لـم يعد لها أيّ لغة عاميّة. وبالفعل، فنحن لا نعرف شيئًا عن اللغتيْن الإيطاليّة والإسبانيّة في تلك الأزمنة، وكان رجال الكنيسـة وحدهم هم الذين يعرفون اللاتينيّة واليونانيّة؛ لذا نجـد أن الفرنسـيّين يسـتعملون كلمتـيْ *clerc* و*lettré* (أي كنسـيّ ومتعلّـم) كمترادفتيْن.

---

(١) انظر § ٤٣٣.

ونجد أنّ الإيطاليّين، حسب قول دانتي[1]، يشيرون بكلمة *laico* (علماني) إلى كلّ من لا يعرف القراءة. وحتّى في أوساط القساوسة كان الجهل يصل إلى حدّ أنّنا نجد عقودًا وقّعها أساقفة برشم علامة صليب، وهو ما يدلّ على أنّ أولئك الأساقفة كانوا لا يعرفون كتابة أسمائهم. والأب مابيّون[2] في كتابه *de Re Diplomatica* يمدّنا بنسخة محفورة على الحديد لتوقيعات أساقفة ورؤساء أساقفة من الذين شاركوا في تلك الفترات البربريّة في مجامع دينيّة مختلفة، ونرى من خلال الكتابات المعوجّة وغير المنتظمة لأولئك الكهنة العظماء الذين عُرفوا بعلمهم الواسع، أنّهم لم يكونوا يكتبون أفضل من الجهلة الأغبياء في زمننا الحاضر. ثلاثة من رؤساء الأساقفة أولئك كانوا قضاة الإمبراطوريّة: واحد للغة الألمانيّة والثانيّ للفرنسيّة والثالث للإيطاليّة؛ ومعظم رؤساء الأساقفة كانوا قضاة المملكات بأوروبا. وكانت دون شكّ الكتابات من هذا النوع هي التي أعطت معنى مازحًا لعبارة: *كتابة قضاة*. ولنا شاهد عن جهل تلك الأزمنة في قانون إنكليزي يقضي بأن يُبقى على حياة مجرم محكوم عليه بالإعدام إن برهن على أنّه يعرف القراءة والكتابة. لذا صارت كلمة *letterato* (أي يعرف الكتابة والقراءة) مرادفة لكلمة عالِم.

[§ ٤٨٦] هذا الافتقار للكتّاب يفسّر العادة التي كانت جارية في السابق في أن تُرسم على جدران المنازل بعض الشعارات (*impresa*). كان اللاتينيّون يطلقون عبارة *terrae presa* على ملكيّات الأراضي (التي لا تزال تُسمّى بإيطاليا *podere*) من كلمة *praedium*، لقول إنّ الغنائم الأولى أو الغزوات كانت للأراضي المفتكّة لتكريسها للزراعة؛ ولهذا

---

(١) دانتي أليغييري [١٢٦٥-١٣٢١] وُلد بفلورنسا. شاعر مفكّر وسياسي إيطالي. اشتهر برائعته «الكوميديا الإلهية» التي بقيت من أعظم الأعمال الشعريّة والفكريّة العالميّة وهي عبارة عن رحلة عبر الجحيم والمطهر والفردوس يلاقي أثناءها الشاعر كبار الشخصيات التاريخيّة ويتحاور معهم في الأدب والفلسفة والسياسة والدين وقد ترجمها حسن عثمان إلى العربيّة نثرًا بين ١٩٥٩ و١٩٦٨. يُعتبر دانتي أب اللغة الإيطالية لاستعماله لهجة فلورنسا، اللغة العاميّة التي جاءت منها الإيطالية الحديثة، عوضًا عن اللاتينيّة، حتّى في كتابة النثر الفكري والفلسفي مثل كتابه *Il Convivio* [الوليمة]، كما تناول موضوع اللغة العاميّة في علاقتها بالوحدة الإيطالية في *De Vulgari Eloquenza* [في اللغة العاميّة]. لذا يُعتبر سبّاقًا في تصوّر إيطاليا موحّدة قبل ستّة قرون من تحقيق الوحدة الإيطالية (١٨٦٠/ ٦١).

(٢) هو Jean Mabillon [١٦٣٢-١٧٠٧]، لاهوتي وراهب بنيدكتي ومفكّر فرنسي. كان له دور أساسي في نقل العلوم في القرن السابع عشر إذ أدخل للمرّة الأولى خطابًا في المنهج وفي تحليل الوثائق وذلك في كتابه *De re diplomatica* (١٦٨١).

السبب كذلك تقول *اللوائح الاثنتي عشرة* «*mancipia*" للإشارة إلى الممتلكات العقاريّة، وكذلك الأشخاص المتوجّب عليهم دفع الضريبة للخزينة العامّة يُعرفون باسم *praedes* أو *mancipes*، ولا يزال الإسبان يستعملون عبارة *prende* للإشارة إلى إنجاز عظيم، معترفين ضمنيًا بأنّ أقدم الإنجازات كان هدفها الاستحواذ على الأراضي وتكريسها للزراعة. عند الإيطاليّين تعني كلمة *insegna* رسْمًا أو علامة، واشتقّوا منها فعل *insegnare* [درّس أو علّم]، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلمة *divisa*، لأنّ الشعارات والعلامات والرشوم ابتُدعت لتحديد حدود الأراضي التي هي على ملك أشخاص مختلفين. وهكذا فإنّ لفظة *termini*، أي حدود، من معناها الحقيقي كحدود لتلك الحقول، اتّخذت عند *المناطقة المدرسيّين* معنى حدّ دلالي، أي حدود القياس. ولا يزال الأمريكيّون يستعملون هذا النوع من الهيروغليفيّات لتميز العائلات ولتحديدها.

[§ ٤٨٧] بإمكاننا أن نستنتج من كلّ هذا أنّ الشعارات صلحت في البداية، حين كانت الأمم صامتة، كعلامات لتحديد الأراضي، ثمّ استُعمِلت لتميز الأمم عن بعضها البعض، واتّخذت اسم *medaglie* أو رايات، أثناء الحروب؛ لأنّها كانت تُستعمَل آنذاك كرايات عسكريّة أو صور شموليّة، يمكن بواسطتها للأمم المتحاربة والتي لها لغات مختلفة أن تتعرّف إحداها على الأخرى وأن تتواصل معها. ونلاحظ هنا، دعمًا لنظريّتنا، تماثل الأفكار لدى المصريّين والتوسكانيّين القدامى، والرومان والإنكليز، الذين جعلوا من صورة العقاب الذي يمسك بين مخالبه صولجانًا ذهبيًا *شعارات* لملوكهم. هذا *الهيروغليف* المشترك بين هذه الأمم التي كانت تفرق بينها مساحات شاسعة من الأراضي والبحار كان يعني لكلّ واحدة منها أنّ الممالك تستمدّ نشأتها من مملكة جوبيتر الإلهية الأولى. وحين بدأت التجارة نشأت ضرورة التعامل بالنقود، فتحوّلت الميداليات التي اعتُبرت ملائمة لهذا الاستعمال إلى نقود، سمّاها اللاتينيّون *monetae* من لفظة *monendo*، تمامًا مثلما اشتقّ الإيطاليون فعل *insegnare* من كلمة *insegna*. لذا، بحسب أرسطو يأتي «نوموس νόμος" من «νόμισμα، نوميسما»، وكذلك *nummus* غالبًا ما كُتب بحرف *m* واحد، والفرنسيّين يقولون *loi* للقانون، و*aloy* للنقود، و *ducat* مشتقّ من *ducendo* أو من حركة القائد الذي يقود جنوده إلى القتال، كما أنّ *soldato* جاء من *soldo*أي نقود، وأخيرًا فإنّ كلمة *écu* أو *bouclier* كانت تمثّل في البداية المنبع

الأوّل للشعارات أو لميداليات النبالة، التي كانت في السابق الأرض المستغلّة من طرف كلّ رئيس عائلة. من جميع هذه التماثلات نفهم أنّ الأشياء التي لها علاقة ما فيما بينها كانت ممثّلة في السابق بنفس *الهيروغليف*. وهو ما يسلّط الضوء على عدد كبير من الميداليات القديمة التي تمثّل أحيانًا *مذبحًا* أو *lituo*، العصا المستعملة في التنبؤات، أو *treppiedi* أي منضدة ثلاثيّة القوائم تُستعمل لتبليغ الغيب، ومنها جاءت مقولة *dictum ex tripode*، أي قول وسيط الوحي.

[§ ٤٨٨] كما نرى *الأجنحة* محفورة على هذه الميداليات، لأنّ الإغريق في أساطيرهم يربطونها دائمًا بشعارات الحقوق المؤسّسة على النذور، والتي تعود كذلك إلى الأبطال. وهكذا نجد صورة طائر في الهيروغليفيّات الواقعيّة التي أرسلها إيدانثيرسوس إلى داريوس، وأثناء النزاعات البطوليّة بين الأشراف والعامّة الرومان نجد أنّ الأوّلين أجابوا الأخيرين بقول A [أي أنّهم يملكون حقّ النذور]. كما نرى أخيرًا في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] أنّ شعارات الأشراف كانت مليئة بالخوذات والريش، بينما في الهند الغربيّة كان لا يُمكن لغير الأشراف استعمال الريش في شعاراتهم.

٤

[§ ٤٨٩] وهكذا، فإنّ ما سُمّي *Jous*، أي جوبيتر، واختُزل بـ *jus*، كان يشير في البداية إلى دهن الضحايا الذين يقدّمون قربانًا لجوبيتر، كما سبق أن ذكرنا ذلك[1]. وقيل أيضًا *jous optimus*، أو جوبيتر الأعظم؛ لأنّ السلطة الإلهيّة بمعناها العامّي الأوّل نشأت من قوّة الصاعقة التي رماها على الأرض، وكان البشر يشيرون بهذا القول إلى سلطة جوبيتر العليا فوق كلّ الأشياء. كما أنّه في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] عنت كلمة *canon* الشرائع الكنسيّة وما يدفعه المستأجر لمالك الأرض. ومن المحتمل أنّ إجارة الأرض وقع إرساؤها من طرف رجال الكنيسة الذين لم يكن بمقدورهم استغلال الأراضي بصفة مباشرة.

---

(١) § ٤٣٣.

[§ ٤٩٠] لذا فإنّ قول «كلّ الأشياء ممتلئة بجوبيتر»[١]، هو من قبيل الميتافيزيقا القياسيّة بخصوص كليّة حضور الربّ، والذي نُسب غلطًا إلى الميتافيزيقا الشعريّة. بمقتضاه وجد الجبابرة أنفسهم أصحاب السلطة على البشريّة، وهي سلطة مارسوها ومدّوها على كامل الأرض التي كانت في البداية ملكًا لهم. هذه السلطة، أو هذه الأرض أو المُلك، احتفظ في القانون الروماني باسم ***jus optimum*** ولكنّه تحوّل عن معناه الأوّل. فقد كانت عبارة ***jus optimum***، كما يقول شيشرون في خطاباته، تعني السلطة القارّة على الأملاك التي لا تتحمّل أيّ عبء عامّ أو خاصّ، سلطة تُسمّى ***optimum*** [سامية] لأنّها تستمدّ حقّها من القوّة، ولا يمكن أن يضعفها أيّ شيء. وهذا ما كانت عليه سلطة الآباء في نظام العشائر، وهذا ما كانت عليه لاحقا السلطة الطبيعيّة التي جاءت قبل السلطة المدنيّة. بعد ذلك تأسّست المدن على العشائر وعلى السلطة المدنيّة التي أطلق عليها اليونانيّون اسم "δίκαιονάριοτον"، واتّخذت شكلا أرستقراطيًّا وأعطاها اللاتينيّون اسم "*Respublicae optimatum*" أو جمهوريّات الأقليّة إذ كان يسوسها «القلّة الذين أحبّهم جوبيتر»[٢]. كما أنّ الأبطال، في نزاعاتهم البطوليّة مع العامّة، كانوا يؤكّدون حقوقهم البطوليّة بالاعتماد على النذور الإلهية التي كانت امتيازًا خاصّا بهم. في الأزمنة الصامتة كانوا يعبّرون عنها بطائر إيدانثيرسوس، وبأجنحة الأساطير الإغريقيّة، وأخيرًا عبّر عنها أشراف روما باللغة المنطوقة من خلال قول إنّهم «يملكون حقّ النذور» (*auspicia esse sua*).[٣]

[§ ٤٩١] وبالفعل، حين ضرب جوبيتر بالصاعقة الجبابرة الأوائل، وجعلهم يختبؤون داخل المغاور في سفوح الجبال، أعلنهم أسياد الأراضي التي اختبؤوا بها. وهكذا صاروا من بعد أسياد الجمهوريّات الأولى، وأطلقوا على أنفسهم عبارة *fieri fundus*، بدلا من *fieri auctor*. وفي وقت لاحق، جمّع أولئك الجبابرة سلطاتهم الفرديّة أو الخاصّة التي كانوا يمارسونها على عشائرهم، وشكّلوا بهذه الطريقة السلطة المدنيّة أو العموميّة لمجالس الشيوخ الحاكمة. وتأكيدًا لما نقوله ما تعبّر عنه الميدالية

---

(١) ورد باللاتينيّة: *Iovis omnia plena* ... (مذكور في § ٣٧٩).

(٢) ورد باللاتينية: *pauci quos aequus amavit Iupiter*. (مذكور في § ٣٨٩).

(٣) انظر §§ ١١٠، ٤٨٨.

التي غالبًا ما يذكرها غولتسيوس[1] بخصوص الجمهوريّات الإغريقيّة، والتي تمثّل ثلاثة أفخاذ رجال تلتئم في نقطة المركز وتستند لمحيط الدائرة بالأقدام. يمثّل هذا الهيروغليف الملكيّة الترابيّة لبلد ما أو مقاطعة في جمهوريّة ما، والذي يُسمّى اليوم *dominio eminente*" "[المُلك السامي] الذي كان في السابق يُمثّل بصورة كرة، أي بالهيروغليف المخصّص للإشارة إلى تيجان السلط المدنيّة. والعدد ثلاثة يعني القوّة العظيمة أو عظمة هذه السلطة، كما لا يزال يقول الفرنسيّون عند التشديد. وقد سُمّيت صاعقة جوبيتر "*triculum*"، لأنّها شقّت السّماء بقوّة. ولعلّ فكرة شقّ أو حرث كانت أوّلا للسّماء، ثمّ للأرض وأخيرًا للبحر. وسُمّي رمح نبتون *tridente* أي ثلاثيّ الأسنان، وصار المخطاف الثلاثيّ الأطراف المدبّبة والقويّة التي تُختطف بها المراكب، كما أنّ الكلب سيربير سُمّي "*trifauce*" أي ذو الثلاثة الأشداق، لضخامة فمه.

[§ ٤٩٢] كلّ ما قلناه لتوّنا حول شعارات النبالة ينبغي أن يُقرأ قبلًا فيما كتبناه في الطبعة الأولى[2] من هذا العمل بخصوص مبادئها، والتصويبات التي أتينا بها في هذه الفقرة تمثّل السبب الثالث والأخير الذي جعلنا نقدم على نشر هذه الطبعة الجديدة.[3]

٥

[§ ٤٩٣] تبعًا لكلّ ما ذكرناه، نقول إنّه كان على غروتيوس وسالدن وبوفّاندورف[4] أن يؤسّسوا نظريّاتهم بخصوص الحقّ الطبيعي للبشر، أوّلا على الحروف والشرائع التي أعطاها هرمس الهرامسة للمصريّين القدامى؛ وثانيًا على حروف وأسماء اليونانيّين؛ وثالثًا على الأسماء التي كان الرومان يطلقونها على حدّ سواء على الأمم وعلى مختلف أنواع الحقوق. وكان عليهم أن يدعموا نظريّاتهم بالهيروغليفيّات وبالأساطير وبالميداليات التي كانت مستعملة في فترة تشكّل الأمم. وأخيرًا، كان عليهم أن يكتشفوا وأن يأخذوا بعين الاعتبار عادات وتقاليد الأمم، بواسطة نقد ميتافيزيقي لصانعي هذه الأمم نفسها. هذا النقد الميتافيزيقي سيوفّر للنقد الفقهي الأضواء الضروريّة لاكتشاف الكتّاب الأوائل، الذين تعود نشأتهم، كما سبق قوله، إلى حوالي ألف سنة بعد تشكّل المجتمعات.

---

(١) Goltzius هو الإسم اللاتيني لـ Hendrik Goltz [١٥٥٨-١٦١٧] رسّام هولندي.

(٢) فيكو، *الأعمال*، طبعة باتيستيني (١٧٢٥).

(٣) §§ ٤٤٥، ٤٥٢.

(٤) جاء ذكرهم في §§ ٣٩٤-٣٩٧.

[الباب السابع]

استنتاجات أخيرة بخصوص منطق المتعلّمين

١

[§ ٤٩٤] إنّ ما درسناه حتّى الآن بخصوص المنطق الشعري وأصل اللغات يفسّر لماذا اعتُبر مبتدعوها الأوائل على مرّ الزمن حكماء، وذلك لأنّهم أعطوا للأشياء أسماءها بصفة طبيعيّة وخصوصيّة. ولذا بالنسبة إلى اليونانيّين واللاتينيّين كانت لفظتا *nomen* [اسم] و*natura* [طبيعة]، تعنيان الشيء نفسه.

٢

[§ ٤٩٥] إنّ مؤسّسي البشريّة الأوائل اعتمدوا على ملاحظة الأشياء الحسيّة ومنها شكّلوا الأجناس الشعريّة مجمّعين الخاصيّات المميّزة والعلاقات الملموسة للأنواع أو للأفراد.

٣

[§ ٤٩٦] لذا فإنّ هذا العصر الأوّل للعالم كان العصر الذي تطوّرت فيه العمليّة الأولى للعقل البشري.

٤

[§ ٤٩٧] كلّما زاد اهتمام الفكر البشري بموضع الأشياء التي يريد معرفتها وبتحديد خاصيّاتها فقد أكثر من خشونته الأوّليّة.

٥

[§ ٤٩٨] استعملت العناية الإلهيّة كلّ حكمتها عندما أيقظت في الفكر البشري قدرة الملاحظة أوّلا ومن بعدها قدرة النقد، إذ ينبغي أوّلا معرفة الأشياء قبل الحكم عليها.

فالملاحظة تجعل الفكر حاذقًا وثاقبًا، والنقد يجعله دقيقًا. الآن، في الفترة التي كان البشر يبحثون فيها عن الأشياء الضروريّة للحياة، ما كان يلزمهم أكثر من الدقّة هو الحذق والنباهة. وما هو مؤكّد أنّه ليس فقط الأشياء الضروريّة، بل وأيضًا تلك النافعة أو الكماليّة، كانت معروفة في اليونان قبل نشأة الفلسفة. فالأطفال يبرعون في فنّ المحاكاة. وليس الشعر إلّا محاكاة، مثلما أنّ الفنون هي محاكاة للطبيعة أو هي شعر في حركة؛ لذا فإنّ الشعوب الأولى الذين هم مثل أطفال الجنس البشريّ، أسّسوا أوّلا عالم الفنون، أي أنّهم أدخلوا الفنون في العالم. والفلاسفة، بدورهم، الذين هم شيوخ الأمم، أسّسوا عالم العلوم، أي أنّهم حاولوا تشكيل المجتمع بالاعتماد على نور العلم. بهذه الطريقة اكتملت الحضارة.

٦

[§ ٤٩٩] يؤكّد لنا تاريخ الفلسفة بصفة رائعة هذا التمشي للأفكار الإنسانيّة. فنحن نرى البشر يتقبّلون في البداية المبدأ الفلسفي المسمّى "αὐτοψία" أو بداهة الأحاسيس. وقد جعل منها أبيقور أساس فلسفته؛ لأنّه باعتباره فيلسوفًا حسيًّا، كان عليه أن يكتفي بعرض الأشياء حسب بداهة الأحاسيس. وحين تناولنا *نشأة الشعر*[١]، رأينا كم كانت الأحاسيس لدى الأمم الشعريّة الأولى قويّة وحيويّة. بعد ذلك جاء إيسوب، أي بعبارة أخرى، جاء الفلاسفة الأخلاقيّون الذي يمكننا نعتهم *بالعاميّين*. وقد جاء إيسوب بعد أبيقور، مثلما ذكرنا سابقًا[٢]، وسبق مجيئه حكماء اليونان السبعة. وكان يعتمد في أفكاره على مقابلات يستمدّها من مواضيع مفترضة، كما كان جاريًا آنذاك، أي في العصر الشعري. وكنّا قد رأينا التأثير في نفوس الرومان الذي أحدثته الخرافة الحكميّة لمينينيوس أغريبّا[٣]؛ وحتى في زمننا الحاضر، من الأيسر التأثير على الشعب بواسطة المثل أكثر منه بواسطة أفضل النظريّات المجرّدة. وسقراط، الذي جاء بعد إيسوب، أدخل الجدليّة التي تتوصّل إلى معرفة شيء مشكوك فيه من خلال استقراء شيء ثابت، له مع الأوّل علاقة ما أو شبه ما. وقد أنتج الاستقراءَ أبقراط، أمير الأطبّاء سواء لجدارته العظيمة أو لِقدمه

---

(١) § ٣٧٥ وما يتبع.

(٢) § ٤٢٤-٤٢٦.

(٣) اسمه اللاتيني أغريبّا مينينيوس لتانوس [توفّي سنة ٤٩٣ ق.م] من أشراف روما القديمة في عهد الجمهوريّة الرومانية. كان قنصلا في سنة ٥٠٣ ق.م.

في الزمن، أبقراط الذي كانوا يقولون عنه *إنّه لا يخدع أحدًا ولا يخدعه أحد*[1]. ونرى في كتاب تيميو لأفلاطون أنّه بفضل منهج التوليف سارت مدرسة فيثاغورس الإيطالية شوطًا كبيرًا في علم الرياضيّات. وفي زمن سقراط وأفلاطون كانت أثينا تشعّ بكلّ الفنون التي يزدان بها الفكر الإنساني: كانت مميّزة في الشعر والخطابة والتاريخ والموسيقى والتعدين والرسم والنحت والهندسة المعماريّة. ثمّ جاء أرسطو بمنهج القياس، وهو منهج يفسّر الشامل بالخاصّ أكثر ممّا يجمع الخصوصيّات ليشكّل منها العموميّات. ثم جاء زينون بالقياس المُتسلسل وهو منهج شبيه بمنهج الفلاسفة الحديثين، والذي يرهف الفكر أكثر ممّا يعمقّه. وهذان الفيلسوفان لم يأتيا بأيّ فضل حقيقي للجنس البشري، وكان بيكون فيرولاموس على صواب حين امتدح في كتابه *Novum Organum* منهجَ الاستقراء. وقد طبق الإنكليز من بعده هذا المنهج في الفلسفة التجريبيّة.

٧

[§ ٥٠٠] إنّ تاريخ الفكر البشري كما تصوّرناه يقلب أنظمة أولئك المعجبين المتحمّسين للعلوم القديمة، الذين زعموا أنّ المشرّعين الأثينيّين والإسبرطيّين والرومان، أي تيسيوس وليكورجس ورومُولوس، كانوا مؤلّفي بعض الشرائع العامّة أو بعض المبادئ القانونيّة الشاملة. والحال أنّ هؤلاء المشرّعين لم يفعلوا شيئا سوى أنّهم وجّهوا إلى رعاياهم أوامر خصوصيّة، لم تصبح بحقّ قوانين إلاّ بصفة تدريجيّة، ومن خلال تطبيقها على الذين كانت وضعيّاتهم شبيهة بوضعيّة الرعايا الأوائل. لذا فمن المؤكّد أنّ هؤلاء الشعوب الأوائل كانوا غير قادرين على تصوّر أفكار شموليّة. ومن ناحية أخرى، فإنّ هذه الشرائع لم تنشأ إلّا عندما حتّم أمر ما نشأتها. وهكذا فإنّ قانون توليوس هوستيليوس ضدّ هوراثيوس لم يكن إلّا العقوبة المسلّطة على هذا المجرم الكبير من قِبل *الدومفير*[2] اللذين نصّبهما الملك للغرض. وقد سمّى تيتوس ليفيوس هذا القانون *قانونًا رهيب الصيغة*[3]، بحيث إنّه يمكننا ضمّه إلى القوانين التي كتبها

---

(١) ورد باللاتينيّة: *nec fallit quenquam, nec falsus ab ullo est*

(٢) في روما القديمة محكمة ثنائيّة متكوّنة من قاضيَيْن [*Duo*] للنظر في قضايا خصوصيّة وهي في الغالب وقتيّة.

(٣) ورد باللاتينية: *lex horrendi carminis*، عند تاسيتوس، في *التاريخ الروماني*، I، ٢٦، ٦.

دراكـون بالـدّم، والتي تسـمّيها الكتابات المقدّسـة "*leges sanguinis*" [شـرائع الدم]. ويبـدو لنـا التفسـير الذي أعطاه تيتـوس ليفيوس لهذه الفتـرة من التاريـخ الروماني منافيًا للعقـل وسـخيفًا. فقـد افترض هذا المؤرّخ أنّ الملك لم يـرد المصادقة على هذا القانون القاسـي والمسـيء للشـعب، بينمـا كان يملـي بنفسـه علـى *الدومفيـر* نـصّ الحكم على هوراثيـوس، ويمنـع أعضـاءه من الحكـم بالبراءة، في حـال أنّهم قرّروا اعتبـاره بريئًا ممّا نُسـب إليـه. إنّ روايـة تيتـوس ليفيوس منافيـة للعقل، لأنّه لـم يفهم هو نفسـه أنّ الملوك القدامى لم يكن لهم في مجالس الشـيوخ هذه البطوليّة أو الأرسـتقراطيّة من سـلطة غير تنصيـب *دومفيـرات* يبتّـون بصفتهـم مأموريـن في القضايـا العامّـة، وأنّ شـعوب المدن البطوليّة كانوا كلّهم من الأشراف، يلجأ إليهم المتّهمون في القضايا.

[§ ٥٠١] نحن نضع قانون تولّيوس هوسـتيليوس من بين ما يسـمّى بـ *exempla* أو بالعقوبة المثاليّة، التي نتعلّم منها ماذا كانت الأمثلة الأولى التي جاء بها الفكر البشـري. ولعـلّ أرسـطو كان يشـير إلى هذه الحقيقـة عندما قال إنّ الجمهوريّـات البطوليّة لم تكن لديها قوانين لمعاقبة الجرائم الخاصّة. والأمثلة العقلانيّة التي يستعملها المنطق والخطابة جاءت بعد هذه الأمثلة الأولى الواقعيّة. لاحقًا، عندما تطلّع البشر إلى الأفكار الشموليّة، اعترفـوا أنّ صفة الشـموليّة جوهريّة وضروريّة للقوانين، ومنها اسـتخلصوا هذه الحكمة التشريعيّة: يجب *الحكم* بحسب *القانون وليس* بحسب *الأمثلة*[1].

---

(١) ورد باللاتينية: *Legibus non exemplis est judicandum*

[القسم الثالث]

[الأخلاق الشعريّة]

[باب وحيد]
في الأخلاق الشعريّة وفي أصل الفضائل العاميّة التي يلقّنها الدين من خلال الزواج

[§ ٥٠٢] أنهت ميتافيزيقا الفلاسفة مهمّتها الأولى بواسطة فكرة الربّ، فأنارت الفكر البشري وسلّحته بالمنطق، الذي بجدليّة مستنيرة وبترتيب واضح للأفكار، نزل من عقل الإنسان إلى قلبه وأسكن فيه الأخلاق. وقد كان لميتافيزيقا الشعراء الجبابرة نتائج مشابهة في نفوس البشر. إذ أنّهم في نكرانهم لوجود الربّ حاربوا السّماء دون خشية، فأنزل عليهم جوبيتر الصاعقة ودحرهم، ولم يضرب فحسب أجسادهم، بل وأيضًا عقولهم، وعلّمهم أن يخشوا جبروته. صحيح أنّ الرعب لم يجعل منهم عقلاء، ولكنّه أحدث في حواسّهم انطباعًا حقيقيًا في الشكل، ولكنّه زائف في الجوهر، والذي باستعمال منطق مناسب لمثل تلك الطبائع، أنشأ الأخلاق الشعريّة، وجعل من أولئك البشر أناسًا أتقياء يخافون الربّ. ونحن نرى في هذا تأكيدًا لناموس طبيعيّ وسرمديّ يجعل غرور الفكر يحمل الإنسان على الإلحاد، ولن يتمكن الإنسان من إتقان استعمال معرفة الإله إلّا بشرط الخضوع والمذلّة؛ ذلك أنّ الملحدين يصبحون جبابرة بالفكر ويقولون مع هوراثيوس: *في جنوننا نريد مهاجمة السّماء نفسها*[١].

[§ ٥٠٣] يبدو لنا أنّ أفلاطون يعتبر بوليفيموس الهوميري واحدا من أولئك الجبابرة الذين جعلهم الرعب أتقياء، وبالتفكير فيما يرويه بوليفيموس نفسه من أنّه عاش طويلا مع وسيط وحيٍ تنبّه لما سيعانيه على يد أوليس، فإنّه لا يمكننا إلّا أن نوافق أفلاطون في

(١) ورد باللاتينية: *Caelum ipsum petimus ſtultitiâ.*

رأيه، لأنّ وسيط وحي لا يمكنه أن يعيش بين ملحدين يؤمنون بتنبؤاته. لذا فإنّ الأخلاق الشعريّة بدأت حسب رأينا بالتقوى التي أوكلت لها العناية الإلهيّة مهمّة تأسيس الأمم. وبالفعل، فإنّنا لا نجد أيّ واحدة منها لم تكن لديها التقوى أمّ جميع الفضائل الأخلاقيّة والاقتصاديّة والمدنيّة؛ ذلك لأنّ الدين وحده يجعلنا نعمل بفضيلة، بينما لا تعلّمنا الفلسفة سوى التفكير بعقلانيّة. وقد بدأت التقوى مع الدين، وكانت في البداية هي الخشية من الإله. والدين يُسمّى بالإيطاليّة "*religione*" وهو اسم ينحدر من "*religando*"، أي من السلاسل التي كان الماردان تيتيوس وبوليفيموس موثوقَيْن بها إلى الصخور بينما كان العقاب (رمز ديانة جوبيتر الرهيبة) يلتهم قلبيْهما وأحشاءهما. ولا تزال العادة عند كلّ الشعوب أن تغرس التقوى في قلوب الأطفال بتعليمهم الخشية من الإله.

[§ ٥٠٤] وقد بدأت الفضيلة الأخلاقيّة كما يجب لها أن تبدأ بالكثير من الجهد [*conato*][١]. إذ أنّ الجبابرة لم ينغلقوا بسهولة على أنفسهم داخل كهوف الجبال، ولم يفرضوا على أنفسهم دون شقاء أن يكبحوا أهواءهم العنيفة والشرسة التي كانت تجعلهم يجوبون غابة الأرض الكثيفة مثل الوحوش الضارية. إلّا أنّهم عندما مكثوا طويلا مختبئين في تلك المغارات دون الابتعاد عنها صارت عاداتهم عكس ما كانت عليه، وسرعان ما أصبحوا مؤسسي الأمم وأسياد الجمهوريّات الأولى، كما ذكرنا ذلك سابقًا وكما سنعود من بعد للحديث عنه مطوّلا[٢]. ونحن مدينون للرواية العاميّة التي تخبرنا بالخير الذي فعلته السّماء للجنس البشري حين سادت على الأرض بواسطة ديانة النذور، وكيف أنّ البشر اعترافًا منهم بالجميل أسندوا لجوبيتر لقب "*Statore*" أي «ذاك الذي يوقف»، كما سبق قوله[٣]. كما أنّ فضائل النفس لم تتطوّر دون عناء لدى أولئك الجبابرة الذين أرغمهم الرعب الشديد الذي امتلكهم من غضب السّماء عليهم فامتنعوا عن ممارسة شهواتهم الحيوانيّة الجامحة علنًا، فحمل كلّ منهم إلى مغارته امرأة، واحتفظ بها إلى جانبه وجعل منها رفيقة حياته، وعاشرها في الخفاء بعيدًا عن الأنظار،

---

(١) انظر §§ ٣٤٠، ٣٨٨.

(٢) §§ ٣٨٧ وما يتبع؛ ٥٥٣ وما يتبع.

(٣) § ٣٧٩.

أي بحياء. وقد قال سقراط عن الحياء إنّه لون العفّة، وهو إلى جانب الدين يمثّل الرابط الآخر الذي يحتفظ بالأمم متماسكة، ذلك أنّ الجموح والقسوة هما اللذان يتسبّبان بخرابها.

[§ ٥٠٥] بهذه الصفة نشأ الزواج الذي يمكن تعريفه بأنّه علاقة جسديّة في كنف العفّة والخشية من الإله. وقد سبق أن بينّا أنّ الزواج يمثّل المبدأ الثاني لهذا *العِلم*[1]، وهو ينحدر من المبدأ الأوّل الذي هو العناية الإلهية. واعتمد الزواج على ثلاثة مراسم:

[§ ٥٠٦] الأوّل هو أنّه تحت رعاية جوبيتر. وهي عادة استمدّ منها الرومان هذا التعريف للزواج: "*omnis vitae consortium*" [مشاطرة مصير مشترك طيلة الحياة]، لذا يُقال عن الزوج والزوجة إنّهما "*consortes*"، أي جمعهما القدر أو المكتوب ولا يزال قول "*prendere sorte*" دارجًا للإشارة إلى فتاة تتزوّج. وفي شرائع الإغريق تقرّر أنّ الزوجة تتّخذ ديانة زوجها، وليس هذا إلّا اعترافًا رسميًّا بما سبق أن حدّدته التقاليد، إذ أنّ الرجال سارعوا بالكشف للمرأة التي يعيشون معها عن أسباب لجوئهم إلى المغارات والاختباء بها، أي صارحوها بمتصوّرهم الأوّل للألوهيّة. وكان بهذه الطريقة أن تصوّر العقل الإنساني من خلال فكرة الربّ مبادئ الميتافيزيقا العاميّة. من هذه المرحلة الأولى من الحضارة الإنسانيّة بدأت عادة حمد الآلهة، بالمعنى الذي كان القانون الروماني القديم ينسبه لفعل "*lodare*"، أي الدعاء لها، وذكرها بأسمائها، ومنها بقيت عبارة "*laudare auctores*"، أي أنّ على البشر أن يذكروا الآلهة باعتبارها المسؤولة عن كلّ ما يفعلونه. هذا هو معنى الحمد الذي يتوجّب على الإنسان أن يتوجّه به للآلهة.

[§ ٥٠٧] من هذه البداية القديمة جدّاً لمؤسّسة الزواج درجت العادة أن تدخل المرأة في عائلة وفي بيت الرجل الذي تتزوّجه، ويفسّر هذا كون الرومان كانوا يعتبرون أنّ الزوجات هنّ بنات الأزواج وأخوات أبنائهم. ويظهر لنا مثال الرومان أنّ الرجال الأوائل كانوا يقنعون بامرأة واحدة. ويشيد تاسيتوس بهذه العادة لدى الجرمان القدامى الذين كانوا على غرار الرومان، حافظوا على عادات أجدادهم القديمة، ولا يتّخذون لأنفسهم

---

(١) § ٣٣٣.

سوى زوجة واحدة، ممّا يجعلنا نعتقد أنّ تعدّد الزوجات كان شيئًا غريبًا عن عادات جميع الشعوب القديمة. ولا يفكّ رباط الزواج إلّا الموت، كما يتّضح من التعريف الروماني للزواج: "*individua vitae consuetudo*" [علاقة حياة غير قابلة للفصل]. أمّا الطلاق فهو نسبيًّا حديث العهد.

[§ ٥٠٨] تنسب الأساطير الإغريقيّة لصواعق جوبيتر نتائج عجيبة. من ذلك أنّ هرقل، هذا الرمز الشعري لمؤسّسي الأمم، نشأ من *ألكميني*[١] بفعل صاعقة جيوبيتر. كما أنّ باخوس، هذا البطل الإغريقي العظيم، نشأ من *سيميلي*[٢] التي ضربتها الصاعقة؛ ولهذا السّبب اعتبر الأبطال أنفسَهم أبناءَ جوبيتر، وهو زعمٌ يقوم على صدق المعنى، وعلى الاعتقاد بأنّ الآلهة هي فاعلة كلّ شيء. وهذا بالفعل ما نقرأه في التاريخ الروماني، من أنّه خلال النزاعات البطوليّة بين الأشراف والعامّة، كان الأوّلون يقولون للعامّة إنّهم يملكون حقّ النذور: "*auspicia esse sua*"، فكان العامّة يجيبونهم بأنّهم لم يسقطوا من السّماء "*non esse caelo demissos*"، وهو جواب غير معقول إن كانوا يريدون قول إنّ الأشراف ليسوا بالأبطال. حين قيل إنّ القِران "*connubium*"، أي حقّ عقد الزواج رسميًّا برعاية جوبيتر، لا يحقّ إلّا للأبطال "*Eroi*"، وقع تمثيل الحبّ النبيل أو *إيروس* (الذي جاءت منه كلمة *eroe*) بجناحيْن وبعصابة على عينيْه، أي حرّاً وعفيفًا. و*إيمينيو* أيضًا كان مجنّحًا، وكانت أمّه *أورانيا*، المسمّاة "Οὐρανία" أي المتأمّلة في السّماء، للإشارة إلى أنّه لا يجب عقد الزواج دون مشورة السّماء. و*أورانيا*، كبرى شقيقاتها التسع، التي قال عنها هوميروس، كما ذكرنا سابقًا[٣]، إنّها تمثّل *عِلم الخير والشرّ*، كانت هي الأخرى مجنّحة، لأنّها تنتمي للأبطال. وقد سبق أن رأينا حين فسّرنا المعنى التاريخي للقول: «*من جوبيتر نشأت إلاهات الإلهام*»[٤]، أنّها كانت تُعتبَر، مع أخواتها، بنات جوبيتر؛ لأنّ الفنون التي يعيش وسطها المجتمع البشريّ، متأتّية من الدين. فإنّ *أبولّو*، ربّ الفنون، كان في الآن نفسه ربّ العرافة.

---

(١) الكميني Ἀλκμήνη في الأساطير الإغريقية هي أم هرقل.

(٢) سيميلي Σεμέλη ابنة قدموس وأم باخوس. واسمها يعني المرتعدة.

(٣) § ٣٦٥.

(٤) ورد بالاتينية: *A Iove principium musae*، انظر § ٣٩١.

[§ ٥٠٩] والطقس الاحتفالي الثاني الـذي اعتُمد في الزواج هو أن تتحجّب المرأة، تذكيرًا بالحياء السعيد الذي صاحب القرانات العموميّة الأولى. وقد ترسّخت هذه العادة عنـد جميـع الأمم، ممّـا جعـل اللاتينيّيـن يقولـون "*nuptiae a nubendo*"، الذي يعني غطّـى. وفي فتـرة عودة البربريّة [القرون الوسـطى]، كان يُقال للفتيـات غير المتزوّجات «*مُسدَلات الشعر*» أو «*عاريات الرأس*» في مقابل النساء المحجّبات.

[§ ٥١٠] والطقـس الاحتفالـي الثالـث، الـذي احتفـظ بـه الرومان، هو أن يسـتحوذ الرجل على الزوجة بنوع من العنف الشكلي يذكّر بالعنف الذي حمل به الجبابرةُ الأوائل النسـاءَ إلـى مغاورهم. وبالفعل، بعد أن اسـتُعملت عبـارة "*manucaptae*" [مُلك اليد] للإشارة إلى الأراضي الأولى التي استحوذ عليها الجبابرة، صارت تُستعمل للإشارة إلى النساء اللاتي يتزوّجن بالمراسم الاحتفاليّة.

[§ ٥١١] وإذ اقتنـع الشـعراء اللاهوتيّـون أنّ الزيجـات الاحتفاليّة هـي النتيجة الثانية المسـتمَدّة مـن فكرة الإلـه، جعلوا من جونو زوجةَ وأختَ جوبيتـر، ثاني كبار الآلهة بعد جوبيتر، أي كبيرة الربّات بالنسبة إلى أشراف القوم. هذه الصفة المزدوجة المنسوبة إلى جونو، من أنّها زوجة جوبيتر وأخته، تحملنا على الاعتقاد بأنّ الزيجات الأولى الرسميّة أو الصحيحـة، والتـي سُـمّيت كذلـك لأنّها تمّـت تحت رعايـة جوبيتر، كانـت بين الأخ والأخت. وقد سُمّيت جونو ملكة الآلهة والبشر، لأنّ الممالك نشأت من التزوّج الشرعي الذي كان يتمّ تحت رعاية جونو. لذا نرى جونو ممثّلة في الميداليات والنحوت مستورة بأثوابها إشارة إلى أنّها رمز الحياء.

[§ ٥١٢] وللسبب نفسه فإنّ فينوس البطوليّة، المسمّاة «*Pronuba*»[١]، باعتبارها هي الأخرى راعية الزواج الشرعي، نراها تغطّي عورتها بحزام. ولم يتورّع الشعراء المخنّثون عـن تشـويه هذه الصـورة الجميلـة والعفيفة بشـتّى ألوان الشـهوانيّة. وقد تحلّـل المعنى السـامي للرعايـة الإلهيّـة فـي هذه الفتـرة، إذ نرى مـن افتـرض أنّ جوبيتر حـطّ من قدره ليجامع بنات الأرض، وأن فينوس كانت لا تزدري معاشـرة البشـر. وهكذا، فإنّ إينياس نجل أنشيسيس الذي جاء إلى الدنيا تحت رعاية الإلهة فينوس أو أفروديت لدى الإغريق،

(١) كلمة لاتينية نعني «التي تصاحب الزوجة وتحرسها» وقد لُقّبت بها الإلهة جونو.

اعتُبر ابن هذه الإلهة. إلى فينوس وأبولّو تُنسب طيور التمّ التي يسمّى شدوها "*canere*" أي يتنبّأ، والتي تعطي شكلها لجوبيتر الذي أغوى به ليدا[١]. وهذا يعني فحسب أنّ ليدا تزوّجت تحت رعاية جوبيتر وأنجبت كاستور، بولّوكس وهيلينا.

[§ ٥١٣] وقد سُمّيت جونو هذه "*jugalis*" أي ذات النير، ومنه لفظ "*giogo*" الإيطالي الذي يعني النير، لأنّها تفرض النيْر[٢] بحمايتها للزواج، ومنه جاءت لفظة "*coniugium*" بمعنى الزواج و"*coniuges*" بمعنى الزوج والزوجة. وتُسمّى أيضًا "*Lucina*"[٣] لأنّها تعطي النور للأبناء إذ تحمي ولادتهم. وهذا النور الذي يفتحون عليه أعينهم ليس مع ذلك النور الطبيعيّ الذي تتفتّح عليه سواء أعين العبيد أو أعين الأسياد، بل هو النور المدنيّ الذي يُعطي للأشراف لقب الفخامة. وجونو غيورة، ولكنّها غيرة سياسيّة جعلت الأشراف الرومان طيلة ثلاثمئة وتسع سنوات يحْرِمون عامّة الشعب من حقّ القران الشرعي. وقد أعطى الإغريق لجونو اسم "Ἥρα"، هيرا» الذي قد يكون جاء منه لقب *أبطال*، لأنّهم نشأوا من زواج شرعي، كان تحت رعاية جونو. ولفظة "Ἔρως"، *أيروس أو هيروس*» تعني بالفعل حبًّا نبيلاً أو "*Imeneo*". وقد سُمّي الأبطال بهذه اللفظة لأنّهم كانوا أسياد الأسَر، في مقابل الخدم الذين كانوا عبيدًا. وسمّى اللاتينيّون الأبطال "*heri*"، ومنه جاءت كلمة "*hereditas*" أي الميراث، والتي كانت في بدايات اللغة اللاتينيّة تعني أسرة، والتي اتّخذت فيما بعد معنى السلطة الإستبداديّة. وبالفعل، فإنّ قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* يعترف لآباء الأُسَر بحقّ سياديّ، أو بحقّ التصرّف في أملاكهم عن طريق وصيّة: «*ما يرتّبه أب الأسرة بموجب وصيّة بخصوص أمواله وحفظ ممتلكاته يكون بمثابة القانون*»[٤]، وقد سُمّي حقّ الوصي "*legare*" وهو حقّ يبدو خاصًّا بمن يملك سيادة لأنّ الوريث يجد نفسه موصى له، ويمثّل من حيث الميراث رئيس أسرة المتوفّى. والأبناء والعبيد يشملهم قول "*rei suae*" أي ممتلكاته، و"*pecuniae suae*" أي أمواله. وهذا يفسّر السلطة الملكيّة التي مارسها الآباء على

---

(١) ليدا Λήδα أميرة يونانية من منطقة أيتوليا أصبحت ملكة إسبرطة.

(٢) النير وباليونانية القديمة ζυγόν زيغون وهو يرمز للاقتران

(٣) من اللفظة الإيطالية *luce* التي تعني النور أو الضوء.

(٤) ورد باللاتينية: *Uti paterfamilias super pecuniae tutelaeve rei suae legavit, ita ius esto*

عائلاتهم في حالة الطبيعة، والتي لم تحرمهم منها الدولة الأرستقراطيّة في عصر المدن البطوليّة، بما أنّنا نجدهم يناضلون للحفاظ عليها حتّى عندما تحوّلت الجمهوريّات من أرستقراطيّة إلى شعبيّة. وسنعود لاحقًا إلى كلّ هذا بأكثر تفصيل[1].

[§ ٥١٤] فرضت جونو أعمالا عظيمة على هرقل الطيبي، أي الهرقل اليوناني، إذ أنّه كان لكلّ أمّة هرقلها المؤسّس، كما سبق أن ذكرنا ذلك في المسلّمات[2]. أمرته أن ينجز أعمالا خارقة، وهذا يعني أنّ الورع والطاعة تجاه الآلهة، الذي كان الزواج نتيجتهما، هي المدرسة التي يتعلّم فيها المرء مبادئ جميع الفضائل الكبرى، والتي أنجزها هرقل بواسطة حماية جوبيتر الذي كان قد وُلد تحت رعايته. لذا سُمّي هرقل "Ηρα" أو "κλέος"، أي مجد هيرا أو جونو، وإذا فهمنا كلمة مجد كما شرحه شيشرون بأنّه الصيت المستحق عن جدارة من طرف الجنس البشري، فإنّ هرقل استحقّ هذا المجد لأنّه بأعماله أسّس الأمم. ولكن الأزمنة غلّفت بالعتمة هذه الدلالات الصارمة، وجعلت العادات مميّعة ومنحلّة، فإذا بعُقر جونو وغيرتها من خيانات جوبيتر لها، ونغولة هرقل، كلّ هذه الرموز وأخرى غيرها اتّخذت تأويلات مباشرة وطبيعيّة. فهرقل الذي أنجز أعماله برعاية جوبيتر ورغم أنف جونو وكرهها له، صار بالنسبة إلى هذه الإلهة مصدر خزي لهذه الإلهة، التي اعتُبرت مذّاك أكبر عدوّة للفضيلة. وقد احتار الميثولوجيّون في تفسير الهيروغليف أو خرافة جونو المشنوقة بأمر من جوبيتر، وهي خرافة فيها إشارة إلى قداسة الزواج. فقد عُلّقت الإلهة في الهواء، ممّا يعني أنّ الزواج لا يمكن أن يتمّ من دون احترام نذور السّماء، ولهذا السّبب كانت إيريس إلى جانبها هي الرسولة، والطاووس الذي يشبه ذيله قوس قزح كان الطائر المفضّل لديها. وكان في رقبتها حبل، إشارة إلى العنف الذي مارسه الجبابرة على النساء الأوائل. وكانت يداها موثوقتيْن بحبل، تحوّل من بعد لدى جميع الأمم إلى خاتم الزواج، كشاهد على طاعة الزوجة لزوجها. وفي قدميها حجران كبيران يدلّان على ثبات الزواج، الذي كان فرجيل يسمّيه فعلا "*conjugium stabile*"، أي القران الدائم.

---

(١) § ٥٢٠-٦٧٨.

(٢) § ١٩٦.

[§ ٥١٥] لهذه الأسباب بالذات، فسّر أفلاطون الخرافات اليونانية كما فسّر مانيتون الكتابات الهيروغليفيّة المصريّة، ملاحظًا من ناحية عدم توافق مثل تلك العادات مع الآلهة، ومن ناحية أخرى توافق الخرافات مع أفكاره الخاصّة. فقد كان الإله جوبيتر حسب قول الشعراء اللاهوتيّين لا يعلو على الأرض أكثر من قمم الجبال ومن المنطقة التي تتكوّن فيها الصواعق، بينما بالنسبة إليه هو الأثير الذي يسري ويملأ كلّ شيء، كما جاء في قول إنّ «*كلّ الأشياء ممتلئة بجيوبيتر*» (*Iovis omnia plena* ...) الذي سبق لنا ذكره[1]. أمّا بخصوص أسطورة جونو فقد أقحم فيها أفلاطون فكرة الهواء القابل للتنفّس. إلّا أنّ جونو لا تنجب من جوبيتر. بينما جماع الهواء بالأثير ينتج كلّ شيء: هكذا فهم الشعراء اللاهوتيّون ذلك القول لجهلهم بالحقيقة الفيزيائيّة التي تقول إنّ الكون يمتلئ بالأثير وبالحقيقة الميتافيزيقيّة من أنّ الربّ يملأ كلّ شيء! وقد أسّس أفلاطون نظريّته البطوليّة الفلسفيّة على البطوليّة الشعريّة، إذ يقول إنّ البطل يعلو على الإنسان بقدر ما يعلو الإنسان على الحيوان. فالحيوان أسير غرائزه، بينما الإنسان يقاومها والبطل يستمتع بالتفوّق عليها، ممّا يجعل الطبيعة البطوليّة في منزلة وسطى بين الطبيعة البشريّة والطبيعة الإلهية. ولا يرفض أفلاطون الحبّ النبيل الذي يمثّله الشعراء مجنّحًا ومحجّب العينيْن، والذي يسمّى باليونانيّة "Ἔρως"، *إيروس*» من المصدر نفسه للفظة "ἥρως" التي تعني البطل، ولا أيضًا الحبّ العامّي دون أجنحة ودون حجاب. فهو يرى في الأوّل الحبّ الإلهي الذي يزدري كلّ ما يتعلّق بالحواسّ، وفي الثاني الحبّ الحيواني ذاك الذي لا ينشغل إلّا بالحواسّ. الأوّل يتعالى بالأجنحة إلى تأمّل كلّ ما هو فكري، والثاني، من دون إسعاف الفكر، يبقى مغمورًا بالأشياء الحسيّة. كما أنّ أفلاطون أخذ تحت حمايته غانيميد[2] الذي خطفه نحو السّماء عقاب جوبيتر، والذي كان الشعراء اللاهوتيّون لا يرون فيه غير المتأمّل في فأل جوبيتر، بينما جعل منه فساد الأزمنة اللاحقة موضوعًا دنيئًا لرذائل جوبيتر الشهوانيّة، وأفلاطون، بطريقة صحيحة تمامًا، رأى فيه [غانيميد] المتأمّل في الميتافيزيقا، والذي بواسطة التأمّل في الكائن السامي اتّحد مع جوبيتر، بالطريقة التي كان أفلاطون يسمّيها «بالمُوحّدة».

---

(١) § ٣٧٩، ٤٩٠.

(٢) كان غانيميد أو Γανυμήδης غانيمدس باليونانية فتآ طروادیا بالغ الجمال فتن به زيوس فأمر عقابا أن يخطفه ويجلبه إليه على قمة جبل الأولمب حيث جعله ساقيا له.

[§ ٥١٦] هكـذا علّـم الـورعُ والديـنُ البشـرَ الأوائـل أن يكونوا حذريـن وأن يلتزموا بنـذور جوبيتر، وجعلا الإنسـان أكثـر عدلا نحو جوبيتر أوّلا الذي أعطى اسـمه للعدالة، ونحـو البشـر بتعليمـه ألاّ يتدخّـل في شـؤون الآخرين. وبالفعـل نـرى بوليفيموس وهو يحـدّث أوليـس عن الجبابـرة الذين يسـكنون مغاور صقليّـة، يمثّلهم غير آبهين بشـؤون جيرانهـم. إلّا أنّ هـذه العدالـة الظاهريّـة ليسـت إلّا نتيجـة لامبـالاة شرسـة. جعل الورع والديـن البشـر أكثـر اعتدالاً، وحملا الإنسـان على الاكتفـاء بامرأة واحدة مـدى الحياة. والقـوّة والكدّ والحِلم التي أشـعّت بأنوارها علـى العصر الذهبيّ، كانت هي الأخرى من هبـات الـورع والديـن. ولا نعنـي بالعصـر الذهبـي تلـك الفترة التـي كان كلّ شـيء فيها مسـموحًا به حسـب الشـعراء المخنّثين. ففي عصر الشـعراء اللاهوتيّين كان البشـر أكثر خشونة وغلظة من أن يتفرّغوا لأنواع المتعة المترفة، وكانوا أشبه شيء بفلاّحينا الحاليّين الذيـن لا يرغبـون إلّا فيما هو نافع ومُفيد. ومنه جاءت العبارة اللاتينيّة "*juvat*" لقول إنّ ذلك الشيء جميل. ولا ينبغي أيضًا أن نفهم، مثلما فعل الفلاسفة، أنّ العصر الذهبيّ هو الزمن الذي كان فيه البشر يقرؤون شرائع العدالة السرمديّة المكتوبة على صدر جوبيتر. كلاّ، كان أولئـك البشـر لا يقـرؤون فـي السّـماء من لغة سـوى لغة الصاعقـة، ممّا يجعل خصالهـم شـبيهة بخصـال السـكوثيّين الذيـن سـبق ذكرهـم فـي *الملحوظـات الخاصّـة بالجـدول الزمني*(١)، الذين اعتادوا أن يغرسـوا مديـة في الأرض ليعبدوها بعد ذلك على أنّها إله، وبهذا كانوا يبرّرون قتل الأرواح البشـريّة. كانت هذه الخصال مزيجًا من الورع والقسوة، اللذيْن يتعايشان كما نجد ذلك غالبًا عند الساحرات.

[§ ٥١٧] وقـد جـاءت هذه العـادة في تقديم القرابين البشـريّة للآلهة مـن أخلاقيّات الوثنيّيـن الأولى المتوحّشـة والمؤمنة بالخرافات. ويروي لنا فيلون البيبلوسـيّ أنّ ملوك الفينيقيّين القدامى كانوا يقدّمون أبناءهم قربانًا للآلهة ليدرأوا بذلك غضب السّـماء حين تصيبهم كارثة ما، مثل الحرب أوالمجاعة أو الطاعون. ويذكر كوينتوس كورتسيوس أنّ أولئـك الأطفـال كانـوا يقدَّمـون فـي العـادة للإلـه سـاتورن. ويخبرنـا جوسـتينوس أنّ القرطاجنيّيـن، الذين ينحدرون دون شـكّ مـن الفينقيّين، قد حفظوا ومارسـوا دائمًا هذه العادة، ويؤيّده في هذا إينيوس بهذا البيت:

وقد اعتاد القرطاجنيّون التضحية بأبنائهم(٢)

---

(١) § ١٠٠.

(٢) ورد باللاتينية: *Et Poinei solitei sos sacruficare puellos*

وبالفعل، نرى أنّ القرطاجنيّين، بعد الهزيمة التي لحقتهم على يد أغاثوكلس، ضحّوا بمئتيْ طفل من الأشـراف لدرء غضب الآلهة عنهم. كما أنّ أغاممنون قدّم ابنته إيفيجينيا قربانًـا للآلهـة، ممّـا يؤكّـد أن اليونانيّيـن كانوا يتّبعون هـم أيضًا هذه العـادة المنكرة. هذا العجب الذي نشـعر به إزاء هذه الأفعال الشـنيعة يضمحلّ عندما نفكّر في السلطة الأبويّة والجبـروت الـذي كان للآبـاء الوثنيّيـن الأوائل، هذه السـلطة التي لم تُناقـش أبدًا لا من طـرف أكثر الشـعوب علمًا كالإغريق، ولا مـن الأكثر حكمة كالرومـان. فقد اعترفوا بها جميعهـم، حتّـى فـي أزمنتهم المسـتنيرة، إذ أنّ الآباء حافظوا دائمًا على حـقّ قتل أبنائهم إبّان ولادتهـم. هـذه الفكـرة تجعلنا نعـدّل من شـعورنا بالفظاعـة الذي ينتابنـا عند رؤية بروتـوس يقطع رأس ابنيْـه لأنّهما تآمرا ضدّه لصالح تاركوينوس، أو حين قطع مانليوس المسـمّى بالطاغية رأسَ ابنه السـخيّ عقابًا له لأنّه حارب وانتصر مخالفًا أمره. ويؤكّد لنا قيصـر الروم أنّ الغال يقدّمون قرابين مماثلة لآلهتهم، ويقول تاسـيتوس في *الحوليّات*[1] أنّ *درويـدي الإنغليز*[2] (هؤلاء أنفسـهم الذين نسـب إليهم غـرور العلماء معرفة عظيمة) كانوا يبحثون عن الغيب في أحشاء الضحايا البشريّة. وقد حجّر أوغسطس على الرومان المقيمين ببلاد الغال ممارسـة هذه الديانة الفظيعة، ويخبرنا سـويتونيوس أنّ الإمبراطور كلاوديوس مدّ هذا التحجير على الغاليّين أنفسهم. ويؤكّد لنا علماء الاستشراق أنّ عادة حرق البشر أحياء كقربان لمولوخ (الذي يقول كلّ من مورناي[3] وفان دريش[4] وسالدن أنّه ساتورن) نشرها الفينيقيّون في باقي أنحاء العالم. هذه هي إذن الحضارة التي جاء بها الفينيقيّون الذين يُزعم أنّهم علّموا اليونانيّين الحروف العاميّة! ويُنسب إلى هرقل الصنيع الإنساني بتحرير إقليم لاتيوم من العادة القاسية المجلوبة من عند الفينيقيّين والتي كانت تتمثّـل فـي رمي الشـخص حيًّا في ميـاه نهر *التيبر* كقربـان للآلهة، وعُـوّض القربان برمي صنـم من الخشـب. ويـروي لنا تاسـيتوس أنّ القرابين البشـريّة كانت مـن الطقوس التي

---

(١) *الحوليّات*، XIV، ٣٠.

(٢) الدرويد هو الكاهن في بلاد الغال القديمة.

(٣) هـو فيليـب دي مورنـاي [١٥٤٩-١٦٢٣]، لاهوتـي سياسـي وكاتب فرنسـي. مؤلّف كتـاب *De veritate religionis christianae* [في حقيقة الديانات المسيحيّة]، ١٥٨٠.

(٤) هـو Johannes van den Driesche [١٥٥٠-١٦١٦]، لاهوتـي فنلندري بروتسـتانتي، مستشـرق مسيحي متخصّـص في الدراسـات العبريّة ومفسّـر الكتابات المقدّسـة. مؤلّـف كتـاب *Ad voces hebraicas Novi Testamenti commentarius duplex*، ١٥٨٢.

يُحتفل بها لدى الجرمانيّين القدامى، الذين كانوا دومًا ممتَنعين عن الأمم الأخرى، وحتّى الرومان بكلّ ما أوتوا من قوّة لم يقدروا على غزوهم. ولسكاربو[1] في كتابه *de Francia Nova*، وأوفييدو[2] في *Historia Indica*، يخبرانا أنّ الأمريكيّين المكتشَفين من طرف الإسبان والذين بقوا مجهولين من باقي العالم إلى حدود قرنيْن من زمننا الحاضر كانوا يأكلون لحوم الضحايا البشريّة الذين قُدّموا قرابين للآلهة. هذه كانت إذن عادات الجرمانيّين القدامى زمن أن كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم تعيش بينهم، والسكوثيّين الذين ينسب إليهم المؤرّخون فضائل عظيمة، والأمريكيّين الذين لا يزالوا يعيشون بنفس المعتقدات! هذه هي القرابين التي كان بلوتوس يسمّيها «ضحايا ساتورن» [*Saturni hostiae*][3]، والتي كانت تُمارَس في إقليم لاتيوم في العصر الذهبي، هذا العصر الذي إن صدّقنا أهل المعرفة كان عصر الحِلم والخير والاعتدال والرصانة!

[§ ٥١٨] لنعترف إذن بانعدام جدوى هذه الآراء النابعة عن غرور العلماء بخصوص براءة العصر الذهبي المزعومة، ولنقل إنّ هذه الفترة قد حكمتها على العكس معتقدات خرافيّة متطرّفة كانت تقدّم للبشر صورة مريعة لآلهة متعطّشة للدم، لتفرض عليهم بعض القيود على أهوائهم الجامحة. ويلاحظ فلوطرخس أنّه كان من الأفضل للبشر أن يجهلوا وجود الآلهة بدلا من تقديسها بتلك الصفة المنكرة. ولكن فلوطرخس لا يضع جيّدًا على كفّتيْ الميزان سلبيّات المعتقدات الخرافيّة وسلبيّات الإلحاد. إذ أنّ الأولى خلقت أممًا قويّة ومستنيرة، بينما الثاني لم يخلق أبدًا أيّ شيء، كما سبق أن بيّنّا في المبادئ[4].

[§ ٥١٩] بهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية حديثنا حول الأخلاق الإلهية للشعوب الأولى للجنس البشري المفقود. وسنتناول في حينه[5] موضوع الأخلاق البطوليّة.

---

(١) Marc Lescarbot [١٥٧٥-١٦٤١]، رجل علم فرنسي، محامي ورحّالة. مؤلف كتاب *Histoire de la Nouvelle France*، ١٦٠٩.

(٢) Gonzalo Fernandez de Oviedo y Valdès [١٤٧٨-١٥٥٧]، قائد عسكري إسباني قاد جيوش الإمبراطور كارلوس الخامس. كاتب ومستكشف، مؤلف كتاب *Sumario de la natural y general historia de las Indias* (١٥٢٦)، و *Historia Natural y general de las Indias* (١٥٣٥).

(٣) سبق ذكره § ١٩١.

(٤) §§ ٣٣٣ وما يتبع.

(٥) §§ ٦٦٦ وما يتبع.

[القسم الرابع]

[الاقتصاد الشعري]

[الباب الأوّل]

في الأَسَر التي كانت لا تضمّ في البداية إلّا الأبناء

[§ ٥٢٠] علّمت الحواسّ الأبطالَ هاتيْن الحقيقتيْن اللتيْن تكوّنان لوحدهما كلَّ المعرفة الاقتصاديّة واللتيْن اتّخذتا عند اللاتينيّين هذيْن الاسميْن: "*educere*" و"*educare*". وقد أسند فكر ثاقب للأوّل معنى تربية الروح، وللثاني تربية الجسد. وباستعارة معقّدة جعل الميتافيزيقيّون من العبارة الأولى صورة استخراج الأشكال من المادّة، إذ أنّ التربية البطوليّة كانت وظيفتها هي بالذات استخراج الروح البشريّة من المادّة التي كانت محبوسة فيها والتي هي أجساد الجبابرة العملاقة. وهكذا استخرجت أشكال البشر المعتدلة القياس من الأجساد الضخمة التي كانت للجبابرة.

[§ ٥٢١] وفيما يتعلّق بالجزء الأوّل، فإنّ *الآباء البطوليّين*، كما سبق قوله في *المسلّمات*[١]، كانوا في الحالة التي يُمكن تسميتها *بحالة الطبيعة*، المتعاطين فيها لعلم العرافة أو المعرفة العاميّة، التي أعلت مقامهم إلى *الكهانة*، وعليه كان عليهم أن يقدّموا القرابين للحصول على الطالع الذي تنطق به الآلهة. وأخيرًا، فقد كانت هذه المعرفة العاميّة هي التي منحتهم لقب الملوك، إذ أنّه كان عليهم أن يفرضوا على عشائرهم الشرائع التي تلقّوها من الآلهة. هؤلاء الملوك المشرّعون كانوا -كما يدلّ على ذلك اسمهم- حاملي الشرائع؛ لأنّهم كانوا يحملون لشعب المدن البطوليّة الشرائع التي تصدر عن مجلس الشيوخ الحاكم. كنّا قد أشرنا سابقًا في *ملحوظات الجدول الزمني*[٢]، إلى مجلسيْن ذكرهما هوميروس، الذي يسمّي الأوّل «βουλή، بولي» والثاني «ἀγορά، أغورا». كان الأبطال يناقشون ويصوّتون على القوانين في المجلس الأوّل، ثمّ يصادقون عليها بنفس الطريقة في المجلس الثاني. وبما أنّ الحروف العاميّة لم تكن معروفة بعد،

---

(١) § ٢٥٠.

(٢) § ٦٧.

فقد كان الملوك البطوليّيون يبلغون للشعب القوانين الصادرة عن مجلس الشيوخ الحاكم بواسطة مجالس *الدومفير* التي كانت مكلّفة بنشرها، مثلما فعل توليوس هوستيليوس بالتهمة الموجّهة لهوراثيوس(١).

[§ ٥٢٢] وعليه فإنّ هؤلاء *الدومفير* كانوا -إن جاز القول- شرائع حيّة وناطقة. والرواية العاميّة التي تُثني على حكمة القدامى العظيمة جعلت أفلاطون يتمنّى عودة الأزمنة السعيدة التي كان فيها الفلاسفة يحكمون والملوك يتفلسفون. ولكن هؤلاء الآباء الأوائل كانوا دون شكّ ملوكًا أو عواهل عائليّين، أعلى مقامًا من الجميع في عشيرتهم ولا يخضعون إلّا للآلهة، وكانت سلطتهم المؤسّسة على ديانات مريعة لا يمكن لها أن تصمد إلّا من خلال عقوبات قاسية. تلك كانت سلطة أشباه *بوليفيموس* الذين يقول عنهم أفلاطون إنّهم الآباء الأوائل للعالم. والتأويل الخاطئ لهذه الرواية جرّ كلّ السياسيّين إلى الخطأ، مقنعًا إيّاهم بأنّ الملكيّة كانت أوّل شكل للحكم المدني. ومن هنا جاء المبدأ السياسي الخاطئ من أنّ الحكم المدني (أي الحكم الملكي) كان إمّا نتيجة القوّة المكشوفة أو نتيجة الاحتيال الذي يتحوّل فجأة وفي اللحظة المناسبة إلى قوّة وعنف. ولكن كيف سيكون للقوّة والعنف مكان في تلك الأزمنة الهوجاء المناسبة لتطوّر الكبرياء والهمجيّة المتأتّيْن من الذكرى القريبة للحريّة الوحشيّة. في تلك الحياة الأولى الخشنة والبسيطة، حين كان البشر يقتاتون من غلال الأرض ويشربون من مياه الينابيع ويستريحون في مغاور الجبال، في هذه المساواة الطبيعيّة من كان يمنح لكلّ أب السلطة المطلقة على أسرته؟

[§ ٥٢٣] لنفكّر قليلا في الوقت الذي لزم للوثنيّين كي يتركوا حريّتهم الجامحة والطبيعيّة وأن يخضعوا لسلطة الآباء المتجبّرة وأن يصبحوا مروّضين بكفاية ليقبلوا القوانين المدنيّة. ولن نأتي إلّا بحقيقة سرمديّة عندما نقول إنّ رعايا جمهوريّة أفلاطون لم يكونوا سعداء مثل أعضاء تلك العشائر التي كان فيها الآباء لا يعلّمون إلّا الدين، وكانوا لذلك مبجّلين كعلماء، مقدّسين ككهنة، ومهابين ومطاعين كملوك. كان الرعب من الآلهة إذن القوّة الإلهية الضروريّة التي أخضعت الجبابرة السذّج المتوحّشين للقيام بالواجبات الإنسانيّة. وفي عجزهم عن التعبير بصفة مجرّدة عن فكرة هذه القوّة، عبّر

---

(١) انظر § ٥٠٠.

عنها الشعراء اللاهوتيّون بصفة ملموسة بصورة *حبل*، سمّاه اليونانيون «χορδά، خوردا»[1] واللاتينيّون "*fides*"، ومنه جاء قول "*fides deorum*" أي قوة الآلهة. ولهذا كانت قيثارة أورفيوس[2] مع أنّها متكوّنة من وتر واحد، كافية لترويض الوحوش الضارية، وكيف أنّ قيثارة شبيهة بها بين يدي أمفيون[3] حرّكت الحجارة التي اتّخذت موقعها من تلقاء نفسها في الأسوار المحيطة بطيبة. ونرى دوكاليون وبيرّا واقفيْن أمام معبد ثيميس، أي في خشية من غضب الآلهة، ورأساهما محجّبان، تعبيرًا عن *الحياء* الذي مثّل أساس الزواج، وهما يجمّعان الحجارة التي كانت منتشرة عند أقدامهما، أي أنّهما أمسكا بأولئك العباد المغفّلين، بما أن لفظة "*lapis*" باللاتينيّة لها هذا المعنى، وأخذا هذه الحجارة ورمياها وراء كتفيهما، أي أنّهما أدخلا نظام الأُسَر بواسطة الانضباط الاقتصادي، محوّلين بهذه الصفة تلك الحجارة أو أولئك الجبابرة المتوحّشين إلى بشر متمدّنين.

[§ ٥٢٤] وشرع الآباء في الجزء الثاني من النظام الاقتصادي أي في تربية الأجساد، بواسطة الديانات المريعة التي أسّسوا عليها سلطتهم الجبّارة. وبدؤوا، باستعمال الحمّامات المقدّسة، في تقليص قامات أطفالهم العظيمة لجعلها قامات معتدلة. ولا يمكننا هنا إلّا أن نعجب لحكمة العناية الإلهية التي منحت قامة عملاقة للبشر الأوائل التائهين والمتوحّشين، لكي يتمكّنوا بقوّة أبدانهم من مقاومة أهوال السّماء وتقلّبات الطقس، ولكي تمكنّهم قوّة أعضائهم الهائلة من فتح طريقهم وسط الأدغال التي كانت كثيفة بعد الطوفان، وبالنجاة من الحيوانات المفترسة وبملاحقة الإناث المتوحّشات والمذعورات والبحث عن الماء والقوت، لكي ينتشروا على كلّ الأرض ويعمّروها بسرعة. ولكن بعد أن انتهت هذه الحياة المشرّدة والمتوحّشة واستقرّوا في مغاورهم أو في أكواخهم بقرب الجداول، وبعد أن تعوّدوا على العيش مع امرأة واحدة وتعلّموا فلاحة الأرض، انتزعت منهم العناية الإلهية قوّتهم الجبّارة وعدّلت من ضخامة أجسادهم العملاقة إذ لم يعودوا بحاجة إليها.

---

(١) خوردا χορδά تعني الوتر ومنها chordبالإنجليزية وهنا استعملت للدلالة على الإيمان.

(٢) سبق ذكره في § ٧٩.

(٣) أمفيون Αμφίων ابن زيوس وتوأم زيثوس Ζῆθος واشتهرا ببناء مدينة طيبة. وكان أمفيون مغنيا شهيرا وهبه هرمس قيثارة ذهبية.

[§ ٥٢٥] وسرعان ما أدرك أولئك البشر معنى الاقتصاد وحقّقوا فكرة الاقتصاد المتكاملة من خلال العمل والصناعة، واجتهد الآباء لترك مُلكٍ لأبنائهم يكفيهم للعيش براحة، ويعوّض منافع القانون المدنيّ التي من دونها تندثر التجارة الخارجية وتضمحلّ المدن نفسها. فالمجتمع المحفوظ في كنف الأُسَر بإمكانه هكذا أن يبقى وأن يكوّن الأمم، التي يجب أن تضع مُلكها في مواقع مهوّاة جيّدًا، قرب منبع لا ينضب من الماء لكي يرويها، وفي موقع منيع يمكّن الأُسَر من النجاة في حال دُمّرت المدينة. كما يجب أن تكون هناك حقول متّسعة وخصبة توفّر القوت للفلاّحين الفارّين من المدينة المدمّرة والذين يوفّرون لسيّد الأرض سواعدهم القويّة. بهذا خطّطت العناية الإلهية التي بحسب قول ديون الذي أشرنا إليه في *المسلّمات*[1]، لم تتصرّف بطغيان من خلال القوانين، بل تصرّفت كملكة من خلال العادات، وبهذا أنشأت *نظام الأُسَر*. فالقلاع دائمًا ما تكون على المرتفعات حيث يكون الهواء عليلا ونافعًا للصحّة وحيث يكون الموقع طبيعيًّا منيعًا. كانت هذه أولى قلاع "*arces*" العالم، التي حصّنتها بعد ذلك الهندسة العسكريّة. لذا سمّى الإيطاليّون الجبال المرتفعة عموديًّا "*rocce*" (صخور)، ومنه سمّوا القلعة "*rocca*" (صخرة). وقد كانت أملاك الآباء الأولى هي الأخرى قريبًا من الماء الذي كانت منابعه مخفية في الجبال. وكانت الطيور غالبًا ما تجعل أعشاشها على حوافّ هذه المنابع، ولعلّ اللاتينيّين سمّوها لذلك "*aquilae*"، كمن يقول "*aquilegae*"، ولا شكّ في أنّ كلمة "*aquilex*" جاءت منه لتعني الباحث أو المجمّع للماء. والأكيد أنّ الطيور التي كان الرومان القدامى يستمدّون من طيرانها تكهناتهم كانت عقبانًا، وصارت بعد ذلك شعارًا للجيوش الرومانيّة. ولا بدّ أنّ أولئك العباد السذّج والبدائيّين متّبعي طيران العقبان -التي كانوا يظنّونها طيور جوبيتر لأنّها كانت تحلّق عاليًا في السّماء- اهتدوا إلى المنابع الجبليّة التي لا تنضب أبدًا من المياه، ومجّدوا هذا العطاء الآخر الذي جادت به السّماء عليهم، واعتبروا في الحين أنّ تحليق الطيور هو أصدق فأل بعد الصاعقة. وبالفعل، فقد قال مِيسّالا[2] وكورفينوس[3] إنّ الصاعقة وتحليق الطيور يمثّلان *أعظم الفؤول* أو *أكبر الفؤول العامّية*. وكانت بطبيعة الحال هذه الفؤول هي التي يشير إليها

---

(١) § ٣٠٨.

(٢) Marcus Valerius Messala، قنصل روماني في سنة ٥٣ ق. م.، وهو مؤلّف كتاب *De auspiciis*.

(٣) Marcus Valerius Maximus الملقّب Corvinus، وهو محامي عسكريّ سنة ٣٤٩ ق. م.

الأشـراف الرومان في فترة نزاعاتهم مع عموم الشـعب حين كانوا يقولون إنّهم «يملكون حـقّ النـذور» (*auspicia esse sua*). كلّ هذه الأشـياء التي رتّبتهـا *العناية الإلهية* بهدف إعطـاء دفـع إيجابي للجنس البشـري، لـم تكن تبدو لأفلاطون سـوى نتيجة البصيرة التي كان يتمتّـع بهـا مؤسّسـو المدائـن. ولكـن حين عـادت البربريّـة [في القرون الوسـطى]، وشـتّتت الأمـم وهدمـت المدن كانت هذه الوسـائل نفسـها هي التي حافظـت على بقاء الأُسَـر وسـاهمت في نشـأة الأمم الأوروبيّـة الجديدة. وبالفعـل اتّخِذت التدابير نفسـها والوسائل نفسها لمجابهة الأخطار نفسها والكوارث نفسها، في أزمنة مختلفة وفي أماكن بعيـدة عـن بعضها البعض، ممّا يجعلنا نعتقد تمام الاعتقـاد أنّ ذلك كان من عمل *العناية الإلهيـة*. وقـد حافـظ الإيطاليّـون على لفظـة "*castello*" (قلعـة) للإشـارة إلى مقرّات الأسياد، إذ نلاحظ أنّ المدن القديمة وعواصم الدول عادة ما تكون على مواقع مرتفعة، بينمـا تكـون القـرى فـي السـهول المنخفضـة. ومـن هنا ربّمـا جـاءت الجمـل اللاتينيّة: "*summo loco, illustri loco nati*"، لقـول *«أشـراف»*، و"*imo loco, obscuro loco nati*"، لقول *«عامّة الشـعب»*، كما سـنرى لاحقًا[1]؛ لأنّ الأبطال كانوا يسـكنون المدن، بينما الخدم [*famoli*] كانوا في الحقول.

[§ ٥٢٦] يخبرنا الكتّاب في *السياسـة* أنّ الاشـتراك في حوز الماء كان بالنسبة للأسَر أولـى المناسـبات لاقتراب إحداها من الأخـرى. لذا اتّخذت هـذه المجموعات الأولى باليونانيّة اسم «φρᾱτρῐ́ᾱ، فراتريا» أي «أخوية» والأراضي الأولى اتّخذت عند اللاتينيّين اسـم "*pagi*"، وكان الإغريـق الدوريانيّـون يسـمّون "παγα" العين أو المنبع. ويشـكّل المـاء الجانـب الأوّل مـن طقـوس الـزواج، وهذه الطقـوس كانت تُدعـى *aqua et igni* (الماء والنار)؛ لأنّ مراسـم الزواج الأولى كانت تقع بين رجل وامرأة يشـتركان في الماء والنـار، أي ينتميـان للأسـرة نفسـها، أو بين أخ وأخـت. والإله لار في كلّ منـزل كان إله النّـار، ومنـه قيـل *focus laris* للمنزل العائلـي، والذي كان ربّ البيت يقـدّم فيه القرابين لآلهة البيت التي بحسب قول جياكومو ريفاردو[2]، يأتي ذكرها في قانون *الألواح الاثنتي*

---

(١) § ٦٠٨.

(٢) اسمه الأصلي Jacob Raewaerd [١٥٣٤-١٥٦٨] مشرّع، مدرّس وكاتب من بروج الهولنديّة. مؤلف *Ad leges XII Tabularum* (١٦٢٣).

عشـرة، في البند الخـاصّ بقتل الأب، تحت اسـم *deivi parentum*. والكتاب المقدّس يستعمل تعبيرًا مشابهًا حين يقول: *Deus parentum nostrorum* لقول *Deus Abraham, Deus Isac, Deus Jacob* (ربّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب). وشيشرون في واحدة من شـرائعه التـي صاغها بهذا القول «*فلتُحفظ الطقوس المقدّسـة للأسـرة علـى الدوام*»[1]، يلمّـح إلـى طقـوس تلك الآلهة. لـذا غالبًا ما نقرأ في الشـرائع الرومانيّـة *esse in sacris paternis*، لقـول «ابـن عائلـة»، و*sacra patria* لقول «سـلطة أبويّة»، ذلك لأنّ السـلطة الأبويّة كانت تُعتبر مقدّسـة في تلك الأزمنة. وينبغي القول إنّ هذه العادات بقيت جارية لـدى المتهمّجيـن الذين جاؤوا من بعد [في القرون الوسـطى]؛ لأنّه بمدينة فلورنسـا في زمن جيوفانّي بوكّاتشيو[2]، مثلما جاء في كتاب *نسـل الآلهة*، جرت العادة في بداية كلّ سـنة جديـدة أن يجلس رئيـس العائلة أمام الموقد قرب حطبة ويشـعل فيهـا النار بعد أن يكـون نشـر فوقهـا البخـور أو الخمـر. ولا تزال هـذه العادة موجـودة عند أهالـي مملكة نابولي حيث يُشار إلى الأُسَر بلفظ *النيران*. حين تأسّست المدن تقرّر في العادة أنّ الزواج يكون بين مواطنيْ المدينة نفسـها، وفي حال تزوّج أحدهم بامرأة غريبة عن المدينة، فإنّ عليها أن تعتنق الديانة التي اتّخذتها المدينة التي تريد الانضمام إليها.

[§ ٥٢٧] وبالعودة الآن من النّار إلى الماء، لنقل إنّ نهر سـتيكس[3]، الذي تُقسـم به الآلهة، هو دون شكّ منبع العيون. لذا فإنّ الآلهة كانوا أشراف المدن البطوليّة، كما سبق أن ذكرنا[4]، والاشـتراك في ذلك المنبع كان يكرّس هيمنتهم على البشـر [العامّة]. وهذا يفسّر لماذا رفض الأشراف الرومان إلى حدود سنة ٣٠٩ من تاريخ روما، منح العامّة حقّ عقـد القِـران [*connubium*]، كمـا سـبق أن رأينـا ذلـك وكمـا سـيأتي ذكره لاحقًـا بأكثر تفصيـلاً[5]. ولهـذه الأسـباب المتعـدّدة غالبًا ما نجد في الكتابات المقدّسـة ذكـرًا لـ «*بئر القسم*» أو «*قسم البئر*». وهذا يؤكّد أنّ مدينة *Pozzuoli* (من *pozzo* أي بئر) يرجع اسمها

---

(١) ورد باللاتينيّة: *Sacra familiaria perpetua manento*.

(٢) جيوفاني بوكاتشـيو (Giovanni Boccacio) [١٣١٣-١٣٧٥] كاتب فلورنسـي مشـهور بكتاب *ديكامرون* ومؤلف كتاب *Genealogie deorum gentilium*، انظر XII، ٦٥.

(٣) Styx، بالإيطالية *Stige*: أحد أنهار العالم السفلي في الأساطير الإغريقيّة.

(٤) § ٤٤٩.

(٥) §§ ١١٠؛ ٥٩٨.

للعديد من الآبار الصغيرة المنتشرة في ترابها. و*المعجم الذهني* الذي سبق الحديث عنه[1] بإمكانه أن يثبت أنّ العديد من المدن لها أصل مشابه لمدينة *بوتسوولي* أو *بتوولي*، وأنّ كلمات من لغات مختلفة صلحت للإشارة إلى نفس الشيء.

[§ ٥٢٨] ونأتي هنا إلى ثالث آلهة عظيمة أنشأها الخيال الخرافي البشري والتي هي *ديانا*. تمثّل *ديانا* الضرورة البشريّة الأولى التي أحسّ بها الجبابرة الذين استقرّوا في بعض الأراضي وتزوّجوا بعض النساء. وقد أمدّنا الشعراء اللاهوتيّون بقصّة هذه الوقائع تحت حجاب أسطورتين عن الإلهة *ديانا*. الأولى تمثّل *عفّة الزواج*، ونرى فيها *ديانا* مستلقية صامتة في ظلمة الليل الحالكة إلى جانب *أنديميوني النائم*: وهي وضعيّة أو واقعة استحقّت بها قول *ديانا العفيفة*، وهي بالفعل رمز تلك العفّة التي تنصح بها *شرائع شيشرون*: *Deos caste adeunto*، أي قبل تقديم القرابين للآلهة ليتطهّر المرء بالاغتسال المقدّس. أمّا الأسطورة الثانية فهي تنيرنا بخصوص ديانة الينابيع المريعة، وفيها نرى *أكتيون* وهو يشاهد في صفحة الماء الإلهة *ديانا عارية*، فرمته الإلهة برذاذ الماء على وجهه، أي أنّها روّعته فتحوّل المسكين إلى أكثر الحيوانات وداعة أي إلى أيْل، ومزّقته كلابها إربًا، أي مزّقه الندم لانتهاكه أسرار ديانته. وكلمة *lymphati* أي رشّه رذاذ الماء، استُعملت دون شكّ للإشارة إلى أولئك الذين، مثل *أكتيون*، أصابهم الجنون نتيجة رعب خرافي. وقد احتفظ اللاتينيّون بذاكرة هذه الحكاية الشعريّة في كلمة *latices*، المشتقّ بكل وضوح من *latendo* المصحوب دائمًا بنعت *puri* (طاهر)، والذي يعني الماء الذي يخرج صافيًا من المنبع. ولا شكّ في أنّ ما يشير به اللاتينيّون بكلمة *latices* هي الحوريات[2] رفيقات ديانا اليونانيّة، إذ أنّ لفظ «νύμφαι، نيمفاي» هو عند اليونانيّين مرادف للفظ *nymphae*. هذه الحوريات تعود إلى زمن كان الإنسان فيه يفترض في كلّ شيء وجود ماهية حيّة أو كائن بشري، كما سبق أن بيّنّا ذلك في *الميتافيزيقا*[3].

---

(١) § ١٦٢.

(٢) الحوريات في الأساطير الإغريقيّة مخلوقات أنثويّة شبه إلهية تُعتبر رموزًا لظواهر طبيعيّة مختلفة. ومفردها هو νύμφη «نيمف» وتعني العذراء أو العروس، أو الصبيّة في سنّ الزواج. ثم أطلقت على إلاهات الطبيعة وهن كثر.

(٣) § ٣٧٩.

[§ ٥٢٩] إلّا أنّ الجبابرة الأتقياء الذين كانوا في مغاور الجبال لم يفتؤوا أن ضايقتهم نتونة جثث أمواتهم التي كانت تتحلّل إلى جانبهم. فعمدوا كذلك إلى دفنها، وهذا يفسّر لنا لماذا لا نزال نعثر في مرتفعات الجبال على جماجم عظيمة وعلى عظام عملاقة كانت لأولئك البشر الأوائل، بينما لا نعثر عليها في السهول وفي الأودية، ومن السهل تصوّر أنّ جثث الجبابرة المتوحّشين الذين كانوا يعيشون منتشرين في السهول بقيت دون دفن، وحتى إن لم تحلّلها المياه تكون قد جرفتها الأودية. أمّا الجبابرة الأتقياء فقد أحاطوا على العكس مدافنهم باحترام كبير إن لم نقل بخشية عظيمة، حتّى أنّ عبارة *religiosa loca* كانت تعني باللاتينيّة الأماكن التي دفن فيها الأموات. وهذا هو مصدر المعتقد الإنساني في خلود الروح البشريّة، الذي يشكّل كما قلنا *المبدأ الثالث* لهذا العِلم. هذه الأرواح المسمّاة *dj manes*، يُشار إليها في قانون *الألواح الاثنتيْ* عشرة في باب قتل الوالديْن تحت اسم *deivei parentum*. من ناحية أخرى، من المؤكّد أنّ أولئك الجبابرة الأتقياء وضعوا كعلامة دفنٍ فوق كلّ قبر، والذي كان في البداية ليس إلّا كدسًا من التراب مرتفع قليلاً، مثلما يخبرنا تاسيتوس بخصوص الجرمانيّين القدامى، وبإمكاننا تصوّر الشيء نفسه لدى الأمم البربريّة الأخرى، من أنّهم كانوا يرون من الواجب ألاّ يثقلوا الأموات بالكثير من التراب، ومنه الدعاء بقول *Sit tibi terra levis* [ليكن ترابك خفيفًا]. وكعلامة كما قلنا، رشقوا في التراب جذعًا [*ceppo*] سمّاه الإغريق (φύλαξ، فيلاكس) أي *حارس*؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ ذلك الجذع يحرس الأموات، وبقِيت كلمة *cippus* اللاتينيّة (جذع) لتعني القبر. ويشير هذا اللفظ عند اللاتينيّين إلى شجرة النسب، الذي أخذ منه الإغريق كلمة (φυλή، فيلَيه) التي تعني عشيرة أو قبيلة. وكان الرومان يرسمون نسبهم بوضع أصنام أجدادهم في أروقة منازلهم في صفّ أو *خيط* يسمّونه *stemmata* المشتقّ دون شكّ من *temen* الذي يعني *الخيط*. ومنه ***subtemen*** أي منسج، أي الخيوط التي تُنسج فوقها القماشة. وقد سمّى المشرّعون لاحقًا خيوط النسب هذه *lineae*، وبقي لفظ *stemmata* يشير إلى *شعارات النبالة*. وافتراضنا هو أنّ الأراضي الأولى التي دُفن بها الأموات صلحت لتكون الشعارات الأولى للأُسَر. وهذا يفسّر المقولة الشهيرة التي قالتها أمّ إسبرطيّة لابنها وهي تضع بين ذراعيْه ترسه: ***aut cum hoc, aut in hoc***، أي «عُد بترسك، أو عُد فوق ترسك». ولا يزال النابوليتانيّون

يسمّون النعش *scudo* أي ترس. ويسمّي *علم الشعارات النبيلة* *scudi* باعتبارها تمثّل أساس *الحقل*، لأنّ القبور وُضعت في البداية تحت الحقول كما لو كانت أساسها.

[§ ٥٣٠] لا بدّ أنّ لفظ *filius* [ابن] حين يسبق شهرة الأب أو شهرة الأُسرة كان يعني أنّه *نبيل*، وله المصدر نفسه الذي يُعرّف به النبيل الروماني، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[1]، على أنّه ذاك الذي يمكنه ذكر اسم ابيه (*potest nomine ciere patrem*). هذا الاسم يوافق عند الرومان اسم الأسرة الذي كان يستعمله الإغريق القدامى. وبالفعل، نجد هوميروس يسمّي *الأبطال* بقول *filii Archivorum*، كما أنّه في الكتاب المقدّس يُسمّى اليهود الأشراف بني *إسرائيل*؛ لذا فلا بدّ في اعتقادنا من أنّ العشائر الأولى والمدن الأولى كانت متكوّنة في جملتها من الأشراف، كما سنبيّن ذلك لاحقًا[2].

[§ ٥٣١] وهكذا كان الجبابرة يقيمون سيادتهم على الأراضي التي ترقد فيها عظام أجدادهم. ولهذا يقرّ القانون الروماني حسب العادة السارية بدفن الأموات في الأرض التي على ملكهم، والتي من بعدهم على ملك ورثتهم كي يمكنهم القيام فيها بالطقوس الدينيّة. وصدق الأناس الأوائل حين نطقوا بهذه الجمل البطوليّة: «*نحن أبناء هذه الأرض*»؛ «*نحن وُلدنا من هذا السنديان*». ورؤساء العشائر كانوا يسمّون عند اللاتينيّين *stirpes* و*stipites*، والمنحدرون من كلّ واحد منهم سُمّوا *propago*، أي فروع، ويسمّي الإيطاليّون العشائر *legnaggi* بمعنى النسَب. والعائلات الأرستقراطيّة الكبرى بأوروبا والعائلات المالكة كلّها تقريبًا تتّخذ اسم الأراضي التي تمتلكها، ولدى الإغريق واللاتينيّين يُسمّى الأشراف *أبناء الأرض*. كما أنّ اللاتينيّين يقولون أيضًا *ingenui* أو *indegeniti* وبأكثر اختزالاً *ingeniti*، كما أن لفظ *indigenae* يعني دون شكّ *المولودين في تلك الأرض*، أي أصيلي البلد. ممّا يجعلنا نستنتج أنّ *Dj indigetes* يعني *الآلهة المولودة في تلك الأرض*، أو أشراف المدن البطوليّة الذين، كما سبق ذكره، ادّعوا أنّهم آلهة. كانت الأرض هي *أمّ تلك الآلهة* لذا اتّخذت لفظة *ingenuus* و*patricius* معنى *الأشراف*. وعليه فإنّ *ingenui* كانوا دون شكّ *aborigini* أي دون أصل أو نشؤوا من تلقاء أنفسهم ويوافق اللفظ بالإغريقيّة (αὐτόχθων، أوتوختون). ولا بدّ أنّ من سُمّوا

---

(١) § ٤٣٣.

(٢) § ٥٩٧.

aborigini كانـوا جبابـرة أو *giganti* التـي تعنـي بالفعـل *أبنـاء الأرض*، وكمـا تخبرنـا الأساطير فإنّ *الأرض* كانت أمّ الجبابرة والآلهة.

[§ ٥٣٢] وإن نحن كرّرنا قول كلّ هذه الأشـياء فلأنّنا نريد الاعتماد عليها لرفض ما قالـه تيتـوس ليفيوس عن الجملة البطوليّة التي ينسـبها إلى رومولـوس وإلى *الآباء* الذين كانـوا برفقتـه باعتبارها موجّهة إلـى اللاجئين الأوائل الذين جـاؤوا يبحثون عن ملاذ في ملجـأ [*luco*] رومولـوس، وجعلهم يقولون لرومولـوس إنّهم *أبناء تلك الأرض*، وهو ما سـيكون كذبًـا سـافرًا إن أرادوا بذلك أنّ روما هي موطنهم، بمـا أنّ رومولوس كان ملك «*ألبا*». وهذه الأرض *الأمّ* التي يتحدّث عنها تيتوس ليفيوس تكون قد أغفلت أيضًا خلق الإناث بما أنّهم أجبروا على اختطاف *السابينيّات*. من المفترض بالأحرى أنّ الشعوب الأولى اعتبرت رومولوس مؤسّـس مُدن، ونسـبوا إليه الخاصيّات والميزات التي تُنسب إلى مؤسّسي مدائن اللاتيوم الأولى. وعدد هذه المدن كان كبيرًا عندما أسّس رومولوس رومـا. والتعريـف الذي أمدّنا به تيتوس ليفيوس *للملجأ* يبدو متوافقًا مع افتراضنا، إذ أنّه يقـول عـن *الملجـأ* إنّه «*الرسـم القديـم لمؤسّسـي المـدن*» (***vetus urbes condentium*** *consilium*)[١]؛ لأنّه لم يكن هدفًا خطّط له مؤسّسـو المدن الأوائل، الذين كانوا بسـطاء، بل هي الطبيعة التي كانت في خدمة *العناية الإلهية*.

[§ ٥٣٣] ونمـرّ الآن إلـى الإله الرابع لدى الإغريق الذي هو أبولّو، إله النور المدني. مـن هـذا الإله اسـتمدّ الأبطال اليونانيّون تسـميتهم بـ «κλειτόι كليتـوي» أو وضّاء، من «κλέος كليـوس» التـي تعنـي *المجد*، وسـمّوا *inclyti* عند اللاتينيّين، مـن *cluer*، الذي يعنـي سـطوع الأسـلحة. وهو النور الذي تفتحه الإلهة جونو- *لوسـين* أمـام أعين أطفال الأشراف. وقد كنّا رأينا عند هوميروس أنّ أورانيا كانت كبيرة *ربّات الفنّ*، والتي يسمّيها *عِلم الخير والشرّ*، أي *عِلم العرافة*، كما ذكرنا سابقًا[٢]، أو أيضًا *العِلم الشعري* الذي كان أبولّو إلهه. والإلهة كليو هي الثانية من بين الأخوات التسع *ربّات الفنّ*، وهي ربّة التاريخ البطولي، وهو تاريخ يبدأ بشـجرة نسـب الأبطال، على غرار *الكتاب المقدّس* الذي يبدأ بذكـر المنحدرين من آباء البشـريّة الأوائـل. وفي هذا التاريخ نرى فـي البداية أبولّو وهو

---

(١) § ١٧، ١٠٦، ١١٤.

(٢) § ٣٦٥، ٣٩١.

يلاحق دافني، فتاة شابّة تائهة في غابة الأرض. وتستغيث دافني بالآلهة التي تكون رعايتها لازمة لإقامة طقوس الزواج، وتتوسّل إليها وحين تتوقّف تتحوّل إلى إكليل غار وهي نبتة تبقى دائمًا خضراء، فهي إذن رمز الذريّة، بنفس المعنى الذي كان يقصد به اللاتينيّون لفظ *stipites* في مقام شجرة النسب. وفي فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] نجد نفس التعابير البطوليّة، واستُعملت لفظة *شجرة* للإشارة إلى سلالة العائلة. بينما استُعمل لفظ *ceppo* أو جذر إلى مؤسّس الأسرة، و*pedali* أي الفروع إلى المنحدرين، ولفظ *legnaggi* أو الشجرة إلى الأسرة نفسها. وترمز ملاحقة أبولّو إلى الألوهيّة وفرار دافني إلى الحيوان الشرس. ولكن حين نُسيت الدلالة الحرفيّة لهذه الأسطورة، نُسبت إلى أبولّو نيّة الرذيلةَ، وإلى رعب دافني وفرارها العفّة.

[§ ٥٣٤] ثمّ إنّ أبولّو هو شقيق ديانا، فحين يسّرت ينابيع الجبال استقرار الشعوب الأولى فوق الجبال، اتّخذ أبولّو مكانه فوق جبل *بَرناس*، برفقة *ربّات الفنّ التسع*، التي تمثّل فنون البشريّة، بالقرب من منبع *هيّبوكرين*، الذي ترتوي من مياهه طيور التمّ، التي يرمز شدوها عند اللاتينيّين إلى الوحي. ومن شدو أحد هذه الطيور، كما ذكرنا سابقًا، وضعت *ليدا* بيضتيْن، وُلدت من إحداهما *هيلينا*، ومن الأخرى *كاستور وبولّوكس*.

[§ ٥٣٥] ديانا وأبولّو هما ابنا *لاتونا* الذي يأتي اسمها من *latere*، أي يختفي، ومنه قيل «*أسّس الأمّة، أسّس المملكة، أسّس المدينة*» حيث يعني فعل *condere* في الآن نفسه «أسّس» و«أخفى»،[1]، ومنه جاء أيضًا اسم إقليم لاتيوم بإيطاليا. وقد وضعتهما لاتونا قرب منبع ماء، وهذا في الوقت نفسه الذي تحوّل فيه البشر إلى *ضفادع*، والتي تخرج من الأرض بعد مطر صيف. وقد أرسل إيدانثيرسوس إحداها إلى داريوس. وفي ظنّنا أنّ زهرات النرجس الثلاث المرسومة على شعار ملوك فرنسا كانت في البداية ثلاث ضفادع، وليس ثلاثة (علاجيم [ضفادع طين])، كما ظنّها البعض، تحوّلت إلى زهرات. ورقم ثلاثة يمثّل *حال التشديد* في اللغة الفرنسيّة، *très*، حيث إنّ الضفادع الثلاث هي في الواقع ضفدعة ضخمة، أي ابن ضخم ولدته الأرض أو سيّد عظيم.

[§ ٥٣٦] أبولّو وديانا هما صائدان، ومن الأشجار التي يقتلعانها كانا يصنعان هراوات شبيهة بهراوة هرقل، ويقتلان الحيوانات المفترسة للدفاع عن نفسيْهما، إذ لم

---

(١) ورد باللاتينية: *condere gentes, condere regna, condere urbes*

يعد يُسمح لهما بالفرار منها، مثلما كان يفعل البشر الأوائل، وبالتنقّل من مكان إلى آخر. بعد ذلك جعلا من هذه الحيوانات قوتهما وقوت عائلتهما. وقد رأينا أنّ أبطال فرجيل يقتاتون من هذه اللحوم. كما يصوّر لنا تاسيتوس الجرمانيّين القدامى وهم يصطادون مع نسائهم.

[§ ٥٣٧] وأبولّو هو مؤسّس الحضارة والفنون التي ترمز لها *ربّات الفنّ*. ويسمّي اللاتينيّون هذه الفنون *liberales* بمعنى أنّها نبيلة. ولنبالته كان الجواد بيغاسوس(١) يحمل جناحيْن ويحلّق فوق جبل *برناس*. وعند عودة البربريّة [القرون الوسطى] كان الأشراف هم الوحيدون الذين لهم الحقّ في امتطاء جواد مسلّحين، ومنه جاء لقب الشرف *فارس* الذي يستعمله الإسبان إلى الآن للإشارة إلى أشراف بلدهم. وكلمة *Umanità*، بمعنى الحضارة، متأتية من *humare*، أي *دَفَن*، لذا جعلنا من عادة دفن الموتى المبدأ الثالث لهذا العِلم. وبالفعل، فإنّ شيشرون يخبرنا أنّ الأثينيّين، الأكثر تحضّرًا من بين البشر، كانوا أوّل من اعتمدوا عادة دفن موتاهم.

[§ ٥٣٨] وأخيرًا، فإنّ أبولّو شابّ على الدوام، كما أنّ نبتة الغار تبقى دائمًا خضراء؛ لأنّ هذا الإله يديم وجود الإنسان من خلال تواصل اسمه عند لاحقيه. وشعره طويل كعلامة على نبله، ولذا نرى أنّ النبلاء في عديد البلدان يطيلون شعورهم. وكان الفرس القدامى، مثلهم مثل الأمريكيّين، اعتادوا اقتلاع بعض الشعر أو الشعر كلّه من رأس نبيل معاقبة له على جريمة ارتكبها. ولعلّ سكّان بلاد الغال ورثوا عن النبلاء الذين أسّسوا أمّتهم لقب *طويلي الشعر*. وعلى كلّ حال، نحن نعرف أنّه لدى عديد الأقوام جرت العادة أن يُحلق شعر العبيد.

[§ ٥٣٩] وجد الأبطال أنفسهم في فضاءات محدودة، وبما أنّ عدد الأُسَر قد تنامى لم يعد يكفيهم ما يوجد فيها من ثمار طبيعيّة، ولكنّهم لم يجرؤوا على الخروج للبحث عن المزيد منها خارج الحدود، التي كانوا يعتقدون أنّ الآلهة قد حدّدتها لهم. وبإلهام من الآلهة نفسها جاءتهم فكرة حرق الغابات ليتمكّنوا بذلك من رؤية السّماء بأكثر حريّة ومن قراءة الطالع فيها بأكثر سهولة، ثمّ بدؤوا يفلّحون الأرض بكثير من العناء وبذروا

---

(١) اسم لاتيني [pegasus] للجواد المجنّح الموجود في الأساطير اليونانيّة.

فيها القمح. ولعلّهم كانوا قد تفطّنوا سابقًا حين كانوا يحرقون الأعشاب أنّ القمح عند اقترابه من النار يتّخذ نكهة طيّبة ملاحظين كبير منفعته كقوت للبشر. وهكذا، بالسهولة التي كانت للبشر الأوائل في تشكيل صُور شعريّة جميلة ومعبّرة سمّوا سنابل القمح *التفاح الذهبي*، جامعين صورة التفّاحة التي هي غلّة طبيعيّة تُقطف في فصل الصيف بصورة *السنابل* التي تُحصد في الصيف بفضل تقنية الإنسان.

[§ ٥٤٠] هذا هو إذن أعظم أعمال هرقل وأكثرها فخرًا، تمجيدًا لجونو التي طلبت منه القيام بها لتوفير القوت للبشر. وباستعارات أخرى جميلة وضروريّة تخيّل الشعراء الأرض في صورة تنّين عظيم، كلّه حراشف وأشواك مدبّبة، كأجمات الأرض وأشواكها؛ وكان هذا التنّين مجنّحًا لأنّ الأرض على ملك الأبطال، وهو متيقّظ على الدوام لأنّها دائمًا كثيفة للحفاظ على *التفاحات الذهبيّة* في *جنان الهيسبريد*. وأخيرًا، نشأ هذا التنّين في الماء؛ لأنّ الأرض كانت لا تزال مبلّلة ورطبة من آثار *الطوفان العظيم*. ثمّ تخيّل أولئك الشعراء وحش *الهيدرة* التي سمّاها الإغريق «ὕδωρ هيدور» أي *ماء*، التي كانت رؤوسها تنبت من جديد حالما يقع قطع واحد منها، ويتغيّر لونها ثلاث مرّات، من الأسود، أي الأرض وهي *مفحّمة*، إلى الأخضر، أي معشوشبة، وفي لون الذهب كالسنابل وقت الحصاد. وأخيرًا لقول إنّها من الشراسة بحيث يصعب إخضاعها صوّروها كحيوان قويّ جدًا، ومنه جاء اسم *Lione*، الأسد الذي هو أقوى الحيوانات جميعها. وبالفعل فإنّ فقهاء اللغة يزعمون أنّ *أسد نيميا*[1] لم يكن سوى ثعبان عظيم الحجم. كلّ هذه الوحوش تنفث النّار، أي أنّ هرقل أضرم النار في الغابات.

[§ ٥٤١] هذه إذن حكايات ثلاث *مختلفة* في ثلاثة أنحاء مختلفة من اليونان، والتي لها نفس الدلالات. *هرقل في المهد وهو يخنق الثعابين*، أي ولادة عصر *البطولة*. وفي حكاية أخرى نجد بيلّيروفون يقتل وحشًا يُسمّى كيميره، له ذيل ثعبان وصدر معزة، إشارة إلى الأرض التي كانت تغطّيها الغابات، ورأس أسد ينفث هو الآخر ألسنة اللهب. وفي *طيبة* نجد قدموس بعد قتل الثعبان العظيم ينثر أسنانه في الأرض، إشارة إلى الخشب الصلب الذي يُستعمل لفلاحة الأرض قبل اكتشاف الحديد. وقدموس نفسه يتحوّل إلى ثعبان، ما جعل الرومان القدامى يقولون إنّه *استحقّ ملك الأرض*، كما سبق أن وضّحنا

---

(١) هو الأسد الذي قتله هرقل واعتمر رأسه. سبق ذكره في بداية الكتاب عند الحديث عن هرقل.

ذلك بإيجاز[1]، وكما سنبيّن ذلك من بعد بصفة مطوّلة[2]، حين سنرى أنّ الثعابين على رأس ميدوسا[3]، وتلك الملتفّة بعصا ميركوريوس تشير إلى *ملكيّة الأراضي*، وجاء منها اسم «όφελεια أوفيليا» المشتقّ من "Όφις" «أي ثعبان، الذي يُدفع كأداء على الأرض أو كعشور هرقل. ويروي لنا هوميروس أنّ العرّاف كلكاس أوّل بهذه الطريقة وحي الثعبان الذي التهم ثمانية فراخ طير وأمّهم، فقال إنّ مدينة طروادة ستسقط قبل تسعة أعوام بين أيدي الإغريق. وبالفعل، بينما كان اليونانيّون يقاتلون ضدّ الطروادّيين سقط في ساحة المعركة ثعبان قتله عقاب، فزاد ذلك من حماستهم ومن ثقتهم. وللسبب نفسه نرى بروسربينا أو سيرس[4] منحوتة في الرخام على عربة تجرّها ثعابين، كما نرى في كثير من الأحيان على شعارات الجمهوريّات الإغريقيّة صور ثعابين.

[§ ٥٤٢] وبإمكاننا أن نقحم في *معجمنا الذهني*، وهي نقطة جديرة بالاهتمام، أنّ الملوك الأمريكيّين، حسب ما جاء في قصيد فراكستورو *Sifilide*[5]، يحملون بدلا من الصولجان جلد ثعبان مجفّفًا. كما أنّ الشعارات الملكيّة الصينيّة وكذلك شعارات السلطة المدنيّة تحمل صورة تنّين أو دراكون الذي أعطى للأثينيّين شرائعهم مكتوبة بالدم. والتنّين هذا هو أحد الثعابين على رأس غورغونة التي ثبّتها بارسيوس على درعه، والذي صار من بعد تنّين مينيرفا، إلهة الأثينيّين، ومنظر الغورغونة كان يحوّل من ينظر إليها إلى حجر، كما نجدها أيضًا في هيروغليف السلطة المدنيّة الأثينيّة. وفي الكتاب المقدّس يصف حزقيال ملكَ مصر بالتنّين العظيم الذي يرقد وسط أنهاره، كما ذكرنا

---

(١) § ٤٤٦.

(٢) § ٦٧٩.

(٣) ميدوسا أو ميدوزا وتسمّى أيضًا غورغونة (أي المخيفة أو المرعبة)، هي إحدى الغورغونات الثلاث اللاتي يحوّلن إلى حجر كلّ من ينظر إليهنّ.

(٤) بروسربينا إلهة رومانية قديمة تقابل برسيفون في الميثولوجيا الإغريقيّة، ابنة ديميتر (سيرس) وجيوبيتر (زيوس). تشير أسطورتها إلى عودة الربيع بعد الشتاء القارس وهي تشارك أمّها سيرس كإلهة الزراعة والحصاد.

(٥) Girolamo Fracastoro [١٤٨٣-١٥٥٣]، طبيب وشاعر إيطالي. كان عالمًا في الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك. كتب قصيدة بعنوان *Syphilis sive de morbo gallico* (١٥٣٠)، التي اشتقّ منها الاسم الأجنبي لمرض الزهري (السفلس).

سـابقًا أنّ التنانيـن تنشـأ مـن الماء، وكذلـك *الهيدرة* التي اتّخذت اسـمها مـن الماء. وقد أحدث إمبراطور اليابان نظام فروسـيّة يحمل شـعاره صورة تنّين. وفي فترة عودة البربريّة [القرون الوسـطى] دُعِيت أسـرة فيسكونتي لعظم نبالتها إلى حكم دوقيّة ميلانو، ويحمل شـعارها صـورة تنّيـن يلتهم طفلاً، إشـارة إلـى الثعبان *بيثون* الـذي كان يلتهـم اليونانيّين والذي قتله أبولّو، إله الأشراف. وما يلفت انتباهنا في كلّ هذا هو تماثل الأفكار البطوليّة على بعد قرون إحداها من الأخرى. وهو ما يفسّـر وجود صورة تنّينيْن مجنّحيْن يشـدّان عِقـدًا مـن الحجارة القدّاحة التي نفثا بواسـطتها النـار وفي العقد عُلّـق *الصوف الذهبي*، وشيفلي[1] الذي كتب تاريخ هذا النظام، لم يعرف كيف يفسّر ذلك، ما جعل بيتراسانتا[2] يقول إنّ قصّته ينقصها الوضوح.

[§ ٥٤٣] وكنّـا قـد رأينـا فـي مختلف أنحـاء اليونـان أنّ هرقـل قتل الثعبان والأسـد والهيـدرة والتنّيـن، وأنّ بيلّيروفون قتل الكِمَيْر[3]. وها نحن نرى باخوس يروّض النّمور، التـي تمثّـل دون شـكّ الأرض فـي تعـدّد ألوانها، وأطلق اسـم النّمر علـى كلّ أنواع تلك الحيوانات العظيمة القوّة. وكون باخوس روّض النّمور بواسـطة الخمر فهو شـيء أو أمر مـادّي غير معروف عند الأبطال الذين أسّسـوا الأمـم. وعلى كلّ حال، لا أحد قال لنا إنّ باخـوس زار أبـدًا إفريقيـا أو هيركانيـا[4]، والعكـس هـو الأكثر احتمـالًا، إذ مـن معرفتنا بالجغرافيا الشعريّة نجد أن اليونانيّين في تلك الفترة كانوا يجهلون وجود هيركانيا، وأكثر منها وجود إفريقيا، فما بالك بنمور غابات هيركانيا وبفهود صحاري إفريقيا.

[§ ٥٤٤] سُـمّيت سـنابل القمـح فـي البدايـة *التفّـاح الذهبـي*، وكان أوّل ذهب عرفه الإنسـان، إذ أنّه في تلك الأزمنة الأولى كان الذهب مدفونًا في الأرض، ولم يكن يُعرف

---

(١) Jean Jacques Chiflet [١٥٨٨-١٦٧٣]، طبيـب وعالـم آثـار مـن مقاطعـة فرانـش كونته بفرنسـا. مؤلّف تصنيـف لشـعارات النبالـة عنوانـه *Insigna gentilitia equitum ordinis velleris aurei, fecialum verbis enunciata*، ١٦٣٢.

(٢) Silvestro da Pietrasanta [١٥٩٠-١٦٤٧]، عالـم يسـوعي إيطالـي مختصّ في الدرعيات والشـعارات، مؤلّف *De symbolis heroici* (في الشعارات البطولية)، ١٦٣٤.

(٣) كِمير أو خَيمر، مخلوق أسـطوري إغريقي له رأس أسـد وجسـم ماعز وذنب أفعى. يُستخدم اسمه للدلالة على ما هو وهم أو سراب أو حلم يستحيل تحقيقه.

(٤) منطقة إيرانيّة قديمة في الجنوب الشرقي من بحر قزوين.

بعد كيفيّة استخراجه، فما بالك بفصله عن الخليطة وصقله. وحتّى إن كانوا يرون في قاع الجداول والينابيع بعض الحجارة المغطّاة بخيوط من ذهب، فما كان لهم إلا الاستمتاع بمشاهدة لونه ولمعانه؛ إذ كانوا يجهلون استعماله. وحين شرع البشر في زراعة القمح ذكّرهم لون سنابله بتلك الخطوط الساطعة التي شاهدوها في التراب وفي قاع الجداول، فنقلوا اسم الأولى وسمّوا الثانية به. وبالفعل يقول بلاوتوس[1] *thesaurum auri* لتمييزه عن *مطمورة القمح*. وصار القمح قوتًا نفيسًا ومرغوبًا فيه حتّى أنّ أيّوب، في ذكره لعظمته السابقة ولثرواته المفقودة يقول إنّه كان يأكل خبز *القمح*. وفي وقتنا الحاضر، في بعض جهاتنا، يُطعم خبز القمح للمريض كعقار أو دواء، حتى صار قول: إنّ *المريض يأكل الخبز الأبيض* أي خبز القمح، يعني إنّه يعيش آخر أيّامه.

[§ ٥٤٥] والجمال نفسه الذي نُقل من فكرة الذهب إلى القمح مرّ أيضًا إلى صوف الخرفان. وفي هوميروس نجد *آترياس* تشتكي من *ثياستس* لأنّه سرق منه *نعاجه الذهبيّة*. ويسمّي هوميروس دائمًا ملوكه وأبطاله «πολυμηλος پوليميلوس» أي ذوي القطعان الوفيرة. وهذا التماثل في الأفكار الذي سبق الحديث عنه، جعل اللاتينيّين يسمّون *الثروة* بلفظة *pecunia*، وهي كلمة مشتقّة حسب النحويّين اللاتينيّين من *pecus*. كما أنّ تاسيتوس يخبرنا بأنّه لدى الجرمانيّين القدامى تمثّل *القطعان ثروتهم الوحيدة والأكثر اعتبارًا*[2]. ومن المحتمل أنّ الأمر ذاته نجده عند الرومان القدامى، إذ أنّهم يسمّون الثروة باستعمال لفظ *pecunia*، كما يظهر ذلك في شريعة *اللوائح الاثنتي عشرة*، في الباب الخاصّ *بالوصايا*. ولفظة «μῆλον ميلون» تعني في الآن نفسه التفاحة والنعجة لدى اليونانيّين، وربّما لمذاقه اللذيذ كمذاق الفاكهة سمّوا العسل μέλι ميلي». والإيطاليّون يسمّون التفاح *mele* والعسل *miele*.

[§ ٥٤٦] لذا فإنّ *التفاح الذهبي* الذي قطفه هرقل من حديقة *هيسبيريدس*[3]، كان *سنابل القمح*. ونرى *هرقل الغاليّ* يوثق الرجال من آذانهم بسلاسل من ذهب تخرج من

---

(١) تيتوس ماكيوس بلاوتوس [٢٥٤-١٨٤ ق. م] أوّل كاتب مسرحي لاتيني.

(٢) ورد باللاتينيّة: *solae, et gratissimae opes sunt*.

(٣) حديقة التفاح الذهبي او حديقة هيسبيريدس في الأساطير الإغريقية تقع على الحافة الغربية من العالم وتحرسها بنات المساء أو حارسات التفاح وهنّ حوريات أوكلت لهنّ الإلهة هيرا حراسة الحديقة.

فمـه، وهـي صورة ترمز إليهـا خرافة حول زراعة الحقول. لهذا السـبب اعتُبر هرقل على الـدوام حارس *الكنوز المخفية* فـي الأرض والذي يرعى الباحثين عنها. وإله هذه الثروة هـو الإلـه ديس نظير الإلـه الروماني بلوتون[١]، الـذي اختطف بروسـربينا التي هي ذاتها سـيرس إلهة الحبوب، وحملها معه إلى العالم السـفلي كما جاء في أقاصيص الشـعراء، الذين يميّزون منه ثلاث مناطق: الأولى هي التي يجري فيها نهر ستيكس، والثانية حيث يوجد المقبورون، والثالثة لا يزيد عمقها عن عمق سـكّة المحراث، كما سـنبيّن ذلك في حينه[٢]. وحاكم العالم السفلي هو بلوتون أو ديس إله الثروة، لذا يسمّى الأثرياء *Dites*، والأثرياء هم الأشـراف، بما أنّ الإسـبان يسـمّون أثرياءهم *riccos ombres*. واللاتينيّون يسـتعملون لفظ *ditio* بالمعنى الذي نعطيه لسـيادة إقطاعيّة، إذ أنّ الحقول المزروعة هي التـي تمثّل الثروة الحقيقيّة للـدول. وتعني لفظة *ager* عند اللاتينيّين مقاطعة ولاية، وفي معناهـا الأوّل تعنـي الأرض *aratro agitur*. وقيـل عـن *النيـل* «Χρυσορρόας خريسـورواس» أي النهر الذي يجري بالذهب، لأنّـه يغمر بمياهه الحقول ويعطيها وفرة المحاصيل. وقيل الشـيء نفسـه عن أنهار *باكتول والغانج وجيلوم وتاجة*؛ لأنّها تخصب الحقـول. وفيرجيل، العالـم بالأزمنة القديمة البطوليّة، عوّض *التفـاح الذهبيّ* بغصن من الذهـب جعـلَ إينيـاس يحملـه معه إلـى العالم السـفلي، وهي خرافة سـنتناول تفسـيرها لاحقًا[٣]. في الأزمنة البطوليّة لم يكن معدن الذهب أكثر قيمة من الحديد، وهو ما يفسّر سـلوك تيـارك ملـك أثيوبيا حيـن قدّم له مبعوثـو الملك قمبيـز أواني كثيـرة مصنوعة من الذهـب فأجابهـم بأنّـه لا يعرف لها أيّ نفع أو ضـرورة، ورفضها بـكلّ أدب كما يقتضي الحـال. ويقـول لنا تاسـيتوس متحدّثًا عـن الجرمانيّيـن القدامى: *نرى عندهـم أواني من الفضّـة، قُدّمـت هديـة لمبعوثيهـم ولزعمائهـم، كانـوا يعتبرونهـا لا تزيـد قيمـة عن تلك المصنوعة بالطين*[٤]. ويسلّح هوميروس أبطاله سواء بسلاح من ذهب أو من حديد دون تمييـز. وهذا طبيعـي، إذ أنّ العالم البدائي كان بالضرورة غنيًّـا بهذيْن المعدنيْن، حتّى أنّ

---

(١) بلوتون بالإغريقيّة (الثريّ)، وبلوتو باللاتينيّة. وديس باللاتينيّة من اسم هاديس، حاكم العالم السفلي.

(٢) §§ ٧١٤ وما يتبع.

(٣) § ٧٢١.

(٤) ورد باللاتينيّـة: *Eſt videre apud illos argentea vasa Legatis, et Principibus eorummuneri data, non alia vilitate, quam quae humo finguntur*، تاسيتس، *الجرمان*، ٥.

أمريكا المكتشفة حديثًا كانت إلى وقت غير قريب غنيّة جدّاً بهما قبل أن يأتي عليها جشع الإنسانيّة ويستنفدها.

[§ ٥٤٧] ومن كلّ هذا نستمدّ استنتاجًا مهمّا، وهو أنّ تقسيم زمن العالم إلى أربعة عصور: عصر الذهب والفضة والبرونز والحديد، ابتدعه الشعراء في وقت قريب منّا نسبيًّا. فالذهب الشعري أو *القمح*، هو الذي أعطى اسمه إلى العصر الذهبي الإغريقي، والذي كانت تتمثّل براءته في الطابع المتوحّش والخجول لأولئك الجبابرة [بوليفيموس] الذين كان يرى فيهم أفلاطون آباء البشريّة الأوائل الذين كانوا يعيشون، حسب ما رواه بوليفيموس لأوليس، داخل مغاورهم مع نسائهم وأبنائهم، دون اهتمام بشؤون الآخرين.

[§ ٥٤٨] وما يؤيّد ما سبق ذكره إلى حدّ الآن عن *الذهب الشعري*، هو ما تبقّى من تقاليد متّصلة بهذا الخصوص، ونذكر منها تقليديْن لا يمكن تفسيرهما إلّا بالرجوع لهذه *المبادئ*. الأول هو العادة المتّبعة في وضع *تفاحة* من ذهب في يد الملوك خلال حفل التتويج. هذه التفاحة التي نجدها في الشعارات الملكيّة كأساس ودعامة للتاج، تأتي دون شكّ من التفاحات الذهبية القديمة التي هي رمز للقمح، والتي كانت صورة أو هيروغليف السلطة على الأراضي التي كانت للأبطال. ولعلّ الكهنة المصريّين كانت لهم نفس الفكرة عندما وضعوا تفاحة أو بيضة في فم ملكهم كناف. ومن المحتمل أنّ هذا الهيروغليف جاء من البربريّين الذين اجتاحوا كلّ الأمم التي كانت تابعة للإمبراطوريّة الرومانيّة. والتقليد الثاني يتمثّل في العادة التي جرت عند الملوك في أن يهبوا قطعًا نقديّة من ذهب لزوجاتهم أثناء مراسم الزواج. هذه القطع النقديّة تمثّل دون شكّ *الذهب الشعري*، أو *القمح*، وتحيل على الزيجات البطوليّة التي كان الرومان القدامى يحتفلون بها *coemptione, et farre*، على غرار الأبطال الذين -حسب قول هوميروس- كانوا يشترون نساءهم بتقديم مهر لهنّ. ونرى جوبيتر يتحوّل إلى مطر من ذهب للحصول على داناي المحبوسة في برج أو بالأحرى في مخزن *قمح*، في إشارة إلى الوفرة التي تميّز هذا الاحتفال. كما أنّ العبارة العبرانيّة، *ليكن سلام في أبراجكِ*[1]، تتوافق مع هذا الافتراض. ويؤكّده أيضًا البريطانيّون القدامى حين يروون لنا أنّهم بمناسبة الاحتفال بالزواج يقدّم العريس لعروسه كعك *الخبز*.

---

(١) ورد باللاتينيّة: *et abundantia in turribus tuis*، من *المزمور* ١٢٢، ٧.

[§ ٥٤٩] وقد أنشأت هذه الضرورات الحياتيّة للإنسان وهذه العادات الأولى للبشريّة في مخيال اليونانيّين ثلاث آلهات رئيسيّة في الترتيب الذي حتّمته تلك الضرورات والعادات. كان الإله الأوّل هو فولكانوس ثمّ جاء بعده ساتورن، من *ساتيس* الذي يعني *البذر*، لذا يوافق عهد ساتورن العصر الذهبيّ عند الإغريق. وفي الموضع الثالث جاءت سيبيلي أو بيريسنثيا، أي الأرض المزروعة ولذا يصوّرونها جالسة على أسد، حيث يمثّل الأرض التي كانت تغطّيها الغابات والتي جعلها الأبطال صالحة للزراعة، كما سبق أن رأينا ذلك(١). وسيبيلي هذه سُمّيت *أمّ الآلهة*، أي أمّ الجبابرة الذين كانوا أبناء الأرض، والذين عند نشأة المدن الأولى -كما سبق قوله- اتّخذوا لأنفسهم لقب *الآلهة*. والصنوبر مكرّس لسيبيلي؛ لأنّه يرمز إلى الثبات، ولأنّ مؤسّسي الأمم حين استقرّوا في الأراضي الأولى أسّسوا مدنهم وكانت سيبيلي إلهتها. وأعطى الرومان لسيبيلي اسم فيستا، الذي يعني إلهة الطقوس الإلهية، لأنّ الأراضي التي تمّ حرثها (*arare* بالإيطالية)، في ذلك الزمن كانت المذابح الأولى في العالم والتي تُسمّى *are*، كما سنرى ذلك في باب *الجغرافيا الشعريّة*(٢). والإلهة فيستا المتسلّحة بديانة قويّة تحرس النار والقمح أي *farreum* الذي كان قمح الرومان القدامى. لذا كانوا يقيمون حفل الزواج بالماء والنار والقمح [*aqua et igni e col farro*] وسمّوه "*nuptiae confarreatae*"(٣)، والذي صار بعد ذلك امتيازًا خاصًّا بالكهنة؛ لأنّ الأُسر الأولى كانت جميعها متكوّنة من كهنة، كما لا نزال نرى ذلك في الهند الشرقيّة، في ممالك *البونز*. وكان الماء والنّار والقمح يمثّل عناصر الطقوس الإلهية الرومانية. وكانت فيستا تقدّم -كقرابين لجوبيتر- الأشرار من البشر الذين ينتمون إلى الجمعيّات الشريرة التي كانت تنتهك المذابح الأولى، والتي كما ذكرنا لتوّنا كانت حقول القمح، وهو ما سنبيّنه لاحقًا(٤). كان هؤلاء المذنبون هم القرابين الأولى والضحايا الأولى للديانات الوثنيّة، وكان بلاوتوس يسمّيهم *Saturni hostiae*، أي ضحايا ساتورن. واسم *victimae* من

---

(١) § ٥٤٠.

(٢) § ٧٧٤ وما يتبع.

(٣) و مفردة nuptiae زواجات ومفردة conferreatae تعني مع قرص الحنطة المسمى *panis farreus,* أو رغيف الحنطة لأنه كانت من طقوس الزواج أن يتقاسم العريسان هذا الرغيف.

(٤) § نفسه.

victus، الـذي سُـمّوا أيضًـا به كان يعني أنّهم *ضعفـاء*؛ لأنّهم كانـوا وحيدين ومعزولين، ولـذا يُسـمّى الضعيـف باللاتينيّـة *victus*. كما سُـمّوا أيضًـا *hostes*، لأنّ شـرّهم جعلهم يُعتبـرون أعـداء للجنـس البشـري بأجمعه. ومنـه جاءت العـادة الرومانيّة فـي دلك قرنيْ وجبهة القرابين بعجين القمح. وتشريفًا للإلهة فيستا سمّى الرومان «*فيستاليّات*»، الفتيات العذارى اللاتي كنّ يسـهرن على أن تبقى النار دائمًا مشـتعلة؛ لأنّها لو انطفأت فلا يُمكن لها أن تشتعل من جديد إلّا بشعاع الشمس. وتفسير هذا المعتقد يكمن في أنّ بروميثيوس سـرق من الشـمس أوّل نـار وحملها إلـى اليونانيّين ليحرقـوا بها الغابـات ويجعلوا منها حقـولا للزراعة. لذا اعتُبرت فيسـتا ربّة الطقوس الإلهيـة عند الرومان، لأنّ تهيئة الأرض للزراعة كان دون شـكّ الخطوة الأولى التي قام بها البشـر للخروج من الهمجيّة، وإقامة المذابـح التـي تُشـعل فوقهـا النيران ويُضحّـى فيها بالأشـرار كانت دون شـكّ أوّل تعبير لديانتهم.

[§ ٥٥٠] وعلـى عكـس مزاعـم الفقيـه هرموجينيانـوس[١] الـذي يقـول إنّ تقسـيم الأراضي كان نتيجة اتّفاق بين الأطراف وبعد تفكير مليّ، وهو أمر لا يُمكن له أن يحدث في زمن لم تكن فيه قوّة مسـلّحة عموميّة أو قوّة مدنيّة شـرعيّة، ففي ظنّنا أنّ أولئك البشـر المنقادين لطبيعتهم الشرسة ما كان لهم أن يقسموا بعدل وأن يحترموا ملكيّة الغير لو لم يكونوا خاضعين لديانة رهيبة تجعلهم لا يبرحون أماكنهم ولا يخرجون من نطاق الأرض المحدّدة لهم، والتي كرّسـوا بطقوس دمويّة الأسوار الأولى المحيطة بها. ويخبرنا فقهاء اللغـة أنّ هذه الأسـوار الأولى رُسـمت بالمحراث، وسـمّي خطّها المنحنـي *urbs*، ومنه جاءت اللفظة القديمة *urbum* أو منحني. ولفظ *orbis* متأتّ دون شك من نفس الأصل، وعبارة *orbis terrae* كانت تعني في البداية *أرضًا مسيّجة*. وكان السور المحيط بالأرض قصيـرًا جـدّاً حتّـى أن ريمـوس تجاوزه بقفـزة، وهذا ما دفـع رومولوس إلى قتل شـقيقه وكرّس بدم الضحيّة الأسوار الأولى لمدينة روما. وهذا الحدّ الفاصل بين الأراضي كان حسـب كلّ احتمـال *سـياجًا* (*siepe*)، وعنـد اليونانيّين تعنـي كلمة «σήψ سيپس» *ثعبانًا* (*serpe*)، بالمعنى البطولي للأرض المزروعة. ومنه جاء دون شكّ قول *munire viam*، بمعنى غرس سياج حول الحقل. وسُمّيت الحيطان *moenia* أو *munia*، وصارت كلمة

---

(١) Hermogenianus، فقيه عاش في القرن الرابع بعد الميلاد.

munire مرادفة لفعل حصّن. وكانت الأسيجة عن طريق غرس نبتة يسمّيها اللاتينيّون *sagmina*، وبقي اسمها هو نفسه وكذلك استعمالها. والنبات الذي يزين المذابح يحمل أيضًا اسم *sagmina* [رعي الحمام]؛ لأنّه كان يُنثر بدم [*sangue*] المضحّى بهم لأنّهم فعلوا مثل ريموس وتخطّوا الحدود. ومن هنا جاءت قداسة الأسوار كما سبق ذكره. وكان نُذراء الحرب يُعتبرون لذات السبب مقدّسين ومنيعين، ولذا كانوا متوّجين بإكليل من الأعشاب، مثلما كان السفراء الرومان القدامى متوّجين بالأعشاب المقطوفة من قلعة *الكابيتول*. كما أنّ النُذراء كانوا يعتبرون أشخاصًا مقدّسين بما يحملون من قوانين سواء للحرب أو للسلم، والتي جاء منها لفظ *sanctio* المُسند لذلك الجزء من القوانين الذي يفرض عقوبة على منتهكيه. وهكذا نجد عند كلّ خطوة نقوم بها قرائن على ما أزمعنا البرهنة عليه من خلال هذا العمل: وهو أنّ *العناية الإلهية* تقيم الحقّ الطبيعي للعباد بصفة منفصلة عند كلّ شعب من الشعوب، وأنّ الأمم لم تدرك تماثل عاداتها إلّا عندما بدأت تعرف إحداها الأخرى. ولن يُمكن لإكليل من عشب رعي الحمام أن يكون كافيًا لكي يحترم كلّ شعب لاتيوم النذير الذي يحمله لو أنّهم لم ينسبوا جميعهم لهذه النبتة طابعًا مقدّسًا.

[§ ٥٥١] وقد عمل آباء الأُسَر على ضمان وجود أُسرهم البطوليّة بواسطة الدين، الذي ساهم في الحفاظ عليها. لهذا السبب كان الأشراف دائمًا متشبّثين طبيعيًا بديانتهم، مثلما يلاحظ ذلك جيوليو سكاليجيرو في كتابه *Poetica*. لذا حين يبدأ الأشراف بازدراء ديانتهم الأصلية فسيكون ذلك دلالة على انحلال أمّتهم وعلى قرب نهايتها.

[§ ٥٥٢] وفي ظنّ فقهاء اللغة، ويتبعهم في ذلك الفلاسفة، كانت الأُسَر في حالة الطبيعة تتكوّن فقط من أبناء الأب، ومع ذلك فإنّ الخدم [*famoli*]، كانوا يمثّلون جزءًا منها. والسياسة التي بناها الفقهاء والفلاسفة على هذا المبدأ الاقتصادي المغلوط خاطئة. لذا سنبدأ حديثنا عن السياسة بتوضيح موقفنا من نظام الخدم، على الأقلّ فيما يتعلّق بنظريّتنا الاقتصادية.

[الباب الثاني]

في الأُسَر المتكوّنة من الخدم التي تشكّلت قبل المدن، والتي من دونها ما كان يُمكن للمدن أن تنشأ

[§ ٥٥٣] أولئك الجبابرة الأشرار، أي البشر *الأغبياء* الذين ذكرهم غروتيوس *والمشرّدون* الذين تحدّث عنهم بوفّاندورف، *والأشدّاء العنيفون* الذين أشار إليهم هوبّس[١]، بعد أن عاشوا دناسة الاشتراك في الأشياء والنساء مع ما يتسبّبه ذلك من عراك مستمرّ ومن عنف، أحسّوا بالحاجة إلى اللجوء إلى الأماكن المأهولة، بالقرب من *مذابح* أو حقول الأقوياء. هؤلاء الأقوياء المجتمعون في أُسَر، كانوا يقتلون الأشرار الطغاة الذين انتهكوا أراضيهم، ويتقبّلون الضعفاء الذين يلجؤون إلى حمايتهم. منذ ذلك الحين لم تعد البطولة الطبيعيّة هي الوحيدة التي تميّز *الآباء*، بل انضافت إليها بطولة الفضيلة، أو البطولة المكتسَبة، التي تميّز بها بالخصوص الرومان الذين يتبعون مبدأ:

حافظ على الضعفاء واهزم المتغطرسين[٢]

[§ ٥٥٤] علينا أن نفهم هنا جيّدًا كم كان من الصعب على البشر أن ينتقلوا من الحالة البدائيّة التي كانوا فيها متوحّشين وشرسين، ومن الحريّة التي كانت تدفعهم إلى العنف، إلى تكوين مجتمع *إنساني*، وإلى إرساء أوّل مؤسّسة منه ألا وهي *الزواج*. كان لا بدّ لذلك من الديانات الرهيبة، كما سبق أن رأينا[٣]، لكبح غرائزهم الحيوانيّة الجامحة ولإجبارهم على الاكتفاء برفيقة واحدة. كان الزواج إذن هو الشرط الأوّل لتكوين المجتمعات الإنسانيّة الأولى. كان الزواج هو *الصداقة* الأولى منذ نشأة العالم.

---

(١) §§ ١٧٩، ٣٣٨.

(٢) ورد باللاتينية: *Parcere subjectis, et debellare superbos*

(٣) § ٥١٠ وما يتبع.

وهوميروس، لجعلنا نفهم أن جوبيتر وجونو يعيشان حياة زوجيّة، يقول بجديّة بطوليّة إنّهما يكرّسان الصداقة "*amicizia*"، أو «φιλία فيليا» باليونانيّة، من الأصل نفسه الذي جاءت منه «φιλέω فيليو»، «*amo*" بالإيطاليّة، أي «أحبّ». ولفظ *filius* اللاتيني يأتي من اللفظ اليوناني «φίλιος فيليوس»، الذي يعني عند الإغريق اليونتيين، *amico* أي صديق. ومن لفظ "φίλιος" اشتق اليونانيّون «φυλή فيلي» أي *العشيرة*، بتغيير حرف واحد لا يغيّر شيئًا في النطق. لذا فإنّ *الأبناء*، أو بالأحرى *فروع النسب*، التي يسمّيها المشرّعون *بالشجرة*، سُمّوا *stemmata*. ينتج من كلّ هذا أنّ الزواج كان دائمًا التعبير عن *الصداقة الطبيعيّة الحقيقيّة*، وفيه تلتقي العناصر الثلاثة الضروريّة لخير البشريّة: النزاهة والنفع والمتعة. فالزوج والزوجة يسلكان الطريق نفسه ويتقاسمان الأفراح والأتراح التي تعترضهما، كما في قول: *كلّ أشياء الأصدقاء مشتركة*[١]. ما جعل مودستينوس يعرّف الزواج بأنّه "*omnis vitae consortium*" أي *مشاطرة حياة كاملة*.

[§ ٥٥٥] أمّا الثانون، أي الجبابرة الأشرار، فإنّهم لم يدخلوا في هذه المجتمعات الثانية إلّا حين دفعتهم إلى ذلك ضرورات الحياة العاجلة. ومن المهم أن نلاحظ أنّ الأناس الأوائل، الذين شكّلوا المجتمعات الأولى، كانت تحثّهم الخشية من الآلهة، التي تزرع فيهم عاطفة التقوى، والرغبة في الحفاظ على وجود الجنس البشري، الذي هو حسّ نبيل وشعور رقيق، لذا أقاموا فيما بينهم علاقات صداقة سامية. أمّا الذين شكّلوا المجتمعات الثانية، فقد كانت تدفعهم إلى ذلك فقط ضرورة الحفاظ على حيواتهم، وأقاموا مجتمعات هدفها الوحيد هو تبادل ما هو نافع، وعليه فإنّ هذه المجتمعات لا يمكن إلّا أن تكون وضيعة وذليلة. وعليه فإنّ هؤلاء *اللاجئين* لم يُقبلوا في مجتمع الأبطال إلّا لكي يحظوا بحمايتهم، ولكي يحصلوا منهم على ما يفي بحاجاتهم الضروريّة للعيش، ولكي يخدموا الأبطال أسيادهم وحماتهم. وبممارسة الفضيلتيْن اللتيْن سبق ذكرهما، استحقّ الأبطال شهرة عظيمة، وهي باليونانيّة «κλέος كليوس»، أو فخر الإغريق، وباللاتينيّة "*fama*"، فسُمّي *اللاجئون* الذين صاروا خدمهم "*famoli*"، ومنه جاءت لفظة "*famiglia*" أي الأُسرة أو العائلة. والمؤكّد أنّ *الكتاب المقدّس* يشير إلى هذه الشهرة عندما يقول عن الجبابرة الذين عاشوا قبل الطوفان إنّهم "*viros famosos*"،

---

(١) ورد باللاتينية: *amicorum omnia sunt communia*

تمامًا مثلما صوّر فيرجيل «*الشهرة*» جالسة على برج مرتفع، أي على موقع مرتفع هو موطن *الأقوياء*، وجعل *رأسها في السّماء*، التي كان يُفترض أنّها واقعة على قمم الجبال، وجعلها مجنّحة؛ لأنّها تنتمي إلى عالم الأبطال، ولذا نجدها في المعسكر الذي أقيم قبالة *طروادة* وهي تطير فوق صفوف الأشراف متجاهلة جموع العامّة من الناس، *تمسك بيدها بوقًا*، هو حسب ظنّي *بوق كليو*، أو التاريخ البطولي، الذي يخلّد أسماء *مؤسّسي الأمم*.

[§ ٥٥٧] إلى هؤلاء الخدم التابعين للأُسَر -الذين كانوا قبل نشأة المدن يعيشون في حالة عبوديّة- انضاف *العبيد* الذين أُسِروا أثناء الحروب بعد تشكّل المدن. وقد أعطاهم اللاتينيّون اسم "*vernae*"، ومنه جاء لفظ "*vernaculae*" الذي يشير إلى لهجاتهم. وسُمّي *أبناء الأبطال* "*liberi*" أي أحرار، لتمييزهم عن أبناء الخدم، والذين كانوا في الواقع لا يتميّزون عنهم في شيء. ويقول تاسيتوس متحدّثًا عن الجرمانيّين القدامى: «*لا يمكن تمييز السّيد والعبد بأيّ رقيّ في التربية*»[1]، وكذلك كان الأمر لدى الرومان القدامى حيث كان يمارس الآباء سلطة لا محدودة على حياة جميع أبنائهم، وسلطة استبداديّة على كلّ ممتلكاتهم. حيث إنّه إلى زمن الأمراء الرومان كان العبيد مُحتسَبين مع الأبناء فيما يُسمّى "*peculi*" أي المكسب. وكان لفظ "*liberi*" يعني في البداية أيضًا «*نبيل*»، ومنه جاء "*artes liberales*"، أي المهن النبيلة، كما أنّ "*liberalis*" بقيت تعني نبيل، و"*liberalitas*" تعني النُّبل، من نفس الأصل القديم حيث "*gentes*" كان يشير إلى *الأسَر النبيلة* عند اللاتينيّين؛ لأنّه كما سنرى لاحقًا كانت أولى الأسَر من الأشراف، والأشراف فحسب كانوا أحرارًا في المدن الأولى. واتّخذ الخدم أو "*famoli*" اسم "*clientes*" أي موالي، وفي البداية كان الاسم "*cluentes*" من الفعل القديم "*cluere*" الذي يعني تلميع الأسلحة، ولمعانها سُمّي "*cluer*"، ذلك لأنّهم كانوا يسطعون بسطوع الأسلحة التي يستعملها الأبطال أسيادهم، الذين بالرجوع إلى الأصل نفسه سُمّوا في البداية "*incluti*" ثمّ "*inclyti*". ومن هنا نشأ الموالي أو الأتباع، "*clientele*"، الذين ساهموا في ازدهار الإقطاعيّة، والذين سنتناولهم بالدرس لاحقًا[2].

---

(١) ورد باللاتينية: *dominum ac servum nullis educationis deljcis dignoscas*

(٢) §§ ٥٩٩ وما يتبع؛ ١٠٥٧ وما يتبع.

[§ ٥٥٧] والتاريخ القديم يظهر لنا في كلّ مكان وجود الأتباع والموالي. ويروي لنا ثوقيديدس أنّه في زمنه كانت سلالات *ثان* المصريّة متكوّنة من *آباء الأسَر* أو من رعاة كانوا أمراء أسرهم. وكان هوميروس يُسمّي دائمًا أبطاله بأسماء ملوك أو رعاة الشعوب، الذين سبقوا دون شكّ الرعاة الذين يقودون القطعان. هذه الأسَر التي يحكمها رعاة لا تزال في أيّامنا هذه كثيرة العدد في بلاد العرب، كما كانت من قبل في مصر. والإمبراطور شارلكان الذي راعه العدد الكبير من العبيد الذين تتكوّن منهم الأسر في الهند الشرقيّة رأى أنّه من الأفضل أن تُدخل بعض التعديلات على نظامها. ومن الظنّ عندنا أنّ النبيّ إبراهيم شنّ الحرب على ملك الوثنيّين بأسرته وحدها، والعلماء في اللغة المقدّسة يسمّون "*vernaculos*" الخدم الذين ساهموا معه في تحقيق النصر.

[§ ٥٥٨] وكان عند بداية هذه الأشياء أن بدأت في الحقيقة ما عُرف «*برباط هرقل*»، الذي جعل *الموالي* يُدعَون "*nexi*"، أي مرتبطين بالأرض التي كانوا يخدمون بها لصالح أسيادهم. وسرعان ما صارهذا الرباط يُعطي، بصفة رمزيّة، صيغة في قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، لتكريس كلّ الوثائق الشرعيّة للرومان. وبما أنّه لا يُمكن تصوّر مجتمع يكون فيه عدد المالكين الكبار بتلك القلّة ولا أكثر ضرورة للكثيرين الذين يلجؤون إليه، فمن الواضح حسب رأينا أنّه تشكّلت في تلك الفترة الشراكات الأولى في العالم، والتي -كما سبق قوله في *المسلّمات*(١)- كان أعضاؤها في البداية شركاء الأبطال، أي أولئك الذين وهبوا حياتهم للأبطال ليجعلوها تحت حمايتهم وفي المقابل يتركون لهم ثمرة عملهم. وهكذا نرى أوليس مستعداً لقطع رأس أنطينووس، رئيس شركائه، لمجرّد قوله شيئًا لم يعجبه. وفي رواية عاميّة نرى إينياس الورع يقتل شريكه ميسان لتقديمه قربانًا للآلهة. إلّا أنّ فرجيل الذي كان يكتب للشعب الروماني المتحضّر، لم يرد أن ينسب لإينياس الورع مثل ذلك الفعل، وافترض أنّ ميسان قُتل على يد تريتون، عقابًا له لأنّه تجرّأ على منافسته في نفخ البوق، ولكنّ فرجيل يجعلنا مع ذلك نتكهّن بالحقيقة، إذ يضع موت ميسان في عداد الواجبات المقدّسة التي فرضتها سيبيلاّ على إينياس، ويعترف أنّ إينياس لن يمكنه أن ينزل إلى العالم السفلي ما لم يدفن ميسان، ويقول بوضوح أنّ كوبيلي كانت قد أنبأته بموته.

---

(١) § ٢٥٨.

[§ ٥٥٩] كان هؤلاء الناس إذن شركاء في الأشغال فحسب، لا في الأملاك، وأقلّ من ذلك في الأمجاد، التي هي حكر على الأبطال، أو (κλειτοι، كليتوي) عند اليونانيّين، أي النيّرين. وقد لاقت ولايات الإمبراطوريّة الرومانيّة المسمّاة *شريكات الرومان* نفس المصير، وإيسوب يشتكي من هذا في خرافة *مجتمع الأسد*. ويخبرنا تاسيتوس أنّ موالي أو أتباع الجرمانيّين القدامى «*يكمن واجبهم الأساسي في الدفاع وفي حماية أميرهم، وفي أن تُنسب لمجده أيضًا إنجازاتهم العظيمة*»[1]، والتي تشكّل إحدى أهمّ الالتزامات المفروضة في وقتنا الحاضر على أهالي إقطاعاتنا. لهذا السبب ربّما يحمل كلّ أبناء وعبيد الرومان اسم أو شعار أب الأسرة ويصوَّرون بملامح الأب أو رئيس الأسرة. وبالفعل يسمّي الرومان، التماثيل النصفيّة لأجدادهم "*clypea*" أي دروع، التي يضعونا في كوّات محفورة في جدران أفنيتهم. والهندسة الحديثة تسمّيها "*medaglioni*"، أي ميداليات كبيرة، بالرجوع إلى لفظ «*ميدالية*». ويروي هوميروس أنّ أياكس المسمّى «*برج الإغريق*»، واجه وحده جيش طروادة. ويخبرنا اللاتينيّون من جهتهم أنّ هوراثيوس وحده كان كافيًا لصدّ مرور جيش التوسكانيّين فوق الجسر بأجمعه. إلاّ أنّه ينبغي علينا أن نفهم أنّ المقصود بأياكس وبهوراثيوس ليس هذيْن البطليْن فحسب بل ومعهما أتباعهما. وعلى هذا النحو تمامًا ينبغي تأويل حكاية الأربعين فارسًا نورمانديًّا الذين في طريق عودتهم من الأراضي المقدّسة اعترضوا جيشًا من السراسنة، "saraceni"[2] كان يحاصر مدينة *سلارنو*، وشتّتوه. لذا فإنّ نشأة الإقطاعات تعود إلى الزمن البعيد التي قدّم فيه الأبطال حمايتهم لأولئك اللاّجئين الذين استنجدوا بهم وأسكنوهم على أراضيهم. وهذه الإقطاعات كانت في البداية ريفيّة وشخصيّة، كان فيها الأتباع أولئك ال "*vades*"، أي المتشرّدون الأوائل الذين كانوا يتبعون الأبطال حيثما يقودونهم لخدمة حقولهم، وكانوا يُسمّون "*rei*"، ويُجبرون على المثول أمام القضاء إلى جانب أسيادهم. ومن ثمّ بقيت لفظة "*vas*" باللاتينيّة و(βάς، باس) باليونانيّة و"*Was*" و"*Wassus*" عند الإقطاعيّين في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] لتعني "*vassalli*" أي موالي أو

---

(١) ورد باللاتينية: *suum Principem defendere et tueri, sua quoque fortia facta gloriae ejus adsignare, praecipuum juramentum est*

(٢) أصل اشتقاقه من كلمة شرق العربية.

أتباع. ثمّ جاءت الإقطاعات الريفيّة الحقيقيّة وصار الأتباع أولئك الـ "*praedes*" أو الـ "*mancipes*" الأوائل، أي أنّهم ملزمون بالبقاء في أراضيهم. لذا صارت لفظة "*mancipes*" تشير إلى الآن إلى الذين هم ملزمون بدفع الأداء للخزينة العموميّة.

[§ ٥٦٠] هكذا إذن بدأت المستوطنات البطوليّة الأولى، التي نسمّيها متوسّطيّة (أي وسط الأراضي) لتمييزها عن المستوطنات البحريّة التي نشأت لاحقًا على سواحل البحر. كانت هذه المستوطنات الأولى متكوّنة من مجموعات صغيرة من اللاجئين قادمين من وراء البحر ليبلغوا أراضيًا جديدة، كما سبق أن ذكرنا ذلك في *المسلّمات*[1]: لأنّ *الاسم* لا يعني غير ذلك، أي جماعات من العمّال اليوميّين الذين يفلحون الأرض، ليستمدّوا منها قوت يومهم. نجد هذين النوعيْن من المستوطنات ممثّليْن في خرافتيْن. النوع الأوّل، أي المستوطنات البطوليّة أو البريّة، يمثّله *هرقل الغاليّ* وهو يقود مجموعات من البشر مكبّلين من آذانهم بسلاسل من الذهب الشعريّ، أي بالقمح الذي كان يخرج من فمه، ويحملهم حيثما يريد. وقد اعتُبر هرقل هذا رمزَ الفصاحة، إلّا أنّ من تقبّل هذا الافتراض لم يفكّر أنّ هذه الخرافة ابتُدعت في زمن كان الأبطال أنفسهم لا يعرفون فيه الكلام. أمّا قيام المستوطنة البحريّة فتمثّله خرافة فولكانوس وهو يحمل في شبكته مارس وفينوس العاميّيْن ويعرضهما عاريَيْن إلى نور الشمس: هذا العراء يعني أنّ مارس وفينوس لم يكونا مكسويْن بالنور المدني الذي يكسو الأبطال؛ والآلهة أو أشراف المدن البطوليّة كانوا يسخرون من مارس وفينوس، مثلما كان الأشراف الرومان ينظرون باحتقار إلى العامّة المساكين.

[§ ٥٦١] أخيرًا نشأت الملاجئ. أسّس قدموس ملجأً أو محمية صارت من بعد *طيبة*، أقدم المدن الإغريقيّة. وأسّس تيزيوس *أثينا* على *مذبح البؤساء*، وسُمّوا بالبؤساء أولئك المشرّدون/*الأشرار* الذين كانوا محرومين من الفضيلة الإلهية ومن مُلك الأراضي وهما أمران أُتيحَا لأتقياء المجتمع البشري. وأسّس رومولوس *روما* في الملجأ الذي أقامه بجهة لاتيوم، إلّا إذا اعتبرنا أنّ هذا المؤسّس لمدينة جديدة رأى أنّه من المناسب أن يؤسّسها حسب العادات المتّبعة من طرف المؤسّسين الآخرين لأقدم مدن لاتيوم، والتي كان تيتوس ليفيوس يعرّفها بأنّها الرسم القديم لمؤسّسي المدن "*vetus urbes*

---

(١) § ٣٠٠.

"*condentium consilium*"[1]، ولذا لا يستقيم القول، كما أشرنا سابقًا، بأنّ رومولوس ورفاقه كانوا أبناء تلك الأرض. ويعلمنا تيتوس ليفيوس في فقرة له أنّ نشأة المدن تعود إلى إقامة الملاجئ التي كان هدفها حماية البشر من أهوال العنف. واستحقّ جوبيتر بالمناسبة لقب "*Ospitale*" أي المضيف، وكان اللاجئون هم الضيوف الأوائل أو غرباء المدينة. ويحتفظ لنا التاريخ الشعري الإغريقي من بين أعمال هرقل البطوليّة بهذيْن العمليْن: أنّه جاب الدنيا للقضاء على الوحوش المفترسة، وأنّه نظّف زرائب أوجياس.

[§ ٥٦٢] وهنا خلق خيال الشعراء آلهتيْن أخرييْن هما مارس وفينوس. ومارس هو رمز للأبطال الذين كانوا يكافحون "*pro aris, et focis*"، أي من أجل ديانتهم، وهي قضيّة بحقّ بطوليّة لأنّ الجنس البشري يلجأ للدين حين تعوزه إسعافات الطبيعة، وهذا ما يجعل الحروب الدينيّة أكثر الحروب دمويّة وشراسة، مثلما يلجأ الفاجر للدين حين يتقدّم به السنّ وتنقصه معونة الطبيعة. لذا جعلنا من الدين منذ البداية المبدأ الأوّل لهذا *العِلم*. وفي الأوّل حارب مارس في ساحات وغى حقيقيّة، وتسلّح بدرع حقيقيّ سمّاه الرومان "*clupei*" أو "*clypei*" من لفظ "*cluer*"[2]. كما أنّه في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] سُمّيت المراعي والحقول المسيّجة "*difese*" أي حصونًا. ولمّا كان الحديد غير معروف آنذاك فقد كانت الأسلحة الأولى متكوّنة من أعواد شجر حُرقت أطرافها وجُعلت مدبّبة وقادرة على الجرح. هذه الرماح البسيطة دون حديد، كانت تُمنح كمكافأة للجنود الرومان اعترافًا لهم بالبسالة؛ لذا نرى مينيرفا وبيلّونا وبلاّس ممثّلات لدى اليونانيّين وهنّ يمسكن بأيديهنّ رمحًا؛ ولهذا أيضًا نجد أنّ اللاتينيّين إشتقّوا من لفظ "*quiris*"، أي الرمح، اسمي «*كويرينوس*» و«*كويرينا*» اللذين لقّب بهما مارس وجونو. ورومولوس الذي برع في استعمال الرمح، استحقّ بعد موته لقب «*كويرينوس*». والشعب الروماني المسلّح بالرماح مثل الإسبرطيّين، شعب الإغريق البطولي، تلقّى في الاجتماعات اسم "*Quirites*". ونقرأ في *التاريخ الروماني* أنّ الأقوام الهمجيّة كانت تحارب برماح توصف بـ "*praeustas sudes*" أي طرفها محروق، ومثل هذه الرماح وُجدت مؤخّرًا بأيدي سكّان أمريكا. وفي وقتنا الحاضر يستعمل النبلاء في المباريات

---

(١) سبق ذكره § ١١٤.

(٢) جاء ذكر اللفظتيْن في §§ ٥٣٣، ٥٥٦.

رماحًا شبيهة بالتي كانت تستعمل سابقًا في الحروب. هذا السلاح هو بمثابة التعبير عن قوّة، إذ يتمثّل في مدّ الذراع إلى الأمام لاعتراض خطر يقترب من الجسم. وبالفعل، فإنّ الأسلحة الأقرب إلى الجسم هي تلك الخاصّة بالحيوانات، لأنّها لا تعبّر إلّا قليلاً عن فكرة إبعاد الجسم عن الخطر.

[§ ٥٦٣] وقد سبق أن رأينا[١] أنّ الحقول التي دُفن فيها الأموات كانت إقطاعات العالم الأولى، لذا نجد في علم الشعارات أنّ الترس هو أساس السلاح. ورأينا أنّ ألوان هذه الحقول لها دلالات *حقيقيّة*: الأسود، وهو لون الأرض التي حرقها هرقل، والأخضر الذي هو لون المروج، والأصفر الذي لا يمثّل -كما اعتقد البعض- لون الذهب، بل لون سنابل القمح وقت الحصاد. وكان الرومان يملأون بالقمح تروس الجنود الذين حاربوا ببسالة. وسُمّي المجد العسكري "*adorea*" من "*ador*" التي تعني القمح المحمّص الذي كان يقتات منه الجنود. وكان اللاتينيّون القدامى يسمّون هذا القوت "*adur*" من "*uro*" الذي يعني *أحرق*، ولعلّ فعل "*adorare*" أي «عَبد» كان في معناه الديني الأوّل يعني تحميص القمح. واللون الأزرق كان يذكّر بلون السماء، واللون الأحمر بدم اللصوص الأشرار الذين قتلهم الأبطال حين كانوا يجدونهم في أراضيهم. وشعارات النبالة في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى] كانت تعجّ بالليوث السوداء والخضراء والذهبيّة والزرقاء وأخيرًا الحمراء. وهذه الليوث من كلّ الألوان تحيل كلّها على الأسد الذي قتله *هرقل*، وهو يعني الأراضي المزروعة التي وقع تمثيلها بهذه الألوان المختلفة. وهذه الشعارات مثقلة بفرو السنجاب الأحمر أو الفيْر الذي يشير دون شكّ إلى أخاديد المحراث التي بذر فيها قدموس أسنان الثعبان الذي قتله، فخرج منها الرجال المسلّحون. والعديد من هذه الشعارات تشقّها قضبان ترمز إلى رماح الأبطال، وتعبرها مكدّات تشير دون شكّ إلى أدوات الفلاحة. ونستخلص من كلّ هذا أنّ الفلاحة سواء في الأزمنة البربريّة الثانية [القرون الوسطى] أو في الأزمنة الأولى هي التي صنعت نبالة الأمم.

[§ ٥٦٤] كانت تروس القدامى مغطّاة بالجلود، مثلما أخبرنا الشعراء من أنّ الأبطال الأوائل يرتدون، كأثواب، جلود الحيوانات المفترسة التي كانوا يقتلونها. ونقرأ في *Pausania* أنّ البطل الإغريقي، بيلاسج، الذي أعطى اسمه إلى أمّةٍ بأكملها، والذي

---

(١) انظر § ٥٢٩.

يُذكر اسمه في كتاب أبولّودورو *de origine Deorum*، باليونانيّة «αὐτόχθώνος، أفتوخثونوس» أي «*ابن الأرض*»، أو أحد الجبابرة، كان من اخترع الأثواب المصنوعة من جلود. ودانتي[1] في حديثه عن شخصيّات الأزمنة القديمة قال إنّهم كانوا يرتدون الجلود والعظام. كما أن بوكاتشيو[2] يروي لنا أنّهم كانوا متضايقين في أثوابهم الجلديّة. وكانت التروس مستديرة لأنّ الأراضي المستصلحة والمزروعة كانت أولى الكرات الأرضيّة، "*orbes terrarum*". ولفظ "*luco*" كان يعني *العيْن*، كما نقول اليوم إنّ العين هي الفتحة التي ينفذ منها النور إلى داخل البيت. إلّا أنّ هذا التعبير البطولي أسيء فهمه في البداية، ثمّ تغيّر معناه مع الزمن، فصار يشير إلى أنّ الجبابرة كانت لهم عين واحدة، بينما كان يعني في الحقيقة أنّ لكلّ واحد منهم "*luco*" خاصّ به. هؤلاء الجبابرة كانوا رفاق فولكانوس وعمّاله ويشتغلون معه في مصهره، أي في الغابات التي أحرقها، ويصنعون صواعق جوبيتر، أي الرماح الأولى ذات الشوكة المحترقة بالنّار.

[§ ٥٦٥] والإلهة الأخرى التي نشأت في عصور البشريّة القديمة كانت فينوس، وهي رمز الجمال المدني، بحيث أنّ "*honestas*" صارت تضمّ في معانيها النبل والجمال والفضيلة. وهي قد نشأت دون شكّ بهذا الترتيب. فالبشر أرادوا في البداية التعبير عن الجمال المدني، الذي يميّز الأبطال. ثمّ أشاروا به إلى الجمال الطبيعي، أي ذلك الجمال الذي يقع تحت حسّ من يملك الذكاء لتمييز مختلف أجزاء الجسم، ولتثمين تناسق مختلف تلك الأجزاء لتشكّل كلاً يتجلّى فيه الجمال. هذه القدرة على التمييز وهذا الذوق ليسا من شيم أناس الشعب والأرياف، وهذا ما جعل بعض الفقهاء يخطئون حين قالوا إنّه في تلك الأزمنة الأولى الخشنة والفظّة كان البشر يختارون ملكهم من بين الأجمل مظهرًا والأفضل تكوينًا. والرواية التي تروي لنا هذه العادة تشير دون شكّ إلى الجمال المدني، أي إلى نبل الأبطال. واستُعملت لفظة "*honestas*" للإشارة إلى جمال الفضيلة، التي لا يدركها إلّا الفلاسفة. والذين ينتمون دون شكّ إلى هذا الجمال المدني هم أبولّو وباخوس وغانيميد وبيلّيروفون وتيزيوس وغيرهم. ولعلّ فينوس مُثّلت أحيانًا تحت ملامح رجل لجعلها شبيهة بأولئك الأبطال والآلهة.

---

(١) دانتي أليغييري، سبق ذكره § ٤٨٥.

(٢) جيوفاني بوكاتشيو [١٣١٣-١٣٧٥]، كاتب وشاعر إيطالي، ذاع صيته بالخصوص من خلال كتابه «الديكامرون» وهي مجموعة من القصص شبيهة في نمطها بألف ليلة وليلة.

[§ ٥٦٦] ولعلّ فكرة الجمال المدني قد نشأت في ذهن الشعراء اللاهوتيّين من مشهد الأشرار الذين لجؤوا إلى أراضيهم والذين كان منظرهم قبيحًا وفظيعًا وكانت عاداتهم عنيفة وفوضويّة. وكان الإسبرطيّون، أبطال اليونان، ينشدون هذا الجمال لا غيره، حين كانوا يُلْقون من جبل *تايجات* المواليد المشوّهين وقبيحي المنظر، أي الذين وُلدوا من نساء نبيلات، ولكن خارج مراسم الزواج. هؤلاء الأبناء هم دون شكّ الأمساخ الذين يحكم عليهم قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* بأن يُلقَوا في نهر *التيبر*[1]. إذ من بعيد الاحتمال -في فترة كانت فيها القوانين قليلة- أن تكون مجالس *الدومفير* قد سنّت قانونًا خاصًا بقضايا أمساخ الطبيعة، الذين كانوا لا يمثّلون غير حالات نادرة، بينما في وقتنا الحاضر، ومع كثرة القوانين الموجودة، يترك المشرّع في الغالب القرارات الخاصّة بهذه القضايا الاستثنائيّة إلى اجتهاد القاضي. إذن فالمعنيّ هنا هم الوحوش المدنيّون الذين تشير إليهم *اللوائح الاثنتا عشرة*، ولعلّ بانفيلوس عنى واحدًا منهم حين داخله الشكّ في أنّ الشابّة فيلومينا حامل عندما قال إنّهم «*يطعمون شيئًا يشبه الأمساخ*»[2]، وتواصلت تسميتهم بهذه الصفة في القوانين الرومانية بدقّة تامّة في التعبير كما لاحظ ذلك أنطوان فافر في كتابه «*التشريع البابيني*» الذي كنّا قد أشرنا إليه بخصوص مسألة أخرى[3].

[§ ٥٦٧] وقد أخطأ تيتوس ليفيوس حين تناول العصور القديمة الرومانيّة مع معرفته الجيّدة لها، عندما قال إنّه لو قبل الأشراف بإشراك العامّة في التزوّج رسميًّا لنشأت من ذلك سلالة «*متناقضة مع ذاتها*»[4]، أي متكوّنة من أمساخ تمتزج فيهم طبيعتان، الطبيعة البطوليّة التي تميّز الأشراف والطبيعة الوحشيّة التي تميّز العامّة «الذين يمارسون الزواج على طريقة الحيوانات» [*agitabant connubia more ferarum*]. وقد اقتبس تيتوس ليفيوس هذه الكلمات من بعض كتّاب الحوليّات القدامى واستعملها دون دراية بالموضوع. فهو يستعملها من منطلق أنّ الأشراف يقبلون بالتزاوج بينهم وبين العامّة، بينما هؤلاء الأخيرون، فقراء في مقام العبيد، كان لا يدور بخلدهم أن يرفعوا من مطالبهم

(١) هو النهر الذي يشقّ روما.

(٢) ورد باللاتينية: *Aliquid monstri alunt ;*...

(٣) § ٤١٠.

(٤) باللاتينيّة *secum ipsa discors*

إلى هذا المستوى، وكانوا لا يريدون إلّا الحصول على الحقّ في عقد القران رسميًا فيما بينهم. ومن وجهة نظري، فإنّ هذا القول الذي يسوقه تيتوس ليفيوس ليس إلّا تعبيرًا مهينًا من طرف الأشراف تجاه العامّة. خصوصًا وأنّه أثناء النزاع الطويل بين الأشراف والعامّة بخصوص حقّ التزوّج رسميًا أي الحقّ في عقد القران [*connubium*]، كان الأوّلون يعيبون على الثانين أنّهم لكونهم لا يملكون النذور العامّة التي تجعل زيجاتهم شرعيّة من خلال الطقس الاحتفالي، فإنّه لا أحد منهم يملك أبًا «مؤكّدًا»، ومنه جاء هذا التعريف الذي نجده في القانون الروماني الذي يقول إنّ «*الزيجات الاحتفاليّة تبرهن عن وجود الآباء*»[1]. ولعلّ الأشراف كانوا يريدون أن يقولوا إنّ الشكّ في تحديد النسب يعرّض العامّة إلى الاقتران بأمّهاتهم أو بناتهم، كما تفعل الحيوانات.

[§ ٥٦٨] إلى فينوس العاميّة، أي كما يتصورها العوامّ، نُسبت الحمائم، لا كرمز لعاطفة الحبّ، بل لأنّها مثلما قال هوراثيوس وضيعة المنشأ، (*degeneres*)، مقارنة بالعقبان، التي ينعتها هوراثيوس نفسه بلفظ "*feroces*"، أي ضارية. هذه الحمائم تعني أيضًا أنّ *النذور* الشعبيّة خاصّة أو وضيعة المقام، مقارنة *بنذور* العقبان والصواعق التي يمتاز بها الأشراف، والتي يسمّيها فارّو وميسّالا بالنذور الكبرى أو العموميّة. ويعلمنا التاريخ الروماني أنّ جميع حقوق الأشراف البطوليّة تتوقّف على هذه النذور. وطيور التمّ، التي تُنسب لأبولّو، ربّ النبل، تُعتبر من صات فينوس برونوبا (*pronuba*)[2]، *إلهة الزواج* أو فينوس البطوليّة.

[§ ٥٦٩] وفينوس العاميّة كانت تُصوّر عارية، بينما نرى فينوس برونوبا مستترة دائمًا. وهذه الصورة التي أُوّلت لاحقًا على أنّها تحريض على الشهوانيّة، كانت تمثّل على العكس الحياء الطبيعيّ أو بالأحرى حسن النيّة الذي كان أبناء الشعب ينظرون به إلى واجباتهم الطبيعيّة. ذلك أنّ العامّة، كما سنبيّن لاحقًا في باب *السياسة الشعريّة*[3]، لم يتمتّعوا في المدن البطوليّة بأيّ حقّ ولم يعقدوا فيما بينهم أيّ إلزام يمكن أن يربطهم

---

(١) باللاتينية *nuptiae demonstrant patrem*

(٢) Pronuba تعني باللاتينة للعروس والمقصود تلك الإلهة التي يسمونها فينوس ويعتقدون أنها تحضر لتبارك زيجات الرومان.

(٣) § ٥٩٧.

بمواثيق القانون المدني. لذا نُسبت إلى فينوس المحاسـن العارية، وعند اللاتينيّين كان للفظتيْ *caussa* و*grazia*، نفس الدلالة، بحيث أنّ المحاسن العارية كانت تمثّل بالنسبة للشـعراء «*الشـروط العاريـة*»، أي الاتّفاقـات المكرّسـة بالواجـب فحسـب أو بالالتـزام الطبيعي. وهذا السـبب نفسـه جعل المشرّعين الرومان يشيرون باسم "*patti stipulati*" أو عهود مشروطة أو شروط قانونيّة، إلى الشروط أو العهود التي كان المفسّرون القدامى يسمّونها "*patti vestiti*" أي كاسية، مقابل "*patti nudi*" أي عارية، أي غير المشروطة. هـذه الأخيـرة هـي إذن عهود لا تقع تحـت طائل القانـون، وكلمة "*stipulatio*" ليسـت مشتقّة من "*stipes*" ولا تعني «*ما تستند إليه العهود*»؛ لأنّه في هذه الحالة سيكون اللفظ هـو "*stipatio*"، بينمـا كلمـة "*stipulatio*" متأتّيـة مـن "*stipula*"، وهـي كلمـة كان الفلاّحون في إقليم لاتيوم يشيرون بها إلى غلاف القمح. كما أنّ قول "*investiture de' feudi*"، أي تولية الإقطاعات، و"*exfestucare*"، أي الحرمان من الشرف، يرجعان إلى نفـس الأصـل؛ لـذا فـإنّ كلمتـيْ *caussa*و*grazia* كانـت لهما فـي البداية نفـس الدلالة بخصـوص العقـود المبرمة مـن طرف العامّة فـي المدن البطوليّـة. وعندمـا أُدخِلت تاليًا العقـود المسـمّاة "*de jure naturali gentium*" التـي يضيـف إليهـا أولبيانـوس[1] لفظ "*humanarum*"، اتّخذت لفظتا *caussa* و*negocium* المعنى نفسه. إذ أنّه في مثل هذه العقود فإنّ المعاملات المبرَمة تكون دائمًا تقريبًا ما يُطلق عليه الرومان اسم *caussae* أو *cavissae*، أو *cautelae* التي تقوم مقام اشتراطات ضامنة للعقود.

---

(١) اسمه اللاتيني دوميتيوس أولبيانوس [حوالي ١٧٠ - ٢٢٣ م] سياسي ورجل قانون روماني من بداية القرن الثالث ميلادي.

[الباب الثالث]

إستنتاجات بخصوص العقود التي تتمّ بمجرّد التراضي

[§ ٥٧٠] كانت الشعوب البطولية لا تهتم إلّا بما هو ضروري للعيش، ولا تقتات إلّا بما تجود به الطبيعة، ولا تدرك من نفسها إلّا ما هو جسدي، لذا فلم تكن تعرف منفعة المال، ولم تكن تقبل في شرائعها العقود التي في وقتنا الحاضر تتمّ بمجرّد التراضي بين الطرفيْن. كانت تلك الشعوب تؤمن بالخرافات لأنّها كانت فظّة. والفظاظة تأتي من الجهل، والفكر يشكّ دائمًا في شيء يجهله. وإذ كانوا لا يعرفون معنى لحسن النيّة، فقد كانوا يلجؤون في ضمان الالتزامات التي يشرطونها في عقودهم بوضع يد المتعاقد. ويمكن أن تكون هذه اليد مفترضَة فحسب، يكفي أن يكون وجودها منصوصًا عليه في العقد نفسه، بواسطة إجراءات رسميّة ينصّ عليها القانون. ومن هنا جاء هذا الباب الشهير من قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*: *إذا أبرم أحدهم عقدًا وحوز ملكيّة، ما نطق به اللسان يكون حقًّا*[1].

والحقائق التالية هي نتيجة هذه الطبيعة للأشياء البشريّة والمدنيّة.

١

[§ ٥٧١] كانت عقود البيع والشراء القديمة *مبادلات*. وتلك التي تخصّ العقار كانت تسمّى في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] *livelli* أو *libelli*. ومنافعها كانت واضحة، إذ أنّه بهذه الطريقة كان الملاّك الذين تنتج أراضيهم كمًّا وافرًا من منتَج ما يستبدلون ما يزيد عن حاجتهم بمنتوجات أخرى لا تتوفّر لديهم.

٢

[§ ٥٧٢] بخصوص كراء المنازل فقد كان ذلك غير ممكن في زمن كانت فيه المدن محدودة المساحة والمنازل قليلة، لذا من الظنّ أنّ ملاّك الأراضي كانوا يتركون استعمالها لمن يريد أن يبني فوقها منزلا، مقابل دفع *أجرة*.

---

(١) ورد باللاتينيّة: *si quis nexum faciet mancipiumque uti lingua nuncupassit, ita jus esto*

٣

[§ ٥٧٣] كان كـراء الأراضي دون شـكّ في شـكل إجارة حكريّـة (*enfiteusi*)، التي التـي كان اللاتينيّون يسـمّونها "*clientelae*"، ولذا قـال النحويّون دون فهم معناها جيّدًا إنّ الموالي (*clientes*) كانوا نوعًا من المؤاكرين أو *colentes*.

٤

[§ ٥٧٤] قد يكون لهذا السبب أنّه لم تحتفظ لنا المحفوظات القديمة بعقود في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] إلّا بمؤاكرات[1] ديار أو أراض، سواء لفترة محدودة أو دائمة.

٥

[§ ٥٧٥] وربّما للسبب نفسه تُعتبر *المؤاكرة* جزءًا من عقود القانون المدني، *de jure civili*، الـذي يوافـق *القانـون البطولي الروماني*، *jure Heroico Romanorum* بحسـب *المبـادئ* التـي وضعناهـا، والـذي يقابلـه أولبيانـوس بالقانـون الطبيعـي *jus naturale Gentium Humanarum*، ويسمّي أولبيانوس هذا القانون «بالبشريّ» لتمييزه عن قانون *البشر الهمجيّين* الذين سبقوا *البشر المتحضرين*، وليس عن قانون البرابرة الذين كانوا في زمنه موجودين خارج الإمبراطوريّة الرومانيّة.

٦

[§ ٥٧٦] كانـت عقـود الشـراكة غير معروفـة، بفعل عادات الجبابـرة، حيث كان كلّ رئيـس أسـرة يهتمّ بشـؤونه الخاصّة ولا يُعيـر اهتمامًا بالآخريـن، كما رأينا سـابقًا[2] عند هوميروس بخصوص ما قاله بوليفيموس لأوليس.

---

(١) المؤاكـرة وتسـمى المخابـرة أو المزارعـة وهي دفـع أرض لمن يعمل عليهـا بزرعها وتنميتها بجزء مشـاع معلوم من التحصيل.

(٢) § ٥١٦.

٧

[§ ٥٧٧] وللسبب نفسه كانت الوساطات غير معروفة. وبقي من ذلك هذه القاعدة الموجودة في القانون المدني القديم: «*لا أحد يمكنه الحيازة بواسطة شخص غريب عن الأسرة*»[١].

٨

[§ ٥٧٨] ولكن حين جاء من بعدُ القانون الطبيعي للأقوام البطولية -القانون الذي عرّفه أولبيانوس بقانون الأقوام *المتحضّرة*- تغيّرت الأمور إلى حدّ أنّ عقود البيع والشراء التي كانت في السابق لا تقتضي نزع اليد، إلّا إذا نصّ العقد على *الأجر المزدوج* أو "*stipulatio duplae*"،التي صارت تشكّل الآن أساس العقود المعرّفة «*بحسن النيّة*»، والأجر المزدوج أو "*dupla*" واجب طبيعيّ حتّى وإن لم يقع التنصيص عليه في العقد.

(١) ورد باللاتينيّة: *per extraneam personam acquiri nemini*

[الباب الرابع]

القياس الميثولوجي

[§ ٥٧٩] بالرجوع إلى الشخصيّات الثلاث الميثولوجيّة فولكانوس[١]، ومارس[٢] وفينوس، تجدر الملاحظة، التي ينبغي اعتبارها قياسًا مهمًّا في ميثولوجيّتنا، فإنّ هذه *الشخصيّات* الثلاث مزدوجة الطبيعة، أي أنّ كلّ شخصيّة منها تمثّل في الآن نفسه *رمزًا* أو *نمطًا بطوليًا* وكذلك *رمزًا* أو *نمطًا عاميًا*. وهكذا، فنحن نرى فولكانوس يشرخ بضربة فأس رأس جوبيتر، وتولد منه مينيرفا[٣]؛ ثمّ نرى فولكانوس الذي كان يريد التدخّل في نزاع بين جوبيتر وجونو فيقذفه جوبيتر من السّماء بركلة تتركه أعرج. ومارس -حسب قول هوميروس- يتلقّى من جوبيتر لومًا حانقًا إذ ينعته بأحطّ إله من بين جميع الآلهة، ومينيرفا من ناحيتها -دائما حسب هوميروس- تجرحه بضربة حجر أثناء صراع الآلهة؛ لذا فإنّ فولكانوس ومارس يمثّلان هنا العامّة من الشعب الذين كانوا يخدمون الأبطال أثناء حروبهم. أمّا فينوس فهي تمثّل دون شكّ رمز أو نمط المرأة الطبيعيّة عند العامّة. لذا حين فوجئت فينوس العاميّة وهي تعاشر مارس العامّي من طرف فولكانوس البطولي، وقع جرّها عارية تحت نور الشمس لتصبح أضحوكة الآلهات الأخرى. وقد اعتبر البعض -غلطًا منهم- أنّ فينوس هي زوجة فولكانوس، بينما قد ذكرنا سابقًا أنّه لم يكن هناك أيّ زواج في السّماء ما عدا الزواج دون نسل، بين جوبيتر وجونو. لا يُعتبر مارس زوج فينوس، بل عشيقها، لأنّ العامّة لا يتزوّجون رسميًّا، بل يكتفون بقران طبيعيّ، يسمّيه اللاتينيّون "*concubinatus*".

---

(١) إله النار في الأساطير اليونانيّة، وكذلك البراكين والحدادة وهو راعي الحدّادين وغالبًا ما يُصوّر حاملا مطرقة الحدّاد.

(٢) إله الحرب والشباب والعنف في الأساطير الرومانية وهو من أهمّ الأرباب في روما القديمة إذ يُعتبر أب رومولوس وريموس مؤسّسيْ المدينة وحاميْها.

(٣) في الأساطير الرومانية هي إلهة الحكمة والفكر السامي والذكاء وربّة المهارات والحرف والفنون.

[§ ٥٨٠] على غرار هذه الشخصيّات الثلاث، سنتعرّض بالشرح لاحقًا لشخصيّات أخرى، مثل تنتالوس العامّي[1] الذي لا يصل إلى التفّاح الذي لا يزال يرتفع ولم يقدر على الوصول إليه، وينحني لشرب الماء الذي لا يزال ينخفض ولا تصلُهُ شفتاه؛ أوميداس العامّي[2] الذي يحوّل كلّ شيء إلى ذهب ولكنّه يموت جوعًا؛ وكذلك لينوس العامّي الذي يتجرّأ على منافسة أبولّو في الإنشاد فينهزم ويقتله هذا الأخير.

[§ ٥٨١] هذه الأساطير أو الأنماط المزدوجة كانت ضروريّة في العهد البطولي، حين كان العامّة لا يملكون أسماء ويتّخذون أسماء أبطالهم أو أسيادهم. يجب أن نأخذ أيضًا بعين الاعتبار فقر هذه اللغات الأولى، وأن نفكّر أنّه حتّى في وقتنا الحاضر غالبًا ما تدلّ لفظة ما على أشياء متعدّدة، وفي بعض الأحيان متناقضة.

---

(١) في الأساطير اليونانيّة ابن زيوس والحوراء بلوتو. لتهجّمه على الآلهة حُكم عليه بالعذاب الأبدي أن يبقى واقفًا في الماء تحت شجرة فاكهة خفيضة الأغصان لا يمكنه أبدًا بلوغ ثمارها وحين يريد شرب الماء تنحسر المياه. يُطلق اسمه على من يريد شيئًا لا يمكنه أبداً بلوغه.

(٢) في الأساطير اليونانيّة هو الملك ميداس وكان قادرًا على تحويل كلّ ما يلمسه إلى ذهب ولهذا السبب يموت جوعًا.

[القسم الخامس]

[السياسة الشعريّة]

[الباب الأوّل]

في السياسة الشعريّة
وبها نشأت الجمهوريّات الأولى التي كان شكلها أرستقراطيًّا بحتًا

[§ ٥٨٢] كنّا قد رأينا إذن كيف أنّ الأُسَر الأولى تشكّلت من خلال الحماية التي أولاها الأبطال لخدمهم. وعليه فإنّ هؤلاء كانوا الشركاء الأوائل، وكانت حياتهم وأملاكهم بيد الأسياد حيث كانت السلطة الأبويّة والمتجبّرة للأسياد تعطيهم حقّ الحياة والموت على أبناء الخدم كما تمنحهم سلطة استبداديّة على كلّ ممتلكاتهم. ولهذا السبب عرّف أرسطو أبناء الأُسَر باعتبارهم أدوات حيّة في خدمة الآباء. وحتّى في أكثر الأزمنة الرومانيّة حريّة شعبيّة، احتفظت *الألواح الاثنتا عشرة* للآباء بهذه السلطة المزدوجة على أشخاص وأملاك الأبناء، هذا الحقّ الذي كان يسمح لهم ببيعهم حتّى ثلاث مرّات، بينما إلى حدود حكم الأباطرة، كان الأبناء مثلهم مثل العبيد لا يملكون من مكسب إلّا ذلك المسمّى "*peculium profecticium*"، أي ما يأتيهم من الأب أو من الجدّ. في فترة لاحقة، عندما تليّنت العادات، عوّضت ثلاث بيعات وهميّة البيعات الواقعيّة، ومكّنت هذه الوسيلة الأبناء من التحرّر من سلطة الآباء. ولكنّنا نجد عند الغاليّين والسلتيّين سلطة متساوية على الأبناء أو على العبيد. ونجد في الهند الغربيّة العادة المتمثّلة في بيع الآباء لأبنائهم بصفة واقعيّة. وفي أوروبا كان الموسكوفيت والتّتر يجدّدون هذا النوع من بيع الأبناء حتّى أربع مرّات. وليس صحيحًا أنّ الأمم البربريّة الأخرى تعترف بالسلطة الأبويّة «*تمامًا مثلما هو الشأن عند الرومان*»[١]. هذا الرأي ناتج عن خطأ شائع سقط فيه العلماء في تأويلهم لما قاله المشرّعون بخصوص الأمم التي هزمها الرومان. وبالفعل فقد فقدت هذه الأمم كلّ حقوقها، وكلّ قانونها المدني بحكم قانون الغزو، ولم تحتفظ إلّا بسلطة الآباء الطبيعيّة أو بروابط الدم الطبيعيّة من ناحية،

---

(١) ورد باللاتينية: *talem, qualem habent Cives Romani*

وبالحقّ الطبيعي على الأراضي الذي هو حقّ استغلال الحقول، وهذه الحقوق تستوجب الالتزامات الطبيعيّة المسمّاة بحقّ الناس الطبيعي "*jure naturali Gentium*"، والتي يضيف إليها أولبيانوس عبارة "*humanarum*" أي الإنساني. والشعوب التي كانت خارج الأمبراطوريّة الرومانيّة كان لها دون شكّ قوانين مدنيّة شبيهة بتلك الرومانيّة.

[§ ٥٨٣] بموت الأب يسترجع أبناء الأُسَر كامل الحريّة، ويرث كلّ ابن هذه السلطة الأبويّة كاملة، حيث إنّ القانون الروماني يسمّي آباء الأُسَر كلّ المواطنين الرومانيّين المنعتقين من العبوديّة الأبويّة. ولكنّ الخدم الذين حُكم عليهم بأن يبقوا في عبوديّة دائمة بدؤوا في نهاية الأمر يتوقون إلى التحرّر من وضعيّتهم البائسة بدافع الرغبة الطبيعيّة، كما سبق أن بيّنّا ذلك في *المسلّمات*[1]، التي تجعل الإنسان المستعبَد يتوق إلى الحريّة. هؤلاء هم إذن أشباه تنتالوس العامّي الذي سبق الحديث عنه، الذي لا يمكنه قضم تفّاحة، أي التفاحة الذهبيّة بمعنى «*القمح*» الذي ينبت في أراضي الأبطال. هذا هو تنتالوس الذي ذكرناه سابقًا، الذي يتعذّب من الظمأ ولا يُمكنه أن يروي غليله من الماء القريب منه. وهذا إيكسيون الذي يدير العجلة على الدوام، وهذا سيزيف الذي يدحرج الصخرة التي ألقاها قدموس (أي الأرض المتيبّسة) ولا يقدر على منعها من التدحرج تاليًا إلى سفح الجبل ما أن يوشك على بلوغ قمّته. لذا يقول اللاتينيّون "*vertere terram*"، بمعنى فلاحة الأرض و"*saxum volvere*"، للإشارة إلى عمل طويل ومضنٍ يُنجز بحماس. وبسبب ذلك ثار الخدم أخيرًا على الأبطال، وتمرّدوا على آباء الأُسَر البطوليّة كما سبق قوله في *المسلّمات*[2]، وأنشؤوا الجمهوريّة.

[§ ٥٨٤] عند ذلك شعر الأبطال بضرورة تشكيل وحدة للتصدّي لجموع الخدم المتمرّدين. كانت هذه الوحدة بمثابة أسرة جديدة على غرار الأُسَر القديمة، ووضعوا على رأسها زعيمًا أو أبًا اختاروه من بين الأشدّ والأذكى منهم، وسمّوه ملكًا (*Re*)، من فعل "*regere*"، أي دعَم وساس. إلى هذا تشير الجملة الشهيرة التي قالها المشرّع بومبونيوس «*حكمت الظروف بذلك وتأسّست الممالك*»[3]، وهو قول يتوافق مع

---

(١) § ٢٩٢.

(٢) § ٢٦١.

(٣) ورد باللاتينيّة: *rebus ipsis dictantibus , regna condita*

مذهب القانون الروماني الذي يقول «*إنّ حقّ الناس الطبيعي أقرّته العناية الإلهية*»[١].
هكذا إذن كان الآباء في العهد البطوليّ *ملوكًا* على أُسرهم بسلطة مطلقة. هؤلاء الملوك المتساوون فيما بينهم شكّلوا *مجالس الشيوخ الحاكمة* (*Senati Regnanti*)، أي مجالس متكوّنة من ملوك الأُسَر يجمع بينهم الحفاظ على سلطتهم ومصالحهم بصفة مشتركة، اتّخذت اسم "*patria*" (وطن). ولفظ "*patria*" مع اللفظ المضمّن فيه "*res*"، يعني مصلحة الآباء. بعد ذلك اتّخذ الأشراف اسم "*patricj*"، ونفترض من ذلك أنّهم كانوا في البداية المواطنين الوحيدين لهذه الأوطان الأولى. وما يؤكّد هذا الافتراض رواية تقول إنّ الملوك كانوا منتخبين في البداية على أساس الحقّ الطبيعي أي مولدهم. وهناك فقرتان لتاسيتوس في كتابه «*في تقاليد الجرماتيين القدامى*» [*de Moribus Germanorum*]، تجعلنا نخمّن أنّ نفس التقليد كان جاريًا عند كلّ الشعوب البربريّة. تقول الفقرة الأولى: «*ليست الصدفة، وليس اجتماعًا عارضًا يمثّل فريقًا أو تشكيلة في ركن، بل الأُسَر والأقارب*»[٢]؛ وتقول الفقرة الثانية: «*القادة هم كذلك بالقدوة أكثر منهم بالسلطة؛ إن هم جازمون، إن جلبوا إليهم الأنظار، إن قاتلوا في الواجهة، فإنّهم سيفرضون أنفسهم بالإعجاب الذي يثيرونه في غيرهم*»[٣].

[§ ٥٨٥] وبإمكاننا أيضًا أن نستخلص أنّه مثلما كان الشعراء البطوليّون يقولون عن جوبيتر إنّه ملك البشر والآلهة، هكذا كانوا هم أيضًا الملوك الأوائل على الأرض. كما يروي لنا هوميروس أنّ جوبيتر تذمّر لدى ثيتيس من عجزه أمام القرارات المتّخذة من طرف الأرباب المجتمعين في المجلس الأعلى الإلهي. وهذا القول جدير بملك أرستقراطي لو لم يؤوّله غلطًا الرواقيّون حسب مذهبهم بتبعيّة جوبيتر للقدر. إلّا أنّ جوبيتر والأرباب الآخرين اجتمعوا في مجلس لتقرير الأشياء البشريّة التي يتعيّن عليهم التدخّل فيها وتلك التي هم أحرار في اتّخاذها. وهذا يفسّر لنا قول هوميروس على لسان أغاممنون بخصوص عصيان أخيل وعلى لسان أوليس بخصوص اليونانيّين المتمرّدين

---

(١) ورد باللاتينية: *ius naturale gentium divina providentia constitutum*

(٢) ورد باللاتينية: *non casus, non fortuita conglobatio turman, aut cuneum facit, sed familiae, et propinquitates*.

(٣) ورد باللاتينية: *Duces exemplo potiusquam imperio ; si prompti, si conspicui, si ante aciem agant, admiratione praesunt*.

والرافضين العودة إلى ديارهم ما حتّم ضرورة حصار طروادة، إذ قال كلاهما إنّه لا يوجد إلّا ملك واحد. واستنتج العلماء في السياسة من هذيْن القوليْن أنّ هوميروس كان حاضرًا عند تأسيس الملكيّة، بينما كان هوميروس يشير فقط إلى الجيش، الذي يجب أن يكون له أثناء الحرب زعيم واحد، أي قائد عامّ، عملا بقول تاسيتوس: «*شرط القيادة هو ألا يكون هناك إلّا شخص واحد يعود إليه* الأمر»[١]. ومن جهة أخرى نرى هوميروس في مواضع عديدة من قصيده يضيف دائمًا إلى أبطاله لقب *ملك*. وفي *سفر التكوين* نرى موسى وهو يعدّد سلالة أشعيا يشير إلى جميع المنتمين إليها بلقب ملك أو قائد أو ما يعبّر عنه النصّ اللاتيني *للكتاب المقدّس* بعبارة "*duces*". ويروي سفراء بيرّوس لملكهم أنّهم مثلوا في روما أمام مجلس الملوك. وفي الحقيقة من الصعب تصوّر أنّ الآباء في هذه الثورات الأولى قد قبلوا تغييرًا آخر غير استبدال سلطتهم الطبيعيّة التي كان يمارسها كلّ منهم في نطاق أسرته، بسلطة نظام أو مجلس متكوّن من أولئك الآباء أنفسهم. إذ أنّ من طبيعة الأقوياء، كما سبق ذكره في *المسلّمات*[٢]، ألّا يتنازلوا عن البعض من امتيازاتهم إلّا في حالات قصوى، وفقط عندما يكون ذلك ضروريًّا للحفاظ على الأهمّ من تلك الامتيازات؛ لذا نلاحظ غالبًا في التاريخ الروماني ذاك الازدراء البطولي لدى الأقوياء من الرجال الذين كانوا لا يحتملون «*أن يفقدوا بفعلة مهينة ما اكتسبوه بشرف*»[٣]. وإن نحن صدّقنا، كما سبق أن بيّنّا ذلك وكما سنرى لاحقًا[٤]، أنّ المجتمعات البشريّة لا تستمدّ نشأتها من خدعة أو عنف شخص واحد ضدّ أشخاص كثيرين، فإنّه ينبغي علينا استنتاج أنّ السلطة المدنيّة نشأت من سلطة الأُسَر، وأنّ عقارات الدولة المدنيّة نشأت من عقارات الآباء الطبيعيّة، التي كما سبق أن رأينا[٥]، كانت "*ex jure optimo*"، بمعنى أنّها لا تخضع لأيّ عبء جبائي عموميّ أو خاصّ.

[§ ٥٨٦] ولدينا ما يؤيّد هذا في البراهين المستمدّة من الاشتقاق اللغوي، إذ أنّ الجمهوريّات التي تأسّست على الأراضي التي كانت على ملك الآباء والتي سُمّيت

---

(١) ورد باللاتينية: *eam esse imperandi conditionem, ut non aliter ratio constet quam si uni reddatur*.

(٢) § ٢٦١.

(٣) ورد باللاتينيّة: *virtute parta per flagitium amittere*

(٤) §§ ٥٢٢؛ ١٠١١-١٠١٣.

(٥) § ٤٩٠.

"*dominium optimum*"، والتي كان الإغريق يسمّونها «δικαιον αριστον، ديكايون اريستون» سُمّيت عند الإغريق «أرستقراطيّة»، بينما سمّاها اللاتينيّون "*respublicae optimatum*"، من "*Opi*" التي كانت إلهة القوّة؛ ولهذا السبب ربّما اتّخذت جونو زوجة جوبيتر، أي زوجة أحد أولئك الأبطال الذي ادّعى لنفسه لقب إله، اسم *Opi* أو أوبس، الجذر الذي جاء منه *optimus* و*optimas*. كانت جونو تُعتبر في لغة النذور، زوجة جوبيتر أي السّماء الصاعقة، وكانت سيبال أمّ الآلهة، أي أمّ الجبابرة أو الأشراف، واتّخذت فيما بعد، في الكوسموغرافيا الشعريّة، لقب *ملكة المدن*. هذه الجمهوريّات الأولى سُمّيت إذن *respublicae optimatum*، لأنّ هدفها كان المحافظة على سلطة الأشراف، التي لا يمكن أن تتحقّق إلّا بالحفاظ على الأنظمة وبمراقبة التخوم. وبخصوص الهدف الأوّل تمّ ربط الامتيازات بروابط الدم، ولم يمكن للعامّة إلى حدود سنة ٣٠٩ من تاريخ روما الحصول على حقّ القِران، أي الوصول إلى منبع الأسرة والقرابة، ثمّ ناضل الأشراف لمنع العامّة من هيئة القضاء، واستحوذوا على امتياز الكهانة وعلى الحقّ الكامل في سنّ القوانين، التي كانت تعتبرها كلّ الشعوب شيئًا مقدّسًا، إلى حدود إقرار قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، كما يقول لنا دينيس داليكرناس في *المسلمات*(1)، كان الأشراف يحكمون روما حسب العرف والتقاليد، ويخبرنا المشرّع بومبونيوس أنّه بعد مئة عام من سنّ هذا القانون، بقي تأويله امتيازًا خاصًّا بالأحبار، أي بالأشراف الذين كانوا يكوّنون كامل المجمع. وبخصوص الشرط الثاني لاستقرار الجمهوريّات الأرستقراطيّة الذي هو حراسة التخوم، فإنّ الرومان إلى فترة الحرب ضدّ *كورينثيا* اكتفوا بتخومهم ولم يحملوا السلاح إلّا في سبيل قضايا عادلة، وتوخّوا دائمًا الحلم والاعتدال عند استعمالها، من خشيتهم أن تتوقّد الحمية الحربيّة لدى *العامّة* وأن يُثْروا بغنائم الحرب، كما سبق أن ذكرنا ذلك في *المسلّمات*(2).

[§ ٥٨٧] هذا الجزء المهم من *التاريخ الشعري* مضمّن بكامله في أسطورة ساتورن الذي كان يريد التهام ابنه الصغير جوبيتر، وكهنة سيبال الذين يخفونه عنه، وبضجّة الأسلحة يمنعونه من سماع صيحاته. يجب أن نفهم أنّ ساتورن يمثّل الخدم أو *famoli*،

---

(1) § ٢٨٤.

(2) §§ ٢٧٣-٢٧٦.

أي العمّـال اليوميّيـن الذين يفلّحون حقول *الآباء* أسيادهم، والذين يطالبون بحقّ التمتّع بملكيّة تلك الأراضي التي جعلوها خصبة بفضل عملهم. سـاتورن هو أب جوبيتر؛ لأنّه من مطالب العمّال نشأت حكومة الآباء المدنيّة، حكومة يمثّلها جوبيتر، زوج أوبس، أو إله الصاعقة والعقاب، أي النذيريْن الرئيسيّيْن. وجونو هي زوجة جوبيتر، أب الآلهة، أو بصفـة أصحّ أبـو الأبطال الذين يعتبرون أنفسـهم أبنـاء جوبيتر؛ لأنّهم وُلـدوا من الزواج الرسـمي الـذي كانت جونو الإلهة هي التـي ترعاه، ولطقوس الاحتفال بـه كانت النذور ضروريّة. وادّعى الأبطال أنّهم آلهة، وزعموا أنّهم وُلدوا من الأرض أو من أوبس، زوجة جيوبيتر. وحصل هذا الأخير على لقب «*أب البشر*»، أي ملك الخدم أو *famoli* في نظام الأُسَـر، وملك العامّة في المدن البطوليّة. والظلمات التي تغمر التاريخ الشـعري حجبت إلى الآن المعنى الحقيقي للقبيْ *أبي الآلهة وملك البشـر*، بحيث أنّ جوبيتر سُـمّي أحيانًا وغلطًا أبا البشر، أي الخدم [*famoli*]. بينما في أبعد أزمنة الجمهوريّة الرومانيّة القديمة، كان الخدم «*لا يقدرون على تسمية آبائهم*» لأنّهم، كما يقول تيتوس ليفيوس، نشؤوا من قِـران طبيعـيّ وليـس من زواج رسـميّ. ومنه بقي لنا في التشـريع الرومانـي هذا الحكم: «*القِران هو ما يثبت الأبوّة*»[*nuptiae demonstrant patrem*][1].

[§ ٥٨٨] بالرجوع إلى الأسـطورة المذكورة، نرى إذن أنّ كهنة سـيبال أو أوبس، هم الذين أخفوا جوبيتر، ما يدلّ على أنّ الممالك الأولى قد حكمها الكهنة، كما سبق ذكره وكمـا سـنبيّن لاحقًا[2]. ومن مخبئه اسـتمدّ فقهاء اللغة أصل اسـم لاتيـوم، الإقليم الذي توجـد بـه رومـا. وقـد أمدّتنـا اللغـة اللاتينيّـة بقصّـة هـذا الأصل فـي الجملة التـي تقول "*condere regna*"، أي أسّس الممالك؛ لأنّه مثلما سبق قوله، تحالف *الآباء* ضدّ الخدم المتمرّدين، وانغلقوا على أنفسهم في مجلس ومن مداولاتهم السريّة نشأت ما سمّاه فيما بعـد السياسـيّون بــ "*arcana imperj*"، أي السـلطة السـريّة. أنقـذ كهنة سـيبال جوبيتر بتغطية صراخه بضجيج أسـلحتهم، أي أنّهم أنقذوا من الدّمار نظام الأشـياء الذي وُضع لتوّه، حتى قال أفلاطون إنّ الجمهوريّات تأسّسـت بقوّة السـلاح. ويجب أن نضيف إلى هذا ما قاله لنا أرسطو في *المسلمات*[3]، من أنّه في الجمهوريّات البطوليّة أقسم الأشراف

---

(١) §§ ٤٣٣؛ ٥٦٧.

(٢) §§ ٢٥٤، ٢٦٧–٢٦٨، ٥٩٣–٥٩٤.

(٣) § ٢٧١.

على أن يكونوا على الدوام أعداء العامّة، وبقيت من ذلك الخاصيّة الدائمة التي بمقتضاها نقول الآن إنّ الخدم هم أعداء أسيادهم. ولكي ندعم أخيرًا هذا الرأي، نذكر أنّ اليونانيّين اشتقّوا لفظ «Πόλεμος، پوليموس» أي حرب، من «πόλεις، پوليس» الذي يعني *مدينة*.

[§ ٥٨٩] وسرعان ما ابتدعت مخيّلة اليونانيّين الإلهة مينيرفا، العاشرة من بين الآلهات الكبرى لدى أعيان القوم [*gentes maiores*]. وقصّة نشأتها لو قرأناها حرفيًّا لبدت لنا فظّة ووحشيّة: فقد فلق فولكانوس بفأس رأس جوبيتر وخرجت منه مينيرفا، والمراد من هذه الصورة أنّ جموع العامّة المحكوم عليهم بالعيش في عبوديّة يمثّلهم في الجنس الشعري كما سبق ذكره[١] فولكانوس العامّي، الذي يحاول جاهدًا أن يضعف وأن يكسر سلطة الآباء الجبّارة التي يمثّلها جوبيتر. ويعبر اللاتينيّون عن هذا بالعبارة "*minuere caput*"، أي فلق الرأس. وبما أنّهم كانوا لا يعرفون كيف يعبّرون بطريقة مجرّدة عن فكرة المُلك، فقد عبّروا عنها بطريقة ملموسة من خلال كلمة "*capo*"، أي رأس، بمعنى القائد أو الحُكم، الذي اتّخذ في المدينة الشكل الأرستقراطي، بينما في الأسرة بقي في الشكل الملكي. ولعلّ اسم مينيرفا جاء من الفعل "*minuere*"، الذي يعني فلق؛ أو ربّما جاءتنا من هذه الأسطورة الشعريّة المغرقة في القدم، أصل العبارة اللاتينيّة "*capitis deminutio*" بمعنى تغيّر الحال المستعملة في القانون الروماني، إذ أنّ مينيرفا غيّرت سلطة الأُسر لتصبح سلطة المدن.

[§ ٥٩٠] وقد أعطى الفلاسفة لهذه الأسطورة أسمى ما جادت به تأمّلاتهم الميتافيزيقيّة. فقد افترضوا أنّ فكرة السرمديّة نشأت عند الربّ من الربّ نفسه، بينما الأفكار المبتدَعة تنشأ فينا من الربّ. واعتبر الشعراء اللاهوتيّون من ناحيتهم أنّ مينيرفا هي رمز النظام المدني. وبالفعل فإنّ كلمة "*Ordo*" كانت تعني عند اللاتينيّين مجلس الشيوخ، ولعلّ هذا ما جعل الفلاسفة يرون في مينيرفا فكرة الإله السرمديّة أو فكرة النظام [*ordine*] السرمديّ. ولهي حقيقة سرمديّة أنّ حكمة المدن تكمن في النظام المتكوّن من أفضل مواطنيها. إلّا أنّ هوميروس يصوّر مينيرفا دائمًا على أنّها محاربة وقنّاصة، وفي كامل شعره لا يتحدّث عن حكمة نصائحها سوى مرّتين[٢]. ولا يذهبنّ

---

(١) § ٥٧٩.

(٢) في *الإلياذة*، V، ٢٦٠ و*الأوديسّا*، XVI، ٢٨٢.

الظنّ بأنّ البومة والزيتون المنسوبين إليها يرمزان إلى تأمّلاتها الليليّة وقراءاتها على نور الفتيلة. فهي ترمز بكلّ بساطة إلى المخابئ التي كانت فيها بداية البشرية، وربما بشكل أكثر ملاءمة للدلالة على أن الشيوخ المنسوبين للبطولة الذين أنشؤوا المدن قد شكّلوا متصوّرهم للقوانين في الخفاء، كما سبق أن قلنا ذلك[1]؛ أو أنّها ترمز بأكثر خصوصيّة إلى السريّة التي في المجالس البطوليّة تكتنف صياغة الشرائع. فقد كانت عادة *الأريوباجيت* -أي أعضاء مجلس شيوخ مدينة أثينا المكرّسة لمينيرفا والمسمّاة بالإغريقية «Αθηνά، أثينا»- أن يصوّتوا في الظلام. هذا التقليد البطولي سُمّي لدى اللاتينيّين ''*condere Lege*''[2]، ومنه سُمّي مجلس الشيوخ ''*legum conditores*''، أي الذي يفرض القانون. وأولئك الذين يبلغون عامّة الشعب القوانينَ التي سنّها مجلس الشيوخ اتّخذوا اسم ''*Legum latores*''، كما رأينا ذلك في التهمة الموجّهة لهوراثيوس[3]. كما أنّ الشعراء اللاهوتيّين لم يعتبروا أبدًا مينيرفا إلهة المعرفة، والدليل على ذلك أنّنا نراها على الشعارات مرسومة مسلّحة بتمامها وكمالها. ومينيرفا في *الكورس*، هي تمامًا مثل بالآس في المجالس الشعبيّة. وبالآس عند هوميروس[4]، وحين أعلن تيليماخوس عزمه اتّباع خطى أبيه أوليس، هي التي قادته إلى مجمع العامّة أو الشعب الآخر، حسب عبارة الشاعر نفسه. وأخيرًا فهي نفسها التي اتّخذت في الحروب اسم *بيلّون*.

[§ ٥٩١] وأولئك الذين ظنّوا غلطًا أنّ الشعراء اللاهوتيّين رأوا في مينيرفا إلهة المعرفة، ظنّوا أيضًا أنّ كلمة ''*curia*''تعني ما كان يُسمّى في الأزمنة الأكثر همجيّة ''*curanda republica*''، وبإمكاننا البرهنة على عكس ذلك وهو أنّ لفظ ''*curia*'' متأتّ من اللفظ اليوناني «χειρ، خير»، أي اليد، الذي اشتق منه اليونانيّون ''κυρία'' واللاتينيّون ''*curia*''. ولدعم هذا الافتراض نذكّر بأثريْن مهمّين سبق ذكرهما في *الجدول الزمني* وفي *الملحوظات* المصاحبة له[5]، واللذيْن لحسن حظّنا وجدهما

---

(١) § ٣٨٧.

(٢) فعل *condere* يعني في الآن نفسه «أسّس» و«أخفى».

(٣) §§ ٥٠٠، ٥٢١.

(٤) *الأوديسّا*، II، ٦ وما يتبع، ٢٦٧ وما يتبع.

(٥) § ٧٧.

ديونيسيوس بيتافيوس[1] في التاريخ اليوناني ما قبل عصر الأبطال، أي في الزمن الذي نسمّيه بعصر الآلهة عند المصريّين القدامى.

[§ ٥٩٢] ويتحدّث أحدهما عن تشتيت الهرقليّين، أي نسل هرقل، عبر كلّ اليونان، بما فيها *أتّيكا* حيث شُيّدت مدينة أثينا، والذين انسحبوا إلى *البيلوبونيز*، حيث كانت مدينة إسبرطة جمهوريّة تحت حكم ملكيْن من سلالة هرقل، المسمّاة بالهرقليّين، أي الأشراف، الذين كانوا يشرّعون القوانين، ويقودون الحروب تحت إشراف الإيفوريّين، وكانوا حرّاس الحريّة الأرستقراطيّة وليس الحريّة الشعبيّة. لذا عملوا على قتل الملك أجيس خنقًا؛ لأنّه حاول أن يمنح الشعب قانونًا يقترح طريقة جديدة في احتساب الديون، والذي عرّفه تيتوس ليفيوس[2] بقوله: إنّه «*فتيل لإضرام نار العامّة ضدّ الأشراف*»[3]، وقانونًا آخر يتعلّق بالوصايا يُمكّن العامّة من حقّ الميراث، وهو حقّ كان إلى ذلك الحين حكرًا على الأشراف باعتبارها الفئة الوحيدة التي لها الحقّ في الزواج الرسمي، وفي أن يكون لها أقارب وعائلة كذلك. وعلى هذا الحال نرى أيضًا بروما، قبل سنّ قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، أنّ أمثال كاسيوس وكابيتالينوس وغراكّوس ومواطنين كبارًا آخرين، الذين كانوا يريدون منح الشعب مثل هذه الحقوق، اتّهموا بالتمرّد من قبل مجلس الشيوخ، وقُتلوا تمامًا مثل أجيس الذي وقع خنقه بأمر من الأفوريّين، هؤلاء أنفسهم الذين يقدّمهم لنا بوليبيوس[4] على أنّهم حماة الحريّة الشعبيّة. وأثينا، التي تستمدّ اسمها من مينيرفا أو «Ἀθηνᾶ، أثينا»، نشأت في البداية كدولة أرستقراطيّة، وهو ما يؤكّده لنا التاريخ اليوناني الذي يروي لنا أنّ دراكون حكم أثينا زمن أن كان الأشراف يملكون السلطة فيها. ويضيف ثوقيديدس[5] أنّه طيلة حكم الأريوباجيّين فيها أشعّت بألمع الخصال، وقامت بأعظم الإنجازات. وقد احتفظت كلّ من أثينا وروما بعظمتيْهما وقوّتيْهما طيلة الزمن الذي كان يحكمهما فيه الأشراف، وسقطتا في الفوضى الشعبيّة،

---

(١) Denis Pétau، اسمه اللاتيني ديونيسوس بيتافيوس [١٥٨٣-١٦٥٢] لاهوتي وفقيه يسوعي فرنسي (سبق ذكره §٣٥٢).

(٢) في كتاب *التاريخ الروماني*، XXXII، ٣٨، ٩.

(٣) ورد باللاتينيّة: *facem ad accendendum adversus Optimates plebem*

(٤) بوليبيوس [٢٠٨ ق.م- ١٢٦ ق.م]، رجل دولة ومنظّر سياسي. يُعتبر من بين أكبر المؤرّخين اليونانيين.

(٥) في كتاب حرب *البيلوبونيز*، I، ١١٨، ٢.

الأولى بسبب بريكلاس وأريستيد، والثانية بسبب المحاميْن الشعبيّيْن [*tribuni*] ساكستيوس وكانوليوس. ويوفيناليس[1]، من ناحيته، يتحدّث هو الآخر عن الأريوباجيّين، ويرى أنّ هذا الاسم يعني قضاة مارس، بمعنى قضاة مسلّحين، من "سيرآ، Ἄρης"، الإله مارس، و«πηγή، بيغي»، الذي جاء منه اللفظ اللاتيني "*pagus*". لذا فبالإمكان أن ننسب إلى الأثينيّين على غرار الرومانيّين اسم شعب مارس، إذ أنّه في بدايات كلّ الأمم، كان الأشراف الوحيدون الذين يحقّ لهم حمل السلاح، هم الذين شكّلوا بمفردهم الأمم.

[§ ٥٩٣] ويقول الأثر الثاني أنّ الإغريق حين خرجوا من اليونان، وجدوا الكوريتيّين، أو كهنة كوبيلي[2] منتشرين في *ساتورنيا*، أي إيطاليا القديمة، وفي كريت وآسيا، ممّا يجعلنا نفترض أنّ في جميع الأمم البربريّة الأولى تأسّست ممالك الكوريتيّين، الذين يوافقون حسب رأينا، الهرقليّين في اليونان القديمة. هؤلاء الكوريتيّون كانوا، مثلما سبق ذكره[3]، الكهنة المسلّحين الذين غطّوا بقعقعة أسلحتهم صراخ جوبيتر الرضيع حتّى لا يكتشفه ساتورن الذي كان يريد التهامه.

[§ ٥٩٤] هكذا إذن نشأت في تلك الأزمنة القديمة *المجالس الكوريتيّة*، التي هي الأقدم في التاريخ الروماني. وهذه المجالس كانت متكوّنة دون شكّ من مسلّحين، وتُناقش فيها مسائل مقدّسة، إذ أنّ كلّ ما يتعلّق بالأمور البشريّة كان يوضع في البداية تحت نوع من الجلال المقدّس. ويستغرب تيتوس ليفيوس من أنّ حنّبعل وجد في بلاد الغال مجالس من هذا الصنف. ويذكر لنا تاسيتوس أنّ كهنة الأقوام الجرمانيّة كانوا يتشاورون في مجالسهم، ويصدرون الأوامر، ويبتّون في الشؤون العموميّة دون نزع أسلحتهم، كما لو أنّ آلهتهم حاضرة معهم في المجلس. هي ذي إذن، لدى الجرمانيّين القدامى مؤسّسة شبيهة بمؤسّسة الكهنة المصريّين وبالكوريتيّات أو الكهنة المسلّحين،

---

(١) اسمه اللاتيني Decimus Lunius Juvenalis، شاعر روماني قديم عاش في القرن ١-٢ ميلادي. عُرف بأشعاره الهزليّة.

(٢) إلهة الجبال والطبيعة والخصوبة لدى اقوام آسيا الصغرى، ثمّ عند الإغريق والرومان الذين سمّوها Magna Mater، الأمّ الكبرى.

(٣) § ٥٨٧.

التي وجدها اليونانيّون بإيطاليا وكريت وآسيا، والشبيهة أيضًا بال "*Quirites*" في إقليم لاتيوم القديم.

[§ ٥٩٥] وبخصوص حقوق *الكويريتس* فقد كانت دون شكّ شبيهة بالناموس الطبيعي للأقوام البطوليّة بإيطاليا، وهذا الحقّ سُمّي "*jus quiritium romanorum*"، لتمييزه عن الحقّ الخاصّ بالشعوب الأخرى. ولا ينبغي لنا أن نفهم من اسم *quirites* أنّه كان نتيجة حلف بين السابينيّين والرومان، والذي بمقتضاه كان على الأخيرين أن يسمّوا قانونهم بالرجوع إلى اسم *كوراس*، عاصمة بلاد السابيّين. فلو كان هذا الافتراض صائبًا، لسُمّوا «*كوريتس*»، مثل الذين شاهدهم الإغريق في *ساتورنيا*. ومن جهة أخرى فإنّ اسم عاصمة السابيّين الذي نجده عند النحويّين اللاتينيّين هو "*Cere*"، ويحملنا هذا إلى استنتاج أنّ من هذا الاسم جاءت كلمة "*ceriti*"، التي كان الرومان يستعملونها للإشارة إلى أولئك المواطنين الشبيهين بالخدم [*famoli*] في المدن البطوليّة القديمة، والذين كان المشرّعون يحكمون عليهم بتحمّل كلّ الأعباء دون التمتّع بأيّ من الامتيازات التي كان يتمتّع بها من هو مواطن روماني. في تلك العصور الهمجيّة كانت المدن المهزومة تُهدم، وأقوامها المهزومون يتشتّتون عبر الأرياف ولا يبقى لهم إلّا أن يخدموا حقول المنتصرين. بهذا نشأت الولايات الأولى "*Provincie*" من "*prope victae*" (المستعمرات القريبة)؛ وهذا يفسّر لماذا اتّخذ مارتشيوس اسم كوريولانو بعد أن استولى على مدينة كوريولي. بينما في وقت لاحق سُمّيت الولايات "*procul victae*" (المستعمرات البعيدة)، لأنّه في الولايات الأولى استقرّت المستعمرات التي تعيش داخل الأراضي، المسمّاة بالفعل "*coloniae deductae*" أي المجلوبة، المتمثّلة في جماعات من الفلاّحين اليوميّين الذين وقع نقلهم من الأماكن المرتفعة إلى تلك المنخفضة، أو من الجبال إلى السهول. في وقت لاحق، مع المستعمرات البعيدة صارت العبارة تعني العكس، إذ صارت تشير إلى العامّة الفقراء الذين نُقلوا من أحياء روما السفليّة إلى الأماكن العليا والمحصّنة في الولايات البعيدة لإخضاعها وحراستها وليصبحوا أسيادها، مستعبدين ملاّك الحقول القدامى. بهذه الطريقة، حسب قول تيتوس ليفيوس[1] الذي لم ير إلاّ النتائج، ازدهرت روما على أنقاض *ألبا*، وصار السابينيّون

(١) نفسه، I، ٣٠، ١.

يحملـون إلى أزواج بناتهم بروما ثروات سيرس[١] مهرًا لبناتهـم اللاتي وقع اختطافهنّ، الأمر الذي أثار تساؤلات فلوروس[٢] دون أن يجد لها جوابًا. كانت هذه إذن المستوطنات التـي وُجـدت قبل تلك التـي جاءت بعد القانون الزراعي الذي سـنّه آل غراكوس، والتي كان عامّـة رومـا أثنـاء صراعاتهم ضدّ الأشـراف يحتقرونها، أو بالأحـرى كانوا غاضبين عليهـا لأنّها ليسـت من نفس طينة المسـتوطنات «الأخيرة». ولأنّها كانت لا تسـاعد في شيء عامّة شعب روما، بل حسب رأيه، كانت تهيج تلك الصراعات، كان تيتوس ليفيوس يطرح على نفسه عديد التساؤلات دون الوصول إلى حلّ.

[§ ٥٩٦] كلّ هـذا يجعلنـا نؤكّـد أنّ مينيرفـا تمثّـل الفئـة الأرسـتقراطيّة المسـلّحة. وهوميروس يدعم هذا الرأي حين يروي لنا أنّ الإله مارس، أو حسب رأينا، ممثّل العامّة الذيـن كانـوا يخدمون الأبطال أثناء الحروب، جُرح بضربـة حجر رمته به مينيرفا. ويقول كذلـك أنّ مينيرفـا تآمـرت ضدّ جوبيتر، أي أنّ الفئات الأرسـتقراطيّة غالبًا ما تآمرت ضدّ زعمائهـا الذيـن كانـوا يحاولـون امتلاك سـلطة مفرطـة، والانتقال من وضـع الزعيم إلى وضع الطاغية. ونحن نرى العديد من التماثيل التي نُصبت تكريمًا لقتلة الطغاة، بينما كان على القتلة أن يُعاقبوا أو أن يُحتقروا باعتبارهـم متمرّدين لو أنّهم قتلوا ملوكًا شرعيّين.

[§ ٥٩٧] وهكـذا فقـد كانـت المدن الأولـى متكوّنة من الأشـراف وحدهم، والذين كانـوا يحكمونها. ولكنّهم كانوا أيضًا بحاجة ماسّـة إلى مـن يخدمهم، فاضطرّوا لإرضاء تلـك الجموع الثائـرة من الموالي إلى التنازل لهم عن حقّ اسـتغلال الحقول، الذي مثّل أوّل قانون زراعي في العالم. كانت حياة العامّة نفسها تُعتبر هبة مؤقّتة وهبها لهم الأبطال الذيـن قبلوهـم في ملاجئهم، وعليه فإنّ التنازل عن الحقـول لصالحهم كان مثل حياتهم مؤقّتًا ورهينًا بإرادة الأبطال، الذين بإمكانهم أن ينتزعوه منهم متى أرادوا. كان العامّة في المدن البطوليّة لا يتمتّعون بأيّ حقّ ولا يمكنهم المطالبة بأيّ حماية. وهوميروس يؤكّد لنـا هذا حين يروي لنا أنّ أخيل اشـتكى مـن أنّ أغاممنون انتزع منه ظلمًا بريزيس وألحق به مهانة لا تلحق حتّى بعامل يوميّ لا يتمتّع بأي حقّ من حقوق المواطن[٣].

---

(١) إلهة الزراعة ومحاصيل الحبوب.

(٢) اسمه اللاتيني بوبليوس آنيوس فلوروس [حوالي ٧٠ م - حوالي ١٤٠م]. مؤرّخ روماني من أصل بربري.

(٣) *الإلياذة*، IX، ٦٤٨.

[§ ٥٩٨] والقانـون الفلاحـي الثاني المضمَّن في الألواح الاثنتيْ عشـرة يمنح للعامّة ملكيّة الحقول، إلّا أنّ العامّة تفطّنوا بعد ثلاث سنوات أنّهم بدون الزواج الرسمي وبدون أن تكـون لهم عائلة ونسـل معترف به قانونيًّا، وبـدون حتّى الاعتراف بهم كمواطنين، بل كغربـاء لا يملكـون حقّ تـركِ وصيّة، فإنّ أراضيهـم تعود حتميًّا وفي وقـت غير بعيد إلى أسـيادهم. لذا فقد طالبوا بعد ثلاث سـنوات من التجربة بحقّ عقد القران رسـميًّا. ولكن لا يذهبـنّ الظـنّ إلـى أنّهم كانـوا يريدون التزواج مع الأشـراف، الذي قـد توهمنا به هذه الكلمات اللاتينيّة ”*connubia cum patribus*“[1]. وعلينا أن نعترف دون شـكّ أنّ مثل هـذه الفكـرة لا يمكن أن تخطر على بال أولئك العبيد التعيسـين كمـا يصفهم لنا التاريخ الروماني. فقد كانوا يطالبون فحسـب بأن يعقدوا القران رسـميًّا فيما بينهم، على غرار ما يعقده الأشراف بينهم، بما يُسمّى ”*connubia patrum*“، والذي كانت طقوسه الرئيسيّة تتمثّل في البشـائر العموميّة أو البشـائر الكبرى كما يسـمّيها كلّ من فارّو وميسّالا، والتي كان يقـول عنهـا الآبـاء ”*auspicia esse sua*“[2]. بمطالبتهـم بحـقّ التزوّج رسـميًّا كان العامّة يطالبون ضمنيًّا بالمشاركة في الامتيازات التي يتمتّع بها المواطن الروماني، وهي امتيـازات يمثّـل منهـا الـزواج الرسـمي المنبـع الطبيعـي والرئيسـي. ويعـرّف المشـرّع موداسـتينوس[3] الزواج بأنّه «*مشـاطرة جميع الحقوق الإلهية والبشريّة*»[4]، وهو بالفعل تعريف يتناسب تمامًا مع حقّ المواطنة.

---

(١) § ٩٨٧.

(٢) § ٥٢٥.

(٣) Herennius Modestinus، مشرّع روماني من القرن الثالث ميلادي. (سبق ذكره § ٥٥٤)

(٤) ورد باللاتينية: *omnis divini et humani juris communicatio*.

[الباب الثاني]

جميع الجمهوريّات نشأت من بعض المبادئ الإقطاعيّة السرمديّة

[§ ٥٩٩] كنّا قد ذكرنا في المسلّمات[١] أنّ نشأة الإقطاعات كانت نتيجة طبيعة البشر التي تجعل الأقوياء يتمسّكون بما يملكون وبما يُمكن أن يجلب لهم من منافع في الحياة المدنيّة، ولا يتنازلون عن البعض من السلطة أو من الثراء إلّا إذا أُكرهوا عليه أو رأوا في التنازل عنه منفعة لهم. وقد قامت الجمهوريّات الأولى على ثلاثة أنواع مختلفة من الملكيّة لثلاثة أنواع من الإقطاعات، التي كانت لثلاثة أنواع من الأشخاص على ثلاثة أنواع من الأشياء.

[§ ٦٠٠] والنوع الأوّل من الملكيّة هو الملكيّة النفعيّة التي تمنح الحقّ في استغلال الإقطاعات الفلاحية أو البشرية إلى الخدم أو العامّة، الذين سُمّوا لاحقًا في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] بالموالي أو الأتباع - مع استغراب هوتمان لهذه التسمية[٢] - والذين كانوا يقتاتون ممّا تثمره أراضي أسيادهم.

[§ ٦٠١] والملكيّة الثانية كانت الملكيّة الكويريتيّة للإقطاعات النبيلة أو البطوليّة المسلّحة، التي نسمّيها الآن «عسكريّة»، حيث يتّحد فيها الأبطال في أنظمة مسلّحة للحفاظ على سيادتهم فوق تلك الأراضي، وهي بالتحديد تلك التي كانت في الحالة الطبيعيّة الأولى الملكية بامتياز وفيها يقول شيشرون في "*de Aruspicum Responsis*"، إنّ بعض المنازل القديمة بمدينة روما كانت ملكا كاملا، ويعرّفها على أنّها «*حوز لملك عقار لا يخضع لأيّ عبء عموميّ أو خاصّ*». ويخبرنا موسى في الكتاب المقدّس إنّه في زمن النبيّ يوسف كان الكهنة المصريّون لا يدفعون للملك أيّ أداء على الأرض.

---

(١) § ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) François Hotman [١٥٢٤-١٥٩٠]. مشرّع وكاتب فرنسي.

وكنّا قد بينّا سابقًا[١] أنّ جميع الممالك البطوليّة كانت ممالك كهنوتيّة، وسنبيّن لاحقًا[٢] أنّ الأشراف الرومان مثلهم مثل الكهنة كانوا لا يدفعون الأداء على الأرض للخزينة العموميّة. هذه الإقطاعات الشخصيّة والسياديّة وُضعت بعد ذلك تحت سيادة الأنظمة البطوليّة الحاكمة، أي تحت سيادة الحكومات البطوليّة. كلّ مجموعة سُمّيت "*patria*" (وطن)، من "*res*"، أي «مصلحة الآباء»، لأنّ الآباء كانوا هم الساهرين على الدفاع عن المجموعة أو الوطن الذي يمارسون فيه سلطة سياديّة. وكانت هذه في البداية الحريّة التي كان يتمتّع بها الأسياد.

[§ ٦٠٢] أمّا النوع الثالث من الملكيّة فهو المتكوّن من مجمل المُلك المعروف بالملكيّة المدنيّة. وهو يشمل الأراضي أو الأملاك الإلهية، أي تلك التي تلقّاها آباء الأُسَر من العناية الإلهية، والتي في فترة تشكّل المدن البطوليّة تنازلوا عنها لصالح المجموعة. ويستمدّ أصحاب النفوذ المدني اليوم من هذه الفكرة اقتناعهم بأنّ سلطتهم تأتي من الربّ نفسه. لذا نراهم يضيفون إلى ألقابهم الفخمة عبارات من قبيل "*per la Divina Provvedenza*"، أي برعاية العناية الإلهية، أو "*per la Grazia di Dio*" أي بنعمة من الربّ، معترفين بهذه الطريقة وبصفة واضحة بأنّهم يستمدّون حقوقهم وسلطتهم من الربّ. بحيث أنّهم لو منعوا عبادة الإله فإنّ ذلك سيعني سقوطهم، لأنّه لم يوجد أبدًا في الدنيا قوم ملحدون أو مؤمنون بمشيئة الصدف. وكنّا قد أكّدنا[٣] أنّ جميع الأمم القديمة كانت تعبد تحت رموز مختلفة لأربع ديانات أوليّة، نوعًا من العناية الإلهية. لذا كان العامّة يُقسِمون بالأبطال، وبقيت لنا من ذلك أقسام مثل "*mehercules, mecastor, edepol*" و"*mediusfidius*" من الإله فيديوس (أي قسما بفيديوس)، الذي كما سنرى لاحقًا[٤] كان هرقل الرّوم. كان العامّة يُقسمون إذن بالأبطال الذين ينتمون إليهم والذين كانوا إلى حدود سنة ٤١٩ من تاريخ روما يحبسونهم في سجونهم الخاصّة لإجبارهم على دفع ديونهم. والأبطال الذين كانوا يكوّنون الأنظمة السياديّة كانوا

(١) § ٥٩٤.

(٢) § ٦١٩.

(٣) § ٥٨٢.

(٤) §§ ٦٥٨، ٧٦١، ٧٦٦، ١٠٦٥.

يقسـمون بدورهـم بالإلـه جوبيتـر؛ لأنّهم كانـوا يخضعون لنـذوره ويستشـيرونه لمعرفة الشرائع التي عليهم أن يسنّوها، والأفعال التي ينبغي عليهم الامتناع عنها. كانت تلك هي «العقيـدة الإلهيـة والبشـريّة» (*fides Deorum, atque hominum*)، التـي ترجـع إليهـا الأقـوال اللاتينيّـة: "*implorare fidem*" أي توسّـل النجـدة والعـون، أو "*recipere in fidem*" أي القبول تحت رعاية أو سلطة، وكذلك الهتاف بقول "*proh Deûm, atque hominum fidem imploro*" الـذي يتوسّـل بـه المضطهَـدون إغاثـة الآلهـة والعبـاد. وتحوّلت عند الإيطاليّين إلى معنى بشري بقول "*poter del mondo!*" (بسلطة الكون)، لأنّه من هذه السلطة استمدّت القوى المدنيّة سلطانها والإيمان واحترام الأقسام، وأخيرًا الحمايـة التـي يتعهّـد بها الأقوياء نحو الضعفـاء، وكلّ هذا يمثّل جوهـر الإقطاعيّة ذاتها، والقـوّة التـي يقـوم عليهـا العالـم المدنـي. وتشـير ميداليـات اليونانيّيـن التـي ترمـز إلى جمهوريّاتهم والجُمل البطوليّة لدى اللاتينيّين إلى أنّ هذيْن الشعبيْن أدركا أنّ هذه القوّة تمثّـل قاعـدة العالم المدني. لذا نـرى تيجان الملوك تعلوها كـرة ينتصب فوقها الصليب المقـدّس بـكلّ فخامة. وتمثّـل الكرة التفاحـة الذهبيّة في الأزمنة القديمـة، التي هي رمز السـلطة العليا التي يمارسـها الأسـياد على أراضيهم. لذا نرى أيضًا في حفل التتويج كرة توضـع بيد الملك اليسـرى شـبيهة بالكـرة التي فوق التـاج. لذا يصحّ قول إنّ السـلطات المدنيّة تتصرّف بمُلك الشـعب. والإيطاليّون يسـمّون هذا المُلك "*sostanza*"[1]، الذي يدعـم ويحتـوي ويحفظ البنـاء المدني. ومُلك ربّ الأسـرة في القانون الروماني يُسـمّى "*patris*" أو "*paterna substantia*"، والسـلطة المدنيّـة والسـياديّة للدولة يحقّ لها أن تتصـرّف بـكل ما يُضاف عن طريق الشـراء أو التحسـين إلى ذلك المُلـك البدائي بتثقيله بأداءات أو بضرائب على الدخل. وبالفعل، فإنّ هذا الحقّ ضروريّ لها لتمارس سلطتها علـى العقـارات التـي تنـازل عنهـا الآبـاء لصالـح المجموعـة. وقـد سـمّاها اللاهوتيّون الأخلاقيّـون والكتّـاب فـي القانـون العـامّ (*de Jure Publico*) بالسـلطة العليـا، بمـا أنّ القوانين التي تتعلّق بهذه السـلطة تسـمّى حتى الآن أساسيّة، مع أنّ الملوك لا يُسمح لهم باسـتعمالها إلّا للحفـاظ علـى دعامـة (*sostanza*) دولهـم، وضمان الأمـلاك والحقوق الخاصّة لكلّ شعب ولكلّ فرد.

---

(١) فعل *sostenere* يعني يدعم أو يسند.

[§ ٦٠٣] قد حدس الرومان -أكثر من كونهم عرفوه- بهذا التحوّل المتتالي للجمهوريّات حسب المبادئ الدائمة للإقطاعات أو للملكيّات. ويستعملون للمطالبة بحقّهم عليها العبارات التالية "*Aio hunc fundum meum esse ex iure quiritario*"[١]، معلنين بهذه الصفة أنّ حقّ ممارسة الفعل المدني مرتبط بملكيّة الأراضي، وهي ملكيّة تعود إلى المدينة نفسها. ولذا عند موت الملاّك تعود العقارات إلى الخزينة العموميّة أو للجباية. لأنّ كل مُلك خاصّ يُعتبر جزءًا من المُلك العامّ الذي يعود إليه ما أن يحرّره موت المالك من القيود التي كانت تربطه به. عندئذ ينتهي وجوده الشخصي، إن جاز القول، ويدخل في حياة المجموعة أو الحياة العامّة. ويقول رجال القانون بوضوح إنّ الميراث يعود إلى الورثة، بينما في الواقع لا يعود إليهم إلّا مرّة واحدة. إذ أنّ القانون الروماني يعتبر الأملاك الخاصّة إقطاعات "*ex pacto, et providentia*"، خرجت من المُلك العامّ وانتقلت من مالك إلى مالك حسب تراتيب القانون المدني، إلى حين فقدان المالك الأخير، فيعود الإقطاع إلى المصدر المشترك الذي انتُزع منه. كان قانون بابيا وبوبييّا[٢] يُعاقب من هو أعزب أو دون ذريّة وأيضا دون ورثة شرعيّين يحملون أسماءهم باعتبار وصيّاتهم لاغية وبرفض أن يكون لأقاربهم حقّ وراثة أملاكهم عن طريق وصيّة (*ab inteśtat*)، ويأمر بأن يعود مُلكهم إلى الخزينة باعتباره مكسبًا عامّا وليس ميراثًا، أي حسب قول تاسيتوس، يصبح ملكًا للشعب «كما لو كان أبا الجميع» (*tamquam omnium parentem*). وينسب هذا المؤرّخ السبب الذي يستند إليه هذا القانون إلى امتلاك الأراضي الأولى الخالية من قِبل الآباء الأوائل للجنس البشري، هذا الامتلاك الذي كان منبع كلّ سلطات العالم. ويضيف أنّ الآباء المجمّعين في المدن حوّلوا سلطتهم الأبويّة إلى سلطة مدنيّة وكوّنوا الملكيّة العامّة، أوالخزينة العموميّة (*aerarium*). وهذه الأملاك الخاصّة بالمواطنين تمرّ من شخصّ إلى شخص آخر عن طريق الميراث، ولكنّها حين تعود إلى الخزينة العموميّة فهي تتّخذ صفتها القديمة كمكسب عامّ.

---

(١) أي «أعلن أنّ هذه الأرض ملكي بمقتضى الحقّ الكويريتي [أي حقّ المواطنة]»

(٢) باللاتينية Lex Papia Poppaea وهو قانون صدر في عهد أغسطس سنة ٩ م اقترحه القنصلان بابيوس موتيليوس وبوبيوس سكوندوس. ويعاقب هذا القانون من هو أعزب أو الأزواج دون نسل بحرمانهم من حقّهم في التوريث بوصيّة.

[§ ٦٠٤] كان في هذه الفترة من تشكّل الجمهوريّات البطوليّة أن ابتدع الشعراء الأبطال الإله الأكبر الحادي عشر، الذي هو ميركور. وهو الذي حمل للخدم الثائرين العصا الإلهية، رمز القانون، وبواسطتها، كما يقول فيرجيل[١]، يحرّر الأرواح البشريّة من عبوديّة الوحش (*Orcus*). أي أنّه يعيد إلى الحضارة الموالي الذين فرّوا من حماية الأبطال وسقطوا من جديد في الهمجيّة التي يمثّلها الوحش ملتهم العباد. ويأتي في وصف هذه العصا التي قدّمها ميركور أنّه يلتفّ عليها ثعبانان، يرمز أحدهما إلى المُلك بموجب حقّ الاستغلال الذي يمنحه لهم الأبطال، بينما يرمز الآخر إلى المُلك السيادي، الذي يحتفظ به الأبطال لأنفسهم. والجناحان اللذان يوجدان في الطرف الأعلى للعصا يمثّلان الملكيّة السامية التابعة للأنظمة. ويحمل ميركور قبّعة مجنّحة تكريمًا لسيادة العقل الحرّ، لذلك فالقبّعة هي رمز الحريّة. وله أجنحة في قدميْه لأنّ ملكيّة العقارات تعود لمجالس الشيوخ الحاكمة. وأخيرًا، هو عارٍ لأنّه لم يحمل للعامّة إلّا حقوقًا عارية، أي خالية من كلّ الطقوس الرسميّة التي تستمدّ مصدرها من حياء الأبطال، مثلما شرحنا ذلك بخصوص عراء فينوس الشعبيّة والحسان الثلاث[٢]. وقد اقتلع اليونانيّون جناحيْ طير إيدانثيرس، الذي كان هذا الملك يقول به رمزيًا لداريوس إنّه السيّد المطلق على سيثيا، وجعلوا من الجناحيْن رمز السلطة البطوليّة. والأشراف الرومان باستعمال لغة منطوقة للتعبير عن فكرة مجرّدة، قالوا إنّ حقّ النذور ملّكهم "*auspicia esse sua*"، ليبيّنوا للعامّة أنّ جميع الحقوق البطوليّة ملك لهم وحدهم. بحيث أنّه لو نزعنا الثعبانيْن عن عصا ميركور المجنّحة، لصار لدينا شيء يشبه عقاب المصريّين والتوسكانيّين والرومان وأخيرًا الإنكليز، مثلما سبق الحديث عنه[٣]. وقد سمّى اليونانيّون هذه العصا «κηρύκειον، كيريكيون» لأنّها حملت القانون الزراعي لعمّال الأبطال (*famoli*) الذين يسمّيهم هوميروس "κήρυκες". وحملت للرومان القانون الزراعي الذي سنّه سيرفيوس توليوس وبه أرسى الضريبة (*censo*)، بحيث أطلق القانون الروماني على الفلاحين اسم "*censiti*" أي خاضعين للضريبة. وحقّ استغلال الأرض الممثّل

---

(١) هوميروس، *الإنيادة*، IV، ٢٤٢.

(٢) § ٥٦٩.

(٣) § ٤٨٧.

بالثعبانيْن، ومنه الأداء الذي كان يدفعه العامّة للأبطال، سُمّي استئراض، من «ὠφέλειᾰ“ ”ايليفوأ المشتقّ من «ὄφις، أوفيس»، أي ثعبان. وحملت أخيرًا «رباط هرقل» الشهير، الذي بمقتضاه كان العامّة يدفعون للأبطال عشر هرقل، وكان المطالَبون بهذا العشر إلى حين صدر قانون بيتيليا يحملون اسم ”*nexi*“ (مرتبطين)، أو موالي الأشراف.

[§ ٦٠٥] لذا يُمكن القول إنّ ميركور اليونانيّين هو ثايوت أو هرمس الذي سنّ شرائع المصريّين، كما يظهر في هيروغليف كويف وهو يحمل الثعبان، رمز الأرض المفلّحة. ورأسه هو رأس صقر أو عقاب، رمز النذور الخاصّة بالأبطال، مثلما رأينا ذلك عند الحديث عن صقر رومولوس الذي صار بعد ذلك العقاب الروماني[١]. وفي الحزام الذي يشدّ جنبيْه نجد من جديد رباط هرقل. ويحمل بيده صولجانًا يرمز إلى سلطة الكهنة المصريّين. وعلى رأسه قبّعة مجنّحة ترمز إلى السلطة العليا التي يمارسونها. والبيضة التي في فمه، التي ترمز إلى الكرة المصريّة، وربّما هي التفاحة الذهبيّة، تمثّل الرمز الثاني لسلطة الكهنة على أراضي مصر. ويعطي مانيتون تفسيرًا لهذا الهيروغليف باعتباره أسطورة تشكيل الكون البشري، ويرى أتناسيوس كيرشر[٢] في *مسلّة بامفيليوس* عقيدة الثالوث المقدّس.

[§ ٦٠٦] كان هذا أصل التجارة أو المبادلات التي اتّخذت اسم ميركور، الذي صار بعد ذلك إله التجارة، مثلما اعتُبر إله السفراء لأنّه أرسِل للعامّة. ويقولون إنّه أُرسِل من قِبل الآلهة إلى البشر، أي من قِبل أبطال المدن الأولى إلى العامّة، الذين حسب قول هوتمان كانوا يسمّون الموالي في زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى]. أمّا بخصوص الجناحيْن اللذيْن يمثّلان منبع الحقوق البطوليّة، فقد أوِّلت خطأ كوسيلة كان يتنقّل بها ميركور من السّماء إلى الأرض ثمّ من من الأرض إلى السماء. وبالرجوع إلى التجارة فقد مورست في البداية على الأملاك القارّة، والمكافأة الأولى من خدمة الأرض كانت تلك الأكثر بساطة والأكثر طبيعيّة، أي الانتفاع بجزء مما تنتجه تلك الأرض، والذي يُستعمل عادة في التجارة بين الفلاحين.

---

(١) § ٤٨٧.

(٢) اسمه اللاتيني Athanasius Kircher[١٦٠٢-١٦٨٠] كاهن يسوعي ألماني، مستشرق متميّز وعالم موسوعي. يُعتبر أكبر مفكّر في العصر الباروكي.

[§ ٦٠٧] كلّ هـذا عبّـر عنـه اليونانيّون بكلمة «νόμος، نومـوس» التي تعني في الآن نفسـه «قانـون» و«مرعـى»، لأنّ القانـون الأوّل كان هـذا القانون الزراعـي، ولأجل ذلك سُمّي الملوك البطوليّون برعاة الشعوب.

[§ ٦٠٨] وَجد إذن شعوب الأمم البربريّة القديمة أنفسَهم في وضعيّة شبيهة بوضعيّة الجرمانيّيـن القدامـى الذيـن يقول عنهم تاسـيتوس خطأ بأنّهم كانوا عبيـدًا بينما كانوا في الواقـع شـركاء الأبطـال، إلّا أنّ وضعيّتهـم لم تكن تختلف كثيرًا عـن وضعيّة العبيد. فقد كانـوا منتشـرين عبر الأرياف، ويسـكنون منازل بنوها بأنفسـهم ويقتاتون مـن الثمار التي كانوا ينتزعونها من أراضي أسيادهم. في المقابل كانوا ملزمين بمقتضى قسَم أن يحافظوا علـى سـيّدهم، وأن يدافعـوا عنه وأن يخدموا مـن أجل مجده. ولو حاولنا أن نجد اسـمًا قانونيًا لهذا الوضع، فمن الواضح أنّ أفضل ما يمكن أن نشـير به إليه هو ما نسـمّيه عندنا بالإقطاعيّة.

[§ ٦٠٩] بهـذه الصفـة نجد أنّ المدن الأولى متكوّنة من نبالة منظّمة ومن جموع من العامّـة، لـكلّ واحـدة منهما خاصيّاتها المميّزة الدائمة النابعة من طبيعة الأشـياء البشـريّة والمدنيّة، وهي أنّ العامّة يريدون دائما أن يغيّروا من أوضاعهم، كما غيّروها على الدوام، بينما الأشـراف يريدون على الدوام الحفاظ على الأوضاع كما هي. ولهذا السـبب سُمّي الأشـخاص المكلّفون بالحفاظ عليْها "*optimates*"، وسُـمّيت الأوضاع "*Stati*"، (من فعل "*stare*") أي لا يتحرّك أو باقٍ على حاله.

[§ ٦١٠] كما نشـأ التمييز بين أهل المعرفة أو الحكماء وعامّة الشـعب، لأنّ الأبطال أسّسـوا سـلطتهم على معرفـة إرادة الآلهة وتأويل النـذور، بينما بقي على الـدوام للعامّة النعـت بكونهم جهّالا. ذلك أنّ الأبطال، أي الأشـراف، كانـوا كهنة المدن البطوليّة، كما كان دون شكّ الرومان إلى ما بعد مائة عام من سنّ قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، كما سبق ذكـره[١]. لـذا وبنوع من التحريم، كانت الشـعوب الأولى محرومة مـن حقّ المواطنة، أو كما عند الرومان من «*حقّ الماء والنار*»، كما سنبيّن لاحقًا[٢]. كان العامّة في الأمم البدائية

---

(١) § ٢٥٠، ٥٨٦.

(٢) § ٩٥٧.

يُعتبرون غرباء، وكان أبناؤهم يُسمّون "*vulgo quaesiti*" أي الذين وُلدوا في فوضى الجماع، أي خارج الزواج الرسمي الذي كان ممنوعًا عليهم.

[§ ٦١١] والتمييز الآخر هو بين "*civis*" و"*hostis*". فالكلمة الأخيرة، "*hostis*"، تعني الضيف أو الغريب، والعدوّ. لأنّ المدن الأولى كانت متكوّنة من الأبطال ومن الذين وقع قبولهم في ملاجئهم. ولا يزال الإيطاليّون يستعملون كلمة "*oste*" لصاحب النزل ولإقامات الجيوش والفنادق (*ostello*). هكذا كان باريس ضيفًا على دارأرغوس الملكيّة، أي عدوّاً، واختطف منها بنات الأشراف العذارى، الذين ترمز لهنّ هيلّينة. وكان تيزيوس ضيفًا على أريانّا، وجازون ضيفًا على ميديا. وقد هجراهما دون أن يعقدا عليهما القران، لأنّ المراسم المخصّصة للأبطال كانت ممنوعة عليهما. لذا بإمكاننا أن نفهم وأن نعذر إينياس الورع الذي هجر ديدون بعد أن وهبت له نفسها وأرضت رغباته، بل وبعد أن أغدقت عليه بكلّ شيء حتّى أنّها منحته مقابل الحصول على يدها مدينة قرطاج. وطاعة منه لمشيئة الآلهة ذهب إلى إيطاليا ليتزوّج لافينيا، مع أنّها كانت هي الأخرى أجنبيّة. وحفظ لنا هوميروس هذا التقليد البطولي في شخص أخيل، أعظم أبطال اليونان، الذي رفض ثلاث فتيات والمهر الثريّ الذي منحه له أغاممنون المتمثّل في سبع أراضٍ، مجيبًا أنّه يريد تزوّج المرأة التي وعده بها أبوها بيليي في وطنه. باختصار، كان العامّة ضيوف المدن البطوليّة وكان الأبطال، حسب قول أرسطو، يكنّون لهم حقدًا دائمًا. وسُمّي الأشراف "*civis*" في مقابل "*peregrinus*"، الذي يعني الرجل الذي يجوب الحقول، المسمّاة "*ager*" أي الريف أو التراب، مثل "*ager neapolitanus*" و"*ager nolanus*"، ويمكن القول إنّ كلمة "*peregrinus*" متأتية من "*peragrinus*". ولكن الغرباء الذين يجوبون العالم لا يتجوّلون عبر الحقول، بل يتبعون الطرقات العموميّة.

[§ ٦١٢] ما قلناه بخصوص الضيوف البطوليّين يلقي أضواء على التاريخ اليوناني حيث يُحكى عن الساميّين والإسبرطيّين والتريزيّنيّين والأنفِبوليتيّين والكلساديتيّين والغنيديّين والسّيّين، الذين غيّر الأجانب جمهوريّاتهم الأرستقراطيّة إلى جمهوريّات شعبيّة. وهذا يدعم ما سبق أن ذكرناه في *مبادئ القانون الكوني*[1]، بخصوص الرواية

---

(١) فيكو، *الأعمال*، طبعة Nicolini، II، ٢، ٥٦٤-٥٨٠.

الخرافيّة عن قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* التي حُملت من أثينا إلى روما. في الفصل من هـذا القانـون الذي يحمل عنـوان ''*De forti sanate nexo soluto*''، والذي بخصوصه قال فقهاء اللغة إنّ المعنيّ بـ ''*forti sanati*'' هم الأجانب الذين أخضِعوا للطاعة. وكان من الأفضل أن يضيفوا أنّ أولئك الأجانب كانوا العامّة الرومان الذين ثاروا لأنّهم لم يتمكّنوا من الحصول من الأشراف على الملكيّة المؤكّدة للأرض. وكان من الضروري آنذاك أن يُكتب على لوحة عموميّة الحقّ اللامؤكّد ''*gius incerto*'' والحق الخفيّ ''*ius nascosto*''، اللذان يمنعان الأشراف من أن يسترجعوا من العامّة الأراضي التي كانوا يتمتّعون بها. ولكن مثل هذه التجديدات كانت لا تمرّ دون اضطرابات، ويروي لنا بومبونيوس أنّ روما اضطرّت لإحداث *مجالس العشرة* ''*Decemvir*'' التي أخضعت العامّة للطاعة، بتحريرهم من العبوديّة الحقيقيّة التي تربطهم بالأرض التي يعملون فيها، والتي كانوا بحسبها ''*glabae addicti*'' أو ''*adscriptitij*''، أو خاضعين للضريبة التي أحدثها سيرفيوس توليوس، كما سبق ذكره[1]، وبإخضاعهم فحسب للارتباط الوهمي بحقّ الاستئراض. ولكن بعض مظاهر الوضع السابق بقيت إلى حين صدور قانون بيتيليا، التي كانت تسمح للأشراف بأن يحتجزوا بأراضيهم في سجونهم الخاصّة المدينين لهم من بين العامّة. هؤلاء الأجانب أو العامّة في روما توصّلوا بفضل جهود محاميهم (*tribuni*)، إلى تحويل الحكم الروماني من أرستقراطي إلى شعبي.

[§ ٦١٣] وكون روما لم تتأسّس على الثورات الفلاحية الأولى يبيّن لنا أنّها كانت مدينة جديدة، مثلما يذكر التاريخ. فقد تأسّست على العكس على الملاذ في وسط العنف الذي كان يشمل كلّ الأنحاء، أقامه رومولوس وأصحابه في البداية للاحتماء به ولتنمية قدراتهم وقوّتهم، ثمّ تقبّلوا فيه أولئك الذين التجؤوا إلى حمايتهم وصاروا بعد ذلك مواليهم الذين سبق لنا الحديث عنهم في موضع آخر[2]. ولزمت مئتا سنة قبل أن يضيق الموالي ذرعًا بوضعهم، وهي المدة التي انقضت قبل أن يمنحهم الملك سيرفيوس توليوس القانون الزراعي الأوّل. إلّا أنّه في المدن القديمة امتدّت هذه المدة إلى خمسمئة سنة لأنّها كانت مأهولة بأناس بسطاء، بينما كان في روما رجال أكثر حنكة. لهذا السبب

---

(١) §§ ٥٩٧، ٦٠٤.

(٢) §§ ٢٦٣ وما يتبع؛ ٥٥٦ وما يتبع؛ ٥٩٧.

استولى شعب روما على إقليم لاتيوم، ثمّ على إيطاليا وأخيرًا على العالم، لأنّ بطوليّتهم كانت فتيّة أكثر مقارنة بالشعوب اللاتينيّة الأخرى. وهو السبب الخصوصي أكثر، كما ذكرنا في *المسلّمات*[1]، الذي جعل الرومان يكتبون تاريخهم البطولي باللغة العاميّة، بينما كتبه اليونانيّون من خلال الأساطير.

[§ ٦١٤] كلّ ما نظرنا فيه بخصوص مبادئ السياسة الشعريّة، وكذلك ما رأيناه في التاريخ الروماني، يتأكّد لنا بصفة رائعة من خلال هذه الرموز الأربعة البطوليّة. أوّل هذه الرموز هو قيثارة أورفيوس، أو أبولّو، والثاني هو رأس ميدوزا، والثالث هي الحزم الرومانية، والرابع والأخير هو صراع هرقل مع أنتيوس.

[§ ٦١٥] وفي الأوّل، نقول إنّ القيثارة اكتشفها ميركور الهلّيني بالطريقة نفسها التي اكتشف بها هرمس المصريّين القانون. وهذه القيثارة أعطاها إيّاه أبولّو، إله النور المدني، بمعنى النبالة؛ لأنّ الأشراف كانوا في الجمهوريّات البطوليّة هم الذين يفرضون القوانين: بقيثارة أورفيوس هذه قام أمفيون وشعراء لاهوتيّون آخرون، وهم الذين كانو يمارسون علم الشرائع، بتأسيس وإقامة الحضارة اليونانيّة، كما سنبيّن ذلك لاحقًا[2]. وهكذا فإنّ القيثارة هي اتّحاد الأوتار، أو قوى الآباء، التي تكوّنت منها القوّة العموميّة التي نسمّيها «سلطة مدنيّة»، حيث وضعت حدّا لكلّ ممارسات القوّة والعنف الخاصّة. لذا وبحقٍّ عرّف الشعراء القانون باعتباره "*lyra regnorum*"، تتوافق فيه سلطات الآباء الأُسَريّة، الذين كانوا في السابق غير متوافقين فيما بينهم؛ لأنّهم كانوا يعيشون منفردين ومتفرّقين في عهد حكم الأُسَر، كما يقول بوليفيموس لأوليس. هذه الحكاية العظيمة رُسمت بعد ذلك في السّماء بواسطة النجوم التي تشكّل كوكبة القيثارة، كما أنّ مملكة إيرلندا تزين بقيثارة شعار أسلحة ملوك إنكلترا. ولكن الفلاسفة [الفيثاغوريّين] رأوا فيها بعد ذلك تآلف الكواكب الذي تدوزنه الشمس. إلّا أنّ أبولّو عزف القيثارة على هذه الأرض، قيثارة ربما قد سمع بها فيثاغورس، بل سمع وعزف بها، إذا ما اعتبرناه شاعرًا لاهوتيًا ومؤسّس أمّة، بينما اتّهم إلى ذلك الحين بالغشّ والبهتان.

---

(١) §§ ١٥٨-١٦٠.

(٢) §§ ٦٤٧، ٦٦١.

[§ ٦١٦] بخصوص الرمز الثاني، أي رأس ميدوزا، فإنّ الثعابين المحيطة به والجناحيْن اللذيْن على صدغيْها تمثّل الأراضي الأسَريّة العليا التي كان الآباء يملكونها في عهد الأُسَر، والتي كوّنت تاليًا الملكيّة المدنيّة العليا. كان هذا الرأس مسمّرًا على ترس بارسيوس، وهو نفسه الذي كانت تتسلّح به مينيرفا التي تتوسّط الأسلحة، أي في الاجتماعات المسلّحة التي كانت تعقدها الأقوام الأولى، كانت تأمر بالعقوبات الفظيعة التي تحوّل كلّ من ينظر إليها إلى حجر. وقد سبق أن ذكرنا[١] أنّ أحد الثعابين هو دراكون (التنّين)، الذي يُقال عنه إنّه كان يكتب شرائعه بالدم، لأنّ أثينا، أي مينيرفا التي تسمّى باليونانيّة (Ἀθηνᾶ، آثىنا) اتّخذتها أسلحة زمنَ أن كانت تحت سلطة الأعيان، مثلما سبق قوله[٢]. والتنّين عند الصينيّين الذين لا يزالون يكتبون بواسطة الحروف الهيروغليفيّة، هو رمز السلطة المدنيّة، كما سبق أن رأينا قبل هذا[٣].

[§ ٦١٧] أمّا الأحزمة الرومانيّة فهي عصيّ النذور، "*litui*" عند الآباء في عهد الأُسَر. وهذه العصيّ بيد أولئك الآباء، وكان هوميروس يسمّيها بصفة أصحّ صولجانًا، ويسمّي ذلك الأب بالملك حين يصف ترس أخيل الذي يحوي تاريخ العالم. وفي هذا الموضع يأتي عهد الأُسَر قبل عهد المُدن، كما سنبيّن ذلك بالكامل لاحقًا[٤]؛ لأنّه بهذه العصيّ أو "*litui*"، كان الآباء يتسلّمون النذور التي يأتمرون بها ويُملون العقوبات على أبنائهم، مثل العقوبة المنصوص عليها في قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* بخصوص الابن العاقّ، والتي سبق لنا الحديث عنها[٥].

[§ ٦١٨] وأخيرًا هرقل، رمز الهرقليّين أو أشراف المُدن البطوليّة، الذي يحارب ضدّ عنتي، رمز العبيد المتمرّدين، وبرفعه نحو السّماء، أي بحمله إلى المُدن الأولى الواقعة فوق المرتفعات، يهزمه ويوثقه إلى الأرض. من هنا جاءت اللعبة التي كان اليونانيّون يسمّونها لعبة «الوثاق»، وهو الوثاق الهرقليّ الذي أسّس به هرقل الأمم البطوليّة،

---

(١) § ٤٢٣.

(٢) §§ ٤٢٣-٥٤٢.

(٣) § ٥٤٢.

(٤) § ٦٨٣.

(٥) § ٥٢٦.

وبمقتضاه كان على العامّة أن يدفعوا للأبطال عُشورهرقل، وهي الضريبة الإقطاعيّة التي تمثّل أساس الجمهوريّات الأرستقراطيّة. ويعني هذا أنّ العامّة الرومان تحت ضريبة سَرفيوس توليوس كانوا "*nexi*"، أي «موثوقين» للأشراف، وبالقسم الذي يروي تاسيتوس أنّ الجرمانيّين كانوا يقسمون به لأمرائهم، وكان عليهم أن يخدموهم كأتباع مجبرين على الخدمة والمشاركة في الحروب على حسابهم الخاصّ، والعامّة الرومان تشكّوا من هذا الوضع في فترة الحريّة الشعبيّة المزعومة نفسها. كانوا دون شكّ المساهمين الأوائل في الضرائب "*assidui*"، و«*كانوا جنودًا على نفقتهم*» (*suis assibus militabant*)، وعليه فهم جنود بحكم الضرورة القاسية، وليسوا مرتزقة.

[الباب الثالث]

في أصل الضريبة والخزينة العموميّة

[§ ٦١٩] كان الأشراف يحمّلون على أراضيهم أعباء ثقيلة من خلال الربا والاختلاسات المتعدّدة حتّى أنّه في نهاية تلك الفترة أعلن فليبّوس، *تريبون* أو محامي العامّة، بصوت عال أنّ ألفيْن من الأشراف يملكون كلّ الأراضي التي ينبغي أن تُوزَّع على ثلاثمئة ألف مواطن كانت تعدّهم روما في ذلك الوقت؛ لأنّه بعد أربعين سنة من طرد تاركوينوس الفخور، وحين اطمئنّ الأشراف بعد موته، عادوا إلى التسلّط على العامّة المقهورين، وشرع مجلس الشيوخ آنذاك في تطبيق المرسوم الذي ينصّ أنّ على العامّة أن يدفعوا للخزينة العموميّة الضريبة التي كانوا في السابق يدفعونها للأشراف بطريقة خاصّة، حتّى تتمكّن الخزينة مستقبلاً من دفع مصاريفهم أثناء الحروب. منذ تلك اللحظة اتّخذت الضريبة أهميّة جديدة في التاريخ الروماني، إذ أنّ الأشراف كانوا يزدرون التعامل معها، حسب قول تيتوس ليفيوس[1]؛ لأنّها تحطّ من شرفهم. إلاّ أنّ تيتوس ليفيوس لم يكن يدرك أنّه إذا كان الأشراف لا يريدون هذه الضريبة، فذلك لأنّها ليست تلك التي أمر بها سيرفيوس توليوس، التي كانت أساس حريّة الأسياد والتي كانت تُدفع بشكل خاصّ إلى الأشراف، ذلك لأنّه كان يعتقد خطأً، وكذلك المؤرّخون الآخرون، أنّ ضريبة سيرفيوس توليوس كانت أساس الحريّة الشعبيّة. الحال أنّه ليس هناك دون شكّ هيئة أكثر شرفًا من هيئة تحصيل الضريبة، التي في سنتها الأولى كانت تحت إدارة القناصلة: وهكذا فإنّ الأشراف بتدابيرهم الجشعة كانوا هم الذين أسّسوا الضريبة، التي ستصبح بعد ذلك أساس الحريّة الشعبيّة. وبالفعل، بما أنّ كلّ الأراضي أصبحت ملكهم، في زمن *التريبون* فيليبّوس كان على ألفيْ نبيل أن يدفعوا الأداء عن ثلاثمئة ألف مواطن وهم الذين كانت تعدّهم روما، تمامًا مثلما في إسبرطة حيث كانت كلّ الأراضي

---

(١) في *التاريخ الروماني*، IV، ٨، ٧.

الإسبرطيّة على ملك أقليّة من الأشخاص؛ لأنّه في الخزينة وقع تسجيل الضرائب التي كان الأشراف يفرضونها بشكل خاصّ على الأراضي التي كانت في القديم (*ab antiquo*)، بورًا وسلّموها للعامّة ليتولّوا زراعتها. هذه اللامساواة كانت دون شكّ سببًا في ظهور العديد من التحرّكات ومن الثورات لدى عامّة الشعب بروما، فقام فابيوس بإتّخاذ بعض التراتيب بكثير من الحكمة استحقّ بها لقب «*ماكسيموس*» (الأفضل)، وأمر أن يُقسّم الشعب الروماني جميعه إلى ثلاث فئات، الشيوخ، الفرسان والعامّة، وأن يُرتّب فيها المواطنون بحسب إمكانيّاتهم. وكان في ذلك عزاء للعامّة، إذ في السابق كانت هيئة مجلس الشيوخ متكوّنة بالكامل من الأشراف الذين كانوا يتقاسمون فيما بينهم جميع الهيئات القضائيّة، بينما منذ صدور هذه التراتيب أمكن للعامّة الأثرياء الانتماء إلى مجلس الشيوخ، وبهذا فُتح الطريق أمام العامّة لبلوغ كلّ التشريفات المدنية.

[§ ٦٢٠] وكان بهذا الطريقة أن أصبح من الحقّ قول إنّ ضريبة سيرفيوس توليوس هي التي أسّست الحريّة الشعبيّة، إذ كان هو الذي أعدّ مادّتها ووفّر مناسباتها، مثلما ذكرنا ذلك على سبيل الافتراض في *الملحوظات التابعة للجدول الزمني*، بخصوص *قانون بوبليليا*[١]. كان هذا القانون الأخير، الذي نشأ في روما بالذات، هو الذي أرسى فيها الجمهوريّة الديمقراطيّة، وليس قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، الذي يُقال إنّه جاء إليها من اليونان. وهكذا فإنّ ما كان أرسطو يسمّيه *جمهوريّة ديمقراطيّة*، ترجمه برناردو سينيي[٢] "*Repubblica per censo*" (جمهوريّة قائمة على الضريبة)، أي جمهوريّة شعبيّة. وبالإمكان البرهنة على ذلك بالاعتماد على تيتوس ليفيوس[٣] نفسه الذي، رغم جهله بشكل الدولة الرومانية في تلك الفترة، يروي أنّ الأشراف كانوا يتشكّون من أنّهم خسروا بسبب ذلك القانون في المدينة أكثر ممّا ربحوه خارجها بقوّة السلاح في سنةٍ حقّقوا فيها مع ذلك عديد الإنتصارات المهمة: وكان هذا السبب في نعت بوبليليوس، الذي سنّ ذلك القانون، بـ «*الديكتاتور الشعبي*».

---

(١) §§ ١١٢ وما يتبع.

(٢) Bernardo Segni، (١٥٠٤–١٥٥٨) مؤرّخ فلورنسي ألّف كتابًا عنوانه *Trattato dei governi di Aristotele tradotto di greco in volgare*، بتاريخ ١٥٤٩.

(٣) *التاريخ الروماني*، الكتاب الثالث، ١٢، ١٧.

[§ ٦٢١] مع الحريّة الشعبيّة التي تشمل الشعب كلّه الذي يشكّل المدينة، حدث أن فقدت الملكيّة المدنيّة معناها الأصلي كملكيّة عموميّة - كانت تسمّى *مدنيّة* نسبة إلى *مدينة* -، وانقسمت إلى كلّ الملكيّات الخاصّة الموزّعة بين أهالي روما الذين صاروا يمثّلون كامل المدينة الرومانيّة. وما كان يُسمّى "*dominium optimum*"، أي «المُلك الممتاز» فقد معناه الأصلي كملكيّة «قويّة جدّاً»، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[1]، لا يوهنها أيّ عبء واقعي، حتّى الشعبيّ منه، وصار يعني ملكيّة عقارات حرّة من كلّ عبء خاصّ. والملكيّة الكويريتيّة لم تعد تعني ذلك النوع من ملكيّة الأرض حيث إذا ما فقد المولى أو العامّي ملكيّتها، ينهض النبيل الذي كان قد منحه حقّ المُلك للدفاع عنه. والمشرّعون الأوائل في القانون الروماني "*autores juris*"، أي صناع القانون كانوا أولئك الذين حين يتوجّهون إلى الموالي الذين أسّسهم رومولوس، لا غيرهم، كان عليهم أن يلقّنوا العامّة تلك القوانين، لا غيرها. وبالفعل، أيّ قوانين كان على الأشراف تلقينها للعوامّ الذين إلى حدود سنة ٣٠٩ من تاريخ روما، لم يحصلوا على حقّ المواطنة، وحيث إنّه إلى ما بعد مئة عام من قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* كان الأشراف في مجلس الأحبار التابع لهم يحتفظون بسريّة القوانين على العموم؟ كان الأشراف إذن في تلك الفترة هم المشرّعون "*autores juris*" الذين بقوا إلى أيّامنا هذه في الحالات التي يُواجه فيها ملّاك الأراضي المشتراة نزاعًا من طرف آخرين بخصوص الملكيّة، يلجؤون إلى أولئك المشرّعين لكي يساعدوهم ويدافعوا عنهم: الآن صارت الملكيّة «*الكويريتيّة*» تعني الملكيّة المدنيّة الخاصّة التي يعضدها حقّ المطالبة بها، بخلاف الملكيّة الطبيعيّة التي لا تقوم إلّا على الحوز.

[§ ٦٢٢] تبعًا للطبيعة السرمديّة للإقطاعات فإنّ هذه الأشياء عادت من جديد وبنفس الشاكلة وليس بغيرها في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى]. ولنأخذ مثالا على ذلك مملكة فرنسا التي كانت كلّ الولايات التي تكوّنها الآن إقطاعات سياديّة تابعة لأمراء يخضعون لملك تلك البلاد، والتي كانت أملاكهم لا تخضع لأيّ عبء عموميّ. في فترة لاحقة، عبر الميراث أو التمرّد أو انقراض السلالة، وقع ضمّ هذه الولايات إلى المملكة، وجميع الأملاك التي كانت لأولئك الأمراء "*ex jure optimo*"، صارت تخضع للأعباء

---

(١) §§ ٤٩٠، ٦٠١.

العموميّـة: بحيـث أنّ منـازل وأراضي أولئك الملوك، ومن بينهـا الغرفة الملكيّة الخاصّة بها، مرّت إلى حوزة المقطَعين، سـواء بواسـطة الحكرة أو الزواج، وصارت تخضع الآن لـلأداءات والضرائب. وهكذا نشـأ الخلط في المملـكات الوراثيّة بين الملكيّة ***ex jure***" "*optimo* والملكيّة الخاصّة الخاضعة للأعباء العموميّة، بالطريقة نفسها التي صارت بها الجباية، التي كانت ملك الإمبراطور الروماني، تختلط في معناها بالخزينة العموميّة.

[§ ٦٢٣] هـذا المبحـث في الضريبـة وفي الخزينة العموميّة كان مـن بين تأمّلاتنا في الشـؤون الرومانية، ذاك الذي لعسـره تطلّب منّا أكثر جهدًا، كما سـبق أن أشرنا إلى ذلك في باب *فكرة عن العمل*[1].

(١) § ٢٥.

[الباب الرابع]

في أصل الشُعب الناخبة الرومانية

[§ ٦٢٤] إنّ المجمعيْـن البطوليّيْـن «βουλή، بولـي» و«ἀγορά، أغـورا» اللذيْـن يتحـدّث عنهمـا هوميـروس واللذيْـن سبق أن أشـرنا إليهمـا[١]، يوافقان دون شـكّ عند الرومان وتبعًا لهذه الأفكار، المجالس المشـيخيّة التي نقرأ عنها أنّها كانت الأقدم تحت حكـم الملـوك والمجالـس القبليّـة. والأولى التي تُسـمّى "*curiate*" من لفـظ "*quir*"، الرمـح، وحالـة المضاف إليـه هو "*quiris*" الذي بقي بعد ذلك في مقام اسـم، مثلما بيّنا ذلك في *مصادر اللغة اللاتينيّة*[٢]، مثلما أنّه لدى اليونانيّين جاء دون شـكّ لفظ (κυρία، كيريا/ كوريـا) فـي البدايـة مـن «χείρ، خير»، اليد، التـي عند جميع الأمم ترمز للسـلطة، بالمعنـى نفسـه الذي كان لدى اللاتينيّين للفـظ "*curia*". ومنه جاء لفظ "*cureti*" الذي يشـير إلى الكهنة المسـلّحين بالرماح، لأنّ جميع الشـعوب البطوليّة كانوا شـعوب كهنة، ولأنّ الأبطـال وحدهـم كان لهـم الحقّ في حمل السـلاح. هؤلاء الكهنة، مثلما سـبق أن ذكرنـا[٣]، شـاهدهم اليونانيّـون بسـاتورنيا، أي إيطاليـا القديمـة، بكريت وبآسـيا. ولفظة «κυρία، كيريا» بمعناها القديم كانت تعني *السيادة*، بالطريقة نفسـها التي نقول بها اليوم عن الجمهوريّات الأرستقراطيّة «*سيادات*»، وسلطة مجالس الشيوخ البطوليّة هذه سُمّيت «Κύρος، كيـروس» ولكـن، كمـا لاحظنا سـابقًا وكما سـنرى لاحقًـا[٤]، كان ذلك يعني *سـلطة ملكيّـة*. من هذه الأصـول بقيت لنا لفظتـا «κύριος، كيريـوس» و«κυρία، كيريا» بمعنى *سيّد وسيّدة*. وكما أنّ اسم "*cureti*" جاء من اليونانيّة «χείρ، خير»، فقد رأينا قبل هـذا أنّ عبـارة "*Quiriti Romani*" متأتيـة مـن "*quir*"، الذي كان يشـير إلى الجلالـة

---

(١) § ٦٧.

(٢) فيكو، *الأعمال*، طبعة A. Battistini، مذكور في *العلم الجديد* (١٧٢٥).

(٣) §§ ٥٩١، ٥٩٣، ٥٩٤.

(٤) §§ ٣٨٦، ٦٠٣، ٦٢١، ٩٤٤.

الرومانيّة، التي كانت تُمنح للشعب في اجتماع عامّ، مثلما سبق لنا أيضًا أن أشرنا إلى ذلك حين لاحظنا بخصوص مقارنة الغاليّين والجرمانيّين القدامى ماذا كان يقول اليونانيّون عن الكهنة المسلّحين "*cureti*"، من أنّ جميع الشعوب البربريّة الأولى كانوا يعقدون اجتماعاتهم العامّة مسلّحين[1].

[§ ٦٢٥] لذا فإنّ لقب الجلالة ذلك استُعمل عندما كان الشعب متكوّنا من أشراف فحسب، حيث كان يحقّ لهم وحدهم أن يحملوا السلاح. ثمّ مرّ إلى الشعب عندما انضمّ إليه العامّة في الفترة التي صارت فيها روما جمهوريّة شعبيّة. وبالفعل فإنّ اجتماعات العامّة، الذين لم يكن لهم الحقّ قبل ذلك في عقدها، سُمّيت "*tribute*" من لفظة "*trubus*"، أي قبيلة. وعند الرومان، مثلما أنّه في *عهد الأُسَر* سُمّيت الأُسَر "*famiglie*" من "*famoli*" [الخدم][2]، فإنّه في العهد الموالي للمدن اعتُبرت القبائل متكوّنة من العامّة الذين يجتمعون فيها لتلقّي أوامر مجلس الشيوخ الحاكم. وبما أنّ الأهمّ والغالب أكثر من هذه الأوامر يتعلّق بواجب العامّة المساهمة في الخزينة العموميّة، فإنّ لفظ "*tributum*" [ضريبة] جاء من "*tribu*"، أي قبيلة.

[§ ٦٢٦] إلّا أنّ فابيوس ماكسيموس أدخل في وقت لاحق الضريبة التي تقسّم الشعب الروماني إلى ثلاثة أقسام، حسب دخل المواطنين. وبالفعل، في البداية كان الشيوخ وحدهم فرسانًا، لأنّ الأشراف فحسب في الأزمنة البطولية لهم الحقّ في حمل السلاح، وهذا يفسّر حين نقرأ التاريخ، لماذا كانت الجمهوريّة الرومانية القديمة مقسّمة إلى "*patres*" و"*plebem*"، بحيث أنّه في ذلك الزمن كان لفظا "*senatore*" و"*patrizio*" يملكان المعنى نفسه، وعلى العكس "*plebeo*" كان مرادفًا لـ "*ignobile*" (غير نبيل). وعليه بما أنّه لم يكن يوجد سوى فئتين في الشعب الروماني القديم، فقد كان لا يوجد إلّا صنفان من الاجتماعات، الأوّل "*Curiata*" وهو مجمع الآباء أو الأشراف أو الشيوخ، والآخر هو "*Tributa*"، المتكوّن من العامّة أو من غير الأشراف. ولكن بما أنّ فابيوس قسّم المواطنين بحسب إمكانيّاتهم إلى ثلاث فئات، الشيوخ والفرسان والعامّة، لم يعد الأشراف يمثّلون نظامًا في المدينة، ووُضعوا حسب إمكانيّاتهم في هذه الفئات الثلاث.

---

(١) § ٥٩٤.

(٢) § ٥٥٢.

منذ ذلك الحين بدأ تمييز الأشـراف عن الشـيوخ وعن الفرسـان، والعامّة عن غير النبلاء: فالعامّي لـم يعد يقابل الأشراف، بل الفرسان والشيوخ؛ ولـم يعد العامّي يعني غير نبيل، بل مواطنًا صاحب ثروة صغيرة، حتّى وإن كان شريفًا، وعلى عكس ذلك لـم يعد الشيخ يعني نبيلا، بل مواطنا ذا ثروة مهمة جدّا حتى وإن كان غير نبيل.

[§ ٦٢٧] لجميع هذه الأسباب أُطلق منذ ذلك الحين اسم "*Comitia Centuriata*" على الاجتماعات التي يلتقي فيها الشعب الروماني كلّه، بفئاته الثلاث، لينصّ، من جملة شـؤون عموميّـة أخرى، على القوانيـن القنصليّة. وبقي اسـم "*Comitia tributa*" يُطلق علـى الاجتماعـات التـي يقـرّر فيهـا العامّـة وحدهـم القوانيـن التريبونيّـة، والتـي هـي الاسـتفتاءات، التي سُـمّيت في البداية هكذا بالمعنى الذي فسّـره شيشرون بأنّها "*plebi nota*"، أي قوانيـن نُشـرت للعامّة، ومن بينها حسـب رواية بومبونيـوس، قانون يونيوس بروتـوس الـذي يُخبـر فيه العامّة بأنّ الملـوك طُردوا من روما مـن دون رجعة. وبالطريقة نفسـها، فـي الأنظمـة الملكيّـة، كانـت القوانيـن الملكيّـة تُسـمّى "*populo nota*" ولهـا خاصيّـات مشـابهة. وفي هـذا الخصوص فإنّ بالـدوس[1]، بقدر ما هو ثاقـب الفكر فهو قليـل المعرفة، يسـتغرب مـن كتابـة "*plebiscitum*" بحرف "*s*" واحد، لأنّه بحسـب ما يعنيـه اللفـظ مـن أنّـه قانـون أمـلاه الشـعب، كان ينبغـي أن يُكتـب بحرفـيْ *s* اثنيْـن، أي "*plebisscitum*" لأنّه متأتّ من "*sciscor*" وليس من "*scio*".

[§ ٦٢٨] وأخيرًا، للتأكيد على الطقوس الإلهية بقي اسم "*Comitia Curiata*" يُشير إلـى اجتماعـات رؤسـاء الكهنة وحدهـم، حيث يتداولـون بخصوص الأمور المقدّسـة. وبالفعل، في زمن الملوك كانوا ينظرون إلى كلّ الأشياء الدنيويّة على أنّها مقدّسة، وكان الأبطـال جميعهـم "*cureti*" أي كهنـة مسـلّحين، مثلما سـبق ذكره[2]. لذلـك، ولأواخر أزمنة روما، وبما أنّ سلطة الأب بقيت تُعتبر دائمًا مقدّسة، والأنظمة التي تتعلّق بها غالبًا مـا كانـت تُسـمّى "*sacra patria*"، فـإنّ طقـوس التبنّي كانـت تُقام في هـذه المجالس الكهنوتيّة.

---

(١) هو Baldus de Ubaldis [1327-1400]، أصيل مدينة بيروجيا وهو رجل قانون إيطالي.

(٢) § ٥٩٣.

[الباب الخامس]

استنتاج
بخصوص العناية الإلهية التي تنظم الجمهوريّات
وبخصوص قانون الناس الطبيعي

[§ ٦٢٩] لقد اكتشفنا أنّ نشأة هذه الجمهوريّات بدأت في عصر الآلهة، حيث كانت الحكومات ثيوقراطيّة، أي إلهيّة، ثمّ ظهرت الحكومات البشريّة الأولى، أي تلك البطوليّة، والتي نسمّيها هنا بشريّة لتمييزها عن *الإلهيّة*، والتي هي مثل التيّار القويّ لنهر عظيم يحافظ حتى في توغّله بعيداً في البحر على اندفاع تيّاره وعلى مياهه العذبة[1]، فقد واصل عصر الآلهة مساره من خلال تواصل الفكرة الدينيّة من أنّ الآلهة تفعل كلّ ما يفعله البشر أنفسهم وهكذا، من الآباء الملوك في عهد الأُسَر خلقوا جوبيتر، ومن الآباء أنفسهم الذين جُمّعوا في نظام ما عند نشأة المدن الأولى خلقوا مينيرفا، ومن مبعوثيهم إلى الموالي الثائرين خلقوا ميركور، وكما سنرى لاحقًا، خلقوا من الأبطال القراصنة نبتون[2]. وعلينا هنا أن نعظّم العناية الإلهية التي -إزاء البشر الذين كانوا يريدون فعل أيّ شيء آخر- جعلتهم في المقام الأوّل يخشون الإله، الذي كانت عبادته هي الأساس الأوّل والرئيسي للجمهوريات، ثمّ وطّنهم الدين في الأراضي الأولى القفراء التي حازوها قبل أيّ أحد آخر، وهذا الحوزهو منبع كلّ ملكيّة. والجبابرة الأكثر قوّة استقرّوا في الأراضي على مرتفعات الجبال، حيث توجد منابع المياه الدائمة، وشاءت العناية الإلهية أن يكونوا في أماكن صحيّة وآمنة، مع وفرة من المياه، حتّى يستقرّوا ويكفّوا عن الترحال: وهذه هي الميزات الثلاث التي يجب أن تتحلّى بها الأراضي لكي تنشأ فيها

(١) § ٤١٢.

(٢) § ٦٣٤.

المدن في وقت لاحق. بعد ذلك جعلتهم يجتمعون بنساء ثابتات ليبقوا في رفقتهنّ على مدى الحياة، ومنه جاء الزواج، المنبع المعترَف به لكلّ سلطة. وبهؤلاء النساء تكوّنت الأُسَر التي هي نواة الجمهوريّات. وأخيرًا بفتح الملاجئ ظهر الموالي، وبهذا توفّرت المادّة التي على أساسها ستقوم من بعد، مع القانون الزراعي الأوّل، المدن الأولى المتكوّنة من مجموعتيْن من البشر: الأولى من الأشراف، ليأمروا، والثانية من العامّة، ليطيعوا. وهؤلاء الأخيرون يسمّيهم تيليماخوس في قول له عند هوميروس *«الشعب الآخر»*[1]، أي الرعيّة، مختلفة عن الشعب الحاكم المتكوّن من الأبطال. ومنه نشأ العلم السياسي الذي لا يعدو أن يكون علم الإمارة وعلم الطاعة في المدن. وعند نشأته أنشأت العناية الإلهية الجمهوريّات تحت شكل أرستقراطي، تماثلا مع الطبيعة المتوحّشة والمنعزلة التي كان يتميّز بها البشر الأوائل. وهذا الشكل يتمثّل في كليّته، مثلما يلاحظ الكتّاب السياسيّون، في الحفاظ على التخوم وعلى الأنظمة، لكي يواصل البشر الذين دخلوا لتوّهم في الحضارة، وعلى مدى طويل بفضل شكل حكوماتهم نفسها، البقاء داخل تلك الحدود ولكي يتركوا العادات المشينة والكافرة التي كانت تعيش عليها المجموعات خلال العهود الحيوانيّة والمتوحّشة. وبما أنّ البشر لهم فكر لا يهتمّ إلّا بما هو خاصّ ولا يدركون معنى ما هو ملك مشترك، وفي تعوّدهم ألاّ يتدخّلوا أبدًا في شؤون الآخرين الخاصّة، كما يقول هوميروس على لسان بوليفيموس وهو يخاطب أوليس[2]، ويرى أفلاطون في هذا العملاق آباء الأُسَر في العهد الذي نسمّيه بالطبيعي، الذي وُجد قبل ظهور المُدن، فإنّ العناية الإلهية حملتهم، في الشكل ذاته لحكوماتهم، على الاتّحاد من أجل وطنهم[3]، لكي يحفظوا مصالح خاصّة كبيرة كبر ممالكهم الأُسَريّة، وهو ما كانوا يدركونه جيّدًا. وهكذا، دون حتّى أن يخطّطوا لذلك، وجدوا أنفسهم مجتمعين من أجل منفعة مدنيّة شاملة سُمّيت جمهوريّة.

[§ ٦٣٠] الآن، بمعونة القرائن الإلهيّة التي عرضناها في *المنهج*[4]، لنفكّر ولنتأمّل في الطريقة البسيطة والطبيعيّة التي رتّبت بها العناية الإلهية شؤون البشر، والتي كان يقول

---

(١) § ٥٩٠.

(٢) § ٥١٦.

(٣) § ٥٨٤.

(٤) § ٣٤٣.

عنها البشر بحقّ، وإن كان بمعنى خاطئ، أنّها كانت جميعها من صنع الآلهة، ولنأخذ بعين الاعتبار العدد الكبير من النتائج المدنيّة التي يُمكن ردّها جميعها إلى هذه الأسباب الأربعة التي سنلاحظ عبر هذا العمل كلّه، أنها تمثّل -إن جاز القول- العناصر الأربعة لهذا الكون المدنيّ، أي الديانات والزواج والملاجئ والقانون الزراعي الأوّل الذي تحدّثنا عنه آنفًا[1]. وبعد ذلك، فلنبحث في كلّ إمكانات البشر، إن كان من الممكن لأشياء بهذا العدد وبهذا التنوّع وبهذا الاختلاف أن تكون لها بطريقة أخرى بدايات أكثر بساطة وأكثر طبيعيّة لدى أولئك البشر أنفسهم التي يقول أبيقور إنّها نتيجة الصدفة ويقول زينون إنّها نتيجة الضرورة، وأنّ الصدفة لم تستبعدها من هذا النظام الطبيعي، ولا القدر أجبرها على الخروج منه. وبالفعل، في اللحظة التي كان على الجمهوريّات أن تولد كانت الموادّ قد هُيّئت وصارت جاهزة لتتّخذ شكلا، وخرج منها رسم الجمهوريّات، الذي هو مزيج من فكر ومن جسد. كانت الموادّ الأولى ديانات هؤلاء البشر، ولغاتهم، وأراضيهم، وزواجاتهم، وأسماءهم، سواء كانت لأشخاصهم أو لبيوتهم، وأسلحتهم، وكذلك ترابهم، وقضاتهم، وأخيرًا شرائعهم. ولأنّ كلّ هذه الأشياء هي أشياؤهم، كانت كلّها حرّة، ولأنّها كانت حرّة بالكامل، كانت تأسيسيّة لجمهوريّات حقيقيّة. وحدث كلّ هذا لأنّ جميع الحقوق التي سبق ذكرها كانت قبل ذلك خاصّة بآباء الأُسَر، الذين في حالة الطبيعة كانوا ملوكًا، وهؤلاء الآباء، في فترة ما، تجمّعوا في نظام، وأنشؤوا السلطة المدنيّة السياديّة، بالطريقة نفسها التي في حالة الطبيعة أمسكوا بالسلطة الأُسريّة، ولم يكونوا خاضعين لأحد غير الإله. هذه الشخصيّة المدنيّة السياديّة تشكّلت من فكر ومن جسد. كان الفكر نظامَ الحكماء، كما يُمكن أن يكونوا في الحالة الطبيعيّة، في تلك الأزمنة التي كانت غاية في الخشونة والبساطة، وبقي من ذلك خاصيّة سرمديّة وهي: أنّه من دون نظام حكماء، يكون للدول مظهر الجمهوريّات، ولكنّها أجساد ميّتة من دون روح. من ناحية أخرى كان هناك الجسد، المتكوّن من الرأس ومن الأعضاء الأخرى الثانويّة. وبقي منه للجمهوريّات هذه الخاصيّة الأخرى السرمديّة، وبموجبها ينبغي للبعض أن يتمرس فكرهم على وظائف الحكمة المدنيّة، ويتمرّس الآخرون بأجسادهم

---

(1) §§ ٢٦٥، ٥٩٧، ٦٠٤.

على المهن والحرف التي تصلح سواء للسلم أو للحرب، مع هذه الخاصيّة الأخرى السرمديّة التي يكون الفكر فيها هو الذي يحكم، والجسد عليه دومًا أن يخدم.

[§ ٦٣١] ولكن هناك ما يثير إعجابًا أكبر، وهو أنّ العناية الإلهية في الوقت نفسه الذي أنشأت فيه الأُسَر - التي نشأت جميعها وهي تعرف إلهًا ما، مع أنّها بسبب الجهل والفوضى، لم تعرف أيّ منها الإله الحقيقي، لأنّ كلّ واحدة منها لها ديانتها ولغتها وأراضيها وزواجاتها وأسماءها وأسلحتها، وحكومتها وقوانينها- أنشأت الحقّ الطبيعي لأعيان القوم "*Gentes Maiores*"، مع جميع الخاصيّات المذكورة آنفًا، لكي يستعمله الآباء فيما بعد إزاء الموالي. وبالطريقة نفسها، حين أنشأت الجمهوريّات غيّرت، بواسطة الشكل الأرستقراطي الذي ميّزها عند نشأتها، الحقّ الطبيعي لأعيان القوم، أي الأُسَر، الذي سبق أن لاحظناه في حالة الطبيعة، إلى حقّ طبيعي لعامّة القوم "*Gentes minores*"، أي الشعوب، والذي لاحظناه في زمن المُدن. وبالفعل، فإنّ الآباء الذين كانوا يملكون الحقوق المذكورة آنفًا إزاء الموالي، بانغلاقهم داخل نظام طبيعي ضدّ هؤلاء، أغلقوا كلّ الخاصيّات المذكورة داخل أنظمتهم المدنيّة في معارضة للعامّة. وهذا الذي ميّز بالتحديد الشكل الأرستقراطي الصرف للجمهوريّات البطوليّة.

[§ ٦٣٢] بهذه الطريقة، فإنّ حقّ الناس الطبيعي[١]، الذي نراه الآن عند الشعوب والأمم، نشأ عند نشأة الجمهوريّات باعتباره ينتمي بخاصّة للسلطات المدنيّة السياديّة. وبهذا، فإنّ شعبًا أو أمّة لا تملك في دارها سلطة مدنيّة سياديّة، تتوفّر على جميع الخاصيّات المذكورة أعلاه، ليست شعبا أو أمّة بأتمّ معنى الكلمة، ولا يمكنها أن تمارس خارج ديارها، ضدّ الشعوب أو الأمم الأخرى، حقّ الناس الطبيعي، ولكن الحقّ، وكذلك ممارسته، سيكون شعب آخر أو أمّة أخرى أكثر تفوّقًا هي التي ستملكه.

[§ ٦٣٣] كلّ ما قلناه إضافة إلى ما أشرنا إليه سابقًا، من أنّ أبطال المدن الأولى سمّوا أنفسهم بالآلهة، كلّ ذلك يفسّر معنى عبارة "*iura a diis posita*" المستعمَلة

---

(١) يستعمل فيكو عبارة *diritto naturale delle genti* بخصوص الشعوب القديمة كحقّ طبيعي خاصّ بالأسياد وعِلية القوم (*gentes maiores , gentes minores*)، ولكنه بالنسبة للمجتمعات الحديثة فهو يعني به الحق الطبيعي (*jus naturale*) المتأتّي من طبيعة البشر العقلانية، وعليه فهو مشترك لكلّ الشعوب وينظم العلاقات بين الأمم.

للإشارة إلى أنظمة الحقّ الطبيعي للبشر. ولكن حين جاء من بعد الحقّ الطبيعي للبشرية الإنسـانيّة الـذي تحدّث عنه أوليبيانـوس المذكور عندنا في عدة مواضـع[1] - وهو الحقّ الذي اعتمد عليه الفلاسفة واللاهوتيّون الأخلاقيّون لفهم الحقّ الطبيعي للعقل السرمدي فـي تمـام تطـوّره - صارت هـذه العبارة تعنـي بصفة ملائمـة الحقّ الطبيعي للبشـر مثلما حدّده الإله الحقّ.

(١) §§ ٥٦٩، ٥٧٥، ٥٧٨، ٥٨٢.

[الباب السادس]

تابع لسياسة الأبطال

[§ ٦٣٤] يجعل جميع المؤرّخين العصرَ البطولي يبدأ بأعمال القرصنة التي كان يقوم بها مينوس وبالحملة البحريّة التي شنّها جازون على بونتو، ليتواصل بعد ذلك بحرب *طروادة* ويختتم بعودة أوليس إلى *إيتاكا*، لذا في هذه الفترة يكون قد نشأ آخر كبار الآلهة، نبتون، حسب رأي المؤرّخين الذي نؤكّده من جهتنا ببرهان فلسفي مدعوم بفقرات عديدة مهمة من هوميروس. والبرهان الفلسفي يتمثّل في كون الفنون وصناعة السفن والإبحار كانت آخر ما اكتشفته الأمم، لأنّه كان من اللازم لاختراعها التوفّر على الكثير من البراعة والذكاء "*ingegno*" لابتكارها، حتّى أنّ اسم ديدالوس الذي كان مخترعها صار يعني البراعة ذاتها، وأنّ لوكريتيوس[١] يتحدّث عن "*daedala tellus*" لقول «أرض *بارعة*». وفقرات هوميروس موجودة في *الأوديسا*، حيث إنّ أوليس كلّما نزل على شاطئ أو رمت به العاصفة عليه، كان يتسلّق مرتفعًا ليرى إن كان يتصاعد دخان من داخل الأراضي يشير إلى وجود بشر يسكنون فيها. وهذه الفقرات لهوميروس تجد ما يدعمها في نصّ أفلاطون الذي بلّغه لنا اسطرابون، كما سبق أن رأينا ذلك في *المسلّمات*[٢]، والذي يحدّثنا فيه طويلا عن الخوف العظيم الذي كانت الأمم القديمة تشعر به إزاء البحر. والسبب في ذلك نجده عند ثوقيديدس[٣] الذي بحسب رأيه أن الأمم اليونانيّة نزلت متأخّرة لتسكن على السواحل من شدّة خشيتها من القراصنة. لذا يُروى عن نبتون أنّه كان مسلّحًا بشوكة ثلاثيّة كان يضرب بها الأرض فترتجّ، وهذه الشوكة كانت دون شكّ خطّافًا كبيرًا لانتشال المراكب، وسُمّي "*dente*" أي «سنّ»، مع

---

(١) اسمه اللاتيني Titus Lucretius Carus [حوالي ٩٨ - حوالي ٥٥ ق.م.]. شاعر وفيلسوف لاتيني. ألّف قصيدة *De rerum natura* (في الأشياء الطبيعيّة) يصف فيها الكون حسب مبادئ أبيقور.

(٢) § ٢٩٦.

(٣) في كتاب حرب *البيلوبونيز*، I، ٧ و٨.

استعارة جميلة بإضافة أفعل التفضيل "*tre*" (ثلاثة)، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[1]. بتلك الشوكة كان نبتون يرجّ أرض البشر بالرعب الذي كانت تثيره أعماله القرصانيّة. بعد ذلك، في زمن هوميروس، ذهب الظنّ إلى أنّه كان يرجّ أرض الطبيعة، وتبعه في هذا الرأي أفلاطون بفكرة الأعماق التي جعل مكانها في مركز الأرض، وسنرى لاحقًا مدى فطنة هذه الفكرة[2].

[§ ٦٣٥] أعمال القرصنة هذه هي بمثابة الثور الذي اختطف به جوبيتر أوروبا، والمينوتور أو ثور مينوس الذي اختطف به الشبّان والشابّات على سواحل أتيكا، وبقي منها للإشارة إلى الأشرعة قول» *قرون السفن*» الذي استعمله فيرجيل لاحقًا[3]. كان أهالي تلك البقاع يقولون بكلّ صدق إنّ المينوتور يلتهم أبناءهم عندما يرون برعب وألم السفينة وهي تبتلعهم. وهكذا أيضًا أراد أوركوس أن يلتهم أندروميد الموثوقة إلى صخرة والمتحجّرة من فرط الرعب، ومنه جاءت باللاتينيّة عبارة "*terrore defixus*"، أي تسمّر من شدّة الهلع. وكذلك الحصان المجنّح الذي حرّرها به بارسيوس لا بدّ أن يكون سفينة قرصنة، بما أنّ الأشرعة سُمّيت أيضًا *أجنحة السفن*. وفيرجيل[4]، بإلمامه بهذه البطوليّة القديمة، كان يقول عن ديدالوس، الذي ابتكر السفينة، إنّه يطير بآلة يسمّيها "*alarum remigium*" أي رعد الأجنحة، كما يحكى أيضًا أنّ ديدالوس كان شقيق تيزيوس. وهكذا يكون تيزيوس مثال الشبّان الأثينيّين الذين بخضوعهم لقانون القوّة الذي يفرضه عليهم مينوس، يلتهمهم ثوره أو تبتلعهم سفينته القرصانية. وأريانا، التي تمثّل فنّ الملاحة، تعلّمه بخيط الملاحة كيف يخرج من متاهة ديدالوس، قبل أن تصبح المتاهات زخرفًا راقيًا تتحلّى به القصورالملكيّة، كان بحر إيجه، بسبب العدد الكبير من الجزر الذي يحويها ويحيط بها، وبعد أن علّم هذا الفنّ للكريتيّين، يهجر أريانا ويعود صحبة فيدرا شقيقته، أي مع فنّ مشابه. عندئذ يقتل المينوتور ويحرّر أثينا من الضريبة القاسية التي فرضها عليها مينوس، أي أنّ الأثينيّين أصبحوا بدورهم قراصنة. وهكذا، مثلما كانت فيدرا شقيقة أريانا، كان تيزيوس شقيق ديدالوس.

---

(١) §§ ٤٩١، ٥٣٥.

(٢) §§ ٧١٤، ٧٥٣.

(٣) *الإنيادة*، III، ٥٤٩.

(٤) نفسه، I، ٣٠١؛ VI، ١٩.

[§ ٦٣٦] بخصوص هذه الأشياء يقول فلوطرخس في كتاب *Teseo*[١]، إنّ الأبطال يعتبرون شرفًا كبيرًا وفخر سلاح أن يُسمّوا *الصوصًا*، بالطريقة نفسها التي في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، كان لقب قرصان يُعتبَر صفة نبالة. ويُقال إنّه في تلك الأزمنة، التي كانت أزمنة صولون، سمح هذا الأخير في قوانينه بالجمعيّات ذات الصبغة القرصانيّة: ونرى من هذا كم كان صولون يفهم جيّدًا هذه الإنسانيّة الكاملة التي هي إنسانيّتنا والتي لا يتمتّع فيها القراصنة بالحقّ الطبيعي للبشر! والعجب كلّ العجب أنّ أفلاطون وأرسطو وضعا اللصوصيّة ضمن أنواع الصيد، ومع جميع أولئك الفلاسفة المنتمين إلى شعب متحضّر بتلك الصفة يتفّق معهم، في همجيّتهم، الجرمانيّون القدامى الذين حسب قول يوليوس قيصر[٢]، يعتبرون أعمال اللصوصيّة ليست غير شائنة فقط، بل وأيضًا من بين أفعال البسالة، من حيث إنّها لدى رجال لا يمارسون أيّ مهنة فإنها تمثّل طريقة لتجنّب البطالة. وقد دامت هذه العادة الهمجيّة طويلا لدى أمم مستنيرة جدّاً، حتّى أنّه حسب قول بوليبيوس[٣]، كان يوجد من بين بنود معاهدة السلم التي عقدها الرومان مع القرطاجنيّين، تحجير أن يتجاوز الأخيرون *رأس بيلورو* بصقليّة، لممارسة القرصنة أو التجارة. ولكن هذا ليس بالمهمّ جدّاً باعتبار أنّ القرطاجنيّين والرومان كانوا يعترفون لأنفسهم بأنّهم برابرة في تلك الفترة، مثلما يمكن ملاحظته في عدّة مواضع عند بلاوتوس[٤] حيث يقول إنّه ترجم المسرحيّات الإغريقيّة إلى اللغة *البربريّة*، ويعني بها اللاتينيّة. والملاحَظ أكثر هو أنّ لدى اليونانيّين المتحضّرين جدّاً، في زمن حضارتهم الأكثر ثقافة، كانت تُمارس مثل تلك العادة البربريّة التي يستمدّون منها كلّ أغراض مسرحيّاتهم تقريبًا. ولعلّه بسبب هذه العادة، التي لا تزال تُمارس الآن ضدّ المسيحيّين، سُمّيت الضفّة الإفريقيّة المواجهة لضفّتنا *أرض البربر*.

[§ ٦٣٧] ويعود أصل هذا الحقّ الحربي القديم جدّاً إلى جفاء الشعوب البطوليّة الذي تحدّثنا عنه سابقًا[٥]، إذ أنّهم كانوا يرون الأجانب من منظار كونهم أعداء دائمًا،

---

(١) بلوتارخُس أو فلوطرخس [نحو ٤٥-١٢٥ م]، فيلسوف ومؤرّخ يوناني.

(٢) يوليوس قيصر، حرب بلاد الغال، ٤، ٣.

(٣) بوليبيوس، *التاريخ العام للجمهوريّة الرومانيّة*، III، ٢٤، ٤.

(٤) تيتوس ماتشيوس بلاوتوس، *Asinaria*, prol.11، *Trinumumus* , prol. 19

(٥) § ٦١١.

ويقيمون شهرة سلطتهم على إبقائهم بعيدين أكثر ما يمكن عن تخومهم، كما يذكر تاسيتوس[1] بخصوص السويديّين، الأمّة الأكثر شهرة في جرمانيا القديمة. بل كانوا يعتبرون الأجانب لصوصا، كما سبق ذكره منذ قليل. وفي هذا الخصوص لدينا فقرة مهمة عند ثوقيديدس[2]، حيث يذكر فيها أنّه إلى حدود زمنه، عندما يلتقي المسافرون بعضهم البعض برّا أو بحرًا، يسأل أحدهم الآخر إن كانوا لصوصًا، ويريدون بقول ذلك إن كانوا *أجانب*. إلّا أنّ اليونانيّين في تقدّمهم التدريجي نحو الحضارة، تركوا سريعًا هذه العادة البربريّة، وأطلقوا لقب *برابرة* على جميع الأمم الأخرى التي احتفظت بها. وفي هذا المعنى احتفظوا باسم (βαρβαρία، بربريّا) [برباريا]، للإشارة إلى *تروغلوديتيس (τρωγλοδύτης، تروغلودوتس أي ساكن الكهف)*[3]، التي يُفترض أنّها تقتل كلّ مسافر يجتاز تخومها، كما هي العادة في زمننا الحاضر لدى بعض الأمم المتهمّجة. وما هو مؤكّد أنّ الأمم المتحضّرة لا تقبل الأجانب دون أن يرخّصوا لهم بدخول البلاد.

[§ ٦٣٨] ومن بين الأمم التي كان يسمّيها اليونانيّون *بالبربريّة*، تبعًا لهذه العادة، كان هناك الرومان، مثلما يدلّ على ذلك قولان جاءا في *قانون اللوائح الاثنتي عشرة*. الأوّل هو "*Adversus hostem aeterna auctoritas esto*"[4]؛ والثاني المنسوب إلى شيشرون يقول "*si status dies sit, cum hoste venito*"[5]. ولفظ "*hostis*" هنا، بتخمين معبَّر عنه بكلمات عامّة، يكون مثل استعارة للإشارة إلى *الخصم في نزاع ما*. إلّا أنّ شيشرون يُلاحظ بخصوص هذا القول نفسه، بتوافق تامّ مع منظورنا، أنّ "*hostis*" كان يشير عند القدامى إلى ما صار يُعبّر عنه لاحقًا بلفظ "*peregrinus*". وإذا أخذنا هذين القولين معًا فإنّنا نفهم منهما أنّ الرومان كانوا يعتبرون في البداية الأجانب أعداء حرب على الدوام. ولكن ينبغي فهم القولين المذكورين على أنّهما ينطبقان على أولئك الذين كانوا أوّل "*hostes*" في العالم أي: – وكما سبق أن قلنا ذلك[6]– الأجانب الذين

---

(١) بل يوليوس قيصر في كتاب *التاريخ الروماني*، مذكور، IV، ٣.

(٢) في كتاب *حرب البيلوبونيز*، I، ٥، ٢.

(٣) إشارة إلى جهات ساحليّة تقع في إثيوبيا الحاليّة.

(٤) ما معناه «إزاء الأجنبي ليكن حقّ الملكيّة دائمًا»، أي أنّه لا يوجد تقادم لحقّ الملكيّة.

(٥) ما معناه «حين يُحدّد له يوم فليتقدّم مع الأجنبي»، شيشرون، *De Officiis* (حول الواجبات)، I، ١٢، ٣٧.

(٦) § ٦١١.

قُبلوا في الملاجئ، والذين شاركوا من بعد ضمن فئة العامّة في تشكيل المُدن البطوليّة، مثلما سبق أن بيّنّا ذلك. وهكذا، فإنّ قول شيشرون يعني أنّه في اليوم المُحدّد يجب على النبيل أن يأتي مع العامّي للمطالبة بأرضه، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك أيضًا. ولذا فإنّ السلطة الدائمة التي يتحدّث عنها هذا القانون نفسه هي المعلنَة ضدّ العامّة الذين، حسب قول أرسطو المذكور في *المسلّمات*[١]، حلف الأبطال إزاءهم عداوة دائمة. بحسب هذا القانون البطولي لا يُمكن للعامّة مهما طالت المدّة أن يتملّكوا بمقتضى تقادم مكسِب أيّ أرض رومانيّة، لأنّ هذه الأراضي لا تُباع وتُشترى إلاّ بين الأشراف. وهذا هو السبب في الغالب الذي من أجله لا يعترف قانون *اللوائح الاثنتَيْ عشرة* بملك الرقبة. بعد ذلك، حين قلّ استعمال القانون البطولي وغلب استعمال القانون الإنساني، كان الحكّام الشرعيّون ينظرون في جلسة فوق العادة، أي خارج التراتيب القانونية، في قضايا ملك الرقبة، لأنّهم لا يقدرون، لا بصفة مفتوحة ولا عبر أيّ تأويل، على إيجاد أيّ داع في هذا القانون لتأسيس أحكام عاديّة تكون محدّدة وعادلة، وكلّ هذا لأنّ ذلك القانون نفسه يعتبر أنّ أملاك رقبة العامّة جميعها أملاكًا تنازل لهم عنها الأشراف بصفة مؤقّتة. ومن ناحية أخرى فهو لا يهتمّ بسرقات وبأعمال عنف الأشراف نفسهم، بسبب خاصيّة أخرى للجمهوريّات الأولى، كان قد أشار إليها أرسطو مثلما رأينا ذلك في *المسلّمات*[٢]، والتي هي أنّها لم تكن تتوفّر على قوانين تخصّ الأضرار وأعمال العنف الخاصّة التي كان على الأفراد وبصفة خاصّة أن يحلّوها بأنفسهم وبقوّة السلاح، كما سنرى ذلك لاحقًا في الكتاب الرابع[٣]. من تلك القوّة الحقيقيّة بقيت بعد ذلك في مراسم المطالبة تلك *القوّة المستعارة*، التي يسمّيها آولوس جيلّيوس» *من قشّ*»[٤]. وما يؤكّد كلّ هذا هو التحجير المسمّى *unde vi*[٥]، الذي يصدره الحاكم الشرعيّ والذي كان فوق العادة لأنّه لم يقع التنصيص فيه أبدًا في قانون *اللوائح الاثنتَيْ عشرة* على أعمال العنف الخاصّة ولا يأتي حتّى الحديث عنها. ولدينا تأكيد ثان في الدعاوي المسمّاة "*de vi bonorum*

---

(١) § ٢٧١.

(٢) § ٢٦٩.

(٣) §§ ٩٦٠، وما يتبع

(٤) Aulo Gellio في *Noctes atticae*, xx, 10, 10

(٥) وهو تحجير يهدف لحماية من وقع سلبه بالعنف من أملاكه المنقولة.

"*raptorum*" و"*quod metus caussa*"[1]، التي جاءت من بعد والتي كانت هي الأخرى من مشمولات الحاكم الشرعيّ.

[§ ٦٣٩] لذا فإنّ هذه العادة البطوليّة في اعتبار الأجانب أعداء دائما، والتي كانت متّبعة على حدة من طرف كلّ شعب من الشعوب في وقت السلام، حين امتدّت إلى الخارج اتّخذت شكلا صار بعد ذلك مشتركًا بين جميع الأقوام البطوليّة، هو شكل الحروب الدائمة فيما بينها من خلال أعمال النهب والقرصنة المستمرّة. وهكذا فمن المدن التي قال عنها أفلاطون إنّها نشأت على أساس الأسلحة، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[2]، والتي بدأت تحكم نفسها كما لو كانت في حالة حرب حتّى قبل أن تظهر الحروب بأتمّ معنى الكلمة بين المدن، جاء الاسم الذي يشير إلى الحرب «πόλεμος، پوليموس» من لفظ «πόλις، پوليس» الذي يعني «*المدينة*».

[§ ٦٤٠] وحتّى نبرهن على ما سبق قوله علينا أن نقوم بملاحظة مهمة، وهي أنّ الرومان وسّعوا غزواتهم وضاعفوا الانتصارت التي حقّقوها عبر العالم باتّباع أربعة قوانين كانوا قد طبّقوها بروما نفسها في علاقاتهم بالعامّة. وبالفعل فقد طبّقوا مع الولايات الشرسة نظام رومولوس الذي طبّقه مع *الموالي* وأرسلوا إلى تلك الولايات المستعمرين الرومان الذين حوّلوا أصحاب الحقول إلى عمّال يوميّين. ومع الولايات المسالمة طبّقوا القانون الزراعي الذي سنّه سيرفيوس توليوس[3]، بمنح أهاليها الملكية النفعية للحقول، ومع إيطاليا طبّقوا القانون الزراعي المضمّن في *اللوائح الاثنتي عشرة*، بمنح الأهالي الملكيّة *الكويريتيّة*، التي كانت تحظى بها الأراضي المسمّاة بالأراضي *الإيطاليّة*، ومع *البلديّات*، أو المدن التي تصرّفت بطريقة جيّدة، طبّقوا قانون الزواج الرسمي والقنصليّة الذي سبق أن منحوه لعامّتهم من الشعب.

[§ ٦٤١] كانت العداوة الدائمة بين المدن الأولى لا تتطلّب أن تُعلن الحروب، بحيث أنّ أعمال اللصوصيّة كانت تُعتبر شرعيّة، وبعكس ذلك أيضًا، حين تركت الأمم ممارسة هذا النوع من التقليد الهمجي، حدث أن اعتُبرت الحروب غير المعلَنة على أنّها

---

(١) أي تحمي من المصادرة بالقوّة للأملاك القارّة.

(٢) § ٥٨٨.

(٣) § ١٠٧، ٦١٣.

أعمـال لصوصيّـة غير معتـرَف بها في قانون الناس الطبيعي لـدى الأقوام (*Gentes*) التي يسـمّيها أولبيانوس *بالمتحضّرة*[١]. هذه العداوة الدائمة نفسـها للشعوب الأولى تفسّر لنا لمـاذا كانـت الفترة الطويلة التي تحارب فيها الرومان مع الألبانيّين كانت تعني في الواقع الفتـرة السـابقة كلّهـا التي مـارس فيها الشـعبان أحدهما ضـدّ الآخر وكلّ بـدوره أعمال اللصوصيّـة التـي تحدّثنـا عنها. وعليه فمن المعقـول أكثر أنّ هوراثيـوس قتل أخته لأنها كانت تبكي رجلها كورياتسيوس الذي اختطفها، أكثر منه لأنّها تزوّجته؛ كما أنّ رومولوس نفسـه لـم يمكنـه أن يجد زوجة عنـد أولئك الألبانيّين أنفسـهم لو لم يتدخّـل في صالحه انتماؤه إلى أسرة *ألبا* الملكيّة، والخدمة العظيمة التي أسداها لهم بطرد الطاغية أموليوس وبإعـادة العرش للملك الشـرعي نوميتـور. وتجدر الملاحظة أنّ النصـر، والقانون الذي يفرضـه، يتقـرّر بمآل الصراع بيـن الطرفيْن المتنازعيْن. هذا الصـراع، في حرب *ألبا*، كان الصـراع بين الهوراثيوس الثلاثة والكورياتسـيوس الثلاثة، وفـي حرب *طروادة*، كان بين باريس ومينيلاوس، وإذ لـم يتقرّر نهائيًا، اسـتمرّ من طرف اليونانيّين والطرواديّين إلى أن انتهت الحرب. وبالطريقة نفسها، في فترة عودة الهمجيّة (القرون الوسطى)، كان الأمراء أنفسـهم ينهون بصفة مماثلة الصراعات من أجل ممالكهم بنزالات شـخصيّة وبحسـب نتيجتهـا تخضـع الشـعوب. وهكذا نرى أنّ *ألبا* هـي طروادة اللاتينيّة، وأنّ هوراتسـيا هي هيلّينة الرومانيّة، وتوجد لدى اليونانيّين حكاية مماثلة تمامًا، نقلها جيرارد فان فوسّيوس فـي كتابـه *Rettorica*[٢]، والسـنوات العشـر مـن حصـار طـروادة توافـق عنـد اللاتينيّين السـنوات العشـر مـن حصـار *فاي*، أي عدد منتهٍ من السـنوات يمثّل عـددًا لا متناهيًا في الأزمنة السابقة مارست فيه المُدن عداءات فيما بينها لا نهاية لها.

[§ ٦٤٢] ولأنّ مفهـوم العـدد مجـرّد جدّاً فقد كان آخر ما توصّلـت إلى فهمه الأمم، مثلمـا نبيّـن ذلك في هذا العمل بخصوص موضوع آخر[٣]. لهذا، حين تطوّر العقل أكثر، بقي اللاتينيّون يقولون "*sexcenta*" للتعبير عن عدد لا يُحصى، كما أنّ الإيطاليّين كانوا يقولـون فـي البداية *مئة*، ثمّ *مئة ألف* للتعبير عن عدد لامتناه، ذلك لأنّ مفهوم اللامتناهي

---

(١) § ٥٦٩، ٦٣٣.

(٢) هو Gerard Van Voss / Vossius، مذكور § ٤٢٨.

(٣) §§ ٧١٦، ١٠٢٦.

لا يمكن أن يتصوّره إلّا الفلاسفة. ولعلّه لهذا السبب كانت الشعوب الأولى تقول: «*اثني عشر*» للتعبير عن عدد كبير: وعلى سبيل المثال كانت آلهة الأقوام الأرستقراطية أو أعيان القوم بعدد اثنيْ عشر، بينما يعدّ فارّو[1] واليونانيّون منها ثلاثين ألفًا؛ وتعدّ أعمال هرقل اثنيْ عشر عملاً، بينما لا بدّ أنّها كانت لا تُحصى ولا تُعدّ؛ وكان اللاتينيّون يقولون إنّه يوجد اثنا عشر جزءًا في *الآس*، بينما يُمكن تجزئته إلى ما لا نهاية له. وفي نفس المعنى يُقال قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، بسبب العدد اللامتناهي من الشرائع التي حُفرت على ألواح على طول الدهر.

[§ ٦٤٣] إلّا أنّه في زمن حرب طروادة وفي الجهة من اليونان التي وقعت فيها، كان اليونانيّون يسمّون *Achivi*، الأخيّين، وكانوا يسمّون قبل ذلك *Pelasgi* من *Pelasgos*، أحد أقدم الأبطال اليونانيّين الذي سبق الحديث عنه[2]، وبعد ذلك انتشر اسم *أخيّون* في كامل اليونان، ويقول بلينيوس إنّه دام إلى عهد لوسيوس موميوس[3]. بعد ذلك عُرفوا دائمًا باسم *هلّينيّين*. بهذه الصفة أدّى انتشار اسم *أخيّين* في زمن هوميروس إلى فكرة أنّ اليونان جميعه تحالف في هذه الحرب، تمامًا مثل أنّ اسم *جرمانيا*، حسب قول تاسيتوس[4]، امتدّ إلى جزء كبير من أوروبا تواصلت تسميته باسم أولئك الذين بعد اجتياز نهر *الرّين*، طردوا الغاليّين واتّخذوا منذ ذلك الحين اسم *جرماتيين*. وهكذا نشر مجد هذه الشعوب هذا الاسم عبر كلّ بلاد *جرمانيا*، مثلما نشرت شهرة حرب طروادة اسم *أخيّين* عبر كلّ اليونان. ذلك أنّ الشعوب في عصر البربريّة الأولى كانوا بعيدين جدّاً عن فهم معنى الحلف، حتّى أنّ شعوب الملوك المغلوبين كانوا لا يكترثون بحمل السلاح للأخذ بثأرهم، مثلما رأينا ذلك في بداية حرب طروادة.

[§ ٦٤٤] وليس إلاّ من طبيعة الأشياء الإنسانيّة المدنيّة، ولا من غيرها، يُمكننا أن نحلّ هذه المسألة العجيبة: أنّ إسبانيا كانت أمّ العديد من الشعوب الذين أثنى شيشرون

---

(١) § ١٧٥.

(٢) § ٥٦٤.

(٣) لوسيوس موميوس أخايكوس [١٩٢ ق.م] قنصل روماني أخضع منطقة *آخايا* باليونان، التي صارت بعد ذلك مقاطعة رومانيّة.

(٤) في كتاب *جرمانيا*، ٢.

على بسالتهم وعلى طبعهم المشاكس ثناء لا حدّ له، وقد جرّب قيصر الروم ذلك على حسابه إذ في كلّ أنحاء العالم حيث حارب وانتصر كان قد حارب من أجل الإمبراطوريّة، بينما بإسبانيا فقط حارب للنجاة بحياته، فكيف حدث إذن مع الضجّة التي أحدثتها *ساغونتو*، التي جاهد أمامها حنّبعل طيلة ثمانية أشهر متتالية بقوّاته المتأهّبة القادمة لتوّها من إفريقيّة، بتلك القوّات نفسها التي صارت منقوصة العدد ومرهقة، بعد الانتصار على مدينة كاد أن ينتصر بها على روما فوق هضبة *الكابتولين*، ومع صيت *نومانسيا*، التي ارتعدت لها قوّات روما التي انتصرت لتوّها على قرطاج وأدخلت الشكّ في نفس الباسل والحكيم شيبيون المنتصر على إفريقيّة، كيف يُمكن، كنّا نتساءل، أنّ إسبانيا لم تقدر على توحيد جميع شعوبها في حلف لتُقيم على ضفاف نهر تاجة إمبراطوريّة الكون، واستحقّت الإطراء المكتئب الذي حظاها به لوسيوس فلوروس[1] والذي يقول فيه إنّها لم تدرك ما لديها من قوّة إلّا بعد ما انهزمت بالكامل، قطعة بعد قطعة؟ وتاسيتوس في *حياة أغريكولا*[2]، إذ لاحظ نفس السلوك عند الإنكليز، في أزمنة كانوا فيها، حسب أغريكولا، شرسي الطباع، عبّر بخصوص هذا الموضوع بطريقة جدّ ملائمة قائلا "*dum singuli pugnant, universi vincintur*"[3]. وبالفعل، إن لم تقترب منهم فإنّهم يبقون مثل الحيوانات في أوكارها، داخل تخومهم، يواصلون العيش فيها متوحّشين مثل بوليفيموس، كما سبق الحديث عن ذلك[4].

[§ ٦٤٥] إلّا أنّ المؤرّخين المعجَبين بقرقعة المعارك البحريّة البطوليّة التي أبهرتهم، لم يهتمّوا كثيرًا بالمعارك البريّة البطوليّة، وأقلّ منها بالسياسة البطوليّة التي كان اليونانيّون يحكمون أنفسهم بواسطتها في تلك الفترة. ولكن ثوقيديدس[5]، وهو كاتب ثاقب الفكر وعلّامة، ترك لنا بخصوص هذا الموضوع ملاحظة مهمّة جدًّا، حيث يروي أنّ المُدن البطوليّة كانت جميعها دون أسوار، كما بقيت على هذا الحال إسبرطة في اليونان،

(١) Lucius Florus، في *De gestis Romanorum*, 1, 33, 4

(٢) تاسيتوس، *حياة أغريكولا* [Vita et moribus Iulii Africolae]، ١٢.

(٣) ما معناه: إذ حاربوا منعزلين، فقد انهزموا مجتمعين.

(٤) §§ ٥١٦، ٥٤٧، ٥٧٦، ٦١٥، ٦٢٩.

(٥) انظر *حرب البيلوبونيز*، I، ٦.

ونومانسيا، التي كانت بمثابة إسبرطة إسبانيا، ونظرًا لطبعهم المتكبّر والعنيف، كان الأبطال يخلع أحدهم الآخر باستمرار من على العرش، مثل أموليوس الذي أطرد نوميتور، ورومولوس الذي أطرد أموليوس لإعادة عرش *ألبا* إلى نوميتور. نرى إذن كم أنّ السلالات الملكيّة البطوليّة اليونانيّة وسلسلة متواصلة من أربعة عشر من الملوك اللاتينيّين يسّرت لعلماء التأريخ احتساب الزمن! وبالفعل، في زمن عودة البربريّة (القرون الوسطى) وفي أحلك فتراتها بأوروبا، لا شيء كان أقلّ استقرارًا من مصائر الممالك حسب ما نقرأه بخصوص هذا الموضوع وكما لاحظناه سابقًا في *الملاحظات الخاصّة بالجدول الزمني*[1]. وفي الحقيقة نبّهنا إلى ذلك تاسيتوس الذي كان عارفًا جدّاً بالأمر منذ الجملة الأولى من *الحوليّات* حين قال: "*UrbemRomamprincipio Reges* ***habuere***"[2]، باستعمال الفعل الأقلّ قوّة للتعبير عن أنواع المُلك الثلاثة التي يميّزها المشرّعون، والتي هي: *habere, tenere, possidere* [امتلَك، أمسك، حاز].

[§ ٦٤٦] إنّ الأشياء المدنيّة كما كانت موجودة في هذه الممالك يقصّها علينا التاريخ الشعري من خلال الأساطير العديدة التي تتحدّث عن منافسات الإنشاد، باعتبار الإنشاد حسب معنى فعل *canere* أي أنشد، الذي يعني *التكهّن*، وعليه فهي تتعلّق بالصراعات البطوليّة بشأن *النذور*[3].

[§ ٦٤٧] وهكذا نرى *الساتير* مارسياس، «المخالف لنفسه» أو *secum ipse discors* هو الوحش الذي يتحدّث عنه تيتوس ليفيوس، بعد أن خسر ضدّ أبولّو منافسة إنشاد، سلخه الإله حيًّا: ولنلاحظ مدى وحشيّة العقوبات البطوليّة! ولينوس، الذي يرمز إلى العامّة، وليس لينوس الآخر الذي كان دون شكّ شاعرًا بطلا نجده إلى جانب أمفيون وأورفيوس وموزيوس وآخرين غيرهم، قتله أبولّو في منافسة إنشاد مشابهة. في كلتا الخرافتين نرى أنّ المنافسة كانت مع أبولّو، ربّ الآلهة، أي إله علم التنجيم أو علم النذور. وكنّا قد رأينا سابقًا أنّه كان أيضًا إله النبالة، لأنّ علم النذور، كما سبق أن قدّمنا البراهين على ذلك، كان بحوزة الأشراف دون غيرهم[4].

---

(١) § ٧٦.

(٢) أي «كانت مدينة روما في البداية بأيدي الملوك».

(٣) § ٥٠٨.

(٤) §§ ٥٠٨، ٥٣٣ وما يتبع.

[§ ٦٤٨] وجنيّات البحر اللاتي ينوّمن البحّارة بأناشيدهنّ ثمّ يذبحنهم؛ والسفنكس الذي يعرض على المسافرين الأحاجي ويقتلهم حين يعجزون على حلّها؛ وكيركي التي بسحرها تحوّل رفاق أوليس إلى خنازير ثمّ تقتلهم، بحيث أنّ فعل *cantare* (أنشد أو غنّى) اتّخذ فيما بعد معنى *مارس السحر*، كما في هذا البيت:

...cantando rampitur anguis ;[1]

وهكذا، فإنّ السحر الذي في البداية كان بفارس علم تأويل النذور، صار يعني فنّ السّحرة، وأعمال السّحر هذه احتفظت باسم "*incantesimi*". جميع أولئك البحّارة والمسافرين والمتجوّلين، كانوا الأجانب في المُدن البطوليّة الذين سبق أن تحدّثنا عنهم، هم العامّة الذين يتصارعون مع الأبطال لكي تُبلّغ لهم النذور، والذين يفشلون في محاولاتهم ويُعاقبون بقسوة.

[§ ٦٤٩] بالطريقة نفسها، يحاول *الساتير بانس* أن يعانق الحورية سيرنكس التي، مثلما ذكرنا سابقًا[٢]، كانت معروفة بشدوها، ولكنّه لا يعانق إلاّ القصب؛ وعلى غرار *بانس* مع سيرنكس، إيكسيون المغرَم بجونو، إلهة الزواجات الاحتفاليّة، يعانق الغيوم بدلا منها. القصب يعني الخفّة، والغيمة تعني زوال الزواجات الطبيعيّة. ويُقال إنّه من هذه الغيوم نشأت السنطورات، أي العامّة، الوحوش ذات الطبائع المتنافرة التي يتحدّث عنها تيتوس ليفيوس، الذين اختطفوا زوجات اللافيتيّين أثناء مراسم الزواج. وكذلك ميداس، الذي ذكرنا سابقًا أنّه كان عاميًا[٣]، يحمل مخفية أذنيْ حمار، والقصب الذي استحوذ عليه *بانس*، أي الزواجات الطبيعيّة، يكشفها، تمامًا مثلما يقول الأشراف الرومان عن العامّة إنّهم وحوش لأنّهم «*يمارسون الزواج على طريقة الحيوانات*»[٤].

[§ ٦٥٠] فولكانوس، الذي هو دون شكّ عامّي، أراد أن يتدخّل في نزاع بين جوبيتر وجونو، فأسقطه من السماء جوبيتر بركلة تركته أعرج[٥]. وهذه الخرافة ترمز إلى النزاع

---

(١) أي «*... إذ يغنّي، انفجر الثعبان*»، فيرجيل، *قصص ريفيّة*، VIII، ٧١.

(٢) § ٤٦٧.

(٣) § ٥٨٠.

(٤) ورد باللاتينية *agitabant connubia more ferarum*، انظر §§ ٥٦٧، ٧٣٤.

(٥) § ٥٧٩.

الـذي شـنّه العامّـة للحصـول مـن الأبطال على المشـاركة فـي معرفة نـذور جوبيتر وفي الـزواج الرسـميّ الذي ترعاه جونو، وهـو نزاع انتهى بهزيمتهم وبقـوا يعرجون، أي بقوا ذليلين.

[§ ٦٥١] وكذلك فايثون، من أسرة أبولّو، كان يُعتبر ابن الشمس، وأراد أن يقود عربة أبيـه الذهبيّـة، عربة ذهبيّة شـعريّة ترمز إلى القمح[١]، فخرج عن المسـالك العادية حاملا إيّاها إلى مخزن رئيس عائلته، أي أنّه يطالب بحقّ ملكيّة الحقول، فسقط من السماء.

[§ ٦٥٢] ولكـن الأهـمّ من كلّ هذا هو سـقوط تفّاحة الشـقاق من السّـماء، ونعني بالتفّاحة التي وضّحنا سـابقًا[٢] أنّها تشـير إلى ملكيّة الأراضي، لأنّ الشـقاق الأوّل نشـأ بسـبب الحقـول التـي كان العامّـة يريـدون اسـتغلالها لأنفسـهم، وفينـوس، التـي ترمز للعامّـة، تكافـح ضـدّ جونـو مـن أجـل الـزواج، وضـدّ مينيرفـا من أجـل السـلطة: لأنّه بخصوص حكم باريس، ولحسن الحظّ، يلاحظ فلوطرخس في كتابه *هوميروس*[٣] أنّ البيتيْـن فـي ختام *الإلياذة* تقريبًا[٤] ليسـا مـن تأليف هوميروس، بـل وضعتهما يد أخرى لاحقًا.

[§ ٦٥٣] *وأتالانتـا* برمـي التفاحـات الذهبية انتصرت في السـباق علـى الراغبين في الـزواج بهـا، بالطريقة نفسـها التي صارع بها هرقل ضدّ عنتي وهزمه برفعه نحو السـماء، مثلما سبق أن رأينا ذلك[٥]: والمغزى من ذلك أنّ أتالانتا تمنح للعامّة في البداية الملكيّة النفعيّة وبعد ذلك الملكيّة *الكويريتيّة*، مع الاحتفاظ لنفسها بالزواجات، تمامًا وبالتحديد مثـل الأشـراف الرومـان الذيـن بمقتضـى القانـون الأوّل الزراعـي لسـيرفيوس توليوس والقانون الزراعي الثاني *للوائح الاثنتيْ عشـرة*، بقوا محتفظين لأنفسـهم بالقِران الرسمي المخصّص لفئتهم، في الفصل "*Connubia incommunicata plebi sunto*"[٦] والذي

---

(١) § ٥٤٤.

(٢) § ٥٤٨.

(٣) فلوطرخس المنتحل، *De vita et poësi Homeri*, I, 5.

(٤) *الإلياذة*، XXIV، ٢٨ وما يتبع.

(٥) § ٦١٨.

(٦) بمعنى أنّ عقد القران الرسمي غير مسموح للعامّة.

هو النتيجة الأوّليّة للفصل الآخر "*Auspicia incommunicata plebi sunto*"[1]. وتبعًا لذلك، بعد ثلاث سنوات شرع العامّة في المطالبة بعقد القران الرسمي، وبعد ثلاث سنوات من النضال البطولي ربحوا قضيّتهم.

[§ ٦٥٤] واجتاح مريدو التزوّج ببنيلوب قصر أوليس، أي مملكة الأبطال، واستحوذوا على لقب الملك، والتهموا الأملاك الملكيّة، أي نسبوا إلى أنفسهم ملكيّة الحقول، وطلبوا يد بينيلوب، أي طالبوا بالقران الرسمي. حسب حكايات أخرى، بقيت بينيلوب عفيفة وعلّق أوليس[2] مريدي الزواج مثل طيور السمّان في شبكة شبيهة بتلك التي اصطاد بها فولكانوس البطولي فينوس ومارس العامّيّيْن، أي أجبرهم على خدمة الأرض مثل عمّال أخيل اليوميّين، ومثلما كان يريد كوريولانُس إخضاع العامّة الرومان الذين لم يرضوا بالقانون الزراعي الذي سنّه سيرفيوس توليوس إلى وضعيّة العمّال اليوميّين في زمن رومولوس، كما سبق ذكره[3]. وقاتل أوليس ضدّ إيروس[4] الفقير، وقتله، وربّما هي إشارة إلى مواجهة فلاحيّة حيث يلتهم العامّة أملاك أوليس. وفي حكايات أخرى، تمارس بينيلوب البغاء مع طالبي الزواج منها، أي أنّها تمنح القِران للعامّة، وتلد *بان*، وهو وحش ذو طبيعتيْن متنافرتيْن، واحدة بشريّة والأخرى حيوانيّة، وهو المخلوق الذي كان يتحدّث عنه الأشراف الرومان، حسب قول تيتوس ليفيوس[5]، قائلين للعامّة إنّه لو منح لهم حقّ عقد القران من طرف الأشراف، فإنّ المخلوقات التي ستنشأ من زواج العامّة ستكون شبيهة بالمخلوق *بان*، المخلوق ذي الطبيعتيْن المتنافرتيْن الذي وضعته بينيلوب بتعاطيها البغاء مع العامّة.

[§ ٦٥٥] ومن جماع باسيفاي بالثور نشأ مينوتور، مسخ من طبيعتيْن مختلفتيْن نصفه ثور ونصفه بشر. وتعني هذه الخرافة أنّ الأبطال الكريتيّين منحوا حقّ القِران للأجانب الذين جاؤوا إلى جزيرة كريت فوق مركب اسمه ثور الذي كان مينوس، مثلما ذكرنا

---

(١) أي لا تُبلّغ النذور للعامّة.

(٢) *أوديسا*، XXII, 171-192 و٣٠٠-٣٠٥.

(٣) § ١٠٨.

(٤) *أوديسا*، XVIII , 66-104

(٥) § ٥٦٧.

ذلـك، يختطف به الشـبّان والشـابّات بأتّيكا، والذي كان قد اختطـف به جوبيتر قبل ذلك أوروبا[1].

[§ ٦٥٦] إلـى هـذا النوع من الحكايات المدنيّة تنتمي الخرافة التي يُغرم فيها جوبيتر بآيـو، أي أنّ نـذوره موافقـة لهـا، ممّـا أثار غيـرة جونو - وهـي غيرة مدنيّة، كما سـبق أن رأينـا[2]، غايتهـا الاحتفاظ بالقِران الرسـمي للأبطال - فتعهـد بمراقبتها إلى *أرغوس* ذي المئة عين - أي إلى الآباء الأرجيّين، كلّ واحد له عينه وله أرضه وحقله المزروع، مثلما شـرحنا ذلـك من قبل[3]. وميركـور - الذي يرمز هنا إلى نمط العامّـة المرتزقة، - ينوّمها بمزمـاره أو بالأحـرى بغنائه، أي أنّه يهـزم الآباء الأرجيّين في النزاع من أجل النذور التي بإنشـادها تتمّ مراسـم القِران الرسـمي. فتتحوّل آيو إلى بقرة وتجامع الثور الذي عاشـرته بارسيفاي، وبعد ذلك هامت على وجهها بمصر، أي بين أولئك المصريّين الغرباء الذين استعان بهم دناوس لطرد الإناخيّين من مملكة آرغوس[4].

[§ ٦٥٧] إلّا أنّ هرقل مع مرّ السنين وفي نهاية عمره يلين طبعه ويغزل الصوف تحت أوامـر *يـول وأونفـال*: يتنـازل للعامّة عن الحقـوق البطوليّة للحقول، وفـي معارضته لهـم يسـمّي الأبطـال أنفسـهم *viri*. ولفـظ *viri* باللاتينيّة يعني الشـيء نفسـه الـذي يعنيه لفظ *أبطال* باليونانيّة. لذا يبدأ فيرجيل *الإنيادة* مستعملا بقوّة هذه الكلمة

Arma virumque cano[5]

ويترجم هوراثيوس البيت الأوّل من *الأوديسّا*:

Dic mihi, Musa, virum[6]

وعنـد الرومان بقيـت لفظة *viri* تعني الأزواج الذين عقدوا القران رسـميًّا، والقضاة، والكهنـة والحـكّام، لأنّه فـي الأرسـتقراطيّات الشـعريّة، كان الزواج والسـلطة العموميّة

---

(١) § ٦٣٥.

(٢) § ٥١٣.

(٣) § ٥٦٤.

(٤) § ٧٥.

(٥) ما معناه: *أغنّي الأسلحة والأبطال.*

(٦) أي: *غنّ لي، يا موزاء، الأبطال.*

والكهانة والقضاء كلّها مخصّصة للأنظمة البطوليّة. وهكذا مُنِح الحقّ البطولي على الحقول للعامّة اليونانيّين، مثلما مُنِح الحقّ *الكويريتي* من قِبل الأشراف الرومان للعامّة مع القانون الزراعي الثاني الذي كان موضوع صراع وتمّ الحصول عليه بقانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[1]. وبالطريقة نفسها، في زمن عودة البربريّة (القرون الوسطى)، كانت الأملاك الإقطاعيّة تُسمّى *أملاك الرمح*، والأملاك المنتمية إلى إقطاعيّة حرّة تُسمّى *أملاك المغزل*، كما هو الحال في القوانين الإنكليزيّة. لذا نرى أنّ الشعارات الملكيّة الفرنسيّة، للإشارة إلى شريعة الإفرنج التي تقصي في هذه المملكة النساء من حقّ الصعود على العرش، يسندها ملاكان يرتديان دلماسيّة ومسلّحان برمح، يزينها شعار بطوليّ يقول "*Lilia non nent*"[2]. هكذا، مثلما سمّى بالدوس -لعظيم حظّنا- الشريعة الإفرنجيّة "*Jus gentium Gallorum*"، بإمكاننا نحن أيضًا أن نسمّي شريعة *اللوائح الاثنتيْ عشرة* "*Jus Gentium Romanorum*"، باعتبارها تمنح الحقّ في الميراث عبر الوصيّة إلى الورثة والأنسباء من ناحية الأب وأخيرًا إلى العامّة. وسنرى من بعد[3] أيّ صحّة توجد في القول الذي يشير إلى أنّه في أزمنة روما الأولى، كانت هناك عادة تسمح للبنات أن يرثن بوصيّة من آبائهنّ، وأنّ هذه العادة صارت بعد ذلك قانونًا في *اللوائح الاثنتيْ عشرة*!

[§ ٦٥٨] وأخيرًا، ها إنّ هرقل يخرج ثائرًا وهو ملطّخ بدم السنطور نِسّوس، المسخ العامّي ذي الطبيعتيْن المتنافرتيْن الذي يتحدّث عنه تيتوس ليفيوس[4]، أي أنّه وسط الثورات المدنيّة يمنح القِران للعامّة ويتلوّث بدم العامّيّين ويموت، مثلما مات بقانون بيتيليا، المسمّى "*de nexu*"[5]، هرقل الروم، الإله فيديوس. بهذا القانون «*انكسر رباط الإيمان*»[6]، مع أنّ تيتوس ليفيوس[7] يستعمل هذه العبارة بخصوص حدث وقع بعد

---

(١) §§ ١٠٩، ٥٩٨.

(٢) بمعنى: *الزنابق لا تغزل*.

(٣) § ٩٩١.

(٤) § ٥٦٧.

(٥) § ١١٥.

(٦) ورد باللاتينية: *vinculum fidei vic tum est*

(٧) *التاريخ الروماني*، VIII، ٢٨.

عشر سنوات تقريبًا، ولكنّه مماثل في الجوهر للحدث الذي نتج عنه قانون بيتيليا، والذي تحتّم فيه ليس سنّ القانون فحسب بل -وأيضًا- تطبيق ما جاء فيه حسب هذه العبارة التي جاءت دون شكٍّ من كاتب حوليّات قديم، يسوقها تيتوس ليفيوس عن حسن نيّة بقدر ما هو عن جهل. وبالفعل، حين تمّ تحرير العامّة من السجون الخاصّة للدائنين الأشراف، بقي المدينون لهم مجبرين بمقتضى القوانين الشرعيّة على الإيفاء بديونهم. إلّا أنّ الشرع الإقطاعي قد كُسر، ذاك الشرع الذي هو وثاق هرقل[1]، الذي نشأ في الملاجئ الأولى في العالم والذي أسّس به رومولوس روما في ملاذه الخاصّ[2]. وعليه بإمكاننا التخمين مع كثير من الثقة بأنّ محرّرالحوليّات كتب "*vinculum Fidii*"، أي «وثاق الإله فيديوس»، الذي يقول عنه فارّو[3] إنّه كان هرقل الروم. والذين جاؤوا من بعد لم يفهموا هذه العبارة واعتقدوا خطأً أنّ الكلمة التي كُتبت هي "*fidei*". هذا الشرع الطبيعي البطولي وُجد عند الأميركيّين، ولا يزال موجودًا في العالم الحالي لدى الأحباش بإفريقيا، ولدى الموسكوفيت والتّتر بأوروبا وبآسيا. ولكنّه طُبّق بأكثر ليونة لدى اليهود حيث لا تدوم عبوديّة المدينين أكثر من سبعة أعوام.

[§ ٦٥٩] وأخيرًا فإنّ أورفيوس، مؤسّس اليونان بقيثارته أو حبله أو قوّته التي تعني الشيء نفسه وهو وثاق هرقل، أي وثاق قانون بيتيليا، مات بالطريقة نفسها، مقتولا على يد كاهنات باخوس، أي جماهير العامّة الثائرين، اللاتي حطّمن قيثارته التي تعني القانون، مثلما سبق أن أقمنا البرهان على ذلك في أكثر من مناسبة[4]: ولذا، منذ أزمنة هوميروس كان الأبطال يتّخذون زوجات أجنبيّات، والأبناء الهجناء كان يحقّ لهم أن يرثوا العرش، ما يدلّ على أنّ اليونان كان قد شرع في ممارسة الحريّة الشعبيّة.

[§ ٦٦٠] كلّ هذا يجعلنا نستخلص أنّ الصراعات البطوليّة أعطت اسمها لعصر الأبطال، وفي هذه الصراعات عديد الزعماء المهزومين والمضطهدين ركبوا البحر مع حلفائهم للبحث عن مواطن أخرى. وعاد البعض منهم في النهاية إلى موطنهم مثل

(١) § ٥٥٨.

(٢) § ٦١٣.

(٣) *De lingua latina*، في اللغة اللاتينيّة، ٧، ٦٦.

(٤) § ٦١٥.

مينـلاوس وأوليـس، بينمـا البعـض الآخـر اسـتقرّوا فـي أراض غريبـة، مثل سـيكروبس وقدمـوس ودانـاوس وبيلوبـس، الذين توقّفوا باليونـان. إلّا أنّ هذه الصراعـات البطوليّة كانـت قد حدثت قبل قـرون عديدة بفنيقيا ومصر وفريجيا؛ لأنّ الحضارة البشـريّة بدأت مـن قبـل في هذه البلدان، وديـدون كانت واحدة منهم، إذ فرّت مـن فينيقيا للتخلّص من اضطهاد حزب سلفها وتوقّفت بقرطاج التي سُميّت *Punica*، بدلا من *Phoenica*. ومن بيـن الطروادييـن، حيـن دمّـرت طروادة، اسـتقرّ كابيس بكابـوا، ونزل إينيا على سـواحل لاتسيوم ووصل أنتينور إلى *بادوفا*.

[§ ٦٦١] وهكـذا انتهـت حكمـة الشـعراء اللاهوتيّيـن والحكمـاء أو السياسـيّين في العصر الشـعري عنـد اليونانيّين، أمثال أورفيـوس وأنفيون وليـنـوس وموزيوس وآخرين غيرهـم، الذين بإنشـاد قـوّة الآلهة على العامّة مـن خلال النذور - التي كانت دون شـكّ أناشيد الحمد وكان أولئك الشعراء ينشدونها للآلهة، أي حمد العناية الإلهية التي يتعيّن عليهـم وحدهـم إنشـادها، - كانوا يبقـون العامّة تحت سـيطرة أنظمتهـم البطوليّة. تمامًا مثلما فعل أبيوس نسـيب *الديسـمفير* حوالي سـنة ثلاثمئة من تاريخ روما مثلما سـبق أن ذكرنـا ذلـك[1]، الذي أبقـى العامّة الرومان خاضعين لطاعة الأشـراف منشـدًا عليهم قوّة الآلهة في النذور التي يقول الأشراف إنّهم يملكون سرّها. وكما يفعل أيضًا أمفيون حين ينشد مصاحبًا إنشاده بالقيثارة فتتحرّك الحجارة من تلقاء نفسها وتشيّد أسوار طيبة، التي كان قدمـوس قـد أسّسـها قبل ذلـك بثلاثمئة عام، أي أنّـه يؤكّد اسـتمرار العصر البطولي فيها.

---

(١) § ٨١.

[الباب السابع]

استنتاجات
خاصّة بالشؤون الرومانية القديمة،
وبالخصوص بالحريّة الشعبيّة المزعومة
التي أقرّها يونيوس بروتُس

[§ ٦٦٢] إنّ جميع هذه التوافقات بين الرومان واليونانيّين بخصوص الأمور البشريّة المدنيّة التي أمكننا أن نبرهن بواسطة العديد من القرائن أنّ التاريخ الروماني هو ميثولوجيا تاريخيّة متواصلة للأساطير اليونانيّة متعدّدة ومتنوّعة ومختلفة تجعل بالضرورة كلّ من له إدراك، ولا ذاكرة أو خيال فحسب، يؤكّد أنّه منذ زمن الملوك إلى حين تمكين العامّة من حقّ القِران الرسمي، كان الشعب الروماني، شعب الإله مارس، متكوّنًا من أشراف فحسب. كما يجب الاعتراف أيضًا أنّ الملك تولّوس سمح لهؤلاء الأشراف، وذلك بدءًا بالتهمة الموجّهة لهوراثيوس، أن يلجأ الجناة منهم المحكوم عليهم من قِبل *الدومفير* أو من قِبل الحكّام إلى النظام بأجمعه، حين كانت الأنظمة الوحيدة هي الأقوام البطوليّة، بينما كان العامّة فئات تابعة لهذه الأقوام، مثلما كانت الولايات في العصور اللاحقة مناطق تابعة للأمم الغازية، كما لاحظ غروتيوس ذلك، والتي كانت تمثّل» *الشعب الآخر*«، مثلما يسمّي تيليماخوس العامّة المجتمعين الذين سبق الحديث عنهم[1]. ينتج عن ذلك وبمقتضى نقد ميتافيزيقي لا يقبل الشك مطبّق على مؤسّسي الأمم، يتعيّن علينا أن نوضّح الخطأ الذي يتمثّل في قول إنّ تلك الجموع من الرعاع اليوميّين، المعتبرين عبيدًا، كان لهم الحقّ، منذ موت رومولوس، في انتخاب الملك، ويصادق الآباء بعد

---

(١) §§ ٥٩٠، ٦٢٩.

ذلـك علـى اختيارهـم. هذه مفارقة زمنيّة تتمثّل في استباق ثلاثمئة سـنة إلى حدود نهاية مُلـك رومولـوس، للفتـرة التـي كان فيها العامّـة جزءا مـن المدينة ويشـاركون في تعيين القناصلة، الشيء الذي لم يحدث إلّا بعد أن منح الآباء للعامّة حقّ عقد القران الرسمي.

[§ ٦٦٣] إنّ كلمـة» شـعب»، لو أخذناها بالمعنى الـذي اتّخذته في الأزمنة المتأخّرة وطبّقناهـا علـى الأزمنـة الأولـى لعالم المُـدن، لجرّت وراءهـا خطأيْـن اثنيْن بخصوص كلمتيْن أخريْن هما *ملك وحرّيّة*؛ لأنّه لا الفلاسفة ولا الفقهاء كان بإمكانهم أن يتصوّروا هـذه الأنـواع مـن الأرسـتقراطيّات البحتة، حيـث ظن الجميـع أنّ الحكـم الرومانيّ كان ملكيًّـا، وأنّ الحريّـة التـي أسّسـها يونيـوس بروتوس كانـت الحريّة الشـعبيّة. إلّا أنّ جان بودان[1]، مع أنّه انزلق في الخطأ الشـائع الذي ارتكبه من قبله جميع الكتّاب السياسـيّين الآخرين، والذي يكمن في قول إنّه في البداية جاءت الحكومات الملكيّة، ثمّ الاستبداديّة، وتبعتهـا الجمهوريّـات الشـعبيّة وأخيـرًا تلـك الأرسـتقراطيّة - ونـرى هنا مـدى تعرّض الأفكار البشـريّة لإسـاءة الحكم عندما تنقصها المبادئ الصحيحة! - فإنّه مع ذلك حين لاحـظ أنّ نتيجـة الحريّـة الشـعبيّة المزعومـة فـي رومـا القديمـة كانـت قيـام جمهوريّـة أرسـتقراطيّة، فقـد دعـم نظريّته بالتمييـز التالي: وهـو أنّ روما في الأزمنـة القديمة كانت شـعبيّة مـن ناحيـة الدولة ولكـنّ الحكم فيهـا كان أرسـتقراطيًّا. مع هذا، وبمـا أنّ النتائج ظهرت معاكسـة وأنّ بناءه السياسـي حتّى وهو مدعومٌ بهذه الصفة فإنه ينهار، واضطرّ في نهايـة الأمـر وبقـوّة الحقيقـة، للاعتـراف مع تنافـر واضح أنّه فـي الأزمنـة القديمة كانت الجمهوريّة الرومانيّة دولة، وليس فقط حكومة أرستقراطيّة.

[§ ٦٦٤] وهـذا ما يؤكّده لنا تيتـوس ليفيوس، الذي في روايته عن تنصيب القنصليْن السنويّيْن من قِبل يونيوس بروتوس، يقول بصراحة وبوضوح إنّ الدولة لم تتغيّر في شيء - وبروتوس كرجل حكيم ذكّر تلك الدولة التي شملها الفساد بالمبادئ التي قامت عليها - وإنّه مع قنصليْن سـنويّيْن «*لم يُنتزع شـيء من السلطة الملكيّة*»[2]، بحيث إنّ القنصليْن صارا ملكيْن أرستقراطيّيْن سنويّيْن، وقد سمّاهما شيشرون في *شرائعه* "*reges annuos*"، كما كان الحال بالنسبة إلى الملوك مدى الحياة الذين كانوا يحكمون إسبرطة التي هي

(١) اسمه Jean Bodin، [١٥٢٩ - ١٥٩٦] رجل قانون فيلسوف ومنظّر سياسي فرنسي.

(٢) ورد باللاتينية: *nihil quicquam de regia potestate deminitum*

دون شكّ جمهوريّة أرستقراطيّة. هؤلاء القناصلة، كما يعرف الجميع، كانوا خاضعين للمساءلة خلال حكمهم، مثلما كان ملوك إسبرطة خاضعين لمراقبة الحكّام، وعند انقضاء فترة حكمهم كانوا خاضعين للإدانات، كما هو الحال بالنسبة لملوك إسبرطة الذين يُحكم عليهم بالموت من قِبل الحكّام. هذه الفقرة لتيتوس ليفيوس تظهر في الآن نفسه أنّ المملكة الرومانيّة كانت أرستقراطيّة وأنّ الحريّة التي أقرّها بروتوس لم تكن الحريّة الشعبيّة، أيّ حريّة الشعب إزاء الأسياد، بل حريّة سياديّة، أي حريّة الأسياد إزاء الطغيان التاركويني. وما كان بروتوس ليقدر على فعل ذلك لو لم تسنح له مناسبة قضيّة لوكرتسيا الرومانية، التي استغلّها بحكمة. كانت هذه المناسبة تتحلّى بكلّ الظروف الرائعة القادرة على إثارة العامّة ضدّ الطاغية تاركوينوس الذي أساء إلى النبالة إلى حدّ أنّ بروتوس وجد نفسه مضطرّاً لتعزيز صفوف مجلس الشيوخ الذي نقص عدد أعضائه بسبب كلّ الشيوخ الذين عمل ذلك المتعجرف على قتلهم. بفعله هذا وبفضل نصح حكيم تحصّل على نتيجتيْن لهما نفع عموميّ مهم: عزّز قوّة فئة النبالة التي كانت في انحطاط واحتفظ بالحظوة لدى العامّة. وبالفعل فقد اختار في هذه الفئة الأخيرة رجالا كثيرين، ربّما الأكثر جسارة للوقوف ضدّ إعادة تنظيم فئة الأسياد، فأدخلهم في نظام النبلاء وكوّن بهذه الصفة المدينة التي كانت في تلك الفترة كلّها منقسمة بين الأشراف والعامّة "*inter patres et plebem*".

[§ ٦٦٥] إذا كانت كلّ هذه الأسباب السابقة المختلفة والمتعدّدة، التي درسناها هنا منذ عصر ساتورن، وإذا كانت النتائج المختلفة والمتعدّدة التي لاحظها بودان التي تلاحقت في الجمهوريّة الرومانيّة، وإذا كان الدوام أو الاستمرار الذي لاحظه تيتوس ليفيوس الذي أثّرت به تلك الأسباب على تلك النتائج، إذا لم يكن هذا كافيًا لتحديد أنّ المملكة الرومانية كانت أرستقراطيّة وأنّ الحريّة التي أرساها بروتوس كانت حريّة الأسياد، للاقتصار على السلطة فحسب، فينبغي القول إذن إنّ الرومان، الشعب المتهمّج والفظّ، قد منحهم الربّ امتيازًا لم يحصل عليه اليونانيّون، الشعب الراقي جدّاً والمتحضّر جدّاً، الذين حسب ثوقيديدس لم يعرفوا شيئًا عن تاريخهم القديم إلى حدود حرب *البيلوبونيز*، الفترة الأكثر سطوعًا لليونان، مثلما رأينا ذلك في *الجدول الزمني*[1]، حيث

(١) § ١٠١.

نبيّن الشيء نفسه بخصوص الرومان إلى حدود فترة الحرب البونيقية الثانية، التي انطلاقًا منها يقول تيتوس ليفيوس إنّه يكتب التاريخ الروماني بأكثر ثقة، مع أنّه يعترف بصراحة بجهله لثلاثة ظروف مهمة جدّاً في التاريخ الروماني، والتي أشرنا إليها في هذا العمل نفسه[1]. ولكن حتّى وإن سلّمنا بمثل هذا الامتياز للشعب الروماني، فإنّه لا يبقى من كلّ هذا غير ذاكرة ضبابيّة ومخيّلة مشوّشة، وعليه فلن يُمكن للعقل أن يرفض الاعتراف بالأفكار التي أتينا بها بخصوص هذه الأمور الرومانيّة القديمة.

(١) § ١١٧.

[الباب الثامن]

استنتاج خاصّ ببطوليّة الشعوب الأولى

[§ ٦٦٦] إلّا أنّ العصر البطولي للعالم الأوّل الذي ندرسه هنا يقودنا بضرورة شديدة إلى التفكير في بطوليّة الشعوب الأولى. هذه البطوليّة، بحسب *المسلّمات*[١] التي قدّمناها بخصوصها، والتي تجد هنا استعمالا لها، وبحسب مبادئ السياسة البطوليّة التي وضعناها هنا أيضًا[٢]، هي مختلفة جدّاً عمّا تصوّره إلى هذا الحين الفلاسفة انطلاقًا من إيمانهم بحكمة القدامى التي لا تضاهيها حكمة، ولانخداعهم بما جاء به الفقهاء حول المعنى الخاطئ الذي نسبوه لهذه الكلمات الثلاث التي سبق أن ذكرناها، أي *الشعب والملك والحريّة*[٣]. فقد فهموا الشعوب البطوليّة على أنّها شعوب متكوّنة من العامّة أيضًا، وفهموا من الملوك أنّهم عواهل، ومن الحريّة أنّها الحريّة الشعبيّة. ومن جهة أخرى، طبّقوا على هذه الألفاظ الثلاثة ثلاث أفكار متأتّية من عقولهم المثقّفة الرقيقة، بخصوص اللفظ الأوّل: فكرة العدالة العقلانيّة حسب مفاهيم الأخلاقيات السقراطيّة، وبخصوص الثاني: فكرة المجد، الذي هو الصيت المتأتي من المآثر من أجل خير الجنس البشري، وبخصوص الثالث: فكرة التوق إلى الخلود. وعليه نتيجةً لهذه الأخطاء الثلاثة ولهذه الأفكار الثلاث ظنّوا أنّ الملوك أو الشخصيّات العظيمة في تلك الأزمنة القديمة كرّسوا أنفسهم وأملاكهم لإسعاد البائسين، الذين يمثّلون دائمًا الأغلبيّة في المُدن وفي الأمم.

[§ ٦٦٧] ولكن بخصوص أخيل الأعظم من بين الأبطال اليونانيّين، يحدّثنا هوميروس عن ثلاث مزايا معاكسة تمامًا لأفكار الفلاسفة الثلاث. فبخصوص العدالة،

---

(١) § ١٩٦ وما يتبع.

(٢) § ٥٨٢ وما يتبع.

(٣) §§ ١٠٥، ٦٦٣.

حين أراد هيكتور أن يعقد مع أخيل عهدًا ليؤمّن دفنه في حال قُتل أثناء المعركة، دون أيّ اعتبار للمساواة في الدرجة أو اعتبار مصير البشر المشترك، زهذان الاعتباران هما اللذان يجعلان البشر يعترفون طبيعيًا بالعدالة، أجابه بشراسة: *متى أبرم البشر أبدًا عهودًا مع الليوث، متى أرادت الذئاب والخرفان نفس الشيء؟* بل على العكس: *إن قتلتك سأجرّك عاريًا، موثوقًا إلى عربتي، طيلة ثلاثة أيام حول أسوار طروادة،* وهذا بالذات ما فعله، *وأخيرًا سأرميك لتلتهمك كلاب صيدي*[١]، وأوشك أن يفعل هذا أيضًا، لو أنّ أب هيكتور، بريام التعيس، لم يأت لرؤيته وافتداء جثّته. أمّا بخصوص المجد فإنّ أخيل نفسه، بسبب مطعن شخصيّ - اختطف منه أغاممنون ظلمًا بريزييس - اعتبر نفسه مُهانًا من طرف البشر والآلهة، فطالب جوبيتر بأن يعيد له شرفه، وسحب أتباعه من الجيش الحليف وسفنه من الأسطول المشترك، وسمح لهيكتور بأن يقوم بمجزرة على حساب اليونانيّين، وضدّ ما يمليه الوفاء الواجب عليه لوطنه، يتعنّت ليثأر لنفسه من ضرر شخصيّ مقابل تدمير أمّته بالكامل. بل بالعكس، فهو لا يخجل من التعبير عن ابتهاجه مع باتروكلس بالمجزرة التي قام بها هيكتور على حساب اليونانيّين، والأتعس من هذا، ذاك الذي يحمل في قدميْه مصير طروادة يعبّر صحبة باتروكلس، عن أمله اللامشرّف جدّاً بأن يموت جميع الطرواديّين واليونانيّين في هذه الحرب، ولا يبقى من الأحياء إلّا هما الاثنان[٢]. وبخصوص الفكرة الثالثة، أي التوق للخلود، ها أنّ أخيل وهو مقيم في العالم السفلي يجيب أوليس الذي سأله إن كان راضيًا بإقامته هناك، إنّه يفضّل أن يكون عبدًا حقيرًا وينعم بالحياة[٣]. هوذا إذن البطل الذي يصفه هوميروس دائمًا بأنّه *كامل الصفات* والذي ينشد خصاله للإغريق باعتباره مثالا للفضيلة البطوليّة! هذا النعت، بافتراض أنّ هوميروس يريد أن يضيف للمتعة فائدة التعليم (وهو ما ينبغي على الشعراء فعله)، لا يُمكن فهمه إلّا إذا طُبّق على رجل شديد الأنفة، لا يتحمّل أن تحطّ ذبابة على طرف أنفه. ما يعلّمه هو الفضيلة الصارمة التي في فترة عودة البربريّة (القرون الوسطى) كان المتبارزون يؤسّسون عليها أخلاقيّاتهم والتي خلقت الشرائع المتكبّرة والألقاب

(١) *الإلياذة*، XXII، ٢٥٨-٢٦٥، ٣٣٥-٣٦٥، ٣٩٥-٤٠٤.

(٢) نفسه، I، ٣٢٢-٣٤٤، ٣٥٣- ٣٥٤، ٤٩٠-٤٩١؛ XVI، ٧٧-٧٩، ٩٧-١٠٠.

(٣) *أوديسّا*، XI، ٤٨٩-٤٩١.

الفخريّة والإنجازات الثأريّة للفرسان المتجوّلين الذين ينشد خصالهم مؤلّفو الروايات الفرسانية.

[§ ٦٦٨] وعلى عكس ذلك، لنفكّر في القسَم الذي حسب أرسطو أخذه الأبطال على عهدهم بأن يكونوا أعداء العامّة الدائمين[١]. ولنفكّر كذلك في التاريخ الروماني في زمن الفضيلة الرومانيّة، التي يضعها تيتوس ليفيوس في وقت الحرب ضدّ بيرّوس، وهي فترة يمدحها بالقول الآتي "*nulla acta virtutum feractor*"[٢]، والتي بإمكاننا مدّها مع سالّوستيوس الذي يذكره القدّيس أغسطينوس في *De civitate Dei*[٣]، من طرد الملوك إلى الحرب البونيقيّة الثانية. في تلك الأزمنة، نجد بروتس الذي ضحّي مع اثنيْن من أبنائه بداره من أجل الحريّة؛ وشيفولا، الذي أدخل الرعب في قلب بورسينّا، ملك التوسكانيّين أي الإتروسكيّين سابقًا، وأجبره على الفرار، عاقب نفسه بإحراق يده اليمنى التي لم تقدر على قتله؛ ومانليوس، الملقّب بالمتصلّف، الذي قطع رأس ابنه الظافر بسبب غلطة خفيفة ارتكبها ضدّ الطاعة العسكريّة مدفوعًا ببسالته الحربيّة وبرغبته في المجد؛ وآل كورتسيوس الذين يرمون أنفسهم بكلّ أسلحتهم ممتطين جيادهم في الغور المميت؛ وكذلك آل فابريتسيوس وآل كوريوس، الذين يرفضون مبالغ الذهب التي عرضها عليهم السانيتيّون، ونصف المملكة الذي اقترحه عليهم بيرّوس؛ وآل أتيليوس ريغولُس الذين ذهبوا إلى قرطاج ليلقوا فيها موتًا مؤكّدًا وقاسيًا لتمسّكهم بقداسة الأقسام الرومانية. وماذا فعلوا جميعهم لصالح العامّة الرومان البؤساء والتعساء غير تحمّل شتّى أنواع العذاب في الحروب، وغير إغراقهم كلّ يوم أكثر في بحر الربا، وغير دفنهم دائمًا أعمق في سجون الأشراف الخاصّة، حيث كانوا يضربونهم بالعصيّ على أكتافهم العارية، كما لو كانوا أذلّ العبيد! ومَن كان يريد أن يخفّف قليلا من عنائهم ببعض القوانين الزراعيّة أو الفلاحيّة يجد نفسه متّهمًا بالتمرّد من قِبل فئة الأبطال ويُحكم عليه بالموت في زمن تلك الفضائل الرومانية، مثلما حدث، على سبيل الذكر لا الحصر، لمانليوس كابيتولينُس الذي كان قد أنقذ الكابيتول المُهدّد بالحرق من طرف الغاليّين

---

(١) § ٢٧١.

(٢) أي: *لم توجد فترة أكثر وفرة في الخصال*، في *التاريخ الروماني*، IX، ١٦، ١٩.

(٣) الكتاب الثاني، الباب ١٨.

السينوتيّين الشرسين؛ وكذلك الأمر بإسبرطة، مدينة أبطال اليونان، حيث خنق الإيفوريّون مثلما سبق أن رأينا ذلك[1]، الملك آجيس الحليم لأنّه حاول أن يخفّف من العبء الثقيل الذي كان يتحمّله العامّة الفقراء بـ*لاسيدومون* بسبب الربا الذي كان يمارسه عليهم الأشراف، فسنّ قانونًا جديدًا لاحتساب الدين، وحاول مساعدتهم بقانون آخر يتعلّق بوصايا الميراث. وهكذا كان الشهم آجيس بمثابة مانليوس كابيتولينُس إسبرطة، ومانليوس كابيتولينُس بمثابة آجيس روما، وهو الذي لأنّه أراد مدّ يد المساعدة للعامّة الرومان المضطهدين أُلقي به من مرتفع *تاربيو*. ولأنّ أشراف الشعوب الأولى كانوا يعتبرون أنفسهم مثل الأبطال، أي من طبيعة أسمى من طبيعة العامّة، مثلما سبق أن بيّنّا ذلك بصفة مستفيضة[2]، فقد كانوا يعاملون بتلك القسوة تلك الجموع من الناس. لهذا السبب فإنّ التاريخ الروماني يُحدِث دون شكّ في القارئ الحصيف استغرابًا كبيرًا حين يتساءل بخصوصه فيمَ تتمثّل الفضيلة الرومانيّة حين نرى كلّ تلك العجرفة، وفيمَ يتمثّل اعتدالهم حيث لا يوجد إلّا الجشع، وفيمَ يتمثّل حِلمهم حين نرى كلّ تلك القسوة، وأين العدالة بينما لا نرى غير عدم المساواة.

[§ ٦٦٩] لذا فإنّ المبادئ التي يمكن أن تجيب عن كلّ تساؤلاتنا هي بالضرورة المبادئ التالية:

١

[§ ٦٧٠] كان على تربية الأبناء التي انحدرت من تربية الجبابرة الوحشيّة التي سبق الحديث عنها[3]، أن تكون صارمة وقاسية مثلما كانت تربية اللاسيديمونيّين الجهّال الذين كانوا أبطال اليونان والذين كانوا في معبد ديانا يضربون أبناءهم حتّى الموت، حتّى يسقطوا متشنّجين من شدّة الأوجاع تحت ضربات العصا التي ينهال بها الأب عليهم، لكي يتعوّدوا ولا يرهبوا لا الألم ولا الموت. هذه السلطة الأبويّة الجبّارة تواصل استعمالها سواء عند الإغريق أو الرومان وكانت تسمح للآباء بقتل أبنائهم الأبرياء عند

---

(١) §§ ٥٩٢، ٩٨٥.

(٢) § ٤٣٧.

(٣) §§ ١٧٠، ١٩٥، ٣٦٩-٣٧١، ٥٢٣-٥٢٤.

ولادتهم. والسعادة التي تغمرنا لوجود أبنائنا الصغار هي التي تمثّل الآن كلّ الرقّة التي تتحلّى بها طبيعتنا الحاضرة.

٢

[§ ٦٧١] إنّ الزوجات يقع شراؤهنّ بمهور بطوليّة، وهي عادة بقيت إثر ذلك في الطقوس الاحتفاليّة التي كان يقيمها الكهنة الرومان، الذين يبرمون قِرانهم *coemptione,* "*et farre*"[1]، وحسب قول تاسيتوس كانت أيضًا تلك عادة الجرمان القدامى، ممّا يجعلنا نخمّن أنّ الشيء نفسه كان جاريًا لدى جميع الشعوب الأولى البربريّة. وكانت الزوجات لضرورة طبيعيّة مكرّسات لإنجاب الأطفال، وفيما عدا ذلك فهنّ يُعاملن كالعبيد، مثلما هو الحال اليوم في أنحاء عدّة من العالم، وفي كلّ العالم الجديد. وحين صار المهر بالنسبة إلى المرأة الوسيلة لشراء حريّتها من الرجل فقد كان ذلك اعترافًا علنيًّا بأنّ الزوج لا يكفي لتحمّل أعباء الزواج وحده، ولربّما هذا ما جعل الأباطرة يقرّون امتيازات متعدّدة لصالح المهر.

٣

[§ ٦٧٢] على الأطفال أن يكسبوا وعلى الزوجات أن يقتصدن لصالح الأزواج والآباء وليس العكس، مثلما هو الحال الآن.

٤

[§ ٦٧٣] على الألعاب والأعمال الترفيهيّة أن تكون مرهقة، مثل النزال والركض، لذا نرى هوميروس ينعت دائمًا أخيل *بالقدم الخفيف*. ويجب أن تكون خطيرة مثل الحلبات واصطياد الحيوانات البريّة، التي تمنح المرء صلابة الجسم والقلب، وتعوّده على المجازفة والاستهانة بالموت.

٥

[§ ٦٧٤] يجب إهمال كلّ ما هو ترف وبذخ وراحة.

---

(١) § ٥٤٨.

٦

[§ ٦٧٥] على الحروب أن تكون جميعها حروبًا دينيّة، مثلما كانت الحروب البطوليّة القديمة، وهذا هو السبب الذي اعتبرناه المبدأ الأوّل في هذا *العِلم*[١] الذي يجعلها جميعها رهيبة.

٧

[§ ٦٧٦] يجب أيضًا ممارسة الاستعباد البطولي الناتج عن تلك الحروب حيث يُعتبَر المهزومون بشرًا دون ربّ، حيث إنّهم إلى جانب فقدان الحريّة المدنيّة يفقدون كذلك الحريّة الطبيعيّة. وعلينا هنا أن نرجع إلى *المسلّمة* التي حدّدناها سابقًا[٢]، والتي تقول إنّ الحريّة الطبيعيّة شرسة بقدر ارتباطها بما تملكه أجسادنا، بينما العبوديّة المدنيّة تتطعّم بما يمنحنا إيّاه الحظّ والذي هو ليس ضروريًّا للبقاء على قيد الحياة.

٨

[§ ٦٧٧] لجميع هذه الأسباب كانت الجمهوريّات بطبيعتها أرستقراطيّة، أي أنّها كانت متكوّنة من أولئك الذين كانوا طبيعيًّا أقوى من غيرهم، وكانت فيها جميع التشريفات حصرًا على الأقليّة من الأشراف، والمُلك العامّ سيكون الملكيّات الأسريّة المخصّصة لهؤلاء الأشراف من قِبل الوطن، إذ أنّ الوطن الحقيقي مثلما سبق قوله مرّات عديدة[٣]، هو في هذه الحالة مصلحة العدد القليل من الآباء، ممّا يجعل المواطنين بطبيعتهم أشرافًا. وبمثل هذه الطبائع، وهذه العادات، وهذه الجمهوريّات وهذه الأنظمة وهذه الشرائع، تتجلّى بطوليّة الشعوب الأولى. مثل هذه البطوليّة هي اليوم بطبيعتها المدنيّة مستحيلة؛ لأنّ أسبابها التي سبق للتوّ تعدادها، تعوّضت بأضدادها التي أنتجت بعد ذلك نوعيْن من الدول المدنيّة، أثبتنا سابقًا[٤] أنّهما كلاهما كانا ذا طبيعة بشريّة،

---

(١) § ٣٣٣.

(٢) § ٢٩٠.

(٣) § ٥٨٤.

(٤) § ٢٩٢.

وهمـا الجمهوريّـات الحرّة، وأكثر منها، الدول الملكيّـة. وبالفعل، في كامل فترة الحريّة الشـعبيّة كان كاتون الأوتيكي هو الوحيد الذي بقي له صيت البطل، وكسـب هذا الصيت لكونه يجسّـد فكر الجمهوريّة الأرسـتقراطيّة؛ لأنّه بقي بعد سقوط بومبيوس زعيم حزب الأشـراف وضحّـى بحياتـه لأنّه لـم يسـتطع تحمّل أن يُهان من طـرف يوليوس قيصر. في الأنظمـة الملكيّـة يكـون الأبطـال هـم الذيـن يضحّون بأنفسـهم مـن أجل مجـد وعظمة ملوكهـم. وعلينـا أن نسـتخلص أنّ بطـلا من هذا النـوع تتوق إليه الشـعوب المضطهدة، ويحدّد الفلاسفة ملامحه من خلال براهينهم ويوقد مخيّلة الشعراء، بينما الطبيعة المدنيّة، كما سبق أن بينّا ذلك في إحدى *المسلّمات*[١]، لا تنتج هذا النوع من المزايا.

[§ ٦٧٨] كلّ مـا قلنـاه عـن بطوليّـة الشـعوب الأولـى يتّضـح أكثـر ويجـد أمثلـة في *المسلّمات* التي وُضعت سابقًا بخصوص البطوليّة الرومانيّة[٢]، والتي يمكن تطبيقها على بطوليّة الأثينيّين القدامى في الزمن الذي حسب ما يرويه ثوقيديدس[٣]، كانوا تحت حكم الأريوباجيّيـن المتشـدّدين، الذيـن مثلمـا رأينـا سـابقًا كانـوا يشـكّلون مجلـس شـيوخ أرسـتقراطي، وعلـى بطوليّـة الإسـبرطيّين الذيـن كانـوا يشـكّلون جمهوريّـة متكوّنة من هرقليّين أو أسياد، مثلما بينّا ذلك سابقًا بكمّ وافر من البراهين[٤].

---

(١) § ٢٦٠.

(٢) §§ ٢٧٨-٢٨٢.

(٣) § ٥٩٢.

(٤) § ٤٢٣.

[القسم السادس]

التاريخ الشعري

[باب وحيد]

خلاصة التاريخ الشعري

١

[§ ٦٧٩] كلّ هذا التاريخ الإلهي والبطولي للشعراء اللاهوتيّين جاء وصفه بصفة غير جيّدة تمامًا في أسطورة قدموس. قتل قدموس الثعبان الكبير: أي أنّه قطع أشجار الغابة القديمة لاستصلاح الأرض، وبذر أسنان الثعبان: وهي استعارة جميلة مثلما سبق أن قلنا ذلك[١]، لقول إنّه حرث الحقول الأولى بقطع من الخشب الصلب المعقوف، قبل اكتشاف استعمال الحديد، وكانت تصلح أسنانًا للمحاريث الأولى، وبقي في الإيطاليّة استعمال لفظ «سنّ» في هذا السياق. ثمّ رمى حجرة كبيرة، والتي هي الأرض الصلبة التي كان الموالي أو الخدم يريدون حرثها لأنفسهم مثلما شرحنا ذلك من قبل[٢]. ومن الأخاديد خرج رجال مسلّحون: أي أنّه في الكفاح البطولي بشأن القانون الزراعي الأوّل، خرج الأبطال من أراضيهم ليعلنوا أنّهم الأسياد على الأراضي، واتّحدوا مسلّحين مع بعضهم البعض ضدّ العامّة، وقاتلوا ليس ضدّ بعضهم البعض بل ضدّ الموالي الذين تمرّدوا عليهم. والأخاديد تعني الأنظمة التي يتجمّعون فيها والتي شكّلوا بواسطتها وأسّسوا المدن الأولى على أساس الأسلحة، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[٣]. ثمّ تحوّل قدموس إلى ثعبان: ومنه نشأت سلطة مجالس الشيوخ الأرستقراطيّة، التي قال بشأنها أقدم اللاتينيّين ‘*Cadmus fundus factus est*’ وقد تترجم بأنّ قدموس أصبح مرجعًا وحكَمًا، بينما يقول اليونانيّون إنّ قدموس تحوّل إلى تنّين، أي دراكون الذي كتب

---

(١) § ٥٤١.

(٢) § ٥٨٣.

(٣) §§ ٣٣٨، ٤٤٦، ٥٦٣.

الشـرائع بالـدم. كلّ هـذا هو ما وعدناكم بتوضيحه[1]، وهو أنّ أسـطورة قدموس تحتوي علـى قرون عديدة من التاريخ الشـعري، وهي مثال عظيـم لطفولة العالم الذي يعاني من صعوبـة التعبيـر، والتـي هي من بين صعوبات الأسـاطير السـبع التي سـنعدّدها ومن بين أهمّهـا: أننـا نـرى إلـى أيّ حـدّ كان من السـهل علـى قدموس أن يتـرك لنا هـذه الحكاية المكتوبة بحروف عاميّة يُقال إنّه جلبها للإغريق من فينيقيا! وإنّ دزيديريوس إيرازموس[2] بحجـج عديدة غير معقولة وغير جديرة بالعلاّمة الذي لُقِّب بفارّو المسـيحي، يزعم فيها أنّ هـذه الخرافـة تحتوي على تاريـخ الحروف العاميّة الي ابتدعهـا قدموس. وهكذا فإنّ التاريخ الجليل لشيء ذي نفع عظيم للأمم والذي هو اكتشاف الحروف، تاريخ كان عليه أن يُحدِث ضجّة كبيرة، يخفيه قدموس عن الجنس البشـري الإغريقي وراء حجابِ هذه الخرافـة، التـي كانت سـتبقى غامضة إلى زمن إيرازموس، ليخفي عـن العامّة ابتكار عِلم عامّي هو من الأهميّة بحيث إنّ هذه الحروف سُـمّيت *volgari* [عاميّة] من طرف العامّة أنفسهم!

٢

[§ ٦٨٠] إلّا أنّ هوميـروس يروي هذه القصّة نفسـها بإيجـاز رائع وملائم، مختصرًا إيّاهـا فـي هيروغليـف الصولجـان المُهـدى لأغاممنـون[3]. كان فولكانـوس قـد صنعـه لجوبيتـر، لأنّ جوبيتـر مع الصواعق الأولى بعد الطوفان، أسّـس مُلكه على الآلهة وعلى العباد تحت شـكل الممالك الإلهيّة في عهد الأُسَـر، بعد ذلك سلّمه جوبيتر إلى ميركور، وكان الصولجـان الـذي منح به ميركـور العامّة القانون الزراعي الأوّل، الذي نشـأت منه الممالـك البطوليّـة للمـدن الأولـى؛ ثـمّ أعطـاه ميركـور لبيلوبـس، وبيلوبس لثياسـتس، وثياستس إلى آتريوس، وآتريوس إلى أغاممنون، والذي هو التعاقب على العرش لسلالة أرغوس الملكيّة.

---

(١) § ٤٤٦.

(٢) اسمه اللاتيني Desiderius Erasmus [١٤٦٦ - ١٥٣٦] فيلسوف هولندي، في *De recta latini graecique sermonis pronunciatione*، (١٧٠٣)

(٣) *الإلياذة*، II، ١٠٢-١٠٧.

٣

[§ ٦٨١] إلّا أنّ القصّة الأكمل والأكثر تفصيلا هي قصّة العالم كما هي مكتوبة، حسب هوميروس، فوق ترس أخيل[١]:

[§ ٦٨٢] (١) في البداية نرى فيها السماء والأرض والبحر والشمس والقمر والنجوم، وهي فترة خلق الكون.

[§ ٦٨٣] (٢) بعد ذلك نشاهد فيها مدينتيْن. في واحدة نجد غناء وأعراسًا وزفافًا، وهي فترة الأُسَر البطوليّة المتكوّنة من الأبناء الذين وُلدوا من زواج رسمي. في المدينة الأخرى لا نرى أيّ شيء من هذا: وهي فترة الأُسَر البطوليّة للخدم [*famoli*] الذين لا يعقدون إلّا زواجًا طبيعيًّا، دون أيّ من المراسم الاحتفاليّة التي يُعقد بها الزواج البطولي. لذا فإنّ كلتا المدينتيْن تمثّلان عهد الطبيعة أو عهد الأُسَر، وهما بالذات المدينتان اللتان يروي عنهما أوميوس، معتمد أوليس، أنّهما كانتا موجودتيْن في موطنه وكان يحكم كلتيْهما أبوه، وفيهما كان كلّ ما يمتلكه مواطنوهما مقسّمًا بوضوح[٢]، أيْ أنّهم لا يشتركون في أيّ جزء من أجزاء المواطنة. ومنه قيل عن المدينة التي ليس فيها قِران رسمي إنّها *الشعب الآخر* الذي يتحدّث عنه تليماخوس بخصوص عامّة إيثاكا المتجمّعين في اجتماع. كما يقول أخيل حين تشكّى من المهانة التي ألحقها به أغاممنون من أنّ هذا الأخير عامله مثل عامل يوميّ لا يملك أيّ جزء من الحكم.

[§ ٦٨٤] (٣) ثمّ نرى في مدينة الأعراس هذه برلمانات وقوانين وأحكامًا وعقوبات، وهي توافق الطريقة التي كان الأشراف الرومان أثناء الصراعات البطوليّة يجيبون بها العامّة من أنه سواء عقد القران أو السلطات المدنيّة والكهنوتيّة، إذ أنّ علم الشرائع والأحكام تعود إلى هؤلاء الأخيرين، هي جميعها حقوق خاصّة بهم، لأنّ النذور التي تمثّل الطقس الأكثر احتفاليّة في الزواج هي ملكهم الخاصّ. ومنه جاءت تسمية "*viri*"، التي تعني عند اللاتينيّين ما يعنيه لفظ بطل عند الإغريق، للإشارة إلى أزواج القِران

---

(١) نفسه، XVIII، ٤٧٨-٦٠٧.

(٢) *أوديسّة*، XV، ٤١٢-٤١٤.

الرسـمي والقضاة والكهنة وأخيرًا الحكّام، مثلما سـبق أن قلنا ذلك. هي إذن فترة المُدن البطوليّة التي تأسّست على أساس أُسَر الخدم [*famoli*] تحت شكل أرستقراطي صارم.

[§ ٦٨٥] (٤) المدينـة الأخرى محاصرة بالمسـلّحين، والمدينتان تتناهبان إحداهما الأخرى. والمدينة التي لا أعراس فيها، أي عامّة المدن البطوليّة، أصبحت مدينة مستقلّة وعدوّة. هذا يؤكّد لنا بصفة رائعة ما سـبق أن ذكرناه من أنّ الغرباء الأوائل، أي الضيوف الأوائل [*hostes*]، كانوا يمثّلون العامّة في الشعوب البطوليّة، الذين حسب نصّ لأرسطو كنّا قد استشهدنا به عدة مرّات، أقسم الأبطال ضدّهم عداوة دائمة. وتبعًا لذلك، وبما أنّ المدينتيْن كانتا غريبتيْن إحداهما عن الأخرى، فقد كانتا في عداء مسـتمرّ بينهما يجرّهما إلى أعمال لصوصيّة بطوليّة، مثلما سبق لنا أن بيّنّا ذلك[1].

[§ ٦٨٦] (٥) وأخيـرًا، نـرى مرسـومة فيها قصّة الحِرف البشـريّة، بدءًا بفترة الأُسَـر. وبالفعـل، نـرى فيهـا قبـل كلّ شـيء الأب-الملك وهـو يأمـر بصولجانه أن يُقسـم الثور المشـويّ بين الحاصدين. ثمّ نرى كرومًا مزروعة، وقطعانًا ورعاة وأكواخًا، وفي الأخير رقصـات. هذه الصـورة، التي تتبع بطريقة جميلة جدّاً وحقيقيّة ترتيب الأشـياء البشـريّة، تظهـر أنّ مـا وقع ابتكاره أوّلا هي الحِرف الضروريّة، أي الفلاحة، الخبز أوّلا ثم الخمر؛ بعدها المنافع أي المراعي، ثمّ الترف أي الهندسة المعماريّة، وأخيرًا الترفيه، والرقص.

---

(١) §§ ٦٣٦ وما يتبع.

[القسم السابع]

الفيزياء الشعريّة

[الباب الأوّل]

في الفيزياء الشعريّة

[§ ٦٨٧] نمرّ الآن إلى الفرع الآخر من جذع الميتافيزيقا الشعريّة الذي يبرز الحكمة الشعريّة وهي تتفرّع إلى الفيزياء ثمّ إلى الكسموغرافيا، ومنها إلى علم الفلك والتي كانت ثمارها هي التأريخ والجغرافيا. ولنبدأ بالفيزياء هذا الجزء الآخر الذي بقي علينا درسه.

[§ ٦٨٨] أولى الشعراء اللاهوتيّون اهتمامهم بفيزيائيّة عالم الأمم، وفي هذا الشأن عرّفوا في المقام الأوّل السديم كفوضى البذر الإنساني في الفترة المشينة التي هي فترة الاشتراك في النساء، ومن ثمّ ذهب الفيزيائيّون نحو التفكير في فوضى البذور الكونيّة للطبيعة، وللتعبير عنه استعملوا اللفظ الذي وجده الشعراء والذي كان مناسبًا. كان السديم مشوّشًا، لأنّه كان خاليًا من كلّ نظام إنساني، وكان مظلمًا لأنّه كان خاليًا من كلّ نور مدنيّ، النور الذي بفضله سُمّي الأبطال "*incliti*" أي عظماء. وتصوّروه أيضًا باعتباره "*Orcus*"، أي غولاً عديم الشكل يلتهم كلّ شيء؛ لأنّ البشر في تجمّعهم المختلط المشين لم تكن لهم أشكال إنسانيّة بأتمّ معنى الكلمة، وكانوا ممتصّين من طرف العدم، إذ كانوا لا يتركون وراءهم أيّ أثر بسبب عدم تحديد ذريّتهم. بعد ذلك اتّخذ لفظ السديم من قِبل الفيزيائيّين للتعبير عن المادّة الأولى للأشياء الطبيعيّة التي لانعدام شكلها، تتوق لكلّ الأشكال وتلتهمها جميعها. إلّا أنّ الشعراء أعطوه أيضًا الشكل المسخي الذي كان لـ«*بان*»، الإله الوحشي، وهو إله جميع الأمساخ [*satiri*]، الذين لا يقطنون المُدن بل الغابات. هو الرمز الذي ينتمي إليه المتشرّدون الملحدون الذين يجوبون دغل الأرض الكبير، والذين كان لهم شكل البشر وعادات الحيوانات النجسة. بعد ذلك، بواسطة مرموزات معقّدة سنتناولها لاحقًا بالدرس[1]، فَهِم الفلاسفة

---

(١) § ٩١٠.

خطأ لفظ «πᾶν، پان» الذي يعني *الكلّ*، فجعلوه يعني الكون المشكّل. وظنّ العلماء أيضًا أنّ الشعراء لمّحوا إلى المادّة البدئيّة في أسطورة بروتيوس الذي يحاربه أوليس[1] في مصر، هو خارج الماء وبروتيوس في الماء، دون أن يتمكّن أبدًا من الإمساك به لأنّه يتّخذ في كلّ مرّة شكلا مختلفًا. إلّا أنّ هذه المعرفة الرائعة ليست في الواقع إلاّ سخافة وسذاجة فكر البشر الأوائل الذين كانوا مثل الأطفال حين يرون صورتهم في المرآة يريدون الإمساك بها، كانوا يعتقدون بسبب تحوّلاتهم المختلفة الناتجة عن حركاتهم وعن مظهرهم، أنّه يوجد في الماء شخص يتّخذ أشكالاً مختلفة.

[§ ٦٨٩] أخيرًا رمت السّماء الأرض بالصاعقة وأعطى جوبيتر إلى عالم البشر بدايته نافخًا فيهم "الجهد» (*conato*)[2]، الذي هو ميزة حريّة الفكر، بالطريقة نفسها التي أعطى بالحركة، وهي ميزة الأجساد التي هي فواعل ضروريّة، بداية عالم الطبيعة. وما يبدو جهدًا في الطبيعة ليس إلّا حركة لاحسيّة، مثلما ذكرنا سابقًا في *المنهج*[3]. من هذا الجهد نشأ النور المدني ورمزه هو أبولّو، الذي بنوره يتميّز الجمال المدني، الذي يؤسّس لجمال الأبطال. ورمز هذا الجمال هي فينوس، التي رأى فيها الفيزيائيّون بعد ذلك جمال الطبيعة، وبالأحرى كليّة جمال الطبيعة المتشكّلة، التي هي جميلة ومزدانة بجميع الأشكال الحسيّة.

[§ ٦٩٠] كان عالم الشعراء اللاهوتيّين متكوّنًا من العناصر الأربعة المقدّسة: الهواء، حيث يرمي جوبيتر ببروقه؛ والماء، الينابيع الدائمة، وإلهتها هي ديانا؛ والنار، التي أحرق بها فولكانوس الغابات؛ والأرض المزروعة، التي هي كوبيلي أو بيريسنثيا. وهذه العناصر الأربعة هي عناصر الطقوس الإلهيّة، أي النذور والماء والنار والقمح، وحارستها هي فيستا التي، مثلما رأينا سابقًا[4]، هي ذاتها كوبيلي أو بيريسنثيا، المكلّلة بالأراضي

---

(١) في الواقع هو مينلاوس، انظر *أوديسّا*، IV، ٤٤٥ وما يتبع.

(٢) باللاتينية conatus، مصطلح فلسفي نشأ مع سبينوزا في فلسفة الأخلاق والذي يعني الجهد أو المجهود، أو السعي أو الاندفاع أو النزوع والميل أوالكفاح، باعتبارها نزعة فطريّة موجودة في الكائن أو الشيء تساعده على الاستمرار في الوجود وعلى تنمية قدراته.

(٣) § ٣٤٠.

(٤) § ٥٤٩.

المزروعة والمسيّجة؛ وعلى المرتفع توجد مباني الضيعات في شكل أبراج، ومنه اتّخذ باللاتينيّة لفظ "extorris" معنى "exterris"، أي منفيّ أو مُبعد. هذا الإكليل يحوي ما نعبّر عنه بـ "orbis terrarum" عالم الأرض، الذي لا يعني بالذات غير عالم البشر. ووجد الفيزيائيّون بعد ذلك في كلّ هذا مادّة للتفكير في العناصر الأربعة التي يتكوّن منها عالم الطبيعة.

[§ ٦٩١] وهؤلاء اللاهوتيّون أنفسهم أعطوا أشكالاً حيّة وحسيّة، كانت في أكثرها إنسانيّة، للعناصر وللطبائع الخصوصيّة المتعدّدة المتأتية منها، وتصوّروا عدداً كبيرًا من الآلهة المختلفة، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك في *الميتافيزيقا*[١]. وإثر ذلك رأى افلاطون من السانح أن يُدخل مذهبه في العقول أو في المدارك، التي بحسبها يكون جوبيتر روح الأثير وفولكانوس روح النار، إلى غير ذلك. ولكنّ الشعراء اللاهوتيّين فهموا القليل من هذه الماهيات الذكيّة، حتّى أنّه إلى زمن هوميروس لا تُفهم الروح البشريّة في حدّ ذاتها، من حيث أنّها بقوّة التفكير، ممتنعة عن الحواسّ، ونرى ذلك في نصيّن مهمين من *الأوديسّا*[٢] حيث يسمّيها *قوّة مقدّسة* أو *طاقة خفيّة*، وهما الشيء نفسه.

---

(١) § ٣٧٥.

(٢) XVIII، ٣٤ و٦٠.

[الباب الثاني]

في الفيزياء الشعريّة الخاصّة بالإنسان
أو
في الطبيعة البطوليّة

[§ ٦٩٢] إلّا أنّ أعظم وأهمّ جزء من الفيزياء هو التأمّل في طبيعة الإنسان. كنّا قد بيّنّا سابقًا، في باب *الاقتصاد الشعري*[١]، كيف أنّ مؤسّسي الجنس البشري الوثني أنشؤوا بطريقة ما شكلهم البشري نفسه تحت مظهريْن اثنيْن، أي كيف أنّه بدياناتهم الفظيعة وبسلطات الآباء المريعة وبالاغتسالات المقدّسة، استخرجوا من أجسادهم العملاقة الشكل أوالجسمَ المتناسب الذي لدينا اليوم، وكيف أنّه بالنظام الاقتصادي نفسه، أخرجوا من أرواحهم الحيوانيّة شكل أرواحنا البشريّة. كلّ هذا تناولناه في حديثنا عن *الاقتصاد الشعري*، وهذا هو الموضع المناسب للعودة إليه.

[§ ٦٩٣] كان الشعراء اللاهوتيّون من وجهة نظرهم الفيزيائيّة البدائيّة جدّاً يرون في الإنسان فكرتيْن ميتافيزيقيّتيْن، فكرة الكينونة وفكرة البقاء. ولا شكّ في أنّ الأبطال اللاتينيّين أدركوا *الكينونة* بصفة خشنة جدّاً، أي بمعنى «*يقتات*»، وهو بالتأكيد المعنى الأوّل للفظ "*sum*"، الذي اتّخذ فيما بعد كلتا الدلالتيْن. كما أنّه في أيّامنا الحاضرة، لقول إنّ مريضًا لا يزال على قيد الحياة، ما زالوا يقولون إنّه *يقتات*. وبالفعل، فإنّ لفظ *sum*، بمعنى الكينونة، مجرّد جدّاً، لأنّه يستعلي كلّ الكائنات، وغامض جدّاً، لأنّه ينفذ إلى كلّ الكائنات، ونقيّ جدّاً، لأنّه غير محصور بأيّ كائن. وأدركوا الجوهر، الذي يعني الشيء الموجود تحت ويُسند باعتباره يوجد في الكعب؛ لأنّ الإنسان يقف على أخمص القدم. لذا نرى أخيل يحمل مصائره في كعبه، لأنّه هناك يكمن قدره، أي مصير حياته ومصير موته.

---

(١) §§ ٥٢٠، ٥٢٤؛ ٣٧١-٣٧٢.

[§ ٦٩٤] وكانوا يقصرون تركيبة الجسم على ما هو صلب وما هو سائل، ويضعون فيما هو صلب الأحشاء أو اللحوم، لذا كان الرومان يسمّون *visceratio* ما يوزّعه الكهنة للشعب من لحوم الضحايا القربانيّة، بحيث يقولون *vesci* بمعنى يأكل عندما يكون القوت من اللحم. وكذلك العظام والمفاصل، المسمّاة *artus*، مع الملاحظة أنّ *artus* جاء من *ars*، الذي كان يعني لدى اللاتينيّين القدامى *قوّة الجسد*، ومن *artus* جاء *artitus*، أي *قويّ البنية*؛ ثمّ نقول *ars* بمعنى جملة المبادئ التي تحكم قدرة الفكر؛ ثمّ هناك الأعصاب التي، حين كانوا بكمًا ويتكلّمون بواسطة الأجسام، اعتبروها قوى، ومن أحد هذه الأعصاب، المسمّى *fides*، بمعنى *الحبل*، قيل عن قوّة الآلهة إنّها *fides* بمعنى الإيمان. كما أنّه من هذا العصب أو الحبل أو القوّة صنعوا من بعد قيثارة أورفيوس، ومن الصائب أنّهم وضعوا القوّة في الأعصاب إذ أنّها هي التي تشدّ العضلات، التي تحتاج إلى أن تُشدّ لكي تفعّل قوّتها؛ وأخيرًا لدينا النخاع، وحسنًا فعلوا حين وضعوا في النخاع لبّ الحياة، ومنه سمّيت الحبيبة *medulla* من طرف عشيقها، لأنّ *medullitus* يعني *من كلّ قلبي*، ولأنّ الحبّ حين يكون جمًّا يقولون إنّه *يُلهب النّخاع*. أمّا بخصوص السوائل فهي تقتصر على الدم، بما أنّهم كانوا يسمّون أيضًا *دمًا*، المادّة العصبيّة أو المنويّة، مثلما يبيّنه لنا التعبير الشعري *sanguine cretus*[١] لقول *مولّد*، وهذا أيضًا في محلّه لأنّ هذه المادّة هي لبّ الدم. وأخيرًا، اعتبروا بصواب أنّ الدم هو عصارة الألياف التي يتكوّن منها اللحم. لذا يُستعمل في اللاتينيّة لفظ *succiplenus* لقول *لحيم* أو مشرّب بالدم الجيّد.

[§ ٦٩٥] أمّا فيما يخصّ الجزء الآخر، أي الرّوح (*anima*)، فإنّ الشعراء اللاهوتيّين وضعوها في الهواء، المسمّى أيضًا عند اللاتينيّين "*anima*"، واعتبروها ناقل الحياة، ومنها صحّة العبارة اللاتينيّة "*anima vivimus*"، وعند الشعراء تُستعمل التعابير من قبيل «*ferri ad vitales auras*" لقول «*يولد*»؛ و"*ducere vitales auras*" لقول «*يحيا*»؛ و«*vitam referri in auras*" لقول «*مات*». وفي اللاتينيّة العاميّة بقيت لنا عبارات "*animam ducere*" بمعنى «*يحيا*»؛ و"*animam trahere*" بمعنى «*أيحتضر*»؛ و"*animam efflare, emittere*" بمعنى «*مات*». لهذا السبب ربّما وضع الفيزيائيّون[٢]

(١) فرجيل، *الإنيادة*، IV، ١٩١.

(٢) أي الرواقيّون.

روح العالـم فـي الهواء، والشـعراء اللاهوتيّون بصـدق المعنى يضعون مسـار الحياة في مسار الدم الذي في حركته الصحيحة تكمن حياتنا.

[§ ٦٩٦] وعـن صوابٍ كذلك أدركوا أنّ النفـس (*animo*) هي محرّك الحسّ، مثلما يعبّـر بصفة مناسـبة القول اللاتينـي "*animo sentimus*". وعن حقّ جعلوا النفس اسـمًا مذكّـرًا "*animo*"، وجعلوا الروح اسـمًا مؤنّثًـا "*anima*"، لأنّ النفس تعمل في الروح، وهـذا هـو الـ"*igneus vigor*"، الـذي يتحـدّث عنـه فرجيـل[1]، حيـث إنّ النفس يكون موضوعهـا هـو الأعصـاب والمادّة العصبيّة، بينمـا الروح تكون في الشـرايين وفي الدم، وهكذا فإن الناقل بالنسبة للنفس هو الأثير، وبالنسبة للروح هو الهواء. وبقدر ما النفوس الحيوانيّة سـريعة الحركة جدّاً بقدر ما تكون تلك الحياتيّة أكثر بطئًا. وكما أنّ الروح هي فاعلـة الحركـة كذلك النفس هي الفاعل وعليـه فهي مبدأ الجهد "*conato*"، باعتباره ال "*igneus vigor*"، الـذي يتحـدّث عنه فرجيل المذكور أعلاه. كان الشـعراء اللاهوتيّون يدركـون ذلـك، ولكنّهـم لا يفهمونه، ومع هوميـروس، كانوا يتحدّثون عن *قوّة مقدّسـة*، وعن *طاقة خفيّة*، وعن *ربّ مجهول*، بالطريقة نفسها التي كان الإغريق واللاتينيّون، حين يقولون أو يفعلون شيئًا يشعرون أنّه نابع من مصدر سامٍ كامن فيهم، يقولون أنّ ربًّا ما أراد ذلك: هذا المصدر سـمّاه اللاتينيّـون "*mens animi*". وهكذا أدركوا بصفة تقريبيّة جدّاً هذه الحقيقة السامية التي كان الأبيقوريّون إزاءهم يقولون إنّ مصدر الأفكار هو الجسم، برهنـت عليهـا لاهوتيّة الميتافيزيقيّين الطبيعيّة بحجج لا تقبل الشـكّ، ألا هي أنّ الأفكار تأتي للإنسان من الربّ.

[§ ٦٩٧] وقـد فهمـوا التوليد بطريقة لا نعرف إنِ اسـتطاع العلمـاء أن يجدوا لها بعد ذلـك طريقـة أخـرى أكثـر ملاءمة. وهـذه الطريقـة تكمن كلّها فـي لفـظ "*concipere*"، الموافـق لـ "*concapere*"، الذي يعبّر عن العمل الذي تقـوم به القوى الماديّة بمقتضى طبيعتهـا (والـذي يجـب أن نضيـف إليـه ثقل الهـواء، الذي تمّـت البرهنة عليـه في زمننا الحاضـر)، مسـتحوذة علـى الأجسـام التي توجد بالقـرب منهـا بالتغلّب علـى مقاومتها وبتكييفها وملاءمتها مع شكلها.

---

(١) *الإنيادة*، VI، ٧٣٠.

[§ ٦٩٨] وعبّروا بكثير من الحكمة عن التحلّل بواسطة لفظ "*corrumpi*"، الذي يعني تفكّك كلّ الأجزاء التي يتكوّن منها الجسم، في مقابل "*sanum*"، لأنّ الحياة تكمن في سلامة كلّ الأجزاء، ولذا اعتبروا أنّ الأمراض تؤدّي إلى الموت بسبب تحلّل الأجزاء الصلبة [أي الأوعية الدمويّة].

[§ ٦٩٩] وجعلوا جميع الوظائف الداخليّة للنفس (*animo*) في ثلاثة أجزاء من الجسم وهي الرأس والصدر والقلب. إلى الرأس تنتمي جميع المعارف، وبما أنّها كانت جميعها من نتاج المخيّلة وعليه فهي عجيبة (*fantaſtiche*)، فقد وضعوا في الرأس *الذاكرة* (*memoria*) التي كان اللاتينيّون القدامى يشيرون بها إلى المخيّلة (*fantasia*). وفي أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، استُعمِل لفظ "*fantasia*" بمعنى الذكاء (*ingegno*)، وعوضًا عن قول رجل ذكيّ "*uomo d'ingegno*"، كانوا يقولون "*uomo fantaſtico*". هكذا يسمّى كولا دي ريانتسو[١] أحد معاصريه الذي كتب بلغة إيطاليّة متهمّجة قصّة حياته[٢]، وهي تحوي طبائع وعادات شبيهة تمامًا بطبائع وعادات الأزمنة البطولية القديمة التي نحن بصدد الحديث عنها. وفي هذا دليل مهم على تواتر(*ricorso*) الطبائع والعادات لدى الأمم. ولكن المخيّلة ليست إلّا انبثاق الذكريات، والذكاء ليس إلّا العمل على أشياء نتذكّرها. الآن، بما أنّ الذهن البشري في الأزمنة التي ندرسها لم يكن مهذّبًا بأيّ فنّ كتابيّ، ولا مروحَنًا بأيّ ممارسة للحساب والعدّ، ولا قادرًا على أيّ تجريد بواسطة كلّ الألفاظ التي توجد اليوم بوفرة في كلّ اللغات، مثلما سبق أن ذكرنا في *المنهج*[٣]، فإنّ الذهن، يمرّس كلّ قوّته في هذه القدرات الثلاث الرائعة التي تأتيه من الجسم. وثلاثتها تنتمي إلى عمليّة الذهن الأولى التي فنّها المنظّم هو *الموضعيّة*، كما أنّ الفنّ المنظّم للثانية هو *النقد*؛ وكما أنّ هذه الأخيرة هي فنّ الحُكم فإنّ الأولى هي فنّ الاكتشاف، كما سبق أن قلنا ذلك في *الاستنتاجات الأخيرة* لباب *المنطق الشعري*[٤].

---

(١) Cola di Rienzo، اسمه الكامل Nicola di Lorenzo Gabrini [١٣١٣-١٣٥٤] عدل إشهاد ورجل دولة إيطالي في القرون الوسطى.

(٢) *Antiquitates Italicae Medii Aevi*، الناشر Muratori، ١٧٤٠، المجلّد الثالث.

(٣) بل في باب *الميتافيزيقا الشعريّة*، ٣٤٤§.

(٤) §§ ٤٩٥-٤٩٨.

وبما أنّ اكتشاف الأشياء هو بطبيعة الحال ما يأتي في المقام الأوّل، والحُكم عليها يأتي في المقام الثاني، كان من الأجدر للعالم في طفولته أن يتمرّس على العمليّة الأولى للذهن البشري، عندما كان العالم بحاجة إلى جميع الاكتشافات المتعلّقة بضرورات الحياة ومنافعها، والتي تمّ التمكّن منها قبل مجيئ الفلاسفة، كما سنبيّن ذلك بصفة مستفيضة في باب *اكتشاف هوميروس الحقيقي*[1]. كان الشعراء اللاهوتيّون على حقّ إذن حين كانوا يقولون إنّ الذاكرة هي *أمّ الحوريّات الملهِمات* اللاتي كما سبق أن ذكرنا[2]، يرمزن إلى الفنون البشريّة.

[§ ٧٠٠] في هذا الخصوص لا يُمكننا أن نغفل هذه الملاحظة المهمة، التي تتعلّق بما سبق ذكره في *المنهج*[3]، وهي أنّنا الآن لا نقدر أن نفهم إلاّ القليل جدّاً أو لا نقدر أن نتصوّر بتاتًا كيف كان يفكّر البشر الأوائل الذين أسّسوا الحضارة الوثنيّة، هم الذين كانت أذهانهم مقتصرة جدّاً على الأشياء الفرديّة حتّى أنّه عند كلّ تغيير لملامح الوجه كانوا يعتبرون أنّهم إزاء وجه جديد، مثلما لاحظنا ذلك في خرافة بروثيوس[4]؛ وعند كلّ عاطفة جديدة كانوا يرون فيها قلبًا جديدًا، وصدرًا جديدًا، ونفسا جديدة: ومنها جاءت تلك التعابير الشعريّة المستعملة لا لضرورات الوزن، بل لطبيعة الأشياء البشريّة، مثل *ora* و*vultus* و*animi* و*pectora* و*corda*، التي يأخذ فيها الجمع مقام المُفرد.

[§ ٧٠١] وجعلوا من الصدر مقرّ كلّ الأهواء، التي افترضوا بحدسٍ صائب أنّها تنتج من مبدأين: *النَزَق*، ومقرّه المعدة، لأنّه هناك لقهر الأذى الذي حين يضيق علينا نحسّ بالصفراء الموجودة في الأوعية الصفراويّة وهي تنتشر في المعدة، وهذه الأخيرة بتكثيف حركة تقلّصها الاستداري تزيد الضغط على الأوردة وتنشر الصفراء. *والشبق*، الموجود قبل كلّ شيء في الكبد، المعرَّف بأنّه *معمل الدم*، والذي سمّاه الشعراء *القلب*. وفيه خلط تيتانوس [بروميثيوس] أهواء الحيوانات الأخرى، بعد أن اختار منها تلك التي كانت مميّزة أكثر في كلّ نوع من الأنواع. وفهموا بصفة تقريبيّة جدّاً أنّ الشبق هو أمّ الأهواء جميعها، وأنّ الأهواء مستقرّها في أمزجتنا.

---

(١) §§ ٧٩٢ وما يتبع

(٢) § ٥٠٨.

(٣) § ٥٣٨.

(٤) § ٦٨٨.

[§ ٧٠٢] وكانوا ينسبون إلى القلب كلّ القرارات، ومنه جاء أنّ الأبطال *agitabant* و*versabant* و*volutabant corde curas*، لأنّهم في غبائهم وجنونهم، كانوا لا يفكّرون في الأشياء التي يجب أن يقوموا بها إلّا حين تهزّهم الأهواء. ولذا كان اللاتينيّون يسمّون الحكماء «*cordati*"، وعلى عكس ذلك سمّوا السذّج «*vecordes*"؛ وكانوا يسمّون الأحكام «*sententiae*"، لأنّهم كانوا يحكمون كما كانوا يشعرون، بحيث إنّ الأحكام البطوليّة كانت جميعها صحيحة في شكلها، مع أنّها في غالب الأحيان خاطئة في مادّتها.

[الباب الثالث]

استنتاج
بخصوص الأحكام البطوليّة

[§ ٧٠٣] بما أنّ البشـر الأوائل في العصور الوثنيّة كانت أفكارهم تتّجه بالخصوص نحو الأشياء المفرَدة، فقد كانوا أقرب للحيوانات التي يمحو كلّ إحساس جديد لديها ما سبقه بالكامل، ولهذا السبب فهي لا تقدر على المقارنة وعلى الحديث عنها، فإنّ جميع الأحـكام يقـع التعبير عنها بصفة مُفردة من طرف أولئك الذين يحسّـون بها. من ذلك أنّ *السـموّ*، الذي أعجِب به ديونيسـيوس لونجينـوس[١] في قصيـدة *Sapho*، التي نقلها بعد ذلك كاتولّوس إلى اللاتينيّة[٢]، حيث إنّ العشيق، بحضور الحبيبة، يعبّر من خلال التشبيه الآتي:

Ille mi par esse Deo videtur,[٣]

ولا يتوصّل إلى أعلى درجة من السموّ لأنّ العشيق لا يجعل القول مفردًا بتطبيقه على ذاته، وتيرانتيوس[٤] حين يقول:

Vitam deorum adepti sumus[٥]

---

(١) لونجينوس المنتحل، اسـم اسـنده المحدثون إلى كاتب يوناني مجهول من القرن الثاني أو الثالث ميلادي، مؤلّف *de Sublimis* الذي نُسب إلى Cassius Dionysius Longinus [٢١٣-٢٧٣]، *في السموّ*، X، ١

(٢) *Carmina*، ٥١، ١.

(٣) ما معناه: *إنّه يبدو لي شبيهًا بإله*

(٤) هو Terentius Afer [١٩٠ ق.م. - ١٥٩ ق.م]، شاعر هزلي روماني كان له تأثير كبير على الكتابة المسرحية الأوروبيـة مـن العصور القديمة إلى تلك الحديثة، من بيـن أعماله *Hautontimorumenos* (١٦٣ق.م.) في ٦٩٣. و*Hecyra* (١٦٥ ق.م.).

(٥) أي: *لقد بلغنا طريق الآلهة*.

هـذه العاطفـة وإن كانـت خاصّـة بمن يعبّـر عنها تبـدو عاطفة مشـتركة، نظـرًا للعادة اللاتينيّة التي تسـتعمل للضمير المتكلّم صيغة الجمع للتعبير عن المُفرد. ولكن عند هذا الشـاعر نفسـه، في ملهاة أخرى[1]، هذه العاطفة نفسـها بلغت أعلى درجات السموّ حين نسبها، بصفة مُفردة، إلى من يشعر بها:

Deus factum sum[2]

[§ ٧٠٤] لهـذا السـبب فـإنّ الأقـوال المجرّدة خاصّة بالفلاسـفة، لأنّها تشـتمل على كليّات، والأفكار الخاصّة بالعواطف هي من فعل شعراء زائفين أو ذوي حسّ فاتر.

---

(١) *Hecyra*، ٨٤٣.

(٢) بمعنى: *لقد صرتُ إلهًا.*

[الباب الرابع]

استنتاج
بخصوص الأوصاف البطوليّة

[§ ٧٠٥] وأخيرًا، حدّدوا الوظائف الخارجيّة للنفس في أحاسيس الجسم الخمسة، ولكن في أحاسيس متيقّظة، حيويّة وقويّة، لأنّها لا تملك عقلا، أو قليلا منه، وليست بكاملها غير مخيّلة قويّة. ويُمكننا أن نجد البراهين على ذلك في الألفاظ التي كانوا يستعملونها للحديث عن الأحاسيس.

[§ ٧٠٦] فقد كانوا يقولون *audire* (سمع)، ويكاد يكون تقريبًا *haurire*، لأنّ الآذان تشرب الهواء الذي تحرّكه أجسام أخرى. ويقولون *cernere oculis* بمعنى *رأى* بوضوح، وربّما منه جاء اللفظ الإيطالي *scernere*، لأنّ العينيْن هما مثل غربال والحدقتيْن مثل ثقبيْن، وكما أنّه من الغربال تنفذ أعواد من غبار تلمس الأرض، فمن العينيْن تخرج أعواد من نور تلمس الأشياء التي تُرى بوضوح، وهو *العود البصريّ* (الأشعّة) الذي تحدّث عنه فيما بعد الرواقيّون والذي في أيّامنا هذه وجد برهنة رائعة من قِبل ديكارت[1]، وكانوا يقولون *usurpare oculis*، أي يسرق النظر أو *رأى*، كما لو تُسلب الأشياء التي تتمّ رؤيتها. وبكلمة *tangere* كانوا يشيرون إلى فعل سلب، لأنّه بلمس جسم ما يُنتزع منه شيء ما، وهو ما يفهمه الفيزيائيّون المعاصرون الأكثر خبرة بكثير من العناء. وكانوا يقولون *olfacere* لشمّ رائحة ما، كما لو أنّهم بالشمّ يصنعون بأنفسهم الروائح، وهو ما اعتبره بعد ذلك فلاسفة الطبيعة صحيحًا بواسطة ملاحظات جديّة، وهو أنّ الحواسّ تصنع الصفات المسمّاة بالحسيّة. وأخيرًا، كانوا يقولون *sapere* بمعنى *ذاق*، بينما *sapere* هو خاصيّة الأشياء التي تعطي المذاق، لأنّهم يتذوّقون في

---

(١) *Dioptrique*، I، ٢.

الأشياء الطعم الخاصّ بها. ومنه استُعمل باستعارة جميلة لقول *sapientia*، لأنّ الحكمة تستعمل الأشياء بالتوافق مع الاستعمال الذي لها في الطبيعة وليس حسب ما يفترضه الرأي.

[§ ٧٠٧] وعلينا أن نرى بإعجاب في كلّ هذا صنع العناية الإلهية، التي بمنحنا الحواسّ للحفاظ على جسدنا، -وحواسّ الحيوانات مرهفة جدّاً بالمقارنة مع حواسّ البشر- جعلت للبشر زمن أن كانوا في حالة الحيوانات المتوحّشة حواسّ بطبيعتها مرهفة جدّا ليتمكّنوا من الحفاظ على أنفسهم. بعد ذلك، حين دخلوا في طور الفكر، الذي بواسطته تمكّنوا من العناية بجسدهم للحفاظ عليه، ضعفت حواسّهم. لجميع هذه الأسباب فإنّ الأوصاف البطوليّة، مثل التي نجدها عند هوميروس، لها قوّة تعبيريّة من الجلاء والسطوع بحيث لم يقدر على تقليدها، وأقلّ من ذلك على مساواتها، أيّ شاعر من الشعراء الذين جاؤا من بعده.

[الباب الخامس]

استنتاج
بخصوص العادات البطوليّة

[§ ٧٠٨] انطلاقًا من تلك الطبائع البطوليّة المتمتّعة بتلك الحواسّ البطوليّة تشكّلت واستقرّت عادات لها نفس الطابع. فالأبطال الذين خرجوا لتوّهم من حالتهم الأصليّة كجبابرة، مثل أولئك ال*los patacones* الذين تحدّثنا عنهم[١]، كانوا ذوي إدراك محدود جدّاً، وذوي مخيّلة واسعة جدّاً، وذوي أهواء عنيفة جدّاً. وتبعا لذلك كانوا أفظاظًا خشانًا قساة متوحّشين متكبّرين صعابًا وعنيدين في قراراتهم، وكانوا في الوقت نفسه متغيّري السلوك حين تعترضهم مواضيع جديدة ومعاكسة، وهو ما نلاحظه كلّ يوم عند الفلاّحين العنيدين الذين ينساقون إلى كلّ الحجج التي تُقدّم إليهم، ولكن لضعف إدراكهم، يعودون إلى فكرتهم الأولى حالما ترك فكرهم الحجّة التي فاجأتهم. ولهذا العيب نفسه في التفكير، تجدهم منفتحين رقيقين حليمين أسخياء، مثلما يصف هوميروس أخيل، أعظم أبطال اليونان: بالاستناد على هذه الأمثلة من العادات البطوليّة يضع أرسطو[٢] مبدأ للفنّ الشعري هو: أنّ الأبطال الذين اتُّخِذوا مواضيع للتراجيديا لا يجب أن يكونوا طيّبين جدّاً ولا أشرارًا جدّاً، بل يجب أن يقدّموا مزيجًا من الرذائل العظيمة ومن الفضائل العظيمة. وبالفعل فإنّ بطوليّة فضيلة ما تتمّ حسب فكرتها الكاملة وهو شيء ينتمي للفلاسفة لا للشعراء؛ والبطوليّة الرقيقة هي من ابتكار الشعراء الذين جاؤوا بعد هوميروس وهم إمّا أنّهم تصوّروا خرافات من نوع جديد، وإمّا بتخنّث العادات مع مرور الزمن، غيّروا الخرافات التي كانت في الأصل جديّة وصارمة كما يجدر بمؤسّسي الأمم، وانتهى بهم الأمر إلى أنّهم أفسدوها. والدليل المهم على ذلك، وهو في الآن نفسه قاعدة

---

(١) §§ ١٧٠، ٣٣٨.

(٢) في كتاب *الشعر*، ١٣، ١٤٥٣؛ ١٥، 1454b.

رئيسة في الميثولوجيا التاريخيّة التي نحن بصدد عرضها، هو أنّ أخيل، من أجل بريزيس التي خطفها منه أغاممنون، يثير ضجّة تملأ الأرض والسّماء بصيحاتها وتوفّر مادّة *الإلياذة* كلّها، لا يُظهِر أبدًا في كلّ *الإلياذة* أدنى عاطفة تنمّ عن الحبّ لأنّه حُرم من الفتاة؛ ومينلاوس، الذي يهيّج اليونان كلّه ضدّ طروادة بسبب هيليّنة، لا يُظهر طيلة هذه الحرب الطويلة أدنى شعور بالألم أو الغيرة لمجرّد فكرة أنّ باريس، الذي انتزعها منه، يستمتع بها.

[§ ٧٠٩] كلّ ما قيل في هذه الاستنتاجات الثلاث حول الأحكام والأوصاف والعادات البطوليّة تنتمي إلى موضوع اكتشاف هوميروس الحقيقي، والذي سنتناوله في الكتاب التالي.

[القسم الثامن]

الكسموغرافيا الشعريّة

[باب وحيد]

في الكسموغرافيا الشعريّة

[§ ٧١٠] وكما أنّ الشعراء اللاهوتيّين اتّخذوا الماهيات التي تصوّروا أنّها إلهيّة مبادئ للفيزياء، فقد وضعوا كسموغرافيا متوافقة مع هذه الفيزياء، مفترضين أنّ العالم متكوّن من آلهة *السّماء* وآلهة *العالم السفلي*، التي كان اللاتينيّون يسمّونها ***dj superi*** و ***dj inferi***، وآلهة وسطيّة بين السّماء والأرض، وهي الآلهة التي سمّاها اللاتينيّون في البداية ***Medioxumi***.

[§ ٧١١] ومن العالم شاهدوا قبل كلّ شيء السّماء التي كانت أشياؤها بالنسبة إلى الإغريق هي أولى الأشياء السامية «μαθήματα، ماثيماتا»، وأولى الأشياء الإلهية «θεωρήματα، ثيوريماتا» التي يجب التأمّل فيها. وقد سُمّي هذا التأمّل في الأشياء من قِبل اللاتينيّين انطلاقًا من الجهات السماويّة التي ترسمها التكهّنات لمعرفة النذور وممارسة التنجيم بحسب مسارات النجوم السيّارة أثناء الليل، فسُمّيت هذه الجهات "***templa caeli***"، وفي المشرق كان اسم زرادشت يعني تقريبًا، حسب بوشار[١]، *المتأمّل في النجوم*[٢].

[§ ٧١٢] وبالنسبة إلى الشعراء لم تكن هذه السّماء الأولى أكثر ارتفاعًا من قمم الجبال حيث توقّف الجبابرة عن تشرّدهم الحيواني حين باغتتهم الصواعق الأولى التي ألقاها جوبيتر. وكانت هذه السّماء هي التي حكمت على الأرض، ومنذ تلك اللحظة كانت سبب خير كبير للجنس البشري، مثلما شرحنا ذلك بصفة مستفيضة[٣]. وقد اعتبروا

(١) هو Jean Baptiste Gaspard Bochart de Saron المعروف بـ Bochart-Saron [١٧٣٠-١٧٩٤]، قاضي، عالم فلك ورياضي فرنسي.

(٢) § ٤٤٠.

(٣) § ٦٤، ٣٧٩.

إذن أنّ السّماء هي قمم الجبال، ومن الشكل المدبّب لهذه الأخيرة جاء لفظ *caelum* الذي يعني أيضًا *الإزميل*، الأداة لحفر الحجارة أو الخشب. كما أنّ الأطفال يتصوّرون الجبال أعمدة تسند قبّة السماء، وينسب العرب *للقرآن* مبادئ كسموغرافيّة مشابهة. من هذه الأعمدة بقي لنا قول *أعمدة هرقل*، كما سنرى ذلك فيما يلي[1]. وفي البداية كان لفظ *columen* يعني عمادة أو سندًا، بعد ذلك جعلت الهندسة المعماريّة هذه الأعمدة مستديرة الشكل. وعلى قبّة مثل هذه يقول ثيتيس لأخيل عند هوميروس[2]، إنّ جوبيتر ذهب من جبل *أولمب* مع الآلهات الأخرى للعربدة فوق جبل *الأطلس*. ولذا، مثلما سبق لنا قول ذلك، عندما تحدّثنا عن الجبابرة، فإنّ خرافة الحرب التي شنّها هؤلاء ضدّ السّماء بتكويم الجبال المرتفعة، *أوسّا* فوق *بيليون*، *وأولمب* فوق *أوسّا*، للصعود فوقها وطرد الآلهة منها، لا بدّ وأنّها جاءت بعد هوميروس، لأنّه في *الإلياذة* يروي دون شكّ دائمًا أنّ الآلهة تقيم على قمّة *أولمب*، بحيث يكفي أنّ يسقط *الأولمب* لكي تسقط معه الآلهة. وهذه الخرافة، مع أنّها ذُكرت في *الأوديسّا*، فهي لا تبدو في مكانها، ذلك أنّ *العالم السفلي*، حيث يلتقي أوليس الأبطال الموتى ويتحادث معهم، ليس أكثر عمقًا من حفرة[3]. فإذا كانت لهوميروس في *الأوديسّا* فكرة عن العالم السفلي بهذه الحدود الضيّقة، فمن الضروري أن تكون فكرته عن السّماء محدودة بصفة متناسبة، موافقة للفكرة التي كانت لهوميروس مؤلّف *الإلياذة*. وعليه وكما وعدنا سابقًا، بأن نقوم بذلك، نكون قد أقمنا الدليل على أنّ هذه الخرافة ليست لهوميروس.

[§ ٧١٣] في هذه السّماء سادت الآلهة في البداية على الأرض وكانت لها علاقات مع الأبطال، حسب ترتيب التحدّر الطبيعي للآلهة الذي سبق عرضه[4]، بدءًا بجوبيتر. في هذه السماء *آستري* المتوّجة بسنابل القمح والممسكة بالميزان، أقامت العدالة على الأرض، لأنّ أوّل فعل عدالة بشريّة هو الذي أنجزه الأبطال للبشر بسنّ القانون الزراعي الأوّل، مثلما ذكرنا ذلك سابقًا[5]. وبالفعل، فقد عرف البشر في البداية الوزن، ثمّ القياس

---

(١) § ٧٢٦.

(٢) *الإلياذة*، ٤٢٣-٤٢٤.

(٣) *الأوديسا*، XI، ٣٦-٤٣.

(٤) § ٣١٧.

(٥) §§ ٢٦٥، ٥٩٧، ٦٠٤.

وبعد ذلك بوقت طويل العدد، وهناك توقّف الفكر، حتّى أنّ فيثاغورس الذي لم يكن يعرف شيئًا أكثر تجريدًا وأكثر لاجسمانيّة من الأعداد وضع فيها جوهر الروح الإنسانية. هذه السّماء كان الأبطال يجوبونها راكضين على جيادهم، مثل بلّيروفون على صهوة بيغاسوس، ومنه جاء القول اللاتيني "*volitare equo*"، أي ركض على الفرس. في هذه السّماء بيّضت جونو درب التبانة أو الطريق اللبني، ولكن ليس بحليبها لأنّها عاقر، بل بحليب أمّهات الأُسَر اللاتي يرضعن سلالتهنّ التي شرّعها الزواج البطولي الذي كانت ربّته هي جونو. فوق هذه السماء كانت الآلهة محمولة على العربات الذهبيّة الشعريّة، أي القمح، ومن هنا جاء *العصر الذهبي*. في هذه السماء تُستعمل الأجنحة، لا للطيران أو للإشارة إلى نباهة الفكر، بل للإشارة إلى الحقوق البطوليّة التي كانت جميعها قائمة على النذور، مثلما سبق أن أوضحنا ذلك بالكامل[1]. وبالفعل، مجنّحون هم هيميني، الحبّ البطولي، وآستري وموزا وبيغاسوس وساتورن وفاما [الصّيت] وميركور، المجنّح في صدغيْه وفي قدميْه، ومجنّح أيضًا صولجانه الذي جلب به من السماء القانون الزراعي الأوّل للعامّة الذين تمرّدوا في السهول، مثلما سبق ذكره[2]، ومجنّح أيضًا دراكون، لأنّ غورغونة تحمل هي أيضًا جناحيْن على صدغيْها، وهو لا يعني أنّ لها فكرًا ثاقبًا أو أنّها تطير. وفي هذه السماء سرق بروميثيوس من الشمس نارها التي كان على الأبطال أن يشعلوها بحجر الصوان لينشروا النار في أعلى الجبال في أجمات الشوك المتيبّسة بفعل شمس الصيف الحارقة، ومن هنا جاء، حسب رواية وفيّة، أنّ مشعل هيمينايوس متكوّن من أشواك. من أعلى تلك السماء سقط فولكانوس بركلة سدّدها له جوبيتر. ومن أعلى تلك السماء سقط أيضًا فايثون بعربة الشمس؛ ومن أعلى تلك السماء سقطت *تفاحة الشقاق*، وجميع هذه الخرافات سبق تفسيرها. أخيرًا، من أعلى تلك السماء سقطت لدى الرومان التروس المقدّسة (*ancili*).

[§ ٧١٤] من بين آلهة العالم السفلي كان الإله الأوّل الذي تخيّله الشعراء اللاهوتيّون هو إله الماء؛ والماء الأوّل كان ماء الينابيع الدائمة الذي سمّوه ستيكس، وبه كانت تُقسِم الأرباب، مثلما سبق قوله[3]. ولعلّ هذا ما جعل أفلاطون يعتقد من بعد أنّ أعماق المياه

(١) § ٤٨٨.

(٢) § ٦٠٤.

(٣) §§ ٥٢٧، ٥٤٦.

توجد في مركز الأرض. إلّا أنّ هوميروس في نزاع الآلهة[1]، يظهر لنا بلوتون متخوّفًا من أن يكشف نبتون العالم السفلي للبشر وللآلهة إن هو فتح بزلازله أحشاء الأرض. الحال هو أنّنا لو وضعنا أعماق المياه في أحشاء الأرض الأكثر عمقًا كان عليه لو أحدث زلازل في قلب الأرض أن يتسبّب في عكس ذلك، أي أن تغمر المياه العالم السفلي وتغرقه بالكامل. وهكذا أقمنا الدليل، كما سبق أن وعدنا بذلك[2] على أنّ تأويل أفلاطون الرمزي لا يتناسب مع هذه الخرافة. وبحسب ما قيل سابقًا[3]، فإنّ العالم السفلي الأوّلي لم يكن أعمق من منبع العيون المائية. وقد ذهب الظنّ بأنّ ديانا كانت الإلهة الأولى، هي التي كما يروي لنا التاريخ الشعري كانت ثلاثيّة الشكل، إذ كانت في السماء ديانا، على الأرض سينثيا الصائدة، برفقة أخيها أبولوّ، وبروسربينا في العالم السفلى.

[§ ٧١٥] بعد ذلك امتدّت فكرة العالم السفلي إلى المدافن، لذا سمّى الشعراء القبر "*inferno*"، وهذه العبارة لا تزال مستعملة في الكُتب المقدّسة. لذا فإن العالم السفلي لم يكن أعمق من حفرة، مثل التي عند هوميروس يرى فيها أوليس العالم السفلي وأرواح الأبطال الموتى، ذلك لأنّهم تصوّروا أنّه توجد في العالم السفلي حدائق *الإيليزيوم*، حيث بفضل الدفن تنعم أرواح الموتى بالسلام الأزلي. و*الإليزيوم* هو مقام أرواح الموتى الطيّبة (*Dei Mani*).

[§ ٧١٦] وبعد ذلك كان للعالم السفلي عمق سكّة محراث. وفيه سيرس، التي هي نفسها بروسربينا، حبّة القمح، جذبها إليه الإله بلوتون وبقيت فيه ستّة أشهر، لتعود بعد ذلك لرؤية نور السماء. ومنه جاء التفسير الذي سنعطيه لاحقًا[4] للغصن الذهبي الذي نزل به إينياس إلى العالم السفلي، والذي تصوّره فرجيل مواصلا الاستعارة البطوليّة للتفاحة الذهبيّة التي، سبق الحديث عنها[5]، ليست إلاّ سنبلة القمح.

[§ ٧١٧] أخيرًا، كان العالم السفلي هو السهول والأودية، في مقابل علوّ السماء الذي يوجد فوق قمم الجبال، حيث كان يعيش مشتّتين أولئك الذين يعيشون في نجاسة

---

(١) *الإلياذة*، XX، ٥٧-٦٥.

(٢) § ٦٣٤.

(٣) § ٤١٢.

(٤) § ٧٢١.

(٥) § ٥٤٦.

الاختلاط. وإله هذا العالم السفلي هو إيريبوس، المسمّى ابن كاوس، أي اختلاط النسل البشري، وهو أب الظلام المدني، أي ظلام الأسماء، بالطريقة نفسها التي يضيء بها النور المدني السماء، ذلك النور الذي يجعل الأبطال أمجادًا (*incliti*)، ويجري فيه نهر *ليثي*، نهر النسيان، لأنّ هؤلاء البشر لا يتركون من أنفسهم أيّ اسم لأجيالهم اللاحقة، مثلما أنّ مجد السماء يجعل أسماء الأبطال الأمجاد خالدة. وميركور، مثلما سبق قوله[١] بخصوص ما يرمز إليه، لكونه حمل بعصاه القانون الزراعي فهو يعيد الأرواح من أوركوس الذي يلتهم كلّ شيء. وهذه هي القصّة المدنيّة التي احتفظ لنا بها فرجيل في هذا البيت:

Hac ille animas evocat Orco[٢]

فهو يجذب حيوات البشر دون نسب شرعيّ والشبيهين بالحيوانات من الحالة الهمجيّة التي تلتهم بالكامل البشر بما أنّهم لا يتركون من أنفسهم شيئًا لذريّتهم. لهذا السبب استُعملت العصا فيما بعد من طرف السحرة، لاعتقادهم الباطل بأنّ لها القدرة على إحياء الموتى. والحاكم الروماني كان يضرب على الكتف بعصاه العبيد ليجعلهم أحرارًا، كما لو أنّه بواسطتها يُعيدهم من الموت إلى الحياة. ولا يفعل السحرة غير أنّهم يستعملون في أعمال السحر العصا التي كان سحرة فارس يستعملونها للتنجيم. وهكذا مُنحت للعصا رمزيّة إلهية واعتُبرت من طرف الأمم إلهًا يقوم بالمعجزات، مثلما يؤكّد لنا ذلك تروغُس بومبيوس حسب مختصَر جوستينوس[٣].

[§ ٧١٨] ويحرس هذا العالم السفلي *سيربيروس* الذي يمثّل رجس الكلاب التي تتجامع دون حياء أمام الغير، وله ثلاثة أشداق، أيْ أنّ له فمًا عظيمًا كما تعنيه المبالغة «ثلاثة» التي سبق أن تحدّثنا عنها عديد المرّات[٤]، لأنّه مثل *أوركوس*، يلتهم كلّ شيء.

---

(١) §§ ٦٠٤، ٦٨٨.

(٢) أي: *بها (العصا) يعيد الأرواح من عند أوركوس*، فرجيل، *الإنيادة*، IV، ٢٤٢.

(٣) اسمه اللاتيني Pompeius Trogus، عاش في القرن الأوّل ق.م. مؤرّخ غالي-روماني، كاتب وسياسي. ألّف كتاب *Historiae philippicae*، الذي اختصره لاحقًا جوستينوس [القرن الثالث أو الرابع م]، XLIII، ٣، ٣.

(٤) §§ ٤٩١، ٥٣٥.

والشمس، عندما برزت فوق الأرض، عادت إلى الوراء، أي أنّ نور الأبطال المدني الذي أشعّ عاليًا على المُدن البطوليّة قد عاد إلى الظلمة المدنيّة.

[§ ٧١٩] وفي أعماق العالم السفلي يجري نهر *ترتاروس* حيث يلاقي المذنبون عذابهم: إيكسيون يدير العجلة، وسيسيفوس يدفع الصخرة، وتنتالوس يموت جوعًا وعطشًا، كما رأينا ذلك عند تفسير هذه الخرافات[1]. والنهر الذي يحترقون فيه من العطش هو نهر *العويل* ذاته الذي يمثّله كلّ من *أشيرون وفليجيتون*. وقد وضع علماء الميثولوجيا بعد ذلك، عن جهل، تيتيوس وبروميثيوس في هذا العالم السفلي، بينما في الواقع رُبطا بالسلاسل إلى صخرة في السماء، والعقاب الذي يحلّق في الجبال يلتهم أحشاءهما، وهو التعذيب المستعمل في قراءة الطالع الذي سبق الحديث عنه[2].

[§ ٧٢٠] وقد وجد الفلاسفة من بعد في هذه الخرافات مادّة تصلح جيّدًا لتأمّلاتهم وتسمح لهم ببناء أفكارهم الأخلاقيّة والميتافيزيقيّة. وقد سمحت لأفلاطون بإدراك العقوبات الإلهيّة الثلاث التي لا يُمكن إلّا للآلهة أن تفرضها ولا يمكن ذلك للبشر: عقوبة النسيان والعار والندم الذي يعذّب ضمير المذنب. كما جعلته يفهم منها أنّ طريق التطهير، الذي يطهّر النفس (*animo*) من الأهواء التي تعذّب البشر، هوالعالم السفلي الذي تصوّره الشعراء اللاهوتيّون، الذي يدخل النفس في طريق الوحدة التي يسلكها الذهن البشري للاتّحاد بالربّ من خلال تأمّل الأشياء الإلهيّة السرمديّة، وهو حسب تأويله، ما كان يريد قوله الشعراء اللاهوتيّون بحدائقهم الإيليزيّة.

[§ ٧٢١] إلّا أنّه بأفكار مغايرة تمامًا لهذه الأفكار الأخلاقيّة والميتافيزيقيّة نزل إلى العالم السفلي جميع مؤسّسي الشعوب الوثنيّة، لأنّ الشعراء اللاهوتيّين تحدّثوا عنه بأفكار سياسيّة كما كان ضروريّا لهم أن يفعلوا ذلك، باعتبار أنّهم كانوا يؤسّسون الأمم. فقد نزل إليه أورفيوس، الذي أسّس الأمّة الإغريقيّة، وبما أنّه مُنع عليه أن يلتفت إلى الوراء عند خروجه منه فقد خسر عند التفاتته زوجته أوريديس، أي أنّه عاد إلى الشراكة النجسة في معاشرة النساء. ونزل إليه هرقل - وكلّ أمّة تتحدّث عن هرقلها وتعتبره مؤسّسها - ونزل ليحرّر تيزيوس، الذي أسّس أثينا، والذي نزل إليه هو نفسه لجلب

---

(١) § ٥٨٣.

(٢) § ٣٨٧.

بروسربينا، التي قلنا أنّها هي نفسها سيرس، أي لجلب القمح المزروع بعد حصاده. ولكن فرجيل بعد ذلك، الذي في الكتب الستّة الأولى من *الإنيادة*، ينشد البطل السياسي وفي الكتب الستّة الأخرى ينشد البطل المحارب، يتحدّث بأكثر تفصيلاً من أيٍّ كان عن نزول إينياس إلى العالم السفلي. فهو يروي بما يملك من معرفة عميقة بالثقافة القديمة الإغريقيّة، أنّ إينياس بنصح وبإرشاد عرّافة كوماي، - وقد سبق أن ذكرنا[1] أنّ لكلّ قوم عرّافته وقد وصلتنا من بينها أسماء اثنتيْ عشرة منهنّ- أي أنّه بممارسة التنجيم الذي هو العِلم العامّي في الوثنيّة، يضحّي بشريكه ميسينوس بورع دينيّ دمويّ، هذا الورع الذي يمارسه أقدم الأبطال في وحشيّة وقسوة نشأتهم القريبة العهد والتي تحدّثنا عنها سابقًا[2]. ويضحّي به باسم الحقّ القاسي الذي كان الأبطال يمارسونه على *الشركاء* الأوائل، مثلما بيّنّا ذلك أيضًا من قبل[3]، فيدخل إلى الغابة القديمة، أي الأرض قبل الزراعة والمغطّاة بالأشجار، ويرمي إلى سربيروس لقمة منوّمة لتخديره، مثلما نوّمه أورفيوس بقيثارته التي سبق أن بينّا بوفرة من البراهين[4]، أنها تمثّل القانون؛ بينما هرقل ربطه بالوثاق الذي شدّ به عنتي في اليونان، أي بالقانون الأوّل الزراعي، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك. وقد تصّوروا سربيروس بثلاثة أشداق (*trifauce*)، أي بفم كبير جدّاً لأنّ *tre* (ثلاثة) له معنى تفضيلي، كما سبق أن شرحنا ذلك[5]. وهكذا نزل إينياس إلى العالم السفلي، وقد سبق أن قلنا إنّه لم يكن أعمق من سكّة محراث[6] ويقدّم إلى ديس إله الثروات البطوليّة والذهب الشعري أي القمح - وهو مماثل لبلوتون الذي خطف بروسربينا التي هي نفسها سيرس، إلهة حصاد القمح - الغصن الذهبي[7]، وهنا يمدّ الشاعر العظيم استعارة التفاحة الذهبيّة التي سبق أن بينّا[8] أنها تعني سنبلة القمح، إلى صورة الغصن الذهبي،

---

(١) § ٣٨١.

(٢) § ٥١٦، وما يتبع

(٣) § ٥٥٨.

(٤) §§ ٥٢٣، ٦١٥.

(٥) §§ ٤٩١، ٥٣٥، ٧١٨.

(٦) § ٧١٦.

(٧) *الإنيادة*، VI، ٦٣٥-٦٣٦.

(٨) §§ ٥٤٦، ٧١٦.

أي إلى الحصاد. حين يُقتلع ذلك الغصن يخلفه غصن آخر[١]، لأنّه لن يكون هناك حصاد آخر إلّا بعد عام من الحصاد الأوّل. وحين تكون الآلهة راضية يستسلم الغصن دون مقاومة لليد التي تنتزعه، أمّا إذا كان العكس فما من قوّة تستطيع اقتلاعه، لأنّ الحبوب تنبت طبيعيًّا إن شاء الربّ ذلك، وإن لم يشأ فليست هناك أيّ صنعة بشريّة قادرة على حصادها. بعد ذلك يجتاز إينياس العالم السفلي ويصل إلى جنان *إيليزيوم*[٢]، لأنّ الأبطال إذ استقرّوا في الحقول المزروعة، فهم يتمتّعون بعد الموت بالسلام السرمدي بفضل طقوس الدفن، كما سبق أن شرحنا ذلك[٣]، وهنالك يشاهد أسلافه وخلفته، لأنّه بديانات الدفن، الذي كان الشعراء يسمّونه *العالم السفلي*، مثلما رأينا ذلك سابقًا[٤]، تأسّست السلالات الأولى -كما سبق قوله[٥]- بدأ بها التاريخ.

[§ ٧٢٢] تصوّر الشعراء اللاهوتيّون الأرض في علاقة مع حراسة التخوم، ومنه سُمّيت "*terra*" (تراب)، واحتفظ اللاتينيّون بهذا الأصل البطولي في لفظ ***territorium***، الذي يعني *مقاطعة*، أي حيث *تُمارس السلطة*. وقد أخطأ النحويّون اللاتينيّون حين اعتقدوا أنّ اللفظ متأتّ من *terrere*، أي من الرعب الذي كان ينشره الفائسون حين كانوا يفرّقون الجموع بالحِزم لفتح الطريق عند مرور الحكّام الرومان. إلّا أنّه في الأزمنة التي نشأ فيها لفظ *territorium*، لم تكن هناك جموع غفيرة بروما التي في مئتيْن وخمسين سنة من الملوكيّة أخضعت أكثر من عشرين شعبًا دون أن تمتدّ سلطتها إلى أكثر من عشرين ميلاً، مثلما أخبرنا بذلك فارّو المذكور سابقًا[٦]. ولكن هذا اللفظ يستمدّ أصله من أنّ حدود الحقول المزروعة، التي نشأت فيها من بعد السلطات المدنيّة، كانت تحرسها الإلهة *فيستا* بطقوس دمويّة، وكما لاحظنا سابقًا فإنّ *فيستا* لدى الرومان هي نفسها *كوبيلي* أو *بيريسنثيا* عند الإغريق، المتوجّة بالأبراج، أي الأراضي الواقعة على المرتفعات المحصّنة. وانطلاقًا من ذلك التاج بدأ يتشكّل ما سُمّي "*Orbis Terrarum*"،

---

(١) الإنياذة، VI، ١٤٣-١٤٤.

(٢) نفسه، ٦٣٧ وما يتبع.

(٣) § ٥٢٩.

(٤) § ٧١٥.

(٥) § ٥٣٣.

(٦) § ٨٨.

أي *عالم الأمم*، والذي وسّعه بعد ذلك الكسموغرافيّون وسمّوه "*Orbis Mundanus*"، ثمّ بكلمة واحدة "*Mundus*"، عالم الطبيعة.

[§ ٧٢٣] هذا العالم الشعري قُسّم إلى ثلاث ممالك، أو ثلاث مناطق: مملكة جوبيتر في السماء، ومملكة ساتورن على الأرض، وفي العالم السفلي، مملكة بلوتون المسمّى ديس، إله الثروات البطوليّة، والذهب الأوّل، والقمح، لأنّ الحقول المزروعة كانت ثروة الشعوب الحقيقيّة.

[§ ٧٢٤] وهكذا تشكّل عالم الشعراء اللاهوتيّين بأربعة عناصر مدنيّة، اعتُبرت بعد ذلك من طرف الفيزيائيّين عناصر طبيعيّة مثلما قلنا لتوّنا، فكان عنصر جوبيتر هو الهواء، وعنصر فولكانوس هو النار، وعنصر كوبيلي هو الأرض، وعنصر ديانا إلهة العالم السفلي هو الماء: وبالفعل فإنّ نبتون عُرف من بعد عند الشعراء لأنّه - مثلما سبق أن ذكرنا[1] - نزلت الشعوب نحو السواحل بصفة متأخّرة: وكلّ بحر ممتدّ إلى الأفق إلى ما لا نهاية له ويحيط بأرض سُمّيت جزيرة اتّخذ تسمية *محيط*، مثلما يقول هوميروس[2] إنّ جزيرة *إيوليا* يحيط بها *المحيط*. ومن هذا المحيط دون شكّ أحبل *زفير*، ريح غربيّة في اليونان، أفراس ريزوس، وعلى سواحل هذا المحيط نفسه وُلدت من زفير أيضًا جياد أخيل. وقد لاحظ الجغرافيّون بعد ذلك أنّ الأرض جميعها، مثل جزيرة كبيرة، محاطة بالبحر، وسمّوا *بالمحيط* كلّ البحر الذي يحيط بالأرض.

[§ ٧٢٥] وأخيرًا، انطلاقًا من فكرة أنّ كلّ منحدر خفيف سُمّي *mundus*، ومنه جاء قول "*in mundo est*" و"*in proclivi est*"، لقول *إنّه سهل*، وبعد ذلك كلّ ما يجمّل ويؤنّق ويُزين امرأة قيل "*mundus muliebris*"، حين أدرك البشر أنّ الأرض والسماء لهما شكل مستدير، ومن أيّ نقطة من الدائرة نحو نقطة أخرى منها يوجد منحدر، وأنّ المحيط يبلّل الأرض أجمعها، وأنّ الكلّ تزينه أشكال حسيّة لا يُحصى عددها متنوّعة ومختلفة، سُمّي الكون "*Mundus*"، أي باستعارة رائعة وسامية، كلّ ما تتزيّن به الطبيعة.

---

(١) § ٦٣٤.

(٢) *أوديسا*، X، ٣-٤.

[القسم التاسع]

علم الفلك الشعري

[الباب الأوّل]

في الفلك الشعري

[§ ٧٢٦] هذا النظام العالمي، بقليل من التطوّر، كان لا يزال قائمًا في عصر هوميروس، الذي يتحدّث في *الإلياذة* دائمًا عن الآلهة التي تسكن فوق جبل *أولمب*، وكنّا قد رأينا[١] كيف أنّ ثيتيس، أمّ أخيل، تقول لابنها إنّ الآلهة تركوا الأولمب للذهاب إلى وليمة فوق جبل *أطلس*. وهكذا فإنّ أعلى جبال الأرض اعتُبِرت، في زمن هوميروس الأعمدة التي تحمل السماء، تمامًا مثل أنّ جبليْ *آبيلا وكالبي* في مضيق جبل طارق لا يزالان يسمّيان أعمدة هرقل، البطل الذي خلف أطلس المنهك من طول حمله قبّة السماء على كتفيْه.

---

(١) § ٧١٢.

[الباب الثاني]

البرهان الفلكي الفيزيائي على تماثل المبادئ لدى جميع الأمم الوثنيّة القديمة

[§ ٧٢٧] إلّا أنّ القوّة اللامحدّدة للذهن البشري في تطوّره الدائم إضافة إلى تأمّل السماء لالتقاط نذائرها الذي جعل الشعوب تحدّق فيها على الدوام، جعلا السّماء تتعالى دائمًا أكثر في أذهان الأمم ومع السّماء تعالت أكثر الآلهة والأبطال. ولفهم العلم الفلكي الشعري، يتعيّن علينا أن نستعين بثلاثة معطيات من المعرفة الفقهيّة: الأولى، هي أنّ عِلم الفلك جاء إلى الدنيا لدى شعب الكلدان؛ والثانية، هي أنّ الفينيقيّين نقلوا من عند الكلدان إلى المصريّين القدامى استعمال الساعة الفلكيّة ومعرفة ارتفاع القطب؛ والثالثة، هي أنّ الفينيقيّين، الذين تعلّموا ذلك دون شكّ عن الكلدان، نقلوا إلى الإغريق الآلهة المرتبطة بالنجوم. بهذه المعطيات الثلاثة من المعرفة الفقهيّة ترتبط الحقيقتان الفلسفيّتان التاليتان: بحسب الأولى، التي هي ذات طبيعة مدنيّة، فإنّ الأمم إن لم تصل بعد إلى أقصى حدّ من الحريّة الدينيّة، والذي لا يحصل إلّا في تمام انحلالها، تميل بطبيعتها إلى تقبّل الآلهات الأجنبيّة؛ وبحسب الثانية، التي هي ذات طبيعة فيزيائيّة، فإنّ النجوم السيّارة، بخدعة بصريّة، تبدو لنا أكبر من النجوم القارّة.

[§ ٧٢٨] بعد وضع هذه المبادئ، نقول إنّه لدى جميع الأمم الوثنيّة في الشرق وفي مصر وفي اليونان، وفي اللاتيوم كما سنرى ذلك، كانت لعِلم الفلك بصفة متماثلة أصول عاميّة، لأنّه حسب طريقة مماثلة رُفعت الآلهة إلى الكواكب، بينما رُبط الأبطال بالمجرّات؛ لأنّ النجوم التائهة في الفضاء تبدو أكبر بكثير من تلك القارّة. لذا وجد الفينيقيّون لدى الإغريق الآلهة جاهزة لتدور مع الكواكب والأبطال لتكوين المجرّات، ووجد الإغريق بعد ذلك لدى اللاتينيّين السهولة نفسها. وينبغي القول بالاعتماد على هذه الأمثلة إنّ الفينيقيّين وجدوا لدى المصريّين نفس السهولة التي وجدوها لدى

الإغريـق. بهذه الطريقة فإنّ الأبطـال، والهيروغليفيّات التي تمثّل شـعاراتهم وحقوقهم، مع عدد كبير من الآلهات الكبرى، قد رُفعوا إلى السماء ومكّنوا الفلك العِلمي من إعطاء النجـوم، التـي لـم يكن لها قبل ذلك اسـم، وكذلك لمادّتها، شـكل كواكـب أو مجرّات، ومن ناحية أخرى شكل كواكب سيارة.

[§ ٧٢٩] وهكـذا، بـدءًا بالفلـك العامّـي، كتبت الشـعوب الأولى في السـماء تاريخ آلهتهـم وأبطالهـم. ومن ذلك تبقّت هذه الخاصيّة الدائمة وهي أنّ ذاكرات البشـر، عندما تزخـر بالتديّـن أو بالبطولـة، فإنهـا تصير مـادّة جديرة بـأن تدخل التاريـخ، بعضها بفضل أعمال فكر عبقري أو حكمة باطنيّة، وبعضها الآخر بفضل أعمال فاضلة وحكمة عاميّة. وبالطريقة نفسـها وفّر التاريخ الشـعري للفلكيّين المتعلّمين مناسـبات لكي يرسـموا في السّـماء الأبطـال والهيروغليفيّات البطوليّة مع هذه المجموعـة من النجوم أو تلك، وفي هـذه المنطقة من السـماء أو تلـك، وليربطوا بهذه النجوم أو بتلـك الآلهات الكبرى التي صارت أسماؤها بعد ذلك تشير إلى الكواكب.

[§ ٧٣٠] وللحديث أكثر عن الكواكب منه عن المجرّات، فمن الأكيد أن ديانا، إلهة الحياء التي احتفظت به ليلة الزواج إذ استلقت صامتة إلى جانب أنديميون النائم، رُبطت بالقمـر، الـذي يعطي النـور لليل. وفينوس، إلهـة الجمال المدني، رُبطت بالنجم السـيّار الأكثر ابتسامًا والأكثر غبطة والأكثر جمالا من بين جميع الكواكب وهو كوكب الزُّهرة. وميركور، البشـير الإلهي، المتسـربل بالنور المدني، وبأجنحة عديدة، هي هيروغليفيّات النبالة، التي تزينه عندما حمل القانون الزراعي للموالي الثائرين، هذا الإله يسـكن نجمًا سيّارًا [عطارد] تغمره بالكامل أشعّة الشمس بحيث تصعب رؤيته إلّا في النادر. وأبولّو، إله هذا النور المدني نفسـه، ومنه سُـمّيَ الأبطال "*incliti*"، ووقع ربطه بالشـمس، مصدر النور الطبيعي. أمّا مارس الدمويّ فهو مرتبط بنجم المرّيخ، ويشـبهه في اللون. وجوبيتر [المُشـتري]، ملك وأب البشـر والآلهة، وُضع أعلى من الآخرين جميعهم، ولكن تحت ساتورن؛ لأنّ هذا الأخير هو أب جوبيتر والزمن، وله أطول دورة سنويّة من كلّ الكواكب الأخـرى؛ لـذا فإنّ الجناحيْـن لا يتلاءمان معه إذا اعتبرنا مجازيًّا أنّهما يعنيان السـرعة في الزمن بما أنّه يكمل دورته السـنويّة أكثر بطئًا من جميع الكواكب الأخرى. ولكنّه يحمل الجناحيْـن فـي السـماء مـع منجله، وهذا يعنـي أنّه لا يحصـد حيوات البشـر، بل يحصد

مواسم الحصاد التي كان الأبطال يعدّون بها السنوات، وأنّ الحقول المزروعة هي شرعًا ملك الأبطال. وأخيرًا فإنّ الكواكب، بالعربات الذهبيّة، أي القمح، التي تسير بها في السّماء حين كانت على الأرض، تدور الآن حسب المدارات الموكولة لكلّ واحد منها.

[§ ٧٣١] وتبعًا لهذا كلّه، ينبغي علينا القول إنّ التأثيرات المهيمنة - حسب ما يُعتقد- تمارسها النجوم القارّة والنجوم السيّارة على الأجسام الأرضيّة، وقد نُسبت إليها بسبب الهيمنة التي كانت تمارسها الآلهة والأبطال عندما كانوا على الأرض. والدليل على ذلك أنّها تعود لأسباب طبيعيّة!

[القسم العاشر]

الكرونولوجيا الشعرية

[الباب الأوّل]

في الكرونولوجيا الشعريّة

[§ ٧٣٢] أعطى الشعراء اللاهوتيّون للتسلسل الزمني بدايات تتناسب مع تصوّراتهم الفلكيّة. وبالفعل فإنّ ساتورن، الذي جاء اسمه لدى اللاتينيّين من *a satis*، الأرض المزروعة، والذي سُمّي «Χρόνος، خرونوس» عند الإغريق ويعني لديهم الزمن، كلّ هذا يجعلنا نفهم أنّ الأمم الأولى، التي كانت متكوّنة جميعها من مزارعين، بدأت تعدّ الأعوام بحسب مواسم حصاد القمح التي يقومون بها، وهو الشيء الوحيد أو الرئيسي الذي من أجله كان المزارعون يعملون طيلة السنة، وبما أنّ هذه الأمم كانت في البداية صامتة، فقد كانت باستعمال السنابل أو بأعواد القشّ، تقوم بعدد معيّن من حركات الحصد بحسب عدد السنوات التي يُراد الإشارة إليها. ومنه نجد عند فرجيل، - وهو أكبر العارفين بالعصور البطوليّة القديمة- تعبيرًا غير ملائم جدّاً، وبفنّ رفيع في المحاكاة ومعقّد بصفة غير سويّة، للتعبير عن الطريقة الملتوية التي كانت الأزمنة الأولى تعبّر بها، إذْ يقول:

Poſt aliquot mea regna videns mirabor ariſtas;

«هل إنّني بعد عدة محاصيل سأعجب لرؤية ممالكي؟»

وهذا عوضًا عن قول "*poſt aliquot annos*". ولكنّنا نجد بعد ذلك هذه العبارة الأخرى الأكثر وضوحًا:

Tertia messis erat[1]، أي أنّه كان الحصاد الثالث.

كما أنّ المزارعين التوسكانيّين إلى هذا اليوم وفي أمّة معروفة في كامل إيطاليا بفصاحة كلامها، عوضًا عن قول «*ثلاثة أعوام*»، على سبيل المثال، يقولون *حصدنا الزرع*

(١) انظر § ٤٠٧.

ثلاث مرّات. وحافظ الرومان على هذه القصّة البطوليّة المدروسة هنا بخصوص السنة الشعريّة المُشار إليها بموسم الحصاد، بقول "*annona*" بخصوص إدارة التموين، خاصّة من القمح.

[§ ٧٣٣] يُروى إذن أنّ هرقل كان مؤسّس الألعاب الأولمبية، وهي فترة زمنيّة مشهورة لدى الإغريق، الذين نعرف منهم كلّ شيء بخصوص العصور القديمة الوثنيّة، لأنّه أضرم النّار في الغابات ليجعل منها أراضيَ صالحة للزراعة، ممّا أدّى إلى مواسم الحصاد التي استُعملت في البداية لتعداد السنوات. ولا شكّ في أنّ هذه الألعاب بدأت بالألعاب النيميّة، احتفالا بتغلّب هرقل على أسد نيميا الذي كان ينفث النار من فمه، والذي سبق أن أوّلناه بأنّه الغابة الكبيرة في الأرض التي تصوّروها في شكل حيوان عظيم القوّة، يصعب جدّاً تطويعه، وأعطوها اسم *أسد*. وهذا الاسم أطلق بعد ذلك على أقوى الحيوانات، مثلما فسّرنا ذلك سابقًا في باب *مبادئ شعارات النبالة*[١]. وقد أسند الفلكيّون للأسد في دائرة البروج بيتًا قريبًا من بيت *آستريا* المتوّجة بالسنابل. وهذا هو السبب في أنّنا نرى غالبًا في خيمات السيرك صورًا لأسود وصورًا لشموس، ونرى فيها النُّصب تعلوها بيضات، التي كانت في البداية مصنوعة من القمح، وفتحات النور، أي عيون الجبابرة التي جُثت أحراجها والتي سبق الحديث عنها[٢]. في وقت لاحق أعطى الفلكيّون للبيضة معنى الشكل الإهليلجي الذي ترسمه الشمس في سنة بحركتها التي تتبع دائرة البروج. كان من الأفضل على مانيتون أن يُعطي هذا المعنى إلى البيضة التي يحملها كنيف في فمه، بدلا من أن يرى فيها نشأة الكون.

[§ ٧٣٤] إلّا أنّ اللاهوتيّة الطبيعيّة التي درسناها سابقًا[٣] تمكّننا من تحديد تسلسل الزمن الذي تعاقب بمناسبة بعض الضرورات الأولى أو المنافع الخاصّة بالجنس البشري، والذي بدأ في كلّ مكان بالديانات. هذا التعاقب، الذي هو عصر الآلهة، دام على الأقلّ تسعمائة سنة بدءًا من الفترة التي بدأ فيها لدى الأمم الوثنيّة أمثال جوبيتر، أي منذ اللحظة التي بدأت السماء ترمي بصواعقها بعد الطوفان الكوني: والآلهة الاثنتا

---

(١) § ٥٦٣.

(٢) § ٥٦٤.

(٣) §§ ٦٩، ٣١٧.

عشرة، بدءًا من جوبيتر، والتي وقع تصوّرها كلّ إله في حينه حسب هذا التعاقب، يتوزّعون حسب اثنتيْ عشرة فترة صغيرة تسمح بإضفاء اليقين على التسلسل الزمني للتاريخ الشعري. وهكذا، على سبيل المثال، دوكاليون، الذي يضعه التاريخ الخرافي مباشرة بعد الطوفان والجبابرة، والذي أسّس مع زوجته بيرّا الأُسَر من خلال مراسم الزواج، قد وُلد في المخيّلة الإغريقيّة في عهد جونو، إلهة الزواجات الرسميّة. وهلّين، الذي أسّس اللغة الإغريقيّة، وبفضل أبنائه الثلاثة قسّمها إلى ثلاث لهجات، قد وُلد في عهد أبولّو، إله الإنشاد، الذي في زمنه نشأت اللغة الشعريّة المتكوّنة من أبيات. وهرقل الذي كان من بين أعظم أعماله قتل الهيدرة أو أسد نيميا، أي أنّه استصلح الأرض ليجعل منها حقولا قابلة للزراعة، والذي جلب من هسبيريا التفاح الذهبي، أي حصاد القمح، وهو إنجاز جدير بأن يُؤرّخ، وليس برتقال البرتغال، الذي سيكون إنجازًا جديرًا بطفيْليّ، فهو قد تميّز في عهد ساتورن، إله الحقول المزروعة. كما أنّ برسيوس صار مشهورًا في عهد مينيرفا، العهد الذي كانت قد نشأت فيه السلطات المدنيّة، بما أنّ درعه يحمل رأس ميدوزا، تمامًا مثل درع مينيرفا نفسها. وأخيرًا، أورفيوس يكون قد وُلد بعد عهد ميركور، الذي بإنشاده لمتوحّشي اليونان قوّة الآلهة بواسطة النذور التي لا يملك علمها إلّا الأبطال، يؤسّس الأمم الإغريقيّة البطوليّة ويعطي اسمه إلى *الأزمنة البطوليّة*، إذ أنّ الصراعات البطوليّة وقعت في تلك الفترة. وعليه فإنه مع أورفيوس إزدهر لينوس وأمفيون وموزيوس وشعراء آخرون بطوليّون. وواحد منهم، أمفيون، استعمل الحجارة لتشييد أسوار طيبة بعد ثلاثمئة سنة من تأسيس قدموس لها، هذه الحجارة ترمز للعامّة الجهّال، مثلما يدلّ على ذلك لفظ *lapis* عند اللاتينيّين لقول غبيّ. وبالطريقة نفسها، بعد ثلاثمئة سنة من تأسيس روما، أبيوس حفيد *الديسمفير*[1]، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[2]، دعا إلى واجبهم العامّة الرومانيّين الذين يقيمون الزواج كالبهائم أوالوحوش "*agitabat connubia more ferarum*"[3]، أي متوحّشي أورفيوس، منشدًا لهم قوّة الآلهة بالنذور، التي يملك الأشراف عِلمها، وأسّس الدولة الرومانيّة البطوليّة.

---

(١) عضو في مجلس العشرة.

(٢) §§ ٨١، ٦٦١.

(٣) § ٥٦٧.

[§ ٧٣٥] وينبغي علينا من ناحية أخرى أن نلاحظ هنا أربعة أنواع من المفارقات الزمنيّة، التي تُصنّف تحت الجنس المعروف جيّدًا لأزمنة وُضعت قبل أوانها أو وُضعت بعد أوانها. فالنوع الأوّل: هو الأزمنة الخاوية من أحداث كان ينبغي أن تُملأ بها: من ذلك أنّ عصر الآلهة، الذي وجدنا فيه تقريبًا جميع بدايات الأشياء البشريّة الحضريّة، والذي بالنسبة إلى العلاّمة فارّو، ينقضي باعتباره *زمنًا غامضًا*[1]. والنوع الثاني: هو الأزمنة المليئة بأحداث كان ينبغي أن تُفرغ منها: من ذلك عصر الأبطال، الذي يمتدّ على مئتيْ سنة، والذي بحسب رأيٍ خاطئ يقول إنّ الأساطير ابتُدعت دفعة واحدة من طرف الشعراء البطوليّين، وبالخصوص هوميروس، فهو يمتلئ بجميع وقائع عصر الآلهة، حيث إنّ الأخيرين ينبغي وضعهم في عصرهم. والنوع الثالث: هو الأزمنة التي وقع جمعها بينما ينبغي فصلها، حتّى لا يمرّ اليونان في حياة أورفيوس وحده من الحيوانيّة المتوحّشة إلى ازدهاره زمن حرب طروادة، وهذه الفظاعة الزمنيّة هي التي كنّا قد أظهرناها في *الملاحظات الخاصّة بالجدول الزمني*[2]. والنوع الرابع والأخير: هو الأزمنة المنفصلة والتي ينبغي جمعها: كما هو الحال مثلا بالنسبة إلى المستعمرات الإغريقيّة التي يُقال إنّها استقرّت بصقليّة وبإيطاليا بعد أكثر من ثلاثمئة سنة من ترحال الأبطال، بينما استقرّت هناك بالتزامن مع ترحال الأبطال وبسبب ذلك الترحال نفسه.

---

(١) § ٥٢.

(٢) § ٧٩.

[الباب الثاني]

المعيار الزمني لتحديد بدايات التاريخ الكوني السابقة لملكيّة نينوس التي وقع ضبط بداية التاريخ الكوني انطلاقًا منها

[§ ٧٣٦] إذن، بمقتضى اللاهوتيّة الطبيعيّة المذكورة آنفًا التي وفّرت لنا التسلسل الزمني الشعري المذكور، وبفضل اكتشاف الأنواع المذكورة من المفارقات الزمنيّة التي لاحظناها في التاريخ الشعري[١]، وبغاية تحديد بدايات التاريخ الكوني، التي لا بدّ أن تكون سبقت ملكيّة نينوس التي جرت العادة أن يبدأ بها هذا التاريخ الكوني، علينا الآن أن نقترح المعيار الزمني التالي: انطلاقًا من تشتّت الجنس البشري التائه عبر غابة الأرض الكبرى، والتي بدأت في بلاد ما بين النهريْن، مثلما افترضنا ذلك بصفة معقولة في *المسلّمات*[٢]، مرّت مئة سنة فحسب من التشرّد الحيواني لعرق سام الضّال بآسيا الشرقيّة، ومئتا سنة للعرقيْن الآخريْن حام ويافث في باقي أنحاء العالم. ومنذ اللحظة التي مع ديانة جوبيتر، وأمثال جوبيتر الكثيرين الموزّعين بين الأمم الأولى الوثنيّة الذين أعطونا الدليل، فيما سبق، على وجود الطوفان، شرع أمراء الأمم في الاستقرار، كلّ واحد منهم على الأرض التي ألقت بها إليه الصدفة، مرّت التسعمئة سنة من عصر الآلهة. عند نهاية هذا العصر تقريبًا، تلك الأمم التي تأسّست جميعها داخل الأراضي -لأنّ أمراءها تفرّقوا عبر الأرض بحثًا عن القوت والماء اللذيْن لا يوجدان على ساحل البحر- كان عليها أن تنزل إلى السواحل. من هنا خطرت ببال الإغريق فكرة نبتون مثلما رأينا[٣]،

(١) §§ ٧٣٤ وما يتبع

(٢) §§ ٢٩٨، ٣٠١.

(٣) § ٦٣٤.

والـذي كان آخـر الآلهـات الكبـرى الاثنتـيْ عشـرة. وبالطريقـة نفسـها، عنـد اللاتينيّين، انقضت تسعمئة سنة بين عصر ساتورن، أو العصر الذهبي للاتيوم، والفترة التي نزل فيها أنكوس مارسيوس نحو البحر للاستحواذ على *أوستيا*[١]. وأخيرًا انقضت المئتا سنة التي دام أثناءهـا، حسـب عـدّ الإغريـق، القـرن البطولـي، الذي بـدأ بحملات قرصنـة الملك مينـوس، وتواصـل مع الحملة البحريّة التي قادها جـازون على بونتو، وتمادى مع حرب طـروادة لينتهـي بترحـال الأبطـال إلى حين عـودة أوليس إلـى إيتاكا. وهكذا فـإنّ صور، عاصمة الفينيقيّين، انتقلت من داخل الأراضي إلى ساحل البحر، ثمّ إلى جزيرة قريبة من البحر الفينيقي، بعد أكثر من ألف عام من الطوفان. وبما أنّ صور كانت مشهورة من قبل بفضـل نشـاطها البحـري ومسـتعمراتها الموزّعـة بكامـل البحـر المتوسّـط وصـولا إلى المحيط، وهذا قبل أزمنة الإغريق البطوليّة، فإنه يدلّ بصفة جليّة على أنّ الجنس البشري كلّـه يجـد أصوله فـي المشـرق، والترحال الوحشـي الأوّلي داخل الأراضـي، ثم المُلك البطولـي علـى الأرض والبحـر، وأخيرًا تجـارات الفينيقيّيـن البحريّة، التـي فرّقت الأمم الأولى عبر باقي العالم. هذه المبادئ لهجرة الشـعوب، بالتوافق مع ما سـبق افتراضه في إحدى *المسلّمات*[٢]، تبدو أكثر طبيعيّة من تلك التي تصوّرها ولفغانغ لاتيوس[٣].

[§ ٧٣٧] وبموجـب المسـار المتماثـل الذي اتّبعته جميع الأمـم، والذي أقيم الدليل عليه من خلال تماثل الآلهة التي رُفعت إلى النجوم[٤]، والذي نقله الفينيقيّون من المشرق إلـى اليونـان ومصر، ينبغي علينا القـول إنّ الكلدان حكموا طيلة نفـس المدّة من الزمن، ألف ومئة سـنة، في الشـرق، من زرادشـت إلى نينوس، مؤسّـس أوّل مملكة في العالم، مملكة الأشوريّين. ومرّت نفس المدّة من الزمن من هرمس الهرامسة إلى سيسوستريس، أو رمسـيس تاسـيتوس، الذي أسّس هو الآخر مملكة عظيمة جدّاً. وبما أنّهما كانتا أمّتيْن تسـكنان داخـل الأراضـي، فـإنّ الممالـك التـي هـي آخـر الحكومـات البشـريّة، تنحدر بالضـرورة مـن الحكومـات الإلهيـة، مـرورًا بالحكومـات البطوليّـة وبعد ذلـك بالحريّة

(١) على ساحل البحر الترّيني قريبًا من روما.

(٢) § ٢٩٩.

(٣) § ٣٠٠.

(٤) §§ ٧٢٧-٧٢٨.

الشـعبيّة، إذا أردنا الحفاظ على تقسـيم العالـم إلى العصور الثلاثة التى عدّها المصريّون القدامى للزمن المنقضي قبلهم. وبالفعل، فالحكم الملكي، مثلما سنبيّن ذلك لاحقًا[1]، لا يُمكـن أن ينشـأ إلّا مـن حريّة الشـعوب اللامقيّدة، التي انتهي المطاف فيه بالأشـراف، أثناء الحروب الأهليّة، إلى أن يسـلّموا إليها سـلطتهم. وحين تصير من بعد هذه السـلطة مقسّـمة إلى أجزاء صغيرة بين الشـعوب، فإنّه يسـهل الاسـتحواذ عليها من طرف أولئك الذين بتحيّزهم للحريّة الشـعبيّة، يبرزون أخيرًا كملوك. إلّا أنّ فينيقيا، ولأنّها أمّة بحريّة، كان لها بسبب ثروات تجارتها أن تتوقّف في مرحلة الحريّة الشعبيّة، التي هي الأولى من بين الحكومات البشريّة.

[§ ٧٣٨] وهكذا، عن طريق الفهم، ودون مسـاعدة الذاكرة التي لا تقدر على شـيء حيـن لا تمدّهـا الحـواسّ بالوقائع، يبدو لنا أنّنـا أتممنا ما كان ناقصًا فـي *التاريخ الكوني* بخصوص بداياته، سواء كانت تلك المتعلّقة بمصر القديمة أو بالمشرق، الذي هو أقدم من مصر، وفي المشرق، بخصوص بدايات المملكة الأشوريّة. وبالفعل، إلى هذا الحدّ، بخصوص هذه الأخيرة وفي غياب الأسباب المتعدّدة والمتنوّعة السابقة التي كان ينبغي أن تأتـي قبـل قيام النظام الملكي، قد نشـأت في التاريخ دفعة واحـدة، مثلما يولد ضفدع بعد مطر صيف.

[§ ٧٣٩] بهذه الطريقة صارت فترات التسلسـل الزمني مؤكّدة بفضل تطوّر العادات والوقائع التي صاحبت مسـار الجنس البشـري. وبالفعل، اسـتنادًا إلى إحدى *المسلّمات* المذكـورة سـابقًا[2]، فقد بدأ مذهبه في الوقت الذي بدأت فيـه مادّته، أي مع «Χρόνος، خرونوس»، ساتورن، ومنه سُمّي الزمن لدى الإغريق «Χρόνος، خرونوس»، الذي يعدّ الأعوام بمواسم الحصاد، ومع أورانيا، تلك التي تتأمّل في السماء لالتقاط نذورها، ومع زرادشت، الذي يتأمّل في النجوم للنطق بتنبّؤاته حسب مسار الشهب السيّارة، وقد كانت الـ«ماثيماتـا، μαθήματα» الأولـى، والـ«ثيوريماتـا، θεωρήματα» الأولـى، والأشـياء الأولى السـامية أو الإلهيّة التي شـاهدتها وتأمّلت فيها الأمم، كما سبق أن ذكرنا ذلك[3]؛

(١) §§ ٩٢٧-٩٢٨، ١٠٠٧-١٠٠٨.

(٢) § ٣١٤.

(٣) §§ ٦٢، ٣٩١، ٧١١.

بعـد ذلـك، عندما صعد سـاتورن إلى الدائرة السـابعة، صـارت أورانيا متأمّلـة الكواكب والنجـوم، والكلـدان بفضل سـهولهم الشاسـعة، أصبحـوا فلكيّين ومنجّميـن عبر قياس تحـرّكات الأجـرام السـماويّة وعبـر التأمّل فـي مظهرها، وكذلـك بتصـوّر تأثيراتها على الأجسـام المسـمّاة *تحت القمريّة*، بل وذهبوا، دون طائل، إلى تصوّر تأثيراتها على إرادة البشر الحرّة. وقد احتفظ هذا العِلم بالاسميْن الأوّليْن اللذيْن سُمّي بهما بصفة صحيحة: الأوّل هـو *علـم الفلـك*، أو علـم قوانيـن الكواكب؛ والآخر هـو *علم التنجيـم* أوعلم لغة الكواكـب، والأوّل والثانـي يعنيـان *العِرافـة*، كمـا أنّ مـن ***teoremi*** جـاء لفـظ ***teologia*** [لاهوتيّـة]، أي علـم لغـة الآلهـة مـن خـلال العرافـة والتكّهنـات والنـذور؛ ثـمّ جـاءت الرياضيّات لتقيس الأرض، وهذه القياسـات لا يُمكن أن تتأكّد إلّا بقياسـات السّماء التي تمّـت البرهنة عليها، لذا فإنّ جزءها الأوّلي الرئيسـي المسـمّى ***geometria*** [الهندسـة]، استمدّ اسمه من هذا الأصل.

[§ ٧٤٠] ولأنّهمـا لـم يبـدآ نظريّتهمـا من بدايـة المادّة التي يدرسـانها فـإنّ العالميْن النابغتيْـن جيوزيبّـي جيوسـتو سـكاليجيرو وديونيسـيوس بيتافيـوس، الأوّل فـي كتابـه *Emendazione*[1] والثانـي فـي *Dottrina dei Tempi*[2]، لـم يتقدّمـا إلّا قليلا في معرفة بدايات التاريخ الكوني وتواصله. وبالفعل، فقد انطلقا من السنة الفلكيّة التي، مثلما سبق قولـه، لـم تُعرف عند الأمم إلّا بعد ألف عام علـى الأقلّ، واليقين الوحيد الذي يُمكن أن توفّره لهما هو الذي يتعلّق بترابطات ومقابلات مجرّات النجوم.

---

(١) Joseph Juste Scaliger، مذكور ٣٨٤§، في *Opus de emendatione temporum*، ١٥٨٣.

(٢) Denis Petau، مذكور § ٧٧، في *pus de doctrina temporum*، ١٦٢٦.

[القسم الحادي عشر]

الجغرافيا الشعريّة

[الباب الأوّل]

في الجغرافيا الشعريّة

[§ ٧٤١] بقي لنا أخيرًا أن نوضّح العيْن الأخرى للتاريخ الشعري، أي الجغرافيا الشعريّة. هذه الأخيرة - بموجب خاصيّة الطبيعة البشريّة التي سبق أن ذكرناها في *المسلّمات*[1]، والتي تقول إنّه عندما لا يمتلك البشر فكرة حقيقيّة عن الأشياء المجهولة والبعيدة أو التي ينبغي عليهم شرحها لأولئك الذين لا يمتلكونها فإنّهم يصفونها من خلال تشبيهها بالأشياء المعروفة لديهم أوالقريبة منهم - قد نشأت، في أجزاء منها أو في كليّتها، بأفكار مقتصرة على اليونان نفسه، وبعد ذلك حين خرج الإغريق من بلادهم وانتشروا عبر العالم، تطوّرت لتبلغ الشكل الموسّع الذي وُصفت به إلى حدّ الآن. والجغرافيّون القدامى متّفقون على هذه الحقيقة، ولكنّهم لم يعرفوا طريقة استعمالها، وبالفعل فهم يقولون إنّ الأمم القديمة، عندما انتقلت إلى أراض غريبة ونائية، أطلقوا أسماء موطنهم على المُدن والجبال والأنهار والهضاب والخلجان والجُزر والمرتفعات التي اكتشفوها.

[§ ٧٤٢] لذا فإنّه في اليونان نفسه ظهرت الأجزاء الشرقيّة المسمّاة بآسيا أوالهند، والغربيّة المسمّاة أوروبا أو إيسبيريّة، والشماليّة المسمّاة تراقيا أو سيثيا، والجنوبيّة المسمّاة ليبيا أو موريتانيا. وهكذا فإنّ أجزاء العالم سُمّيت بأسماء أجزاء العالم الصغير لليونان، إذ لاحظ الإغريق أنّها تحتلّ في العالم مواضع شبيهة بتلك التي كانت تحتلّها هذه الأخيرة في اليونان. والدليل الواضح على ذلك هي الرياح التي تهبّ من الجهات الأصليّة الأربع، والتي في جغرافيّتها احتفظت بالأسماء التي كانت دون شكّ لها في اليونان نفسه. وهكذا فإنّ أفراس ريزوس حبلت من زفير، ريح غربيّ يونانيّ، على شواطئ المحيط، وهو لفظ، كما سنرى ذلك، يشير إلى كلّ بحر لامتناه الأفق؛ وعلى

---

(١) § ١٢٢.

شـواطئ البحر أيضًا، بالمعنى الأوّل الذي أشـرنا إليه، وُلدت جياد أخيل من نسـل زفير، وبالطريقة نفسـها، مثلما يروي إينياس لأخيل[1]، حبلت أفراس إيريكتون من *بوريا*، ريح يهبّ من شـمال اليونان. والحقيقـة التي تحدّثنا عنها بخصوص ريـاح الجهات الأصليّة تتأكّد لنا بصفة موسّـعة جدّاً، بما أنّ الفكر اليوناني بانتشـاره في مساحات شاسعة، أعطى للسّـماء المرصّعة بالنجوم الاسـم الـذي احتفظ به والذي هو *أولمـب*، الجبل الذي كان مقرّ الآلهة في زمن هوميروس.

[§ ٧٤٣] وباعتبار المبادئ نفسها، احتفظت شبه الجزيرة الكبيرة شرقيّ اليونان باسم آسـيا الصغرى، حين صار اسـم *آسيا* يشير إلى تلك الجهة الكبيرة الشرقيّة من العالم التي احتفظت باسـم آسـيا فحسـب. وفي المقابل، فإنّ اليونان نفسـه، الواقع غربًا بالنسبة إلى آسـيا، سُـمّي *أوروبا*، أوروبا تلك التي اختطفها جوبيتر بعد أن تحوّل إلى ثور. بعد ذلك امتـدّ اسـم أوروبا ليشـمل تلك القـارّة الكبيرة الأخـرى التي تحدّ بالمحيـط الغربي. وقد أطلق الإغريق اسم إسبيريا على الجزء الغربي من اليونان، حيث تشرق في الجزء الرابع من الأفق عند المساء نجمة *إسبيروس*، ثمّ رأوا إيطاليا في نفس الإتّجاه، وبما أنّها كانت أكبر بكثير من إسـبيريا اليونانيّة، أطلقوا عليها اسـم *إسـبيريا الكبرى*. وأخيرًا، ودائمًا في نفـس الإتّجـاه، وصلـوا إلى إسـبانيا فسـمّوها *إسـبيريا الأخيرة*. على عكـس ذلك، أطلق أغارقة إيطاليا اسم *يونيا* (*Jonia*) على الجزء من اليونان الذي يوجد على الضفة الأخرى من البحر، شـرقيّ موقعهم، ومنه جاء اسـم *البحر الأيوني* الذي يشـير إلى البحر الفاصل بين اليونانيّتيْن. بعد ذلك، نظرًا لتشابه الوضع بين جزئيْ اليونان، اليونان الأصلي واليونان الآسيوي، أطلق إغريق اليونان الأصلي اسم *يونيا* على الجهة من آسيا الصغرى الموجودة شـرقيّ أنظارهم. ومن المعقول أكثر أنّ فيثاغورس جاء من *يونيا الأولى* إلى إيطاليا، من سـاموس، إحدى الجـزر التي كانت تحت حكم أوليس، وليس من سـاموس التي توجد في *يونيا الثانية*.

[§ ٧٤٤] ومـن تراقيـا الإغريقيّة جاء مارس، وهو دون شـكّ إلـه إغريقي؛ ومن بعده جاء أورفيوس، وهو أحد الشعراء اللاهوتيين الإغريقيّين الأوائل.

---

(١) *الإلياذة*، XX، ٢٢١-٢٢٥.

[§ ٧٤٥] مـن سـيثيا اليونانيّـة جـاء أناشرسـيس، الـذي تـرك فـي اليونـان العرّافيـن السـكوثيّين، الذين كانوا دون شـكّ شـبيهين بالعرّافين الزرادشـتيّين، وهـؤلاء الأخيرون كانوا ينتمون في البداية من دون شكّ إلى قَصص العرّافين، بحيث أنّ أناشرسيس قُبِل بين أقـدم الآلهـة المحتوميـن: ثـمّ تحـوّل العرّافون بواسـطة الانتحـال إلى مذاهب فلسـفيّة. وبالطريقـة نفسـها افترضـت *القصائد الأورفيّة* على أنّها أبيات شـعر مـن نظم أورفيوس، بينما هي مثل تنبّؤات زرادشـت، ليسـت من الشعر بشـيء ولها بالأحرى رائحة المدرسة الأفلاطونيّـة والفيثاغوريّـة. ولهـذا السـبب فـإنّ وسـيطيْ الوحـي الشـهيرَين، الدالفـي والدودونـيّ كانـا قد جـاءا إلى اليونان من سـيثيا بواسـطة الإيباربوريّيـن الأصليّين مثلما افترضنـا ذلك فـي *الملاحظات الخاصّة بالجـدول الزمني*[1]. ذلك أنّ أنشارسـيس الذي كان يريـد أن يُدخل الحضارة إلى سـيثيا -أي لدى أولئك الإيباربوريّين أصيلي اليونان، بواسطة الشرائع اليونانيّة- قد قُتِل بسبب ذلك من طرف أخيه كدويداس: لقد أحرز تقدّمًا كبيـرًا على صعيد الفلسـفة البربريّـة التي يتحدّث عنها فان هـورن بحيث عجز عن إيجاد شرائعه بنفسه! ولهذه الأسباب نفسها، من ناحية أخرى، كان آباريس سكوثيًّا هو الآخر، إذ يقولـون إنّـه كتب التنبؤات السـكوثيّة، التي لا يُمكن أن تكون إلّا تنبؤات أناشرسـيس المذكـورة سـابقًا. وكان قد كتبها في سـيثيا هـذه التي بعد وقت طويل مـن ذلك عبّر فيها إيدانثيرسـوس مـن خلال الأشـياء[2]؛ ولهذه الأسـباب إذن مـن الضـروري الاعتقاد أنّها كُتِبت من طرف بعض المنتحلين في أزمنة تالية لنشأة الفلسفات الإغريقيّة؛ ولهذا السّبب وقـع تقبّـل تنبؤات أناشرسـيس بدافـع غرور العلمـاء باعتبارهـا تنبؤات نابعـة من معرفة غامضة لـم تصل إلينا.

[§ ٧٤٦] وزامولكسيس الذي جلب إلى الإغريق مذهب سـرمديّة الروح - حسـب قول هيرودتس- كان جيتيًّا، مثله مثل مارس.

[§ ٧٤٧] وهكـذا، فمـن هنـد إغريقيّـة يكون قد جـاء باخوس حين وصـل ظافرًا من الشـرق الهندي، أي من أرض إغريقيّة ثريّة بالذهب الشـعري، ويأتي ظافرًا على عربة من

---

(١) § ١٠٠.

(٢) §§ ٩٩، ٤٣٥.

ذهب [أي من قمح][1]. ولذا فهو مروّض ثعابين وفهود، مثلما كان هرقل مروّض هيدرات وأسود، كما سبق أن شرحنا ذلك[2].

[§ ٧٤٨] لا يوجد شكّ في أنّ اسم *Morea* الذي لا يزال يحتفظ به البيلوبونيز إلى يومنا هذا، يمثّل دليلا قاطعًا على أنّ برسيوس، وهو دون شكّ بطل إغريقي، قام بإنجازاته بموريتانيا الأصليّة، أي الإغريقيّة. وبالفعل، فإنّ البيلوبونيز يقع بالنسبة إلى أكايا مثل إفريقيّة بالنسبة إلى أوروبا. ونرى إذن إلى أيّ حدّ كان هيرودوتس جاهلا بعالمه القديم، كما عابه على ذلك ثوقيديدس، وهو الذي كان يقول إنّ المغاربة كانوا فيما سبق بيض البشرة، كما كان دون شكّ مغاربة بلاده اليونان، المسمّاة إلى الآن بالمغرب الأبيض.

[§ ٧٤٩] كما أنّ إسكولابيوس أنقذ بعظيم فنّه جزيرته *كوس* من طاعون المغرب؛ لأنّه إن كان عليه أن يحفظها من طاعون شعوب المغرب، فسيكون عليه أن يحميها من جميع طواعين العالم.

[§ ٧٥٠] وفي موريتانيا هذه كان هرقل قد حمل على كتفيْه عبء السماء الذي لم يعد أطلس العجوز قادرًا على حمله، ذلك أنّ اسم *أطلس* كان يشير في البداية دون شكّ إلى جبل آتوس الذي يفصل مقدونيا عن تراقيا بلسان من أرض حفَره تاليًا كسركسيس، وفي هذا الموضع بين اليونان وتراقيا كان يوجد نهر اسمه *أطلس*. بعد ذلك، في مضيق جبل طارق، حين لوحظ أنّ جبليْ *آبيلا* و*كالبي* يفصلان إفريقيا عن أوروبا بمضيق من بحر، قيل إنّ هرقل نصب هناك عموديْه اللذيْن كانا يسندان السماء، كما سبق أن رأينا ذلك[3]، والجبل الإفريقي القريب من هناك سُمّي *أطلس*: بهذه الطريقة يمكننا أن نفهم عند هوميروس، معنى الجواب الذي ردّت به تيتيس الأمّ على أخيل، عندما قالت له إنّه لا يُمكنها أن تقدّم شكواها لجوبيتر، لأنّه ذهب مع الآلهات الأخرى للمشاركة في وليمة على جبل الأطلس، وذلك حسب الرأي الذي سبق ذكره، والقائل بأنّ الآلهة تقيم فوق قمم أعلى الجبال. لأنّه إذا كان المعنيّ بذلك هو جبل الأطلس بإفريقيّة فسيكون من الصعب جدّاً تصديق ذلك، بما أنّ هوميروس نفسه قال إنّ ميركور، بالرغم من كونه

---

(١) §§ ٦٥١، ٧١٣.

(٢) §§ ٥٠٨، ٥٤٠.

(٣) § ٧٢٦.

مجنّحًا، لم يبلغ جزيرة كاليبسو إلّا بمشقّة كبيرة وهي التي تقع في البحر الفينيقيّ، أي أقرب بكثير من اليونان من المملكة المعروفة اليوم باسم المغرب.

[§ ٧٥١] وبالطريقة نفسها يكون هرقل جلب إلى أتيكا، التفاح الذهبي من إسبيريا اليونانيّة حيث توجد الحوريات الإسبيريّة، بنات أطلس، التي كانت تحرسه.

[§ ٧٥٢] كما أنّ إيريدان، حيث سقط فيثون، كان دون شكّ في تراقيا القديمة هو نهرالدانوب الذي يصبّ في بحر أوكسين. بعد ذلك، حين رأى الإغريق أنّ نهر بو هو النهر الآخر في العالم الذي يجري من الغرب نحو الشرق، مثل الدانوب، أطلقوا على نهر بو [Po] اسم *إيريدان*، وجعل الميثولوجيّون فيثون يسقط بإيطاليا. ولكن وقائع التاريخ البطولي اليوناني وحده، دون الأمم الأخرى، هي التي كانت مرتبطة بالنجوم التي توجد من بينها *إيريدان*.

[§ ٧٥٣] أخيرًا، بلغ الإغريق المحيط، فنسبوا إليه الفكرة المحدودة للبحر ذي الأفق اللامحدود، ومع الفكرة كذلك الاسم، الذي يعني اليوم البحر الذي يحيط بكامل الأرض، التي كانت تُعتبَر جزيرة كبيرة. ثمّ وُسّعت سلطة نبتون للغاية حتّى إنّه كان يُظنّ أنّه بمشكاته العظيمة الثلاثيّة الأطراف كان يهزّ الأرض من أعماق المياه التي حدّد أفلاطون موقعها في أحشاء الأرض: وقد سبق لنا أن فسّرنا المبادئ الخشنة لهذه الفيزياء في موضع آخر[١].

[§ ٧٥٤] بإمكان هذه المبادئ في الجغرافيا أن تبرّئ تمامًا هوميروس من الأخطاء الفادحة التي نُسبت خطأً إليه.

[§ ٧٥٥] (١) إنّ *اللوتوفاج* الذين يذكرهم هوميروس، أي آكلو قشرة نبتة اللوتس، كانوا دون شكّ يعيشون أقرب إلى اليونان ممّا كان يُعتقَد، بما أنّه يقول إنّ أوليس أمضى تسعة أيّام للوصول من *ماليا* إلى حيث يعيش آكلو اللوتس. ذلك لو أنّ المعنيّين بذلك هم الذين سُمّوا من بعد *ليتوفاج* والذين يعيشون فيما وراء جبل طارق، فسيكون من الصعب جدًّا، إن لم نقل مستحيلاً، القيام برحلة مثل هذه في تسعة أيّام. وقد نبّه إيراتوستين إلى هذا الخطأ الذي قد يكون سقط فيه هوميروس.

---

(١) § ٧١٤.

[§ ٧٥٦] (٢) أمّا *اللستريغان* فقد كانوا زمن هوميروس شعبًا ينتمي إلى اليونان نفسه، وعندما يقول إنّ الأيّام عندهم أطول، فهو يتحدّث عن الأيّام في اليونان وليس عند كلّ شعوب الأرض. وهذا القول جعل أراتوس[١] يضعهم تحت برج التنّين. ومن المؤكّد أن ثوقيديدس[٢]، وهو كاتب مجدّ ودقيق وضع في روايته شعب لستريغون في صقليّة، والذين كانوا دون شكّ أكثر الشعوب شمالا بتلك الجزيرة.

[§ ٧٥٧] (٣) للسبب نفسه كانت للسمّيريّين أطول الليالي من بين شعوب اليونان؛ لأنّهم كانوا يقطنون في جهته الأكثر شمالاً، لذا قيل عنهم بسبب طول لياليهم إنّهم يسكنون بالقرب من العالم السفلي، وفي وقت لاحق تحوّل اسمهم إلى الشعوب البعيدة جدّاً التي تسكن مستنقع *ميوتيد*[٣]. بعد ذلك، أهالي كوما الذين كانوا يسكنون قرب مغارة كوبيلي التي تؤدّي إلى العالم السفلي، سُمّوا سمّيريّين للشبه المفترض بين الموقعيْن. وبالفعل، فليس من المعقول أنّ أوليس، الذي أرسلته سيرس دون أيّ سحر، لأنّ ميركور منحه سرًّا يحميه من سحر سيرس، مثلما أشرنا إلى ذلك سابقًا[٤]، يكون قد ذهب في يوم واحد إلى أولئك الذين سمّوا لاحقًا بالسمّيريّين ليشاهد العالم السفلي، وأن يعود في اليوم نفسه إلى سيرسيلي، أي جبل سيرسيل الحالي الموجود قرب كوما.

[§ ٧٥٨] بهذه المبادئ نفسها للجغرافيا الشعريّة الإغريقيّة بالإمكان حلّ العديد من الصعوبات العظيمة في تاريخ الشرق القديم، حيث إنّ شعوبًا كانت تقطن بالشرق الأدنى اعتُبرت شعوبًا بعيدة جدًّا، خاصّة منها التي نحو الشمال والجنوب.

[§ ٧٥٩] ما قلناه بخصوص الجغرافيا الشعريّة الإغريقيّة صالح أيضًا لما يتعلّق بالجغرافيا القديمة اللاتينيّة. فاللاتيوم كان في البداية دون شكّ محدودًا جدّاً، لأنّه طيلة المئتيْن وخمسين سنة التي دامت فيها الملكيّة، أخضعت روما عشرين شعبًا ولم تمتدّ سلطتها إلى أكثر من عشرين ميلاً، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[٥]. وإيطاليا كانت دون شكّ

(١) شاعر إغريقي (٣٥٠- ٢٤٠ ق م).

(٢) حرب *البيلوبونيز*، VI، ٢، ١.

(٣) بحر أزوف الحالي.

(٤) § ٤٣٧.

(٥) § ٨٨.

محصورة بين غاليا تشيزالبينا واليونان الكبرى، بعد ذلك، مع الغزوات الرومانيّة امتدّ الاسم إلى كامل التراب الذي نعرفه اليوم. وهكذا فإنّ البحر التوسكاني، أي الترّيني، كان دون شكّ صغيرًا جدّاً في الفترة التي قاوم فيها هوراثيوس كوكلاس وحده ضدّ إتروريا على جسر. ثمّ، مع الانتصارات الرومانيّة، امتدّ على طول الضفّة السفلى الإيطالية.

[§ ٧٦٠] وبالطريقة نفسها وليس بغيرها فإنّ بونتو الأولى، التي قاد فيها جازون حملته كانت دون شكّ الأرض الأقرب لأوروبا، التي يفصله عنها المضيق البحري المسمّى *propontide*، وهذه الأرض قد أعطت اسمها لـ *Mar pontico*، وامتدّ هذا الاسم إلى السواحل الأكثر بعدًا داخل آسيا، حيث قامت إثر ذلك مملكة ميثريدات. هذه الخرافة نفسها تروي لنا بالفعل أنّ آيتيس، أب ميديا، وُلد بكالشيدس الواقعة بأوبيا، وهي جزيرة تقع داخل اليونان، والمسمّاة حاليًا نيغروبونتي، التي أعطت اسمها -دون شكّ- للبحر المسمّى الآن بالبحرالأسود. وكريت الأولى تكون هي تلك الموجودة داخل الأرخبيل الذي توجد فيه متاهة الجزر التي سبق الحديث عنها[1]، وهي الجزيرة التي انطلق منها مينوس لممارسة القرصنة ضدّ الأثينيّين، ثمّ انتقلت كريت إلى المتوسّط حيث توجد الآن.

[§ ٧٦١] الآن، بما أنّنا عدنا من اللاتينيّين إلى الإغريق، تجدر الملاحظة أنّ هؤلاء الأخيرين حين خرجوا من بلادهم للذهاب عبر العالم أذاعوا في كلّ الأنحاء، نظرًا لاعتزازهم الكبير بأنفسهم، صيت حرب طروادة وترحال الأبطال سواء منهم الطروادّيين مثل أنتينور وكابيس وإينياس، أو الإغريق مثل مينلاوس، ديوميدس وأوليس. ولاحظوا أنّه توجد في كلّ مكان من العالم شخصيّة تأسيسيّة للأمم شبيهة بهرقلهم الطيبي، ونشروا اسم هرقلهم، حتّى أنّ فارّو عدّ منهم أربعين لدى الأمم القديمة وأكّد أنّ هرقل اللاتيني سُمّي الإله فيديوس. وهكذا حدث بغرور مماثل لغرور المصريّين الذين كانوا يقولون إنّ إلههم جوبيتر آمّون هو الأقدم من بين جوبترات العالم، وأنّ جميع هراقلة الأمم الأخرى أخذوا اسمهم من الهرقل المصري، مثلما رأينا ذلك في مسلّمتيْن خاصّتيْن بهذا

(١) § ٦٣٥.

الموضوع[1]، ذلك لأنّهم كانوا يعتقدون خطأ بأنّهم أقدم أمّة في العالم. وقد نقل الإغريق بطلهم هرقل إلى جميع أنحاء الأرض محرّرًا إيّاها من الوحوش، وجالبًا منها إلى دياره المجد فحسب.

[§ ٧٦٢] ولاحظوا أنّه كان يوجد رمز شعري للرّعاة يتكلّم بالأبيات المنظومة، والذي كان يمثّله عندهم الأركادي إيفاندروس. هكذا جاء إيفاندروس من أركاديا إلى اللاتيوم، واستضاف فيه مواطنه هرقل واتّخذ زوجة له كرمانتا، التي يأتي اسمها من *carmina*، أي أبيات الشعر، والتي ابتدعت للاتينيّين الحروف، أي أشكال الأصوات المسمّاة بالملفوظة، التي هي مادّة الأبيات. وأخيرًا، تأكيدًا لما ذكرناه للتوّ، لاحظوا هذه *الرموز* الشعريّة داخل اللاتيوم، في الآن نفسه الذي وجدوا فيه، كما ذكرنا أعلاه، *كوراتهم* منتشرين بساتورنيا، أي إيطاليا القديمة، وبكريت وبآسيا[2].

[§ ٧٦٣] إلّا أنّ هذه الألفاظ وهذه الأفكار اليونانيّة وصلت إلى اللاتينيّين في أزمنة أكثر ما تكون وحشيّة، حيث كانت فيها الأمم منغلقة على الأجانب، حتّى أنّ تيتوس ليفيوس ينفي أنّه في زمن سيرفيوس توليوس ليس فيثاغورس الشخص، بل وحتّى اسمه الشهير، كان يمكن أن يكونا وصلا من كروتون إلى روما عبر العديد من الأقوام المختلفين في اللغة والعادات. وبسبب هذه الصعوبة اقترحنا أعلاه، كفرضيّة ضروريّة، مسلّمة يُفترض بحسبها أنّه كانت توجد على ساحل لاتيوم مدينة إغريقيّة، اندثرت بعد ذلك في طيّات العصور القديمة[3]، والتي علّمت اللاتينيّين الحروف التي يقول عنها تاسيتوس إنّها كانت تشبه في البداية أقدم حروف الإغريق. وهذا برهان قويّ لتأكيد أنّ اللاتينيّين أخذوا الحروف الإغريقيّة عن إغريق لاتيوم وليس عن إغريق اليونان الكبرى، وأقلّ من ذلك عن اليونان ما وراء البحار، الذين لم يعرفوه إلّا في فترة الحرب مع تارنتو التي حملت وراءها الحرب مع بيرّوس. وبالفعل، لو كان الأمر غير ذلك، فإنّ اللاتينيّين كانوا سيستعملون الحروف الأحدث للإغريق، وما كانوا ليحتفظوا بحروفهم الأولى، أي أقدم الحروف التي استعملوها.

---

(١) § ١٩٣، ١٩٨.

(٢) § ٥٩٣ وما يتبع.

(٣) § ٧٧٠.

[§ ٧٦٤] وهكذا فإنّ أسماء هرقل وإيفاندروس وإينياس قد دخلت إلى اللاتيوم عن طريق العادات التالية للأمم:

[§ ٧٦٥] (١) كما أنّ الأمم في فترة البربريّة تحبّ عاداتها الأصليّة، فهي حين تبدأ في تحضّرها يعجبها أن تقلّد اللغات الأجنبيّة كما تفعل أيضًا بالبضاعة وبالموضات الأجنبيّة، لذا استبدل اللاتينيّون اسم فيديوس بهرقل الإغريقي، وبدلا من القسَم الأصلي "*medius fidius*" أدخلوا "*mehercule*"، "*edepol*" و"*mecastor*".

[§ ٧٦٦] (٢) نتيجة لذلك الغرور الذي سبق أن أشرنا إليه مرّات عديدة[١] الذي يدفع الأمم إلى التفاخر بأصول أجنبيّة مجيدة، خصوصًا إذا أعطتهم أزمنتهم الهمجيّة سببًا ما لاعتقاد ذلك، فقد ارتدّ اللاتينيّون طوعًا عن فيديوس، مؤسّسهم الحقيقي، لصالح هرقل، المؤسّس الحقيقي للإغريق، وغيّروا نمط رعاتهم الشعراء بإيفاندروس الأركادي، تمامًا مثلما حدث في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، حين روى فيلاّني أنّ مدينة *فييزولي* أسّسها أطلس، وأنّ بألمانيا حكم الملك بريام الطروادي.

[§ ٧٦٧] (٣) حين تلاحظ الأمم أشياء أجنبيّة لا تعرف كيف تسمّيها في لغتها الأصليّة، فهي تستعمل بالضرورة ألفاظًا أجنبيّة.

[§ ٧٦٨] (٤) أخيرًا يجب أن نضيف خاصيّة الشعوب الأولى، التي سبق أن تحدّثنا عنها في *المنطق الشعري*[٢]، وهي العجز عن تجريد الصفات المتعلّقة بموضوع ما، ولعجزها عن تجريدها فهي لكي تشير إلى الصفات تشير إلى الموضوع نفسه. ولدينا البرهان على ذلك في العديد من التعابير اللاتينيّة.

[§ ٧٦٩] مثال ذلك أنّ الرومان لم يكونوا يعرفون ما هو الترف، وحين رأوه عند *التارنتيين*، سمّوا الرجل المتعطّر *تارنتينو*. وكانوا لا يعرفون ما هي *الاستراتيجيات العسكريّة*، وحين شاهدوها عند القرطاجيّين، سمّوها "*punicas artes*". ولم يكونوا يعرفون ما هو التكبّر، وحين شاهدوه عند الكبوانيّين قالوا "*supercilium capuanicum*"، لقول متكبّر أو متعجرف. كما أن *نوما* و*أنكوس* سمّيا *سابينيّين* لأنّ الرومان كانوا لا

---

(١) § ١٢٥.

(٢) § ٤١٠.

يعرفون كيف يقولون *متديّن*، وكان السابينيّون معروفين بتديّنهم. وكان سيرفيوس توليوس بالنسبة إليهم *إغريقيًا* لأنّهم كانوا لا يعرفون قول *ماكر*، إذ كان المكر فكرة غريبة عنهم ولم يعرفوا التعبير عنه قبل معرفتهم بإغريق المدينة التي أخضعوها والتي سبق الحديث عنها(١). وسُمّي *عبدًا* لأنّهم كانوا لا يعرفون قول *ضعيف*، لأنّه بضعف منه منح للعامّة ملكيّة الحقول بمقتضى القانون الزراعي الأوّل كما أشرنا إلى ذلك سابقًا(٢)، وربّما لهذا السبب تمّ قتله من طرف الآباء. وبالفعل، فإنّ المكر خاصيّة تتبع الضعف، وهما صفتان غريبتان عن الصراحة والشجاعة التي عُرف بهما الرومان. وسنخطئ كثيرًا في حقّ نشأة روما وفي حقّ حكمة رومولوس لو أنّنا قلنا إنّ روما لم تربِّ في حضنها أبطالاً يستحقّون أن يكونوا ملوكًا حقيقيّين، بحيث كان عليها أن تخضع لشرع عبدٍ وضيع: إذ هذا هو الشرف الذي نالته من النقّاد الذين عملوا على الكتّاب فحسب، شرف شبيه بذلك الشرف الآخر، الذي جاء لاحقًا، والذي يقول إنّ الرومان، بعد أن أسّسوا إمبراطوريّة قويّة في اللاتيوم ودافعوا عنها ضدّ كلّ القوّة التوسكانيّة [أي الإتروسكيّة]، كان عليهم أن يذهبوا مثل برابرة لا شرع لهم، عبر إيطاليا واليونان الكبرى واليونان ما وراء البحر، للبحث عن شرائع تمكّنهم من تنظيم حريّتهم، وكلّ هذا لإضفاء الصدق على خرافة تقول: إنّ قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* جاء إلى روما من أثينا.

---

(١) § ٧٦٣.

(٢) §§ ١٠٧، ٤٢٠، ٦١٣، ٦٤٠، ٦٥٣.

[الباب الثاني]

استنتاج
بخصوص مجيء إينياس إلى إيطاليا

[§ ٧٧٠] تبعًا لكلّ ما سبق قوله، بإمكاننا أن نبيّن كيف جاء إينياس إلى روما وأسّس الأمّـة الرومانيّـة بألبا، التي منها يستمدّ الرومـان أصلهم. المدينـة الإغريقيّة الواقعة على ساحل لاتيـوم التي سـبق الحديث عنهـا[1]، كانت مدينـة إغريقيّة من آسـيا، حيث توجد طـروادة، بقيـت مجهولة لدى الرومان إلـى حين مدّوا غزواتهم مـن داخل الأراضي إلى البحـر القريـب. وبـدأوا في فعل ذلك مع أنكوس مارتسيوس، الملـك الثالث للرومان، الذي اسـتولى في البداية على أوسـتيا، المدينة السـاحليّة القريبة جدّاً من روما، حتّى أنّه عندما توسّـعت هذه الأخيرة توسّـعًا كبيرًا جعلت من أوستيا مرفأها. بهذه الطريقة، وكما استقبلوا الأركاديّين اللاتينيّين، الذين كانوا فارّين من داخل الأراضي، فقد تقبّلوا من بعد تحت حمايتهم الفريجيّين، الذين كانوا فارّين جاؤوا من البحر، وبمقتضى الشرع البطولي عنـد الحـرب دمّـروا المدينـة. وهكـذا وجـد الأركاديّـون والفريجيّـون مـلاذًا فـي ملجأ رومولوس، مع فارقيْن زمنيّيْن: وقع تأخير مجيء الأركاديّين وتقديم وصول الفريجيّين.

[§ ٧٧١] ولو أنّ الأمور لم تسر على هذا النحو فإنّ أصل روما المنسوب إلى إينياس يثير الاسـتغراب ويحيّر العقل، مثلما سبق أن لاحظنا ذلك في *المسلّمات*[2]، لذا لكي لا يبقـى مجال للاسـتغراب والحيرة، فإنّ العلمـاء وأوّلهم تيتوس ليفيـوس اعتبروه خرافة، دون التفكير مثلما سـبق أن أشـرنا إلى ذلك في *المسـلّمات*[3]، أنّ الخرافات لها أسـاس عموميّ من الصدق. وبالفعل فإنّ إيفاندروس كان من القوّة في اللاتيوم بحيث استضاف

---

(١) § ٣٠٦، ٧٦٣.

(٢) § ٣٠٧.

(٣) § ١٤٩.

عنده هرقل قبل خمسمئة سنة من تأسيس روما؛ وأسّس إينياس السلالة الملكيّة بألبا، التي بملوكها الأربعة عشر حازت العظمة بحيث صارت عاصمة اللاتيوم. والأركاديّون والفريجيّون بعد أن تشرّدوا طويلا احتموا في النهاية بملجأ رُمولوس! كيف يحدث أنّ رعاة جاؤوا من أركاديا، وهي أرض من داخل بلاد اليونان، لا يعرفون عن البحر شيئًا، تمكّنوا من عبور مساحة كبيرة من المياه وتوغّلوا داخل اللاتيوم، بينما أنكوس مارتسيوس، الملك الثالث بعد رمولوس، كان أوّل من وطّن مستعمرة على الساحل القريب؟ وكيف أمكن لهم أن يذهبوا هناك صحبة الفريجيّين المشتّتين مئتيْ عام قبل أن يتمكّن اسم فيثاغورس الشهير جدّا في اليونان الكبرى حسب قول تيتوس ليفيوس من الوصول من كروتون إلى روما عبر أمم كثيرة ولغات وعادات مختلفة، وذلك قبل أربعمئة عام من معرفة التارنتينيّين بوجود الرومان الذين كانوا بتلك القوّة بإيطاليا؟

[§ ٧٧٢] ومع ذلك، مثلما ذكرنا ذلك عديد المرّات في *المسلّمات*[1]، كان لا بدّ أن يكون لهذه الروايات العاميّة في البداية أساس عمومي من الصدق، بما أنّ أمّة بأكملها احتفظت بها لمدّة طويلة. ما العمل إذن؟ ينبغي القول إنّه وُجدت مدينة إغريقيّة على ساحل اللاتيوم، مثلما وُجدت بعد ذلك مدن أخرى عديدة ودام وجودها على سواحل البحر التّريني؛ وأنّ هذه المدينة هزمها الرومان قبل قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، وتمّ تدميرها بمقتضى العرف البطولي في الانتصارات الهمجيّة، وقُبِل المهزومون باعتبارهم شركاء [*soci*] بطوليّين؛ وأنّ هؤلاء الإغريق سمّوا بصيغ شعريّة «أركاديّين» المتشرّدين أولئك الذين كانوا داخل الأراضي يجوبون الغابات، و«فريجيّين» أولئك الذين كانوا يجوبون البحار، مثلما قال الرومان عن المهزومين الذين استسلموا لهم إنّهم قُبِلوا في ملجأ رمولوس، أي إنّهم استُعمِلوا كعملة يوميّين، حسب نظام الموالي الذي أقامه رمولوس حين فتح في الغاب المقدّس الملجأ لمن يحتمون به. ولا بدّ أنّ العامّة من شعب روما قد وقع تمييزهم عن المهزومين الذين استسلموا، في فترة نفترض أنّها كانت بين طرد الملوك وقانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، بفضل القانون الزراعي الذي سنّه سيرفيوس توليوس، الذي منحهم حقّ الملكيّة النفعيّة للحقول. وكُريولانوس الذي لم يكن موافقًا لذلك الحقّ كان يريد -مثلما سبق ذكره[2]- جعل عامّة روما في نفس وضعيّة

---

(١) § ١٤٩.

(٢) § ١٠٨.

موالـي رُمولـوس. بعـد ذلك، حيـن أذاع الإغريـق في كلّ مـكان بفخر كبيـر قصّة حرب طـروادة وتجـوال الأبطـال، وبإيطاليا قصّـة إينياس، لأنّهـم كانوا قد وجدوا بهـا أبطالهم هرقل وإيفاندروس وكهنتهم، مثلما سبق أن أشرنا إلى ذلك[1]، حدث بعد فترة من الزمن أن تغيّرت هذه الروايات وفي النهاية انتُحِلت لدى شـعب بربريّ، فصار إينياس مؤسّـس الشـعب الرومانـي باللاتيـوم، وهو الذي حسـب بوشـار[2]، لم يضـع أبدًا سـاقه بإيطاليا، وحسـب اسـطرابون[3] لم يخرج أبدًا من طـروادة، بينما هوميـروس[4]، وهو مصدر أكثر ثقلاً، يروي أنّه مات بطروادة تاركًا المملكة لخلفته.

[§ ٧٧٣] وهكـذا، بسـبب غروريْـن مختلفيْن لهاتيْـن الأمّتيْن، الإغريـق الذين ملأوا العالـم بأحـداث حرب طـروادة، والرومـان الذين تفاخـروا بأصل أجنبيّ ذائـع الصيت، أدخـل الإغريـق إينياس إلى إيطاليا، وقبِله الرومان في نهاية الأمر كمؤسّـس لشـعبهم. لا يُمكن لهذه الخرافة أن تكون نشأت إلّا في فترة الحرب ضدّ بيرّوس، عندما بدأ الرومان يُعجبـون بـكلّ ما هـو إغريقي. وهي بالفعل عـادة نجدها عند كلّ الأمـم حين تكون لهم لفترة طويلة علاقات متواترة بالأجانب.

---

(١) § ٧٦١ وما يتبع.

(٢) انظر *Lettre à monsieur de Segrais ou dissertation si Enée a jamais été en Italie* (١٦٦٣) ترجمها إلـى اللاتينيّـة يوهانّس شـيفّر [Johannes Scheffer]، تحت العنوان التالـي: *De quaestione num Aeneas numquam fuerit in Italia* (١٦٧٢).

(٣) *جغرافيا*، XIII، ١، ٥٣.

(٤) *الإلياذة*، XX، ٢٩٣-٣٠٨.

[الباب الثالث]

في تسمية وفي وصف المدن البطوليّة

[§ ٧٧٤] الآن، بما أنّ التصنيف والكوروغرافيا، أي تسمية الأماكن ووصفها، خصوصًا منها المدن، تمثّل جزءًا من الجغرافيا، يبقى لنا أن نتناولها لإتمام دراستنا حول *المعرفة البطوليّة*.

[§ ٧٧٥] كنّا قد رأينا سابقًا[١] أنّ المدن البطوليّة أقامتها العناية الإلهية في أماكن محصّنة طبيعيًّا سمّاها اللاتينيّون في أزمنتهم الألوهيّة بلفظ مقدّس هو *Aras*، وسمّوا كذلك *Arces* تلك الأماكن المحصّنة، لأنّه في زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى]، كانت مقرّات أمراء المُدن تُسمّى بالإيطاليّة *rocche*، من لفظة *rocce* التي تعني الصخور أو المرتفعات الصخريّة الوعرة، ثمّ اتّخذت باللاتينيّة اسم *castella*. بالطريقة نفسها، شمل لفظ *are* كامل تراب كلّ مدينة بطوليّة، الذي مثلما سبق ذكره[٢]، يُسمّى *ager* عندما يعني الحدود مع تراب أجنبيّ، و*territorium* عندما يعني المنطقة المعنية بالقانون المطبّق على المواطنين. وبخصوص هذا كلّه توجد فقرة مهمة عند تاسيتوس[٣] حيث يصف ال *Ara Maxima* لهرقل بروما، والتي نوردها هنا بكاملها لأنّها تدعم بقوّة مبادءنا: «*انطلاقًا من ميدان بواريوم حيث نشاهد صنمًا برونزيًا يمثّل ثورًا، لأنّ هذا النوع من الحيوان هو الذي يجرّ المحراث، اتُّخِذ الأخدود كحدّ للمدينة، بحيث يشمل الهيكل الكبير المكرّس لهرقل، إذ هناك كان يوجد هيكل هرقل*»[٤]. كما توجد فقرة أخرى، لها

---

(١) § ٥٢٥.

(٢) §§ ٥٤٦، ٦١١.

(٣) *الحوليّات*، XII، ٢٤.

(٤) ورد باللاتينيّة: *Igitur a foro boario, ubi aeneum bovis simulacrum adspicimus, quia id genus anialium **aratro** subditur, sulcus designandi oppidi captus, ut magnam Herculis **aram** complecteretur, **ara Herculis** erat.*

الأهميّة نفسها، عند سالّوستيوس[1]، عندما يتحدّث عن *الحارة* الشهيرة للأخوين فيلينس التي بقيت لترسم حدّاً بين إمبراطوريّة قرطاج وإمبراطوريّة برقة.

[§ ٧٧٦] والجغرافيا القديمة مليئة بمثل هذه *الحارات*. وبدءًا بآسيا، فإنّ كيلّر يلاحظ في كتابه *الجغرافيا القديمة*[2]، أنّ جميع مدن سوريا تحمل لفظ *آر* كبادئة أو لاحقة للاسم، بحيث أنّ سوريا كانت تسمّى *Aramea* أو *Aramia*. ولكن في اليونان، أسّس تيزيوس مدينة أثينا فوق مذبح *التعساء* الشهير، معتبرًا عن صواب أنّ «*التعساء*» هم أولئك البشر دون شرع ودون دين الذين فرّوا من صراع مجتمعات الرذيلة[3]، وحيدين وضعفاء تعوزهم المنافع التي منحتها البشريّة للأتقياء، ولجؤوا إلى الأراضي المحصّنة التي على ملك الأقوياء، مثلما سبق أن رأينا ذلك. لذا كان الإغريق يستعملون أيضًا لفظ (ἄρα آرا) لقول *نذر*. وبالفعل، مثلما شرحنا ذلك سابقًا، فوق هذه المذابح الأولى الوثنيّة كانت الضحايا الأولى، أي ما يُسمّى *Saturni hostiae* الذي سبق لنا ذكره[4]، هم ال(αναθέματα، أناثيماتا) الأوائل، أو ما تُرجم باللاتينيّة *Diris devoti*، الذين كانوا الأشرار العنيفين الذين تجرّؤوا على الدخول إلى الأراضي المزروعة على ملك الأقوياء لملاحقة الضعفاء الذين لجؤوا إلى تلك الحقول المزروعة [*campi*] فرارًا من وحشيّتهم، ومن هنا جاء ربّما فعل *campare*، لقول «نجا بحياته». هؤلاء الأشرار كانوا يُقدّمون قربانا لفيستا ويُقتلون، وبقي من ذلك باللاتينيّة لقول «عقاب» و«ضحيّة»، لفظ *Supplicium* الذي يستعمله سَالّوستيوس[5] من بين آخرين. هذان المعنيان باللاتينيّة يجدان ما يوافقهما تمامًا في اللغة الإغريقيّة بما أنّ لفظ (αναθέματα، آناثيماتا)، الذي مثلما رأينا سابقًا يعني *النذر*، يشير في الآن نفسه إلى *noxa*، الذي هو الجسم الذي تسبّب في الضرر، و*Dirae*، أي *الآلهة الغاضبة*. كانوا بالفعل هؤلاء الرجال الأوائل «المنذورين»

---

(١) *حرب يوغرطة*، ٧٩.

(٢) *Notitiae orbis antiqui, sive geographiae plenioris, tomus alter Asiam et Africam continens*، ١٧٠٦.

(٣) أشار فيكو بهذه العبارة عديد المرّات إلى أولئك البشر الذين كانوا يعيشون دون دين أو قانون أو زواج، يتشاركون النساء ويتصارعون ويقتلون الضعفاء ويعيشون حياة شبيهة بحياة الحيوانات.

(٤) §§ ١٩١، ٥١٧، ٥٤٩.

(٥) *Congiura di Catilina*، IX، ٢.

الذين سبق الحديث عنهم، والذين سنتحدّث عنهم مطوّلا في الكتاب الرابع[1]، الذين كانوا يُقدّمون «للآلهة الغاضبة» ويُقتلون فوق المذابح الوثنيّة الأولى. وهكذا فإن لفظ *hara*، الذي بقي لنا للإشارة إلى *القطيع*، كان يعني بالنسبة للرومان القدامى *الضحيّة*. ومن هذا اللفظ جاء دون شكّ لفظ *Aruspex*، أي ذلك الذي يمارس التكهّن بالغيب من خلال التأمّل في أحشاء الضحايا الذين قُتلوا على المذابح.

[§ ٧٧٧] ويُستنتج ممّا سبق قوله بخصوص *الآرا الكبرى* (*Ara Maxima*) لهرقل أنّه على مذبح مماثل لمذبح تيزيوس أسّس رُمولوس روما داخل الملجأ الذي تمّ فتحه في الغاب المقدّس، لأنّ الرومان احتفظوا بالعادة التي تجعلهم لا يتحدّثون أبدًا عن غاب مقدّس دون ذكر المذبح المكرَّس فيه لبعض الآلهة. وهكذا، فإنّ ما قاله بصفة عامّة تيتوس ليفيوس، المذكور أعلاه، من أنّ الملاجئ كانت «الرسم القديم لمؤسّسي المدن»[2]، يُبيّن لنا السبب الذي يجعلنا نجد في الجغرافيا القديمة عديد المدن التي تحمل اسم *Are*. وبهذا، علينا أن نقول أنّ شيشرون[3] لمعرفته بهذه العادة القديمة سمّى مجلس الشيوخ *Ara Sociorum*، لأنّه أمام مجلس الشيوخ كانت الولايات تحمل بصفة جماعيّة شكاويها ضدّ الحكّام الذين ساسوهم بصفة جشعة، مذكّرًا بذلك أنّ أصل الولايات يتكوّن من *الشركاء* [*soci*] الأوائل الذين وُجدوا في العالم.

[§ ٧٧٨] وهكذا نكون قد أقمنا الدليل على أنّ المدن البطوليّة بآسيا، وخاصة أوروبا، باليونان وبإيطاليا، كانت تُسمّى *Are*. بإفريقيا، حسب قول سَالّوستيوس، بقي شهيرًا *آر* [أي مذبح] الأخوين فيلينس المذكور أعلاه[4]. وبالشمال إن عدنا للحديث عن أوروبا، لا يزال يُطلق اسم *Are de' Cicoli*، أي «مذبح السيكول»، بترانسيلفانيا، على المُدن التي تقطنها أمّة قديمة من الهون، تتكوّن جميعها من أشراف فلاّحين ورعاة، والذين مع المجريّين والسكسون، يكوّنون ولاية. وبألمانيا، عند تاسيتوس[5]، نجد ذكرًا لـ *Ara*

---

(١) § ٩٥٧ وما يتبع.

(٢) *vetus urbes condentium consilium*، مذكور § ٥٦١.

(٣) *In verrem*، II، ٤٨، ١٢٦.

(٤) § ٧٧٥.

(٥) *الحوليّات*، I، ٥٧.

degli Ubj (أي مذبـح الأوبيّين). وبإسـبانيا لا تـزال توجد العديد من المدن التي تحمل في أسـمائها لفظ *آرا*. أمّا في اللغة السـريانيّة فإنّ لفظ *Ari* يعني «أسـد»، وقد سـبق أن بيّنّا أنّه في اللاهوتيّة الطبيعيّة الخاصّة بالآلهات الكبرى الاثنتي عشـرة، تصوّر الإغريق فكرة الإله مارس، الذي يُسـمّى عندهم «Αρης، آريس»، انطلاقا من الدفاع عن المذابح. لذا، بحسـب فكرة القوّة هذه، نرى في فترة عودة البربريّة [القرون الوسـطى] عديد العائلات النبيلة تضع في شـعاراتها رسـم أسد مسلّح. هذا اللفظ *ara* – الذي يتماثل نطقه ودلالته لدى العديد من الأمم المنفصلة والبعيدة عن بعضها البعض مسـافات شاسـعة في الزمان والمكان والعادات – أعطى للّاتينيّين لفظ *aratrum* (المحراث)، الذي يُسـمّى تقوّسـه *urbs* (مُـدن). وعنـد اللاتينيّين أنفسـهم يكـون للّفظيْن *arx* و*arceo* الأصل نفسـه، ومنه جـاءت عبـارة *ager arcifinius* عنـد الكتّاب الذين يتحدّثون عـن *limitibus agrorum* [حـدود الحقـول]، وكذلك *arma* و*arcus*، التي تجعل القوّة تكمن في صدّ الاعتداءات وإبقائها بعيدًا.

[خلاصة]

[§ ٧٧٩] وهكذا أظهرنا أنّ المعرفة الشعريّة تستحقّ الثناء مرّتيْن لأمريْن أساسيّيْن. أوّلهما، أنها بصفة مؤكّدة ودائمة أسّست الجنس البشري في عصر الوثنيّة، وهو ثناء شاء نوعان من الغرور، غرور الأمم وغرور العلماء، مع تأكيده لها أن يرفضوه، الأوّل بسبب خيلاء عقيم، والثاني بسبب حكمة فلسفيّة في غير محلّها. وثانيهما: هو الذي وصلتنا بخصوصه رواية عاميّة، وهو أنّ معرفة القدامى جعلت من حكمائها بالقريحة نفسها عظماء على السواء كفلاسفة ومشرّعين وقادة ومؤرّخين وخطباء وشعراء، ولذا فهي محلّ بحث مستمرّ. ولكنّها خلقتهم أو بالأحرى رسمتهم بخطوط عريضة كما وجدناهم في الأساطير، التي اكتشفنا أنّه بدأت فيها، كما في الأجنّة أو الأرحام، كلّ المعرفة الباطنيّة. يمكن القول إنّه في هذه الأساطير وصفت الأمم بخشونة، من خلال الحواسّ البشريّة، مبادئ عالم المعرفة، الذي أنارته لنا أفكار العلماء فيما بعد بالبراهين والحقائق العامّة. كلّ هذا يظهر ما يجب أن يكون في هذا الكتاب [الثاني]، أي أنّ الشعراء اللاهوتيّين كانوا الحسّ وأنّ الفلاسفة كانوا الفكر لهذه المعرفة البشريّة.

الكتاب الثالث

اكتشاف هوميروس الحقيقي

[القسم الأوّل]

البحث عن هوميروس الحقيقي

[تمهيد]

[§ ٧٨٠] كنّا قد أوضحنا في الكتاب السابق أنّ المعرفة الشعريّة كانت المعرفة العاميّة لشعوب اليونان، الذين كانوا في البداية شعراء لاهوتيّين وبعد ذلك شعراء بطوليّين، ما يحتّم كنتيجة ضروريّة أنّ معرفة هوميروس لم تكن بتاتًا ذات طبيعة مختلفة. ومع ذلك، بما أنّ أفلاطون رسّخ بقوّة في الأذهان الرأي القائل بأنّ هوميروس كان يحظى بمعرفة باطنيّة، وقد تبعه في هذا الرأي دون تردّد جميع الفلاسفة، وأوّلهم فلوطرخس الذي ألّف كتابًا في هذا الخصوص[1]، فإنّنا سنتولّى هنا بالخصوص التحقّق إنْ كان هوميروس فيلسوفًا على الإطلاق. وقد ألّف ديونيسوس لونجينوس كتابًا حول مسألة الشكّ هذه، ذكره ديوجيني لايرتسو في كتابه *Vita di Pirrone* [سيرة بيرّوني].

(١) *De vita et poësi Homeri*، وهو كتاب منسوب لفلوطرخس وبالأحرى منتحل.

[الباب الأوّل]

في المعرفة الباطنيّة المنسوبة إلى هوميروس

[§ ٧٨١] لنعط لهوميروس ما هو بالضرورة له، أي أنّه اتّبع المشاعر العاميّة كليًّا، بالإضافة إلى العادات العاميّة لليونان المتهمّج في زمنه، بما أنّ هذه المشاعر وهذه التقاليد العاميّة توفّر للشعراء مادّة أشعارهم. وعليه فلنقبل ما يرويه من أنّ الآلهة تُقدّر مقاماتها بحسب قوّتها: لذا فإنّ جوبيتر يريد من خلال إظهار قوّته، في خرافة السلسلة الكبيرة، أنّه ملك البشر والآلهة، مثلما سبق أن أشرنا إلى ذلك[١]. وبالاستناد إلى هذا الرأي العامّي، فهو يجعل قابلا للتصديق أنّ ديوميد جرح فينوس ومارس[٢]، بفضل المساعدة التي وفّرتها مينيرفا، التي في صراع الآلهة تعرّي فينوس وتضرب مارس بحجر[٣]، هذه هي مينيرفا التي في المعتقد الشعبي هي ربّة الفلسفة وهذه هي الأسلحة التي تستعملها والجديرة بحكمة جوبيتر! ولنقبل أنّه يروي هذه العادة القاسية جدّاً - المعاكسة جدّا للعادة التي يزعم الكتّاب في القانون الطبيعي أنّ الأمم مارستها فيما بينها - والتي كانت جارية كثيرًا لدى الشعوب المتهمّجة جدّا باليونان، هذه الشعوب التي يُعتقَد أنّها نشرت الحضارة عبر العالم، تلك العادة التي تتمثّل في تسميم النّبال، وقد ذهب أوليس بهذه النيّة إلى إيفيرا ليجد عندها الأعشاب السامّة[٤]، أو التي تتمثّل في عدم دفن الأعداء الذين يُقتلون في المعركة بل في تركهم دون دفن لتقتات من جثثهم الغربان والكلاب، وهذا ما حدث لبريام المسكين الذي اضطرّ إلى فدية جثة هيكتور من أخيل الذي كان قد ربطه عاريًا إلى عربته طيلة ثلاثة أيام حول أسوار طروادة.

---

(١) § ٣٨٧.

(٢) *الإلياذة*، V، ٣٣٠-٣٤٠ و٨٥٥-٨٦١.

(٣) نفسه، XXI، ٤٠٣-٤٠٨ و٤٢٤-٤٢٦.

(٤) *الأوديسا*، I، ٢٥٧-٢٦٢.

[§ ٧٨٢] ولكـن، بمـا أنّ غاية الشـعر هي ترويض وحشـيّة العامّة الذي كان الشـعراء بارعيـن جـدّاً فيه، ليس مـن حكمة الرجل أن يثير في العامّة الإعجاب بمشـاعر وبعادات بهذه الوحشـية، لكي يسـتمتعوا بها ولكي يصيروا بسبب تلك المتعة متشوّقين دائمًا أكثر لهـا. وليـس مـن حكمـة الرجـل أن يثير لدى السـوقي الخسـيس المتعـة بفظاظـة الآلهة والأبطـال. وعلـى سـبيل المثال، نقرأ في صراع الآلهة أنّ مارس شـتم مينيرفـا ناعتًا إيّاها *بذبابـة كلاب*[١]، وأنّ مينيرفـا لكمت ديانا[٢]، وأنّ أخيـل وأغاممنون، الأوّل أعظم أبطال اليونـان والثانـي زعيـم الرابطـة الإغريقيّـة، والاثنان ملـكان، يتسـابّان ويتشـاتمان بنعت أحدهمـا الآخـر بالكلب[٣]، أشـياء لا يجرؤ على التفوّه بها حتّى الخدم في المسـرحيّات الكوميديّة.

[§ ٧٨٣] ولكن، باسـم الربّ، أيّ اسـم أكثر ملاءمة من «الحمق» يُمكن أن تسـتحقّه حكمـة زعيمـه أغاممنون، الذي أجبره أخيل على القيام بواجب إعادة كريزياس إلى أبيها كريزس، كاهن أبولّو الإله الذي بسبب ذلك الاختطاف اجتاح الجيش الإغريقي بطاعون رهيب[٤]؟ أغاممنون ذاك، معتبرًا أنّ ذلك الأمر ألحق به إهانة، ظنّ أنّه سيستـعيد شـرفه بإقامة عدالة تتماشـى مع ذلك النوع من الحكمة باختطاف بريزياس من أخيل دون وجه حـقّ[٥]، بينمـا كان مصير طروادة بين يديْه، بحيث أنّ هذا الأخير رحل مع سـفنه وأناسـه ممتعضًـا؛ وأنّ هيكتـور قضـى علـى الإغريـق الذيـن نجـوا مـن الطاعـون! هـذا هـو إذن هوميـروس، الـذي اعتقد الجميع إلى الآن أنّه كان باني المؤسّسـات الإغريقيّة، أو بعبارة أخـرى الحضـارة اليونانيّة، والذي ينطلق من مثل هذه الحادثة لينسـج *الإلياذة* كلّها، التي مـن بيـن أهـمّ شـخصيّاتها نجد قائدًا مـن هذا النوع وبطـلا كما كان أخيل الذي سـبق أن تحدّثنـا عنه في *بطولـيّة الشـعوب الأولـى*[٦]! هذا هو، مثلما سـنبيّن لاحقًا[٧]، هوميروس

---

(١) *الإلياذة*، XXI، ٣٩٤.

(٢) نفسه، XXI، ٤٢٤.

(٣) نفسه، I، ٢٢٥.

(٤) نفسه، ٣٦٩-٣٩٠.

(٥) نفسه، I، ١٨٤-١٨٧ و٣٢٢-٣٢٥

(٦) § ٦٦٧.

(٧) § ٨٠٦-٨٠٩.

الذي لا يوجد مثله في خلق الشخصيّات الشعريّة، التي لا تتماشى الرئيسيّة منها تمامًا مع الطبيعة المدنيّة التي هي طبيعتنا، ولكنّها تتلاءم تمامًا بالنظر إلى الطبيعة البطوليّة التي يتميّز بها أولئك الرجال المتغطرسون، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[1].

[§ ٧٨٤] وما القول بعد هذا بخصوص ما يرويه من بعد، من أنّ أبطاله يلتذّون كثيرًا باحتساء الخمر، وحين يكونون كسيري الفؤاد، يجدون عزاءهم كلّه في الثمل، وأوّلهم في هذا أوليس الحكيم؟ يا لها من تعاليم عزاء رائعة، وبحقّ جديرة بفيلسوف!

[§ ٧٨٥] وكون التشبيهات جميعها تقريبًا مستمدّة من الحيوانات ومن أشياء أخرى وحشيّة، فهذا ما يفطر فؤاد سكاليجر[2]. وحتّى إن قبلنا بأنّ ذلك كان ضروريًّا لهوميروس لكي يفهمه جيّدًا العامّي الفظّ والمتوحّش، فإنّ توصّله إلى ذلك بهذا النجاح، لأنّ تشابيهه لا مثيل لها، غير ناتج حتمًا عن فكر هذّبته ومدّنته فلسفة ما. والأسلوب الشرس والمتوحّش الذي يصف به معارك مختلفة ضارية ودمويّة، وأنواعًا مختلفة من التقتيل الوحشي كلّها مصوّرة بصفة مشطّة، وهي التي تخلق روعة *الإلياذة* بالخصوص، لا يُمكن أن ينتجها فكر جعلته فلسفة ما إنسانيًّا ورحيمًا.

[§ ٧٨٦] من ناحية أخرى، فإنّ المثابرة التي تنشأ وتتقوّى من خلال دراسة حكمة الفلاسفة، لا يُمكنها أن تتصوّر آلهة وأبطالاً بتلك الخفّة، البعض منهم مهما كان تأثّرهم وارتباكهم يهدؤون ويرتاحون لأقلّ سبب معاكس؛ والبعض الآخر، الذين يغلي فيهم فوران الغضب، ينفجرون بدموع مرّة إذا جالت بخاطرهم ذكرى حزينة. بالطريقة نفسها، عند عودة البربريّة بإيطاليا (أي في القرون الوسطى)، التي ظهر في نهايتها دانتي، الهوميروس التوسكاني، الذي أنشد هو الآخر العديد من القصص، نقرأ أنّ كولا دي ريانتسو، الذي سبق أن قلنا[3] إنّ *حياته* تمثّل بصورة طبيعيّة عادات أبطال اليونان كما صوّرها هوميروس، بينما كان يتحدّث عن الوضع التعيس لروما المضطهَدة من طرف قوى تلك الأزمنة، أخذ هو وأولئك الذين يتحدّث إليهم في الانتحاب بدموع غزيرة.

---

(١) § ٦٦٧؛ انظر كذلك § ٩٢٠.

(٢) يوليوس سيزار سكاليجر [١٤٨٤-١٥٥٨]، علّامة من أصل إيطالي، مؤلّف *Poetices libri septem*، ١٥٤١.

(٣) § ٦٩٩.

وآخـرون، علـى العكـس، كانـت نفوسـهم تتألّم مـن عذاب شـديد، عند تذكّـر لحظات سـعيدة، مثـل المأدبـة التـي أقامها ألكينوس على شـرف أوليس، ينسـون تمامًا مآسـيهم ويستسـلمون بالكامـل إلـى الغبطة. وآخرون، فـي تمام الراحة والهدوء، حين يسـمعون أحـدًا يتفـوّه بـكلّ بـراءة بكلمـة لا توافـق مزاجهـم، يتوتّـرون ويتملّكهـم غضب شـديد ويتوعّـدون علـى الفـور بموتة فظيعة ذاك الـذي تفوّه بتلك الكلمة: هكذا، حين اسـتقبل أخيـل فـي خيمتـه بريـام، الذي تحـت حماية ميركـور جاء وحـده إلى معسـكر الإغريق لافتـداء جثّـة هيكتـور، مثلمـا سـبق أن ذكرنا ذلـك[١]، دعاه إلى العشـاء، وبسـبب كلمة واحـدة لـم تعجبـه نطقَ بها دون وعي ذلـك الأب التعيس وهو يندب ابنًا بتلك البسـالة، تملّك أخيل غضب شـديد وتوعّده بقطع رأسـه[٢]، ناسـيًا تمامًا عُرف الضيافة المقدّس، دون أن تثنـي عزمـه الثقـة التـي جاء بهـا بريام إليـه لأنّه لا يثـق بأحد غيـره، ودون التأثّر بالمصائب المهولة التي حلّت بذلك الملك، ودون الإشفاق على ذلك الأب، والتقدير الواجب تجاه رجل عجوز، ودون التفكير في مصيريْهما المشـترك، بينما لا يوجد شـيء آخـر أكثـر مدعـاة للشـفقة. أخيـل هـذا بالذات الـذي يتعنّـت بجحـود رافضًا مسـامحة أغاممنـون بشـأن مهانة شـخصيّة تجاهه، مهانة كان من غير العـادل الثأر لها - مهما كان خطرهـا- بتدميـر وطنه وأمّته كاملة، ويتلذّذ وهو الذي يُمسـك بيـن يديْه مصير طروادة، برؤيـة جميـع الإغريق يُقتلون ويُهزمون هزيمة نكراء علـى يد هيكتور. فلا حبّ الوطن، ولا مجـد أمّتـه يدفعانـه إلـى نجدتهمـا، ولا يفعـل ذلـك أخيـرًا إلّا لإرضاء رغبـة انتقام شـخصيّ حيـن قتل باريدس صديقه باتروكل! وحتّى بالموت فـإنّ الغضب الذي تملّكه لفقـدان بريزايـس لـم يهـدأ إلّا حين قُتلت بوليكسـان الفتـاة المسـكينة والجميلة من دم ملكـيّ، التابعـة لأسـرة بريام المحطّمة، ذاك الـذي كان قبل فترة ثريًّـا وقويًّا والذي صار بعد ذلك عبدًا بائسًـا، لتُقدّم قربانًا على قبره وحين شـرب رماده المتعطّش من دمها إلى آخر قطرة. ولن نقول شيئًا عمّا يصعب حتّى فهمه، وهو كيف يُمكن لمن يتسلّى بابتكار خرافـات جديـرة بالعجائـز لتسـلية الصغـار، مثل تلك التـي ملأ بها هوميـروس ملحمته الأخرى، *الأوديسّا*، أن تكون له أفكار رصينة ومفيدة كتلك التي لفيلسـوف؟

---

(١) § ٦٦٧، ٧٨١.

(٢) *الإلياذة*، XXIV، ٥٥٢-٥٧٠.

[§ ٧٨٧] تلك العادات الخشنة والريفيّة والمتوحّشة والمتغيّرة، غير المعقولة أو العنيدة بصفة لا معقولة، والخفيفة والحمقاء، مثل تلك التي رأيناها في الكتاب الثاني، ضمن *الاستنتاجات حول الطبيعة البطوليّة*[1]، لا يُمكن أن تكون إلاّ لرجال شبيهين بالأطفال لضعف عقولهم، وبالنساء لقوّة مخيّلتهم، وللشبّان العنيفين بدافع أهوائهم الجامحة: لذا علينا نفي أن تكون لهوميروس معرفة باطنيّة. هذه الاعتبارات هي التي أنشأت لدينا في المحلّ الأوّل الشكوك التي تدفعنا إلى البحث عن هوميروس الحقيقي.

---

(١) § ٦٦٦-٦٧٦.

[الباب الثاني]

حول موطن هوميروس

[§ ٧٨٨] تلك كانت إذن المعرفة الباطنيّة المنسوبة إلى الآن لهوميروس. لنر الآن ما يمكن قوله عن موطنه. كلّ المدن الإغريقيّة تقريبًا تتنازعه في هذا الخصوص، بل وهناك من الكتّاب حتّى من أراده إغريقيًّا من إيطاليا، حتى أنّ ليوني ألآتشي[1] يتحمّل دون جدوى عناء كبيرًا لتحديد موطنه في كتابه *De patria Homeri* (حول موطن هوميروس). ولكن بما أنّه لم يصلنا كاتب أقدم من هوميروس، مثلما يؤكّد ذلك يوسيفوس تأكيدًا قاطعًا ضدّ النحويّ أبيون[2]، وأنّ الكتّاب ظهروا بعده بزمن طويل، فنحن مضطرّون لاستعمال نقدنا الميتافيزيقي[3]، بتناوله كما لو كان مؤسّس أمّة، وقد اعتُبر من ناحية أخرى أنّه كان مؤسّس الأمّة الإغريقيّة، لكي نكتشف عند هوميروس نفسه الحقيقة سواء عن سنّه أو عن موطنه.

[§ ٧٨٩] بخصوص هوميروس مؤلّف *الأوديسّا*، نعرف بالتأكيد أنّه أصيل غرب اليونان، نحو الجنوب، بفضل تلك الفقرة[4] التي يمنح فيها ألكينوس، ملك الفيكسيّين في ما هو اليوم جزيرة كورفو، سفينة مع طاقم جيّد من الملاّحين المتآلّفين من رعاياه، الذين قال عنهم إنّهم بحّارة ذوو خبرة كبيرة باستطاعتهم أن يقودوه، إن كان ضروريًّا، حتّى إلى وابية أو نيغروبوز، وهي أرض بعيدة حسب أولئك الذين صادف أن رأوها، أشبه شيء بـ «تولي النائية» في العالم الإغريقي. تظهر هذه الفقرة بكلّ وضوح أن هوميروس *الأوديسّا* هو غير هوميروس مؤلّف *الإلياذة*. وبالفعل، فإنّ وابية ليست بعيدة

(١) Leone Allacci (١٥٨٦-١٦٦٩)، علامّة ولاهوتيّ وُلد بكيو. يعود تاريخ كتابه *De patria Homeri* (حول موطن هوميروس) إلى سنة ١٦٤٠.

(٢) §§ ٦٦، ٤٢٩.

(٣) § ٣٤٨.

(٤) *الأوديسّة*، VII، ٣٢١-٣٢٣.

جـدّاً عـن طروادة، التي تقع بآسـيا على ضفاف *هلّيسـبونت*، في المضيـق الذي توجد به الآن قلعتـان تسـميّان دردنيل، اللتان احتفظتا إلى هذا اليوم باسـم يسـتمدّ أصله من لفظ *دردانيا*، والـذي كان قديمًـا تراب طروادة. وما هـو مؤكد أنّنا نقرأ عند سـينيكا[1] أنّه كان هناك نقاش شـهير بين النحويّين اليونانيّين لمعرفة إن كانت *الإلياذة* و*الأوديسّـا* للمؤلّف نفسه.

[§ ٧٩٠] والنـزاع بيـن المـدن اليونانيّـة للحصـول على شـرف أن يكـون هوميروس مواطنًـا لهـا متأتّ من كـون جميعها تقريبًا تلاحظ في قصائده كلمـات أو جملاً أو تعابير باللكنة تنتمي إلى كلّ واحدة منها.

[§ ٧٩١] وعليه فإنّ كلّ ما سبق قوله هنا مفيد لاكتشاف هوميروس الحقيقي.

---

(١) *De brevitate vitae*، ١٣، ٢-٣.

[الباب الثالث]

حول عصر هوميروس

[§ ٧٩٢] لتحديد عصر هوميروس، بإمكاننا الاعتماد على المواضع التالية من ملحمتيْه.

١

[§ ٧٩٣] أخيل، أثناء مراسم دفن باتروكل، يُظهر كلّ الألعاب تقريبًا التي سيمارسها اليونان بعد ذلك في الألعاب الأولمبيّة وهو في أوج حضارته[١].

٢

[§ ٧٩٤] إنّ فنّ صهر النقوش ونحت المعادن كان قد ظهر من قبل، مثلما نرى ذلك من بين أشياء أخرى، في ترس أخيل الذي سبق ذكره[٢]. أمّا الرّسم فلم يُكتشف بعد. ذلك أنّ فنّ الصّهر يجرّد المساحات ببعض البروز، والنحت يفعل الشيء نفسه ببعض العمق، بينما الرسم يجرّد المساحات المطلقة، وهو عمل صعب جدّاً يقتضي ذكاءً كبيرًا، بحيث لا هوميروس ولا موسى يذكران أبدًا أشياء مرسومة، وهو برهان على قِدمهما الموغل في الزمن!

٣

[§ ٧٩٥] إنّ روعة بساتين ألكينوس، وفخامة قصره وترف مآدبه تدلّ على أنّ الإغريق كانوا آنذاك معجبين بالترف والفخامة.

---

(١) § *الإلياذة*، XXIII، ٢٥٧ وما يتبع.

(٢) §§ ٦٨١-٦٨٦.

٤

[§ ٧٩٦] كان الفينيقيّون قد حملوا إلى سواحل اليونان العاج والديباج والبخور العربي الذي يعطّر مغارة فينوس، وكذلك الكتّان الأرقّ من قشرة بصلة[١]، والأثواب المطرّزة، ومن بين هدايا الراغبين في التزوّج فستانًا لبينيلوب، تشدّه آلية متكوّنة من لوالب دقيقة جدّاً توسّعه في الأنحاء العريضة وتضيّقه في الأنحاء النحيفة[٢]. يا لها من تقنية جديرة برخاء أزمنتنا!

٥

[§ ٧٩٧] إنّ عربة بريام التي يستقلّها للذهاب إلى أخيل مصنوعة من لوح الحور، وكهف كاليبسو لا يزال يعبق بعطره، وهو علامة على رقّة حسّية كان يجهلها رخاء الرومان، حتّى عندما كانوا يبذّرون بجنون مواردهم على أسباب الترف، مثل آل نيرون وهيليوغبال.

٦

[§ ٧٩٨] نجد وصفًا لحمّامات فاخرة عند سيرس.[٣]

٧

[§ ٧٩٩] كان العبيد الشبّان المصاحبون للراغبين في الزواج من بينيلوب في غاية الجمال والأناقة، وشعرهم أشقر مثلما يتطلّبه الذوق عندنا في الوقت الحاضر.

٨

[§ ٨٠٠] يعتني الرجال بشعرهم مثلما تفعل النساء، وهو ما كان يعيبه هيكتور وديوميد على باريس المتخنّث.[٤]

---

(١) *الأوديسا*، XIX، ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) نفسه، ٢٩٢-٢٩٤.

(٣) نفسه، X، ٣٦٠ وما يتبع.

(٤) *الإلياذة*، III، ٥٥؛ XI، ٣٨٥-٣٨٩.

٩

[§ ٨٠١] يصف هوميروس أبطاله وهم يقتاتون دائمًا باللحم المشوي، وهو الطعام الأبسط والأيسر في التحضير، إذ لا يتطلّب سوى الجمر. وبقي استعماله من بعد في القرابين، وبقي للرومان من هذه العادة لفظ *Prosjicia* للإشارة إلى لحوم الضحايا المشويّة على المذابح، التي تقطع بعد ذلك وتُوزّع على الضيوف، حتّى وإن شُويت بعد ذلك مثل اللحوم غير المكرّسة، على السفافيد. وهذا ما جعل أخيل، حين قدّم العشاء لبريام، يقطع الضأن الذي شواه بعد ذلك باتروكل، ثمّ جهّز المائدة ووضع فوقها الخبز في سلال: لأنّ الأبطال كانوا لا يقدّسون مأدبة لا تكون فيها قرابين يكونون فيها هم كهنتها. وبقي من هذا عند اللاتينيّين لفظ *epulae*، الذي يشير إلى مآدب فخمة يقدّمها بالخصوص الأعيان *epulum*، وهي مأدبة عامّة تُقدّم للشعب، و*المأدبة المقدّسة*، التي يشترك فيها الكهنة المسمّون *epulones*. لذا يقتل أغاممنون نفسه الحمليْن اللذين تُكرّس التضحية بهما حلف الحرب مع بريام[1]. تلك كانت في ذلك الزمن فخامة تلك الفكرة، التي تبدو لنا الآن جديرة بقصّاب! أمّا اللحوم المسلوقة التي تحتاج علاوة على النار إلى الماء وإلى قدر وأيضًا إلى أثفية، فقد جاءت في وقت لاحق. وفرجيل يطعم منها أبطاله، ويجعلهم يشوون لحومهم بسفود. أخيرًا جاءت اللحوم المتبّلة، التي علاوة على كلّ ما سبق ذكره تحتاج إلى التوابل. ولكي نعود الآن إلى الولائم البطوليّة عند هوميروس، ومع أنّ قوت الأبطال الإغريق الأكثر ترفًا الذي يصفه هو الحنطة المخلوطة بالجبن والعسل[2]، إلاّ أنّه يستعمل الصيد البحري للقيام ببعض التشبيهات. وأوليس، الذي يتظاهر بالفقر ويطلب الصدقة من أحد الراغبين في الزواج، قال له إنّ الملوك الكرماء، أي الذين يشفقون على المسافرين المحتاجين، تعطيهم الآلهة بحارًا مليئة بالأسماك، غنيّة بالسمك الذي هو أطيب الأطعمة في الولائم.[3]

١٠

[§ ٨٠٢] أخيرًا، وهو ما يهمّنا أكثر في هذا الخصوص، يبدو لنا أنّ هوميروس جاء في أزمنة كانت قد سقطت فيها الحقوق البطوليّة باليونان وحين بدأت ممارسة الحريّة

---

(١) نفسه، III، ٢٧١ وما يتبع.

(٢) *الإلياذة*، XI، ٦٢٨، ٦٣٩؛ *الأوديسّة*، X، ٢٣٤-٢٣٥؛ XX، ٦٩.

(٣) *الأوديسّة*، XIX، ١١٣.

الشعبيّة، لأنّ أبطاله يتزوّجون بأجنبيّات وأبناء الزنى يصلون إلى وراثة المُلك. ومن الضروري أن يكون الأمر على هذا الحال، بما أنّه منذ زمن بعيد نجد هرقل مطليًّا بدم السنتور الفظيع نيسّوس، ولذلك ثارت ثائرته من الغضب ومات، وهو يعني، مثلما سبق أن فسّرنا ذلك في الكتاب الثاني، نهاية الحقّ البطولي.

[§ ٨٠٣] لذا، ولأنّنا لا نريد بتاتًا بخصوص تحديد زمن هوميروس أن نتجاهل *السلطة*، بمقتضى كلّ الأشياء التي تمّ جمعها ومعاينتها في قصائده نفسها، بأكثر قدرًا في *الإلياذة* منه في *الأوديسّا*، التي ألّفها هوميروس وهو متقدّم في السنّ، حسب قول ديونيسوس لونجينوس، فإنّنا نؤكّد رأي القائلين بأنّ الزمن الذي عاش فيه جاء بعد حرب طروادة بمدّة طويلة. هذه المدّة تمتدّ على أربعمئة وستّين سنة، وتصل تقريبًا إلى زمن نوما[1]. ونحن نوافقهم أكثر من حيث إنّنا لا نضعه في أزمنة أقرب إلينا: لأنّه يُقال إنّه بعد أزمنة نوما فتح بسمّاتيك مصر للإغريق[2] الذين كانوا قد فتحوا اليونان للتجارة مع الفينيقيّين حسب فقرات عديدة من *الأوديسّا* خاصة، وكانت روايات هؤلاء، إضافة إلى بضائعهم، تُثير استمتاع الشعوب الإغريقيّة، مثلما يفعل الأوروبيّون اليوم بما يصلهم من بلدان الهند. وبإمكاننا أن نوفّق بين شيئيْن، أوّلهما أنّ هوميروس لم يشاهد قطّ بلاد مصر، ويروي العديد من الأشياء عن مصر وليبيا وفينيقيّة وآسيا، وخصوصًا عن إيطاليا وصقليّة، بفضل الروايات التي قصّها الفينيقيّون على الإغريق.

[§ ٨٠٤] ولكنّنا لا نرى كيف تتماشى كلّ هذه العادات المترَفة مع تلك المتوحّشة والقاسية التي يرويها في الوقت نفسه عن أبطاله، وبخاصّة في *الإلياذة*، «*و بما أنّ القسوة لا تمتزج بالعذوبة*»[3]، يبدو أنّ هذه القصائد قد أُلّفت وحُرّرت في فترات مختلفة وعلى أيدٍ متعدّدة.

[§ ٨٠٥] وهكذا، مع ما سبق ذكره عن موطن وعن زمن هوميروس حسب ما اعتقدناه إلى الآن، فإنّ الشكوك تتزايد في البحث عن هوميروس الحقيقي.

---

(١) انظر في هذا الخصوص § ٨٦٥.

(٢) انظر §§ ٤٨، ٩٠.

(٣) ورد باللاتينيّة: *ne placidis coëant immitia*، هوراثيوس، *الفنّ الشعري*، ١٢.

[الباب الرابع]

في سموّ موهبة هوميروس الشعريّة البطوليّة

[§ ٨٠٦] إنّ غياب الفلسفة الذي سبق أن أظهرناه عند هوميروس، واستكشافاتنا بخصوص موطنه وزمنه، التي تدفعنا إلى الظنّ بأنّه كان بكلّ بساطة رجلا من العامّة، يجد تأكيدًا ثابتًا في الصعوبة التي ذكرها هوراثيوس في كتابه «*فنّ الشعر*»، بخصوص الإمكانيّة - بعد هوميروس- في خلق شخصيّات تراجيديّة جديدة بالكامل، بحيث ينصح الشعراء باختيارها من قصائد هوميروس. الحال هو أنّ هذه الصعوبة الكبيرة تتزامن مع كون شخصيّات الكوميديا الجديدة مبتكَرة بالكامل، بل وكان هناك قانون بأثينا يقضي بأن تُقدّم الكوميديا الجديدة في المسارح بشخصيّات خياليّة تمامًا، وقد برع الإغريق في ذلك إلى حدّ أنّ اللاتينيّين، بكلّ مزاعمهم، كانوا في يأس من القدرة على منافستهم، قائلين مع فابيوس كوينتيليانوس «*بخصوص الكوميديا، لا قدرة لنا على منافسة الإغريق*»[1].

[§ ٨٠٧] إلى هذه الصعوبة التي أشار إليها هوراثيوس، نضيف اثنتين أخريَيْن أكثر أهميّة. وقبل كلّ شيء، كيف حدث أنّ هوميروس، وهو أوّل من جاء، كان شاعرًا بطوليًّا لا يضاهيه أحد، بينما التراجيديا، التي نشأت من بعد، كانت لها بدايات فظّة كما يعلم الجميع وكما سنبيّن ذلك لاحقًا وبأكثر تفصيلا[2]؟ ومن جهة أخرى، كيف يمكن لهوميروس، الذي جاء قبل الفلاسفة وقبل الفنون الشعريّة والنقديّة، أن يكون الأسمى من بين الشعراء الأكثر سموّاً، أي الشعراء البطوليّين، وأنّه بعد ابتكار الفلسفة والفنون الشعريّة والنقديّة، لم يُوجد شاعر تمكّن من اقتفاء أثره إلّا عن بعد؟ ولكن، مع ترك الصعوبتيْن اللتيْن جئنا بهما، فإنّ الصعوبة التي ذكرها هوراثيوس مع ربطها بالصعوبة

---

(١) ورد باللاتينية: *cum Graecis de Comoedia non contendimus*، في *مواقف في الخطابة*، XII، ١٠، ٣٨.

(٢) § ٩١٠.

التـي تحدّثنـا عنهـا بخصوص الكوميديـا الجديـدة، كان ينبغي أن تحثّ أمثال باتريتسـي وسـكاليجر كسـتالفيترو[1] ومعلّميـن قديرين آخريـن في الفنّ الشـعري على البحث عن السبب في هذا الاختلاف.

[§ ٨٠٨] لا يُمكن إيجاد هذا السبب سوى في أصل الشعر، الذي سبق التعرّف عليه في باب *المعرفة الشـعريّة*، وفي اكتشـاف الشـخصيّات الرمزيّة الشعريّة[2] بعد ذلك، التي فيها وحدها يكمن جوهر الشـعر نفسـه. ذلك أنّ الكوميديا الجديـدة تعرض علينا صورًا من عاداتنا الإنسانية الحاضرة، التي انكبّت عليها بالدرس الفلسفة السقراطيّة التي مكّنت مبادؤها العامّةُ المتخصصة في الأخلاق الإنسـانيّة الشـعراءَ اليونانيّين المتعمّقين في هذا المذهب – مثل ميناندروس الذي مقارنة به سُمّي تيرانسيوس من طرف اللاتينيّين «نصف ميناندروس – مـن تصـوّر بعض الأمثلة السـاطعة من أنماط بشـريّة مثاليّة، تَقـدِر بنورها وروعتهـا أن توقـظ العامّة الذين يتجاوبون طواعية للتعلّم مـن خلال أمثلة مؤثّرة بقدر ما يعجزون عن ذلك من خلال المبادئ الفكريّة. كانت الكوميديا القديمة تختار أغراضًا أو مواضيع واقعيّة، وتعرضها على المسـرح كما هي، مثلما فعل الشرير أريستوفان بسقراط المتميّـز في إحدى كوميديّاته، متسبّبًا بهذه الطريقة في هلاكـه. ولكن التراجيديا تعرض علـى المسـرح تحـت حجاب الخـارق كلّ ما فـي البطوليّ مـن أحقـاد وازدراء وغضب وانتقام تصدر عن طبائع سامية تأتي منها طبيعيًّا مشاعر وطرق تعبير وأفعال بصفة عامّة، تتميّز بالوحشية والقسوة والأفعال الرهيبة. كلّ هذه الأشياء كانت متطابقة تمامًا فيما بينها ومتماثلـة فـي مواضيعهـا، ولـم يقـدر الإغريق علـى إنتاج هـذه الأعمال إلّا فـي أزمنتهم البطوليّـة، التـي ظهر فـي أواخرها هوميـروس. وهذا ما يبيّنـه النقـد الميتافيزيقي، من أنّ الأسـاطير التي كانت في نشأتها مباشـرة ومتلائمة، وصلت إلى هوميروس مشوّهة وغير لائقة. وبالفعل، كما سبق أن لاحظنا ذلك طيلة كامل الكتاب المتعلّق *بالمعرفة البطوليّة*، كانت الأساطير في البداية جميعها حقيقيّة، ثمّ تغيّرت وتشوّهت، ووصلت إلى هوميروس فـي النهايـة علـى هذا الحال من الفسـاد. لـذا علينا أن نضعـه في العصر الثالث للشـعراء البطوليّيـن. العصـر الأوّل ابتـدع هذه الخرافات لاسـتعمالها كروايـات حقيقيّة، بالمعنى

---

(١) § ٣٨٤.

(٢) § ٣٧٦ وما يتبع.

الأوّل والحرفي للفظ (μῦθος، ميثوس)، الذي يعرّفه الإغريق أنفسهم باعتباره *سردًا واقعيًا*. والعصر الثاني هو عصر الذين بدّلوها وأفسدوها. والعصر الثالث، أخيرًا، هو عصر هوميروس الذي وصلت إليه على هذا الحال من الفساد.

[§ ٨٠٩] ولكن، حتّى نعود إلى مضمارنا بخصوص السبب الذي أسندناه نحن إلى هذه النتيجة، فإنّ أرسطو يقول في كتاب *الشعر*[١] إنّ هوميروس وحده عرف كيف يخلق أكاذيب شعريّة. وبالفعل، فإنّ شخصيّاته الشعريّة التي لا يضاهيها أحد لتلاؤمها الرائع، مثلما يعترف بإعجاب هوراثيوس، كانوا يمثّلون كليّات عجائبيّة، مثلما عرّفناهم سابقًا في *الميتافيزيقا الشعريّة*[٢]، أسندت إليهم الشعوب كلّ الخصوصيّات المختلفة المتصلة بكلّ جنس من الأجناس. وهكذا أسنِدت إلى أخيل، الذي هو موضوع *الإلياذة*، كلّ خاصيّات الفضيلة البطوليّة وكلّ المشاعر والعادات المتأتيّة من تلك الخاصيّات الطبيعيّة، وهي عدم تحمّل الإهانة، والعناد، والغضب، والشراسة، والعنف، والتماثل التامّ مع حقّ القوّة، وهي الميزات التي عدّدها هوراثيوس في وصفه لهذه الشخصيّة. ولأوليس الذي هو موضوع *الأوديسّا*، أسندوا كلّ خاصيّات المعرفة البطوليّة، أي جميع العادات المتميّزة بالحيلة الحذرة، والصبر، والتستّر والازدواجية، والخداع، والتمسّك بالمعنى الحقيقي للألفاظ واللامبالاة بالأفعال، بحيث إنّ الآخرين يسقطون في الخطأ وينخدعون من تلقاء أنفسهم. وربطوا بهذين النمطيْن أفعال الرجال المتميّزين الذين ذاع صيتهم أكثر بحسب كلّ من هذيْن الجنسيْن، والذين تمكّنوا من إثارة مشاعر الإغريق، الذين كانوا لا يزالون بسطاء ساذجين، ومن دفعهم إلى ملاحظة هذه الأفعال وربطها بالجنس الذي تنتمي إليه. هذان النمطان؛ لأنّهما تشكّلا من قِبل أمّة بأكملها، لا يمكن تصوّرهما إلّا متماثليْن طبيعيًا، وفي هذا التماثل فقط، الذي يتماشى مع الحسّ المشترك لأمّة بأكملها، تكمن اللياقة، أو جمال الأسطورة وحسنها. ولأنّهما ابتُدعا من قِبل مخيّلات عظيمة القوّة فلا يُمكن أن يكونا إلّا ساميين. من هنا بقيت خاصيّتان سرمديّتان للشعر: الأولى أنّ السموّ الشعري يجب أن يكون دائمًا مرتبطًا بما هو شعبيّ، والثانية، أنّ الشعوب التي صنعت أولًا الأنماط البطوليّة لا يرون بعد ذلك العادات البشريّة إلّا من خلال أنماط صارت مشهورة بأمثلة ساطعة.

---

(١) ٢٤، ١٤٦٠أ، ١٨-١٩.

(٢) § ٣٨١.

[الباب الخامس]

براهين فلسفيّة لاكتشاف هوميروس الحقيقي

[§ ٨١٠] بإمكاننا أن نضيف إلى ما سبق تحديده البراهين الفلسفيّة التالية:

١

[§ ٨١١] أوّلها، تلك التي سبق ذكرها في *المسلّمات*[١]، أي أنّ البشر يميلون طبيعيًّا إلى الحفاظ على ذاكرة الأنظمة والشرائع التي تبقيهم متماسكين داخل مجتمعاتهم.

٢

[§ ٨١٢] الحقيقة التي فهمها لُدوفيكو كستيلفترو، التي تقول إنّ التاريخ خُلق أوّلا وجاء بعده الشعر، لأنّ التاريخ هو مجرّد سرد للواقع، بينما الشعر هو إضافةً إلى ذلك محاكاة. ولكن هذا الكاتب، الذي هو من ناحية أخرى ثاقب الفكر، لم يعرف كيف يستعمل هذه الحقيقة لإيجاد مبادئ الشعر الحقيقيّة، مركّبًا مع هذه الحقيقة البرهان الفلسفي الذي يقول التالي:

٣

[§ ٨١٣] لقد جاء الشعراء دون شكّ قبل المؤرّخين العاميّين، والتاريخ الأوّل كان دون شكّ التاريخ الشعري.

٤

[§ ٨١٤] الخرافات هي في الأصل حكايات حقيقيّة وصارمة، من ذلك أنّ لفظ «μῦθος، ميثوس) أي خرافة، عُرّف بأنّه «سرد الحقيقة» (*vera narratio*)، كما سبق

(١) § ٢٠١.

ذكره عديد المرّات[1]، وفي البداية كانت في معظمها فظّة، ولهذا السبب صارت من بعد غير ملائمة، ثمّ متغيّرة، وأخيرًا بعيدة عن الواقع، فغامضة، ثمّ عديمة الحياء وأخيرًا غير قابلة للتصديق. هذه هي المصادر السبعة لصعوبة الخرافات، والتي يمكن أن تعترضنا بسهولة طيلة كامل الكتاب الثاني.

٥

[§ ٨١٥] وكما سبق أن بيّنّا ذلك في الكتاب نفسه، فقد وصلت إلى هوميروس بهذا الشكل المشوّه والفاسد[2].

٦

[§ ٨١٦] إنّ الأنماط الشعريّة التي يتكوّن منها جوهر الخرافات، نشأت من ضرورة طبيعة عاجزة عن تجريد أشكال وخاصيّات المواضيع، وعليه فقد كانت تلك طريقة تفكير شعوب بأكملها وجدوا أنفسهم في هذه الضرورة زمن همجيّتهم الكبرى. والخاصيّة الدائمة للخرافات أنّها تضخّم دومًا أفكار التفاصيل. ولدينا في هذا الخصوص فقرة جميلة لأرسطو في كتاب *الأخلاق*[3]، حيث يلاحظ أنّ البشر ذوي الأفكار القصيرة يصنعون حِكمًا من كلّ حالة خاصّة. والسبب في ذلك أنّ الفكر البشري، الذي هو غير محدّد، حين تضطرّه قوّة الحواسّ لا يُمكنه أن يعبّر عن طبيعته التي تكاد تكون إلهية إلّا بتضخيم التفاصيل بواسطة الخيال. ولعلّه لهذا السبب نرى عند الشعراء اليونانيّين واللاتينيّين أنّ صور الآلهة والأبطال تبدو دائمًا أكبر من صور البشر. وفي أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، نرى أنّ الرسوم، بخاصّة منها تلك التي تمثّل الربّ ويسوع ومريم العذراء، كبيرة بشكل مفرط.

[§ ٨١٧] بما أنّ المتهمّجين تنقصهم القدرة على التفكير، وإذا استعملوها في غير محلّها تكون منبعًا للأكاذيب، فإنّ الشعراء البطوليّين اللاتينيّين الأوائل أنشدوا حكايات

---

(١) §§ ٤٠١، ٤٠٣، ٨٠٨.

(٢) § ٢٢١.

(٣) *الخطابة*، II، ٢١، ١٣٩٥ب، ١-١٠.

حقيقيّـة، أي الحـروب الرومانيّة. وفي أزمنة عودة البربريّة (القرون الوسـطى)، بمقتضى هـذه الطبيعة التـي تميّز الهمجيّة، فإنّ الشـعراء اللاتينيّين مثل غونتـر وغوليالمو بوليبزي وغيرهم، لـم ينشدوا إلّا أقاصيص[١]،ورواة الفروسيّة في الفترة نفسها كانوا يعتقدون أنّهم يكتبون حكايات حقيقيّة، بحيث أنّ بوياردو[٢] وأريُستو[٣]، اللذيْن عاشا في أزمنة مستنيرة بالفلسـفة، اتّخذا أغراضًا لأشعارهم من تاريخ توربان[٤]، أسقف باريس. وبمقتضى هذه الطبيعة نفسها التي تميّز الهمجيّة، التي لنقص القدرة على التفكير، لا تقدر على الإيهام، فهـي إذًا بطبيعتها صادقة، مفتوحة، وفيّة، سـخيّة وكريمـة. ودانتي[٥]، مع تمتّعه بقدر عال مـن المعرفة الباطنيّـة، فقد وضع في *الكوميديا الإلهية* شـخصيّات حقيقيّة وصوّر أحداثًا واقعيّـة مـن حيـاة الأمـوات[٦]، ولذا أعطـى لقصيده عنـوان *كوميديا*، بالمعنـى الذي كان للكوميديا الإغريقيّة القديمة التي، تضع في المشـهد شـخصيّات واقعيّة[٧] مثلما سـبق أن ذكرنـا، وفـي هذا كان دانتي يشـبه هوميـروس مؤلّف الإلياذة، التي قال عنها ديونيسـوس لونجينوس إنّها *دراماتية* بأكملها أو تمثيليّة، كما أنّ *الأوديسّا* سرديّة بالكامل. وبيترارِكا[٨] مع سعة علمه أنشد مع ذلك باللاتينيّة الحرب البونيقيّة الثانية، وقصائده *Trionfi* باللهجة التوسـكانيّة، التـي تملـك طابعًا بطوليًا، ليسـت إلّا مجموعـة من الحكايـات. ولدينا هنا

(١) § ٤٧١.

(٢) اسمه الكامل ماتيو ماريا بوياردو، Matteo Maria Boiardo، [١٤٤٠/ ٤١- ١٤٩٤]، كاتب وشاعر إيطالي من عصر النهضة. من أشهر مؤلّفاته «رولاندو العاشق».

(٣) اسـمه الكامل لودوفيكو أريوسـتو، Ludovico Ariosto [١٤٧٤ - ١٥٣٣]. شاعر إيطالي، مؤلّف الملحمة الشهيرة «أورلاندو الثائر».

(٤) Turpin: شـخصيّة أسـطوريّة فـي ملحمـة الفرسـان الفرنسـيّة، رفيـق لشـارلمان والفـارس رولان يظهر في الملحمة كبارون أو أسقف.

(٥) دانتي أليغييري، Dante Alighieri [١٢٦٥-١٣٢١] أعظم شعراء إيطاليا، مؤلّف *الكوميديا الإلهية*، إحدى أشـهر الأعمـال الأدبيّة العالميّة. يُعتبـر دانتي أب اللغة الإيطالية وحلقة وصل بين القرون الوسـطى وعصر النهضة وكان أوّل من نادى بالوحدة الإيطالية. سبق ذكره § ٤٨٥.

(٦) § ٧٨٦.

(٧) § ٨٠٨.

(٨) فرانشيسكو بيترارِكا، Francesco Petrarca، [١٣٠٤-١٣٧٤]، أديب وشاعر إيطالي وأحد أوائل الإنسانيّين في عصر النهضة. من أبرز أعماله *Il Canzoniere*.

برهـان سـاطع على أنّ الخرافات الأولـى كانت حكايات. وبالفعل، فـإنّ الأهاجي تقول السـوء عن أشـخاص ليسـوا واقعيّين فحسـب، بـل وأيضًـا معروفيـن؛ والتراجيديا تأخذ كمواضيـع شـخصيّات من التاريخ الشـعري؛ والكوميديـا القديمة تقدّم شـخصيّات حيّة ذائعة الصيت. والكوميديا الجديدة، التي نشأت في فترةٍ تطوّر فيها الفكر، ابتدعت أخيرًا بالكامل شخصيّاتها، كما أنّه في اللغة الإيطاليّة لم ترجع الكوميديا الجديدة إلّا حين بدأ قرن المعرفة الرائع الذي هو القرن السـادس عشـر. ولـم يحدث لا عند الإغريق ولا عند اللاتينيّيـن أن ابتُدعت شـخصيّة بالكامل لتكون الموضوع الرئيسـيّ للتراجيديا. والذوق العامّـي يؤكّـد لنا ذلك بشـدّة، إذ أنّه لا يريد مسـرحيّات دراميّة موسـيقيّة مواضيعها دائمًا مأساويّة إلّا إذا أُخِذت من التاريخ. وعلى عكس ذلك كان يقبل في الكوميديا المواضيع المختلقة، لأنّها بتناولها الحياة الخاصّة غير المعروفة كذلك، فهم يظنّونها حقيقيّة.

٨

[§ ٨١٨] وإذ كانت الشـخصيّات الشـعريّة على هذا الحال فإنّ مرموزاتها الشـعريّة، كما سبق أن رأينا ذلك على طول كتاب *المعرفة الشعريّة*[١]، لا تحتوي بالضرورة إلاّ على دلالات تاريخيّة تتعلّق بأزمنة اليونان الأولى.

٩

[§ ٨١٩] هـذه الحكايـات لا بـدّ أنّها ترسّـخت في ذاكرة المجموعات التي شـكّلتها الشـعوب، بمقتضى البرهان الفلسـفي الأوّل الذي ذكرناه[٢]، والذي يقول إنّهم بصفتهم أطفـال الأمـم مثلما كانـوا، لا بدّ أنّه كانت لديهم ذاكرة قويّة بصفة عجيبة. ولا يسـير هذا دون خطّـة إلهيـة: فإلـى زمن هوميـروس، وحتّى بعده بفتـرة قليلة، لم تُبتدع بعـدُ الكتابة العاميّة، وهذا كما سبق ذكره مرّات عديدة، ما أكّده يوسيفوس اليهودي ضدّ رأي أبيون[٣]، وفي هذه الحالة من العوز البشري لتلك الشعوب، الذين كانوا أجسادًا في كليّتهم تقريبًا عديمـي الفكـر فـي الغالب، فكانـوا عبارة عن أحاسـيس حيّـة تلتقط التفاصيـل، وخيالا

(١) انظر بالخصوص § ٤٠٣.

(٢) § ٨١١.

(٣) § ٦٦.

متوقّدًا يمسك بها ويضخّمها، وذكاء حادًا يربطها بأجناسهم العجيبة، وذاكرة قويّة تحتفظ بها. صحيح أنّ هذه القدرات تنتمي إلى الذهن، ولكن جذورها موجودة في الجسد وتستمدّ قوّتها من الجسد. ومن ذلك جاء القول إنّ الذاكرة هي نفسها المخيّلة[1]، ولذا تُسمّى *memoria* عند اللاتينيّين، ونجد عند تيرانثيوس عبارة *memorabile* بمعنى الشيء الذي يُمكن تخيّله، وعبارة comminisci مستعملة كثيرًا بمعنى *تخيّل* أو *ابتدع*، وهو شيء خاصّ بالمخيّلة؛ ومنه جاء *commentum*، الذي يعني «شيئًا مبتدَعًا» أو «متصوَّرًا». ولفظ *fantasia* [مخيّلة أو خيال]، يُفهم أيضًا بمعنى *ingegno* [النباهة أو الذكاء]، وهكذا في زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى] كان يُقال *uomo fantastico*، لقول *uomo d'ingegno* [رجل ذكيّ أو نبيه]، مثلما يقول عن كولا دي ريانتسو المؤلّف المعاصر له الذي كتب سيرته[2]. هذه الموهبة نفسها تتمثّل تحت ثلاثة جوانب مختلفة: فهي ذاكرة عندما تتذكّر الأشياء، وهي خيال عندما تبدّلها، وهي ذكاء أو نباهة (*ingegno*) حين تحيطها بالزخارف وترتّبها بنظام جميل: لذا سمّى الشعراء اللاهوتيّون الذاكرة *madre delle Muse*، أي: أمّ الإلهام.

١٠

[§ ٨٢٠] لذا فإنّ الشعراء كانوا دون شكّ مؤرّخي الأمم الأوائل، وهذا هو السبب الذي جعل كاستلفيترو لم يقدر على توظيف ما قاله للعثور على أصول الشعر الحقيقيّة؛ ذلك لأنّه سواء هو أو الآخرون الذين تناولوا هذا الموضوع، منذ أفلاطون وأرسطو، كان من اليسير عليهم ملاحظة أنّ كلّ القصص التاريخيّة كانت لها بدايات خرافيّة، مثلما افترضنا ذلك في *المسلّمات*[3] وأقمنا البرهان عليها في *المعرفة الشعريّة*.

١١

[§ ٨٢١] إنّ طبيعة الشعر تجعل من غير الممكن أن يكون أحدهم في الآن نفسه شاعرًا رائعًا وميتافيزيقيًّا رائعًا، لأنّ الميتافيزيقا تجرّد الفكر من الحواسّ، بينما الموهبة

---

(١) § ٦٩٩.

(٢) § ٦٩٩.

(٣) § ٢٠٢.

الشعريّة تجعل الفكر يغوص بالكامل في الحواسّ. والميتافيزيقا تتسامى لتبلغ الكليّات بينما تنزل الموهبة الشعريّة إلى الخصوصي.

١٢

[§ ٨٢٢] بمقتضى *المسلّمة* التي سبق ذكرها[١]، والتي تقول إنّه في كلّ نوعٍ من الأفعال، من لا يملك الموهبة الطبيعية بإمكانه النجاح فيها بفضل *تعلّم الصنعة*، ولكن في الشعر لا يُمكن أبدًا لمن لا يملك الموهبة الطبيعية أن ينجح فيه بالتعلّم، فالفنون الشعريّة والفنون النقديّة تصلح لجعل الأذهان متعلّمة لا عظيمة. ذلك لأنّ *الرقّة* فضيلة صغرى، والعظمة تنبذ بطبيعتها كلّ ما هو صغير، وكما أنّ النهر الكبير الجامح لا يمكنه إلّا أن يحمل معه الأوحال وأن يجرّ بتيّاره العاتي الحجارة وجذوع الأشجار، فإنّنا غالبًا ما نجد عند هوميروس أشياء وضيعة.

١٣

[§ ٨٢٣] ولكن هذا لا يمنع أن يكون هوميروس أبا جميع الشعراء السّامين وأميرَهم.

١٤

[§ ٨٢٤] وقد رأينا بالفعل أنّ أرسطو يعتبر أكاذيب هوميروس لا تُضاهى، ويرى هوراثيوس كذلك أنّ شخصيّاته لا مثيل لها[٢].

١٥

[§ ٨٢٥] هوميروس سماويّ الروعة في حِكمه الشعريّة التي برهنّا عليها في *الاستنتاجات حول الطبيعة البطولية*[٣] في الكتاب الثاني، وأنّها لا بدّ أن كانت تعبيرًا عن مشاعر حقيقيّة وهي من خلال قوّة الخيال الوقّاد تجعلنا نحسّ بها، وعليه فهي دون شكّ

---

(١) § ٢١٣.

(٢) § ٨٠٩.

(٣) § ٧٠٣-٧٠٤.

متفرّدة لدى أولئك الذين يحسّون بها. لذا عرّفنا مسلّمات الحياة باعتبارها حِكم فلاسفة، لأنّها عامّة؛ والأفكار بخصوص المشاعر نفسها هي من فعل شعراء مزيّفين وعديمي الحسّ.

١٦

[§ ٨٢٦] إنّ التشابيه الشعريّة المستمدّة من أشياء شرسة ومتوحّشة، التي سبق أن لاحظناها، لا مثيل لها دون شكّ عند هوميروس[١].

١٧

[§ ٨٢٧] إنّ فظاعة المعارك والقتلى الهوميريّين، مثلما سبق أن رأينا، تضفي على *الإلياذة* طابعها العجيب.

١٨

[§ ٨٢٨] ولكن هذه الحِكم والتشابيه والأوصاف لا يمكن، كما سبق أن برهنّا على ذلك، أن تكون النتاج الطبيعي لفيلسوف رصين متحضّر ورقيق الطبع.

١٩

[§ ٨٢٩] إنّ عادات الأبطال الهوميريّين هي عادات أطفال لبساطة أفكارهم، ونساء لقوّة مخيّلاتهنّ، وشبّان عنيفين لهيجان غضبهم الجامح، كما سبق أن بينّا ذلك أيضًا، وعليه فلا يمكن تصوّرها بكلّ تلك الطبيعيّة وبكلّ ذلك النجاح عند فيلسوف.

٢٠

[§ ٨٣٠] إنّ الحماقات والأشياء غير اللائقة هي - مثلما سبق قوله - نتيجة الصعوبة التي كانت تحسّ بها شعوب اليونان في التعبير نظرًا لفقر لغتهم المفرط في الفترة التي شكّلوها فيها.

---

(١) § ٧٨٥.

٢١

[§ ٨٣١] حتّى وإن احتوت القصائد الهوميريّة على أروع أسرار المعرفة الباطنيّة، وقد سبق أن أظهرنا في *المعرفة الشعريّة* أنّها لا تحتوي عليها، فهي لن تكون، باعتبار الطريقة التي جاءت بها، من تصوّر فكر مستقيم، منظّم ورصين كما يجدر بالفيلسوف[١].

٢٢

[§ ٨٣٢] إنّ اللغة البطوليّة، كما رأينا ذلك في الكتاب الثاني، في باب *أصول اللغات*[٢]، كانت لغة تعمل من خلال التشابيه والصور والمقارنات، نشأت من نقص الأجناس والأنواع التي نحتاج إليها للتعريف الصحيح بالأشياء، وعليه فهي نشأت من ضرورة ذات طبيعة مشتركة لشعوب بأكملها.

٢٣

[§ ٨٣٣] لضرورة طبيعيّة، كما رأينا ذلك أيضًا في الكتاب الثاني[٣]، تكلّمت الأمم الأولى بأبيات بطوليّة. وهنا أيضًا علينا أن نثني على العناية الإلهية التي وفّرت الطريقة لكي تكون الأمم قادرة على الكلام شعرًا في زمن لم تكتشف فيه بعدُ حروف الكتابة العاميّة، لكي تتمكّن هذه الأخيرة من خلال النظم والنسق من مساعدة ذاكرتها بأكثر سهولة على حفظ حكاياتها العائليّة والمدنيّة.

٢٤

[§ ٨٣٤] هذه الخرافات وهذه الحِكم وهذه العادات وهذه اللغة وهذه الأشعار سُميت جميعها *بطوليّة*، وجاءت ممارستها في الأزمنة التي وضع فيها التاريخ الأبطال، مثلما تمّت البرهنة على ذلك بالكامل في باب *المعرفة الشعريّة*[٤].

---

(١) § ٣٨٤.

(٢) § ٤٥٦.

(٣) §§ ٤٦٣ وما يتبع

(٤) §§ ٦٣٤ وما يتبع

٢٥

[§ ٨٣٥] جميع هذه الخاصيّات كانت مشتركة بين شعوب بأكملها، وعليه فهي مشتركة بين كلّ الأفراد الذين ينتمون إلى تلك الشعوب.

٢٦

[§ ٨٣٦] إلّا أنّنا، بحُكم الطبيعة نفسها التي برزت منها جميع الخاصيّات المذكورة، ننفي أنّ هوميروس كان أبدًا فيلسوفًا.

٢٧

[§ ٨٣٧] كنّا قد بينّا سابقا، في *المعرفة الشعريّة*(١)، أنّ جميع دلالات المعرفة الباطنيّة أُدخلت في الأساطير الهوميريّة من طرف الفلاسفة الذين جاؤوا لاحقًا.

٢٨

[§ ٨٣٨] ولكن، بما أنّ المعرفة الباطنيّة لا تتوفّر إلّا لدى عدد نادر من الأفراد؛ لذا فإنّ «اللياقة» [*decoro*] الحقيقيّة للشخصيّات البطوليّة، التي يكمن فيها جوهر الأساطير البطوليّة جميعه، لا يُمكن الحصول عليها اليوم، كما سبق للتوّ ذكره(٢)، من طرف رجال واسعي العلم في مجال الفلسفة والفنون الشعريّة والفنون النقديّة. وبسبب هذه اللياقة لاقى هوميروس الثناء من طرف أرسطو لأكاذيبه التي لا تُضاهى، ومن طرف هوراثيوس لشخصيّاته التي لا مثيل لها.

---

(١) §§ ٣٦١-٣٦٣، ٥١٥.

(٢) § ٨٠٩.

[الباب السادس]

البراهين الفقهيّة لاكتشاف هوميروس الحقيقي

[§ ٨٣٩] إلى هذا العدد الكبير من البراهين الفلسفيّة المتأتية في جانب كبير منها من النقد الميتافيزيقي المطبَّق على مؤسّسي الأمم الوثنيّة والذي ينبغي أن نضع بينهم هوميروس؛ لأنّه لا يوجد دون شكّ كاتب وثني أقدم منه، مثلما أكّد ذلك يوسيفوس اليهودي بكلّ ثقة[1]، يتوجّب علينا إضافة البراهين الفقهيّة التالية:

١

[§ ٨٤٠] كلّ الحكايات الوثنيّة القديمة كانت لها بدايات خرافيّة.

٢

[§ ٨٤١] نلاحظ أنّ كلّ الشعوب البربريّة المنغلقة على نفسها والمنفصلة عن أمم العالم الأخرى، مثل الجرمانيّين والأمريكان القدامى، احتفظوا شعرًا ببدايات تاريخهم، مثلما سبق أن رأينا ذلك[2].

٣

[§ ٨٤٢] كان الشعراء هم الذين بدأوا كتابة التاريخ الروماني.

٤

[§ ٨٤٣] في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، كُتبت قصص التاريخ من طرف الشعراء باللغة اللاتينيّة.

---

(١) § ٤٣٨.

(٢) § ٤٧٠.

٥

[§ ٨٤٤] رفع مانيتون، كبير الكهنة المصريّين، التاريخ المصري الموغل في القدم والمكتوب بالصور الهيروغليفيّة إلى مرتبة لاهوتيّة طبيعيّة سامية.

٦

[§ ٨٤٥] كنّا قد بينّا في *المعرفة الشعريّة*(١) أنّ الفلاسفة اليونانيّين فعلوا الشيء نفسه برواية التاريخ اليوناني القديم من خلال الخرافات.

٧

[§ ٨٤٦] لهذا السبب، كان علينا سابقًا، في باب *المعرفة الشعريّة*(٢)، أن نسلك طريقًا معاكسًا تمامًا للطريق الذي سلكه مانيتون، وتخليص الخرافات من دلالاتها الروحانيّة لكي نعيد إليها دلالاتها التاريخيّة الأصليّة. والطريقة الطبيعيّة واليسيرة، الخالية من الجهد ومن الحيل والقسر، التي توخيناها لتحقيق ذلك تبرهن على تلاؤم الرموز التاريخيّة المضمّنة في هذه الخرافات.

٨

[§ ٨٤٧] كلّ هذا يؤكّد بقوّة ما قاله اسطرابون(٣) من أنّه قبل هيرودوت، وحتّى قبل هكتيوس الملطي(٤)، كلّ تاريخ الشعوب الإغريقيّة كتبه شعراؤهم.

٩

[§ ٨٤٨] من جهتنا، سبق أن برهنّا في الكتاب الثاني(٥)، على أنّ الكتّاب الأوائل لدى الأمم سواء القديمة أو الحديثة كانوا شعراء.

---

(١) §§ ٣٦١ وما يتبع؛ ٥١٥.

(٢) §§ ٣٨٤، ٤٠٣.

(٣) في كتاب *الجغرافيا*، I، ٢، ٦.

(٤) اسمه اليوناني هكتيوس الملطي [حوالي ٥٥٠ ق.م - حوالي ٤٧٥ ق.م]، مؤرّخ وجغرافي يوناني. اهتمّ في كتاباته التي وصلتنا منقوصة بالجغرافيا التاريخيّة أو بالوصف الجغرافي.

(٥) §§ ٤٦٤-٤٧١.

١٠

[§ ٨٤٩] نجد في *الأوديسّا* فقرتيْن مهمتين[١]، يُذكر فيهما أنّه للثناء على أحدهم لأنّه أحسن سرد حكاية، يُقال له إنّه رواها كموسيقي وكمنشد. وهذا ما كان عليه دون شكّ المنشدون الهوميريّون، الذين كانوا من العامّة واحتفظ كلّ واحد منهم في الذاكرة جزءًا من ملحمتيْ هوميروس.

١١

[§ ٨٥٠] لم يترك هوميروس أيّ شيء من قصائده مكتوبًا، مثلما أكّده لنا فلافيوس يوسيفوس اليهودي معترضًا على رأي النحويّ اليوناني أبيون[٢].

١٢

[§ ٨٥١] كان *المنشدون* يتنقّلون، كلّ من جهته، عبر المدن اليونانيّة لينشدوا في أسواقها وفي احتفالاتها هذا القصيد أو ذاك من هوميروس.

١٣

[§ ٨٥٢] كما يدلّ على ذلك أصل اللفظيْن اللذيْن يتكوّن منهما اسمهم، فإنّ *المنشدين* كانوا يخيطون *معًا أناشيد* لم يتلقّوها دون شكّ من أيّ أحد غير شعوبهم نفسها. ويجعل البعض أصل اللفظيْن راجعًا إلى (ὁμοῦ، هومو)، *simul*، أي معًا، و(εἴρειν، إيرين)، أي يربط "*connectere*"، للدلالة حسب رأيهم على *الضامن*، لأنّ الضامن يربط بين الدائن والمدين، ولكن هذا الأصل بقدر ما هو بعيد ومتصنّع عندما نطبّقه على الضامن بقدر ما هو متيسّر وملائم حين نطبّقه على شاعرنا هوميروس، الذي كان يخيط ويؤلّف الخرافات.

---

(١) *أوديسّا*، XI، ٣٦٨ وVIII، ٤٨٧–٤٩٨.

(٢) انظر في الخصوص §§ ٦٦، ٤٢٩، ٤٤٠، ٨١٩.

١٤

[§ ٨٥٣] تولّى البسيستراتيّون[1]، حكّام أثينا، تقسيم وترتيب قصائد هوميروس أو كلّفوا آخرين بتقسيمها وترتيبها لتشكيل *الإلياذة والأوديسّا*. وهذا يجعلنا ندرك مدى الكمّ من الأشياء المختلطة الذي كانتا عليه قبل ذلك بالنظر إلى الاختلاف الهائل الذي تُمكن ملاحظته في أسلوب الواحدة والأخرى من ملحمتيْ هوميروس.

١٥

[§ ٨٥٤] هؤلاء البسيستراتيّون أنفسهم أمروا أن تنشد منذ ذلك الحين تلك القصائد من طرف *الرابسوديّين* [رواة الملاحم المحترفين]، أثناء الاحتفالات الأثينيّة، كما كتب شيشرون في «*طبيعة الآلهة*»، وكذلك إيليانوس[2]، الذي يقتفي أثره في هذا الخصوص شيفّر.

١٦

[§ ٨٥٥] إلّا أن البسيستراتيّين طُردوا من أثينا بعد سنوات قليلة من طرد التاركوينيّين من روما؛ لذا، إن وضعنا هوميروس في زمن نوما، وكنّا قد برهنّا سابقًا على وجوب ذلك[3]، فإنّه قد مرّت بعد البسيستراتيّين فترة طويلة جدّاً واصل أثناءها الرابسوديّون حفظ أشعاره في ذاكرتهم. هذه الرواية تنزع كلّ مصداقيّة عن تلك التي تقول إنّه في أزمنة البسيستراتيّين صحّح أرسطرخس[4] وقسّم ورتّب قصائد هوميروس؛ لأنّه لا يمكن إنجاز ذلك دون وجود الكتابة العاميّة، وإذّاك منذ هذه الفترة لن يكون هناك لزوم للجوء إلى الرابسوديّين لإنشاد أجزاء منفصلة محفوظة في الذاكرة.

---

(١) خلفة بسيستراتوس (القرن ٦ ق م - ٥٢٧)، حاكم أثينا، وهما بالتحديد ابناه هيبياس وهيبارك اللذين حكما أثينا بعد موته سنة ٥٢٧ ق م.

(٢) اسمه اللاتيني Claudius Aelianus [١٧٥-٢٣٥م]. مؤرّخ وعالم في الحيوان وخطيب روماني باللغة الإغريقيّة. مؤلّف كتاب *Varia Historia* في طبعة ومع تعليق شيفّر [Scheffer]، ١٦٤٧، VIII، ٢.

(٣) § ٨٠٣.

(٤) أرسطرخس الساموسي (٣٢٠-٢٣٠ ق م) عالم فلك ورياضيّات إغريقي.

[§ ٨٥٦] تبعـا لهذا فإنّ هسـيودوس[1]، الذي تـرك أعمالا مكتوبة بخطّ يده، يجب أن يوضع بعد البسيستراتيّين، بما أنّنا لا نملك مصدرًا موثوقًا يجعلنا نظنّ أنّه، مثل هوميروس، حُفظت أشعاره في ذاكرة الرابسـوديّين وأنّه جاء قبل هوميروس بثلاثين سنة مثلما حاول المؤرّخون جاهدين دون جدوى تأكيد ذلك لنا. ومن نوع الرابسـودين الهوميريّين نفسـه كان أيضًا الشـعراء الدوريّون، الذين حفظوا بالكامل التاريخ الخرافي الإغريقي منذ نشـأة آلهاتهـم إلـى عـودة أوليس إلى إيتاكا. هؤلاء الشـعراء الذي يأتي اسـمهم مـن (κύκλος، كيكلـوس)، لا يمكـن أن يكونوا إلّا رجـالا دون ثقافة كانوا ينشـدون خرافات للناس من العامّة المجتمعين في دائرة أيّام الأعياد. هذه الدائرة هي بالذات تلك التي كان هوراثيوس يسـمّيها فـي كتـاب *الفنّ الشـعري*، *vilem, patulumque orbem*[2]، وهو قـول لم يكن داسيي[3] متفقًا بخصوص تأويله مع الشارحين الذين يقولون إنّ هوراثيوس كان يريد قول *مقاطع طويلة*. والسبب في هذا الاعتراض هو ربّما أنّ مقطعًا ما في رواية ليس بالضرورة سـيّئًا لأنّـه طويـل. وعلـى سـبيل المثـال نأخذ مقطـع متعـة رونود مـع أرميد في البسـتان المسحور، ومقطع الحوار بين الراعي الشيخ وأرميد، هما دون شكّ طويلان ولكنّهما ليسا سيئين، لأنّ الأوّل مزخرف، والثاني دقيق ورقيق، والاثنان فيهما نبل. ولكن هوراثيوس، فـي الفقـرة نفسـها[4]، حيـن ينصـح الشـعراء التراجيديّيـن باسـتقاء أغراضهـم مـن قصائد هوميروس، فهو يضع نفسـه أمام صعوبة؛ لأنّهم بهذه الطريقة لن يكونوا شعراء حقيقيّين، بما أنّ حكاياتهم سـتكون من ابتكار هوميروس. إلا أنّ هوراثيوس يجيب بأنّ الحكايات الملحميّة الهوميريّة ستصير حكايات تراجيديّة تعود شخصيًّا لهؤلاء الشعراء إن هم تبعوا هـذه الآراء الثلاثـة التالية. الأوّل هو ألاّ يقوموا بشـروح حشـويّة لا فائـدة منها، مثلما يقع دائمًـا مـع أولئك الذين يقـرؤون *أورلاندو الثائـر* أو *أورلاندو المتيّـم*، أو أيّ رواية أخرى

---

(١) هسيودوس، شاعر إغريقي عاش بين ٧٥٠ و٦٥٠ ق م.

(٢) أي «دائرة بسيطة مفتوحة للجميع» في *الفنّ الشعري*، ١٣٢.

(٣) هـو André Dacier (١٦٥١-١٧٢٢) نقـل إلى الفرنسـيّة كتاب هوراثيوس *Ars poetica* [الفنّ الشـعري]، (١٦٨١).

(٤) *الفنّ الشعري*، ١٢٨-١٣٥.

مكتوبة شعرًا أمام السوقة أو أمام المتسكّعين المجتمعين في دوائر واسعة أيّام الأعياد، والذين بعد قراءة كلّ مقطع يفسّرونه لهم نثرًا بإسهاب وبكمّ إضافي من الألفاظ؛ والثاني هو ألاّ يكونوا مترجمين أوفياء؛ والرأي الثالث والأخير، ألاّ يكونوا مقلّدين خضوعين، بل متّبعين العادات التي ينسبها هوميروس إلى أبطاله، وأن يستخرجوا من هذه العادات نفسها مشاعر مختلفة، وأقوالا مختلفة، وأفعالا مختلفة تكون متوافقة معها، وبهذه الطريقة سيصبحون بخصوص المواضيع نفسها شعراء مختلفين عن هوميروس. وهكذا في كتاب *الفنّ الشعري* نفسه يسمّي هوراثيوس *شاعرًا دوريًا* من هو شاعر أسواق وضيع[1]. مثل هؤلاء المؤلّفين يُسمّون عادة باللغة الإغريقيّة «κυκλιοι، كيكليوي» و«εγκύκλιοι، إنكيكليوي»، وسُمّيت مجموعة كتاباتهم «κυκλος επικος، كيكليوس إيبكوس»، «κυκλια επη كيكليا إيبي»، «ποιημα κυκλικων پويما كيكليون»، وأحيانًا دون تصنيف، «κυκλος كيكلوس»، مثلما يلاحظ ذلك جيرارد لونغبان[2] في مقدّمته لعمل ديونيسوس لونجينوس[3]. بهذه الصفة، من الممكن أن يكون هسيودوس، الذي يضمّ جميع خرافات الآلهة، قد جاء قبل هوميروس.

١٨

[§ ٨٥٧] لهذا السبب، بإمكاننا قول الشيء نفسه عن أبقراط، الذي ترك الكثير من الأعمال الكبرى المكتوبة نثرًا وليس شعرًا، حيث لا يُمكن حفظها في الذاكرة. لذا ينبغي وضعه تقريبًا في زمن هيرودوتس.

١٩

[§ ٨٥٨] ينتج عن كلّ هذا أنّ فوسّيوس[4] ظنّ بكثير من الثقة أنّه بإمكانه الاعتراض على يوسيفوس اعتمادًا على ثلاث كتابات بطوليّة، واحدة لأمفيتريون، والثانية لهيبوكون،

---

(١) نفسه، ١٣٦.

(٢) Gérard Langbaine [١٦٠٨-١٦٥٨] فقيه لغة إنجليزي، أوّل من ألّف كتابًا في سيرة وفي نقد المسرحيّين الإنجليز في عصر النهضة.

(٣) اسم استُعمل للإشارة إلى كاتب إغريقي عاش في القرن الثالث ميلادي، مؤلّف كتاب *De sublimis* [في السموّ].

(٤) Gérard Jean Vossius [١٥٧٧ - ١٦٤٩]، مذكور.

والثالثة للاوميدون، ولكنّها احتيالات شبيهة بتلك التي يصنعها في أيّامنا الحاضرة مزيّفو الميداليات. ويساند مارتين سكوك[1] في هذا يوسيفوس ضدّ فوسّيوس.

٢٠

[§ ٨٥٩] إلى كلّ هذا، بإمكاننا إضافة أنّ هوميروس لا يذكر أبدًا الحروف الإغريقيّة العاميّة، ويقول إنّ الرسالة التي كتبها بروتوس إلى أوريا لنصب كمين لبيلّيروفون، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك في موضع آخر، كُتبت بـ (*σηματα سيماتا*)[2].

٢١

[§ ٨٦٠] بالرغم من التنقيحات التي قام بها أسطرخس على قصائد هوميروس، فإنّها لا تزال تحتوي على تنوّع كبير من اللهجات، وعلى تعابير لغويّة غير ملائمة، ممّا يجعلنا نظنّ أنّنا بحضور لغات مختلفة لشعوب اليونان ولجوازات شعريّة.

٢٢

[§ ٨٦١] لا نعرف موطن هوميروس، كما سبق ذكره[3].

٢٣

[§ ٨٦٢] كلّ شعوب اليونان أرادوا أن يكون مواطنًا لهم، كما سبق أيضًا قوله[4].

٢٤

[§ ٨٦٣] كنّا قد افترضنا سابقًا[5]، مع براهين قويّة، أنّ هوميروس مؤلّف *الأوديسّا* هو أصيل الجنوب الغربي لليونان، بينما هوميروس مؤلّف *الإلياذة* أصيل الشمال الشرقي منه.

---

(١) Martin Schoock، § ٥٠.

(٢) § ٤٣٣.

(٣) § ٧٨٨ وما يتبع.

(٤) § ٧٩٠.

(٥) § ٧٨٩.

٢٥

[§ ٨٦٤] لا نعرف الفترة التي عاش فيها[1].

٢٦

[§ ٨٦٥] الآراء حول هذا الموضوع من الكثرة والاختلاف بحيث أنّ اختلاف الآراء يمتدّ على أربعمئة وستّين عامًا، والرأيان الأكثر اعتراضًا يقف أحدهما عند زمن حرب طروادة والآخر حوالي زمن نوما.

٢٧

[§ ٨٦٦] ديونيسيوس لونجينوس، لعدم قدرته على إخفاء الاختلاف الكبير في الأسلوب بين القصيدتين، قال إنّ هوميروس ألّف *الإلياذة* في شبابه، و*الأوديسا* حين صار شيخًا، كما لو أنّه بالإمكان أن نعرف هذه الخصوصيّات بشأن شخص نجهل الزمان والمكان اللذين عاش فيهما، وهذان الأمران التاريخيّان اللذان يكتسيان أهميّة بالغة يبقيان غامضيْن بينما نتحدّث عن أسطع نور في اليونان!

٢٨

[§ ٨٦٧] هذه الاعتبارات تمنعنا من منح الثقة، حتى لو كانت قليلة سواء لهيردوتس، أو لأيّ مؤلّف مهما كان لسيرة هوميروس، حيث تروى العديد من التفاصيل الجميلة المختلفة حتّى أنّها تملأ مجلّدًا بأكمله، أو أن نثق أيضًا بالسيرة التي ألّفها فلوطرخس الذي باعتباره فيلسوفًا، تحدّث عن هوميروس بأكثر اتّزانًا.

٢٩

[§ ٨٦٨] ربّما تكوّنت عند لونجينوس هذه الفرضيّة لأنّ هوميروس يصف في *الإلياذة* غضب وكبرياء أخيل، اللذيْن يميّزان من هو في سنّ الشباب، بينما يقصّ في *الأوديسا* مكر وحذر أوليس، اللذيْن ينتميان لسلوك من هو متقدّم في السنّ.

---

(١) § ٧٩٢ وما يتبع

٣٠

[§ ٨٦٩] هنـاك روايـة تقول إنّ هوميروس كان ضريـرًا وأنّه من فقدان البصر تحصّل على اسمه، الذي يعني ضريرًا في اللغة الإيونيّة.

٣١

[§ ٨٧٠] هوميروس نفسه يصف الشعراء الذين ينشدون في ولائم الأعيان بالعميان، وهكذا كان ضريرًا ذاك الذي أنشد في الوليمة التي أقامها ألسينوس على شرف أوليس[١]، كما كان ضريرًا أيضًا الشاعر الذي أنشد في مأدبة المتقدّمين للزواج من بينيلوب[٢].

٣٢

[§ ٨٧١] وهي ميزة طبيعيّة أن يتمتّع فاقدي البصر بذاكرة على غاية من القوّة.

٣٣

[§ ٨٧٢] أخيرًا، تخبرنا الروايات أنّه كان فقيرًا وينتقل من سوق إلى أخرى باليونان، منشدًا قصائده.

---

(١) *الأوديسّا*، VIII، ٦٣-٦٤

(٢) نفسه، I، ١٥٣ وما يتبع

[القسم الثاني]

اكتشاف هوميروس الحقيقي

[تمهيد]

[§ ٨٧٣] الآن، كلّ الأشياء التي درسناها وتلك التي رواها لنا آخرون بخصوص هوميروس وقصائده، دون أن نكون قد اخترنا ذلك أو اقترحناه لأنفسنا، إلى حدّ أنّنا لم نفكّر حتّى في ذلك بعد قراءة الطبعة الأولى من *العلم الجديد*، وبينما لم يُؤلّف العمل بعد حسب المنهج نفسه الذي أُلّفت به الطبعة الحالية، حين داخل الشكّ رجالا ذوي معرفة واسعة وعلم متين بأنّ هوميروس الذي ظنّوه إلى ذلك الحين ليس الهوميروس الحقيقي. كلّ هذه الأشياء التي كنتُ أقول تدفعنا الآن إلى قول إنّه حدث لهوميروس ما حدث لحرب طروادة، التي رغم أنّها ميّزت فترة عظيمة من التاريخ فقد اعتُبِرت من طرف النقّاد الأكثر إدراكًا أنها لم تحدث قطّ. ومن المؤكّد أنّه لو لم يتبقّ، مثلما هو الحال بالنسبة إلى حرب طروادة، بعض الآثار العظيمة من هوميروس التي هي أشعاره، لقلنا إزاء كلّ هذه الصعوبات إنّ هوميروس لم يكن إلّا شاعرًا مثاليًا لم يوجد قطّ في الواقع كشخص بعينه. إلّا أنّ كلّ هذه الصعوبات المتعدّدة، وفي الآن نفسه قصائده التي وصلت إلينا، تضطرّنا إلى اتّخاذ موقف وسط، وهو أنّ هوميروس كان فكرة أو رمزًا بطوليًا يمثّل أشخاصًا يونانيّين سردوا تاريخهم شعرًا.

[الباب الأوّل]

ما هو غير لائق وغير معقول بخصوص ما كان يُعتقد إلى حدّ الآن أنّه هوميروس يصير لدى هوميروس المُكتشف هنا منطقيًّا وضروريًّا

[§ ٨٧٤] على ضوء هذا الاكتشاف، كلّ الأشياء التي في خطاب وشعر هوميروس المفترَض إلى حدّ الآن تبدو غير ملائمة وغير مطابقة للواقع، تصبح عند هوميروس المكتشَف هنا مقبولة وضروريّة. وفي المقام الأوّل تلك الأشياء البالغة الأهميّة التي بقيت ضمن الشكّ بخصوص هوميروس تجبرنا على قول الآتي:

١

[§ ٨٧٥] إنّ السبب الذي جعل شعوب اليونان يتنازعون موطنه ويريدونه جميعهم مواطنًا لهم، هو أنّ هذه الشعوب اليونانيّة نفسها هي هوميروس[١].

٢

[§ ٨٧٦] إنّ السبب الذي جعل الآراء بخصوص الفترة التي عاش فيها تختلف بتلك الصفة الكبيرة هو أنّ هوميروس عاش بالفعل على أفواه وفي ذاكرات هذه الشعوب اليونانيّة نفسها منذ حرب طروادة إلى زمن نوما، أي ما يشكّل مدّة تمتدّ على أربعمئة وستّين سنة[٢].

---

(١) انظر ما جاء في §§ ٧٩٩ وما يتبع، و٨٦١ وما يتبع.

(٢) § ٨٠٣.

٣

[§ ٨٧٧] وكذلك فقدانه للبصر[١].

٤

[§ ٨٧٨] وفقر هوميروس وعَماه كانا عَمى وفقر الرابسـوديّين، الذين لفقدان البصر الـذي يجعـل كلّ واحد منهـم يُسـمّى (Ὅμηρος"هوميروس)، كانت لهـم ذاكرة عجيبة، ولفقرهم كانوا يكسبون لقمة العيش متجوّلين عبر مدن اليونان لإنشاد قصائد هوميروس، التـي كانـوا هـم مؤلّفيها لأنّهـم ينتمون إلى تلك الشـعوب التـي ألّفت تاريخهـا في تلك القصائد.

٥

[§ ٨٧٩] وهكذا ألّف هوميروس *الإلياذة* في شـبابه، حين كان اليونان يافعًا ومتوقّدًا بمشـاعر سـامية مثـل الكبريـاء والغضـب والثـأر، وهي أهـواء لا تقبـل المـواراة وتحبّ السـخاء، بحيـث أُعجب بأخيـل، بطل القوّة. ولكنّه ألّف *الأوديسّـا* في شـيخوخته، حين فتـرت هِمـم اليونان شـيئًا ما من خـلال البصيرة التي هـي أمّ الحكمة، ممّـا جعله يُعجَب بأوليس، بطل المعرفة. وهكذا، في زمن شباب هوميروس ما كان يُعجِب شعوب اليونان هـو الصلابـة والخشـونة والشراسـة والفظاعة. وفي زمن شـيخوخة هوميـروس، ما كان يُعجِـب تلك الشـعوب هـو رخاء ألكينـوس، ومترفات كاليبسـو، ومُتع سـيرس، وأغاني الحوريات، وملاهي مريدي الزواج، والمحاولات، أو بالأحرى الحصارات والهجومات ضدّ بينيلوب العفيفة. هذه العادات المختلفة فيما بينها بدت لنا سـابقًا مسـتحيلة التزامن. وقـد شـدّت هـذه الصعوبات بقـوّة انتباه أفلاطون العظيـم حتّى أنّه للخـروج منها قال إنّ هوميروس توقّع، بنوع من الحدس، هذه العادات القبيحة المخنّثة والمنحلّة. ولكنه بهذه الطريقة جعل من هوميروس مؤسّسـا غبيًّا للحضارة الإغريقيّة؛ لأنّه في الآن نفسـه الذي

(١) §§ ٨٦٩-٨٧١.

يدينها فهو مع ذلك يُعلّم العادات المنحرفة والفاسدة التي ستهيمن طويلا بعد أن تكون الأمم قد أُسّست، حيث إنه بتسارع نسق الأحداث البشريّة يُسرع الإغريق نحو انحلالهم.

٦

[§ ٨٨٠] بهذه الطريقة نبرهن على أنّ هوميروس الذي ألّف *الإلياذة* سبق بكثير هوميروس الذي ألّف *الأوديسّا*.

٧

[§ ٨٨١] ونبرهن على أنّ الأوّل كان أصيل الشمال الشرقي من اليونان وهو الذي أنشد حرب طروادة التي وقعت في بلده، بينما جاء الثاني من الجنوب الغربي، وهو الذي أنشد أوليس، الذي كانت مملكته في تلك الأنحاء[1].

٨

[§ ٨٨٢] وهكذا، فإنّ هوميروس التائه وسط جموع الشعوب الإغريقيّة مبرَّءٌ من جميع الاتهامات التي وُجّهت إليه من طرف النقّاد وبخاصّة تلك التي تستهدف:

٩

[§ ٨٨٣] أحكامه المبتذلة،

١٠

[§ ٨٨٤] عاداته الخشنة،

١١

[§ ٨٨٥] تشبيهاته الفظّة،

---

(١) § ٧٨٩.

١٢

[§ ٨٨٦] تعابيره الاصطلاحية،

١٣

[§ ٨٨٧] جوازاته الشعريّة،

١٤

[§ ٨٨٨] التنوّع المتغيّر للّهجات التي يستعملها،

١٥

[§ ٨٨٩] والطريقة التي حوّل بها البشر إلى آلهة والآلهة إلى بشر.

[§ ٨٩٠] لا يرى ديونيسوس لونجينوس في نفسه القدرة على الدفاع عن هذه الخرافات إلّا بدعمها بمرموزات فلسفيّة، أي أنّ معانيها حين كانت تُنشَد لليونانيّين لا يُمكن أن تكون جعلته جديرًا بمجد أن يُعتبَر مؤسّس الحضارة الإغريقيّة. هذه الصعوبة بخصوص هوميروس، هي نفسها تلك التي رفعناها في *ملاحظات حول الجدول الزمني*[١]، ضدّ أورفيوس المعتَبر مؤسّس إنسانيّة اليونان. ولكنّ الخاصيّات التي عدّدناها سابقًا كانت تشمل كلّ الشعوب الإغريقيّة، وبالخصوص الخاصيّة الأخيرة. وبالفعل، في فترة تأسيس أمّتهم، مثلما تبيّن ذلك من خلال التحدّر الطبيعي للآلهة الذي تحدّثنا عنه سابقًا[٢]، صنع الإغريق الآلهة حسب ما كانوا عليه هم أنفسهم، أي ورعين، متديّنين، عفيفين، أقوياء، عادلين وكِرامًا. بعد ذلك، مع مرّ السنين ومع تعكّرالخرافات وفساد العادات، مثلما شرحنا ذلك في *المعرفة الشعريّة*، رأوا الآلهة كما كانوا يرون أنفسهم بعد أن تغيّروا، أي منحلّين، وذلك بمقتضى *المسلّمة* التي سبق أن ذكرناها[٣] التي تقول إنّ

---

(١) §§ ٨٠-٨١.

(٢) § ٦٩.

(٣) § ٢٢٠.

البشـر يطوّعون الشـرائع الغامضة أو المشكوكة حسـب أهوائهم ومصالحهم، ذلك أنّهم كانـوا يخشـون إذا مـا كانت عاداتهم معاكسـة لعـادات الآلهة، فإنّ هذه الأخيرة سـتكون معاكسة لرغباتهم، كما سبق قوله في موضع آخر[١].

١٦

[§ ٨٩١] يجـب أن نعترف لهوميروس، لنكون عادليـن تمامًا معه، بمزيّتيْن كبيرتيْن، وهما تمثّلان في الواقع مزيّة واحدة، وهي أنّه كان الوحيد الذي عرف كيف يبتدع أكاذيب شـعريّة، مثلما يقول أرسـطو، وشخصيّات بطوليّة، مثلما يقول هوراثيوس. ومن هذا جاء أنّ هوراثيـوس اعتـرف بنفسـه أنّه ليس شـاعرًا، لأنّه لا يقدر أو لا يعـرف الامتثال إلى ما سمّاه *colores operum*[٢]، أي *الزيف الشعري* الذي يتحدّث عنه أرسطو. بالصفة نفسها نجـد عنـد فلوطرخـس[٣] قـول *obtinere colorem*، لقـول *أكاذيب لجعـل كلّ المظاهر شبيهة بالحقيقة*، وهو ما يجب أن تكون عليه الخرافة.

[§ ٨٩٢] لكـن، إضافـة إلـى هذا فهو يسـتحقّ كلّ المزايـا الأخرى التي يسـندها إليه معلّمو الفنّ الشعري عندما يقولون عنه إنّه لا يُضاهى:

١٧

[§ ٨٩٣] في تشبيهاته الوحشيّة والشرسة،

١٨

[§ ٨٩٤] في أوصافه القاسية والرهيبة للمعارك وللموتى،

١٩

[§ ٨٩٥] في حِكمه المفعمة بالأهواء السامية،

---

(١) § ٨١.

(٢) *الفنّ الشعري*، ٨٦-٨٧.

(٣) في *Miles gloriosus*، ١٨٦.

٢٠

[§ ٨٩٦] في قوّته التعبيريّة وفي أسـلوبه السـاطع. جميع هـذه الصفات كانت مميِّزة للعصر البطولي الإغريقي، الذي به وبفضله كان هوميروس شاعرًا لا يُضاهى. وبالفعل، ففي عصر الذاكرة القويّة هذا، والمخيّلة الوقّادة والإبداع الفيّاض، فهو لم يكن بأيّ صفة كانت فيلسوفًا.

٢١

[§ ٨٩٧] لذا، لا الفلسـفة ولا الفنون الشـعريّة والنقديّة التي جاءت جميعها من بعد، كان بإمكانها أنّ تنتج شاعرًا يقترب ولو قليلا من هوميروس.

[§ ٨٩٨] وأكثر من هذا، فقد استحقّ دون منازع ثلاثة ألقاب:

٢٢

[§ ٨٩٩] الأوّل هو أنّه باني المؤسّسات الإغريقيّة، أو بعبارة أخرى مؤسّس الحضارة الإغريقيّة،

٢٣

[§ ٩٠٠] والثاني، أنّه أب الشعراء الآخرين جميعهم،

٢٤

[§ ٩٠١] والثالـث، أنّـه كان منبـع كلّ الفلسـفات اليونانيّة. لا أحد مـن هذه الألقاب يُمكن إسناده إلى هوميروس كما وقع افتراضه إلى حدّ الآن. لا اللقب الأوّل، باعتبار أنّه منـذ أزمنـة دوكاليونس وبيـرّا، يأتي هوميروس بعد ألف وثمانمائة سـنة مـن الزمن الذي تأسّست فيه الحضارة الإغريقيّة من خلال مؤسّسة الزواج، كما سبقت البرهنة عليه طيلة باب *المعرفة الشـعريّة*. ولا اللقب الثاني؛ لأنّه قبل هوميروس ازدهر دون شـكّ الشـعراء اللاهوتيّـون، مثل أورفيوس، أمفيونس، لينوس، موزيوس وآخرون غيرهم، الذين وضع

المؤرّخون من بينهم هيسيودس الذي سبق بثلاثين سنة هوميروس. ويؤكّد شيشرون في بروتُس[1]، أنّ شعراء آخرين ظهروا قبل هوميروس، كما أنّ أوزيبيوس في كتاب «Εὐαγγελικὴ προπαρασκευή»، أي «تمهيد للإنجيل» (*Preparazione Evangelica*)، يذكر أسماء فيلامون وثاميريس وديمودوكس وإيبيميندس وأريستيوس، وآخرين غيرهم. ولا اللقب الثالث أخيرًا؛ لأنّه مثلما سبقت البرهنة عليه بصفة مطوّلة وكاملة في باب *المعرفة الشعريّة*، لم يكتشف الفلاسفة نظريّاتهم الفلسفيّة في الأساطير الهوميريّة، بل أقحموها فيها بالقوّة. ولكن المعرفة الشعريّة هي التي وفّرت بأساطيرها للفلاسفة مناسبة للتفكير في حقائقهم السامية، ومكّنتهم بهذه الصفة أيضًا من عرضها، مثلما بيّنّا ذلك في كلّ الكتاب الثاني، امتثالا للوعد الذي قطعناه على أنفسنا في بداية الكتاب نفسه[2].

---

(١) *Brutus*، XVIII، ٧١.

(٢) § ٣٦٣.

[الباب الثاني]

ملحمتا هوميروس تمثّلان كنزيْن عظيمين من القانون الطبيعيّ للأقوام الإغريقيّة

[§ ٩٠٢] إلّا أنّه، وبالخصوص بفضل اكتشافنا، يُضاف إلى ألقاب المجد هذه هذا اللقب الرائع:

٢٥

[§ ٩٠٣] أنّه كان أوّل المؤرّخين في كلّ العالم الوثني الذي وصل إلينا.

٢٦

[§ ٩٠٤] ينتج عن ذلك أنّ أشعاره ينبغي أن تتمتّع الآن باعتبار كبير؛ لأنّها تمثّل كنزيْن عظيميْن تُحفظ فيهما عادات اليونان الأكثر قِدمًا. والنتيجة هي أنّه حدث لأشعار هوميروس ما حدث لقانون *اللوائح عشرة*. وبالفعل، فإنّ هذه الأخيرة، إذ اعتُبرت كقوانين أعطاها صولون للأثينيّين ووصلت بعد ذلك للرومان، فقد حجبت عنّا إلى الآن تاريخ القانون الطبيعي لأقوام اللاتسيوم البطوليّة: بالطريقة نفسها، فإنّ ملحمتيْ هوميروس، إذ اعتُبرتا عمليْن أنجِزا في دفعة واحدة على يد شخص بعينه، شاعر عظيم ونادر، فقد حجبتا عنّا إلى الآن تاريخ الحقّ الطبيعي لأقوام اليونان.

[ملحق]

التاريخ المُعقلن للشعراء المسرحيّين والغنائيّين

[§ ٩٠٥] كنّا قد بيّنّا سابقًا أنّ عصور الشعراء كانت إلى حدّ هوميروس ثلاثة[1]: العصر الأوّل كان عصر الشعراء اللاهوتيّين، الذين كانوا هم أنفسهم أبطالا، وأنشدوا أساطير حقيقيّة وصارمة؛ والعصر الثاني كان عصر الشعراء البطوليّين الذين حرّفوا تلك الأساطير وأفسدوها؛ والعصر الثالث كان عصر هوميروس الذي تلقّاها محرّفة ومُفسدة. الآن، فإنّ النقد الميتافيزيقي نفسه المتعلّق بتاريخ العصور القديمة الأكثر غموضًا، أي تفسير الأفكار التي شكّلتها طبيعيًا الأمم الأكثر قدمًا، بإمكانه أن ينيرنا وأن يحدّد لنا تاريخ الشعراء المسرحيّين والغنائيّين، الذي كتب عنه الفقهاء بطريقة غامضة وغير واضحة.

[§ ٩٠٦] هؤلاء الفقهاء وضعوا من بين الشعراء الغنائيّين أمفيون المثيمنيّ[2]، وهو شاعر قديم جدّاً ينتمي للأزمنة البطوليّة، ويؤكّدون أنّه اكتشف المدح وفي الآن نفسه المجموعة الصوتيّة، وأنّه أقحم ساتيريّين يغنّون شعرًا، كما يؤكّدون أنّ المدح كان مجموعة صوتيّة في شكل دائرة، تغنّي أبياتًا تمدح باخوس. ويقولون إنّه في زمن الشعر الغنائي ازدهر شعراء تراجيديّون عظماء، وديوجان اللايرتي[3] يروي أنّ التراجيديا الأولى قُدّمت بالمجموعة الصوتية وحدها. ويقولون أيضًا إن إسخيلوس كان أوّل شاعر تراجيديّ، وحسب بوْسانياس[4]، فإنّ باخوس هو الذي أمر بكتابة التراجيديّات، مع أنّ

(١) § ٨٠٨.

(٢) يجمع فيكو هنا بين أمفيون وآريون من مثيمنا باليونان.

(٣) ديوجانس اللايرتي [النصف الثاني ومن القرن الثالث ميلادي]، شاعر وكاتب إغريقي مصنّف «سير مشاهير الفلاسفة ومذاهبهم وأقوالهم»، في الكتاب المذكور، III، ٥٦.

(٤) باوسانياس [١٨٠-١١٥] جغرافي ورحّالة يوناني من القرن الثاني قبل الميلاد، عُرف بعمله «وصف اليونان»، في العمل المذكور، I، ٢١، ٢.

هوراثيوس، في فقرة من *الفنّ الشعري*[1]، حيث يتناول موضوع التراجيديا بدءًا بالأهاجي، يروي أنّ ثاسبيس هو مبتكرها، وأنّه أدخل الأهاجي فوق عربات وقت جمع العنب. في فترة لاحقة، يقولون إنّه جاء سُفوكل، الذي سمّاه باليمون هوميروس *التراجيديّين*، وأخيرًا أوريبيدس، الذي ينعته أرسطو[2] بـ (τραγικότατων تراغيكوتاتون)، الذي حمل التراجيديا إلى تمامها. ويقولون أيضًا إنّه في الفترة نفسها جاء أريستوفان، الذي ابتكر الكوميديا وفتح الطريق للكوميديا الجديدة، وهو الطريق الذي تبعه فيه بعد ذلك ميناندروس، بمسرحيّة *الغيوم*، التي تسبّبت في هلاك سقراط. والبعض من هؤلاء الفقهاء وضعوا بعد ذلك أبقراط في أزمنة التراجيديّين، وآخرون وضعوه في أزمنة الغنائيّين. ولكنّ سفوكل وأوريبيدس عاشا قبل زمن قليل من فترة قانون *الألواح الاثنتيْ عشرة*، والغنائيّون جاؤوا بعد ذلك. وهكذا فإنّ الترتيب الزمني الذي يضع أبقراط في زمن الحكماء اليونانيّين السبعة يتشوّش بصفة جديّة.

[§ ٩٠٧] لفكّ هذه الصعوبة، يجب أن نقول إنّه كان هناك نوعان من الشعراء التراجيديّين ونوعان من الشعراء الغنائيّين.

[§ ٩٠٨] كان الغنائيّون القدامى في البداية دون شكّ مؤلّفي الأناشيد لتمجيد الآلهة، من النوع المنسوب إلى هوميروس والمتألّفة من أبيات بطوليّة. ثمّ كان هناك الشعراء من الجنس الغنائيّ الذي استعمله أخيل ليتغنّى بالغيتار بأمجاد الأبطال الراحلين[3]. وبما أنّه عند اللاتينيّين كان الشعراء الأوائل مؤلّفي الأشعار *السالية*، التي كانت أناشيد تُغنّى في أعياد الآلهة من طرف الكهنة المسمّين *ساليّين*، ولعلّهم سمّوا كذلك من فعل *saltare*، أي قفز، مثل الرقص بالقفز في دائرة، والذي بدأت به المجموعات الصوتيّة الإغريقيّة. وبقايا هذه الأشعار هي أقدم الشهادات التي وصلت إلينا من اللغة اللاتينيّة، ولها وقع أبيات بطوليّة، مثلما لاحظنا ذلك سابقًا[4]. وكلّ هذا يتوافق مع بدايات حضارة الأمم في الأزمنة الأولى، التي كانت دينيّة، لا يُمكن أن تكون وجّهت تمجيدها إلّا إلى الآلهة،

---

(١) ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) كتاب الشعر، ١٣، ١٤٥٣أ٢٨-٢٩.

(٣) *الإلياذة*، ١٨٦-١٨٩.

(٤) § ٤٣٨، ٤٦٩.

مثلما رأينا في أزمنة البربريّة الحديثة [القرون الوسطى] عودة هذا التقليد الدينيّ، حيث إنّ القساوسة، الوحيدين الذين كانوا في ذلك الزمن يعرفون القراءة والكتابة، لم يؤلّفوا من قصائد إلّا الأناشيد المقدّسة. بعد ذلك، وفي الأزمنة البطوليّة، لم تُنشد ولم تُعظّم إلّا إنجازات الأبطال الخارقة، كما تغنّى بها أخيل. أمفيون المثيميني[1] كان ينتمي دون شكّ إلى هذا النوع من الشعراء الغنائيّين المقدّسين، وكان أيضًا مبتدع قصيد المدح، الذي كان الرسم الأوّلي للتراجيديا، المتكوّنة من أبيات بطوليّة، الجنس الأوّل من الأبيات الذي تغنّى به الإغريق، كما سبق أن بيّنّا ذلك[2]. وهكذا فإنّ قصيد المدح الذي جاء به أمفيون كان الأهاجي الأولى، وانطلاقًا من هذه الأهاجي شرع هوراثيوس[3] في دراسة التراجيديا.

[§ ٩٠٩] والشعراء الغنائيّون الجدد كانوا الشعراء المسمّين *lirici melici* الذين كان أميرهم بينداروس، والذين كانوا ينظمون الشعر بتلك الأبيات التي يسمّونها بالإيطاليّة *arie per musica* [ألحان موسيقى] وهذا النوع من الأبيات قد جاء بعد البيت الوتدي، وهو ذلك النوع من النظم الذي جاء - مثلما سبق أن بيّنّا سابقًا[4]- في الأزمنة التي كانت ميزة الإغريق تتجلّى في كامل روعتها من خلال فخامة الألعاب الأولمبيّة، حيث ينشد فيها هؤلاء الشعراء المغنّون. وبالصفة نفسها جاء هوراثيوس في أزمنة روما الأكثر فخامة، التي كانت أزمنة حكم أغسطس، ففي اللغة الإيطالية ظهر الشعر المُسمّى *melico* [غنائيّ] في الأزمنة التي كانت فيها اللغة الإيطالية أكثر وجدانيّة وارتخاءً.

[§ ٩١٠] وقد اتّبع الشعراء التراجيديّون والهزليّون مسارًا يُمكننا أن نحدّد منه الفترات التالية. ثابسيس، في ناحية من اليونان، وأمفيون [آريون] في ناحية أخرى منه، أعطيا في موسم قطاف العنب البداية للأهاجي [*satira*]، أي التراجيديا القديمة التي تستعمل شخصيّات *الساتير*. ونظرًا لخشونة وبساطة أناس ذلك العصر، فقد ابتدعوا القناع الأوّل بتغطية أقدامهم وسيقانهم وأفخاذهم بجلد الماعز، الذي كان دون شكّ من اليسير

(١) § ٩٠٦.

(٢) §§ ٤٤٩، ٤٦٣.

(٣) *الفنّ الشعري*، ٢٢٠-٢٢٩.

(٤) § ٤٦٤.

الحصول عليه، ولوّنوا وجوههم وصدورهم بالدردي، مسلّحين جبهتهم بقرنيْن، وربّما لذلك بقيت العادة عندنا بتسمية جُمّاع العنب بـ *cornuti* [المقرنين]. وقد يكون صحيحًا أنّ باخوس، إله قطاف العنب، أمر إسخيلوس بتأليف تراجيديّات. كلّ هذا يتوافق مع الأزمنة التي كان الأبطال يقولون فيها إنّ العامّة هم أمساخ ذوو طبيعة مزدوجة، أي أنّهم في الآن نفسه بشر وماعز، مثلما بيّنا ذلك سابقًا بصفة كافية[1]. لذا، بإمكاننا أن نفترض بكثير من الثقة أنّ التراجيديا استمدّت اسمها من هذا القناع وليس من الجائزة التي يحصل عليها الظافر في مسابقة الشعر والتي تتمثّل في ماعز، يُسمّى بالإغريقيّة (τράγος تراغوس)، وقد نعت هوراثيوس[2] هذا الحيوان بالوضيع حين تناول بالدرس هذه الفرضيّة، التي رفضها دون تعليق، كما بدأت التراجيديا بهذه المجموعة الصوتيّة من الساتير. وقد احتفظت الأهاجي بهذه الخاصية الدائمة التي نشأت بها، وهي التفوّه بالسباب والشتائم، لأنّ الفلاحين بأقنعتهم الخشنة الممتطين عربات محمّلة بالعنب، كان لهم جواز قذف الأسياد بالشتائم، كما يفعل في أيّامنا الحاضرة مزارعو جهة كمبانيا الجميلة المسمّاة سابقًا *منزل باخوس*. نفهم إذن بكم من الحقّ أدخل العلماء لاحقًا في خرافة *بان*؛ لأن لفظ (πᾶν بان) يعني *الكلّ*، الميثولوجيا الفلسفيّة التي تعطي لـ *بان* معنى الكون: الأجزاء المشعرّة السفلى تعني الأرض، والصدر والوجه الأحمران يشيران إلى عنصر النّار، والقرنان يعنيان الشمس والقمر. ولكنّ الرومان احتفظوا لنا بالميثولجيا التاريخيّة من خلال لفظ *Satyra*، الذي كان يعني - حسب فيستوس[3]- طبقًا متكوّنًا من عدة أطعمة. ومنه جاء بعد ذلك قول *lex per satyram* بمعنى القانون المتكوّن من بنود مختلفة. كما أنّ الأهاجي الدراميّة، التي نتحدّث عنها الآن متّبعين هوراثيوس[4] نفسه، بما أنّه لم تصلنا أهجوّة سواء جاءت من الإغريق أو من اللاتينيّين، تظهر لنا عديد الشخصيّات المختلفة، من آلهة وأبطال وملوك وحرفيّين وعبيد. ولكن الأهجوّة[5]، كما

---

(١) § ٩٠٦.

(٢) *الفنّ الشعري*، ٢٢٠ - ٢٢٩.

(٣) Festus، في *De verbarum significatu*

(٤) *الفنّ الشعري*، ٢٢٧.

(٥) الأهجوة: تعريب لكمة satira التي تسمى في الإنجليزية satire وتترجم غالبا هجاء وفقا لتعريفها بحسب أرسطو. فقد اعتبر أرسطو قصائد المديح لديونيسوس (النظم البطولي) كوجه للتراجيديا (المأساة) الأولى. أما قصائد الهجاء والسخرية واللذع (كما في النظم الإيامبي) فجعلها أصل الكوميديا (الملهاة).

بقيت عند الرومان، لا تتناول مواضيع مختلفة، لأنّ كلّ أهجوّة مخصّصة لغرض معيّن من الأغراض.

[§ ٩١١] مع إسخيلوس نمرّ من التراجيديا القديمة، أي من الأهجوة الدرامية، إلى التراجيديا الوُسطى بأقنعة بشريّة، محوّلا مديح أمفيون [آريون]، الذي كان جوقة من *الساتير*، إلى جوقة من الرجال. والتراجيديا الوسطى تكون أصل الكوميديا القديمة، التي تظهر فيها شخصيّات عظيمة، لذا تناسبها الجوقة. بعد ذلك جاء سفوكليس أوّلا، ثمّ يوريبيدس، اللذيْن تركا لنا التراجيديا في شكلها الأخير. وقد انتهت الكوميديا القديمة مع أريستوفان، بسبب الفضيحة التي أحدثتها الشخصيّة التي تمثّل سقراط، وترك لنا ميناندر الكوميديا الجديدة، المبنية على شخصيّات خاصّة وخياليّة، التي ولأنّها خاصّة يمكن تخيّلها، لذا يمكن أن تظهر وكأنّها حقيقيّة، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[١]. وللسبب نفسه فإنّ الجوقة، التي هي جمهور يتكلّم، ولا يتكلّم إلّا على مسائل عموميّة، لم يعد هناك داع لتدخّله.

[§ ٩١٢] بهذه الصفة تألّفت الأهجوة من أبيات بطوليّة، كما بقيت بعد ذلك على هذا الحال لدى اللاتينيّين، لأنّ الشعوب الأولى تكلّمت بأبيات بطوليّة. بعد ذلك تكلّمت بأبيات وتديّة، ولهذا السبب تألّفت التراجيديا طبيعيًّا من أبيات وتدية، والكوميديا أيضًا كانت كذلك في محاكاة غير مجدية للتراجيديا، بينما كانت الشعوب الإغريقيّة قد بدأت تتكلّم نثرًا. والبيت الوتدي كان ملائمًا دون شكّ للتراجيديا، لأنّه نشأ للتعبير عن الغضب، ويتقدّم *بقدم* نعته هوراثيوس *بالسريع*، مثلما لاحظنا ذلك في إحدى المسلّمات[٢]. وهكذا، حسب رواية عاميّة، يكون أرخيلوخس قد ابتكره للتعبير عن غضبه من ليكامبس، التي لم ترد أن تزوّجه ابنتها، وبسبب قسوة أبياته اللاذعة انتحر الأب وابنته شنقًا من فرط اليأس. لدينا هنا دون شكّ مثال من قصّة الصراعات البطوليّة بخصوص الزواج، حيث إنّ العامّة الثائرين أقدموا على شنق الأشراف مع بناتهم.

[§ ٩١٣] وهكذا نشأت فظاعة هذا الفنّ الشعري التي تجعل البيت العنيف نفسه، السريع والمتهيّج يناسب في الآن نفسه جنسًا شعريًّا عظيمًا بقدر عظمة التراجيديا التي

---

(١) §§ ٨٠٦، ٨٠٨.

(٢) § ٢٣٣.

اعتبرها أفلاطون أعظم من الملحمة[١]، وجنسًا في رقّة الكوميديا، والتي تجعل *القدم*[٢] نفسه، الذي يصلح للتعبير عن الغضب والحنق اللذيْن ينفجران في التراجيديا بأقوى عنف، يصلح أيضًا للتعبير عن المزاح والألعاب وعاطفة الحبّ الرقيقة التي تمثّل كلّ متعة الكوميديا وسحرها.

[§ ٩١٤] هذه الأسماء غامضة التعريف للشعراء *الغنائيين* والشعراء *التراجيديّين* جعلت أبقراط يوضع في زمن الحكماء السبعة. بينما كان يجب أن يوضع تقريبًا في فترة هيرودوتس، لأنّه جاء في أزمنة لا يزال البشر يتكلّمون فيها في جانب كبير بواسطة الخرافات، ذلك أنّ حياته ملوّنة بالخرافات، والحكايات التي يقصّها هيرودوتس في أغلبها خرافات، بينما كان قد بدأ ليس بالكلام بالنثر، بل وأيضا الكتابة بالحروف العاميّة، التي استعملها هيرودوتس لكتابة حكاياته، وأبقراط لكتابة أعماله العديدة في الطبّ التي تركها لنا، مثلما ذكرنا ذلك في موضع آخر[٣].

---

(١) *الجمهوريّة*، III، ٧، 394b-c.

(٢) القدم الشعري أو الركن في العروض هو اللفظ المركب من الأسباب والأوتاد، وهو في الشعر الغربي عبارة عن مجاميع صغيرة من المقاطع تسمى الأقدام feet أو الوحدات. وتقاس فيها الكلمات وفقا للمقاطع المشددة (stressed syllables) وغير المشددة (unstressed).

(٣) §§ ٩٨، ٨٥٧، ٩٠٦.

الكتاب الرابع

في المسار الذي تنتهجه الأمم

[تمهيد]

[§ ٩١٥] بمقتضى كلّ من مبادئ العلم هذه، التي وضعناها في الكتاب الأوّل، وأصول كلّ الأمور الإلهية والبشريّة للأمم الوثنيّة، كما بحثنا فيها واكتشفناها في الكتاب الثاني الذي يتناول المعرفة الشعريّة، وما اكتشفناه في الكتاب الثالث بخصوص ملحمتيْ هوميروس من أنّهما تمثّلان كنزيْن من الحقّ الطبيعي لأقوام اليونان، وكما أنّنا وجدنا أنّ قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* مثّل شاهدًا مهما على الحقّ الطبيعيّ لأقوام *اللاتيوم*، واستعانة بالأضواء التي تسلّطها كلّ من الفلسفة وفقه اللغة وبالاعتماد على *المسلّمات* الموضوعة سابقًا[1]، حيث تناولنا مسألة التاريخ المثالي السرمدي، سنشرع الآن في الحديث عن المسار الذي تنتهجه الأمم وهي تتقدّم بتماثل دائم في كلّ عاداتها المتنوّعة والمختلفة، حسب التقسيم إلى ثلاثة عصور، وهي التي يقول المصريّون القدامى إنّها توالت في عالمهم، من عصر الآلهة إلى عصر الأبطال انتهاءً بعصر البشر[2]. وسنرى بالفعل الأمم وهي تمرّ، حسب هذا التقسيم، متّبعة ترتيبًا لا ينقطع أبدًا من علاّت ومعلولات حاضرًا دائمًا لديها بأنواع ثلاثة من الطبائع. من هذه الطبائع تنشأ ثلاثة أنواع من العادات؛ ومن هذه العادات نلاحظ بروز ثلاثة أنواع من القوانين الطبيعيّة للأقوام. وتبعًا لهذه القوانين تترتّب ثلاثة أنواع من الدول المدنيّة أو الجمهوريّات. ولكي يُمكن للبشر الذين بلغوا مرحلة المجتمع البشري أن يتواصلوا فيما بينهم بجميع هذه الأنواع من الأمور بالغة الأهميّة التي تحدّثنا عنها لتوّنا، تشكّلت ثلاثة أنواع من اللغات، وثلاثة أنواع من الحروف؛ ولتسويغ هذه الأمور لزم أن يكون هناك ثلاثة أنواع من التشريعات، تسندها ثلاثة أنواع من السلطة، وثلاثة أنواع من الشرائع في ثلاثة أنواع من الأحكام. وهذه التشريعات تُمارس في ثلاث فترات في الزمن، تجاهر بها الأمم على مدى حياتها. هذه الوحدات الثلاثيّة من الأنواع، مع

(١) ١٤٥ §§، ٢٤٥، ٢٩٤، ٣٤٩، ٣٩٣.

(٢) §§ ٣١، ٥٢.

الأنواع العديدة الأخرى التي تنحدر منها والتي سيقع تعدادها في هذا الكتاب، تتلاقى جميعها في وحدة عامّة، هي وحدة الديانة التي تؤمن بعناية إلهية، والتي هي وحدة الفكر الذي يُعلم ويعطي وجودًا لعالم الأمم هذا. بعد أن درسنا أعلاه هذه الأمور بطريقة منفصلة، سنبيّن هنا نظام المسار الذي انتهجته.

[القسم الأوّل]

ثلاثة أنواع من الطبائع

[§ ٩١٦] إنّ الطبيعة الأولى، بسبب الخداع القويّ الذي تصنعه المخيّلة، هذه المخيّلة القويّة جدًا بالخصوص لدى من هو ضعيف التفكير، كانت طبيعة شعريّة أو خلاّقة، بل وإلهية إن جاز القول، وهي التي أعطت للأجسام ماهيات حيّة من أرباب، وأعطتها ذلك انطلاقًا من الفكرة التي صاغتها بنفسها. وكانت هذه طبيعة الشعراء اللاهوتيّين، الذين كانوا أقدم الحكماء عند جميع الأمم الوثنيّة، حين كانت جميع الأمم الوثنيّة تتأسّس على المعتقد الذي كان لدى كلّ واحدة منها في آلهات خاصّة بها. وكانت هذه الطبيعة شرسة تمامًا وقاسية، ولكن بسبب خداع المخيّلة نفسه، كانوا يخشون خشية كبيرة أولئك الأرباب الذين صنعوهم بأنفسهم، ونتجت عن ذلك خاصيّتان دائمتان: الأولى هي أنّ الدين يمثّل الوسيلة الوحيدة التي لها القوّة اللازمة لردع وحشيّة الشعوب، والأخرى هي أنّ الديانات تزدهر حين يكون المشرفون عليها يجلّونها من أعماقهم.

[§ ٩١٧] أمّا الطبيعة الثانية فقد كانت الطبيعة البطوليّة، التي كان الأبطال يعتقدون أنّها من مصدر إلهي. وبالفعل، بما أنّهم كانوا يؤمنون بأنّ الآلهة تفعل كلّ شيء، كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء جوبيتر لأنّهم نشؤوا تحت رعاية جوبيتر. ومع أنّهم ينتمون للجنس البشري، فقد كانوا يؤسّسون على هذه البطوليّة النبالة الطبيعيّة التي تجعل منهم أمراء العرق البشري. وكانوا مزهوّين بهذه النبالة الطبيعيّة التي تضعهم فوق أولئك الذين لاذوا بهم للإقامة في ملاجئهم. فرارًا من الصراعات التي تنشأ داخل المجموعة من البشر الحيوانيّة الدنسة، وكانوا يعتبرون هؤلاء الأخيرين، الذين جاؤوا دون أن يكون لديهم ربّ، مثلهم مثل الحيوانات، كما سبق أن رأينا ذلك[1]، عندما تناولنا بالدرس هاتيْن الطبيعتيْن.

[§ ٩١٨] والطبيعة الثالثة كانت طبيعة بشريّة، ذكيّة وعلى ذلك متواضعة، طيّبة وعاقلة، تعترف كشرائع لها بالضمير والعقل والواجب.

---

(١) §§ ٥٥٣ وما يتبع.

[القسم الثاني]

ثلاثة أنواع من العادات

[§ ٩١٩] كانت العادات الأولى كلّها متشرّبة بالدين وبالورع، مثل تلك المنسوبة إلى دوكاليون وبيرّا، اللذين جاءا مباشرة بعد الطوفان العظيم[1].

[§ ٩٢٠] والثانية كانت حانقة ومتشدّدة مثل التي تُنسب إلى أخيل.

[§ ٩٢١] والثالثة كانت متمسّكة بالواجب، وكان يتعلّمها كلّ واحد من خلال حسّه الفردي بالواجبات المدنيّة.

---

(١) § ٥٢٣.

[القسم الثالث]

ثلاثة أنواع من القوانين الطبيعيّة

[§ ٩٢٢] كان القانون الأوّل إلهيّا، وبمقتضاه كان البشر يعتقدون أنّ أنفسهم وشؤونهم هي من تدبير الآلهة، لاعتقادهم أنّ كلّ شيء من صنع الآلهة.

[§ ٩٢٣] والثاني كان القانون البطولي، قانون القوّة، ولكنّها القوّة المنحازة إلى الدين، الوحيد الذي بإمكانه احتواؤها في حال غياب الشرائع البشريّة، أو حين تكون موجودة، في حال عجزها عن القيام بذلك. لهذا السبب أقرّت العناية الإلهية أن تكون الأقوام الأوليّة، التي هي بطبعها شرسة، مقتنعة بديانتها لكي تقبل طبيعيًّا بالقوّة، ولعدم قدرتها على إعمال الفكر، لكي تقيس الحقّ بالحظّ الذي كانت تتعرّف عليه من خلال قراءة بشائر الآلهة. قانون القوّة هذا هو قانون أخيل الذي يضع كلّ القانون في سنّ الرمح.

[§ ٩٢٤] والقانون الثالث هو القانون البشري الذي يمليه العقل البشري في كامل تطوّره.

[القسم الرابع]

ثلاثة أنواع من الحكومات

[§ ٩٢٥] كانت الحكومات الأولى إلهية، أو كما يقول اليونانيّون، *ثيوقراطيّة*. تحت سلطة هذه الحكومات كان البشر يعتقدون أنّ الآلهة تحكم كلّ شيء: كان ذلك عصر وسطاء الوحي، الذين يمثّلون أقدم ما يُقرأ عنه في التاريخ.

[§ ٩٢٦] أمّا الثانية فقد كانت الحكومات البطوليّة أو الأرستقراطيّة، أي حكومات الأعيان [*optimates*]، بمعنى أولئك الذين هم أكثر قوّة، والتي تُسمّى لدى اليونانيّين أيضًا *الحكومات الهرقليّة*، أو سلطة المنحدرين من عرق هرقل، بمعنى أنّهم *أشراف*، والذين كانوا منتشرين في كامل اليونان القديم جدّاً، ولم يبق منهم من بعد إلّا في إسبرطة. وكانت تُسمّى أيضًا حكومات *الكوريتيّين*[*Cureti*]، التي وجدها الإغريق منتشرة بساتورنيا، أي بإيطاليا القديمة، وباليونان وبآسيا، والتي صارت عند الرومان حكومات *الكويريتس* [*Quirites*]، أي الكهنة المسلّحين الذين يتمتّعون بحقّ المشاركة في الاجتماعات العموميّة. في مثل هذه الحكومات -التي تتأسّس على تمييز طبيعة أكثر نبلا؛ لأنّها تُعتبر من أصل إلهي، مثلما سبق أن رأينا- كلّ الحقوق المدنيّة كانت مخصّصة للأنظمة الحاكمة التي يديرها الأبطال أنفسهم، أمّا العامّة المعتبرون من أصل حيواني، فقد كان لا يُسمح لهم إلّا بالتمتّع بالحياة وبالحريّة الطبيعيّة.

[§ ٩٢٧] أمّا الثالثة فقد كانت الحكومات البشريّة، التي بمقتضى المساواة في الطبيعة العقلانيّة التي تميّز البشر، كان فيها الجميع متساوين بمقتضى القوانين؛ لأنّهم وُلدوا جميعًا أحرارًا في مدائنهم، سواء كانت مدنًا حرّة شعبيّة، أي أن الجميع أو الأغلبيّة، يمثّلون القوى العادلة في المدينة، والتي تجعلهم أسياد الحريّة الشعبيّة، أو أنظمة ملكيّة حيث يجعل الملوك كلّ الرعايا سواسية بواسطة القوانين، وإذ يمسكون في أيديهم قوّة الأسلحة الكاملة فإنّهم لا يتميّزون عن الآخرين إلّا من حيث الطبيعة المدنيّة.

[القسم الخامس]

ثلاثة أنواع من اللغات

[§ ٩٢٨] هناك ثلاثة أنواع من اللغات.

[§ ٩٢٩] الأولى من بينها كانت لغة إلهية ذهنيّة تعبّر من خلال أفعال دينيّة صامتة أو طقوس إلهية احتفالية، وبقيت منها في القانون المدني الروماني *المراسيم الشرعيّة* التي من خلالها كانوا يتمّون كلّ الصفقات الخاصّة بالأعمال ذات المنفعة المدنيّة. كانت هذه اللغة تصلح للديانات التي يهمّها أكثر أن تكون مقدّسة من أن تكون معقلنة. وكانت ضروريّة في الأزمنة الأولى، حين كان الوثنيّون لا يعرفون بعد نطق الكلمات.

[§ ٩٣٠] والثانية كانت لغة الشعارات البطوليّة التي تتحدّث بواسطتها الأسلحة: هذه اللغة، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك، بقيت في النظام العسكري.

[§ ٩٣١] أمّا الثالثة فهي التي تستعمل الكلمة المنطوقة التي تستعملها اليوم كلّ الأمم.

[القسم السادس]

ثلاثة أنواع من الحروف

[§ ٩٣٢] هناك ثلاثة أنواع من الحروف.

[§ ٩٣٣] الأولى منها كانت إلهية، وسُمّيت بصفة ملائمة *حروفًا مصوّرة أو هيروغليف*، وسبق أن بينّا من قبل أنّ جميع الأمم استعملتها في بداياتها. كانت بعض الكليّات الخياليّة، تمليها طبيعيًا الخاصيّة الفطريّة للذهن البشري الذي يتسلّى بالتماثل، وكنا قد خصّصنا لهذا الموضوع إحدى *المسلّمات*[1]. ولعجزهم عن التعبير عنها بواسطة التجريد بحسب الأجناس، فقد توصّلوا إلى ذلك من خلال صور تنتجها مخيّلتهم. وكانوا ينسبون إلى هذه الكليّات الشعريّة كلّ الأنواع المنفردة الخاصّة بكلّ جنس، وعلى سبيل المثال، كانوا ينسبون إلى جوبيتر كلّ ما يتعلّق بالنذائر، وإلى جونو كلّ ما يتعلّق بالزواج، وهكذا دواليك.

[§ ٩٣٤] أمّا الثانية فقد كانت الحروف البطوليّة التي كانت هي أيضًا كليّات خياليّة، تُنسب إليها مختلف الأنواع التي تنتمي للعالم البطولي، إلى أخيل على سبيل المثال تنسب كلّ إنجازات المحارب الباسل، وإلى أوليس كلّ آراء الحكماء. وهذه الأجناس الخياليّة، حين تعوّد الفكر البشري على تجريد المواضيع من أشكالها وخاصيّاتها، تحوّلت إلى أجناس فكريّة فجاء بعد ذلك الفلاسفة، الذين جاء منهم لاحقًا مؤلّفو الكوميديا الجديدة التي ظهرت في الأزمنة الأكثر تحضّرًا لليونان، والذين أخذوا الأجناس الفكريّة للعادات البشريّة وصنعوا منها صورًا لمسرحيّاتهم الكوميديّة.

[§ ٩٣٥] وأخيرًا ابتُدعت الحروف العاميّة التي رافقت ظهور اللغات العاميّة: وبالفعل، هذه الأخيرة تتكوّن من كلمات، هي بصفة ما أجناس الخصوصيّات المستعملة

---

(١) § ٢٠٤، ٢٠٩.

سابقًا في اللغة البطوليّة، وهكذا، تذكيرًا بالمثال الذي أوردناه من قبل[1]، من الجملة البطوليّة التي تقول *دمي يغلي في شراييني* صنعوا قول *أنا غاضب*. وبالطريقة نفسها مثلا، من مئة وعشرين ألف حرف هيروغليفي التي لا يزال يستعملها الصينيّون إلى اليوم، صنعوا حروفًا قليلة تختصر في أجناس المئة وعشرين ألف كلمة التي يشكّل منها الصينيّون لغتهم العاميّة المنطوقة. هذا الابتداع هو دون شكّ من عمل فكر يتجاوز الفعل البشري، لذا سبق أن رأينا[2] كيف أنّ برناردو دا ميلنكروت[3] وإنجيفالدو إيلّينجيو[4] ظنّا أنّه من خلق إلهي. من السهل تفهّم كيف أنّ هذا الحسّ الجماعي بالإعجاب دفع الأمم إلى الاعتقاد في وجود رجال ذوي صفات دينيّة سامية ابتكروا هذه الحروف، مثل القديس إيرونيموس بالنسبة إلى الإيلّيريّين والقديس كيرلس بالنسبة إلى السلافيّين، وقدّيسين آخرين بالنسبة لشعوب أخرى، مثلما لاحظ ذلك وتناوله بالدرس أنجيلو روكّا في كتابه *Biblioteca Vaticana*[5]، حيث إنّ مبتكري الحروف التي نسمّيها *عاميّة* يأتي ذكر سيرتهم مرفقًا بأبجديّاتهم. ويكفي للبرهنة على عدم صحّة هذه الآراء أن نتساءل: لماذا إذن لم يعلّموا حروفهم؟ كنّا قد أشرنا سابقًا إلى هذا الإشكال بخصوص قدموس[6]: يُفترض أنّ هذا الأخير جلب الحروف لليونانيّين من فينيقيا، ومع ذلك فإنّ اليونانيّين بعد ذلك استعملوا حروفًا ذات أشكال مختلفة جدّاً عن شكل الحروف الفينيقيّة.

[§ ٩٣٦] قد سبق أن قلنا[7] إنّ هذه اللغات وهذه الحروف كانت تحت سيادة الشعوب، وهو ما يجعلنا نقول عنها إنّها *عاميّة*. بمقتضى هذه السيادة على اللغات وعلى الحروف، تكون الشعوب الحرّة سيّدة قوانينها، بما أنّهم يعطون للقوانين المعاني التي

---

(١) § ٤٦٠.

(٢) § ٤٢٨.

(٣) اسمه الأصلي Bernhard Von Mallinckrodt [١٥٩١-١٦٦٤] إنكليزي أصيل أسرة نبيلة بروتستانتيّة اعتنق الكاثوليكيّة. كان عميد كاتدرائيّة مونستر.

(٤) Ingewald Eling، مؤلّف كتاب *Historia Graecae linguae*، ١٦٩١.

(٥) Angelo Rocca (١٥٤٥-١٦٢٠) حافظ مكتبة الفاتيكان ومؤلّف *Biblioteca apostolica vaticana* (١٥٩١).

(٦) § ٤٣٠، ٦٧٩.

(٧) § ٤٤٣.

تجبر الأقوياء على احترامها، حتّى دون إرادتهم، مثلما بينّا ذلك في *المسلّمات*[1]. بطبيعة الحال، لا يمكن للملوك أن ينتزعوا هذه السيادة من الشعب. ولكن للطبيعة ذاتها التي تميّز الأمور المدنيّة البشريّة التي لا يُسمح لهم بتغييرها، فإنّ هذه السيادة، التي لا يمكن فصلها عن الشعب، تمثّل قوّة سلطة الملوك، إذ يمكنهم إملاء قوانينهم الملكيّة، التي يتعيّن على الأقوياء الامتثال لها، حسب المعاني التي تعطيها لها الشعوب. هذه السيادة على الحروف وعلى اللغات العاميّة يترتّب عنها ضروريّا، بمقتضى نظام الطبيعة المدنيّة، أنّ الجمهوريّات الشعبيّة الحرّة جاءت قبل الأنظمة الملكيّة.

(1) § ٢٨٣.

[القسم السابع]

ثلاثة أنواع من الشرائع

[§ ٩٣٧] هناك ثلاثة أنواع من الشرائع أو من الحكمة.

[§ ٩٣٨] الحكمة الأولى كانت إلهية، سُمّيت كما سبق قوله *لاهوتية روحانية*[١]، ما معناه *علم الكلمات الإلهية* أو فهم أسرار التكهّن الإلهية، وكانت بهذه الصفة في الآن نفسه علم النذائر الإلهية وحكمة عاميّة كان حكماؤها هم الشعراء اللاهوتيون، الذين كانوا هم الحكماء الأوائل في العالم الوثني. وبسبب هذه اللاهوتيّة الروحانيّة سُمّوا *mystae*، وهو لفظ ترجمه هوراثيوس بدراية *مؤوّلي الآلهة*. لذا، ينتمي إلى هذا الشرع أوّل مؤوّل (*interpretari*) بحصر المعنى، الذي يكاد يكون تقريبًا "*interpatrari*"، أي *الولوج إلى الآباء*، كمّا سُمّي الأرباب في البداية مثلما سبق أن لاحظنا ذلك[٢]، أو كما يقول دانتي[٣] "*indiarsi*"، أي ولوج فكر الربّ. هذا الشرع كان لا يعتبر ما هو حقّ إلاّ بحسب الطقوس الاحتفاليّة الدينيّة. لذا كان الرومان يحيطون *المراسيم الشرعيّة* بالمعتقدات الخرافية، وبقيت من ذلك في قوانينهم تعابير من قبيل *justae nuptiae* و*justum testamentum*، للإشارة إلى الزواج الشرعي وإلى الوصيّة الشرعيّة.

[§ ٩٣٩] والنوع الثاني كان الشرع البطولي، الذي يتمثّل في ضمان ذاته من خلال ألفاظ مناسبة: وتلك هي حكمة أوليس الذي، عند هوميروس، حيث يتكلّم دائمًا بطريقة فيها من المهارة ما يجعله يتحصّل على مبتغاه مستعملا في كلّ مرّة الكلمة المناسبة. لهذا السبب كان كلّ صيت القضاة القدامى يقوم على قدرتهم على التكفّل بوكلائهم (*cavere*) وعلى شرح القانون (*de jure respondere*)[٤]، والذي لا يعدو أن يكون الحذر الذي

---

(١) § ٣٨١.

(٢) § ٤٤٨.

(٣) الفردوس، IV، ٢٨.

(٤) cavere، لفظ قانوني يعني التكفّل بأحدهم في محاكمة ما؛ وde jure respondere يعني توفير نصائح قانونيّة أو توضيح مساءل في القانون.

ينصحون به من يريد المطالبة بحقوقه أمام المحكمة، والذي يتمثّل في أن يقدّم للقاضي عرضًا مفصّلا للوقائع وأن تكون صيغ الأفعال المتعلّقة بها كاملة ومناسبة تمامًا بحيث لا يُمكن للقاضي رفضها. بالطريقة نفسها، في زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى]، كانت سمعة دكاترة القانون تكمن في قدرتهم على إيجاد الاحتياطات لضمان العقود والتراتيب المعلّقة بوصايا الميراث، وفي معرفة صياغة المطالب القانونيّة وكتابة البنود: هذا هو بالذات معنى *cavere* و*de jure respondere* الخاصّيْن بالفقهاء الرومان.

[§ ٩٤٠] أمّا النوع الثالث فقد كان الشرع البشري، الذي يعتبر حقيقة الوقائع ويطوّع بحِلم مقتضيات القوانين للاستجابة إلى كلّ ما تتطلبه مصلحة القضايا المتساوية. وهذا النوع من الشرع هو المطبّق في الجمهوريّات الشعبيّة الحرّة، وأكثر من ذلك في الأنظمة الملكيّة، وسواء الأولى أو الثانية فهي حكومات بشريّة.

[§ ٩٤١] وهكذا فإنّ الشرعيْن الإلهي والبطولي يتمسّكان بما هو مؤكّد في أزمنة الأمم الفظّة، بينما الشرع البشري يولي الاعتبار لما هو حقيقة في الأزمنة التي صارت فيها تلك الأمم مستنيرة. وكلّ هذا نتيجة التعريف بما هو مؤكّد وما هو حقيقي وما جاء في *المسلّمات* التي وضعناها في هذا الخصوص في باب *العناصر*(١).

(١) §§ ١٣٧، ٣٢١-٣٢٢، ٣٢٤-٣٢٥.

[القسم الثامن]

ثلاثة أنواع من السلطة

[§ ٩٤٢] كانت هناك ثلاثة أنواع من السلطة. الأولى منها إلهية، ولا نُسائل بخصوصها العناية الإلهية؛ والثانية بطوليّة، وتقوم بالكامل على الصيَغ السامية للقوانين؛ والثالثة إنسانيّة وتتأسّس على الثقة في أشخاص مجرّبين، ذوي حذر خاصّ في الأمور العمليّة ومعرفة عالية في الأمور الفكريّة.

[§ ٩٤٣] هذه الأنواع الثلاثة من السلطة، التي يستعملها القضاء في المسار المتّبع من طرف الأمم، تستجيب لثلاثة أنواع من السلطة التي تمارسها مجالس الشيوخ، التي تتبدّل داخل تتابعها نفسه.

[§ ٩٤٤] الأولى منها هي سلطة المُلك (*dominio*)، التي بمقتضاها سُمّوا "*autores*" أولئك الذين يملكون حقّ مِلكيّة ما، وهذه الملكيّة تُسمّى دائما "*autoritas*" في قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*. وتعود هذه السلطة إلى الحكومات الإلهية منذ عهد الأُسَر، والتي كانت دون شكّ سلطة الآلهة، لأنّه كان يُعتقد -وبحقّ- أنّ كلّ شيء ملك الآلهة. بعد ذلك، وبطريقة مناسبة، في الأرستقراطيّات البطوليّة، حيث تكوّن مجالس الشيوخ حكومة *الأسياد* (*Signoria*)، مثلما لا يزال يحدث مع أرستقراطيّات زمننا الحالي، كانت السلطة بيد مجالس الشيوخ الحاكمة. ومنه جاء أنّ مجالس الشيوخ البطوليّة تصادق على ما تمّت مداولته من قِبل الشعوب، وكما يقول تيتوس ليفيوس «*ما يأمر به الشعب يصير الشيوخ فاعليه*»[1]. ولكن هذا لا يعود تاريخه إلى حكم رومولوس، مثلما جاء في التاريخ، ولكن في أحطّ أزمنة الأرستقراطيّة، التي مُدّ فيها حقّ المواطنة إلى

(١) ورد باللاتينية: *eius , quod populus iussisset , deinde patres fierent autores*، في *التاريخ الروماني*، I، ١٧، ٩.

العامّـة، مثلمـا سـبق أن رأينا ذلك[1]. هذا الإجراء، كما يقول تيتوس ليفيوس نفسـه، كان «*غالبًا ما يؤدي إلى العنف*»[2]، وكثيرًا ما كان يهدّد باندلاع ثورة، حتّى أنّه عندما كان يريد أن يُنتصر فيها كان الشـعب يعيّن مثلا قناصلة يحظون بمسـاندة مجلس الشـيوخ بالذات، كما يحدث الآن حيث يعيّن الشعب القضاة في الحكومات الملكيّة.

[§ ٩٤٥] بدايـة مـن قانون بوبليليوس فيلون الذي بمقتضاه أُعلِن الشـعب الروماني حـرّاً وسـيّدًا مطلقًـا للإمبراطوريّـة، مثلما سـبق ذكره[3]، كانت سـلطة مجلس الشـيوخ سـلطة وصاية، بالطريقة نفسـها التي كانـت الموافقة التي يمنحهـا الأوصياء لمعاملات القاصرين الذين هم أصحاب الملك تُسمّى *autoritas tutorum*. هذه السلطة ممنوحة للشعب من طرف مجلس الشيوخ في نصّ القانون نفسه المُصاغ سابقًا من قِبل مجلس الشـيوخ، التـي بمقتضاها، وبالطريقة نفسـها التي تمرّ فيها سـلطة الوصـيّ إلى القاصر، يكون مجلس الشيوخ حاضرًا وسط الشعب، حاضرًا في الاجتماعات الكبرى، حاضرًا فـي إصـدار القانـون، إذا أراد الشـعب إصـداره، وإلّا فإنّـه بإمكانـه رفضـه و*probaret antiqua*، أي بعبارة أخرى: لا يريد مستجدّات. وكلّ هذا حتّى لا يتسبّب الشعب عند إصـدار القوانيـن ولضعـف إدراكـه، أضـرارًا بالمصلحـة العامّـة ولكـي يقـوده مجلس الشـيوخ فـي إصـداره للقوانين. ولهذا السـبب فإنّ صِيـغ القوانين التي يسـلّمها مجلس الشيوخ للشعب لكي يصدرها محدّدة تمامًا من طرف شيشرون باعتبارها *prescriptae autoritates*، وليسـت تراخيـص شـخصيّة، مثـل تلـك التـي بحضورهـم يصـادق بهـا الأوصيـاء علـى معاملات قاصريهم، بل هي تراخيص مكتوبـة بكلّ طولها، وهذا معنى فعـل *prescribere*، خلافًـا لصيغ الوثائق القانونيّـة، المكتوبة *per notas* (أي بكلمات مختصـرة)، والتـي لـم يكن يفهمها الشـعب. ما يأمر بـه قانون بوبليليوس هو أنّ سـلطة مجلـس الشـيوخ قـد صـارت، حسـب قـول تيتـوس ليفيـوس *valeret in incertum comitiorum eventum*[4].

---

(١) § ١١٠، ٥٩٨.

(٢) ورد باللاتينية: *saepe spectabat ad vim*، نفسه، ٩، ٦.

(٣) §§ ٢٦، ٣٨، ١٠٤، ١١٢، ١١٣.

(٤) § ١١٣.

[§ ٩٤٦] أخيرًا مرّت الجمهوريّة من الحريّة الشعبيّة إلى الحكم الملكيّ، وتبعًا لذلك ظهر النوع الثالث من السلطة الذي يقوم على الثقة أو على سمعة المعرفة، وعليه فهي سلطة نُصح. هذه السلطة تحت حكم الأباطرة جعلت المشرّعين يُسمّون *autores*. سلطة مجالس الشيوخ تحت الملوك، الذين كانت لهم الحريّة التامّة والمطلقة في اتّباع نصائح مجالس الشيوخ أو عدم اتباعها، هي دون شكّ من هذا النوع.

[القسم التاسع]

ثلاثة أنواع من الحقوق

[الباب الأوّل]

[حقّ الرب وحقّ الدولة]

[§ ٩٤٧] هناك ثلاثة أنواع من الحقوق.

[§ ٩٤٨] الأوّل إلهي، ولا يدركه إلّا الربّ، أمّا البشر فلا يعرفون عنه إلّا ما أنزِل إليهم. وقد كشفه الربّ في البداية لليهود ثمّ للمسيحيّين، بكلمة باطنيّة موجّهة للأذهان؛ لأنّ من يقولها كان الربّ، الذي هو حقّ بحت، وبكلمة خارجيّة وهي كلمة الأنبياء وكلمة يسوع المسيح التي توجّه بها للحوارين ليبلغوها إلى الكنيسة. وكشفه للوثنيّين من خلال النذائر، بواسطة وسطاء الوحي وعلامات جسديّة أخرى يؤوّلونها على أنّها رسائل إلهية؛ لأنّهم كانوا يعتبرونها متأتية من الآلهة التي كان الوثنيّون يعتقدونها متكوّنة من أجساد. لذا في الربّ الذي كلّه حقّ، فإنّ الحقّ والسلطة هما الشيء نفسه، بحيث إنّه في لاهوتيّة صحيحة تحتلّ السلطة الإلهية المكانة نفسها التي يحتلّها الحقّ. وهنا علينا أن نعجب للعناية الإلهية، التي في الأزمنة الأولى -حين كان البشر لا يملكون أيّ إدراك، وكان ذلك بالخصوص في عهد الأُسَر- سمحت لهم بأن يسقطوا في خطأ استبدال الحقّ بسلطة النذائر وأن يحتكموا إليها باتّباع نصائحها التي كانوا يظنّونها إلهية، وذلك بمقتضى خاصيّة سرمديّة تجعل البشر حين لا يرون الحقّ في الأمور الإنسانيّة، بل ويرونها معاكسة لهم، فإنّهم يسلّمون أمرهم للمشيئة المتعذّر إدراكها التي تختفي في أعماق العناية الإلهية.

[§ ٩٤٩] والحقّ الثاني كان حقّ الدولة، الذي يسمّيه الرومان *civilis aequitas*، ويعرّفه أولبيانوس كما رأينا في *المسلّمات*[١]، بأنّه ليس معروفًا طبيعيًّا من كافة البشر، بل فقط من قِبل عدد قليل من المتمرّسين في الحُكم، والذين يعرفون تمييز ما هو ضروري للحفاظ على الجنس البشري، ومنهم مجالس الشيوخ البطوليّة التي تملك طبيعيًّا هذه

---

(١) § ٣٢٠.

المعرفـة، وبخاصـة المجلـس الرومانـي الـذي تميّـز بمعرفـة عاليـة فـي أزمنـة الحريّـة الأرستقراطيّة، التي كان يُمنع فيها بتاتا على العامّة أن يهتمّوا بالشؤون العموميّة، وكذلك في أزمنة الحريّة الشعبيّة، طيلة الفترة التي قبل فيها الشعب أن يقوده مجلس الشيوخ فيما يتعلّق بالشؤون العموميّة، والتي دامت إلى فترة حكم آل غراكوس.

[الباب الثاني]

استنتاج: في الحكمة السياسية لدى الرومان القدامى

[§ ٩٥٠] تبرز هنا معضلة يبدو من الصعب جداً حلّها: كيف يمكن في الأزمنة الفظّة لروما القديمة أن يكون الرومان عالمين جدّا بالأمور السياسيّة، بينما في الأزمنة المستنيرة يقول أولبيانوس[١] إنّه لا يوجد *اليوم إلاّ البعض من المتمرّسين في الحكم ممّن يفهمون في السياسة*؟ والجواب هو أنّه للأسباب الطبيعيّة نفسها التي أنتجت بطولة الشعوب الأولى، فإنّ الرومان القدامى، الذين كانوا أبطال العالم، كانوا حريصين جدّاً فيما يخصّ العدالة المدنيّة، التي كانت دقيقة جدّا فيما يتعلّق بالكلمات التي صيغت بها القوانين. وفي تعلّقهم بصفة تقديسيّة بتلك الكلمات، كانوا يجعلون القوانين تشقّ طريقها دون تردّد عبر الوقائع، حتّى عندما تبدو تلك القوانين صارمة متشدّدة وقاسية - وقد سبق لنا ذكر السبب في ذلك[٢]، - كما يقتضي اليوم حقّ الدولة [أو داعي المصلحة العليا]. هكذا، وبصفة طبيعيّة، كانت العدالة المدنيّة تُخضع كلّ شيء إلى هذا القانون، الذي هو فوق كلّ القوانين الأخرى، والذي صاغه شيشرون بخطورة جديرة بالموضوع كما يلي: «*لتكن سلامة الشعب القانون الأسمى*»[٣]. ذلك أنّه في الأزمنة البطوليّة، حين كانت الدول أرستقراطيّة، مثلما سبق أن بينّا ذلك بالكامل[٤]، كان الأبطال يملكون بصفة خاصّة قسمًا كبيرًا من المنفعة العامّة، تحت شكل الملكيّات الأُسريّة التي احتفظ لهم بها الوطن، وبسبب هذا الامتياز

---

(١) § ٣٢٠.

(٢) §§ ٣٨، ٣٢١-٣٢٢.

(٣) ورد باللاتينية: *Suprema lex populi salus est*، شيشرون، *De legibus*، III، ٣. ٨.

(٤) § ٥٨٤.

الكبير الخاصّ الذي احتفظت لهم به الجمهوريّة، كانوا يضعون في المحلّ الثاني مصالحهم الخاصة الأقلّ شأنًا. ومنه بطبيعة الحال الشهامة التي كانوا يدافعون بها عن الصالح العامّ، الذي هو صالح الدولة، والحكمة التي كانوا يدلون بها بآرائهم في شؤون الدولة. كان ذلك تدبيرًا عظيمًا من العناية الإلهية؛ لأنّ الآباء الجبابرة (*بوليفيموس*)، كما سبق أن رأينا وصْفهم عند هوميروس وأفلاطون[1]، لم يكونوا ليخرجوا من حياتهم الوحشية لزرع الحضارة لو لم يطابقوا مع الصالح العامّ مثل هذا الصالح العظيم الخاصّ، كما سبق أن أظهرنا ذلك[2].

[§ ٩٥١] والعكس تمامًا ما نراه يحدث في الأزمنة الإنسانيّة، حين صارت الدول حرّة وشعبيّة، أو مَلكيّة؛ لأنّه في الأولى كان المواطنون يديرون الصالح العامّ، الموزّع بينهم في أجزاء صغيرة جداً بقدر ما يوجد من مواطنين يكوّنون الشعب الذي له الإشراف عليه، ولأنّه في الثانية يُؤمر الرعايا بالاهتمام بمصالحهم الخاصّة وبترك الصالح العامّ لعناية الأمير العاهل. إلى كلّ هذا تُضاف الأسباب الطبيعيّة التي أنتجت هذه الأشكال من الدول، والتي هي معاكسة تمامًا لتلك التي أنتجت البطوليّة: وهي، مثلما سبق أن بينّا[3]، الميل إلى الراحة، وحبّ الأبناء، وعشق النساء ورغبة العيش. كلّ هذه الأسباب تجعل الإنسان اليوم طبيعيًا منتبهًا لأقلّ الظروف التي يمكن أن تجعل منافعهم الخاصّة متساوية. هذا هو ما يُسمّى *aequum bonum*، الذي يبحث عنه النوع الثالث من الحقوق التي نحن بصدد درسها هنا، والذي هو *الحقّ الطبيعي*، الحقّ الوحيد الذي هو في مقدور الجموع، والذي يسمّيه الفقهاء *aequitas naturalis*[4]. وهذا الأخير يعتبر بالفعل أنّ ما يهمّه هو أصغر أسباب العدالة التي تستحقّها القضايا بحسب الأنواع الفردية

(١) §§ ٢٩٦، ٣٣٨، ٥٢٢، ٦٢٩.

(٢) § ٥٨٤.

(٣) § ٦٧٠ وما يتبع.

(٤) § ٣٢٦.

للوقائع. وفي الأنظمة الملكيّة يُحتاج إلى قلّة من الخبراء في مجال السياسة ليتناولوا بمساواة مدنيّة الشؤون العامّة المستعجلة في المكاتب، وإلى الكثيرين من الفقهاء في القضاء الخاصّ، ذلك الذي يُعنى بالعدالة الطبيعيّة للحكم بين الناس.

[الباب الثالث]

استنتاج: في التاريخ الأساسيّ للقانون الروماني

[§ ٩٥٢] هذه الاعتبارات التي سقناها بخصوص الأنواع الثلاثة من الحقوق يمكن أن تمثّل الأسس التي تسمح لنا بوضع تاريخ القانون الروماني. ذلك أنّ الحكومات تكون مطابقة لطبيعة البشر المعنيّين بذلك الحكم، كما سبق افتراضه في إحدى *المسلّمات*[١]، إذ من طبيعة الأناس الذين يُساسون يأتي حكّامهم، مثلما بيّنّا ذلك سابقًا بالاعتماد على هذه المبادئ[٢]. وعليه، فإنّ القوانين ينبغي أن تتطابق مع الحكومات، ولذا ينبغي فهمها حسب شكل الحكومة. وهو ما لم يفعله حسب ما يبدو أيّ من الفقهاء أو المؤوّلين، الذين سقطوا في الخطأ نفسه الذي سقط فيه من قبلهم المؤرّخون الذين اهتمّوا بالشأن الروماني. وبالفعل فهؤلاء الأخيرون يتحدّثون عن القوانين التي وقع سنّها في الجمهوريّة الرومانيّة في فترات مختلفة ولكن دون أن يعيروا اهتمامًا لعلاقات تلك القوانين بأشكال الحكومة التي مرّت بها تلك الجمهوريّة. ينتج عن ذلك أنّ الوقائع عند هذا الحدّ تُجرّد من أسبابها الخاصّة التي حتّمت إنتاجها بصفة طبيعيّة، ممّا يجعل جان بودان[٣]، الفقيه والسياسي العلاّمة، يؤكّد أنّ ما فعله الرومان القدامى في زمن الحريّة التي نعتها المؤرّخون خطأً بالشعبيّة، كان من فعل الجمهوريّة الأرستقراطيّة، مثلما سبق أن أكّدنا ذلك في هذا العمل[٤]. لكلّ هذه الأسباب، لو سألنا كلّ أولئك الذين زيّنوا تاريخ القانون الروماني لماذا أظهر الفقه القديم كلّ تلك الصرامة في تطبيق قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*؟ ولماذا شرع الفقه الوسيط، مع تراتيب القضاة، في ممارسة بعض الليونة، مع احترام ذلك

---

(١) §§ ٢٤٦ وما يتبع.

(٢) § ٩٢٥-٩٢٧.

(٣) Jean Bodin (١٥٢٩/ ٣٠- ١٥٩٦) مشرّع ومنظّر في الاقتصاد، فيلسوف وصاحب نظريّات سياسيّة كان لها تأثير كبير في أوروبا، ورد في «*الجمهوريّة*»، II، ٦.

(٤) §§ ٦٢٩ وما يتبع.

القانـون؟ ولمـاذا أخذ الفقه الجديد، دون أيّ اعتبار لذلك القانون، وبصفة مكشـوفة، في المنـاداة بسـخاء بالعدالـة الطبيعيّة؟ إذا ما سـألناهم عن كلّ ذلك فسـيقولون إنّ الصرامة، والقداسة، والامتناع، وغموض الكلمات، وأخيرًا سريّة تلك القوانين نفسها كانت جميعها احتيالات من صنيع الأشـراف الذين كانوا يريـدون الحفاظ على القوانين تحت رقابتهم، لأنّها تمثّل في جزء كبير منها قوّة المدينة، وبهذا فهم يهينون بشدّة السخاء الروماني.

[§ ٩٥٣] ولكن هذه الممارسـات ليست احتيالا بقدر ما هي عادات متأتية من طبيعة الإنسان نفسه، والتي بتلك العادات أنتجت تلك الدول التي فرضت تلك الممارسات لا غيرها. وبالفعل، في الزمن الذي كان فيه الجنس البشـري الأوّل في أوج وحشـيّته، حين كان الدين هـو الوسـيلة الوحيدة القويّة بمـا يكفي لتطويعهم، فإنّ العنايـة الإلهية -مثلما سبق أن رأينا[١]- هيّأت البشر لكي يعيشوا تحت حكومات إلهية، ولكي تحكمهم قوانين مقدّسة، أي سريّة وخفيّة عن عامّة الشعب. هذه القوانين، في عهد الأُسَر، كانت لها هذه الخاصيّـة بأكثر طبيعيّة؛ لأنّها كانت محفوظة في لغـات صامتة، تعبّر من خلال الطقوس الاحتفاليـة، والتـي بقيـت بعـد ذلـك في المراسـيم الشـرعيّة، التـي كانت تلـك الأذهان الساذجة تظنّها ضروريّة ليطمئنّوا إلى الإرادة الفعّالة التي يظهرها الغير في تبادل المنافع، بينمـا اليـوم مـع الذكاء الطبيعـي لأذهاننا، تكفي كلمات بسـيطة أو حتى إشـارات حركيّة للتأكّـد منهـا. ثـمّ ظهـرت الحكومـات المتحضرة للـدول المدنيّـة الأرسـتقراطيّة، وفيها تواصلت طبيعيّا ممارسـة تلك العادات الدينيّة، وللسـبب ذاته تواصلت العادة المقدّسـة فـي حفـظ القوانيـن من خلال سـريّتها وإخفائهـا، وهذه السـريّة هـي روح الجمهوريّات الأرسـتقراطيّة. هكـذا أمّنـت الديانة الاحترام الدقيق للقوانين الـذي يمثّل صرامة العدالة المدنيّة التي تحفظ بالأساس الأرستقراطيّات. في وقت لاحق، حين جاءت الجمهوريّات الشـعبيّة، التـي كانـت بطبعها متفتّحة، سـخيّة وحليمة، بما أنّه تحكمهـا المجموعة التي، مثلمـا سـبق أن رأينـا[٢]، تتفهّـم طبيعيًّـا العدالـة الطبيعيّـة، جـاءت في الآن نفسـه اللغات والحروف المسمّاة *عاميّة*، التي كان العامّة كما رأينا أسيادها[٣]، والتي استُعملت لإصدار

---

(١) § نفسه.

(٢) § ٩٥١.

(٣) §§ ٤٤٣، ٩٣٦.

ولكتابـة القوانيـن، وبطبيعـة الحال صارت سـريّتها علنيّة. ويـروي بُمبونيـوس أنّ العامّة الرومـان لـم يعـودوا يتحمّلـون القوانيـن الخفيّـة، ”*jus latens*“[1]، وأرادوا أن تُكتـب القوانيـن علـى ألواح، بمـا أنّ الحروف العاميّة جـاءت من اليونان إلى روما، مثلما سـبق قولـه[2]. هذا النظام من الشـؤون الإنسـانية المتحضّرة كان جاهزًا لقيـام الحكم الملكي، حيث إنّ الملوك يريدون أن تسـنّ القوانين بما يضمن العدالة الطبيعيّة، كما يفهمها عامّة الشعب، وبهذا تساوي في الحقوق بين الأقوياء والضعفاء، وهو ما لا يُمكن أن تفعله إلّا الملكيّـة. لـم تُفهم العدالة المدنيّة أو داعي المصلحـة العليا، إلّا من طرف عدد قليل من العارفيـن بالقانـون العـامّ، وبمقتضـى خاصيّتهـا الدائمـة، احتُفـظ بهـا مخفية في أسـرار المكاتب.

---

(1) § ٢٨٤: بمعنى «قانون خفيّ».

(2) § ٧٦٣.

[القسم العاشر]

أنواع ثلاثة من الأحكام

[الباب الأوّل]

[النوع الأوّل: الأحكام الإلهية]

[§ ٩٥٤] أنواع الأحكام كانت ثلاثة.

[§ ٩٥٥] النوع الأوّل هو الأحكام الإلهيّة التي كانت في حالة البشر المسمّاة بحالة *الطبيعة* (أي عهد الأُسَر) بما أنّه لم تكن توجد سلطة مدنيّة تُمارس من خلال القوانين، كان آباء الأُسَر يحتكمون للآلهة بخصوص الأضرار التي تلحق بهم، وهذا هو المعنى الأوّلي والحرفي لعبارة "*implorare Deorum fidem*"[1]، ويتّخذون الآلهة نفسها شاهدًا على شرعيّة حقّهم، الذي هو المعنى الأوّلي لعبارة "*deos obtestari*"[2]. هذه الاتّهامات وهذه الدّفاعات كانت أولى مرافعات العالم أو *orationes*، بالمعنى البدائي للكلمة، و*oratio* باللاتينيّة بقي يشير إلى الادعاء وإلى الدفاع: وما يشهد على ذلك فقرات جميلة عند بلاوتوس[3] وتيرانسيوس[4]، وفي قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، فقرتان نفيستان فيهما *furto orare* و*pacto orare*، وليس *adorare* كما قرأها ليبس[5]، المستعملة في الحالة الأولى لقول *agere* وفي الحالة الثانية لقول *excipere*. من هذه المرافعات أو *orationes* بقي في اللاتينيّة لفظ *oratores* للإشارة إلى الذين يرافعون في القضايا بالمحاكم. هذا الاستشهاد بالآلهة كان يقوم به في البداية أشخاص بسطاء وأفظاظ، ظانّين أنّ الآلهة تسمعهم، ومتصوّرين إيّاها جالسة على قمم الجبال، مثل هوميروس الذي وضعها فوق جبل أولمب. ويروي تاسيتوس أنّ حربًا اندلعت بين آل

---

(١) § ٦٠٢.

(٢) أي «أشهد الآلهة».

(٣) في *Asinaria*، ١١٣؛ و*Epidicus*، ٣٥٥.

(٤) في *Andria*، ٤٠٧.

(٥) في *Leges regiae et leges decemvirales studiose collectae* في Iusti Lipsi، *Opera omnia*، IV، أنتويرب ١٦٦٨.

إيرمنـدوري وآل كاتـي لأنّهم كانوا يعتقدون بصفة خرافيـة أنّ «*صلوات الفانين لا يُمكن أن تُسـمع بأكثـر قـرب*» (*preces mortalium nusquam propius audiri*)، مـن طرف الآلهة إلّا من قمم الجبال.

[§ ٩٥٦] والأسـباب التـي تبـرّر مثل هذه الأحـكام الإلهية هي أنّهـا متأتية من الآلهة نفسـها، بمـا أنّه في تلـك الأزمنة كان الوثنيّون يتصوّرون أنّ كلّ شـيء متـأتّ من الآلهة: وهكـذا يُقـال *Lar* لملكيّـة المنـزل، و*Dj Hospitales* لحمايـة الضيافـة، و*Dj Penates* للسلطة الأبويّة، و*Deus Genius* لحقّ الزواج، و*Deus Terminus* لملكية الأرض، و*Dj Manes* لحـقّ الدفـن. ونجد لهذا الحقّ الأخير شـهادة نفيسـة في قانـون *الألواح الاثنتي عشرة* تقول *ius deorum manium*.

[§ ٩٥٧] بعد هذه *الخطابات والدعوات* أو *الابتهالات*، وبعد هذه ال *obtestationes* نصـل إلـى طقس نبـذ المذنبين. وعنـد الإغريق، وكذلك دون شـكّ فـي آرغوس، كانت هنـاك معابـد مخصّصة لهـذا النبـذ، وكان المنبـوذون يسـمّون (αναθέματα آناثيماتا)، الذين نقول عنهم اليوم بالإيطالية *scomunicati*. ويُقام ضدّهـم إصدار النذور، وكان هذا أوّل *nuncupare vota*، الذي يعني *النذر المقدّس*، أي باسـتعمال طقوس مقدّسـة، وبها يُكـرَّس المذنبـون للآلهات *Furie* التي كانت بحقّ *Diris devoti*، وبعد ذلك يتمّ قتلهم. هـذا مـا كان يفعلـه السـكوثيّون الذين، مثلما سـبق أن رأينـا[١]، كانوا يزرعون سـكّينًا في الأرض ويعبدونـه كمـا لو كان إلهًـا، ثمّ يقتلون المرء. وكان اللاتينيّون للإشـارة إلى هذا النوع من الإعدام يستعملون فعل *mactare*، الذي بقي لفظًا مقدّسًا يُستعمل في طقوس التضحية، ومنه جاء الفعل الإسباني *matar*، والفعل الإيطالي *ammazzare*، لقول *قتل*. وقد سـبق أن رأينا[٢]، أنّ اليونانيّين احتفظوا بكلمة (ἀρα، آرا) لقول: *الجسـم الذي يضرّ* والنذر وفوريا؛ ولدى اللاتينيّين كانت كلمة *ara* تعني في الآن نفسـه المذبح والضحيّة. بقي إذن من كلّ هذا لدى جميع الأمم شكل من الإقصاء من الدين. وقد ترك لنا يوليوس قيصر وصفًا مفصّلا لذلك الذي وقع عند الغال، وعند الرومان بقي منه الحرمان من النار

---

(١) §§ ١٠٠، ٥١٦.

(٢) § ٧٧٦.

والمـاء، الـذي سـبق أن تحدّثنا عنـه[١]. والعديد من أشـكال العقاب المقـدّس مرّت إلى قانـون *اللوائـح الاثنتيْ عشـرة*: من ذلـك أنّ مَن يغتصـب محامي العامّة (تريبـون)، يُقدَّم قربانًا لجوبيتر، والابن العاقّ يُقدّم قربانًا لآلهة الآباء، ومن يحرق زرع الآخرين يُقدّم إلى سيرس ويُحرق حيًّا. كانت هذه دون شـكّ، وكما سبق أن رأينا، ما كان بلاوتوس يسمّيه «ضحايـا سـاتورن» (*Saturni hostiae*)[٢]. ونـرى أنّ قسـوة العقوبـات الإلهية تشـبه في قسوتها ما تفعله أقسى الساحرات، مثلما رأينا ذلك في *المسلّمات*[٣].

[§ ٩٥٨] هذه الأحكام التي كانوا يمارسونها في ديارهم حملت الشعوب إلى القيام بحـروب كانـوا يصفونهـا «بالحروب الطاهـرة والورعـة» (*pura, et pia bella*)، وكانوا يقومون بها *pro aris et focis*[٤]، من أجل الأمورالمدنيّة سواء العامّة أو الخاصّة، لأنّهم كانوا يؤمنون بألوهيّة كلّ الأشياء الإنسانية. لذا كانت الحروب البطوليّة كلّها حروبًا دينيّة بمـا أنّ نـذراء الحـرب حين إعلانهـا كانوا يطلبون من آلهـة المدينة التـي أعلِنت الحرب ضدّها بالخروج منها، وكانوا يضحّون بالأعداء للآلهة. لهذا السبب كان الرومان يقدّمون الملوك المهزومين إلى جوبيتر فيريتريان، بالكابيتول، وبعد ذلك يقع قتلهم، مثل الكافرين االعنيفين الذين كانوا أولى الضحايا القربانيّة الذين قدّمتهم *فيستا* فوق المذابح الأولى في العالم. والشـعوب التي استسـلمت للمنتصرين كانوا يُعتبرون أناسًا دون ربّ، على مثال الخـدم أو العبيـد الأوائل (*famoli*). من هنا جاء أنّ العبيد، الذين يُعتبرون أشـياء جامدة، سُـمّوا باللاتينيّة *mancipia*، وكانوا يُعاملون في القانون الروماني «مثل الأشـياء» (*loco rerum*).

(١) §§ ٣٧١، ٦١٠.

(٢) § ١٩١.

(٣) § ١٩٠.

(٤) § ٥٦٢.

[الباب الثاني]

استنتاج: في المبارزات والقصاص

[§ ٩٥٩] هناك نوع من الأحكام الإلهية كان في عهد همجيّة الأمم يتمثّل في المبارزات التي كانت قد ظهرت تحت حكم الآلهة القديم جداً واستمرّ مدّة طويلة في عهد الجمهوريّات البطوليّة. وقد سبق أن استشهدنا في هذا الخصوص ضمن *المسلّمات*[(١)] بالفقرة النفيسة لأرسطو في كتاب *السياسة*[(٢)]، حيث يقول إنّ هذه الجمهوريّات البطوليّة لم تكن تملك قوانين قضائيّة لمعاقبة الأضرار الخاصّة وردع العنف بين الخواصّ، وهو ما لم يُصدّق إلى الآن بسبب الفكرة الخاطئة التي أملاها غرور العلماء بخصوص بطوليّة الشعوب الأولى والتي تفترض أنّها كانت متأتية من حكمة القدامى التي لا تُضاهى.

[§ ٩٦٠] في وقت متأخّر -وطرف الحاكم فقط، كما هو مؤكّد- دخلت لدى الرومان سواء أحكام *الحرمان* (*unde vi*) أو الأفعال *de vi bonorum raptorum* و *quod metus caussâ*، مثلما سبق قوله في مواضع أخرى[(٣)]. وفي فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] تواصلت العقوبات الخاصّة إلى زمن بَارْتولوس[(٤)]، والتي كانت أفعالًا شخصيّة (*condictioni*) للرومان القدامى، لأنّ فعل "*condicere*"، حسب فيستوس، يعني «أخبر» (أي أعلم رسميًّا)، وهكذا فإنّ ربّ الأسرة عليه أن يُبلغ من انتزع منه شيئًا بصفة غير شرعيّة بطلب إرجاعه، لكي يسعه بعد ذلك الانتقام. هذا التبليغ بقي إجراءً رسميًّا للأفعال الشخصيّة، مثلما فهم ذلك جيّدًا أولريك زاسيوس[(٥)].

---

(١) § ٢٦٩.

(٢) *في السياسة*، II، 8، 1268b.

(٣) § ٦٣٨.

(٤) اسمه اللاتيني هو Bartolus de Saxoferrato [١٣١٤-١٣٥٧]، رجل قانون أستاذ في الحقوق ومتخصّص في القانون الروماني. مؤلّف كتاب *Tractatus de repressaliis*، ١٣٥٤.

(٥) Ulrich Zasius [١٤٦١-١٥٣٥]، رجل قانون وعالم في الإنسانيّات ألماني. أحد أهمّ الكتّاب في القانون في القرون الوسطى وعصر النهضة. مؤلّف كتاب *De actionibus*، ١٥٥٠، في ٦، ١٥.

[§ ٩٦١] إلّا أنّ المبارزات كانت تتضمّن أحكامًا واقعيّة، والتي لكونها تتمّ حضوريًا (*in re praesenti*)، لا تحتاج إلى *تبليغ*. ومنها بقيت ما يُسمّى ب*vindiciae* أي «مطالبة»، يقوم خلالها المتشكّي بانتزاع مدرة من التراب من المالك الظالم متظاهرًا باستعمال القوّة، وهي قوّة سمّاها آولو جيليو[1] "*festucaria*"، أي «من قشّ». ولكن لفظ *vindiciae* يأتي دون شكّ من القوّة الحقيقيّة التي كانت تُستعمل في السابق، ويحملها إلى القاضي ليعلن بتلك المدرة من التراب "*Aio hunc fundum meum esse ex jure quiritium*"[2]. لذا فإنّ أولئك الذين يكتبون أنّ المبارزات أوجِدت لأنّه كانت تنقص الأدلّة هم على خطأ، وكان عليهم أن يقولوا بالأحرى لنقص الأدلّة القضائيّة. وبالفعل، فمن المؤكّد أن فروتون، ملك الدنمارك، أمر أن تُحلّ كلّ النزاعات عن طريق المبارزة، ومنع اللجوء إلى الأحكام الشرعيّة. ولتفادي الأحكام الشرعيّة فإنّ قوانين اللومبارد والساليّين والإنكليز والبورغونتيّين والنورمان والدنماركيّين والألمان تعجّ بالمبارزات. لهذا السبب يقول كوجاس في كتابه *de Feudis*، إنّ «*المسيحيّين استخدموا طويلا هذا النوع من التطهير سواء في القضايا المدنيّة أو في القضايا الجنائيّة، التي تُحال جميعها على المبارزة*»[3]. وبقي من ذلك عند الألمان أنّ علم المبارزة يضطلع به ما يسمّون بـ "*Reistri*"، الذين يرغمون المتبارزين على قول الحقيقة، لأنّ المبارزات حين يُقبَل فيها الشهود، وكان على القضاة أن يتدخّلوا، فإنّها تصبح أحكامًا جنائيّة أو مدنيّة.

[§ ٩٦٢] ولا يُعتقد أنّه في العهود البربريّة الأولى كانت تُمارس المبارزات؛ لأنّه لم يصلنا من ذلك أيّ ذكر. ولكنّنا لا نفهم كيف أنّ البوليفوموس الذين يذكرهم هوميروس، والذين يتعرّف فيهم أفلاطون على آباء الأُسَر الأوائل في حالة الطبيعة[4]، كان بإمكانهم من هذا المنظار أن يكونوا قادرين، ليس على البرهنة عن شيء من الإنسانيّة، بل وحتّى

(١) § ٦٣٨.

(٢) § ٥٦٢.

(٣) ورد باللاتينية: *Et hoc genere purgationis diu usi sunt Christiani tam in civilibus quam in criminalibus caussis, re omni duello commissâ* في *Opera omnia*، نابولي ١٧٢٢-١٧٢٧، II، ١١٩٣.

(٤) § ٢٩٦.

على تحمّل الأذيّة. وقد قال لنا أرسطو بكلّ ثقة في *المسلّمات*[1] إنّه في الجمهوريّات القديمة جدّاً -فما بالك بعهد الأُسَر الذي جاء قبل المُدن- لم تكن هناك قوانين لجبر الأضرار والمعاقبة للأذيّة التي كان المواطنون يلحقونها ببعضهم الآخر بصفة شخصيّة، مثلما سبق أن بينّا ذلك للتوّ بخصوص الجمهوريّة الرومانيّة القديمة[2]. ولهذا السبب يقول لنا أرسطو أيضًا في *المسلّمات*[3]، إنّ ذلك كان من عادات الشعوب البربريّة، لأنّه -مثلما سبق لنا أن لاحظنا ذلك في الموضع نفسه- في بداياتهم تكون الشعوب بربريّة؛ لم تطوّعهم بعدُ القوانين.

[§ ٩٦٣] ولكن لدينا من هذه النزالات أثرين مهمين: أحدهما في التاريخ الإغريقي والآخر في التاريخ الروماني، تُظهر أنّ الشعوب قد بدأت في شنّ الحروب، التي كان يسمّيها اللاتينيّون القدامى *duella*، بمعارك بين شخصيْن متنازعيْن، حتّى وإن كانا ملكيْن، بينما يبقى الأتباع شهودًا يبتغون علنًا المساندة أو الأخذ بالثأر. وبهذه الطريقة بدأت دون شكّ حرب طروادة بالنزال بين مينلاوس وباريس؛ لأنّ الثاني خطف زوجة الأوّل هيلينا. وإذ بقي مآل النزال غير مؤكّد، فقد نشبت الحرب بين الإغريق والطرواديّين. وكنّا قد لاحظنا سابقًا[4]، نفس العادة عند الأقوام اللاتينيّة في الحرب بين الرومان والألبان، التي شهدت نزالا بين ثلاثة هوراسيّين وثلاثة كورياسيّين، إذ اختطف واحد من التالين هوراتسيا. في هذه الأحكام المسلّحة يتحدّد الحقّ حسب الحظ في النصر: وينبغي لنا أن نرى في ذلك تدبيرًا من طرف العناية الإلهية، التي تريد ألاّ تكون هناك حروب تولّد حروبًا، بين شعوب بربريّة قصيرة النظر وجاهلة بمعنى الحقّ، وأن تترسّخ بهذه الطريقة في أذهانهم فكرة عدالة وظلم البشر حسب مشيئة الآلهة لصالحهم أو ضدّهم. لذا كان الوثنيّون يسخرون من أيّوب المقدّس الذي فقد وضعيّته الملكيّة؛ لأنّ الربّ كان ضدّه. وفي أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]، وللسبب نفسه، كانت تُقطع بصفة وحشيّة اليد اليُمنى للمهزومين، مهما كانت قضيّتهم عادلة.

---

(١) § ٢٦٩.

(٢) § ٩٦٠.

(٣) §§ ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) § ٦٤١.

[§ ٩٦٤] مـن هـذه العـادة التي لوحظت لدى الشـعوب البربريّة نشـأ ما يُسـمّى لدى اللاهوتيّيـن بالعادلـة الخارجيّـة للحـروب، التـي تسـمح للأمـم بالوثوق في سـلطاتهم. وهكـذا، فـإنّ النذائـر التي أسّسـت للسـلطة الأبويّة الملكيّة فـي عهد الأُسَـر، التي هيّأت وحفظت لهم سلطتهم الأرستقراطيّة في المدن البطوليّة، والتي بعد تبليغها للعامّة، مثلما يـروي بوضوح التاريـخ الروماني، أنشـأت الجمهوريّات الحرّة، وأخيرًا شـرّعت بالحظ الـذي أتاحتـه الأسـلحة مـا امتلكه الغـزاة المحظوظـون. وكلّ هـذا لا يمكن، مـن ناحية أخـرى، أن يأتـي إلّا مـن المتصوّر الفطري الكامن في شـعور كلّ الأمـم الذي هو وجود العنايـة الإلهيـة، التي لا يمكن إلّا الانحناء أمامها حين نرى العادلين في بؤس والظالمين في رخاء، مثلما سبق قول ذلك في باب *فكرة عن العمل*[١].

---

(١) § ٢٧.

[الباب الثالث]

[النوع الثاني: الأحكام العادية]

[§ ٩٦٥] أمّا النوع الثاني من الأحكام، المتأتي حديثًا من الأحكام الإلهية، فقد كانت جميعها لهذا السبب نفسه أحكامًا حيث إنّ الألفاظ فيها يقع التقيّد بها بصفة دقيقة جدّاً، والتي حفظت من الأحكام الإلهية التي سبقتها اسم *religio verborum*. بالطريقة نفسها كانت الأمور الإلهية يُعبّر عنها لدى الجميع عبر صيَغ مقدّسة لا يُمكن أن تغيّر منها حرفًا. ومنه جاء القول عن الصيغ القديمة للأفعال «*إن كانت الفاصلة في غير محلّها، فالقضيّة خاسرة*»[١]. ذاك هو القانون الطبيعي *للأقوام* البطوليّة، المتّبع طبيعيًّا من طرف التشريع الروماني، وذاك كان ال *fari* الذي يقوم به الحاكم، حيث الكلام غير قابل للتغيير، ولهذا السبب كانت الأيّام التي يقيم فيها الحاكم العدالة تُسمّى *dies fasti*. هذه العدالة -لأنّ الأبطال فحسب كانوا يتقاسمونها في الأرستقراطيّات البطوليّة- لا بدّ أنّها ذلك ال *fas deorum* للأزمنة التي -مثلما سبق أن فسّرنا ذلك- اتّخذ الأبطال لأنفسم اسم الآلهة[٢]. لهذا السبب أُعطي اسم "*fatum*"(القدر) للنظام المحتوم للعلاّت التي تنتج أشياء الطبيعة، لأنّ تلك هي كلمة الآلهة: ولعلّه من هنا جاء في اللغة الإيطاليّة فعل "*ordinare*"، المستعمل خصوصًا للقوانين بمعنى «إصدار أوامر تستوجب ضروريًّا تنفيذها».

[§ ٩٦٦] وبحكم هذا الأمر، حيث اللفظ يعني في الأحكام صيغة *الفعل المقدّس*، الذي أصدر العقوبة القاسية والمشينة التي حُكِم بها على المتّهم المبجّل هوراثيوس، لم يقدر *الدومفير* أنفسهم على تبرئة ساحته، حتّى وإن ثبتت براءته. والشعب الذي احتكم إليه، برّأه كما قال تيتوس ليفيوس «*لإعجابه بجلالة شخصه أكثر منه لعدالة قضيّته*»[٣].

---

(١) ورد باللاتينية: *qui cadit virgulâ, caussâ cadit*

(٢) § ٤٤٩.

(٣) ورد باللاتينية: *magis admiratione virtutis, quam jure caussae*

وهذا النوع من الأحكام كان ضروريًا في أزمنة أخيل، الذي كان يضع كلّ ما هو حقّ في القوّة، بمقتضى تلك الخاصيّة التي كان يتمتّع بها أصحاب النفوذ، والتي يصفها بلاوتوس بفصاحته المعهودة باعتبارها «*ما اعتُهد به لم يكن وما لم يُعتهد به كان*»[1]، حين يكون ما وعد به الآخرون لا يتّفق مع رغائبهم المتكبّرة، أو حين لا يريدون الإيفاء بوعودهم. وهكذا، لتفادي الخصامات والنزاعات والقتل، فقد شاءت العناية الإلهية أن يكون لهؤلاء البشر بصفة طبيعيّة مفهوم للعدالة كما نصّ عليه القانون، بالحرف والكلمة، من خلال الصيغ الفعليّة المقدّسة. ومن هنا كان التشريع القضائي الروماني وذاك الذي وضعه فقهاؤنا في القرون الوسطى يؤسّس صيته على الدفاع عن الموكّلين. هذا القانون الطبيعي للأقوام البطوليّة وفّر أغراضًا للعديد من مسرحيّات بلاوتس، حيث إنّ المزوّدين بالنساء كانت تُنتزع منهم ظلمًا فتياتهم من الإماء على يد شبّان مغرمين بهنّ، والذين يستعملون حيلا لإسقاطهنّ تحت بعض الصيغ القانونيّة لكي يُحكم عليهنّ بالذنب، رغم براءتهنّ. وليس بإمكانهم فحسب أن يقدّموا قضيّة في الضرر، بل إنّ أحدهم أُجبِر على أن يُرجع إلى الشابّ الذي خدعه الثمن الذي باع له به الأمة؛ وآخر طلب من الشابّ أن يكتفي بنصف الغرامة التي تكبّدها مع كونه ضحيّة سرقة ثابتة؛ وآخر أُرغِم على الفرار من المدينة خشية أن يُتّهم بالتواطؤ مع أَمة شخص آخر. نرى إذن إلى أيّ مدى كانت الأحكام في زمن بلاوتس قائمة على العدالة الطبيعيّة!

[§ ٩٦٧] هذا القانون الصارم لم يكن متّبعًا بصفة طبيعيّة من طرف البشر فحسب، بل إنّ البشر أنفسهم، في حكمهم حسب طبيعتهم اعتقدوا أنّ الآلهة نفسها تراقبهم في قَسَمهم. وهكذا كما يروي هوميروس، أقسمت جونو لجوبيتر -الذي لم يكن الشاهد على الأقسام فقط، بل الحاكم فيها- أنّها لم تطلب من نبتون أن يثير زوبعة ضدّ الطرواديّين، بما أنّها فعلت ذلك عن طريق إله *النوم*، واكتفى جوبيتر بهذا القسم. وهكذا أيضًا ميركور، المتنكّر في سوزيا، نطق لسوزيا الحقيقي بالقسم التالي *إن خدعتك، فليكن ميركور ضدّ سوزيا!*. ولا يذهبنّ بنا الظنّ أنّ بلاوتوس أراد أن يُقحم في *أمفيتريون* أربابًا لكي يعلّموا في المسرح للشعب الحنث بالقسم. وأكثر من هذا، لا نعتقد ذلك من قِبل شيبيون الإفريقي وليليوس، الذي سُمّي *سقراط الروماني*، وهما أميران حكيمان

(١) ورد باللاتينية: *pactum non pactum, non pactum pactum*

جدّاً في الجمهوريّة الرومانية، استعان بهما ثيرانتيوس حسب ما يُقال في تأليف مسرحيّاته، هو الذي في مسرحية *آندريا*ن يتصوّر أنّ دافوس يضع الطفل الصغير أمام باب سيمو على يديْ ميزيس، كي يُمكن له لو حدث أن سأله عنه سيّده عن ذلك، أن ينفي مرتاح الضمير أنّه وضعه بيديْه.

[§ ٩٦٨] ولكن الدليل الأقوى على ذلك هو أنّه في أثينا، مدينة رجال الحصافة والذكاء، حين سمع مشاهدو المسرحيّة بيتًا لأوريبيدس ترجمه شيشرون إلى اللاتينيّة كما يلي:

Juravi linguâ, mentem injuratam habui(١)

استشاطوا غضبًا، مستنكرين؛ لأنّهم كانوا يعتقدون طبيعيًّا أنّ *uti lingua nuncupassit ita ius esto*(٢)، كما يأمر بذلك قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*. ونرى كيف كان من المستحيل على أغاممنون المسكين أن يحنث في النذر الجريء الذي قطعه على نفسه، والذي كان يقضي بأنّ يقدّم قربانًا ويقتل ابنته البريئة الورعة إفيجينيا. ويُمكنّنا هذا من فهم لماذا لوكريس؛ لأنّه لم يرد الاعتراف بالعناية الإلهية، هتف بهذا القول الكافر أمام فعل أغاممنون: *Tantum Relligio potuit suadere malorum*، مثلما سبق أن رأينا ذلك في *المسلّمات*(٣).

[§ ٩٦٩] وأخيرًا لتأكيد ما نسوقه هنا، بإمكاننا أن نذكر نقطتيْن مؤكّدتيْن في التشريع وفي القانون الروماني: أوّلهما أنّه في الأزمنة الأخيرة للجمهوريّة فحسب أدخل غالّوس أكويلوس قضيّة *الجناية* (*dolo*)؛ والثانية أنّ أغسطس هو الذي أعطى للقضاة حقّ تبرئة أولئك الذين خُدعوا وغُرّر بهم.

[§ ٩٧٠] بهذه العادات عاشت الأمم في أوقات السلم؛ بعد ذلك، حين هُزمت في الحروب كانت، حسب حدود المعاهدات المنظّمة للاستسلام، إمّا مقهورة بصفة تعيسة أو مستهزئة بحبور من غضب المنتصرين.

---

(١) أي «أقسمت بلساني ولكن فكري لم يُقسم»

(٢) §§ ٥٧٠، ١٠٣١.

(٣) § ١٩١.

[§ ٩٧١] كان القرطاجيّون مقهورين بحقّ، فهم الذين قبلوا السلم الذي عرضه عليهم الرومان بشرط الحفاظ على أرواحهم ومدينتهم وأملاكهم، والمعنيّ بالمدينة هي المباني التي تُسمّى باللاتينيّة *urbs*. ولكن الرومان استعملوا لفظ *civitas*، الذي يعني مجموعة *المواطنين*، لذا حين مرّوا إلى تنفيذ شروط معاهدة السلم أمروا القرطاجيّين بالخروج من المدينة الواقعة على ساحل البحر والتراجع إلى داخل البلاد، فرفض هؤلاء ذلك الأمر وأمسكوا السلاح للدفاع عن أنفسهم، فاعتبرهم الرومان متمرّدين، وحين استولوا على قرطاج أحرقوها بوحشيّة، باسم حقّ الحرب البطوليّة. لم يرض القرطاجيّون بشروط المعاهدة التي عرضها عليهم الرومان التي لم يفهموها وقت مناقشتها؛ لأنّهم بلغوا درجة من الذكاء أكثر من الآخرين؛ لما يتميّز به الإفريقيّون من الفطنة؛ ولتعوّدهم على التجارة البحريّة التي تجعل الأمم أكثر نباهة. ومع ذلك فإنّ الرومان لم يعتبروا هذه الحرب ظالمة. وبالفعل، بالرغم من أنّ البعض يعتبر أنّ الرومان بدؤوا في شنّ حروب ظالمة مع الحرب ضدّ نومانتسا، التي أنهاها شيبيون الإفريقي نفسه، فجميعهم يؤكّدون مع ذلك أنّ البداية كانت مع تلك المتأخّرة ضدّ كورينثيا.

[§ ٩٧٢] ولكن ما نقوله يجد دعمًا أكبر في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]. حين أملى الإمبراطور كونراد الثالث[١] شروط استسلام مدينة وينزبيرغ، التي ساندت منافسه على الإمبراطوريّة، حيث اشترط ألا يخرج إلّا النساء من المدينة بأمان، مع ما يُمكن لهنّ حمله على ظهورهنّ. عندئذ حمّلت نساء وينزبيرغ الورِعات على الظهر أبناءهنّ وأزواجهنّ وآباءهنّ. والإمبراطور الظافر، الذي كان على باب المدينة محتفلا بانتصاره، الشيء الذي يستثير طبيعيًّا الوقاحة، لم يصغ إلى غضبه، والغضب رهيب عند ذوي السلطة ومميت حين ينشأ من أمر يمنعهم من حوز السيادة أو من الاحتفاظ بها، وبينما كان على رأس جيش سيوفه مسلولة من غمدها ورماح مخفوضة، مستعدّاً لتقتيل رجال ويزنبيرغ، شاهد المنظر وتركهم جميعهم يمرّون أمامه سالمين معافين، مع أنّه كان بإمكانه قطع رؤوسهم بحدّ السيف. نرى هنا إلى أيّ حدّ كان الحقّ الطبيعي للعقل البشري الذي فسّره كلّ من غروتيوس وسلدان وبوفاندورف متّبعًا طبيعيًّا في كلّ الأزمنة ولدى كلّ الأمم!

---

(١) ابن فريدريك الأوّل الصوابي، عاش بين ١٠٩٣ و١١٥٢، وصار إمبراطورًا سنة ١١٣٨.

[§ ٩٧٣] كلّ ما قلناه وكلّ ما سنقوله لاحقًا ينحدر من التعريفات التي ضمنّاها سابقًا في *المسلّمات*[1]، بخصوص ما هو حقيقي [*vero*] وما هو مؤكّد [*certo*] في القوانين والمعاهدات. وفي الأزمنة البربريّة فإنّ الحقّ الملزم الذي تمليه الكلمات، والذي هو بالذات ما يسمّى *fas gentium*، طبيعيّ بقدر ما هو طبيعيّ في الأزمنة المتحضّرة التعامل بالحسنى، الذي يُقاس بتساوي منفعة القضايا، والذي يجب أن يُسمّى بحقّ *fas naturale*، القانون الثابت للبشريّة العاقلة، الذي هو الطبيعة الحقّة وخصوصيّة الإنسان.

---

(١) §§ ٣٢١، ٣٢٤.

[الباب الرابع]

[النوع الثالث من الأحكام: الأحكام البشريّة]

[§ ٩٧٤] الأحكام من النوع الثالث جميعها غير عاديّة[١]، وهي تقوم على حقيقة الوقائع، وفي كلّ مرّة حسب الضرورة، تعاملها القوانين بالحسنى، كما يمليه الضمير، في كلّ ما يستوجبه تساوي منفعة القضايا. وهي مطبوعة بطابع الحياء الطبيعي، الذي هو وليد الذكاء، وتضمنها بالتالي حسن النيّة، التي هي وليدة الحضارة، بطريقة تتماشى مع روح الانفتاح التي تميّز الجمهوريّات الشعبيّة، وأكثر من ذلك مع سخاء الأنظمة الملكيّة، حيث يستمدّ فيها الملوك فخرًا في هذه الأحكام من ترفّعهم عن القوانين وخضوعهم فحسب إلى ضمائرهم وإلى الربّ. ومن هذه الأحكام المعمول بها في الأزمنة الحديثة في أوقات السلم نتجت فيما يخصّ الحرب الأنظمة التي وضعها كلّ من غروتيوس، سلدان وبوفاندورف[٢]. وحين لاحظ فيها الأب نيكولو كونتشينا[٣] الكثير من الأخطاء ومن العيوب، وضع نظامًا آخر أكثر تماشيًا مع الفلسفة الجيّدة وأكثر منفعة للمجتمع البشري، والذي لا يزال يُدرّسه، بمزيد الفخر لإيطاليا، في جامعة بادوفا الموقّرة، مع الميتافيزيقا التي هو أستاذها المتميّز.

---

(١) أي أنّ كلّ قضيّة تواجه على حدة وبتراتيب خصوصيّة.

(٢) § ٣٢٩.

(٣) Niccolò Concina (١٦٩٤-١٧٦٢) من الآباء التابعين للنظام الرهباني الدومينيكاني، كان يدرّس الميتافيزيقا بجامعة بادوفا وكانت له مراسلات مع فيكو ونشر دراستيْن في القانون الطبيعي وفي قانون الناس بين ١٧٣٤ و١٧٣٦.

[القسم الحادي عشر]

أحقاب ثلاث من الزمن

[باب وحيد]

[حقبة الأزمنة الدينيّة والمتشدّدة والمدنية]

[§ ٩٧٥] جميع هذه الأمور التي أخذناها بالدرس وقعت في أحقاب زمنيّة ثلاث.

[§ ٩٧٦] الحقبة الأولى كانت الأزمنة الدينيّة، التي شاهدناها تحت الحكومات الإلهية[١].

[§ ٩٧٧] والثانية كانت حقبة المتشدّدين أمثال أخيل، وفي فترة عودة الهمجيّة [القرون الوسطى]، ما رأيناه لدى المتبارزين[٢].

[§ ٩٧٨] أمّا الحقبة الثالثة فهي الأزمنة المتحضّرة والمعتدلة، أزمنة الحقّ الطبيعي للناس [*gentes*]، الذي عند تعريفه إيّاه يضيف أولبيانوس إلى *gentes* صفة *umane* حين يقول *ius naturale gentium humanarum*[٣]. لذا، لدى الكتّاب اللاتينيّين تحت حكم الأباطرة، يُسمّى واجب الرعيّة "*officium civile*"، وكلّ خطأ يقع ارتكابه ضدّ العدالة الطبيعيّة في تأويل القوانين يُسمّى *incivile*. وهي الحقبة الزمنيّة الأخيرة في التشريع الروماني، وتبدأ في زمن الحريّة الشعبيّة. ينتج عن ذلك أنّ الحكّام في البداية ولملاءمة القوانين مع الطبيعة والعادات وحكومة روما، التي تغيّرت في جملتها، كان عليهم أن يليّنوا وأن يخفّفوا من صرامة وتشدّد قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، الذي وقع سَنُّه حين كان طبيعيًّا في أزمنة روما البطوليّة. بعد ذلك، كان على الأباطرة أن ينزعوا عنه كلّ الأحجبة التي غلّفه بها الحكّام؛ ليكشفوا كلّ ما هو منفتح وسخيّ في العدالة الطبيعيّة، كما يتطلّب التحضّر الذي اعتادت عليه الأمم.

---

(١) §§ ٩١٩، ٩٢٥.

(٢) §§ ٦٦٧، ٩٢٠.

(٣) §§ ٥٦٩، ٩٩٠.

[§ ٩٧٩] لهذا السبب يبرّر المشرّعون بثقافة أزمنتهم -مثلما لاحظنا ذلك- أفكارهم بخصوص العدالة. وبالفعل، هذه الثقافات هي الثقافات الخاصّة بالتشريع الروماني والتي اتّفق عليها الرومان مع كلّ أمم العالم. وقد علّمتها إيّاهم العناية الإلهية، التي اتّخذها المشرّعون الرومان باعتبارها مبدأ الحقّ الطبيعي للشعوب. ولكنّ هذه الثقافات ليست ثقافات الفلاسفة الذين أراد بعض مفسّري القانون الروماني إقحامها فيها بالقوّة، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك في *المسلّمات*(1). والأباطرة حين يريدون تبرير القوانين أو الأوامر التي يصدرونها يقولون إنّ ثقافة أزمنتهم دفعتهم إلى اتّخاذها، مثلما نرى في النصوص التي جمعها برنابي بريسّون(2) في كتابه *de Formulis Romanorum*. وبالفعل فإنّ عادات القرن هي مدرسة الأمراء، باستعمال اللفظ "*seculum*" الذي يشير به تاسيتوس إلى الثقافة الفاسدة في أزمنته حين قال «*أفسِد وكن فاسدً: هو المعمول به*»(3) والذي يُمكن أن نسمّيه اليوم «*موضة العصر*».

(1) §§ ٣١٠، ٣٢٩.

(2) هو Barnabé Brisson [١٥٣١ - ١٥٩١] والعنوان الكامل للكتاب هو *De formulis et solemnibus populi romani verbis libri III*، ١٥٤٩.

(3) ورد باللاتينية: *corrumpere, et corrumpi seculum vocatur*

[القسم الثاني عشر]

براهين أخرى مستمدّة من خصوصيّات الأرستقراطيّات البطوليّة

[تمهيد]

[§ ٩٨٠] إنّ التعاقب المنظَّم للشؤون البشريّة بمثل هذا الاستمرار والدوام في السلسلة القويّة من الأسباب والمسبّبات التي تمّت ملاحظتها في المسار المتّبع من طرف الأمم، لا يمكن إلّا أن يجعل فكرنا يقرّ بحقيقة المبادئ التي انطلقنا منها. ولكن، حتّى لا نترك مجالا للشكّ، نضيف شرح ظواهر مدنيّة أخرى، لا يمكن تفسيرها إلّا بما سبق اكتشافه بخصوص الجمهوريّات البطوليّة.[1]

(١) § ٥٨٢، وما يتبع

[الباب الأوّل]

حفظ الحدود

[§ ٩٨١] إنّ الخصوصيّتيْن الكبيرتيْن الدائمتيْن للجمهوريّات الأرستقراطيّة كانتا، مثلما سبق قوله حفظ الحدود وحفظ الأنظمة[١].

[§ ٩٨٢] بدأ العمل على حفظ الحدود، مثلما رأينا ذلك[٢]، بممارسات دينيّة دمويّة تحت الحكومات الإلهيّة، لأنّه كانت هناك حاجة لرسم حدود الحقول وذلك لوضع حدّ للشراكة المشينة للأملاك في العصر الحيواني[٣]. داخل هذه الحدود كان ينبغي وضع حدود الأُسَر أوّلا، ثمّ حدود *القوم* [*gentes*] أو المنازل، وبعد ذلك حدود الشعوب وأخيرًا تخوم الأمم. ولهذا السبب كان الجبابرة، كما يقول بوليفيموس لأوليس، قد استقرّوا كلّ مع زوجته وأبنائه في كهفه، ولا يتدخّل أيّ منهم في شأن الآخر، محتفظين في هذا بعادات نشأتهم القريبة الفظيعة، فكانوا يقتلون بوحشيّة كلّ من ينفذ داخل حدودهم مثلما كان يريد بوليفيموس أن يفعل بأوليس وأصحابه، ويرى أفلاطون في هذا العملاق، مثلما سبق قوله عديد المرّات[٤]، الآباء في عهد الأُسَر. وأظهرنا فيما سبق[٥] أنّه من هنا تأتي العادة التي طالما عملت بها المُدن وهي أن تعتبر نفسها عدوّة على الدوام إحداها للأخرى. تلك كانت ليونة تقسيم الحقول التي يتحدّث عنها المشرّع هرموجنيانوس[٦]، والتي قبلها بحسن نيّة جميع شارحي القانون الروماني! يكون من

(١) §§ ٥٨٦، ٦٢٩.

(٢) §§ ٤٣٤، ٤٨٦، ٥٥٠، ٥١٧، ٧٧٦.

(٣) § ٣٦٩.

(٤) §§ ٢٩٦، ٣٣٨، ٥٢٢، ٦٢٩، ٩٥٠، ٩٦٢.

(٥) §§ ٦٣٧ وما يتبع

(٦) اسمه اللاتيني Hermogenianus، عاش في القرن الرابع ميلادي. جمّع الدساتير الإمبراطوريّة من سنة ٢٩٠ إلى ٣٦٥ المعروف بـ *Codex Hermogenianus*، كان له أهميّة في تأليف قانون جوستينيان. انظر § ٥٥٠.

الأعقل أن نجعل بداية المذهب الذي يُعلّم ما يسمّى قسمة الأملاك وحوز الملكيّة (de Rerum divisione, et acquirendo earum dominio) من حيث تبدأ مادّته، أي من هذه البداية الأولى والقديمة للأمور البشريّة. وقد تقيّدت طبيعيًا بهذا الحفظ للحدود الجمهوريّات الأرستقراطيّة التي كما يلاحظ الكتّاب السياسيّون لم تُجعل للقيام بالغزوات. ولكن بعد ذلك، عندما انتهت الشراكة المشينة للأشياء، وتحدّدت تخوم الشعوب بصفة رسميّة، جاءت الجمهوريّات الشعبيّة، التي تميل إلى توسيع الإمبراطوريّات، وأخيرًا جاءت الأنظمة الملكيّة، التي تميل أكثر إلى ذلك.

[§ ٩٨٣] لا شكّ أنّ هذا هو السبب، باستبعاد كلّ الأسباب الأخرى، الذي جعل قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* لا يعترف بمجرّد الاستحواذ، والتقادم المكسِب كان يصلح في الأزمنة البطوليّة لترسيم الاقتلاد الطبيعي، بما أنّ أفضل الشارحين يعتمدون على التعريف الذي يرى فيه *dominii adiectio*، من ضمّ ملكيّة مدنيّة إلى الشراء الطبيعي السابق. ولكن بعد ذلك، في زمن الحريّة الشعبيّة، جاء الحكّام، الذين ساندوا الامتلاكات المجرّدة عن طريق النواهي، والتقادم المكسِب تحوّل شيئًا فشيئًا إلى *dominii adeptio*، أي طريقة لشراء من البداية للملكيّة المدنيّة. وبينما في البداية كانت مسائل الملكيّة لا تدخل بالمرّة في الأحكام، لأنّ الحاكم لا يعرفها إلّا بصفة خارجة عن القضاء، للأسباب التي سبق ذكرها[1]، فالآن الأحكام الأكثر تأكّدًا هي تلك المسمّاة *حيازيّة*.

[§ ٩٨٤] لذا وفي جزء كبير منه في فترة الحريّة الشعبيّة بروما، وبالكامل تحت الحكم الملكيّ، اختفى التمييز بين الملكيّات النفعيّة والكويريتيّة والكاملة وأخيرًا المدنيّة، بينما كانت لهذه الألفاظ في الأصل معانٍ مختلفة جداً عن تلك التي تملكها حاليّا. فالأولى كانت تعني الملكيّة الطبيعيّة التي كان يُحتفظ بها بالملك المادي الدائم؛ والثانية كانت تُطلق على الملكيّة التي يُمكن المطالبة بها، والتي كانت شائعة لدى العامّة، الذين منحهم إيّاها الأشراف بمقتضى قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، ولكن العامّة لا يمكنهم المطالبة بها إلّا بالرجوع إلى الأشراف باعتبارهم مؤسّسي الملكيّة التي يملكون منها شهادة ملكيّتها، مثلما سبق أن وضّحنا ذلك بالكامل[2]؛ والثالثة كانت تعني الملكيّة

---

(١) § ٦٣٨.

(٢) §§ ١٠٩، ٦٣٨، ١٠٧٣.

الحرّة من كلّ عبء عموميّ أو خاصّ، وهي التي كانت جارية بين الآباء قبل إرساء الضريبة، وكانت أساس الحريّة الشعبيّة، مثلما سبق قوله[1]؛ والرابعة والأخيرة كانت تعني الملكيّات التي على مَلك المدن نفسها، والذي يُسمّى الآن *بالمُلك السامي*. والفارق بين الملكيّة الكاملة وتلك الكويريتيّة كان قد صار ضبابيًّا منذ أزمنة الحريّة، حتّى أنّ مشرّعي القضاء المتأخّر [أي الفترة الإمبراطوريّة] لم يأخذوه بأيّ اعتبار. ولكن تحت الحكم الملكيّ، ما يُسمّى بالملكيّة النفعيّة، التي نشأت من التقليد الطبيعي الصرف، والملكيّة الكويريتيّة التي نشأت من الحريّة أو التقليد المدني قد تمّ دمجهما من طرف جوستينيان في الدستورين *de nudo jure Quiritium tollendo* و *de Usucapione tansformanda*[2]، والفارق بين ما هو *mancipi* [حرّ] وما هو *nec mancipi* [غير حرّ] انمحى بالكامل. بقيت الملكيّة المدنيّة، بمعنى الملكيّة القابلة للمطالبة، والملكيّة الكاملة، بمعنى الملكيّة التي لا تخضع لأيّ عبء خاصّ.

---

(١) § ٦٢٠.

(٢) في *Institutiones*، VII، ٢٥، ١؛ ٣١، ١.

[الباب الثاني]

حفظ الأنظمة

[§ ٩٨٥] بدأ حفظ الأنظمة في الأزمنة الإلهية مع الغيرة، هكذا رأينا فيما سبق[١] أنّ جونو إلهة الزواج الرسمي كانت غيورة؛ وهذا بهدف تفادي الشراكة المشينة للنساء، وتأمين شرعيّة الخلف داخل الأُسَر. هذا الحفظ هو خاصيّة طبيعيّة للجمهوريّات الأرستقراطيّة، التي كانت تريد إرساء القرابة والتوارث وكذلك الثروات، والسلطة -بفضلها- داخل نظام الأشراف. ومن هنا ظهرت بصفة متأخّرة لدى الأمم القوانين الوراثيّة، وهكذا يروي لنا تاسيتوس أنّه لدى الجرمان القدامى لم يكن هناك أيّ وصيّة ميراث. لهذا السبب، حين أراد الملك آجيس إدخال القوانين الوراثيّة بإسبرطة قُتِل خنقًا بأمر من الإيفوريّين، حرّاس الحريّة السياديّة للأسيدومينيّين، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[٢]. وهذا ما يجعلنا نفهم مدى المعرفة التي يبديها مجمّلو قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* حين يضعون في اللائحة الفصل ١١ "*Auspicia incomunicata plebi sunto*" (النذائر محظورة على العامّة)، إذ أنّه من نذائر الآلهة كانت تأتي كلّ الحقوق المدنيّة، سواء العامّة أو الخاصّة، التي يُحتفظ بها داخل نظام الأشراف! كانت الحقوق الخاصّة هي مراسم الزواج والسلطة الأبويّة وحقّ الوراثة لمن يملك أبناء يكونون ورثته "*sui heredes*" أو أقرباء "*agnati proximi*" أو أهل "*gentiles*"، والتعاقب المشروع والوصايا والوصاية، مثلما سبق ذكره[٣]. وهكذا، بعد أن حُدّدت في اللوائح الأولى -لمدّ كلّ هذه الحقوق لتشمل العامّة- القوانين الخاصّة بجمهوريّة شعبيّة، خصوصًا بقانون الوراثة، يُعطى بعد ذلك إلى هذه الجمهوريّة بمقتضى فصل واحد، في اللائحة ١١، شكل أرستقراطيّ صرف! إلّا أنّه في مثل هذا الخلط للأمور، يقول الشارحون

---

(١) §§ ٥١١، ٥١٣.

(٢) §§ ٥٩٢، ٦٦٨.

(٣) §§ ١١٠، ٥٩٨.

-ومعهم بعض الحقيقة حتّى وإن كان عن طريق الصدفة- إنّه في اللائحتيْن الأخيرتيْن، صارت بعض العادات الرومانيّة القديمة قوانين. وهذه الملاحظة تؤكّد أنّ الدولة الرومانيّة القديمة كانت أرستقراطيّة.

[§ ٩٨٦] بالعودة الآن إلى موضوعنا، نقول إنّه عندما استقرّ الجنس البشري في كلّ مكان بفضل مؤسّسة الزواج الرسميّة، ظهرت الجمهوريّات الشعبيّة، وبعدها بوقت طويل الأنظمة الملكيّة. في هذه الأخيرة، نتيجة للتزاوج مع العامّة من الشعب والتوارث المترتّب عنه، اهتزّت أسس نظام الأشراف، وعليه بدأت الثروات تخرج شيئًا فشيئًا من بيوت الأشراف. وكنّا قد بينّا سابقًا[١] أنّ العامّة الرومان كانوا يتزاوجون طبيعيًّا إلى حدود سنة ٣٠٩ من تاريخ روما، حين تحصّلوا أخيرًا من الأشراف على القِران الرسمي (*connubium*). في تلك الحالة التعيسة، القريبة من حالة أذلّ العبيد، مثلما يصوّرهم لنا التاريخ الروماني، لم يكن العامّة يطمعون في القرابة مع الأشراف. وهذه إحدى النقاط الأساسيّة التي سمحت لنا في الطبعة الأولى لهذا العمل[٢]، بأن نقول إنّه لو لم نعط هذه المبادئ للتشريع القضائي الروماني، لبدا التاريخ الروماني كما سردوه علينا إلى حدّ الآن أغرب من التاريخ الخرافي الإغريقي. وبالفعل نحن لا نعرف ماذا أراد هذا الأخير أن يقول، ولكنّنا نشعر أنّ التاريخ الروماني يتعارض تمامًا في طبيعتنا مع نظام الرغائب البشريّة، إذ أنّه يظهر لنا أناسًا في غاية التعاسة يطمحون في البداية إلى النبالة في صراعهم من أجل الزواج الرسمي (*connubium*)، ثمّ إلى الأمجاد في صراعهم من أجل القنصليّة، وأخيرًا إلى الثروة في طموحهم للكهانة. هذا، بينما تقتضي طبيعة البشر الدائمة أن يطمحوا في البداية للثروة، ثمّ للمجد، وأخيرًا للنبالة.

[§ ٩٨٧] وهكذا نجد أنفسنا مضطرّين لقول إنّه عندما حصل العامّة من الأشراف على الملكيّة المؤكّدة للحقول بمقتضى قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* -الذي كما سبق أن بينّا ذلك[٣] كان القانون الزراعي الثاني في العالم، وهذا بينما كانوا لا يزالون أغرابًا، وهذ النوع من الملكيّة يُمكن بالفعل أن يُمنح للأغراب- أدركوا بالتجربة أنّه لا يمكنهم أن

---

(١) §§ ١١٠، ٥١٣، ٥٢٧، ٥٩٨.

(٢) فيكو، *الأعمال*، طبعة Battistini، ١٧٢٥.

(٣) ١٠٩.

يتركوا حقولهم دون وصيّة (*ab intestato*) لأقربائهم، لأنّه في غياب عقد القِران الرسمي فيما بينهم فهم لا يملكون الحقوق الخاصّة بالأبناء والأقارب والأهل (*agnati* و*agnati proximi* و*gentiles*)، وأقلّ من ذلك الحقّ في ترك وصيّة، بما أنّهم لا يُعتبَرون مواطنين. ولا غرابة في ذلك، بما أنّهم كانوا أناسًا عديمي أو محدودي الذكاء، مثلما تظهر ذلك قوانين فوريا، فوكونيا وفالتشيديا[١]، التي كانت ثلاثتها استفتاءات شعبيّة. كان لا بدّ لهم من هذه القوانين الثلاثة لكي يتحصّلوا أخيرًا مع قانون فالتشيديا على المنفعة التي كانوا يرغبون فيها، أي ألاّ يضمحلّ الإرث في الهبة بالوصيّة. لهذا السبب، على إثر ما حدث في السنوات الثلاث التالية [التي تبعت قانون *اللوائح الاثنتي عشرة*]، أدرك العامّة أنّه بهذه الطريقة، بعد موتهم، تعود الحقول التي مُنِحت لهم إلى الأشراف، وطالبوا بالزواج الرسمي، ومنه بالمواطنة، كما سبق أن وضّحنا ذلك[٢]. ولكنّ النحويّين، وقد شوّش أفكارهم جميع الكتّاب السياسيّين الذين تصوّروا أنّ روما قد أسّسها رومولوس بالشكل نفسه لحكومات المدن الحالية، لم يدركوا أنّ العامّة في المُدن البطوليّة كانوا طيلة قرون عدّة يُعتبرون كالغرباء، وعليه تزاوجوا فيما بينهم على منوال الطبيعة، ولهذا السبب لم يلاحظوا في الجملة التاريخيّة "*plebei tentarunt connubia patrum*" أنّ فهم *connubia patrum* باعتباره يعني *connubia cum patribus*، بالطريقة نفسها التي نقول بها على سبيل المثال في القوانين الخاصّة بالزواج إنّ "*patruus non habet cum fratris filia connubium*"، يكون في الآن نفسه فهمًا خاطئًا على مستوى الواقع، وغير صحيح من ناحية اللغة اللاتينيّة، مثلما ذكرنا ذلك سابقًا[٣]. فلو أنّهم لاحظوا ذلك لأدركوا دون شكّ أنّ العامّة لم يكونوا يطالبون بحقّ التزاوج مع الأشراف، بل بالحقّ الذي يتمتّع به الأشراف في عقد القران الرسمي.

---

(١) اقترح القانون الأوّل محامي العامّة (تريبون) كايوس فوريوس [Caius Furius] بعد سنة ٢٠٠ ق. م. الذي يحدّد قيمة الهبة التي يمكن الحصول عليها. والثاني اقترحه سنة ١٦٩ كوينتوس فوكونيوس [Quintus Voconius] الذي يحجّر على النساء أن يرثن، ويسمح لهن فقط بالهبة. والقانون الثالث الذي اقترحه كايوس فالتشيديوس [Caius Falcidius] ووقع سنّه سنة ٤٠ ق.م. الذي يحدّد أنّ الوريث يحصل على الأقلّ على الربع من الميراث ويضع تحديدات نسبيّة بخصوص الهبات.

(٢) § ٥٩٨.

(٣) § نفسه.

[§ ٩٨٨] إنِ اعتبرنا إذن التوارث الشرعيّ كما يحدّده قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، أي عند وفاة ربّ العائلة يخلفه أوّلا ورثته المباشرون، وفي غيابهم أقرباؤه، وفي غياب هؤلاء أناسه، فإنّه يبدو أنّ قانون *اللوائح* هذا كان بالتحديد هو القانون السالي[١] الروماني. وهذا القانون وقع التقيّد به أيضًا في الأزمنة الأولى لدى الجرمان، وبالإمكان افتراض أنّ هذا ما حصل لدى الأمم الأخرى قبل عودة البربريّة [القرون الوسطى]، وأخيرًا بقي نافذ المفعول بفرنسا، وخارج فرنسا بسافويا. ويسمّي بالدوس حقّ الوراثة هذا بطريقة تتماشى تمامًا مع قولنا بأنّه "*ius gentium gallorum*" [حقّ أناس بلاد الغال][٢]. وبالمثل، فإنّ القانون الروماني الخاصّ بالميراث والمتعلّق بالأقرباء والأناس الفرعيّين يمكن لهذا السبب أن يُسمّى *ius gentium romanorum* [حقّ أناس روما] مع إضافة *Heroicarum* [بطولي]، ولقول ذلك بطريقة أفضل *romanum* [روماني]. وهذا بالتدقيق ما يمكن أن يسمّى *ius quiritium romanorum*، والذي كان القانون الطبيعي المشترك لجميع الأقوام البطوليّة مثلما سبق أن برهنّا على ذلك[٣].

[§ ٩٨٩] وما سبق أن قلناه بخصوص القانون السالي، الذي يمنع النساء من الخلافة على العرش الملكي لا يتناقض، كما يمكن أن يبدو، مع كون تناكيل، التي كانت امرأة حكمت المملكة الرومانية. وبالفعل، كانت تلك صيغة بطوليّة لقول إنّه كان ملكًا ضعيفًا خاضعًا لسيطرة سيرفيوس توليوس المحنّك، الذي اجتاح المملكة الرومانيّة بمساعدة العامّة من الشعب، الذين منحهم القانون الزراعي الأوّل، مثلما سبق أن بينّا ذلك[٤]. وعلى غرار تناكيل، بنفس تورية الكلام البطولي المستعمل من جديد في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى] قيل عن البابا يوحنّا إنّه كان امرأة، وقد كتب ليوني ألآتشي كتابًا كاملا ضدّ هذه الخرافة[٥]، مبيّنا أنّه قيل عنه ذلك لأنّه أبدى ضعفًا كبيرًا حين تصالح

---

(١) نسبة إلى الساليّين الذي يعني الإفرنج. بمقتضى هذا القانون لا يُمكن للنساء وراثة الأرض ولا الصعود على العرش.

(٢) §§ ٦٥٧، ١٠٧٧.

(٣) § ٥٩٥.

(٤) §§ ١٠٧، ٦٠٤، ٦١٣، ٦٢٠، ٦٤٠، ٦٥٣، ٧٦٩.

(٥) هو Leone Allaci وعنوان الكتاب *Confutatio fabulae de Joanna papissa ex monumentis graecis* (١٦٤٥) وهو ينفي فيه أن تكون اعتلت امرأة السدّة البابويّة متظاهرة بأنّها رجل واتّخذت اسم يوحنّا.

مـع فوتيـوس، بطريـق القسـطنطينيّة، مثلما لاحـظ ذلك جيّـدًا بارونيو[1]، ومـن بعده دي سبوندي[2].

[§ ٩٩٠] بعـد حلّ هذه المعضلة، بمقدورنا القول إنّه مثلما استُعمل في البداية قول *ius quiritium romanorum* لقـول *ius naturale gentium heroicarum romanarum*[3]، فبالطريقـة نفسـها، تحـت الأباطـرة، حين عرّف أولبيانـوس، وهو يزن كلماتـه، الحـقّ الجـاري فـي الجمهوريّـات الحـرّة وأكثـر منها فـي الممالك، سـمّاه *ius naturale gentium humanarum*[4]. ولـكلّ هذه الأسـباب في كتـاب *Institutes*، فإنّ العنـوان *De jure naturali, gentivm, et civili* ينبغـي قراءتـه علـى مـا يبدو، *De jure naturali gentium civili* ليـس مع هرمانّـوس فولتيوس[5]، بحذف الفاصلة بين كلمتيْ *naturali* و*gentium*، وتعويـض الفاصلـة الثانية كما فعـل أولبيانوس بـ *humanarum*، بـل وأيضًـا بحـذف الحـرف *et* أمـام *civili*. وبالفعـل فقـد كان الرومـان حريصيـن جدًّا بخصوص حقوقهم، مثلما حفظوها منذ إنشـائها في عصر سـاتورن، في البداية بواسـطة العـادات ثـم عـن طريـق القوانيـن. لـذا فـإنّ فـارّو فـي عملـه *Rerum Divinarum, et Humanarum*، أسند للشؤون الرومانية مصادر أصليّة، دون مزجها بأيّ شيء أجنبي.

[§ ٩٩١] وبالعـودة الآن إلـى الميراث البطولـي الروماني، لدينا شـكوك قويّة في أنّه كان للبنـات فـي الأزمنـة الرومانية القديمـة حقّ الميـراث، بينما حُرمت منه كلّ النسـاء. وبالفعـل ليـس لدينا ما يجعلنا نعتقد أنّ الأبطال الآباء كانوا يكنّون لأبنائهم عطفًا خاصًّا، بينمـا لدينـا شـواهد قويّة وعديـدة تجعلنا نعتقـد العكس تمامًـا. فقانون *اللوائـح الاثنتيْ عشـرة*، علـى سـبيل المثال، يسـتدعي أحد الأقربـاء وإن كان بعيـدًا من الدرجة السـابعة لحرمان ابن من ميراث والده إن كان حرّاً. فالآباء كانوا بالفعل يملكون حقًّا سـياديًّا على

---

(١) هو Cesare Baronio [١٥٣٨-١٦٠٧] مؤلف *الحوليّات الكنسيّة* (١٥٨٨-١٦٠٧).

(٢) هو Henri de Sponde [١٥٦٨-١٦٤٣]، مؤلّف *الحوليات الكنسية* (١٦١٣).

(٣) § ٩٨٨.

(٤) § ٥٦٩.

(٥) اسـمه الأصلـي Hermann Vulteius [١٥٥٥-١٦٣٤] محامـي ألماني، مؤلّف كتـاب *Institutiones iuris civilis*، ١٥٩٠.

الحياة والموت، وأيضًا يملكون سلطة استبداديّة على ممتلكات أبنائهم: كانوا يعقدون زواج أبنائهم بطريقة يدخلون بها في العائلة امرأة جديدة بالأسرة، وهذا ما يقوله لنا فعل *spondere*، الذي يعني حرفيًا *وعد لشخص آخر*، ومنه *sponsalia* (حفل الزواج). وكانوا يعتبرون التبنّي بالطريقة نفسها التي يعتبرون بها الزواج، لأنّهم يرون فيهما وسيلة لتقوية الأُسَر المتهاوية باختيار أبناء من دم آخر قادرين على الإنجاب، ويرون في الانعتاق عقابًا وبليّة. لم يكونوا يعرفون ما هو إثبات النسب، لأنّ المعاشرة لم تكن ممكنة إلّا بالأمة المعتقة أو بالأجانب، اللاتي في الأزمنة البطوليّة لا يُمكن التزوّج بهنّ رسميًّا خشية أن يحطّ الأبناء من نبالة أجدادهم. وكانت وصايا الميراث التي يتركونها تُعتبر، لأسباب تافهة، لاغية أو باطلة أو عديمة الصلاحية، لكي تستعيد الوراثات الشرعية مسارها. كانوا مبهورين طبيعيًّا بسطوع أسمائهم الخاصّة، وعليه فقد كانوا طبيعيًّا متحمّسين أيّما حماس لمجد اسمهم الروماني المشترك! كلّ هذه العادات كانت من خاصيّات الجمهوريّات الأرستقراطيّة، كما كانت كذلك بالنسبة للجمهوريّات البطوليّة، وجميعها خاصيّات تتوافق مع بطوليّة الشعوب الأولى.

[§ ٩٩٢] ويجدر بنا أن نفكّر في الخطأ الفادح الذي سقط فيه أولئك العلماء المزيّنون لقانون *اللوائح الاثنتي عشرة*، الذين يقولون إنّها جاءت من أثينا إلى روما. وبالفعل فإنّ الميراث الشرعيّ (*ab intestato*) الذي يتركه الأب، طيلة الوقت الذي لم تقحم فيه تلك *اللوائح* الميراث بالوصيّة والشرعيّ، كان مصنّفًا من بين ذلك النوع من الأشياء المسمّاة *nullius* [لاغية]. ولكن العناية الإلهية، وحتّى لا يسقط العالم من جديد في الشراكة المشينة للأشياء، أمّنت ثبوت الملكيّة من خلال شكل الجمهوريّات الأرستقراطيّة وبواسطتها: وهكذا فإنّ التوارث الشرعيّ يكون طبيعيًّا ممارسًا لدى جميع الأمم الأولى قبل أن يُفهم معنى الوصايا الوراثيّة، التي هي من خاصيّات الجمهوريّات الشعبيّة وأكثر منها النظم الملكيّة، مثلما يقول ذلك تاسيتوس بخصوص الجرمانيّين، ممّا يجعلنا نستنتج أنّ العادة نفسها كانت متواجدة لدى جميع الشعوب البربريّة الأولى. ولهذا السبب افترضنا أعلاه أنّ القانون السالي، الذي كان دون شكّ نافذًا في جرمانيا، تقيّدت به شموليًّا كلّ الأمم في زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى][1].

---

(١) § ٩٨٨.

[§ ٩٩٣] إلاّ أنّ مشرّعي القضاء المتأخّر، بسقوطهم في هذا المنبع من الأخطاء التي لا تُحصى ولا تُعدّ، التي استعرضناها في هذا العمل والتي تجعلهم يحكمون على أمور الأزمنة الأولى التي بقيت مجهولة بحسب شؤون زمنهم المتأخّر عنها بكثير، اعتقدوا أنّ قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة* نادى ببنات الأُسَر لكي يرثن من آبائهنّ في حال موتهم بموجب وصيّة (*ab intestato*)، وذلك لوجود لفظ *suus* [في عبارة *suus heres*، التي تشير إلى الوريث المباشر]، حسب القاعدة التي يحتوي بها الجنس المذكّر كذلك على الجنس المؤنّث. إلّا أنّ التشريع البطولي، الذي تناولناه كثيرًا في هذا العمل، كان يؤوّل كلمات الشرائع حسب معناها الحرفي، بحيث أنّ لفظ *suus*، يعني فحسب ابن العائلة. ولدينا دليل قاطع على هذا في القول الذي يحدّد الأبناء بعد الموت، والذي أدخله بعد قرون عديدة غالّوس أكويليوس[1]، والذي يقول «*Si quis natus natave erit*»، ليتفادى قول *natus* فحسب، وسيُفهم على أنّه يستبعد البنت الوريثة. وبجهله لهذا الأمر، يقول في كتاب *Institutes*، إنّ قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* أشار بعبارة *adgnatus* إلى الأقرباء الذكور والإناث على حدّ سواء، وأنّه في فترة لاحقة جعل *التشريع الأوسط* هذا القانون أكثر صرامة، مقتصرًا فيه على الأخوات برابطة الدم. إلّا أنّ ما وقع هو العكس تمامًا، ولفظ *suus* تمّ مدّه إلى بنات العائلة، وبعد ذلك شمل لفظ *adgnatus* الأخوات من نفس الدم. لذا فمن باب الصدفة ومع نوع من الحظّ السعيد، فإنّ هذا التشريع سُمّي *بالأوسط*؛ لأنّه بمثل هذه الحالات بدأ يليّن قوانين *اللوائح الاثنتي عشرة*، بينما التشريع القديم الذي جاء قبله حافظ على الألفاظ بدقّة تامّة، كما بيّنا ذلك مطوّلا فيما سبق من القول عن التشريعيْن الأوّل والثاني[2].

[§ ٩٩٤] إلّا أنّ السلطة مرّت من أيدي الأشراف إلى الشعب، وبما أنّ العامّة كانوا يضعون قوّتهم كلّها وثروتهم كلّها وسلطتهم كلّها على جموع أبنائهم، بدأ الشعور بالعطف على من هم من نفس الدم، وهو ما لم يكن العامّة في المدن البطوليّة يشعرون به؛ لأنّهم كانوا ينجبون الأطفال ليكونوا عبيد الأشراف، الذين كانوا يجبرونهم على الإنجاب في أوقات معيّنة لكي يولد صغارهم في الربيع وليكونوا ليس بصحّة جيّدة

(١) اسمه الكامل Caius Aquilius Gallus [١١٦ ق.م - ٤٤ ق.م] مشرّع روماني، سيناتور وحاكم.

(٢) §§ ٩٣٨-٩٤٠.

فقط، بل ومتيني البنية؛ ولهذا السبب حسب علماء الاشتقاق سُمّي أولئك الأطفال *vernae*، وهذا ما يفسّر لنا لماذا سُمّيت اللهجات العاميّة *vernaculae*، مثلما سبق قوله[1]. ولا بدّ أنّ أمّهاتهم كنّ يكرهنهنّ بدلا من أن يحببنهنّ، إذ لا يتحصّلن من ولادتهم إلّا على آلام الوضع وعناء الرضاعة، دون أن يحصلن منهم في حياتهنّ على أيّ متعة أو منفعة. ولكن بقدر ما كانت جموع العامّة خطرة بالنسبة إلى الجمهوريّات الأرستقراطيّة، التي كانت متكوّنة من عدد قليل وتعرّف نفسها بهذه الصفة، بقدر ما كانت تسمح للجمهوريّات الشعبيّة، وأكثر منها للمملكات، بأن تكبر، وهو ما يفسّر كلّ المزايا التي كانت القوانين الإمبراطوريّة تمنحها للنساء بسبب مخاطر وأوجاع الولادة، ومنذ أزمنة الحريّة الشعبيّة بدأ الحكّام يأخذون بعين الاعتبار حقوق الدم ويولون لها حسابًا مع ال *bonorum possessiones* أي حيازة الأخبار السارة: لذا بدأوا يعالجون بتصويباتهم نقائص أو عيوب النصوص الوراثيّة بغاية نشر الثروات التي وحدها كانت تهمّ العامّة.

[§ ٩٩٥] أخيرًا، حين جاء الأباطرة، الذين كانت تضايقهم رفعة الأرستقراطيّة، كرّسوا أنفسهم لتوطيد حقوق الطبيعة البشريّة، التي يشترك فيها كلّ من العامّة والأشراف الرومان، بدءًا من أغسطس، الذي أولى عنايته لحماية متعهّدي الاستئمان، الذين بواسطتهم كانت لا تمرّ قبل ذلك الأملاك إلى من هم عاجزين عن الوراثة إلّا بفضل ضمير الوارثين المحمّلين بالأداء، وساندهم إلى حدّ أنّهم في حياته تحصّلوا على السلطة القانونيّة لإجبار الوارثين على القيام بذلك. وتبعت ذلك العديد من القرارات المشيخيّة التي وضعت الأقرباء بنفس درجة الأنسباء، إلى أن جاء جوستينيان الذي ألغى الفارق بين الهبة بالوصيّة والاستئمان، وأدغم الربع المؤمّن بقانون فالتشيديا وذاك المؤمّن بقانون تريبيليانا، وقلّص من الفارق بين الوصايا وملاحق الوصايا، وفي الوراثة الشرعيّة (*ab intestato*) أقرّ المساواة الكاملة بين الأنسباء والأقرباء. والقوانين الرومانيّة الأكثر تأخّرًا ساندت إلى حدّ بعيد الوصيّة وبينما كانت في الأزمنة القديمة تُلغى لأتفه الأسباب، صارت الآن تؤوّل دائمًا بطريقة تسعى إلى دعم صلاحيتها.

[§ ٩٩٦] تحت تأثير تحضّر الأزمنة، التي جعلت الجمهوريّات الشعبيّة تحبّ أبناءها، والأنظمة الملكيّة التي تريد رؤية الآباء يكنّون الحب لأبنائهم، فإنّ السلطة

---

(١) § ٤٤٣.

الاستبدادية التي كانت لآباء الأُسَر على الأشخاص قد اندثرت، ولكي ينتهي أيضًا حقّهم على أملاك أبنائهم، أدخل الأباطرة في البداية ال *peculium castrense*، لدعوة الشبّان إلى الخدمة العسكريّة، ثمّ وسّعوه ليشمل ال *peculium quasi castrense*، لدعوتهم إلى خدمة الإمبراطوريّة، وأخيرًا، لإرضاء من كانوا غير عسكريّين ولا متعلّمين، أدخلوا ال *peculium adventitium*. ونزعوا من السلطة الأبويّة تأثيرها على التبنّي، الذي لم يعد مقتصرًا على عدد قليل من العلاقات القريبة. وأيّدوا بصفة شاملة عمليّات التبنّي الصعبة *[arrogazioni]*[1]؛ لأنّه في هذه التبنيّات الشكليّة يصبح المواطنون، الذين كانوا آباء عائلات بحقّ كامل، رعايا في عائلة شخص آخر. ونظروا إلى الانعتاق باعتباره إيجابيًّا، وأعطوا للإقرار الشرعي بالبنوّة المُسمّى "*per subsequens matrimonium*" كلّ القوّة التي للزواج الرسمي. ولكن وبالخصوص، بما أنّ السلطة الأبويّة (*imperium paternum*) كانت تبدو أنّها تحدّ من سيادتهم، قرّروا أن تُسمّى "*patria potestas*". وتبعوا في ذلك مثالهم نفسه، كما أدخله بطريقة حكيمة جدّاً أغسطس -الذي لكي لا يثير غيرة الشعب الذي يمكنه أن ينتزع منه البعض من سلطته- اتّخذ لنفسه لقب «حامي الحريّة الرومانيّة» (*tribunicia potestas*)، التي كانت عند «تريبونيّي» أو محاميّ الشعب سلطة فعليّة، لأنّه لم يكن لهم أبدًا سلطة (*imperium*) في مؤسّسة الجمهوريّة. وهكذا في زمن أغسطس نفسه، حين أمر محامي العامّة (تريبون) من لابيون المثول أمامه، رفض هذا الأمير لإحدى *الطائفتين* من المشرّعين الرومان وعن حقّ أن يطيع أمره، لأنّ تريبونيّي الشعب لم يكن لديهم سلطة (*imperium*). ومن ناحية أخرى، لا النحويّون ولا الكتّاب السياسيّون ولا المشرّعون القضائيّون لاحظوا السبب الذي في صراع العامّة من أجل الحصول على القنصليّة، جعل الأشراف الرومان، الذين كانوا يريدون إرضاء العامّة دون الإضرار بحقوقهم من خلال التنازل عن جزء من سلطتهم، جعلهم يجدون حيلة تتمثّل في خلق وظائف التريبون العسكريّ، في جزء منهم أشراف وفي الجزء الآخر من العامّة "*cum consulari potestate*"، وهو ما يقوله التاريخ دائمًا، وليس "*cum imperio consulari*"، الذي لا يقوله التاريخ أبدًا.

---

(١) تعني هذه الكلمة خلق صلة قرابة بين أشخاص لا توجد بينهم رابطة دم.

[§ ٩٩٧] لـذا فـإنّ الجمهوريّـة الرومانيّـة الحـرّة تتلخّـص كلّهـا فـي هـذه الصيـغ الثـلاث: *senatus autoritas*؛ *populi imperium*؛ *tribunorum plebis potestas*. وحافـظ اللفظان *imperium* و*potestas* في الشـرائع على أناقتهمـا ودقّتهما الأصليّتيْن. فـال *imperium* يُقـال بخصـوص كبار الحـكّام، مثل القناصلـة والولاة، ويمتـدّ إلى حدّ الحكـم بالإعـدام؛ أمّـا ال *potestas* فهـي السـلطة التـي تنتمي إلـى صغار الحـكّام، مثل القيّمين و*modica coërcitione continetur*.

[§ ٩٩٨] وأخيـرًا فـإنّ الأمراء الرومان، بنشـر قيـم التسـامح في البشـريّة، شـرعوا في مساعدة من هم في العبوديّة، وكبحوا قسوة الأسياد على عبيدهم المساكين. فوسّعوا من مفعـول الإعتـاق وقلّلـوا من الإجراءات الرسـميّة الخاصّـة به. وحقّ المواطنـة الذي في السـابق كان لا يُمنح إلّا للأجانب ذوي الشـأن الذين يعترف بفضلهم الشـعب الروماني مُنـح لـكلّ المولوديـن برومـا، حتّى من أب عبد، بشـرط أن يكـون من أمّ حـرّة، أو حتّى مُعتقـة. هـذه الطريقـة التـي يولـد بها الأنـاس أحرارًا فـي المُـدن غيّرت من طبيعـة الحقّ الطبيعي، الذي كان في السابق يُسمّى حقّ ال *gentes*، أو أُسَر الأشراف؛ لأنّه في الأزمنة البطوليّـة كلّ الجمهوريّـات كانـت أرسـتقراطيّة، وهذ الحقّ كان امتيازها، مثلما سـبق أن وضّحنـا ذلـك[١]، ليصبح *حقًّا طبيعيًا للأمم*[٢]، حين ظهرت الجمهوريّات الشـعبيّة، التي كانـت فيها الأمم بأسـرها صاحبـة *السـلطة* (*imperium*)، ومن بعدها الأنظمـة الملكيّة، حيث يمثّل الملوك أممًا بأسرها خاضعة لهم.

---

(١) § ٥٥٣-٥٥٧.

(٢) § ٩٩٠.

[الباب الثالث]

في حفظ الشرائع

[§ ٩٩٩] إنّ حفـظ الأنظمـة يجلب معه حفظ القضـاء والكهانة، وكذلك أيضا حفظ الشرائع وعلم تأويلها؛ لذا نقرأ في التاريخ الروماني أنّه في أزمنة الجمهوريّة الأرستقراطيّة، كان حـقّ عقـد القران الرسـمي والقنصليّـة والكهانة جميعهـا خاصّة بالنظام المشـيخي، الذي كان آنذاك متكوّنًا برمّته من أشراف، وأنّ علم شرائعهم كان محفوظًا مقدّسًا وسريًّا، وهو الشيء نفسه، داخل مجمع الأحبار الذي لا يُقبل فيه إلّا الأشراف، مثلما هو الحال فـي جميـع الأمـم البطوليّـة. وقـد دام ذلك لدى الرومـان إلى مـا بعد مئة عام مـن قانون *اللوائـح الاثنتي عشـرة*، حسـب قول المشـرّع بُمبونيـوس[1]. واسـم *viri*، الذي في تلك الأزمنة كان له عند اللاتينيّين المعنى نفسه لـ «بطل» عند الإغريق، بقي ليشير إلى الأزواج في القرانات الرسـميّة، والقضاة والكهنة والحكّام، مثلما سبق قوله[2]. ولكنّنا سنتحدّث هنا عن حفظ الشرائع باعتباره إحدى الخاصيّات الأساسيّة للأرستقراطيّات البطوليّة، ما يفسّر كونها الأخيرة التي تقاسمها الأشراف مع العامّة.

[§ ١٠٠٠] هذا الحفظ كان صارمًا في الأزمنة الإلهية، حتّى أنّ التقيّد بالشرائع الإلهيّة أطلق عليه اسـم *الدين*، وتواصل بعد ذلك لدى كلّ الحكومات التي كانت فيها الشـرائع الدينيّة مقيّدة بجُمل لا تتغيّر ألفاظها المقدّسة وبطقوس احتفاليّة: لا شيء أكثر خصوصيّة للجمهوريّات الأرسـتقراطيّة من هذا الحفظ للشـرائع. والسبب في أنّ أثينا، وعلى مثالها كلّ المدن اليونانيّة الأخرى تقريبًا، انتقلت سريعًا إلى الحريّة الشعبيّة، قدّمه لنا الإسبرطيّون حين قالوا للأثينيّين إنّه في أثينا تُكتب العديد من الشـرائع، بينما في إسـبرطة هناك القليل منها ولكن يقع احترامها.

---

(١) § ٥٨٦.

(٢) § ٦٥٧.

[§ ١٠٠١] والرومان في الحكم الأرستقراطي كانوا حرّاسًا متشدّدين جدًّا لشرائع *اللوائح الاثنتي عشرة*، مثلما سبق أن رأينا ذلك[١]، حتّى أنّ تاسيتوس قال عنها إنّها «*اكتمال كلّ حقّ عادل*»[٢]، إذ أنّه بعد هذه الشرائع - التي كانت دون شكّ لاحقة لمجامع العشرة [ديسمفير]، التي نُسبت إليها لطريقة التفكير التي تميّزها لأنّها ذات خصوصيّة شعريّة وهي كانت طريقة الشعوب القديمة التي سبق أن تحدّثنا عنها[٣] - لم تُسنّ أيّ شريعة قنصليّة في القانون الخاصّ، أو القليل جدّاً منها: ولهذا السبب سمّاها تيتوس ليفيوس «*منبع كلّ حقّ عادل*»[٤]، ذلك أنّها كانت منبع كلّ تأويل. والعامّة الرومان، مثل العامّة الأثينيّين، كانوا يصنعون كلّ يوم قوانين تخصّ حالات منفردة، لأنّهم كانوا غير قادرين على تصوّر الكليّات. سيلاّ، رئيس حزب الأشراف، الذي هزم في وقت لاحق ماريوس، رئيس حزب العامّة، وجد حلاًّ لهذه الفوضى بواسطة ما يُسمّى بالحالات الفرديّة (*quaestiones perpetuae*)[٥]. ولكنّه حين تخلّى عن الحكم عادت القوانين الفرديّة إلى سابق تعدّدها وأكثر، مثلما يروي لنا ذلك تاسيتوس[٦]. وكما يلاحظ الكتّاب في السياسة، ليس هناك وسيلة أسرع للوصول إلى الحكم الملكيّ من تعدّد القوانين. ولهذا السبب، لإرساء الملكيّة سنّ أغسطس العديد منها، والأمراء الذين جاؤوا من بعده استعملوا بالخصوص مجلس الشيوخ لإصدار قرارات مشيخيّة في مجال الحقّ الخاصّ. إلّا أنّه، حتّى في أزمنة الحريّة الشعبيّة، بقي التشدّد في الحفاظ على صيَغ الأفعال، حتّى أنّه احتاج كراسّوس[٧]، الذي كان شيشرون يسمّيه «ديموستين الرومان» لكلّ الفصاحة، لكي يُنظر إلى الاستبدال المُعلن للوصيّ باعتباره يحتوي على ذاك العامّي المضمّن؛ واحتاج كلّ الفصاحة شيشرون لمنع سكستوس إيبوتيوس من الحفاظ على أرض كانت على ملك آولو تشيتشينا بتعلّة أنّه ينقص حرف R بسيط في صياغة الجملة. أخيرًا، عندما

---

(١) § ٩٥٢.

(٢) ورد باللاتينيّة: *finis omnis aequi iuris*، *الحوليّات*، III، ٢٧.

(٣) § ٤٢٢.

(٤) ورد باللاتينية: *fons omnis aequi iuris*، في *التاريخ الروماني*، III، ٣٤، ٦.

(٥) § ٢٨٦.

(٦) *الحوليّات*، III، ٢٧.

(٧) اسمه الكامل هو Marcus Lucinius Crassus [١١٥ ق.م. - ٥٣ ق.م.]. جنرال ورجل سياسة روماني.

ألغى قسطنطين بالكامل تلك الصيَغ، وصل الأمر إلى أنّ كلّ سبب منفرد توجد فيه عدالة أصبح فوق القوانين، وهو دليل على مدى إنسانيّة الأفكار في الحكومات المتحضّرة التي كانت مستعدّة للاعتراف طواعية بالعدالة الطبيعيّة. وهكذا، انطلاقًا من الفصل "*Privilegia ne irroganto*"[1]، في شريعة *اللوائح الاثنتي عشرة*، الذي كانت تتقيّد به الأرستقراطيّة الرومانيّة، نشأت منه تحت الحريّة الشعبيّة، مثلما سبق قوله، عديد القوانين المنفردة، حتّى أنّه تحت حكم الأنظمة الملكيّة لم يبق للأمراء فعل أيّ شيء سوى منح امتيازات، ولا شيء يتماشى مع العدالة الطبيعيّة أكثر من الامتيازات، عندما تُمنح بحسب الجدارة. بل وأكثر، يُمكن القول بحقّ إنّ كلّ الاستثناءات في القوانين التي يتمّ اتّخاذها اليوم هي امتيازات أملتها جدارة خاصّة للوقائع تجعلها تخرج عن التراتيب العاديّة للقوانين.

[§ ١٠٠٢] نعتقد إذن أنّ هذا ما حدث: بفعل قساوة البربريّة المستجدّة [القرون الوسطى]، لم تعد الأمم تعترف بالشرائع الرومانيّة، إلى حدّ أنّ أيّ شخص يستنجد بواحدة منها للدفاع عن قضيّته يقع معاقبته بشدّة في فرنسا، وإعدامه بإسبانيا. والمؤكّد أنّه بإيطاليا، كان الأشراف يرون من العار تسوية شؤونهم بواسطة القوانين الرومانيّة، ويُعلنون خضوعهم للقوانين اللومبارديّة. أمّا العامّة، الذين هم أبطأ في التخلّي عن عاداتهم، فقد كانوا يعملون ببعض القوانين الرومانيّة بحكم العادة. وهذا هو السبب في أنّ نصّ قوانين جوستينيان، وكذلك مجموعات أخرى من نصوص القانون الروماني الغربيّ، عندنا نحن اللاتينيّين، والكتب البازيليّة ومجموعات أخرى من نصوص القانون الروماني الشرقي عند الإغريق، تمّ دفنها. ولكن عندما ظهرت من جديد الأنظمة الملكيّة وعادت من جديد الحريّة الشعبيّة، فإنّ القانون الروماني المضمّن في مدوّنة جوستينيان وقع تقبّله بصفة شاملة، حتّى أنّ غروتيوس أكّد أنّه يمثّل الآن القانون الطبيعي لشعوب أوروبا.

[§ ١٠٠٣] وعلينا أن نعجب هنا من قوّة ومن حكمة الرومان. في هذه التغيّرات للحكم السياسي، عمل الحُكّام والمشرّعون بكلّ ما لديهم من سلطة حتّى لا تفقد

---

(١) حرفيا امتيازات لمنع إلحاق الضرر.

كلمات *اللوائح الاثنتي عشرة* معانيها الحرفيّة إلّا في أبعد وقت ممكن وبأقلّ قدر ممكن. ولعلّه لهذا السبب توسّعت الأمبراطوريّة الرومانيّة واستمرّت إلى ذلك الحدّ؛ ذلك لأنّها، في التغيّرات السياسيّة التي شهدتها، تشبّثت بكلّ ما لديها من قوّة للحفاظ على مبادئها، التي كانت نفس المبادئ التي تأسّس عليها عالم الأمم. وجميع الكتّاب السياسيّين يتوافقون على قول إنّه لا توجد وسيلة أفضل لبناء عظمة الدول ودوامها. وهكذا فإنّ السبب الذي أنتج لدى الرومان أحكم شريعة في العالم، مثلما بيّنا ذلك سابقًا[1]، هو نفسه الذي صنع من إمبراطوريّتهم أعظم إمبراطوريّة في العالم. وهو سبب عظمة الرومان، التي ينسبها بوليبيوس بطريقة عامّة جدّاً إلى ديانة الأشراف، بينما مكيافيلّي ينسبها إلى شهامة العامّة، وبلوتاركوس في حسده لفضيلة الرومان وحكمتهم، إلى حسن حظّهم، في كتابه *de Fortuna Romanorum*[2]، الذي يردّ عليه توركواتو تاسّو بطريقة أقلّ مباشرة من طريقتنا، في ردّه النبيل *Risposta*[3].

(١) § ٩٥٠ وما يتبع

(٢) في الأعمال الأخلاقيّة *Opera moralia*، XLIV.

(٣) Torquato Tasso، في *Risposta di Roma a Plutarco nella quale riprova la sua opinione della fortuna o della virtù d'Alessandro* [ردّ روما على فلوطرخس حيث يعارض رأيه بخصوص حظ أو فضيلة الإسكندر] (١٥٨٨).

[القسم الثالث عشر]

قرائن أخرى مستمدّة من طبيعة الجمهوريّات في امتزاج حكمها بحكم الجمهوريّات التي سبقتها

[الباب الأوّل]

امتزاج أشكال الحكم

[§ ١٠٠٤] كلّ الأشياء التي سبق قولها في هذا الكتاب أظهرت بوضوح أنّ الأمم طيلة حياتها كلّها تتبع نظامًا يجعلها تمرّ بثلاثة أنواع من الجمهوريّات أو من الدول المدنيّة، لا أكثر. وهي تخرج جميعها من الحكومات الإلهية، التي كانت الأولى، وانطلاقًا من هذه البداية، لدى جميع الشعوب، بحسب المسلّمات التي حُدّدت سابقًا[1]، لتصلح مبادئ للتاريخ المثالي السرمدي، هذه السلسلة من الأمور الإنسانيّة تواصلت في البداية مع جمهوريّات الأشراف، ثمّ الجمهوريّات الشعبيّة الحرّة، وأخيرًا الحكومات الملكيّة. ولهذا السبب، فإنّ تاسيتوس، مع أنّه لا يرى أنّها تتتابع حسب هذا الترتيب، يقول -كما سبق أن لاحظنا ذلك في *فكرة عن العمل*[2]- إنّه فيما عدى هذه الأشكال الثلاثة من الدول العامّة، التي رتّبتها الطبيعة، هناك الأشكال الأخرى التي تتكوّن من مزيج هذه الثلاثة بحسب النوايا البشريّة، ولكنّها مرغوب فيها أكثر ممّا هو متاح تحقيقها، وحتّى إن صادف أن وجدت، فهي ليست قابلة للدوام. ولكن كي لا نترك أيّ مجال للشكّ بخصوص هذا التسلسل الطبيعي للدول السياسيّة أو المدنيّة، سنبيّن أنّه في هذا التسلسل من الجمهوريّات تمتزج طبيعيًّا، ليس بمعنى أن يمتزج شكل دولة بشكل آخر؛ لأنّ هذا سينتج أمساخًا، بل بمعنى أن يبقى في شكل دولة لاحقة شيء من الدولة السابقة. هذا المزيج يقوم على المبدأ الذي يقول إنّ البشر في تغيّرهم، يحتفظون لوقت معيّن بانطباع عاداتهم الأولى.

[§ ١٠٠٥] لذا نقول إنّه كما أنّ الآباء الوثنيّين الأوائل، الذين خرجوا لتوّهم من الحياة الحيوانيّة إلى تلك الإنسانيّة، قد حافظوا في الأزمنة الدينيّة في دولة الطبيعة، تحت

---

(١) §§ ٢٤١-٢٤٥.

(٢) § ٢٩.

الحكومات الإلهيّة، على الكثير من شراسة وقساوة نشأتهم الحديثة العهد، حتّى أنّ أفلاطون يتعرّف في بوليفيموس هوميروس على أوّل آباء الأُسَر في العالم، كذلك الأمر حين تشكّلت الجمهوريّات الأرستقراطيّة الأولى، فإنّ السلطات السياديّة الخاصّة التي كانت للآباء في دولة الطبيعة السابقة قد بقيت لهم كاملة. وبسبب كبريائهم العظيم، الذي لا يجعل أحدًا يخضع للآخر بما أنّهم كلّهم سواسية، فقد خضعوا عبر الشكل الأرستقراطي إلى السلطة السياديّة العامّة لأنظمتهم الحاكمة نفسها. وهكذا فإنّ الملكيّات الخاصّة لآباء الأُسَر، التي كانت لا تخضع لأحد، تكوّنت منها الملكيّة العامّة السامية لمجالس الشيوخ، وبالطريقة نفسها التي كانت بالسلطات السياديّة لهم على أسَرهم كوّنوا السلطة المدنيّة السياديّة لأنظمتهم نفسها: ولا يمكن لنا بصفة أخرى أن نفهم كيف استطاعت الأُسَر أن تكوّن المُدن، التي نشأت دون شكّ في شكل جمهوريّات أرستقراطيّة، تمتزج فيها بصفة طبيعيّة السلطة الأسريّة السياديّة.

[§ ١٠٠٦] وطالما احتفظ الآباء بهذه السلطة على ملكيّة الأرض داخل أنظمتهم الحاكمة، بقيت الجمهوريّات أرستقراطيّة، وهذا إلى حين حصول العامّة في الشعوب البطوليّة بمقتضى قوانين منحها الآباء أنفسهم، على الحقّ في الملكيّة الثابتة للحقول وعلى الحقّ في الزواج الرسمي، وعلى السلطات العليا [*imperi*] وكذلك على الكهانة، ومع الكهانة على علم الشرائع. ولكن عندما صار العامّة في المدن البطوليّة كثيري العدد ومضرّسين، إلى حد إثارة خشية الآباء الذين في الجمهوريّات التي يحكمها عدد قليل، كانوا قليلي العدد، وبفضل القوّة التي يمنحها عددهم الكبير، بدؤوا يسنّون القوانين دون سلطة مجالس الشيوخ، تغيّرت الجمهوريّات، ومن جمهوريّات أرستقراطيّة صارت جمهوريّات شعبيّة. وبالفعل لا أحد من هذيْن الشكليْن للجمهوريّة يُمكنه أن يعيش ولو لحظة بسلطتيْن تشريعيّتيْن ساميتيْن، دون أن يكون هناك تمييز بين الرعايا والأزمنة والأراضي التي بخصوصها وفيها وبداخلها يجب أن تُطبّق القوانين. لهذا السبب، مع قانون بوبليليا، أعلن الديكتاتور فيلون أنّ الجمهوريّة الرومانيّة سبق وصارت بطبيعتها شعبيّة. في مثل هذا التغيير وحتّى تحافظ سلطة الملكيّة على ما يمكنها حفظه من شكلها الذي كان قد تغيّر، فقد صارت بصفة طبيعيّة سلطة حماية، بالطريقة نفسها التي تتغيّر بها سلطة الآباء على أبنائهم القاصرين، التي بعد موتهم، تصير عند الآخرين سلطة أوصياء.

بمقتضى هذه السلطة فإنّ الشعوب الحرّة، أصحاب سلطتهم السياديّة، هم بمثابة قاصرين يحكمون؛ ولأنّهم لا يملكون الدراية الكافية لإدراك الصالح العامّ، فإنّهم يضعون أنفسهم طبيعيًّا تحت سلطة مجالسهم كما لو كانت أوصياءهم. وهكذا كانت جمهوريّات حرّة بطبيعتها مُساسة بصفة أرستقراطيّة. ولكن حين عمد أقوياء الجمهوريّات الشعبيّة إلى تقديم مصالحهم الخاصّة على المصلحة العامّة، وحين عمدت الشعوب الحرّة، في تعلّقها بمصالحها الخاصّة، إلى وضع نفسها تحت سلطة الأقوياء وأخضعوا حريّتهم العامّة لطموح هؤلاء الأخيرين، والانقسام إلى أحزاب خلق الثورات والحروب الأهليّة، إلى حدّ التسبّب في خراب أمّتهم نفسها، عندئذ تدخّل الشكل الملكيّ.

[الباب الثاني]

شريعة ملكيّة طبيعيّة وسرمديّة تهنأ بها الأمم في ظلّ الحكم الملكيّ

[§ ١٠٠٧] دخل هذا الشكل الملكيّ بفضل هذه الشريعة الملكيّة الطبيعيّة السرمديّة التي سكنت نفوس كلّ الأمم التي تعترف بأنّ الملكيّة تأسّست لدى الرومان من طرف أغسطس. هذه الشريعة لم ينتبه لها مؤوّلو القانون الروماني؛ لأنّهم كانوا منشغلين جميعهم بخرافة *الشريعة الملكيّة* لتريبونيانو، التي يعترف هذا الأخير بصراحة في كتاب *Institutes*، أنّه هو صانعها، ولكنّه نسبها مرّة إلى أولبيانوس في كتاب *Pandette*. إلّا أنّ المشرّعين الرومان فهموها جيّدًا، إذ كانوا يعرفون جيّدًا قانون الناس الطبيعي، ولهذا السبب، في تاريخه المختصر للقانون الروماني، متحدّثًا عن هذه الشريعة، وصفها بومبونيوس بهذه الجملة المعبّرة "*Rebus ipsis dictantibus regna condita*"[١].

[§ ١٠٠٨] هذه الشريعة الملكيّة الطبيعيّة نشأت من متصوّر المنفعة السرمديّة التالية، وهي أنّه بما أنّه في الجمهوريّات الحرّة لا يهتمّ الجميع إلّا بمصالحهم الخاصّة التي لخدمتها يسخّرون كلّ أسلحتهم ما يؤدّي بالأمم إلى الخراب، فإنّه يجب حفاظًا على الأمم أن يبرز رجل واحد، مثل أغسطس لدى الرومان، الذي بقوّة السلاح أخذ على عاتقه كلّ الشأن العامّ وترك لرعاياه الاهتمام بشؤونهم الخاصّة، وأما بشأن الشؤون العامّة فقط ما يقبل الملك تركه لهم وفي الحدود التي يريدها. بهذا تنجو الشعوب التي بصفة أخرى تجري نحو هلاكها. وهذه حقيقة يتّفق عليها المشرّعون العاديّون حين يقولون «*تُعامل المجموعات تحت حكم ملك مثل أفراد خواصّ*»[٢]، بما أنّ معظم المواطنين لا يعنون بالشأن العامّ. وتاسيتوس، المتضلّع في مادّة قانون الناس الطبيعي، يبيّن هذا جيّدًا في *الحوليّات*[٣]، بخصوص أسرة القياصرة وحدها، متّبعا ترتيب الأفكار

---

(١) مذكورة في § ٥٨٤ مع ترجمتها: «بحكم الوضع، تأسّست الممالك».

(٢) ورد باللاتينية: *Universitates sub Rege habentur loco privatorum*

(٣) *الحوليّات*، I، ٤.

الإنسانية المدنيّة التالي: حين أشرف أغسطس على الموت كان «*عدد قليل يناقش دون جدوى منافع الحريّة*»[1]؛ وما أن اعتلى تيبيروس العرش كانوا «*جميعهم ينتظرون أوامر الأمير*»[2]؛ ثمّ تحت القياصرة الثلاثة، جاءت في البداية اللامبالاة (*incuria*)، وأخيرًا جاء «*جهل أمور الدولة كما لو صارت شيئًا غريبًا*»[3]. لذا، بما أنّ المواطنين صاروا كالغرباء في أمّتهم، صار من اللازم على الملوك أن يقودوهم وأن يمثّلوهم من خلال شخصهم. الآن، بما أنّه في الجمهوريّات الحرّة لكي يمكن لقويّ أن يعتلي العرش لا بدّ له من وجود الشعب إلى جانبه، فعلى الممالك لهذا السبب أن تُحكم بصفة شعبيّة: أوّلا: بمقتضى القوانين التي بواسطتها يحاول الملوك أن يكون جميع رعاياهم سواسية؛ وثانيًا: لهذه الخاصيّة التي تميّز الحكم الملكي والتي تقتضي أن يخضع الملوك الأقوياء وأن يحافظ على جموع الشعب حرّة ومحميّة من اضطهادهم؛ إضافة إلى هذه الخاصيّة الأخرى التي تتمثّل في إرضاء هذه الجموع وإسعادها فيما يخصّ حاجيّاتها الحياتيّة والتمتّع بالحريّة الطبيعيّة؛ وأخيرًا، بواسطة الامتيازات التي يمنحها العاهل لأنظمة بأكملها، والتي تُسمّى *امتيازات الحريّة*، أو إلى أشخاص معيّنين، يحصلون من خلال إجراء خارق (*extra ordinem*)، لجدارتهم الاستثنائية على تشريفات مدنيّة، وهي قوانين خاصّة تمليها العدالة الطبيعيّة. لهذا السبب تظهر الأنظمة الملكيّة باعتبارها الحكم الأكثر ملاءمة للطبيعة البشريّة حين يكون العقل فيها أكثر تطوّرًا، كما سبق قوله[4].

---

(١) ورد باللاتينية: *pauci bona libertatis in cassum disserere*

(٢) ورد باللاتينية: *omnes Principis jussa adspectare*

(٣) ورد باللاتينية: *ignorantia reipublicae, tanquam alienae*

(٤) §§ ٢٩٢، ٩٢٤، ٩٢٧.

[الباب الثالث]

تفنيد مبادئ النظريّة السياسيّة القائمة على نظام جان بودان

[§ ١٠٠٩] على ضوء ما عرضناه بمقدورنا أن نفهم مقدار القيمة العلميّة لمبادئ المذهب السياسي الذي جاء به جان بودان، حين نظّم أشكال الدول المدنيّة حسب الترتيب التالي، وهو أنّه تأتي في البداية الأنظمة الملكيّة، ثمّ بعد مرورها بالاستبداد، صارت حرّة وشعبيّة، وأخيرًا صارت أرستقراطيّة. ويكفينا هنا أننا فنّدنا تمامًا هذا الرأي، وبخاصّة في هذا الكتاب، بالتعاقب الطبيعي للأشكال السياسيّة الذي سبق أن برهنّا عليه بالعديد من القرائن. ولكن يحلو لنا زيادة على ذلك، أن نفنّده بالاستناد على استحالة ولا معقوليّة الموقف الذي يدافع عنه.

[§ ١٠١٠] وهو يتّفق دون شكّ بخصوص هذه الحقيقة مع فكرة: أنّ المُدن تأسّست انطلاقًا من الأُسَر. ولكنّه من ناحية أخرى، ولخطأ شائع سبق أن أشرنا إليه[1]، ظنّ أنّ الأُسَر كانت لا تتكوّن إلّا من الأبناء. الآن نحن نسأله كيف كان بالإمكان للأنظمة الملكيّة أن تنشأ من تلك العائلات؟

[§ ١٠١١] هناك وسيلتان فحسب لتحقيق ذلك: إمّا القوّة أو الحيلة.

[§ ١٠١٢] بخصوص القوّة، كيف يمكن لربّ أسرة أن يُخضع الآباء الآخرين؟ وبالفعل، إذا كان الآباء في الجمهوريّات الحرّة، التي بالنسبة إلى بودان تأتي بعد الأنظمة الاستبدادية، كان آباء الأُسر يكرّسون أنفسهم وعائلاتهم للوطن الذي يحفظ العائلة، في فترة كانوا فيها، حسب رأيه، قد طُوّعوا تحت السلطة الملكيّة، ألا يُمكن أن نفترض أنّ الآباء، حين كانوا لا يزالون أمثال بوليفيموس خرجوا لتوّهم من حريّتهم الحيوانيّة الشرسة، سيضحّون بأنفسهم وبعائلتهم على أن يقبلوا اللامساواة؟

---

(١) §§ ٥٥٢، ٥٨٢–٥٨٥.

[§ ١٠١٣] أمّـا بخصـوص الحيلة فهي تُستعمل من قِبل من يريـد أن يصبح ملكًا في الجمهوريّـات الحـرّة عارضًا على الذين يريد استجلابهم الحريّة والقوّة والثراء. إن كان عـن الحريّـة ففـي عهد الأُسَـر كان الآباء جميعهم أسـيادًا. وإن كان عن القـوّة فإنّ طبيعة البوليفيموس كانت أن يبقوا بمفردهم في كهوفهم وأن يعتنوا بعائلاتهم دون التدخّل في شأن الآخرين، كما تملي عليهم عادات طبيعتهم الوحشيّة. وإن كان عن الثراء، ففي حالة البساطة والزهد في المأكل في الأزمنة الأولى، كانوا لا يعرفون بالمطلق ماذا يعني ذلك.

[§ ١٠١٤] ولكن ما يزيد الأمر صعوبة لا حدّ لها هو أنّه في الأزمنة البربريّة الأولى لم تكن هناك قلاع، والمدن البطوليّة التي كانت متكوّنة من الأُسَـر بقيت طويلا دون أسـوار، كما يؤكّد لنا ذلك ثوقيديدس. ووسط الأحقاد التي كانت تمزّق الدولة والتي كانت مكربة جدّاً بالنسبة للأرستقراطيّات البطوليّة، مثلما سبق قوله، فإنّ فاليريوس بوبليكولا[1] الذي ظُـنّ بـه التوق للاسـتبداد لأنّه بنـى منزله في مكان مرتفـع، لتبرير فعله أمـر بهدمه في ليلة واحـدة، وفـي اليوم التالي دعـا إلى اجتماع عامّ وأمر الليتّوريّيـن بإلقاء حزم القنصليّة عند أقدام الشـعب. وقد دامت العادة في أن تكون المدن دون أسـوار زمنًا طويلاً حيث تعيش الأمم الأكثر شراسة، ونرى في ألمانيا أنّ هنري الأوّل[2] كان أوّل من شرع في نقل الناس من القرى حيث كانوا يعيشـون منعزلين وجلبهم إلى المُدن، وفي إحاطة المُدن بأسـوار. والدليل على ذلك هو أنّ مؤسّسي المُدن الأوائل كانوا أولئك الذين رسموا بخطّ المحراث الحيطان والأبواب (*porte*)، ويقول علماء الاشـتقاق أنّ الأبواب سُـمّيت كذلك من فعل "*portare*" (حمَل أو رفَع)؛ لأنّهم يرفعون المحراث ويحملونه حيث كانوا يريدون وضع فتحة الباب. وهكذا، بسبب شراسة الأزمنة البربريّة من جهة وقلّة أمان القصور الملكيّة من جهة أخرى، في ستّين سـنة في بلاط ملوك إسـبانيا قُتل ما يزيد عن ثمانين شخصًا من دم ملكي، ولكثرة تواتر هذه الجرائم قرّر آباء مجمع إلّيبريس[3]، وهو أقدم مجمع في الكنيسة اللاتينيّة، معاقبة هذه الأفعال الشرّيرة بالحرمان من الكنيسة.

---

(١) اسمه الكامل Publius Valerius Publicola [القرن السادس - القرن السابع ق.م] أحد المنتسبين إلى عائلة فاليري الشهيرة من طبقة أشراف روما. شغل قنصلا لروما سنة ٥٠٩ ق. م.

(٢) هنري الأوّل ملك ألمانيا [٨٧٦- ٩٣٦] الملقّب «صيّاد الطيور» لأنّه كان مغرمًا بالصيد بالباز.

(٣) Elliberis هو الاسم القديم لمدينة إلنا Elna الحالية الموجودة في إقليم أوكسيتانيا بفرنسا في شمال شرقي البلاد.

[§ ١٠١٥] إلّا أنّ الصعوبة تصير لامتناهية إن نحن قبلنا بأنّ الأُسَر كانت متكوّنة من الأبناء فحسب. وبالفعل، في هذا الحال سيكون الأبناء إمّا بالقوّة أو بالحيلة أدوات لطموحات الآخرين، وسيكونون خونة أو قتلة آبائهم، حيث أنّ الدول الأولى لا يمكن لها أن تكون ملكيّة بل دولا استبدادية كافرة وشرّيرة. ومع ذلك، حين تآمر الشبّان النبلاء بروما ضدّ آبائهم لفائدة المستبدّ تاركوينوس، فقد دفعهم إلى ذلك كرهُهم لصرامة القوانين، التي كانت إحدى خاصيّات المُدن الأرستقراطيّة، على منوال القوانين المتسامحة بالنسبة للجمهوريّات الشعبيّة والقوانين الحليمة بالنسبة إلى الممالكات الشرعيّة والقوانين المنحلّة بالنسبة إلى تلك الاستبدادية. وقد جرّب أولئك الشبّان تلك الصرامة بالتضحية بحياتهم، ومن بينهم إبنان لبروتوس، بقطع رأسيْهما، وكان أبوهما نفسه هو من أصدر بحقّهما هذا الأمر القاسي بالإعدام. نرى إذن كيف كانت المملكة الرومانيّة ملكيّة، وكيف كانت الحريّة التي أرساها فيها بروتوس شعبيّة!

[§ ١٠١٦] أمام هذا النوع من الصعوبات المتعدّدة يتعيّن على بودان، ومن معه من الكتّاب السياسيّين، أن يعرف كيف يميّز المَلكيّات الأُسَريّة في دولة الأُسَر، التي سبق أن أثبتنا هنا وجودها، وأن يعترف أيضًا بأنّ الأُسَر كانت متكوّنة لا من الأبناء بل وأيضًا من الخدم (*famoli*)، ومنه جاء بالأساس اسم "*famiglia*" (عائلة، أسرة)، وهؤلاء الخدم كانوا نواة العبيد، الذين جاؤوا من بعد، مع الحروب حين كانت قد تكوّنت المُدن. بهذه الطريقة كان الأحرار والعبيد هم مادّة الجمهوريّات، وهم كذلك بالنسبة إلى بودان، ولكن موقفه يمنع أن يكونوا كذلك.

[§ ١٠١٧] ولأنّ موقفه يجعل من الصعب أنّ يكون الأحرار والعبيد مادّة الجمهوريّات، نرى بودان نفسه يستغرب أنّ أناس أمّته سُموا "*Franchi*" (إفرنج)، بينما يلاحظ أنّهم في الأزمنة الأولى كانوا يُعاملون كعبيد أذلّاء: لأنّه انطلاقًا من موقفه لم يمكنه أن يُبصر أنّ الأمم لم تكتمل إلّا بأولئك الذين تمّ تحريرهم من وثاق [هرقل] بمقتضى قانون بيتيليا[1]. وهكذا فإنّ الإفرنج الذين أثاروا استغراب بودان، هم أنفسهم أولئك الأتباع الفلّاحون الذين يستغرب هوتمان أنّهم سمّوا بالبشر(*homines*)، والذين

---

(١) § ٦٥٨.

كوّنوا، مثلما سبق أن بينّا في هذا العمل[1]، جموع العامّة في الشعوب الأولى، التي كانت شعوب الأبطال. هذه الجموع، مثلما سبق أن أوضحنا أيضًا، أدّت بالأرستقراطيّات إلى الحريّة الشعبيّة، وفي النهاية إلى الملكيّة[2]. وكلّ هذا بفضل اللغة العاميّة التي في الدولتيْن الأخيرتيْن صيغت بها الشرائع، مثلما ذكرنا سابقًا[3]. لذا في اللاتينيّة سُميت اللغات العاميّة "*vernacula*"، لأنّها كانت لغة الخدم المولودين بالبيوت، إذ أنّ هؤلاء الأخيرين كانوا يسمّون *verna*، وليس العبيد الذين أُسِروا في الحروب. كما أوضحنا سابقًا أنّ هؤلاء الخدم المولودين بالبيوت وُجدوا لدى جميع الأمم القديمة منذ عهد الأُسَر[4]. لهذا السبب لم يعد الإغريق يُسمّون *آخيين* (عند هوميروس يُسمّى الأبطال "*filii achivorum*")، بل هلّينيّين، نسبة لهلّين، الذي بدأت معه اللغة العاميّة؛ كما أنّ أبناء إسرائيل تركوا الاسم الذي كان لهم في الأزمنة الأولى ليتّخذوا اسم *الشعب العبري*، نسبة إلى *عابر*، الذي يقول عنه آباء الكنيسة إنّه كان مروّج اللغة المقدّسة. نحن نرى إلى أيّ مدى أبصر بودان وكلّ المنظّرين السياسيّين الآخرين هذه الحقيقة الساطعة، التي تمّت البرهنة عليها بوضوح في هذا العمل، وبالخصوص مع التاريخ الروماني، وهي أنّ العامّة في الشعوب، دائمًا ولدى جميع الأمم، غيّروا الدول من أرستقراطيّة إلى شعبيّة، ومن شعبيّة إلى ملكيّة، وأنّهم بتأسيسهم للغات العاميّة، كما بينّا ذلك في باب *مصادر اللغات*[5]، أعطوا للأمم أسماءها، كما رأينا ذلك للتوّ! وهكذا أعطى الإفرنج القدامى، مع استغراب بودان، اسمهم إلى فرنسا.

[§ ١٠١٨] أخيرًا، فإنّ الدول الأرستقراطيّة التي يُمكننا اليوم التعرّف عليها قليلة جدًّا، وهي من بقايا الأزمنة البربريّة. ونعني بذلك البندقيّة وجنوة ولوكّا بإيطاليا، وراغوزا بدلماتيا، ونورمبرغ بألمانيا، والبقيّة هي دول شعبيّة ذات حكم أرستقراطيّ. وعليه فإنّ بودان نفسه، الذي يقول موقفُه إنّ روما كانت ملكيّة، وإنّ الحريّة الشعبيّة دخلت إلى روما بعد طرد الطغاة، لا يرى نتاجًا في الأزمنة الأولى لروما الحرّة للتأثيرات الموافقة

(١) §§ ٥٥٩، ٥٩٧.

(٢) § ١٠٠٦.

(٣) § ٩٥٣.

(٤) §§ ٤٤٣، ٩٩٤.

(٥) § ٤٤٣.

لمبادئه، وللخروج من ذلك بشرف، مثلما سبق أن لاحظنا ذلك أعلاه، يقول إنّ روما كانت في البداية شعبيّة من ناحية شكل الدولة، ولكنّها أرستقراطيّة من ناحية الحكم، ولكنّه بعد ذلك وأمام قوّة الحقيقة، أقرّ في موضع آخر بتناقض واضح، أنّها كانت أرستقراطيّة لا من ناحية الحكم، بل من ناحية الدولة.

[§ ١٠١٩] هذه الأخطاء، في مجال النظريّة السياسيّة، ناتجة عن ثلاثة ألفاظ غير محدّدة، والتي أشرنا إليها عديد المرّات، وهي *الشعب والمملكة والحريّة*[١]. وهكذا ذهب الظنّ إلى أنّ الشعوب الأولى كانت متكوّنة من مواطنين سواء من العامّة أو من الأشراف، بينما يظهر ألف دليل على أنّها كانت متكوّنة من أشراف فحسب. وذهب الاعتقاد بأنّ الحريّة الشعبيّة لروما القديمة، أي حريّة الشعب إزاء الأسياد، كانت تلك التي بيّنا أنّها كانت الحريّة السياديّة، أي حريّة الأسياد إزاء الطغاة التاركوينيّين. لذا نُصّبت التماثيل التي تمثّل قتلة أمثال أولئك الطغاة؛ لأنّهم قتلوهم بأمر من مجالس الشيوخ الحاكمة. والملوك الذين كانوا يعيشون وسط شعوب همجيّة في قصور غير محصّنة جيّدًا، كانوا أرستقراطيّين، كما كان أرستقراطيّيْن الملكان مدى الحياة لإسبرطة، وهي جمهوريّة أرستقراطيّة دون أدنى شكّ، ومن بعد بروما، جاء القنصلان السنويّان اللذان يسمّيهما شيشرون في كتاب *الشرائع* "*reges annuos*"[٢]. هذه المؤسّسة التي خلقها يونيوس بروتوس، لم تغيّر شيئًا في المملكة من ناحية السلطة الملكيّة، مثلما يعترف تيتوس ليفيوس بذلك بصفة واضحة. وقد سبق أن لاحظنا بالفعل أنّه في زمن حكم أولئك الملوك السنويّين، كان بالإمكان الرجوع إلى الشعب، وأنّه عند انتهاء حكمهم، كان عليهم أن يرفعوا تقريرًا عن إدارتهم لذلك الشعب نفسه. ولاحظنا أيضًا في الأزمنة البطوليّة، أنّ الملوك كانوا يخلعون كلّ يوم أحدهم الآخر من على العرش، مثلما يذكر ثوقيديدس[٣]، وقابلنا ذلك بأزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى] التي نقرأ عنها إنّه لا شيء أكثر شكًّا وتغيّرًا من مصير الممالك. وقد تأمّلنا جيّدًا في الكلمات المناسبة والقويّة التي عهدناها عند تاسيتوس حين استهلّ كتابه *الحوليّات* بقوله إنّ «*روما في البداية كانت*

---

(١) §§ ١٠٥، ٦٦٦.

(٢) § ١٠٨.

(٣) § ٧٦.

بأيدي الملوك»[1]، حيث إنّ فعل *habere* يشير إلى أضعف نوع من أنواع التملّك من بين الثلاثة التي يستعملها المشرّعون، حين يميّزون بين *habere* و *tenere* و *possidere* [أي «ما له»، «ما بحوزته»، «ما هو ملكه»]. ويستعمل لفظ *urbem*، الذي يعني حرفيًّا المباني، للإشارة إلى مُلك ماديّ؛ ولا يقول "*civitatem*"، وهو لفظ يشير إلى مجموعة المواطنين، جميعهم أو معظمهم يشكّلون بإرادتهم القانون العامّ.

(١) ورد باللاتينيّة: *Urbem Romam pricipio reges habuere*. انظر § ٦٤٥.

[القسم الرابع عشر]

القرائن الأخيرة التي تثبت هذا المسار للأمم

[الباب الأوّل]

[القصاص، الحروب، نظام الأرقام]

[§ ١٠٢٠] هنـاك أمثلـة أخرى عن تناسـب المعلولات بالعلاّت التـي يوليها لها هذا *العِلـم* فـي مبادئه، والتي تؤكّد المسـار الطبيعـي الذي انتهجته الأمم فـي حياتها. وكنّا قد ذكرنا العدد الأكبر منها بطريقة منتثرة ودون نظام، ولكنّنا الآن سنجمعها وسنرتّبها داخل التعاقب الطبيعي للأحداث الإنسانيّة المدنيّة.

[§ ١٠٢١] من ذلك أنّ القصاص، في أزمنة الأُسَـر، كان في غاية من القسـوة، مثلما كانـت أشـكال القصاص لـدى الجبابرة البوليفيموس، وفي عهد الأُسَـر هذا سـلخ أبولّو مارسـياس حيًّا. وبقيت على هذا الحال في الجمهوريّات الأرسـتقراطيّة، ومثال ذلك أنّ برسيوس، مثلما سبق أن رأينا، كان يحوّل بترسه إلى حجر كلّ من ينظر إليه. والقصاص سُـمي لدى الإغريق «παραδείγματα، پاراديغماتا»، بالمعنى نفسه الذي كان اللاتينيّون يسـندونه إلـى لفـظ "*exempla*"، بمعنـى المِثـال. وفـي أزمنـة عـودة البربريّـة [القـرون الوسـطى]، مثلمـا لاحظنا ذلـك أيضًا، كان الحكم بالإعدام يُسـمّى *قصاصًـا عاديًّا*. لهذا السـبب فـإنّ شـرائع إسـبرطة – وهي جمهوريّة سـبق أن برهنّـا بعديد القرائـن أنّها كانت أرستقراطيّة – وهي شرائع اعتبرها كلّ من أفلاطون وأرسطو وحشيّة وقاسية، قد حكمت علـى ملك شـهير، هو آجيس، بـأن يُخنق من قِبل الإيفوريّين. وشـرائع روما، حين كانت دولـة أرسـتقراطيّة، حكمـت علـى محـارب باسـل ومظفّر مثـل هوراثيوس بـأن يُضرب بالعصيّ عاريًا، ويُصلب على شجرة الشؤم، مثلما سبق قوله في مناسبة أخرى[1]. ويُعاقب قانون *اللوائح الاثنتي* عشرة من يحرق محاصيل حبوب الغير بأن يُحرق حيًّا، ومن يشهد بالزور أن يُلقى من أعلى الصخرة التاربينيّة، ومن لا يفي بديونه بأن يقطّع إربًا وهو حيّ. ولـم يَعفُ تولّوس هوسـتيليوس من هذا العقاب الأخير عن ميتيوس فوفيتيوس ملك ألبا

---

(١) § ٥٠٠.

نظيره، الذي لم يكن وفيًّا لتحالفه معه. ورومولوس نفسه قبل ذلك، قُطِّع إربًا من طرف الآباء لمجرّد الشبهة بخيانة الدولة. وليتذكّر هذا أولئك الذين يزعمون أنّ مثل هذه العقوبات لم تُمارس قطّ بروما!

[§ ١٠٢٢] بعد ذلك جاءت العقوبات الخفيفة التي كانت جارية في الجمهوريات الشعبيّة، حيث كانت تحكم الجُموع، التي بطبيعتها تميل إلى الرأفة. وحين أدين هوراثيوس المجيد لأنّه قتل في فورة غضب بطولي شقيقته التي رآها تبكي في لحظة جذل عموميّ، عفى عنه الشعب الروماني، إعجابًا منهم بخصاله أكثر من اقتناعهم بعدالة قضيّته، حسب تعبير تيتوس ليفيوس الفصيح والذي سبق أن أوردناه[١]. ومثلما رأينا لتوّنا أفلاطون وأرسطو، في زمن الحريّة الأثينيّة، يلقيان اللوم على الشرائع الإسبرطيّة، كذلك نرى شيشرون، في ليونة الحريّة الشعبيّة بروما، يحتجّ ضدّ عدم إنسانيّة وقسوة حكم الإعدام الذي طولب به ضدّ فارس روماني، مواطن من الخواصّ، أدين بتهمة التمرّد. وأخيرًا جاءت المَلكيّات، حيث كان الأمراء يلتذّون بسماع الغير يصفونهم باللقب الجميل «*حليم*».

[§ ١٠٢٣] وبالطريقة نفسها، في الحروب الوحشيّة للأزمنة البطوليّة كانت المُدن المهزومة تُخرّب، والذين يستسلمون يصبحون جحافل من العمّال اليوميّين، منتشرين عبر الأرياف لزراعة الحقول لحساب الشعوب الظافرة، ومثلما سبق أن ذكرنا ذلك[٢] كانوا يمثّلون المستعمرات البطوليّة الريفيّة. بعد ذلك بفضل تسامح الجمهوريّات الشعبيّة، طالما سيّرت شؤونها مجالس الشيوخ، بينما انتُزع من المهزومين حقّ الأقوام [*gentes*] البطوليّة، تُركت لهم الحريّة التامّة في كلّ ما يتعلّق بالحقوق الطبيعيّة للأقوام الإنسانيّة التي كان يتحدّث عنها أولبيانوس[٣]، وحين امتدّت الغزوات، حُصرت جميع الحقوق التي سُمّيت لاحقًا "*propriae civium romanorum*" على المواطنين الرومان فحسب، وهي المتعلّقة بالزواج الرسمي، والسلطة الأبويّة، وحقّ الوراثة بصفة الورثاء الشرعيّين (*sui heredes*)، والأنسباء والأقرباء (*gentiles* و*agnati proximi*)، للملكيّة

---

(١) ورد باللاتينية: *magis admiratione virtutis, quam jure caussae*، مذكور § ٩٦٦.

(٢) §§ ٥٦٠، ٥٩٥.

(٣) §§ ٥٦٩، ٩٩٠.

الكويريتيّة أو المدنيّة، وحقّ العتق والتقادم المكسِب والاستيعاد ووصايا الميراث ووصايا القاصر والوراثة، بينما قبل خضوعها كانت الأمم الحرّة تملك كلّ هذه الحقوق المدنيّة. أخيرًا، نصل إلى الأنظمة المَلكيّة التي تحت أنطونينوس الورع، كانت تريد خلق روما واحدة من كلّ العالم الروماني. وبالفعل كانت تلك رغبة الملوك العظام الذين يريدون أن يجعلوا من العالم كلّه مدينة واحدة، والإسكندر الأكبر كان يقول هكذا إنّ العالم كلّه هو بالنسبة إليه مدينة واحدة، وكتيبتها هي القلعة. وعليه فإنّ القانون الطبيعي للأمم[1]، الذي طوّره الحكّام الرومان في الولايات، صار بمرور الزمن يوفّر القوانين للرومان أنفسهم. والقانون البطوليّ الروماني المطبّق على الولايات أُلغيَ؛ لأنّ الملوك يريدون أن يكون رعاياهم متساوين بمقتضى قوانينهم. والتشريع البطولي، الذي في الأزمنة البطوليّة كان يقوم كلّه على قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، والذي بعد ذلك -منذ زمن شيشرون، مثلما يلاحظ ذلك في كتاب *de Legibus*[2]- بدأ يتبع في التطبيق منشور *القاضي الروماني*، وأخذ انطلاقًا من حكم الإمبراطور هادريانوس، يتنظّم بالكامل على *المنشور الدائم*، الذي ألّفه ورتّبه سيلفيوس جوليانوس معتمدًا في مجمله تقريبًا على مناشير ولاياتيّة.

[§ ١٠٢٤] من الحدود الضيّقة التي تتلاءم مع الحكم الجيّد للجمهوريّات الأرستقراطيّة، وعبر الغزوات التي كانت الجمهوريّات الشعبيّة مستعدّة لها بكل رضى، نصل أخيرًا إلى الملوكيّات التي كلّما تنامت عظمتها كلّما زادت بهاء وروعة.

[§ ١٠٢٥] من الشكوك الوخيمة الأرستقراطيّة، مرورًا بغليان الجمهوريّات الشعبيّة، وجدت الأمم أخيرًا راحتها مع الأنظمة الملكيّة.

[§ ١٠٢٦] ويحلو لنا أخيرًا أن نبرز كيف أنّ نظام الأرقام، التي هي مجرّدة ونظريّة، ينطبق جيّدًا على هذا النظام من الأمور المدنيّة الذي هو ملموس ومركّب. بدأت الحكومات بحُكم الواحد، مع المَلكيّة الأبويّة. ثمّ مرّت إلى العدد القليل مع الأرستقراطيّات وتنامت لتبلغ العدد الكبير ثمّ الكلّ في الجمهوريّات الشعبيّة، التي كان

---

(١) المعنيّ به هنا ليس القانون الدولي بل القانون الروماني الذي يشمل الولايات.

(٢) *De legibus*، I، ٥، ١٧.

الجميع فيها أو الأغلبيّة يمارسون الحق العامّ؛ وأخيرًا يعودون إلى الواحد مع المَلكيّات المدنيّـة. لا يمكننـا أن نتصوّر في طبيعة الأرقام تقسـيمًا أكثر ملاءمـة ونظامًا مختلفًا عمّا نجـد في الواحد وفي العـدد القليل وفي العدد الكبير والكلّ، العدد القليل والعدد الكبير والـكلّ محتفظيـن كلٌّ في نوعه بالعلاقة بالواحـد، بما أنّ الأرقام تتكوّن ممّا هو غير قابل للتقسيم، حسب أرسطو[1]، وحين نتجاوز الكلّ، يجب أن نعود إلى الواحد. وهكذا فإنّ الإنسانيّة كلّها محتواة بين المَلكيّات الأُسريّة والمَلكيّات المدنيّة.

(١) *ميتافيزيقا*، XIII، ٩، 1085b

[الباب الثاني]

استنتاج
القانون الروماني القديم كان قصيدًا جدّيًا
والتشريع القديم كان شعرًا صارمًا
فيه رسم أوّلي للميتافيزيقا القانونيّة
وكيف أنّه لدى الإغريق نشأت الفلسفة من الشرائع

[§ ١٠٢٧] هنـاك معلولات أخرى كثيرة ومهمة، خاصّة في التشـريع الروماني، تجد علّتها في هذه *المبادئ* نفسـها. وبالخصوص ما ينتج عن المسـلّمة[1] التي تقول إنّ البشر يبتغـون طبيعيًّـا بلـوغ *الحقّ*، وبسـبب تلك الرغبـة، حيث يتعـذّر عليهم بلوغـه، يكتفون *بالمُؤكّد*، ينتج أنّ عمليّات نقل الملكيّة بدأت بيد حقيقيّة (*vera manu*)، أي *بقوّة حقيقيّة*، بما أنّ لفظ *قوّة* هو مجرّد، و« *يد*» هو لفظ يشـير إلى شـيء محسـوس. واليد، لدى جميع الأمم، تعني *السـلطة*، ومنه اللفظ «χειροθεσίαι، خيروثيسياي»، الذي يعني وضع اليد، ولفظ (χειροτονίαι، خيروتونياي)، الذي يعني مدّ اليد، اللذيْن يتحدّث عنهما الإغريق: فـالأوّل هـو الانتخابـات التي كانـت تتمّ بوضع اليـد على رأس من تمّ اختياره لممارسـة السـلطة، والثاني يشـير إلى التهليل بالسـلطة المنتخَبة برفع الأيدي في الهواء. كانت هذه الطقـوس خاصّـة بالأزمنـة الصامتة، وفي أزمنة عـودة البربريّة [القرون الوسـطى]، كانوا يهلّلـون لِلملوك بالطريقة نفسـها. والملكيّـات (*Mancipazioni*) الحقيقيّة الأولى كانت الحوز، وهو المنبع الأوّل والأكبر لجميع المِلكيّات، وقد حافظ الرومان على هذا اللفظ في الحروب، لذا سُمّي العبيد ''*mancipia*''، والغنائم والغزوات كانت بالنسبة للرومان

---

(١) § ١٣٧.

"*res mancipi*"، والتي صارت بفعل النصر "*res nec-mancipi*" بالنسبة للمهزومين. نرى إذن كيف أنّ حوز الملكيّة (*mancipazione*) نشأ داخل أسوار روما وحدها، كطريقة حوز المِلكيّة المدنيّة في العقود التجاريّة الخاصّة للرومان!

[§ ١٠٢٨] هذا الحوز سار بالتوازي مع التقادم المكسِب (*usucapione*) الذي هو أيضًا حقيقيّ، أي حوز الملكيّة، وهو معنى (*capio*)، مع استعمال واقعي، حيث أنّ لفظ "*usus*" يعني هنا «امتلاك» (*possessio*). والامتلاك كان يحصل في البداية بالتواجد الجسدي المتواصل فوق الشيء الممتلَك، حيث إنّ "*possessio*" كان يعني دون شكّ "*porro sessio*"، بمعنى البقاء طويلا جالسًا أو دون حراك، حتّى أنّ اللاتينيّين كانوا يسمّون المساكن "*sedes*"، وليس "*pedum*"، كما يقول علماء الاشتقاق اللاتينيّون؛ لأنّ القاضي يساند النوع الأوّل من الامتلاك، وليس الأخير، ويدعمه من خلال الموانع. ومن هذا الوضع الذي يسمّيه الإغريق «θέσης، ثيسيس» استمدّ تيسيوس اسمه، وليس من جمال وقفته، مثلما يقول علماء الاشتقاق اليونانيّون، لأنّ أناس أتيكا أسّسوا أثينا بالبقاء فيها طويلا، وهذا هو التقادم المكسِب (*usucapione*) الذي يؤسّس شرعيّة *الوضع* لدى كلّ الأمم.

[§ ١٠٢٩] ومن ناحية أخرى، سبق أن رأينا أنّه في الجمهوريّات البطوليّة عند أرسطو أنه لم تكن هناك قوانين لجبر الأضرار الخاصّة[1]؛ لذا كانت المطالبة بشيء ما تتمّ عبر القوّة الحقيقيّة، وكانت هذه أولى النزالات والحروب الخاصّة في العالم، وما يُسمّى "*condictiones*"، كانت القصاصات الخاصّة، التي في فترة عودة البربريّة [القرون الوسطى] تواصلت إلى زمن بارتولوس[2].

[§ ١٠٣٠] حين بدأت وحشيّة الأزمنة تلين وحجّرت القوانين القضائيّة أعمال العنف الخصوصيّة، وانضمّت جميع القوى الخصوصيّة إلى القوّة العامّة التي تُسمّى بالسلطة المدنيّة السياديّة، كان على الشعوب الأولى، الذين هم بطبيعتهم شعراء، أن يقلّدوا بطبيعة الحال تلك القوى الحقيقيّة التي كانوا قد استعملوها في السابق للحفاظ

---

(١) § ٢٦٩.

(٢) §§ ٩٦٠ وما يتبع.

على حقوقهم: وهكـذا جعلوا من نقل الملكيّة الطبيعيّة خرافة أنشـؤوا بواسـطتها تقليدًا مدنيًّا احتفاليًّا يتمثّـل في تسـليم وثـاق[١] وهميّ، لتقليد السلسـلة التي أوثـق بها جوبيتر الجبابـرة إلـى الأراضـي الأولى الخالية، والذيـن بدورهم أوثقوا بهـا مواليهم أو خدمهم (*famoli*). وبهـذا النقـل للملكيّة الـذي تحوّل إلى خرافة، ثبّتوا كلّ شـؤونهم المدنيّة من خلال مراسم شرعيّة كانت دون شكّ عبارة عن طقوس احتفاليّة لشعوب لا تزال صامتة. من بعد، حين تشكّلت اللغة المنطوقة، ولكي يتأكّد لدى كلّ طرف ما يريده الآخر بالنصّ عليـه فـي العقد، فقـد أرادوا أن تكون المعاهدات عند تسـليم العقـد، مصحوبة بكلمات طقسـيّة وبمندرجـات مصاغـة بوثـوق وبدقّـة. فـي وقت لاحـق، أثنـاء الحـروب، كانوا يصوغون بنفس العناية المعاهدات التي بمقتضاها تستسلم المُدن المهزومة، والتي كانت تسـمّى "*paci*"، من اللاتينيّة "*pacio*"، الذي له المعنى نفسـه لـ "*pactum*" (معاهدة). وقد بقي لنا من ذلك أثر مهمّ جداً في الصيغة التي أُقِرّ بها استسلام كولاّتسيا والتي، كما يوردها لنا تيتوس ليفيوس[٢]، تمثّل عقد استسـلام متكوّن من أسـئلة وأجوبة طقسيّة. لذا وبالمعنـى الحرفـي سُـمّي كلّ مـن استسـلموا "*recepti*"، بمـا أنّ النذيـر الرومانـي قال لمبعوثي كولاّتسيا "*et ego recipio*". نرى إذن كم أنّ المندرجات، في الأزمنة البطوليّة، كانت خاصّة بالمواطنين الرومان! وبنفس الرشاد ذهب الظنّ إلى حدّ الآن أنّ تاركوينوس بريسكوس في صيغة استسلام كولاّتسيا، أراد أنّ يعلّم كيف ينبغي أن يتصرّفوا مع معاهدة استسلام!

[§ ١٠٣١] وبالشـكل نفسـه ضُبـط حـقّ الأقـوام البطوليّـة بإقليـم لاتيوم فـي الفصل الشهير من قانون *اللوائح الاثنتيْ* عشرة الذي يقول «*إنّ من يقيم عقدًا وحوزًا فإنّ ما نطق به اللسان يصبح حقًّا مشروعًا*»[٣]، والذي يُعتبر المنبع الأساسي للقانون الروماني القديم. وأولـئـك الذيـن قرّبوا القانون الروماني القديم من قانون أثينا، يعترفون أنّ هذا الفصل لم يأت من أثينا إلى روما.

---

(١) § ٥٥٨.

(٢) *التاريخ الروماني*، I، ٣٨، ٢.

(٣) ورد باللاتينيـة: *Si quis nexum faciet mancipiumque, uti lingua nuncupassit ita ius esto*، §§ ٤٣٣، ٥٧٠.

[§ ١٠٣٢] أمّا التقادم المكسِب فقد بدأ بالحوز الجسدي، ثمّ عندما صار إيهامًا لا غير، أمّنه *الضمير*. كما أنّ استعمال العنف للمطالبة بالحقوق صار هو الآخر وهميًّا، والقصاصات البطوليّة تحوّلت إلى أفعال شخصيّة احتفظت بالصيغة الرّسميّة لتبليغ الطلب الموجّه إلى المدينين. وما كان يُمكن لطفولة العالم أن تتصرّف بصفة مغايرة، بما أنّ الأطفال، مثلما سبق أن أشرنا في إحدى *المسلّمات*[١]، يملكون موهبة قويّة لمحاكاة الحقيقة التي يمكنهم بلوغها وفي هذه الموهبة يكمن الشعر، الذي لا يعدو أن يكون محاكاة.

[§ ١٠٣٣] كانت تظهر في الساحة العموميّة *أقنعة* بقدر عدد الأشخاص، إذ أنّ *الشخص* ليس بالفعل سوى قناع، وبقدر الأسماء، التي في زمن اللغات الصامتة كان يُعبّر عنها بألفاظ واقعيّة، والتي كانت تمثّل دون شكّ شعارات الأُسرة، وقد اكتُشِف، مثلما سبق قوله[٢]، أنّ الأمريكيّين الأصليّين كانوا يميّزون عائلاتهم بالطريقة نفسها. وراء شخصٍ أو قناع أب الأسرة يختفي كلّ أبناء وكلّ خدم تلك الأُسرة، وتحت اسم واقعي أو شعارات الأُسرة يختفي جميع الأنسباء وأعضاء الأُسرة بالمعنى الموسّع. وهكذا، فنحن قد رأينا أنّ آياكس كانت برج الإغريق، وأنّ هوراثيوس صمد بمفرده، فوق الجسر، أمام كلّ توسكانا، وفي أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى] رأينا أربعين بطلا من النورمان يطردون من سلارنو جيشًا بأسره من السراسنة. وهكذا تُفسّر الإنجازات الخرافيّة المنسوبة لفرسان فرنسا، الذين كانوا أمراء أسيادًا، واحتفظوا بهذا الاسم بألمانيا، وخاصّة منهم فرسان الكونت رولان، المُسمّى لاحقًا أورلاندو. كلّ هذا ناتج عن مبادئ الشعر التي اكتشفناها في ما سبق من الحديث[٣]. فإنّ مؤسّسي القانون الروماني، في زمن ما كانوا لا يقدرون فيه على إدراك الكليّات الفكريّة، ابتدعوا كليّات خرافيّة. وهؤلاء البشر، بطبيعتهم، حملوا *الأسماء والأشخاص* إلى ساحة السوق (الفوروم)، بالطريقة نفسها التي حمل بها الشعراء، بواسطة فنّهم الأشخاص والأقنعة على خشبة المسرح.

---

(١) §§ ٢١٥ وما يتبع.

(٢) § ٤٣٥.

(٣) §§ ٣٧٦ وما يتبع.

[§ ١٠٣٤] ولفظ "*persona*" (شخص) لا يُمكن أن يكون أتى من "*personare*"، الذي يعني «*أحدث صدى في كلّ مكان*»؛ لأنّه في المسارح، التي كانت صغيرة جدّاً في المُدن الأولى، والتي كما يقول هوراثيوس كان المشاهدون فيها قليلين جدّا حتّى أنّه يُمكن عدّهم، لم يكن من الضروري استعمال الأقنعة لتضخيم الصدى بما يكفي ليعمّ مسرحًا فسيحًا. ثمّ إنّ المدّ في المقطع [الثاني] لا يسمح بهذا الاشتقاق، لأنّه لو جاء من "*sono*"، للزم أن يكون قصيرًا. لذا نفترض بالأحرى أنّه جاء من "*personari*"، وهو فعل نخمّن أنّه كان يعني» *ارتداء جلود حيوانات مفترسة*»، وهو أمر ليس مسموحًا به إلّا للأبطال. وبقي لنا منه فعل "*opsonari*"، الذي كان يعني في البداية «*يقتات من لحوم الطرائد*»، وكانت هذه دون شكّ الوجبات الفاخرة التي كان يتناولها الأبطال الذين يتحدّث عنهم فرجيل[١]. كانت الغنائم الأولى هي جلود الحيوانات المقتولة التي عاد بها الأبطال من حروبهم الأولى، التي كانت حروبًا ضدّ الحيوانات المفترسة، دفاعًا عن أنفسهم وعن عائلاتهم، مثلما سبق أن بينّا ذلك[٢]، وألبس الشعراءُ هذه الجلودَ أبطالَهم، وبخاصّة هرقل، الذي يرتدي جلد الأسد. وبإمكاننا الافتراض أنّه إذا كان الإيطاليّون يقولون عن أشخاص من وضعيّة سامية وذوي شأن إنّهم "*personaggi*" (شخصيّات)، فذلك يعود إلى هذا الأصل من فعل "*personari*"، بالمعنى الأوّل الذي أعدناه إليه.

[§ ١٠٣٥] وبحسب المبادئ نفسها، فإنّ مؤسّسي القانون الروماني، الذين كانوا لا يدركون الأشكال المجرّدة، تصوّروا أشكالا جسديّة، وتصوّروها متحرّكة، حسب طبيعتها. فقد تصوّروا الوراثة كما لو كانت سيّدة الملكيّات الوراثيّة، وتعرّفوا عليها بصفة كاملة في أصغر قطعة من الميراث، مثلا في طوبة أرض أو في قطعة حجر من ضيعتهم، كانوا يقدّمونها للقاضي قائلين "*hunc fundum*" بصيغة المطالبة. وهكذا، حتّى وإن لم يفهموه فقد شعروا على الأقلّ بصفة غير دقيقة أن الحقوق غير قابلة للتقسيم.

[§ ١٠٣٦] وتماشيًا مع هذه الطبيعة، كان التشريع القديم كلّه شعريًّا. كان يتصوّر ما تمّ فعله أنّه لم يُفعل، وما لم يُفعل أنّه فُعِل، وأنّ من وُلدوا لم يولدوا بعدُ، وأنّ الأحياء

---

(١) *الإنياذة*، III، ٢٢٤.

(٢) § ٩٥٨.

أمـوات، وأنّ الأمـوات يعيشـون في ميراثهـم الذي بقيْد البحث. وأدخـل كمّا من الأقنعة الخاويـة دون موضـوع، كانـت تُسـمّى "jura imaginaria"، وحقوقًـا تُرجمـت إلـى خرافات بواسطة الخيال. وكان يؤسّس كلّ صيته على ابتداع خرافات قادرة على الحفاظ على قداسـة القوانين، وعلى تطبيق الشـرع على الوقائع. لذا فإنّ جميع خيالات التشريع القديم كانت حقائق مقنّعة، والجُمل التي كانت تتكلّم بها القوانين -لأنّها كانت تعدّ كم لفظًـا دون زيادة، وتسـتعمل هذا اللفظ وليس غيـره، دون زيادة أو نقصان، دون تبديل أو تغيير- سُمّيت "carmina"، وهو لفظ استعمله تيتوس ليفيوس، مثلما رأينا[1]، للحديث عـن الحكـم الصادر ضدّ هوراثيوس. وما يؤكّد لنا هـذا هو قول نفيس عند بلاوتوس في كتـاب Asinaria، حيـث يقول ديابولوس إنّ برازيتوس شـاعر كبيـر؛ لأنّه يعرف أكثر من أيّ أحدٍ كيف كان يجد الصيغ والكلمات، التي سُمّيت "carmina" مثلما رأينا.

[§ ١٠٣٧] وهكذا، فإنّ القانون الروماني القديم كان *قصيدًا جدّيًا*، يلقيه الرومان في المحكمـة، وكان القضـاء القديـم شـعرًا صارمًـا. ومـا يتوافـق جيّـدًا مـع قولنـا هـو أنّ جوستينيانوس في مستهلّ "Institutes"، يتحدّث عن "antiqui iuris fabulas". وهو يسـتعمل هـذا القـول بسـخرية، ولكنّه متأتّ دون شـكّ من بعض القضـاة القدامى الذين فهموا ما نحن بصدد الحديث عنه في هذا المقام. يستمدّ القضاء الروماني مبادئه من هذه الخرافات القديمة، مثلما هو مبيَّن هنا؛ ومذهـب "De jure Personarum" يجد أصوله الأولـى فـي الأقنعـة المسـمّاة "personae"، والتي كانت مسـتعملة في هـذه الخرافات المسرحيّة الحقيقيّة والصارمة.

[§ ١٠٣٨] ولكن مع مجيء الأزمنة المتحضّرة في الجمهوريّات الشعبيّة، بدأ العقل يتجلّـى في الاجتماعات الكبرى، والمتصوّرات القانونيّة الشـاملة المجرَّدة بفعل العقل، والتـي قيـل عنهـا آنذاك إنّهـا تتمثّـل فـي "intellectu iuris". هذا العقـل يتمثّل في فهم الإرادة التـي يعبّـر عنها المشـرّع في نصّ قانونه، وهذه الإرادة تسـمّى "ius"، وهي إرادة المواطنين الذين توافقوا على فكرة نفع مشترك معقول، والتي فهموا منها أنّها ذات طبيعة فكريّـة، بمـا أنّ جميع هذه القوانين التي لا تملك أجسـامًا تمارس عليها فعلها، ولذا هي "nuda jura"، أي قوانيـن عاريـة لا جسـد لهـا، فقـد سُـمّيت "in intellectu juris

---

(١) § ٥٠٠.

"consistere". فالقوانين هي إذن أشـكال جوهر روحيّ؛ لأنّها غير قابلة للتقسـيم، وعليه فهي دائمة، لأنّ التحلّل ليس إلّا الانقسام إلى أجزاء.

[§ ١٠٣٩] وقـد أقـام مؤوّلـو القانون الرومانـي كلّ صيت الميتافيزيقـا القانونيّة على اعتبار لا تجزئة الحقوق، بخصوص المسألة المعروفة "*De dividuis et individuis*". ولكنّهـم لـم يعتبروا الخاصيّة الأخـرى للقوانين، والتي لا تقلّ أهميّـة عنها وهي الدوام. كان عليهـم أن يلاحظـوا وجودهـا فـي القاعدتيْـن التاليتيْـن للقوانين. الأولـى: تحدّد أنّه «*حيـن تنتهي غاية القانون ينتهي القانـون*»[١]؛ ولا تقول "*cessante ratione*"، لأنّ غاية القانون هي المنفعة المتساوية للقضايا، التي قد لا يمكن تحقيقها. ولكن حكمة القانون هـي تطابـق القانون مـع الواقعة المحفوفـة بهذه الظـروف أو تلك، وكلّما كانـت الواقعة محفوفـة بهـذه الطريقة، فإنّ الحكمـة الحيّة للقانون تحكمها. والقاعـدة الثانية: تحدّد أنّ «*الزمن ليس وسـيلة لتكوين أو لمحو حقّ ما*»[٢]؛ لأنّ الزمن لا يُمكنه أن يبدأ أو أن يُنهي مـا هـو دائم، وفـي التقادم والتقادم المكسِـب لا يُنتـج الزمن الحقـوق ولا يُنهيها، ولكنه يبرهن على أنّ من كان يملكها أراد نزعها عنه. وعندما نقول مثلا إنّ حقّ الانتفاع انتهى، فذلك لا يعني أنّ الحقّ انتهى، بل إنّه انفصل عن الاستعباد وعاد إلى حريّته الأولى. ومن هنـا تنتـج خُلاصتـان: الأولـى: أنّ الحقـوق لكونها سـرمديّة في عقـول البشـر باعتبارها أفكارًا، ولكون البشـر موجودين في الزمن، فإنّ الحقوق لا يُمكن أن تأتي للبشـر إلّا من الـربّ. والثانيـة: أنّ كلّ الحقوق المتعـدّدة المختلفة التي كانت وتلـك الموجودة وتلك التـي سـتكون فـي العالم هي تحـوّلات مختلفة لسـلطة الإنسـان الأوّل، الـذي كان أمير الجنس البشري وسيّد الملكيّة التي أعطيت له على الأرض بأكملها.

[§ ١٠٤٠] الآن، بما أنّه من المؤكّد أنّ الشـرائع جاءت أوّلا، ثمّ جاء الفلاسـفة، فمن الضروري أنّه من معاينة الأثينيّين القدامى، حين كانوا يسنّون القوانين، متّفقين مع بعضهم البعض حول المنفعة المتسـاوية والمشـتركة بين الجميع وبين كلّ فرد، أن شـرع سقراط في وضع أجناسه الفكريّة أو الكليّات المجرّدة، كان بواسطة الاستقراء الذي هو مجموعة الجزئيّات التي يجمعها شيء مشترك، ليشكّل جنسًا ممّا هو مشترك بينها.

---

(١) ورد باللاتينية: *cessante fine legis, cessat lex*

(٢) ورد باللاتينية: *tempus non est modus constituendi, vel dissolvendi juris*

[§ ١٠٤١] وأفلاطون -بملاحظة أنّه في الاجتماعات العامّة تميل عقول الأفراد حيث كلّ واحد يريد بكلّ جوارحه منفعته الخاصّة-إلى التوافق على فكرة نفع محايدة ومشتركة، لذا يُقال إنّ البشر منفردين يميلون نحو مصالحهم الخاصّة بينما حين يكونون مجتمعين يريدون العدالة- تسامى إلى التأمّل في الأفكارالمعقولة الكاملة التي تنتجها العقول المخلوقة، والتي هي منفصلة عن تلك العقول المخلوقة ولا يمكن أن تكون في أيّ مكان آخر غير الربّ، وشكّل الصورة السامية للبطل الفيلسوف، الذي يحكم حسب إرادته وأهوائه.

[§ ١٠٤٢] بعد ذلك أمدّنا أرسطو بتعريف ألوهي للقانون، قائلا إنّه «*إرادة خالية من أهواء*»، ما يعني أنّها إرادة أبطال. تصوّر العدالة على أنّها ملكة، مقرّها هو فؤاد البطل وتحكم كلّ الفضائل الأخرى. ذلك أنّه لاحظ أنّ العدالة القانونيّة، التي تسكن روح القوّة المدنيّة السياديّة، وتحكم بالحذر في مجلس الشيوخ، وبالقوّة في الجيوش، وبالاعتدال في الاحتفالات، وبالعدالة الخصوصيّة، سواء التوزيعيّة في الخزينة العامّة أو التعويضيّة خاصّة في المحكمة، والتعويضيّة باستعمال النسبة الحسابيّة، والتوزيعيّة باستعمال النسبة الهندسيّة. وقد لاحظ دون شكّ العدالة التوزيعيّة في الضريبة، التي تمثّل أساس الجمهوريّات الشعبيّة، والتي توزّع التشريفات والأعباء متّبعة النسبة الهندسيّة، حسب ممتلكات المواطنين. وبالفعل، لم يكن يُتصوّر في السابق إلّا النسبة الحسابيّة، فأستريا إلهة العدالة كانت ممثّلة وهي حاملة للميزان. إلّا أنّنا نقرأ في قانون *اللوائح الاثنتي عشرة* أنّ جميع العقوبات، التي كان الفلاسفة واللاهوتيّون الأخلاقيّون والمشرّعون الذين يكتبون في الحقّ العامّ (*de Jure Publico*) يقولون إنّها تسند من طرف العدالة التوزيعيّة حسب النسبة الهندسيّة، تعتمد على "*duplio*"، أي الضعف، عندما يتعلّق الأمر بالمال، وعلى ما يُسمّى *talio*، أي شريعة القصاص عندما يتعلّق الأمر بضرر جسديّ. وبما أنّ شريعة القصاص كانت من ابتداع ردامنتوس، فقد نُصّب قاضيًا في العالم السفلي، حيث تُوزّع دون شكّ العقوبات. وقد سمّى أرسطو القصاص في كتاب *الأخلاق*، *بالعدل الفيثاغوري*، الذي ابتدعه فيثاغورس، وهو المؤسّس في اليونان الكبرى لأمّة كان الأشراف فيها يُسمّون فيثاغوريّين، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك[١]. ولكنّ

---

(١) § ٤٢٧.

هـذا الابتـداع سـيكون عارًا علـى فيثاغورس الذي سـيصير بعـد ذلك فيلسـوفًا ورياضيًّا عظيمًا.

[§ ١٠٤٣] كلّ هـذا يجعلنـا نسـتخلص أنّـه مـن السـاحة العموميّـة بأثينا بـرزت هذه المبـادئ فـي الميتافيزيقا والمنطق والأخلاق. وفي الرأي الـذي أبداه صولون للأثينيّين، ''*Nosce te ipsum*''، الذي تأمّلنا فيه في إحدى استنتاجات *المنطق الشعري*[1]، ظهرت الجمهوريّات الشعبيّة، ومن الجمهوريّات الشعبيّة ظهرت الشرائع، ومن الشرائع ظهرت الفلسفة. وصولون من عارف بالحكمة العاميّة مثلما كان، اعتُبِر عارفًا بالحكمة الباطنيّة. ويمكـن القـول إنّـه لدينا هنـا جزء صغير مـن تاريخ الفلسـفة رُويَ بطريقة فلسـفيّة، ومن الأخيـر مـن البراهين العديدة التي جمعناها في هذا العمـل ردّاً على بوليبيوس الذي كان يقـول إنّـه لو كان في العالـم فلاسـفة لما كانت هناك حاجة إلـى الديانات، نقول إنّه لو لم تكـن هنـاك ديانات ومن بعدهـا الجمهوريّات، فلن يكون هناك في العالم أيّ فيلسـوف، ولو أنّ العناية الإلهية لم تقد شـؤون البشـر مثلما فعلت، لما كانت هناك أيّ فكرة لا في العلم ولا في الفضيلة.

[§ ١٠٤٤] وبالعـودة الآن إلـى موضوعنـا وباختتامه، نقول إنّه منذ الأزمنة البشـريّة، التـي ظهرت فيها الجمهوريّات الشـعبيّة ومن بعدها الأنظمـة الملكيّة، أدركنا أنّ *القضايا* التي كانت في البداية صيغًا ضامنة من خلال كلمات خصوصيّة ودقيقة، إذ من عبارة ''*a cavendo*'' جاءت في البداية ''*cavissae*''، ومنه بقي لنا بصفة مختصرة لفظ ''*caussae*'' (قضايـا)، التـي كانـت هـي ذاتها أعمـالاً أو مبـادلات في حالـة عقود بالتراضـي، وهذه الأعمال يقع الآن تسـجيلها بعهود يقع قبولها في وثيقة العقد باتّفاق مشـترك بغاية إنتاج الأفعال. وفي العقود التي تمثّل شـهادات صالحة لنقل الملكيّة، رسّـموا التقليد الطبيعيّ لتفعيل النقل، وليس إلّا في العقود التي يُقال فيها إنّها تمّت بصفة شفويّة، وهي *مندرجات* [العقـد]، أن بقـي ضمـان العقـد «*قضيّـة*» بالمعنى القديم للكلمـة. وما قلناه لتوّنا يسـلّط مزيدًا من الضوء على مبادئ الالتزامات، كما تمّ عرضها أعلاه، والتي نشأت منها العقود والمواثيق.

---

(١) §§ ٤١٤، ٤١٦، ٤٢٤.

[§ ١٠٤٥] باختصار، بما أنّ الإنسان ليس -بحصر المعنى- إلّا عقلا وجسدًا وكلمة، وبما أنّ الكلمة تتوسّط العقل والجسد، فقد بدأ إدراك *الثابت* بخصوص العدل في الأزمنة الصامتة مع الجسد. بعد ذلك، حين نشأت اللغات المسمّاة بالمنطوقة، مرّ إلى أفكار صارت ثابتة بواسطة صيَغ لغويّة. وأخيرًا، حين اكتمل تطوّر العقل البشري، بلغ حدّه وصولاً إلى *الحقّ* في الأفكار الخاصّة بالعدل، كما هي محدّدة بالعقل بحسب أدنى ظرفيّات الوقائع. يتعلّق الأمر بصيغة خاصّة لكلّ شكل بعينه، سمّاها العلاّمة فارّو "*formula naturae*" (صيغة طبيعيّة)، والتي تبيّن -مثل النور- من تلقاء نفسها أصغر الجزئيّات على سطح الأجساد المعتمة للوقائع التي تشعّ عليها، مثلما سبق أن وضّحنا ذلك في باب *العناصر*[١].

---

(١) §§ ٣٢١، ٣٢٥.

الكتاب الخامس

تكرار المسار الإنسانيّ
في
الانبعاث الجديد للأمم

[تمهيد]

[§ ١٠٤٦] في مواضع متعدّدة من هذا العمل حول العديد من المواضيع المنتشرة هنا وهناك التي أخذناها بالدرس أمكن لنا أن نلاحظ وجود تطابق عجيب بين الأزمنة البربريّة الأولى والأزمنة البربريّة التي عادت من جديد [القرون الوسطى]، بحيث يمكننا أن نفهم بيُسر تكرار المسار الإنساني في الانبعاث الجديد للأمم. ولكن لمزيد إثبات وجهة النظر هذه، نودّ في هذا الكتاب الأخير إيلاء هذا الموضوع مكانة خاصّة، لكي ننير بصفة أفضل أزمنة البربريّة الثانية [القرون الوسطى] التي تلفّها العتمة أكثر من تلك الأولى التي هي بدورها غامضة جدّا، مثلما نعتها ماركوس تيرانتيوس فارّو، أعظم الدارسين للأزمنة القديمة الأولى. وسنبيّن أيضًا كيف أنّ الربّ القدير وهب نُصح عنايته الإلهيّة التي بواسطتها سارت الأمور الإنسانيّة لجميع الأمم بفضل أحكامه الربانيّة الخفيّة.

[الباب الأوّل]

[تاريخ البربريّة الحديثة على ضوء تكرار تمشّي البربريّة الأولى]

[§ ١٠٤٧] وبالفعل حين أعلن الربّ وأكّد بسُبُله الخفيّة حقيقة الديانة المسيحيّة، تجاه القوّة الرومانيّة من خلال فضائل القدّيسين الشهداء، وتجاه الحكمة الإغريقيّة الباطلة من خلال تعاليم آباء الكنيسة والمعجزات، وحين ظهرت بعد ذلك أمم مسلّحة مستعدّة من كلّ النواحي للقتال من أجل تأكيد حقيقة ألوهيّة مؤسِّسها، سمح الربّ بأن ينشأ من بين الأمم نظام جديد للبشريّة، لكي تتأسّس هذه الأخيرة بمتانة حسب المسار الطبيعي للشؤون الإنسانيّة نفسها.

[§ ١٠٤٨] باتّباع هذا النُصح السرمدي، جلب الأزمنة الربانيّة الحقيقيّة، التي نشهد فيها، في كلّ مكان، الملوك الكاثوليكيّين ينهضون للدفاع عن الديانة المسيحيّة التي هم حُماتها، مرتدين دلماسيّة الشمّاسين ومكرّسين لها أشخاصهم الملكيّة، لذا احتفظوا بلقب *الجلالة الملكيّة المقدّسة*. واتّخذوا لأنفسهم تشريفات كنسيّة، مثل هوغ كابيت الذي يقول عنه سيمفوريان شامبيير[١]، في كتابه *سلالة ملوك فرنسا*، إنّه يسمّي نفسه *كونت وقسّ باريس*، وبارادين[٢] في *حوليّات بورغونية*، يذكر نصوصًا قديمة جاء فيها أنّ أمراء فرنسا كانوا يتّخذون جميعهم ألقاب *دوق وقسّ*، أو *كونت وقسّ*. وهكذا أسّس الملوك المسيحيّون الأوائل أنظمة دينيّة مسلّحة، وطّدوا بواسطتها في مملكاتهم الديانة المسيحيّة الكاثوليكيّة ضدّ الآريّين، الذين كان يقول عنهم القدّيس هيرونيموس إنّهم لوّثوا كلّ العالم المسيحي تقريبًا، وضدّ السراسنة وضدّ الكثيرين من الكفّار.

---

(١) Symphorien Champier (١٤٧٢-١٥٥٩)، كان طبيب شارل الثامن ولويس الثاني عشر، له عديد المؤلّفات التاريخيّة، منها كتاب في سلالة ملوك فرنسا.

(٢) اسمه الكامل Guillaume Paradin de Cuiseaux (١٥١٠-١٥٩٠) مؤلّف حوليّات بورغونية [Annales de Bourgogne]، ١٥٦٦.

[§ ١٠٤٩] وهكذا عادت إلى حقيقتها ما كانت الشعوب البطوليّة تسمّيها "*pura et pia bella*" (حرب طاهرة ورعة)[1]، ولذا كلّ هذه القوى المسيحيّة تضع اليوم الصليب فوق التاج، ذلك الصليب الذي رسمته قبل ذلك على راياتها حين شنّت الحروب المسمّاة بالصليبيّة.

[§ ١٠٥٠] إنّ تكرار هذه الحالات الإنسانيّة المدنيّة في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى] لهو شيء مثير للعجب. فقد كان النذراء القدامى حين يعلنون الحرب يدعون الآلهة (*evocabant Deos*) كي تخرج من المدينة التي أعلِنت الحرب ضدّها، بالقول الفصيح والرائع الذي حفظه لنا ماكروبيوس[2]، إذ كانوا يعتقدون أنّ الشعوب المقهورة تبقى دون آلهة، ودون نذور كذلك، وهو المبدأ الأوّل لكلّ ما درسناه في هذا العمل. وبالفعل، بمقتضى الشرع البطولي في الانتصارات، لا يبقى للمهزومين أيّ حقّ من الحقوق المدنيّة، سواء كانت عامّة أو خاصّة، والتي مثلما سبق لنا أن برهنّا عليه بالكامل، خصوصًا مع التاريخ الروماني، كانت جميعها في الأزمنة البطوليّة مرتبطة بالنذور الإلهيّة. وكلّ هذا موجود في صيغة الاستسلام البطولي التي استعملها تاركوينوس بريسكوس[3] عند استسلام كولّاتسيا، والتي جاء فيها أنّ المهزومين «*كانوا يسلّمون كلّ الأشياء البشريّة والإلهية*»[4] للشعوب المنتصِرة في الحرب. وبالطريقة نفسها، فإنّ المتهمّجين الحديثين [في القرون الوسطى] حين يستولون على مدينة، أوّل ما يفعلونه هو البحث والاستيلاء وحمل كلّ رفات ونفائس القدّيسين. وقد كان شعوب تلك الأزمنة يُعنون عناية خاصّة بدفنها أو بإخفائها، لذا نلاحظ في كلّ مكان، أنّه في الكنائس يُحتفظ بها في الأماكن الأبعد عن المتناول والأكثر سرّاً. وهذا هو السبب أنّه في تلك الفترة تمّت أغلب عمليّات نقل جثامين القدّيسين. وبقي أثر من هذه الممارسات في

---

(١) § ٩٥٨.

(٢) اسمه اللاتيني Flavius Macrobius Ambrosius Theodosius [٣٧٠- بعد ٤٣٠ م]. كاتب لاتيني فيلسوف فقيه وسياسي، مؤلّف كتاب *Saturnalis*.

(٣) اسمه الكامل لوكيوس تاركوينوس بريسكوس الملقّب بالأكبر، الخامس من بين ملوك روما السبعة. حكم بين ٦١٦ و٥٧٩ ق.م.

(٤) ورد باللاتينية: *debebant divina et humana omnia*

زمننا الحاضر حين يتوجّب على الشعوب المنهزمة أن تشتري من القادة المنتصرين أجراس المُدن التي تمّ الاستيلاء عليها.

[§ ١٠٥١] إضافة إلى ذلك، بما أنّه بداية من القرن الخامس ميلادي اجتاحت العديد من الشعوب البربريّة أوروبا، وكذلك إفريقيا وآسيا، وأنّ الشعوب المنتصِرة وتلك المهزومة كانوا لا يفهمون بعضهم البعض، فقد تسبّبت همجيّة أعداء الديانة الكاثوليكيّة في انعدام أيّ نصّ مكتوب باللغة العاميّة المنتمية إلى ذلك العصر من الحديد والنار، سواء كانت اللغة الإيطاليّة أو الفرنسيّة أو الإسبانيّة، وحتّى الألمانية. وحسب أفنتينوس[١]، في حوليّاته *de Annalibus Bojorum*، لم تبدأ كتابة الوثائق إلّا بداية من زمن فريدريك الصوابي، بينما يرى آخرون أنّها بدأت في زمن الإمبراطور رودولف النمساويّ، مثلما سبق أن رأينا ذلك[٢]. ولدى كلّ الأمم التي سبق لنا ذكرها لا نجد إلاّ نصوصًا مكتوبة بلاتينيّة بربريّة، كان لا يفهمها إلّا عدد نادر جدّاً من الأشراف كانوا ينتمون إلى الأنظمة الكنسيّة، ما يجعلنا نتصوّر أنّه طيلة هذه القرون التعيسة عادت الأمم لتتكلّم فيما بينها *لغة صامتة*. ولنُدرة الحروف العاميّة كان من اللازم الرجوع إلى الحروف الهيروغليفيّة للشعارات الأُسريّة، التي -لإثبات الملكيّات، مثلما سبق أن رأينا[٣]- كانت تعني حقوق الأسياد، في العادة على المنازل والقبور والحقول وقطعان الماشية.

[§ ١٠٥٢] وشاهدنا عودة بعض الأنواع من الأحكام الإلهيّة سُمّيت *تطهيرات مقدّسة*. وكنّا قد بيّنا سابقًا[٤]، أنّ المبارزات في الأزمنة البربريّة الأولى كانت نوعًا من هذه الأحكام، مع أنّ الشرائع الكنسيّة لم تكن تعترف بها.

[§ ١٠٥٣] وشاهدنا عودة اللصوصيّة البطوليّة، وكنّا قد رأينا سابقًا[٥]، أنّه بالطريقة نفسها كان الأبطال يعتبرون شرفًا أن يُنعتوا *باللصوص*، مثلما أنّ لفظ *قرصان* اعتُبِر لقب نبالة.

---

(١) هو Johann Tourmayer الملقّب بـ Aventinus (١٤٧٧-١٥٣٤) مؤلّف الحوليّات *Annalium Boiorum*، ١٥٥٤.

(٢) § ٤٣٥.

(٣) § ٤٨٤-٤٨٨.

(٤) §§ ٩٥٩ وما يتبع.

(٥) § ٦٣٦.

[§ ١٠٥٤] كما شاهدنا عودة القصاصات التاريخيّة التي دامت، مثلما لاحظنا ذلك، إلى عهد بارتولوس[١].

[§ ١٠٥٥] وبما أنّ حروب الأزمنة البربريّة الحديثة [القرون الوسطى] كانت جميعها، على غرار الحروب البربريّة القديمة، حروبًا دينيّة كما سبق أن رأينا[٢]، شاهدنا عودة الرقّ البطولي، الذي دام طويلا، حتّى بين الأمم المسيحيّة نفسها. وبالفعل، إذ صارت المبارزات اعتياديّة في تلك الفترة، كان المنتصرون يعتقدون أنّ المهزومين ليس لهم ربّ، مثلما سبق أن ذكرنا ذلك بخصوص المبارزات[٣]، وكانوا يعتبرونهم شيئًا لا أكثر ولا أقلّ من الحيوانات. هذا الشعور الوطني لا يزال حاضرًا في العلاقات بين المسيحيّين والأتراك. وهذا اللفظ الأخير يعني *كلب*، لذا حين يريد المسيحيّون أو حين يضطرّون إلى التفاوض معهم، يسمّونهم *مسلمين*، أي مؤمنين حقيقيّين. والأتراك، في المقابل، يدعون المسيحيّين بالخنازير. وعليه فقد كانوا يمارسون من هذه الجهة أو تلك أثناء الحروب العبوديّةَ البطوليّة، مع أنّ المسيحيّين كانوا في هذا الشأن أكثر حلمًا.

[§ ١٠٥٦] ولكن أعجب ما في الأمر هو التكرار الذي شهدته الأحوال البشريّة تحت جانب ما، حين عادت في هذه الأزمنة الإلهية الملاجئ الأولى التي شهدناها في العالم القديم، والتي تأسّست فيها حسب قول تيتوس ليفيوس جميع المُدن الأولى. وبالفعل كانت تسود في كلّ مكان أعمال العنف والسرقة والقتل بسبب شراسة ووحشيّة تلك القرون الأشدّ همجيّة، ومثلما سبق أن ذكرنا في *المسلّمات*[٤]، لا توجد وسائل أخرى أكثر نجاعة لاحتواء البشر المتجرّدين من كلّ شريعة إنسانيّة غير الشرائع الإلهيّة التي يمليها الدين. فالعباد بطبيعة الحال خشيةَ أن يقع اضطهادهم أو تدميرهم، كانوا يلجؤون للأساقفة وللقساوسة في تلك القرون العنيفة، نظرًا إلى أنّه وسط تلك الهمجيّة كانوا يجدون بقربهم معاملة أكثر حلمًا. كانوا يضعون أنفسهم وعائلاتهم وأملاكهم تحت حمايتهم، وكانوا يجدون من طرفهم حسن قبول. هذا الخضوع وهذه الحماية مثّلت

---

(١) § ٩٦٠.

(٢) § ١٠٤٩.

(٣) § ٩٥٨.

(٤) § ١٧٧.

المكوّنـات الأساسـيّة للإقطاعـات. لذا نـرى أنّه بألمانيـا، التي كانت أكثر شراسـة وأكثر همجيّة من جميع أمم أوروبا الأخرى، بقي أكبر عدد من الأسـياد الكنسـيّين، *أساقفة* أو *قساوسة*، أكثر من كونهم أسيادًا علمانيّين. لذا نلاحظ بأوروبا عددًا كبيرًا جدّا من المدن والأراضي والقلاع تحمل أسماء قدّيسين. وبالفعل، في أماكن مرتفعة أو منعزلة، لحضور القـدّاس وللقيـام بالواجبات الأخـرى التي تفرضهـا ديانتنا، فُتحت العديـد من الكنائس الصغيـرة، التـي يمكن اعتبـار أنّها كانت في تلك الأزمنة الملاجئ الطبيعيّة للمسـيحيّين، الذيـن كانوا يشـيّدون بالقرب منها بيوتهم. وهكذا، فإنّ أقـدم البقايا التي نجدها من هذه البربريّة الثانية [القرون الوسطى] هي كنائس صغيرة، في أغلبها مهدّمة، موجودة في ذلك النوع من الأماكن. ولدينا مثال مبجّل من هذا في ديرنا المسـمّى سـان لورانتسـو دافرسـا [San Lorenzo d'Aversa]، الذي التحم به دير سـان لورانتسـو دي كابوا [di Capua]. وقد حكم هذا الدير في مئة وعشـرة كنيسـة بإقليم كمبانيا وسانيو وبوليا وكلابريا القديمة مـن نهـر *فولتورنـو* إلـى خليج تارنتو، سـواء بصفة مباشـرة أو عن طريق رؤسـاء أديرة أو رهبان تابعين له. وكان قساوسة سان لورانتسو بارونات جميع الأماكن المذكورة تقريبًا.

[الباب الثاني]

[تكرار تمشّي الأمم على أساس طبيعة الإقطاعات السرمديّة، وتبعا له عودة القانون الروماني القديم في القانون الإقطاعي]

[§ ١٠٥٧] جاءت بعد هذه الأزمنة الإلهيّة بعض الأزمنة البطوليّة، تبعًا لعودة نوع من التمييز بين طبيعتيْن تكادان تكونان مختلفتيْن، البطوليّة والبشريّة. في هذه العلّة يكمن المعلول الذي يعجب له هوتمان، وهو أنّ الأتباع المزارعين يُسمّون في اللغة الإقطاعيّة "*homines*". ويكون هذا اللفظ مصدر اللفظيْن الإقطاعيّيْن *hominium* و*homagium*، اللذيْن لهما المعنى نفسه. ف *hominium*، يُستعمل لقول *hominis dominium* الذي يراه هلموديوس[1]، مثلما يلاحظ ذلك كوجاس[2] أكثر أناقة من *homagium*، المُستعمل لقول *hominis agium*، أي حقّ البارون في نقل رجُله أو تابعه حيث يريد. وعلماء الإقطاع[3] يترجمون هذا اللفظ البربريّ، بفصاحة لاتينيّة رائعة *obsequium*، وهو مرادف له، وكان يشير في البداية إلى الخنوع الكامل الذي يجعل الرجل مستعدًا على الفور لاتّباع البطل حيثما حمله، لخدمة الحقول. لفظ *obsequium* هذا يعبّر بصفة خاصّة عن إخلاص المولى للبارون، حيث إنّ *obsequium* اللاتينيّين يعني في الآن نفسه التبجيل والإخلاص الذي يقع القسم عليه يوم تولّي الإقطاع. وال *obsequium* عند الرومان القدامى لا ينفصل عمّا كانوا يسمّونه *opera militaris* والذي يسمّيه علماؤنا في الإقطاع *militare servitium*، ويمثّل الخدمة العسكريّة التي طالما قدّمها العامّة الرومان للأشراف على حسابهم أثناء الحروب، مثلما يشهد بذلك كما رأينا سابقًا[4] التاريخ

(١) Helmodius: كاهن ألماني من القرن الثاني عشر.

(٢) Jacques Cujas (١٥٢٢-١٥٩٠) فقيه فرنسي وأحد أهمّ ممثلي الإنسانيّات القضائيّة. من بين أعماله *Observationes et Emendationes* (١٥٥٦-١٥٩٥) و *de Feudis*(١٥٦٦).

(٣) يعني بهم هوتمان وكوجاس المذكوريْن أعلاه وغيرهم.

(٤) § ١٠٧.

الروماني. هذا ال *obsequium* مع الخدمات المصاحبة له تواصل تقديمه من طرف العُتقاء (*liberti*) إلى أسيادهم. وكان قد بدأ، كما بيّنا سابقًا[1] حين درسنا التاريخ الروماني، في زمن رُمولوس حين أسّس روما على الموالي، أي على الحماية التي منحها للمزارعين اليوميّين الذين تقبّلهم في ملاذه. وهؤلاء الموالي في التاريخ القديم، مثلما أوضحنا ذلك في *المسلّمات*[2]، لا يمكن تفسيرهم إلاّ بكونهم مقطَعين، وبالفعل فإنّ علماء الإقطاع يترجمون اللفظ البربريّ "*feudum*" باللفظ اللاتيني الأنيق "*clientela*".

[§ ١٠٥٨] كما أنّ أصل اللفظين *opera* و*servitium* يؤكّد أنّ هذه كانت بدايات الأمور. وبالفعل فإنّ كلمة "*opera*" بمعناها الأصلي هي عمل الفلاح طيلة يوم، الذي سمّاه اللاتينيّون لذلك "*operarius*" (عامل)، والإيطاليّون "*giornaliere*" (عامل يوميّ). وأخيل يتشكّى لأنّه عومل كعامل يوميّ من هذا النوع، دون امتلاك أيّ من امتيازات المواطنة، من طرف أغاممنون الذي اختطف ظلمًا حبيبته بريزيس. وعند اللاتينيّين أنفسهم، سُمّي أولئك العمّال اليوميّون "*greges operarum*" (قطعان العمّال) وحتّى "*greges servorum*" (قطعان الخدم)؛ لأنّهم مثل العبيد لاحقًا، وكانوا يُعتبرون من طرف الأبطال كالماشية، التي تُسمّى "*pasci gregatim*"[3]، ولا شكّ في أنّ قطعان البشر وُجدت أوّلا، ثمّ جاءت بعدها قطعان الماشية، وبصفة متطابقة، وُجد أوّلا رعاة أمثال أولئك العباد، وهكذا نرى هوميروس ينعت دائمًا الأبطال *برعاة الشعب*، ثمّ وُجد رعاة الماشية. وهذا ما يؤكّده اللفظ الإغريقي (νόμος، نوموس) الذي يعني في الآن نفسه *القانون والمرعى*، مثلما سبق أن لاحظنا ذلك[4]. وبالفعل فإنّ القانون الزراعي الأوّل منح للخدم (*famoli*) الثائرين العيش على الأراضي الممنوحة لهم من طرف الأبطال، وهذا العيش سُمّي "*pasco*" (مرعى)، وهو لفظ جديرٌ بالماشية، مثلما يجدُر القوت بالبشر.

[§ ١٠٥٩] هذه الخاصيّة المتمثّلة في رعي أولى القطعان في العالم كانت مُلك أبولّو، الذي سبق لنا أن عرفناه كإله للنور المدني، أي إله النبالة[5]؛ لأنّ التاريخ الخرافي

---

(١) §§ ١١٠، ١١٤، ١٦٠، ٥٣٢، ٥٦١، ٦١٣.

(٢) § ٢٦٣.

(٣) أي «ترعى في قطيع».

(٤) § ٦٠٧.

(٥) § ٥٣٣.

يظهره لنا بصفة راعٍ على ضفاف أمفريز. كما أنّ باريس كان هو الآخر راعيًا، مع أنّه كان ينتمي بكلّ تأكيد إلى الأسرة المالكة بطروادة. وكذلك أيضًا كان أبو الأُسرة، الذي يسمّيه هوميروس *ملكًا*، الذي بصولجانه يأمر أن يقسّم الثور المشويّ بين الحاصدين، كما هو ممثَّل فوق ترس أخيل، حيث شاهدنا أنّه قد صُوّرت عليه قصّة العالم وحُدّدت فيه فترة الأُسَر. الآن لم تعد تكمن مهمّة الراعي في رعي القطعان، بل في سياستها وحفظها، إلّا أنّ مهنة الرعي لم تظهر إلّا بعد أن تحدّدت تخوم المُدن الأولى وصارت أكثر أمانًا، وذلك بسبب أعمال اللصوصيّة التي كانت تُمارس في الأزمنة البطوليّة. وهذا ما يفسّر أنّ الشعر الريفي أو الرعويّ لم يظهر إلّا في الأزمنة الأكثر تحضّرًا، سواء عند الإغريق مع ثيوقريطس[1]، أو اللاتينيّين مع فيرجيل، أو الإيطاليّين مع سنّازارو[2].

[§ ١٠٦٠] تدلّ كلمة *servitium* أنّ الأشياء نفسها تكرّرت في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسطى]: من وجهة النظر المقابلة، يُسمّى البارون *senior*، بمعنى *signore* [السيّد]. وهكذا فإنّ الخدم المولودين بالمنزل هم الإفرنج القدامى الذين أثاروا استغراب بودان[3]، وبصفة عامّة، مثلما لاحظنا ذلك، أولئك الذين كان يدعوهم الرومان القدامى *vernae*، لذا سُمّيت اللغات العاميّة *vernaculae*، لأنّها كانت اللغات التي يتكلّم بها عامّة الشعب أي -كما رأينا ذلك[4]- العامّة في المُدن البطوليّة، بالطريقة نفسها التي كانت اللغة الشعريّة هي اللغة التي أدخلها الأبطال أو الأشراف في الجمهوريّات الأولى.

[§ ١٠٦١] وحين تفتّتت سلطة البارونات، واضمحّلت بين الشعوب في الحروب الأهليّة -التي صار فيها الأقوياء تابعين للشعوب، وتركّزت في شخص الملوك الحاكمين- صار خضوع العُتقاء (*obsequium*) ما يُسمّى بـ *obsequium principis*،

(١) ثيوقريطس (حوالي ٣١٥ - حوالي ٢٥٠ ق م). شاعر يوناني مؤسّس الشعر الرعويّ الذي يتناول مواضيع خاصّة بالأرياف.

(٢) Sannazaro Jacopo (١٤٥٨-١٥٣٠) شاعر إيطالي ينتمي إلى عصر النهضة. ألّف قصائد بالإيطاليّة وكتب أعمالا باللاتينيّة.

(٣) § ١٠١٧.

(٤) § ٥٩٧.

حيث يكمن، حسب قول تاسيتوس[1]، كلّ الواجب المفروض على الرعايا تجاه الملك. على عكس ذلك، وبسبب الفارق الذي يُعتقد وجوده بين الطبيعتيْن، البطوليّة والبشريّة، دُعي أسياد الإقطاع *بارونات*، بالمعنى نفسه، كما لاحظنا سابقًا[2]، الذي كان للفظ *أبطال* لدى الشعراء اليونانيّين، وللفظ *viri* عند اللاتينيّين القدامى. وقد حافظ الإسبان على هذا المعنى بقول *baron* للرجل، لأنّ الأتباع كانوا يُعتبرون كما لو كانوا *نساء*، بسبب ضعفهم، بالمعنى البطوليّ الذي تمّ شرحه سابقًا[3].

[§ ١٠٦٢] ونضيف إلى ما سبق قوله أنّ البارونات سُمّوا *signori* [أسياد]، وهو لفظ لا يُمكن أن يأتي إلّا من اللاتينيّ *seniores*؛ لأنّه تكوّنت منهم المجالس العموميّة الأولى في الممالك الأوروبيّة الجديدة، بالطريقة نفسها التي سمّى بها رُمولوس *senatus* المجلس العامّ، الذي كوّنه بطبيعة الحال من الأشراف الأكبر سنًّا. وبما أنّ الأخيرين كانوا *patres* (آباء) ويحملون هذا اللقب، فقد سُمّي الذين يعتقون العبيد *patrones*، الذي جاء منه في الإيطاليّة *padroni* (أسياد) بمعنى *الحُماة*، وقد حافظ لفظ *padroni* على دقّة اللفظ اللاتيني وفصاحته. ويقابل هذا اللفظ، بالدقّة والفصاحة نفسها باللاتينيّة، لفظ *clientes*، بمعنى *الموالي الريفيّين* الذين منحهم سيرفيوس توليوس بعد فرض الضريبة، كما سبق أن ذكرنا، تلك الإقطاعات، مبتعدًا أقلّ ما يمكن عن موالي رُمولوس، مثلما تمّت البرهنة عليه بصفة كاملة[4]. هؤلاء الموالي هم بالتمام العُتقاء الذين أعطوا لأمّة الإفرنج اسمها، كما سبق لنا أن قلنا ذلك في الكتاب السابق في الردّ على بودان[5].

[§ ١٠٦٣] بهذه الصفة عادت الإقطاعات، المتأتية من منبعها الدائم الذي أشرنا إليه في *المسلّمات*[6]، حين ذكرنا كلّ المنافع التي تُرجى من الطبيعة المدنيّة. لهذا السبب دُعيت بلفظ لاتينيّ دقيق وأنيق *beneficia* من طرف علماء الإقطاع. وبالفعل يلاحظ

---

(١) *الحوليّات*، I، ٤٣ وVI، ٣٧.

(٢) §§ ٦٥٧، ٦٨٤.

(٣) §§ ٧٨، ٩٨٩.

(٤) §§ ١٠٦، ٢٦٣، ٦١٣.

(٥) § ١٠١٧.

(٦) § ٢٦٠ وما يتبع.

هوتمان، دون أن يستعمله، أنّ المنتصرين في الحرب كانوا يحتفظون لأنفسهم بالحقول المزروعة التي تمّ الاستيلاء عليها، تاركين للمهزومين البائسين الأراضي البور ليعتاشوا منهـا. وهكـذا عادت إقطاعات العالم الأوّل الذي تحدّثنا عنه في الكتاب الثاني[1]، وكان عليهم أن يبدأوا، كما هو طبيعي مثلما سبق أن بيّنا ذلك، بالإقطاعات الريفيّة الشخصيّة، تمامًا مثلما فعل موالي رُمولوس في البداية كما رأينا ذلك، الذين انتشـروا كما أشـرنا في *المسلّمات*[2]، في كامل عالم الشعوب القديم. نجد من جديد هؤلاء الموالي البطوليّين، في زمن ازدهار الحريّة الشعبيّة الرومانيّة، المتّبعة عادة من طرف العامّة بالذهاب صباحًا مرتدين التوجة، لتحيّة كبار الأسـياد بلقب الأبطال القدامى *Ave, Rex*، ويصحبونهم إلى الميـدان ثـمّ يعيدونهـم إلى البيت، والأسـياد مـن ناحيتهـم يتصرّفون مثـل الأبطال *رعاة الشعوب*، فيقدّمون لهم العشاء.

[§ ١٠٦٤] هؤلاء المُقطَعون الشخصيّون كانوا عند الرومان القدامى أولى ال *vades*، اسـم احتفظ به فيما بعد المدافعون الذين كان يجب عليهم اتّباع المتشـكّين شخصيًّا أمام المحكمة: وسُـمّي هذا الواجـب *vadimonium*. و*vades* بحسـب *مصادر اللغة اللاتينيّة* التـي وضعناها[3]، يكون مشـتقًّا مـن المرفوع الإسـمي *vas*، وبالإغريقيّـة «βας، باس»، ولدى البرابرة *was*، الذي صار بعد ذلك *wassus* وأخيرًا *vassalus* (مُقطَع). هذا النوع مـن المقطَعيـن يوجـد بكثرة في زمننـا الحاضر في ممالك الشـمال الأكثر بـرودة، الذين يحتفظون دائمًا بسمات بربريّة عديدة، خاصّة في مملكة بولندا، حيث يُدعون *Kmetos*، وهم شـبه عبيد، كان الكونتات البولنديّون عادة ما يقامرون في الميسـر بعائلات بأكملها يتوجّـب عليهـا أن تدخـل فـي خدمة أسـياد جـدد. كانوا مثـل أولئك الرجـال الموثوقين بالسلاسـل مـن آذانهم الذيـن كان يجرّهم الهرقل الغالي وراءه حيث يريد، بسلاسـل من الذهب الشعريّ -أي القمح- تخرج من أفواههم.

[§ ١٠٦٥] ثـمّ نمـرّ إلـى الإقطاعـات الريفيّـة *الواقعيّة*، التي نصـل إليها مـع القانون الزراعي الأوّل للأمم، الذي سـبق أن أشـرنا أنّه كان عند الرومان القانون الذي أرسـى به

---

(١) §§ ١٠٦، ١٠٥٧.

(٢) § ٢٦٣.

(٣) فيكو، *الأعمال*، طبعة باتيستيني، مذكور، الكتاب ٢، *العلم الجديد*، ١٧٢٥.

سيرفيوس توليوس أوّل ضريبة في العالم[1]، الذي منح للعامّة الملكيّة النفعيّة للحقول التي عيّنها لهم الأشراف والخاضعة لبعض الأعباء ليست الشخصيّة فحسب، بل وأيضًا الواقعيّة، مثلما مر معنا في السابق. كان هؤلاء العامّة دون شكّ أوّل الممتلكين (*mancipes*)، وهو لفظ صار يشير من بعد إلى الذين يتوجّب عليهم الدفع للخزينة العامّة على أملاكهم العقاريّة. وينتمي دون شكّ إلى هذا النوع أيضًا المهزومون، الذين كان المنتصرون يعطونهم الأراضي غير المزروعة من بين الأراضي التي استولوا عليها، لكي يعتاشوا بها بعد زراعتها، مثلما قال هوتمان الذي استشهدنا به منذ حين[2]. وهكذا عاد أشباه عنتي المقيّدين إلى الأرض بالسلاسل من قِبل الهرقل الإغريقي[3]، ومقيَّدو الإله فيديوس، الذي مثلما رأينا[4] كان الهرقل الروماني، الذين حرّرهم أخيرًا قانون بيتيليا[5].

[§ ١٠٦٦] هؤلاء المقيَّدون [*nexi*] الذين أعتقهم قانون بيتيليا يتطابقون تمامًا، للأسباب التي سبق لنا تحديدها[6]، مع المُقطَعين الذين سُمّوا في البداية "*ligi*"، لأنّهم كانوا مرتبطين بذلك الوثاق. ويعرّفهم علماء الإقطاع الآن على أنّهم أولئك الذين كانوا يقرون أن الصديق أو العدوّ هو صديق أو عدوّ سيدهم: وهذا هو القسَم الذي كان المقطَعون الجرمان القدامى، حسب تاسيتوس، وكما سبق لنا أن رأينا ذلك، يقسمون به أمام أمرائهم بأن يخدموا في سبيل مجدهم[7]. بعد ذلك، حين بلغت هذه الإقطاعات ازدهار السيّادات المدنيّة، كان هؤلاء المقطعون المقيَّدون (*ligi*) هم الملوك المهزومين، الذين وهبهم الشعب الروماني الملك بالجُملة الواردة في التاريخ الروماني "*regna dono dabat*"[8]، ما يعني *beneficio dabat*: وهكذا يصبحون حلفاء الشعب الروماني،

---

(١) § ١٠٧.
(٢) § ١٠٦٣.
(٣) § ٦١٨.
(٤) §§ ٦٠٢، ٦٥٨، ٧٦١، ٧٦٦.
(٥) § ١١٥.
(٦) § ٦٥٨.
(٧) § ٥٥٩.
(٨) أي «يهبون لهم الملك».

بذلـك النوع من الحلف الـذي يُدعى باللاتينيّـة "*foedus inaequale*"، ويتّخذون لقب «*ملوك أصدقاء الشعب الروماني*»، بالمعنى الذي يقول به الأباطرة أنّ جلساءهم الأشراف هـم *أصدقاؤهـم*. هـذا التحالف اللامتسـاوي ليس إلّا تنصيـب إقطاع سـيادي، عبّر عنه تيتـوس ليفيـوس بالقول الذي بلغنا منه مـن أنّ الملك الحليـف **servaret maieſtatem** *populi romai*[1]. وبالصفـة نفسـها يقـول الفقيـه يوليـوس باولـوس[2] إنّ القاضي يقيم العدالـة *servata maieſtate populi romani*، أي أنّـه يقضـي بالعـدل للذيـن يعطيهـم القانـون الحـقّ، ويرفضـه للذين يمنعـه إيّاهم القانون. هـؤلاء الملوك الحلفـاء كانوا إذن أسـياد الإقطاعـات السـياديّة التي تخضع لسيادة أوسـع: وهكـذا رجعـت بأوروبا دلالة مشـتركة للقـب *Maeſtà* (جلالة) الذي يُلقّب به خصوصًا كبار الملوك، وأسـياد ممالك كبرى وولايات عديدة.

[§ ١٠٦٧] مـع هـذه الإقطاعـات الريفيّـة، التـي كانت أصـل كلّ هذه الأشـياء، رجع *الحكر*، الذي تحت نظامه زُرعت في السابق غابة الأرض القديمة الكبرى؛ ومنه جاء ال *laudemio* الـذي كان يعنـي ما يدفعه المُسـتقطَع لسـيّده، وما يدفعه مسـتأجر الحكر إلى المالك المباشر.

[§ ١٠٦٨] كما شاهدنا عودة المولويّة الرومانيّة القديمة، التي سُمّيت «*commende*"، وسـبق أن عرّفناهـا أعـلاه. لهـذا السـبب سُـمّي المُقطَعـون بلاتينيّـة مناسـبة وفصيحـة "*clientes*"، والإقطاعات نفسها قيلت "*clientelae*".

[§ ١٠٦٩] كمـا عـادت الضريبة، على غرار الضريبة التي أقرّها سـيرفيوس توليـوس، وبمقتضاهـا كان العامّـة الرومان مطالبين لزمن طويل بخدمة الأشـراف في الحرب على حسـابهم الخـاصّ. ولـذا فـإنّ المقطَعيـن المسـمّين فـي أيّامنـا الحاضـرة *angarii* و *perangarii* كانوا بمثابة دافعي الضرائب (*assidui*) لدى الرومان القدامى، الذين مثلما سـبق أن رأينـا كانـوا «جنـوداً على حسـابهم الخاصّ»[3]. والأشـراف، الذيـن إلى حدود

---

(١) أي «يحترم جلالة الشعب الروماني».

(٢) Iulius Paulus(القرن الثاني - القرن الثالث ق م). فقيه مشرّع روماني.

(٣) § ورد باللاتينيّة: *suis assibus militabant*، انظر § ٦١٨.

قانـون بيتيليـا الـذي أعتـق العامّة الرومـان من الحـقّ الإقطاعـي المعروف بـ «الوثاق»، تحصّلوا على حقّ السجن الخاصّ للعامّة المدينين لهم.

[§ ١٠٧٠] كما عاد أيضًا *الحوز المؤقّت*، الذي كان في البداية أراضي وفرّها الأسياد إلـى المعوزيـن بطلـب منهـم، حتّـى يتمكّنوا مـن العيش مـن زراعتها. وكانـت تلك هي بالذات الممتلكات التي لـم يعترف بها أبدًا قانون *اللوائح الاثنتي عشـرة*، مثلما سـبق أن بيّنا ذلك[1].

[§ ١٠٧١] وبما أنّ البربريّة مع ما يصاحبها من عنف كانت تهدم الثقة في المبادلات، وتسـمح بالـكاد للشـعوب بـأن يهتمّـوا بما هـو ضـروري للحيـاة الطبيعيّـة، ولأنّ جميع المداخيل كانت تتكوّن من ثماريَدعونها *طبيعيّة* فحسب، فقد ظهرت أيضًا في تلك الفترة نفسها ما يُسمّى بـ "*livelli*" مع تبادل العقارات. ولا شكّ في أنّ الجميع أدركوا المنفعة منها، مثلما رأينا ذلك في موضع آخر[2]، لكون البعض يملك وفرة في الحقول تنتج نوعا مـن الثمـار غير موجـودة في حقول أخـرى، والعكس بالعكـس، ممّا يدفعهـم إلى تبادل الحقول فيما بينهم.

[§ ١٠٧٢] ورأينـا أيضًـا عودة مـا يُسـمّى "*Mancipazioni*" (عقود نقـل الملكيّة)، حيث يضع المُقطَع يديْه بين يديْ سيّده ليعني بذلك ولاءه وخضوعه له. لذلك قلنا فيما سـبق أنّ المقطَعيـن الريفيّيـن، الـذي ظهروا مـع ضريبة سـيرفيوس توليوس، كانـوا أوّل الممتلكيـن (*mancipes*) الرّومـان[3]. وبعقـد نقـل الملكيّة عاد تقسـيم الأشـياء إلى *res mancipi* (أشـياء قابلـة للنقل) و*res nec mancipi* (أشـياء غير قابلـة للنقل). والأملاك الإقطاعيّـة غير قابلة للنقـل (*nec mancipi*)، أي لا يجوز التصرّف فيها من قِبل المقطَع، وهي قابلة للنقل [*mancipi*] بالنسبة لسيّد الإقطاع، بالصفة نفسها التي كانت بها أراضي الولايـات الرومانيّـة غيـر قابلـة للنقـل بالنسـبة لأهالـي الولايـات وقابلـة للنقل بالنسـبة للمواطنين الرومان. وفي عقد نقل الملكيّة عادت المُندرجات أو الشـروط التي سـبق أن

---

(١) §§ ٦٣٨، ٩٨٣.

(٢) § ٥٧١.

(٣) § ١٠٦٥.

بيّنا بخصوصها أنّها مماثلة[1]. ومع المندرجات عادت ما كان التشريع القضائي الروماني القديم، في ما سبق ذكره، قد سمّاه *cavissae*، الذي اختُصر بعد ذلك ليصبح *caussae*، وما سُمّي في زمن عودة البربريّة [القرون الوسطى] *cautelae* له نفس الأصل اللاتيني. والمصادقة على العقود بواسطة الضمانات أو الشروط [*cautelae*] سُمّيت *homologare*، وهو لفظ مشتقّ من *homini* [بشر] الذي جاء منه كما سبقت الإشارة إليه *hominium* و *homagium*[2]، بما أنّ جميع عقود تلك الفترة كانت دون شكّ إقطاعيّة. وهكذا عادت مع الضمانات والشروط [*cautelae*]، العهود المضمونة في عمليّة نقل الملكيّة، التي كان يسمّيها المشرّعون الرومان *pacta stipulata* من *stipula*، الحشفة التي تغلّف القمح. وبالمعنى نفسه استمدّ علماء الفقه البرابرة من هذه الضمانات المسمّاة أيضًا *infestucazioni*، عبارة *pacta vestita* [عقد مضمون]؛ والعقود غير المضمونة سُمّيت *pacta nuda*، بنفس المعنى وبنفس الكلمات سواء من مشرّعي البربريّة الأولى أو الثانية [القرون الوسطى].

[§ ١٠٧٣] وعادت كذلك الملكيّة بنوعيْها، المباشر والنفعي، اللذيْن يوافقان بالتدقيق الملكيّتيْن الكويريتيّة والنفعيّة لدى الرومان القدامى. وشهدنا نشأة الملكيّة المباشرة، بالصفة نفسها التي نشأت بها من قبل لدى الرومان الملكيّة الكويريتيّة، التي كنّا قد رأينا أنّها في بدايتها كانت ملكيّة الأراضي التي منحها الأشراف للعامّة[3]. وإذا ما فقد العامّة ملكيّة تلك الأراضي فعليهم أن يلجؤوا إلى المطالبة بها حسب صيغة القول «*أعلن أنّ هذه الأرض أرضي بموجب الحقّ الكويريتي*»[4]، وهذه المطالبة لا تعدو أن تكون -مثلما سبق أن رأينا ذلك- إلّا استشهادًا بنظام الأشراف كلّه، الذي كان يكوّن الدولة في زمن الأرستقراطيّة الرومانيّة، باعتبارهم المؤسّسين الذين جاء منهم للعامّة حقّ الملكيّة المدنيّة الذي يمكّنهم من المطالبة بتلك الأملاك. هذه الملكيّة سُمّيت دائما *autoritas* في قانون *اللوائح الاثنتيْ عشرة*، باعتبار سلطة الملكيّة التي كانت لمجلس

---

(١) § ٥٦٩.

(٢) § ١٠٥٧.

(٣) §§ ١٠٩، ٦٠١، ٩٨٤.

(٤) ورد باللاتينية: *Aio hunc fundum meum esse ex iure quiritium*، انظر §§ ٦٠٣، ٩٦١، ٩٨٤.

الشيوخ الحاكم على التراب الروماني الشاسع، الذي امتلك عليه الشعب الروماني بعد ذلك، بفضل الحريّة الشعبيّة، السلطة السياديّة، كما بينّا ذلك سابقًا[1].

[§ ١٠٧٤] وقد بقيت لنا من هذه *السلطة* في البربريّة الثانية [القرون الوسطى]، التي نحن بصدد تسليط الأضواء عليها كما فعلنا بالعديد من الأشياء الأخرى في هذا العمل باستخدام الأحداث القديمة التي شهدتها البربريّة الأولى، ونرى كم أنّ أزمنة البربريّة الثانية كانت أكثر غموضًا من أزمنة البربريّة الأولى! بقيت لنا منها ثلاثة آثار واضحة جدّاً في ثلاث كلمات إقطاعيّة. أوّلا في كلمة *directus*، التي تؤكّد أنّ إجراء المطالبة كان في بدايته مسموحًا به من طرف سيّد الإقطاع المباشر؛ ثمّ كلمة *laudemium*، التي كانت تشير إلى الدفع الذي قام به المُقطَع حين حصل على ملكيّة الإقطاع بواسطة شهادة [*laudatio*] سيّد الإقطاع باعتباره المؤسّس الذي تحدّثنا عنه لتوّنا. وأخيرًا، في الكلمة الإيطاليّة *laudo*، التي كانت تعني في البداية حُكم القاضي في هذا النوع من الحالات، وصارت تشير بعد ذلك إلى الأحكام الناتجة عن قرار تحكيمي؛ لأنّ هذه الأحكام كان يبدو أنّها تنتهي بصفة وديّة، بعكس الأحكام الخاصّة بالإقطاعات الحرّة [*allodi*]، ويرى بوديوس[2] أنّ اللفظ اللاتيني *allodium* جاء من *allaudium*، مثلما في الإيطاليّة تحوّل لفظ *laude* إلى *lode*، التي كان الأسياد في البداية يتبارزون من أجلها بالسلاح، مثلما سبق أن رأينا ذلك[3]. وقد دامت هذه العادة حتّى الفترة التي أعيشها في مملكتنا نابولي، حيث البارونات يثأرون للاقتحامات التي يقوم بها بارونات آخرون في أراضي إقطاعاتهم، ليس عن طريق أحكام مدنيّة بل عن طريق مبارزات. وعلى غرار الملكيّة *الكويريتيّة* [المدنيّة] لدى الرومان القدامى، مثّلت الملكيّة المباشرة للبرابرة القدامى الملكيّة التي تُنتج إجراءً مدنيًّا واقعيًّا.

[§ ١٠٧٥] لدينا هنا مناسبة مضيئة جدّاً لكي نلاحظ أيضًا أنّه داخل تكرار المسار الذي تسيره الأمم يوجد تكرار مصير المشرّعين الرومان المتأخرين في مصير المشرّعين

---

(١) §§ ٣٨٦، ٩٤٤ وما يتبع.

(٢) هو Guillaume Budé باللاتينيّة Budaeus (١٤٦٧-١٥٤٠)،عالم فرنسي في الإنسانيّات: من اللاهوتية إلى التشريع القضائي، ومن الرياضيات إلى الفقه. من بين أعماله *Annotations sur les vingt-quatre livres des Pandectes*، باريس، ١٥٠٨. انظر الكتاب II، ص٢٧٠.

(٣) § ٩٦١.

البرابرة المتأخّرين. وبالفعل، كما أنّ الأوّلين كانوا قد نسوا في عصرهم القانون الروماني القديم، كما سبق تأكيده عبر العديد من البراهين[1]، فقد نسي الثانون في أزمنتهم الأخيرة القانون القديم الإقطاعي. لهذا السبب ينفي المؤوّلون العلماء في التاريخ الروماني قطعًا أنّ هذيْن النوعيْن البربريّيْن للملكيّة، المباشرة والنفعيّة، كانا معروفيْن في القانون الروماني؛ لأنّهم كانوا لا يعتبرون إلّا اختلاف الألفاظ ولا يدركون تماثل الأشياء.

[§ ١٠٧٦] وعادت الأملاك المسمّاة *ex jure optimo*، التي كان علماء الإقطاع يعرّفونها على أنّها أملاك إقطاعيّة حرّة، غير خاضعة لأيّ عبء عامّ أو خاصّ، ويقارنونه بذلك العدد النادر من المنازل المملوكة بمقتضى الحقّ السامي *ex jure optimo*، التي يقول شيشرون إنّها كانت لا تزال موجودة في زمنه بروما[2]. ومع ذلك، بالطريقة نفسها التي ضاع فيها كلّ مفهوم من هذا النوع من الملكيّة في القوانين الرومانيّة المتأخّرة، فإنّنا لا نعثر في زمننا على واحدة من هذه الملكيّات الإقطاعيّة الحرّة. وكما جرى في السابق مع الأملاك العقاريّة *ex jure optimo* لدى الرومان، صارت الملكيّات الإقطاعيّة الحرّة [*allodi*] أملاكًا عقاريّة غير خاضعة لأيّ عبء واقعي خاصّ، ولكنها تخضع للأعباء الواقعيّة العموميّة. شاهدنا إذن عودة الطريقة، التي سبق لنا شرحها والتي انطلاقًا من الضريبة التي أقرّها سيرفيوس توليوس تشكّل بها الأداء الذي مثّل أساس الخزينة العموميّة الرومانية. والملكيّات الحرّة [*allodi*] والإقطاعات التي كانت تمثّل النوعيْن الكبيريْن من الملكيّة في القانون الإقطاعي، كانت في البداية تفترق في كون الأملاك الإقطاعيّة محمية بشهادة سيّد الإقطاع، بينما الأملاك الحرّة [*allodi*] لم تكن كذلك. وهكذا، في غياب هذه المبادئ لم يتوصّل جميع علماء الإقطاع إلى تفسير لماذا سُمّيت الأملاك الإقطاعيّة الحرّة [*allodi*]، وهو لفظ ترجموه باللاتينيّة بعبارة *bona ex jure optimo* المقترَضة من شيشرون *أملاك المغزل*. هذه الأملاك، بمعناها الحرفي، مثلما سبق ذكره[3]، كانت أملاكًا مكتسَبة باسم حقّ قويّ جدّاً، لا يُضعفه أيّ عبء خارجي، حتّى وإن كان عموميّاً. كانت تلك، مثلما سبق أن بينّا ذلك أيضًا، أملاك الآباء في عهد

(١) §§ ٩٨٤، ٩٩٣.

(٢) § ٦٠١.

(٣) § ٦٥٧.

الأُسَـر، وتواصـل وجودهـا طويلا في عهد المُـدن الأولى. وقد تحصّـل الآباء على هذه الأمـلاك بأشـغال هرقـل، ويمكننا بفضل هـذه المبـادئ أن نفهم لماذا هرقل هذا نفسـه، الـذي صـار بعـد ذلك عبدًا لـكلٍّ من *يول وأومفال*، شـرع يغـزل. وهذا يعنـي بالفعل أنّ الأبطـال تخنّثـوا وتنازلوا عن حقوقهم البطوليّة للعامّـة، الذين كانوا قد اعتبروهم بالذات مثـل النسـاء، وعلـى عكس ذلـك كانـوا يعتبـرون أنفسـهم *viri* ويتّخذون لأنفسـهم هذا الاسـم، كما سـبق أن فسّـرنا ذلك[١]. وقبلـوا بإخضاع أملاكهم للخزينـة العامّة بعد إقرار الضريبة، التي كانت في البداية أسـاس الجمهوريّات الشـعبيّة، ثمّ صلُح بعد ذلك ليكون أساسًا للأنظمة الملكيّة.

[§ ١٠٧٧] وهكـذا، بهـذا الحقّ الإقطاعي القديم، الذي نُسـي فـي الأزمنة اللاحقة، عـادت الأمـلاك المسـمّاة *ex jure quiritium* التي مثلما سـبق تفسـيره[٢] كانت من حقّ الرومان المجتمعين في جلسـة عموميّة، مسـلّحين بالرماح، التي يسـمّونها *quires*. ومن هـذا اللفـظ جـاءت صيغـة الاسـتحقاق *Aio hunc fundum meum esse ex jure quiritium*، التي مثلما سبق أن رأينا ذلك، كانت الشهادة باعتباره *مؤسّس* الدولة البطوليّة الرومانية. بالشـكل نفسـه، في زمن البربريّة الثانية [القرون الوسـطى] فإنّه من الثابت أنّ الإقطاعـات كانت تُسـمّى *أملاك الرمح*، وتفترض شـهادة الأسـياد كمؤسّسـين، بخلاف الأمـلاك الإقطاعيّة الحرّة [*allodi*]، المسـمّاة *أملاك المغـزل*، ذاك المغزل الذي غزل به هرقـل الـذي فـي ذلّه صـار عبدًا للنسـاء: وقد مكّننا هذا فيما سـبق من ذكر مصدر شـعار ملوك فرنسـا *Lilia non nent*، بما أنّه في هذه المملكة لا يُقبل أن ترث النسـاء. وعادت بالفعل الوراثات الأهليّة التي أقرّها قانون *اللوائح الاثنتي عشـرة*، الذي سـبق أن وضّحنا أنّه كان قانون الأقوام الرومانية [*ius gentium romanorum*]، بالطريقة نفسـها التي كان بالـدوس يسـمّي بها القانون السّـالي لدى الإفرنـج [*ius gentium gallorum*][٣]. وهذا التشـريع الأخيـر كان دون شـكّ نافذًا بجرمانيا، ولدى الأمم الأولـى البربريّة بأوروبا، ثمّ اقتصر فيما بعد على فرنسا وسافوا.

---

(١) §§ ٦٥٧، ٦٨٤، ١٠٦١.

(٢) §§ ٥٩٥، ٦٢٤.

(٣) §§ ٦٥٧، ٩٨٨.

[§ ١٠٧٨] وأخيرًا، عادت المجالس المسلّحة التي، مثلما سبق أن رأينا، كانت المجالس البطوليّة التي تلتئم تحت السلاح، والتي كان الإغريق يسمّونها مجالس *الكوريت*، والرومان مجالس *كويريتس*. ومجالس ممالك أوروبا الأولى كانت دون شكّ متكوّنة من بارونات، مثل مجلس فرنسا الذي كان بالتأكيد متكوّنًا من أسياد إقطاعات. ويروي لنا تاريخ فرنسا بوضوح أنّ الملوك كانوا في البداية زعماء هذه المجالس، وكانوا يسمّون أعيان المجلس كي يحكموا في القضايا باعتبارهم مفوّضين، ولذا بقوا يُدعون *دوقات وأعيان* فرنسا. كما نرى أنّ الحكم الأوّل الذي، حسب شيشرون، نُظر فيه في قضيّة حياة مواطن روماني، كان الحكم الذي أنشأ فيه الملك توليوس هوستيليوس مجلس *الدومفير*[١]، باعتبارهما مفوّضين، باستعمال الصيغة التي ذكرها تيتوس ليفيوس في محاكمة *هوراثيوس بتهمة الخيانة العظمى*[٢]، لأنّه قتل شقيقته[٣].

[§ ١٠٧٩] في صرامة الأزمنة البطوليّة، كلّ جريمة قتل بحقّ مواطن، حين كانت الدولة متكوّنة فقط من أبطال كما سبق لنا أن أوضحنا ذلك بالكامل، كانت تُعتبر فعلا عدائيًا ضدّ الوطن، وهو المعنى الحرفي للفظ *perduellio*. وكلّ جريمة قتل من هذا النوع كانت تُسمّى *parricidium*، لأنّها تُرتكب ضدّ أحد الآباء، أي أحد الأشراف لأنّ روما في ذلك الزمن، مثلما رأينا ذلك، كانت مقسّمة إلى أشراف وعامّة. وما يفسّر أنّه منذ رُمولوس إلى حكم توليسوس هوستيليوس، لم تجر محاكمة لجريمة قتل أحد الأشراف هو أنّ الأشراف كانوا حذرين لعدم ارتكاب هذا النوع من الجرم، واللجوء إلى المبارزات فيما بينهم، كما سبق أن ذكرنا ذلك[٤]. ولأنّه في حالة هوراثيوس لم يكن يوجد أحد للأخذ بثأر هوراتسيا، أمر توليوس هوستيليوس بإجراء محاكمة. من ناحية أخرى، كانت جرائم قتل أشخاص من العامّة مُرتكَبة من أسيادهم أنفسهم، فلا يمكن إدانتهم، أو على يد آخرين يتوجّب عليهم التعويض لسيّدهم، كما لو تعلّق الأمر برقيق. وهذه العادة لا

---

(١) في روما القديمة كان ال Duumviri [من اللاتينية duo أي إثنين] هيئة قضائيّة متكوّنة من عضويْن.

(٢) ورد باللاتينية: *in Horatium perduellionem dicerent*، في تيتوس ليفيوس، *التاريخ الروماني*، I، ٢٦، ٥.

(٣) § ٥٠٠.

(٤) § ١٠٧٤.

تـزال قائمة في بولندا وليتوانيا والسـويد والدنمارك والنرويج. ولكنّ المفسّـرين العلماء في القانون الروماني لـم ينتبهوا إلى هذه الصعوبة، لإيمانهم العقيم ببراءة القرن الذهبي[١]، بالطريقة نفسـها التي اتّكأ بها الكتّاب في السياسـة، وللسـبب نفسـه، على ما أكّده أرسطو مـن أنّـه فـي الجمهوريّات القديمة لم تكن هنـاك قوانين خاصّة بالأضـرار وبالاعتداءات الخاصّة. ومن ذلك أنّ تاسيتوس وسالّوستيوس ومؤلّفين آخرين، الذين كانوا من جهة أخرى أهل دراية، حين يتحدّثون عن أصول الجمهوريّات والشرائع، يقولون بخصوص الوضع البدائي السابق للمُدن، إنّ البشر في البداية كانوا يعيشون مثل آدم في عهد البراءة. ولكـن حيـن دخـل بعد ذلك إلـى هذه المـدن أولئـك ال *homines* الذين يسـتغرب لهم هوتمـان[٢] كثيرًا والذيـن جاء عندهـم حـقّ *الناس* الطبيعـي الـذي يسـمّيه أولبيانـوس *humanae*[٣]، سُمّيت جريمة قتل إنسان مهما كان *homicidium*.

[§ ١٠٨٠] فـي هـذه المجالس كانت تُناقش قضايـا إقطاعيّة تخصّ الحقوق والإرث أو الأيلولة بسـبب الخيانة أو انعدام الورثة. هذه القضايا المثبتَة عديد المرّات بمثل هذه القرارات القضائيّة كوّنت التقاليد الإقطاعيّة، التي هي أقدم التقاليد بأوروبا، والتي تشهد بـأنّ قانـون *الناس* الطبيعي نشـأ من هـذه التقاليد الطبيعية للإقطاعات، مثلما سـبق أن بيّنا ذلك بالكامل[٤].

[§ ١٠٨١] أخيـرًا، بالطريقـة نفسـها التـي سـمح بهـا الملـك توليوس هوسـتيليوس لهوراثيـوس أن يمثـل أمام الشـعب، الذي كان آنذاك متكوّنًا من أشـراف فحسـب، مثلما سبق أن وضّحنا ذلك[٥]، لاستئناف الحكم الصادر بحقّه، إذ أنّه أمام مجلس شيوخ حاكم لا يوجـد حـلّ آخـر للمدانيـن غير اللجوء إلى مجلس الشـيوخ نفسـه. وبالطريقة نفسـها وليس بغيرها كان على الأشـراف في أزمنة عودة البربريّة [القرون الوسـطى] أن يلجؤوا للملوك أنفسـهم في مجالسـهم البرلمانية، على سـبيل المثال لملوك فرنسـا الذين كانوا يرأسون هذه المجالس.

---

(١) §§ ٥١٨، ٥٤٧.

(٢) § ٤٣٧.

(٣) § ٥٦٩.

(٤) § ٥٩٩ وما يتبع

(٥) §§ ٥٠٠، ٦٦٢.

[§ ١٠٨٢] وقد بقي لنا أثر عظيم من هذه المجالس البرلمانيّة البطوليّة في المجلس النابوليتاني المقدّس الذي يُلقّب رئيسه بالجلالة الملكيّة المقدّسة، ويُدعى مُستشاروه *milites*، ولهم فيه وظيفة المفوّضين، إذ أنّه في الأزمنة البربريّة الثانية [القرون الوسطى]، الأشراف وحدهم كانوا جنودًا، بينما العامّة من الشعب يخدمونهم أثناء الحروب، مثلما كان الحال في الأزمنة البربريّة الأولى كما لاحظنا ذلك عند هوميروس وفي التاريخ الروماني[1]. ولا يُمكن استئناف الحكم أمام قاض آخر بل أمام المحكمة نفسها.

[§ ١٠٨٣] كلّ الأشياء التي ذكرناها هنا تجعلنا نستنتج أنّه في كلّ مكان كانت الممالك أرستقراطيّة، ولا نقول من حيث الدولة، بل من حيث الحكم، كما هو الحال الآن في الشمال البارد، في بولندا، وكما كانت قبل الآن بمئة وخمسين سنة بالسويد والدنمارك. وبولندا، مع مرور الزمن، وإذا لم تمنع أسباب استثنائية المسار الطبيعي للأحوال، ستُصبح ملكيّة تامّة الشروط.

[§ ١٠٨٤] وهو من الصحّة حتّى أنّ بودان نفسه قال عن مملكته فرنسا إنّها كانت أرستقراطيّة لا من حيث الحكومة، كما نقول، بل من حيث الدولة، تحت السلالتيْن الملكيّتيْن الميروفنجيّة والكارولنجيّة. لذا نسأل بودان كيف حدث أن صارت مملكة فرنسا على ما هي عليه اليوم، ملكيّة بالتمام والكمال. هل هي نتيجة بعض القوانين الملكيّة التي جعلت فرسان فرنسا ينزعون عنهم من تلقاء أنفسهم كلّ السلطة لتسليمها للملوك الكارولنجيّين؟ فإذا ما لجأ إلى خرافة القانون الملكيّ الذي تصوّره تريبونيان[2]، والتي تقول إنّ الشعب الروماني تنازل عن سلطته الحرّة والسياديّة لتسليمها إلى أوكتافيوس أغسطس، فإنّه يكفينا، لإثبات أنّها خرافة، أن نعود إلى الصفحات الأولى من *الحوليّات* لتاسيتوس، التي يروي فيها إجراءات أغسطس الأخيرة التي ينسب بها إلى شخصه شرعيّة بداية المملكة الرومانيّة، والتي أقنعت كلّ الأمم أنّها بدأت به. هل أنّ ذلك راجع إلى كون أحد الكابيتيّين غزا فرنسا بقوّة السّلاح؟ ولكن جميع قصص التاريخ تقول إنّها كانت بمنأى عن مثل تلك المأساة. وعليه فإنّه على بودان وعلى من معه من كتّاب السياسة وجميع المشرّعين الذين ألّفوا في القانون العام [*de jure publico*]، أن

---

(١) §§ ٤٢٥، ٥٥٨ وما يتبع، ١٠٣٣.

(٢) قاضي ومستشار بيزنطي شهير [حوالي ٥٠٠- ٥٤٧]، § ١٠٠٧ وما يتبع.

يعترفوا بهذه الشريعة الملكيّة السرمديّة والطبيعيّة التي تقضي بأنّ القوّة الحرّة للدولة؛ ولأنّها حرّة فهي تتحقّق حتمًا. وهكذا كلّما ضعفت أكثر قوّة الأشراف تنامت أكثر قوّة الشعوب، إلى أن تصير حرّة. وبقدر ما تفقد الشعوب من قوّتها، بقدر ما تتنامى قوّة الملوك، إلى أن يصبحوا أصحاب السلطان. وبالفعل، كما أنّ حقّ الفلاسفة الطبيعي هو حقّ العقل، فإنّ حقّ *الناس* الطبيعي هو حقّ المنفعة والقوّة، وكما يقول المشرّعون القضائيّون، يُلاحَظ أنّ الأمم تعمل «*كما يتطلّبه العرف وكما تقتضيه الضرورة* الإنسانيّة»[1].

[§ ١٠٨٥] بسبب هذه العبارات الجميلة والأنيقة في التشريع القضائي الروماني القديم، التي يخفّف بواسطتها علماء الإقطاع ويمكنهم التخفيف أكثر من بربريّة العقيدة الإقطاعيّة، التي تتلاءم أفكارها تمامًا مع هذه العبارات، مثلما سبق أن بيّنا ذلك[2]، يمكن لأولداندورب[3]، وكلّ الآخرين معه، أن يفهم الحقّ الإقطاعي باعتباره نشأ من شرارات النار التي أضرمها الهمجيّون في القانون الروماني. وبالفعل، نشأ القانون الروماني من شرارات الإقطاع التي أوقدتها البربريّة الأولى في اللاتيوم، والتي بُنيت عليها كلّ جمهوريّات العالم. وهذا ما سبق أن أوضحناه في فقرة من *السياسة الشعريّة*[4]، مخصّصة للجمهوريّات الأولى، وكما سبق أن وعدنا بفعله في التمهيد *فكرة عن العمل*[5]، فقد برهنّا في هذا الكتاب [الخامس] على أنّ منشأ الممالك الأوروبيّة الجديدة يوجد في الطبيعة السرمديّة للإقطاعات.

[§ ١٠٨٦] أخيرًا، مع بعث الجامعات بإيطاليا، ومع تدريس القوانين الرومانية التي تحتويها مدوّنة جوستنيان والتي صيغت حسب الحقّ الطبيعي *للأقوام البشريّة*[*gentes*] شرعت العقول بتنامي تطوّرها وذكائها في دراسة التشريع القضائي المعتمد على العدالة

---

(١) ورد باللاتينية: *usu exigente humanisque necessitatibus expostulantibus*، أولبيانوس، *Digeste*، I، ٢.

(٢) §§ ١٠٥٧ وما يتبع.

(٣) Johann Oldendorp [١٤٨٠-١٥٦٧]، مشرّع ومصلح ألماني، مؤلّف كتاب *Actionum forensium progymnasmata*، ١٥٤٤.

(٤) § ٥٩٩ وما يتبع.

(٥) § ٢٥.

الطبيعيّة، التي تجعل غير الأشراف والأشراف متساوين في الحقّ المدني، كما هم متساوون في الطبيعة البشريّة. وحدث لأشراف ممالك أوروبا، التي كانت قد قادتها حكومات أرستقراطيّة وصارت بعد ذلك جمهوريّات حرّة وملكيّات تامّة الكمال، ما كان قد حدث بروما منذ اللحظة التي بدأ فيها تيبيريوس كورونكانيوس[1] في تدريس الشرائع للعموم، بحيث أنّ سرّها بدأ يفلت من أيدي الأشراف الذين ضعُفت شيئًا فشيئًا سلطتهم.

[§ ١٠٨٧] هذان الشكلان من الدولة، لأنّهما يقتضيان حكومات إنسانيّة، بإمكانهما جيّدًا التعاقب المتبادل، ولكن يكاد يكون من المستحيل، من حيث الطبيعة المدنيّة، أن يعودا إلى شكل الدول الأرستقراطيّة. لهذا السبب فإنّ ديون السرقوسي[2]، مع انتمائه للسلالة الملكيّة ومع طرده لأمير وحشيّ، الطاغية ديونيسيوس الثاني، ومع أنّه كان يتوفّر على خصال مدنيّة عالية جعلته جديرًا بصداقة أفلاطون العظيم، قد قُتل رغم ذلك بصفة وحشيّة؛ لأنّه حاول إعادة بناء الدولة الأرستقراطيّة. والفيثاغيريّون، أي أشراف اليونان الكبرى، كما فسّرنا ذلك سابقًا، قُطّعوا جميعهم إربًا، والقليلون منهم الذين لجؤوا إلى القلاع المحصّنة حُرقوا أحياء على يد الجموع. وبالفعل فإنّ رجال العامّة بعد أن عرفوا أنّهم متساوون من الناحية الطبيعيّة مع الأشراف لم يرضوا بألاّ يكونوا كذلك من حيث الحقوق المدنيّة: وهو ما يحصلون عليه في الجمهوريّات الحرّة أو تحت الملكيّات. ولهذا السبب، في إنسانيّة الأمم الحالية، فإنّ الجمهوريّات الأرستقراطيّة، التي لا يزال يوجد منها عدد قليل[3]، تُعنى عناية لا حدّ لها باتّخاذ تراتيب مدروسة وحكيمة للحفاظ على جماهير العامّة في الآن نفسه مطيعة وراضية.

---

(١) اسمه اللاتيني Tiberius Coruncarius [٣١١-٢٤٣ ق. م.]، رجل سياسة شغل مناصب ديكتاتور، سيناتور وقنصل في روما القديمة.

(٢) ديون السرقوسي [٤٠٨ - ٣٥٤ ق.م.] سياسي إغريقي بإيطاليا وتلميذ افلاطون، طاغية من سرقوسة بصقلية.

(٣) انظر في هذا الخصوص §§ ١٠١٨، ١٠٩٤.

[الباب الثالث]

وصف عالم الأمم القديم والحديث حسب رسم مبادئ هذا العلم

[§ ١٠٨٨] قرطاج، كابوا، نومنسيا[١]، المدن الثلاث التي كانت روما تخشى سلطانها على العالم، لم تتبع هذا المسار للأمور الإنسانيّة المدنيّة. فالقرطاجنيّون مُنعوا من ذلك للنباهة الطبيعيّة التي تميّز الإفريقيّين، التي شحذتها أكثر التجارة البحريّة؛ والكبوانيّون منعتهم من ذلك لطافة الطقس وخصوبة كمبانيا السعيدة؛ وأخيرا، مُنع النومانسيّون من ذلك لأنّهم لحظة بدأ ازدهار بطوليّتهم سحقتهم القوّة الرومانيّة، تحت قيادة شيبيون الإفريقي الذي هزم قرطاج وساندته في ذلك كلّ قوى العالم[٢]. ولكن الرومان لم يمنعهم من ذلك أيّ شيء من هذه الأمور، وتقدّموا بخطى ثابتة، تقودهم في ذلك العناية الإلهية بواسطة الحكمة العاميّة، متّبعين الأشكال الثلاثة من الحكم المدني حسب ترتيبها الطبيعي، والتي سبق أن بيّناها بعديد القرائن في هذا العمل، وبقوا في كلّ شكل منها إلى حين تبعه طبيعيًّا الشكل التالي. واحتفظوا بالأرستقراطيّة إلى وقت شرائع بوبليليا وبيتيليا[٣]، واحتفظوا بالحريّة الشعبيّة إلى زمن أغسطس، واحتفظوا بالملوكيّة كلّ الوقت الذي أمكن لهم أن يقاوموا الأسباب الداخليّة والخارجيّة التي هدمت هذا الشكل من الدولة.

[§ ١٠٨٩] اليوم يبدو أنّه تسود حضارة متكاملة منتشرة بين كلّ الأمم، بما أنّ عدداً قليلاً من كبار الملوك يحكم هذا العالم من الشعوب. وإذا كان لا يزال هناك برابرة فذلك

---

(١) توجد مدينة كابوا، بالإيطاليّة Capua بإقليم كمبانيا الذي عاصمته الحالية هي نابولي. ونومنسيا [Numantia] كانت مدينة قديمة بشمال هيسبانيا. في سنة ١٥٣ ق. م. كان لها أكبر نزاع مع روما.

(٢) § ٩٧١.

(٣) §§ ١٠٤-١١٥.

يعـود إلـى أنّ ملوكيّتهـم لا تـزال قائمـة علـى معتقـدات عاميّة بديانـات عجيبـة ورهيبة، ونضيف لدى بعضها وجود طبيعة غير متوازنة كثيرًا لدى الأمم الخاضعة لها.

[§ ١٠٩٠] وبدءاً من الشـمال البارد، فإنّ قيصر موسـكو، مع أنّه مسـيحيّ فهو سـيّد أناس ذوي فكر كسول؛ وخان التّتر يسيطر على شعوب مرتخية، كما كانت سابقًا شعوب السـيرس القديمـة، الذين كانوا يشـكّلون أكبر جزء من إمبراطوريّتـه العظيمة التي ضُمّت الآن إلى إمبراطوريّة الصين؛ ونجاشي أثيوبيا وملوك فاس والمغرب الجبّارون يحكمون في شعوب ضعيفة وقليلة العدد.

[§ ١٠٩١] ولكن وسط المنطقة المعتدلة، حيث ينشأ أناس ذوو طبيعة متوازنة، بدءًا بأقصى الشـرق، فإنّ إمبراطور اليابان يمارس في بلاده إنسـانيّة شـبيهة بإنسـانيّة الرومان زمن الحروب البونيقيّة، والتي يقلّد منها الشراسة الحربيّة، وكما يلاحظ الرحّالة العلماء، كان فـي لغتـه شـيء ما يشـبه اللاتينيّة، ولكن بسـبب ديانـة فيها خيالات مروّعـة ورهيبة، بآلهـات فظيعة مغطّاة بأسـلحة فتّاكة، فهو يحتفظ بالكثير مـن الطبيعة البطوليّة. وبالفعل، فـإنّ الآباء المبشـرين الذيـن زاروا تلك البلاد يقولون إنّ أصعب شـيء اعترضهم لجلب تلك الشعوب إلى الديانة المسيحيّة هو أنّ الأشراف لا يُمكن إقناعهم بأنّ العامّة يملكون نفـس الطبيعة الإنسـانيّة التـي يملكونها. أمّا إمبراطور الصين، الـذي يحكم عبر ديانة ليّنة ويـدرس الآداب، فهـو إنسـانيّ جدّاً. وإمبراطـور الهند في الغالب إنسـانيّ، ويمارس في غالـب الوقـت الفنـون والسـلم. والإمبراطـور الفارسـي وكذلـك التركي، فإنّهمـا مزجا الارتخاء المميّز لآسـيا، التي يسـيطران عليها، بمذاهب ديانتهم الفظّة.[1] والأتراك بصفة خاصّة ليّنوا طباعهم المتكبّرة بالفخامة والترف والتسامح والاعتراف بالفضل.

[§ ١٠٩٢] أمّا بأوروبا، حيث يعتنق الجميع الديانة المسـيحيّة، التي تنشـر فكرة عن الربّ غاية في الكمال وتوصي بالرحمة إزاء كلّ الجنس البشري، توجد ملكيّات عظيمة عاداتهـا كثيـرة الإنسـانيّة. صحيـح أنّ تلـك الموجـودة فـي الشـمال البارد، مثل السـويد والدنمـارك إلى قبل الآن بمئة وخمسـين سـنة، وبولندا إلى يومنا هـذا وحتّى إنكلترا، مع

(١) لا يخفى في مجمل الكتاب وفي هذا الباب تحديدا تحيز فيكو لمسيحيته التي ينتمي إليها، ونظرة الإقصاء لأديان وثقافات أخرى. (الناشر)

أنّها ملوكيّة من حيث الدولة، تبدو مع ذلك خاضعة لحكومة أرستقراطيّة. ولكن إذا لم تمنع أسباب ما استثنائيّة المسار الطبيعي للأشياء، فإنّها ستبلغ الكمال الملوكيّ. في هذا الجزء من العالم فحسب، لأنّه تُدرّس فيها العلوم، يوجد أكبر عدد من الجمهوريّات الشعبيّة ممّا يوجد في الأجزاء الثلاثة الأخرى. بل وأكثر، بعودة نفس المنافع والضرورات العموميّة، شاهدنا فيها عودة شكل جمهوريّات الإيتوليّين والآخييّن[1]. وهذه الأخيرة لجأ إليها الإغريق للضرورة التي كانت ملحّة لمواجهة قوّة الرومان الجبّارة. والكانتونات السويسريّة والمقاطعات المتّحدة أو دول هولاندا فعلت الشيء نفسه مركّبة من عدّة مدن حرّة شعبيّة دولتيْن أرستقراطيّتيْن، متّحدتيْن داخليًّا برابطة دائمة في السلم وفي الحرب. وجسم الإمبراطوريّة الجرمانيّة هو نظام متكوّن من عدد كبير من المدن الحرّة ومن الأمراء السياديّين، رئيسهم هو الإمبراطور، وبخصوص الشؤون المتعلّقة بالدولة الإمبراطوريّة، تحكمه الأرستقراطيّة.

[§ ١٠٩٣] والجدير بالملاحظة هنا هو أنّ القوى السياديّة حين تتّحد في رابطة دائمة أو وقتيّة، ينتهي بها المطاف إلى تشكيل دول أرستقراطيّة، تنشأ بداخلها شكوك قلقة تتميّز بها الأرستقراطيّة، كما سبق أن بيّنا ذلك[2]. وبما أنّ هذه الدول الأرستقراطيّة تمثّل الشكل الأخير للدول المدنيّة، إذ لا يُمكن أن نتصوّر في الطبيعة المدنيّة دولة أسمى من هذا النوع من الأرستقراطيّات، وهذا الشكل نفسه كان دون شكّ الشكل الأوّل وهو، كما سبق أن برهنّا على ذلك في هذا العمل بالعديد من القرائن أرستقراطيّات الآباء، الملوك الأسياد على أُسَرهم، المتّحدين في أنظمة حاكمة في المُدن الأولى[3]. ذلك أنّه من طبيعة المبادئ أن تبدأ الأشياء بهم وتنتهي بهم.

[§ ١٠٩٤] الآن ورجوعًا إلى موضوعنا، لا يوجد بأوروبا سوى خمس أرستقراطيّات، وهي البندقية وجنوة ولوكّا بإيطاليا، وراغوزا بدلماسيا ونورنبرغ بألمانيا، وجميعها تقريبًا لها تراب محدود. ولكن أوروبا المسيحيّة في جملتها تشعّ بحضارة مشرقة زاخرة بشتى أنواع

---

(١) الإيتوليّون هم سكّان إيتوليا وهي منطقة جبليّة باليونان. والأخيّون اسم يُطلق على سكّان جنوبي شرق اليونان، نسبة إلى أخيون، اسم الإغريق في العصر الميتيني [١٦٥٠- ١١٠٠ ق. م.].

(٢) §§ ٢٧٣، ١٠٢٥.

(٣) § ٥٨٤.

المنافع التي توفّر الحياة السعيدة، من راحة الجسد إلى متعة الفكر وسلام الروح. كلّ هذا بفضل الديانة المسيحيّة التي تعلّم حقائق سامية تقبل لخدمتها الفلسفات الأكثر حكمة، وتدرس ثلاث لغات اعتبرتها لغاتها: اللغة الأقدم في العالم وهي اللغة العبريّة، والأرقّ وهي الإغريقيّة، والأعظم وهي اللاتينيّة.[١] وهكذا، لتحقيق الغايات الإنسانيّة فإنّ الديانة المسيحيّة هي من بين أفضل ديانات العالم، لأنّها تجمع بين المعرفة الربّانية والمعرفة العقلانيّة، التي تستند إلى أصفى ما انتقاه الفلاسفة من مذاهب وأكثر ما درسه الفقهاء من علم.

[§ ١٠٩٥] وختامًا، باجتياز المحيط، نرى أنّه في العالم الجديد كان الأمريكيّون سيتبعون الآن هذا المسار للأمور البشريّة لو لم يكتشفهم الأوروبيّون.

[§ ١٠٩٦] الآن، بعد أن درسنا بالخصوص في هذا الكتاب الخامس مسار الأمور الإنسانية المدنيّة، لنفكّر في المقاربات التي قمنا بها طيلة هذا العمل، بخصوص مواضيع عديدة، بين الأزمنة الأولى والأزمنة الأخيرة للأمم القديمة والحديثة. سيكون مكشوفًا بالكامل أمامنا -لا القصّة الخصوصيّة في الزمن لشرائع ووقائع الرومان أو الإغريق فحسب، بل بمقتضى تماثل معانيها في جوهرها عبر اختلاف طرق التعبير عنها- القصّة المثاليّة للشرائع السرمديّة التي تتّبعها في مسارها وقائع كلّ الأمم، في نشأتها وتطوّرها ونضجها وانحلالها ونهايتها[٢]، والتي ستتبعها حتّى وإن نشأت من هذه السرمديّة من حين لآخر، وهو دون شكّ غير صحيح، عوالم بعدد لامتناه[٣]. لهذا السبب لا يُمكننا ردع أنفسنا عن إعطاء هذا العمل عنوان ***العلم الجديد*** المثير للحسد، لأنّه سيكون من غير المنصف أن نسلبه الحقّ الذي يملكه عن جدارة بخصوص موضوع بهذه الشموليّة يمسّ الطبيعة المشتركة للأمم، بمقتضى الخاصيّة التي يملكها كلّ علم كامل في فكرته والتي يفسّرها لنا سينيكا بمقولته الرائعة: «*هذا العالم شيء صغير، إن لم يستطع العالم كلّه أن يجد فيه ما يبحث عنه*».[٤]

---

(١) يتضح هنا كذلك تحيز فيكو للغات الأوربية ووصفها بصفات تميزها عن غيرها من لغات العالم، وهو أمر تجاوزته العلوم اللسانية المعاصرة التي ترى أنه لا تفاضل بين اللغات. (الناشر)

(٢) انظر في هذا الشأن §§ ٣٤٩، ٣٩٣.

(٣) § ٣٤٨.

(٤) ورد باللاتينية: *pusilla res hic Mundus est, nisi id, quod quaerit, omnis Mundus habeat* في سينيكا، *المسائل الطبيعيّة*، VII، ٣١.

خاتمة العمل

حول جمهوريّة سرمديّة طبيعيّة، تكون الأفضل في كلّ نوع من أنواعها، وتدبّرها العناية الإلهية.

[§ ١٠٩٧] لنختم إذن هذا العمل بأفلاطون، الذي خلق نوعًا رابعًا من الجمهوريّة، حيث يكون فيها الرجال النزهاء والطيّبون الأسياد السامين، وهو ما يكوّن الأرستقراطيّة الحقيقيّة الطبيعيّة. هذه الجمهوريّة، مثلما تصوّرها أفلاطون، قادتها العناية الإلهية منذ البدايات الأولى للأمم، مدبّرة أنّه من بين البشر ذوي القامات العملاقة، الأقوى من بين البشر، الذين كان عليهم أن يجوبوا قمم الجبال، مثلما تفعل الحيوانات المفترسة التي هي أقوى مراسًا[1]، عند أولى فرقعات الرعد الصاعق بعد الطوفان اختبؤوا من تلقاء أنفسهم في كهوف الجبال، خاضعين لقوّة عليا تصوّروا أنّها جوبيتر، وانذهالهم الذي كان عظيمًا بقدر عظمة كبريائهم وشراستهم، دفعهم إلى الخضوع أمام إله ما[2]. ولا يُمكننا في هذا المسار للأمور البشريّة أن نتصوّر خطّة مغايرة يمكن للعناية الإلهية توخّيها للحدّ من تشرّدهم الحيواني عبر غابة الأرض الكبرى، لتدخل فيهم نظام الأمورالإنسانيّة المدنيّة.

[§ ١٠٩٨] تشكّل إذن عهد جمهوريّات رهباني إن جاز القول، أو إن أردنا، من أسياد منعزلين، تحت حكم *أفضل الأفاضل* (*ottimo massimo*)، طيّب جدّاً، وكبير جدّاً، نحتوه بأنفسهم وآمنوا به حين شاهدوا سطوع البروق، التي من خلالها أشعّ بالنسبة إليهم نور الإله الحقيقي، أي ذلك الذي يحكم العباد. وتبعًا لذلك تصوّروا أنّ كلّ المنافع

---

(١) §§ ٣٦٩-٣٧٣.

(٢) §§ ٣٧٧-٣٧٩.

البشريّة الموفّرة لهم وكلّ المساعدات الممنوحة لهم للإيفاء بحاجياتهم الضروريّة كانت متأتية من الآلهة، لذا خشوها وقدّسوها. وإذ وجدوا أنفسهم بين مكابح قويّة متأتية من معتقدات خرافيّة مريعة وشهواتهم الحيوانيّة الجامحة والتي، سواء كانت الأولى أو الثانية فإنها كانت عند هؤلاء البشر دون شكّ قويّة جدّاً، ولأنّهم كانوا يشعرون بالرعب عند رؤية مظهر السماء وأحسّوا بشيء ما يمنعهم من الاستسلام لممارسة الجنس، فقد بذلوا جهدًا لكبح نزواتهم الشهوانيّة. وهكذا بدؤوا يستعملون الحريّة البشريّة التي تتمثّل في كبح الاندفاع نحو الشهوة الجنسيّة وتحويله نحو اتّجاه آخر، ولأنّه غير متعلّق بالجسد، منبع الشهوات الجنسيّة، فهو ينتمي إلى الفكر، وكذلك إلى ما يمثّل خاصيّة البشر. لذا غيّروا وجهتهم وأمسكوا بالقوّة بالنساء اللاتي هنّ بطبعهنّ خجولات وممتنعات، وجلبوهنّ إلى كهوفهم واستعملوهنّ لغرضهم الخاصّ، محتفظين بهنّ سجينات في مغاورهم وجاعلين منهنّ رفيقاتهم مدى الحياة. بهذه الطريقة، مع المعاشرات الإنسانيّة الأولى، أي العفيفة والدينيّة، أنشؤوا مؤسّسة الزواج وبواسطتها صارت لكلّ منهم زوجة ثابتة، وأنجبوا أبناء ثابتين كانوا هم آباءهم الثابتين. بهذا أسّسوا الأُسَر التي حكموها ممارسين على أبنائهم وزوجاتهم سلطة سياديّة أسريّة جبّارة، كما تتطلّب طبيعتهم الشرسة والمتكبّرة، حيث إنّه حين قامت المُدن، وجد العباد أنفسهم جاهزين لخشية السلطة السياديّة المدنيّة. بهذه الطريقة رتّبت العناية الإلهية بعض الجمهوريّات الاقتصادية (أي الأُسريّة) ذات الشكل الملكي، تحت سلطة الآباء، أمراء هذه الدولة، الذين كانوا الأفضل من حيث الجنس والسنّ والفضيلة. وهؤلاء الآباء، في الحالة التي يجب نعتها بالطبيعيّة، التي هي نفسها الحالة الأُسريّة، تعيّن عليهم أن يشكّلوا الأنظمة الأولى الطبيعيّة، لأنّهم كانوا الأكثر ورعًا وعفّة وقوّة. وحين استقرّوا على أراضيهم ولم يعد بإمكانهم لهذا السبب نفسه الدفاع عن أنفسهم وعن عائلاتهم بالفرار، مثلما كانوا يفعلون في السابق وهم مشرّدون كالحيوانات، كان عليهم أن يقتلوا الحيوانات المفترسة التي تهاجمهم، ولضمان عيشهم وعيش عائلاتهم، تعيّن عليهم أن يستصلحوا الأراضي وأن يزرعوا بها القمح. وكلّ هذا من أجل نجاة الجنس البشري.

[§ ١٠٩٩] بعد فترة طويلة، فإنّ أولئك الذين بعدد كبير بقوا متفرّقين عبر السهول والأودية خرجوا منها بسبب الأذى الذي كان يلحقهم من الشراكة البغيضة للأشياء

والنساء التي واصلوا العيش فيها. كانوا أناسًا كفّارًا لا يخشون الآلهة، وبدون حياء كانوا يمارسون الجنس على طريقة الحيوانات، ولا يتورّعون عن ذلك حتّى مع أمّهاتهم وبناتهم. والضعفاء منهم كانوا يجوبون الأرض مشرّدين وحيدين، يلاحقهم ويهدّد وجودهم الأقوياء العنيفون، بسبب الخصومات التي تنشأ من تلك الشراكة البغيضة. لذا هرعوا للاحتماء بملاجئ الآباء، الذين أخذوهم تحت حمايتهم ووسّعوا بهؤلاء الخدم [*famoli*] ممالكهم الأُسريّة تحت صفة الموالي. بهذه الصفة طوّر الآباء الجمهوريّات على أساس أنظمة طبيعيّة أفضل بحكم الخصال التي كانت دون شكّ بطوليّة. من هذه الخصال الورع، لأنّهم كانوا يعبدون الآلهة، مع أنّ قلّة النور الذي كانوا يملكونه جعلهم يعدّدونها موزّعين إيّاها على آلهات مختلفة، وعلى آلهات شكّلوها بحسب اختلاف طريقة تصوّرهم، كما يستنتج ويؤكّد ذلك ديودورس الصقليّ، وبأكثر جلاء يوسابيوس في كتابه «*في التحضير الإنجيلي*» (*de Praeparatione Evangelica*)، وكذلك كيرلس الإسكندري في *الردّ على يوليانوس المرتدّ*. وبفضل ذلك الورع، كانوا يتوخّون الحذر، ممّا يجعلهم يطلبون نصح الآلهة من خلال النذور. وكانوا معتدلين في أهوائهم، لأنّه لم يكن لكلّ واحد منهم من علاقات إلّا بزوجة واحدة بسبب الحياء، اتّخذوها تحت بشائر الآلهة، رفيقة العمر. وكانت هناك القوّة، التي كانت ضروريّة لهم لقتل الحيوانات البريّة ولفلْح الأرض. وكان لديهم الحِلم، الذي يجعلهم يسعفون الضعفاء ويساعدون من هو في خطر. كانت تلك طبيعة الجمهوريّات الهرقليّة التي كان فيها الأتقياء والحكماء والعفيفون والأقوياء والحليمون يتغلّبون على المتسلّطين ويدافعون عن الضعفاء[1]، وهو الشكل الممتاز للحكومات المدنيّة.

[§ ١١٠٠] إلّا أنّه في النهاية بعد أن صار آباء الأُسر أقوياء بفضل الدين وفضيلة أسلافهم، وكذلك بفضل أعمال مواليهم، بدأوا يحكمون بشدّة هؤلاء الأخيرين مستغلّين شرائع الحماية، وحين خرجوا عن النظام الطبيعي، الذي هو نظام العدل، تمرّد عليهم الموالي. ولكن من دون نظام، أي من دون ربّ، ومن دون رب لا يُمكن للمجتمع البشري أن يصمد ولو لحظة، لذا جعلت العناية الإلهية طبيعيًّا آباء الأُسَر يتّحدون مع أقربائهم لتشكيل نظام ضدّ الموالي الثائرين. ولتهدئتهم، منحوهم أوّل قانون زراعي

---

(١) § ٥٥٣.

عرفه العالم، الذي يمكّنهم من الملكيّة النفعيّة للحقول، محتفظين لأنفسهم بالملكيّة الكاملة أو الملكيّة الأُسريّة السياديّة. ومن هنا نشأت المدن الأولى، المؤسّسة على أنظمة حاكمة تابعة للأشراف[1]. وحين اختفى النظام الطبيعي الذي كان طبقًا لما كانت عليه حالة الطبيعة، الذي يقوم على سموّ النوع والجنس والسنّ والفضيلة، أنشأت العناية، مع هذه المدن، النظام المدني، وفي المقام الأوّل ذلك الذي هو أقرب للطبيعة، أي نظامًا يقوم على نبالة النوع البشري، إذ في ذلك الوضع للأشياء لا يُمكن اعتبار النبل إلّا من خلال الإنجاب بصفة إنسانيّة، بزوجات اتّخذن بتكريس من الآلهة. وقرّرت العناية أيضًا أنّه بمقتضى بطوليّتهم سيكون الأشراف هم الذين يحكمون العامّة، الذين لم يكونوا يعقدون زواجًا تحت رعاية الآلهة بطقوس رسميّة، وبما أنّ الممالك الإلهيّة، التي كانت فيها الأُسَر محكومة بواسطة النذائر الإلهية، لم تعد موجودة، وأنّ الأبطال يجب أن يحكموا بمقتضى شكل الحكومات البطوليّة نفسها، أرادت العناية الإلهية أيضًا أن يكون أساس هذه الجمهوريّات هو الدين المحفوظ داخل الأنظمة البطوليّة، وبمقتضى ذلك الدين فإنّ جميع الشرائع وجميع الحقوق المدنيّة تكون بيد الأبطال فحسب. ولكن، إذ صارت هذه النبالة هبة من الصدفة، فإنّ العناية الإلهية رفعت من بين الأشراف نظام آباء الأُسَر أنفسهم، الذين كانوا بطبيعة الحال الأكثر جدارة من حيث السنّ. ومن بين هؤلاء الأخيرين جعلت ملوكًا عليهم ممّن هم أكثر شجاعة وأكثر صلابة، فهُم الذين وضعتهم على رأس الآخرين لإبقائهم داخل الأنظمة وذلك للصمود أمام الموالي الثائرين عليهم ولبعث الرعب فيهم.

[§ ١١٠١] ولكن بمرور السنين وبتطوّر الأفكار البشريّة دائمًا وبصفة أكثر، أدرك عامّة الشعب شيئًا فشيئًا عدم نجاعة هذه البطوليّة، وثبت لديهم أنّهم من طبيعة بشريّة مساوية لطبيعة الأشراف وعليه أرادوا الدخول هم أيضًا في الأنظمة المدنيّة للمُدن. لذا فإنّ العناية الإلهية، إذ أخذت بالاعتبار أنّ الشعوب ستكون يومًا هي نفسها سيّدة أمرها، جعلت العامّة قبل ذلك يتنافسون طويلا بالورع وبالدين في الصراعات البطوليّة التي كان بيت القصيد فيها هو هل يجب على الأشراف أم لا أن يبلّغوا العامّة نذائر الآلهة، وكذلك أن يمنحوهم كلّ الحقوق المدنيّة العامّة والخاصّة التي كانت تُعتبر لوازم للنذور، وهكذا

(١) §§ ٥٨٢-٥٩٨.

يقود الحرص على الورع وحبّ الدين العامّة أنفسهم ليصبحوا الأسياد في المدن. وفي هذا تقدّم الشعب الروماني على جميع الشعوب الأخرى في العالم، ولهذا السبب صار هذا الشعب السيّد على العالم. وإذ امتزج دائمًا أكثر النظام الطبيعي بالأنظمة المدنيّة، شهدنا نشأة الجمهوريّات الشعبيّة، التي كان كلّ شيء فيها يتوقّف على الصدفة أو على الميزان. لذا فإنّ العناية الإلهية، لتفادي أن تكون الصدفة أو القدر هما الحكَم أمرت أن تكون الضريبة قاعدة الشرف، وبهذا أن يُعتبر الأفضل للحكم النشيطون وليس الخاملون، والمقتصدون وليس المبذّرون، والمتبصّرون وليس اللامبالون، والحليمون وليس ذوو القلوب الشحيحة، وباختصار الأثرياء الذين يملكون بعض الفضائل أو ما يبدو فضيلة، لا الفقراء المليئة أنفسهم بالرذائل المخجلة. من هذه الجمهوريّات المتكوّنة بهذا الشكل - حيث الشعوب بأكملها، التي تتوق جميعها إلى العدل، تُملي قوانين عادلة لأنّها جيّدة بصفة شموليّة، هذه القوانين التي عرّفها أرسطو بعبارة رائعة باعتبارها *إرادة خالية من الأهواء*[1]، أي إرادة أبطال يتحكّمون في أهوائهم - برزت الفلسفة من شكل تلك الجمهوريّات نفسها طامحة إلى خلق البطل، ولخلقه كانت مهتمّة بالحقيقة. لذا دبّرت العناية الإلهية الأمور بالطريقة التالية: بما أنّه لم تعد أفعال الفضيلة تحثّها العاطفة الدينيّة، مثلما كان الحال في السابق، سيكون على الفلسفة أن تعلّم الفضائل من حيث أفكارها، وبفضل هذا التفكير فإنّ البشر حتّى وإن نقصتهم الفضيلة، فعلى الأقلّ سيخجلون من رذائلهم، ذلك أنّها الوسيلة الوحيدة لجعل الميّالين لفعل الشرّ يتمسّكون بالواجب. ودبّرت أن تخرج من الفلسفات الفصاحة، فصاحة هي، لشكل الجمهوريّات الشعبيّة نفسه، شغوفة بالعدالة، والتي بأفكارها نفسها في الفضيلة حثّت الشعوب على سنّ قوانين جيّدة. وقد أزهرت فصاحة من هذا النوع، ونؤكّد ذلك بصفة قاطعة، بروما في زمن شيبيون الإغريقي، في فترة كانت الحكمة المدنيّة والبسالة العسكريّة اللتان أسّستا معا بروما، على أنقاض قرطاج، إمبراطوريّة العالم، تحتّمان بالضرورة نشأة فصاحة قويّة ومفعمة بالحكمة.

[§ ١١٠٢] إلّا أنّ الحكومات الشعبيّة فسدت هي الأخرى، وعليه فسدت معها الفلسفات، التي سقطت في الشكوكيّة، بحيث شاهدنا علماء مجانين أخذوا يكذّبون

---

(١) § ١٠٣٨.

الحقيقة. ظهرت فصاحة زائفة، مستعدّة لمساندة الطرفيْن المتنازعيْن على حدّ سواء في القضايا الخلافيّة، وانجرّ عن ذلك أنّ المواطنين استعملوا خطأ الفصاحة، مثل محامي الشعب (تريبون) في الجمهوريّات الشعبيّة، ولم يكتفوا بجعل الإثراء أساسًا للأنظمة، بل أرادوا استعماله كوسائل قوّة. وهكذا أثاروا مثل زوابع الجنوب العاصفة التي تهيج البحار حروبًا أهليّة في جمهوريّاتهم، وقذفوا بهم في فوضى عارمة، وأسقطتهم من حريّة مثالية إلى طغيان كامل، فأسوأ ما يوجد، هو الفوضى أو الحريّة دون قيود للشعوب الحرّة.

[§ ١١٠٣] وإزاء هذا المرض الفتّاك الذي أصاب المدن فعّلت العناية الإلهية هذه العلاجات الثلاثة العظيمة، حسب ترتيب الأمور المدنيّة التالية.

[§ ١١٠٤] قبل كلّ شيء تدبّرت لتجد لدى هذه الشعوب شخصًا مثل أغسطس، ينهض وينصّب نفسه ملكًا، وبما أنّ كلّ الأنظمة وكلّ القوانين التي سُنّت لضمان الحريّة لم تعد قادرة على تنظيمها وعلى وضع حدود لها، فقد أمسك بين يديْه بكلّ الأنظمة وبكلّ القوانين بقوّة السلاح. ولكنّها بعكس ذلك، تدبّرت أن يحدّ شكل الدولة الملكيّة نفسه من إرادة الملوك، بالرغم من سلطتهم السياديّة اللامتناهية، داخل النظام الطبيعي الذي يريد أن تكون الشعوب سعيدة وراضية بديانتها وبحريّتها الطبيعيّة؛ لأنّه من دون هذا الرضى وهذه السعادة الشاملة للشعوب فإنّ الدول الملكيّة لا تكون دائمة ولا مضمونة.

[§ ١١٠٥] ثمّ إن لم تجد العناية من الداخل علاجًا من هذا النوع، فإنّها ستبحث عنه في الخارج. وبما أنّ شعوبًا بتلك الدرجة من الفساد صاروا بطبيعتهم عبيدًا للأهواء الأكثر جموحًا، من الترف إلى المتعة الراقية ومن البخل إلى الحسد ومن التكبّر إلى البذخ، وبتأثير مُتع حياتهم المنحلّة يستسلمون إلى كلّ الرذائل التي تسكن أحطّ العبيد، كأن يكونوا كاذبين ماكرين منافقين نمّامين سرّاقًا جبناء ومنافقين، دبّرت أن يكونوا عبيدًا بمقتضى حقّ الناس الطبيعي الذي ينشأ من طبيعة الأمم نفسها، الذين بعد الاستحواذ عليهم بقوّة السلاح، يحتفظون بهم في وضع ولايات تابعة لهم. ونرى في هذا سطوع نوريْن كبيريْن من نوع طبيعي: الأوّل هو أنّ الذي لا يقدر على حُكم نفسه بنفسه يترك

أحـدًا آخـر أقدر منـه ليحكمه، والثانـي هو أنّ من يتعيّـن عليهم دائمًـا أن يحكموا العالم يجب أن يكونوا بطبيعتهم أفضل.

[§ ١١٠٦] ولكـن إذا انحلّـت الشـعوب فـي هـذا المـرض المدنـي الأخيـر، فلا تقبـل مـن الداخـل ملـكًا مـن قومهـم، أو إذا لـم تأت من الخـارج أمم أخـرى أفضل تغزوهـم وتحتفـظ بهـم، فـإنّ العنايـة الإلهيـة تلجـأ آنـذاك لآخـر الدواء وهـو الكيّ. هـؤلاء الشـعوب تعـوّدوا بالفعـل، مثـل الحيوانـات، ألا يفكّـروا إلّا فـي المصالـح الخاصّـة لـكلّ واحـد منهم، وبلغوا آخـر درجة مـن المتعة المترفـة، أو بالأحرى من الزهو، مثل الحيوانات الوحشـيّة، ولأقلّ سـوء يصيبهم يغضبون ويصبحون شرسين. وهكذا، وسط التجمّعات الكبرى أو اكتظاظ الأجساد، باتوا يعيشون مثل الحيوانات البريّـة فـي افتقـار عظيـم للعواطـف وللإرادة، وبالـكاد يُمكن لـك أن تعثر مـن بينهم علـى اثنيْـن متوافقيْـن، إذ كلّ واحد منهم يتبع متعته أو نزوته. بسـبب هذا كلّه، دبّرت العنايـة الإلهيـة أن تحـوّل تلـك الشـعوب بفئاتها المتناحـرة وبحروبهـا الأهليّة مدنها إلـى أدغـال، والأدغـال إلـى مغاور بشـريّة. وهكـذا طيلـة قرون مـن الهمجيّة غطّى غـلاف مـن صـدأ الأفـكار الخبيثـة تلـك الأذهـان المنحلّـة وجعلـت منهـم همجيّـة الأفـكار حيوانات أكثر شراسـة مـن همجيّة الحواسّ الأولـى. وبالفعل، هذه الأخيرة كانت تُظهر شراسـة سـخيّة، بالإمكان إزاءها الدفاع عن النفس بالفرار أو بالاحتماء، بينمـا الأخـرى، شراسـة جبانة، ومتحجّبـة وراء التملّق والنفاق، فهـي تتآمر ضدّ حياة وحظـوظ الأصدقـاء الواثقين. والشـعوب التـي بلغت هذا الوضع مـن المكر المبيّت صـاروا مـن الفتور والسـذاجة بالعلاج الأخير الـذي دبّرته لهم العنايـة الإلهية بحيث لـم تعد تمسّ شـعورهم أسـباب الراحة والمُتـع الراقية واللذات والبذخ، بـل تهمّهم فحسـب المنافـع الضروريّـة اللازمة للحياة. والبشـر الأخيرون القليلـون الذين تبقّوا فـي نهايـة الأمـر وجدوا أنفسـهم في قدر وافر من الأشـياء الضروريّـة للعيش، وعليه فقـد تنامـى لديهـم طبيعيّا الحـسّ الاجتماعي. بفضل عودة البسـاطة البدائيّة للشـعب الأوّل فـي العالـم، صـاروا متديّنين صادقين وأوفيـاء، وهي الأسـس الطبيعيّة للعدالة التـي تصنع طيبة وجمال نظام الربّ السـرمدي.

[§ ١١٠٧] هـذه الحقيقـة الحقّة والبسـيطة بخصوص أمور الجنس البشـري جميعه، حتى دون إضافة أيّ شيء ممّا قاله الفلاسفة والمؤرّخون والنحويّون والمشرّعون، تتيح لنـا أن نؤكّـد بكلّ ثبات أنّ تلك هـي المدينة الكبرى للأمم التي أسّسـها وحكمها الربّ. وقد رُفع إلى أوج السّمت باعتبارهم حكماء مشرّعين أمثال ليغوركس وصولون وهيئات *الديسمفير*[لجان الرجال العشرة]، وأشادوا بأعمالهم، لأنّهم ظنّوا أنّهم أسّسوا بأنظمتهم وبشـرائعهم الجيّـدة، المدن الثـلاث الأكثر مجدًا والتي تألّقت بأسـطع وأجمل الخصال المدنيّة، أي إسبرطة وأثينا وروما. ومع ذلك فقد كانت حياة هذه المدن قصيرة ومساحتها محـدودة، بالنظـر إلى عالم الشـعوب، الـذي رتّبته تلـك الأنظمة وحفظته تلك الشـرائع الذي، حتّى في انحلالاته نفسها، يتّخذ أشكال دولة هي وحدها تسمح له بالتماسك أينما وُجـد وبالبقـاء علـى الـدوام. ألا يجب لنا هنا أن نقـرّ بنُصح نابع من حكمة فوق بشـريّة، تنظّم وتقود إلهيًّا مدينة الأمم هذه دون اسـتعمال قوّة القوانين، قوّة مثلما قال عنها ديون السرقوسـي، في *المسلّمات*[1]، تجعل القوانين تبدو مثل الطاغية، بل باسـتعمال عادات البشر أنفسهم وتقاليدهم؟ ذلك أنّ التقاليد البشريّة متحرّرة من كلّ قوّة بقدر تحرّر البشر حين يتبعون طبيعتهم، ممّا يجعل التقاليد، حسب قول ديون السرقوسي، شبيهة بالمَلك، لأنّها تحكم بشغف.

[§ ١١٠٨] وبالفعـل، إن كان صحيحًـا أنّ البشـر صنعوا بأنفسـهم عالم الأمم هذا، كان هـذا المبـدأ الأوّل الـذي لا نقاش فيه في *علمنا هذا*، بعد أن عَدَلنا عن وجوده لدى الفلاسفة والفقهاء، فإنّ هذا العالم نشأ دون شكّ من ذهن في الغالب مختلف، وأحيانًا معاكس تمامًا، ودائمًا أسـمى من الغايات الخصوصيّة التي هدف لها البشـر، واستعمل دائمًا هذه الغايات المحدودة، لتصبح وسائل لبلوغ غايات أوسع نطاقًا، بهدف الحفاظ على العرق البشري على هذه الأرض. وبما أنّ البشر يريدون الاستمتاع باللذة الجنسيّة الحيوانية وترك نسـلهم، خُلقت لهم عفّة الزواج التي جاءت منها الأُسَـر؛ وبما أنّ الآباء يريدون ممارسـة السـلطة الأبويّة السـياديّة على الموالي دون اعتدال، أخضِعوا للسلطة السـيادية المدنيـة، التي نشـأت منهـا المُدن؛ وبمـا أنّ الأنظمة الحاكمة للأشـراف تريد

---

(١) § ٣٠٨.

استغلال حريّة الأسياد على حساب العامّة، وُضعوا تحت سلطة القوانين، التي نشأت منها الحريّة الشعبيّة؛ وبما أنّ الشعوب تريد التخلّص من قيود القوانين، وُضعوا تحت إمرة الملوك؛ وبما أنّ الملوك، لضمان سلطتهم إزاء رعاياهم، يريدون إذلالهم عبر كلّ رذائل الفساد، يُكرهون على تحمّل العبوديّة التي تفرضها أمم أكثر قوّة؛ وبما أنّ الأمم تريد التحلّل من تلقاء نفسها، يُنقذ ما تبقى منها مشتّتًا وحيدًا، ومثل الفينيق تولد من جديد. من فعل كلّ هذا هو ذهن، بما أنّ البشر فعلوا ذلك بذكاء. لم يكن القدر؛ لأنّهم فعلوا ذلك بخيار منهم؛ ولم تكن الصدفة، لأنّهم بفعل ذلك دائمًا، يصلون دائمًا إلى النتائج نفسها.

[§ ١١٠٩] وهكذا يُفنَّد بخصوص الوقائع أبيقور، الذي يتّخذ الصدفة مبدأً، وكذلك اللذان حذيا حذوه هوبّس ومكيافيل؛ ويُفنّد كذلك زينون، ومعه سبينوزا، اللذان اختارا القدر. على عكس ذلك فالوقائع تعمل لصالح الفلاسفة السياسيّين، وأميرهم هو أفلاطون، الذي حدّد أنّ العناية الإلهية هي التي تنظّم أمور البشر[1]. وكان شيشرون على حقّ عندما قال إنّه لا يُمكنه أن يتناقش مع أتيكوس بخصوص الشرائع، إلّا إذا تراجع هذا الأخير عن أفكاره الأبيقوريّة وأقرّ أوّلا بأنّ العناية الإلهية ترتّب شؤون الإنسان. ولم يعتبر بوفاندروف هذه العناية من بين فرضيّاته، وافترضها سالدن، وطرحها جانبًا غروتيوس[2]، ولكن المشرّعين الرومان جعلوها المبدأ الأوّل لحقّ الناس الطبيعي. وبالفعل، فقد برهنّا في هذا العمل بصفة كاملة على أنّه بفضل العناية الإلهية اتّخذت الحكومات الأولى في العالم من الدين شكلها الكامل، وكان الدين الأساس الوحيد الذي قامت عليه منظومة الأُسَر؛ إثر ذلك، بعد المرور إلى الحكومات البطوليّة أو الأرستقراطيّة، كان الدين أساسها الرئيسي القارّ؛ ثمّ بعد المرور إلى الحكومات الشعبيّة، كان الدين نفسه هو الوسيلة التي استعملتها الشعوب لبلوغ الحكم؛ وأخيرًا، حين توقّفنا عند الحكومات الملكيّة، كان الدين هو ترس الأمراء. لهذا السبب، لو افتُقد الدين من عند

---

(١) § ٣٣٥.

(٢) § ٣٩٤.

الشعوب، فلن يبقى لهم شيء للعيش في مجتمع: لن يبقى لهم ترس للدفاع به عن أنفسهم، ولا وسائل للتناصح فيما بينهم، ولا أساس يقومون عليه، ولا أي شكل يثبت وجودهم في العالم.

[§ ١١١٠] فلينظر بايل الآن إن كان من الممكن أن توجد واقعيًا في العالم أمم ليست لها أيّ معرفة بالربّ![1] ولينظر بوليبيوس أيّ حقيقة توجد في قوله إنّه إن كان في العالم فلاسفة، فلا حاجة بأن تكون في العالم أديان![2]. ذلك أنّ الأديان وحدها قادرة على جعل الشعوب تقوم بأعمال فاضلة بواسطة العواطف، التي تحثّ بنجاعة الشعوب على القيام بها، والمبادئ العقلانيّة للفلاسفة بخصوص الفضيلة تصلح فقط كأداة فصاحة جيّدة لتحريك المشاعر ولحملها على اتّباع واجبات الفضيلة. ومع ذلك فهناك فارق جوهريّ بين ديننا المسيحي، الذي هو صحيح، وديانات أخرى لدى شعوب أخرى، غير صحيحة. وبالفعل، في ديننا تعمل الطيبة الإلهيّة لأجل مُلك غير متناه ودائم، لا يمكن أن تدركه الحواسّ، لذا لبلوغه يدفع العقل العواطف للعمل بطريقة فاضلة؛ أمّا الديانات الزائفة فهي، على العكس، تبتغي أملاكا منتهية وقابلة للنفاد في هذه الحياة كما في الحياة الأخرى، حيث ينتظر بعضهم فردوسًا من الملذّات الجسديّة، ممّا يعني أنّ العواطف هي التي تجعل العقل يقوم بأعمال فاضلة.

[§ ١١١١] ولكنّ العناية الإلهية، بحسب نظام الأشياء المدنيّة التي درسناها في هذا العمل، تتجلّى لنا بوضوح تحت شكل ثلاث عواطف، الإعجاب والإجلال اللذيْن شعر بهما إلى الآن جميع العلماء إزاء حكمة القدامى التي لا تساويها حكمة، وفي المحلّ الثالث الرغبة المتوقّدة التي تلهبهم في البحث عنها وبلوغها. وهي ذي بالفعل أنوار ثلاثة تشعّ من ألوهيّتها، أيقظت فيهم العواطف الثلاث الجميلة والحقّة التي ذكرناها لتوّنا، والتي أفسدها غرور العلماء المصاحب لغرور

---

(١) § ٣٣٤.

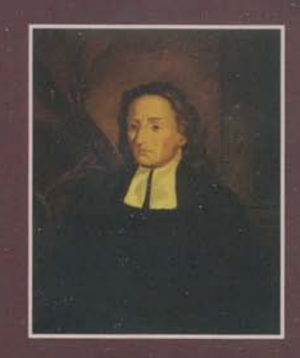
(٢) § ١٧٩.

الأمـم، الـذي سـبق الحديـث عنه فـي المسـلّمات الأولـى[1]، والـذي انتقدنـاه طيلة عملنـا هـذا. وهـذه العواطف تجعـل جميـع العلماء يُعجبـون ويجلّـون ويرغبون في الاتّحاد بحكمة الإلـه اللامتناهية.

[§ ١١١٢] باختصـار، بإمكاننـا أن نسـتخلص من كلّ ما تـمّ عرضه في هذا العمل أنّ هذا *العِلم* يحمل معه بصفة غير قابلة للتجزّئة درسًـا في التقوى، وإن لم نكن أتقياء، فلا يُمكننا أن نكون بحقّ حكماء.

---

(١) §§ ١٢٥، ١٢٧.



العلم الجديد

في الطبيعة المشتركة لكل الأمم

هذا الكتاب الذي يزخر بكنوز المعرفة القديمة ويربطها بالمعرفة الحديثة مرورًا بمخاض القرون الوسطى القاسي والمتوحّش، يتّخذ من التاريخ كتجربة حياتيّة عاشها البشر منذ الطوفان إلى يومنا هذا مصدر إلهامه ومنهج تحليله. بقراءته الجديدة للتاريخ بأساطيره وخرافاته وشخصيّاته الخيالية يصل فيكو إلى قناعته الراسخة بأنّ تلك الأساطير تسرد الحقيقة، وعلينا أن نفهمها وننظر إليها كما كان ينظر إليها الأقوام الذين ابتدعوها أي أنّها الحقيقة الوحيدة التي كان بإمكانهم استيعابها، ولكي ندرك هذه الحقيقة علينا أن ننزل من علياء فكرنا الفلسفي وأن نترك غرورنا المعرفي وأن نكتشف طفولة العالم بالغوص في تلك الطفولة دون التأويلات الخاطئة التي تصنعها فلسفتنا الباطنيّة. بربط تاريخ الإنسان بكلّ المكوّنات التي تؤثّثه والتي تناولها فيكو في الكتاب الثاني حول المعرفة الشعريّة، ميتافيزيقا وأخلاق واقتصاد وكسموغرافيا وفلك وجغرافيا، وبتحليلها من خلال فقه اللغة وعلم الاشتقاق تمكّن المؤلّف من الخروج "بعلم جديد" يصحّح الكثير ممّا سبقه من أخطاء ومن تأويلات اعتباطيّة لا تستند إلى براهين تاريخيّة أو فقهيّة.


ISBN 978-603-91808-6-9

